الجامع لأحكام القرآن

وَالْمُبَيِّنُ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ السُّنَّةِ وَآيِ الفُرْقَانِ

تأليف

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الْقُرْطُبِيِّ

(ت ٦٧١ هـ)

تحقيق

الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي

شارك في تحقيق هذا الجزء

محمد رضوان عرقسوسي

الجزء التاسع عشر

مؤسسة الرسالة

الطبعة الأولى
١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م



وطى المصيطبة - شارع حبيب أبي شهلا - بناية المسكن، بيروت - لبنان
تلفاكس: ٣١٩٠٣٩ - ٨١٥١١٢ فاكس: ٨١٨٦١٥ ص.ب: ١١٧٤٦٠
Al-Resalah
PUBLISHERS
BEIRUT/LEBANON-Telefax:815112-319039 Fax:818615-P.O.Box:117460
Email:Resalah@Cyberia.net.lb

سورة الزخرف

مكيةٌ بإجماع. وقال مقاتل: إلا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وهي تسعٌ وثمانون آيةً[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٢]. وقيل: «حم» قسمٌ، «والْكِتَابِ الْمُبِينِ» قسمٌ ثانٍ، ولله أن يُقسمَ بما شاء، والجوابُ: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»[٣].

وقال ابنُ الأنباري[٤]: مَن جعل جوابَ «وَالْكِتَابِ» «حم» كما تقولُ: نزلَ والله، وَجَب والله؛ وقفَ على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ»، ومَن جعلَ جوابَ القسم «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»؛ لم يقف على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ومعنى: «جَعَلْنَاهُ» أي: سَمَّيناه ووَصفناه[٥]، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين[٦]، كقولهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السُّدِّيّ: أي: أنزلناه قرآناً. مجاهد: قلناه. الزجّاجُ وسفيان الثَّوْري: بَيَّنَّاه. ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسانِ العرب؛

---

(١) الوسيط ٤/ ٦٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠١، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) عند تفسير الآية الأولى من سورة غافر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والنكت والعيون ٥/ ٢١٤.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٣.

(٥) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والبغوي ٤/ ١٣٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧.

لأنَّ كل نبيٍّ أُنزِل كتابُه بلسان قومه؛ قاله سفيانُ الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأنَّ لسان أهلِ السماء عربيٌّ[1]. وقيل: المرادُ بالكتاب جميعُ الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتابَ اسمُ جنس، فكأنَّه أقسم بجميع ما أُنزِل من الكتبِ أنَّه جعلَ القرآنَ عربيًّا. والكنايةُ في قوله: «جَعَلْنَاهُ» ترجعُ إلى القرآن[2] وإن لم يجرِ له ذكرٌ في هذه السورة، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمون أحكامَه ومعانيَه. فعلى هذا القولِ يكون خاصًّا للعرب دونَ العجم؛ قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زيد: المعنى: لعلكم تتفكرون، فعلى هذا يكون خطاباً عامًّا للعرب والعجم[3]. ونُعِت الكتابُ بالمبين؛ لأن الله بيَّن فيه أحكامَه وفرائضَه[4]، على ما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن في اللوحِ المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا[5] ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيعٌ محكم لا يوجد فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال ابنُ جُريج: المرادُ بقوله تعالى: «وَإِنَّهُ»، أي: أعمالُ الخلقِ من إيمانٍ وكفر، وطاعةٍ ومعصية. «لَعَلِيٌّ»، أي: رفيعٌ عن أن يُنال فيبدَّل، «حَكِيمٌ»، أي: محفوظ من نقصٍ أو تغيير[6]. وقال ابن عباس: أَوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ، فأمرَه أن يكتبَ ما يريد أن يَخلُق، فالكتابُ عنده، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٢) الطبري ٢٠/ ٥٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٤٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٣ ، والسمرقندي ٣/ ٢٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٥-٢١٦ .

ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١]. وكسرَ الهمزةَ من «أمِّ الكتاب» حمزةُ والكسائيُّ، وضمَّ الباقون، وقد تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾﴾

قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ يعني: القرآن؛ عن الضَّحاكِ وغيره. وقيل: المرادُ بالذكرِ العذاب، أي: أفنضربُ عنكم العذابَ ولا نعاقبكم على إسرافِكم وكفركم؟ قاله مجاهدٌ وأبو صالح والسُّدّيّ[٣]، ورواه العَوْفي عن ابن عباس. وقال ابنُ عباس: المعنى: أفحسِبتم أن نصفحَ عنكم العذابَ ولمّا تفعلوا ما أُمِرتم به[٤]؟ وعنه أيضاً أنَّ المعنى: أتكذبون بالقرآن ولا تُعاقبون؟ وقال السّدّيّ أيضاً: المعنى: أفنترُكُكم سُدًى فلا نأمُركم ولا نَنهاكم؟ وقال قتادة: المعنى: أفنُهلكُكم ولا نأمُركم ولا ننهاكم؟ وعنه أيضاً: أَفنُمسك عن إنزالِ القرآن من قبلِ أنكم لا تُؤمنون به فلا نُنزله عليكم[٥]؟ وقاله ابن زيد[٦]. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِع حين ردَّته[٧] أوائلُ هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله كرَّره[٨] عليهم برحمته. وقال الكسائي: أَفنطوي عنكم الذكر طَيًّا فلا تُوعَظُون ولا تؤمرون[٩]؟ وقيل: الذِّكرُ: التذكرُ، فكأنه

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٦، وذكره البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) التيسير ص٩٤، والسبعة ص٢٨٨، وسلف ٦/ ١١٩. وكسرُ الهمزة لحمزة والكسائي في قوله: «في أمّ» هو عند الوصل، أما عند الابتداء بـ «أمّ» فبضمّ الهمزة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير مجاهد ٢/ ٥٧٩.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٩، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/٥٤٩-٥٥٠ بنحوه، والكلام في زاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(٧) في النسخ: ردّدته، والمثبت من الطبري ٢٠/ ٥٤٩، والبغوي ٤/ ١٣٤.

(٨) في (م): ردَّده وكرَّره.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

قال: أنترك تذكيرَكم لأنْ كُنتم قوماً مسرفين[١]، في قِراءةِ مَن فَتَح. ومَن كسرَ[٢] جعلَها للشرط وما قبلَها جواباً لها؛ لأنَّها لم تعملْ في اللفظ[٣]. ونظيرُه: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] وقيل: الجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما تقدَّم، كما تقول: أنت ظالمٌ إن فعلت[٤]. ومعنى الكسرِ عندَ الزجاج الحالُ[٥]؛ لأنَّ في الكلامِ معنى التقريرِ والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً؛ يقال: صَفحتُ عن فلانٍ: إذا أَعرضتَ عن ذنبِه، وقد ضربتُ عنه صفحاً: إذا أعرضتَ عنه وتَركته[٦]. والأصلُ فيه صفحةُ العُنق؛ يقال: أَعرضتُ عنه، أي: وَلَّيتُه صفحةَ عنقي. قال الشاعر:

صَفوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلَةً فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ[٧]

وانتصب «صَفْحاً» على المصدر؛ لأنَّ معنى: «أَفَنَضْرِبُ»: أفنصفح[٨]. وقيل: التقديرُ: أَفنضربُ عنكم الذكرَ صافحين، كما يقال: جاءَ فلان مشياً[٩]. ومعنى: ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ مشركين[١٠]. واختار أبو عبيدة الفتحَ في «أن» ـ وهي قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو، وعاصم وابن عامر[١١] ـ قال: لأنَّ الله تعالى عاتَبهم على ما كان منهم، وعَلِمَه قبل ذلك من فعلِهم.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وينظر أمالي ابن الشجري ٣/ ١٦٢.
(٢) وهم: نافع وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٩٥.
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٤٩.
(٤) الوسيط ٤/ ٦٤.
(٥) معاني القرآن للزجاج، ولفظه فيه: ومن كسرَها فعلى معنى الاستقبال. ٤/ ٤٠٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٠٣.
(٦) الصحاح (صفح).
(٧) البيت لكثيّر عزة في ديوانه ص٧٧، وفيه: صفوحٌ بالرفع. وهو برواية المصنف في زاد المسير ٧/ ٣٠٢.
(٨) البيان ٢/ ٣٥٢.
(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٨.
(١٠) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٣.
(١١) السبعة ص٥٨٤. قال الطبري ٢٠/ ٥٥١: الكسر والفتح في الألف في هذا الموضع قراءتان مشهورتان في قرأة الأمصار، صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «كَمْ» هنا خبريةٌ، والمرادُ بها التكثير، والمعنى: ما أكثرَ ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥] أي: ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: لم يكن يأتيهم نبيٌّ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاءِ قومِك بك، يُعزي نبيَّه محمداً ﷺ ويسلِّيه، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوماً أشدَّ منهم قوةً. والكنايةُ في «مِنْهُمْ» ترجعُ إلى المشركين المخاطَبين بقوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً»[١]، فكنَى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نُصِب على الحال. وقيل: هو مفعولٌ، أي: فقد أهلكنا أقوى من هؤلاءِ المشركين في أبدانِهم وأتباعهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم؛ عن قتادة[٢]. وقيل: صفة[٣] الأولين؛ فَخبَّرهم بأنهم أُهلِكوا على كفرهم؛ حكاه النَّقاشُ والمهدوِيُّ[٤]. والْمَثَلُ: الوصفُ والخبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فأقرُّوا له بالخلقِ والإيجاد، ثم عَبدوا معه غيرَه جهلاً منهم[٥]. وقد مضى في غيرِ موضع[٦].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣، والكشاف ٣/ ٤٧٨.

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٤، والطبري ٢٠/ ٥٥٣.

(٣) في (م): صفحة، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٤ عن النقاش.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤.

(٦) ٨/ ٣١٣ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وَصَف نفسَه سبحانه بكمال القدرة، وهذا ابتداءُ إخبارٍ منه عن نفسِه، ولو كان هذا إخباراً عن قولِ الكفارِ لقالَ: الذي جعلَ لنا الأرض ﴿مِهَٰدًا﴾: فراشاً وبساطاً. وقد تقدَّم[١]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً»[٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: معايش. وقيل: طرقاً[٣]، لتَسلُكوا منها إلى حيثُ أردتم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتَستدلون بمقدوراتِه على قدرتِه. وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» في أسفارِكم؛ قاله ابنُ عيسى. وقيل: لعلَّكم تعرفون نعمةَ الله عليكم؛ قاله سعيد بنُ جبير. وقيل: تَهتدون إلى معايشكم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال ابنُ عباس: أي: لا كما أُنزل على قومِ نوحٍ بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدرٍ لا طوفانٌ مغرِقٌ، ولا قاصرٌ عن الحاجة[٥]، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم، ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أَحيينا[٦] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: مُقفِرةً من النبات، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: من قبورِكم؛ لأنَّ مَن قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في «الأعراف» مجوَّداً[٧].

---

(١) ١٤/ ٧٨.

(٢) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٥.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤.

(٧) ٩/ ٢٥٥.

وقرأ يحيى بنُ وثّاب والأعمشُ، وحمزةُ والكسائي، وابنُ ذَكْوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بفتح التاءِ وضم الراء. الباقون على الفعلِ المجهول(١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝١٢ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝١٤﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ أي: واللهُ الذي خلقَ الأزواج. قال سعيدُ بنُ جبير: أي: الأصنافَ كلَّها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوانِ من ذكرٍ وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أرادَ أزواجَ النبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]. وقيل: ما يتقلَّبُ فيه الإنسانُ من خيرٍ وشرّ، وإيمانٍ وكفر، ونفعٍ وضر، وفقرٍ وغنى، وصحةٍ وسقم(٢).

قلت: وهذا القولُ يعمُّ الأقوال كلَّها ويجمعها بعمومه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ﴾: السفن ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر، ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ ذكَّر الكناية؛ لأنه ردَّه إلى ما في قوله: «ما تَرْكَبُونَ»؛ قاله أبو عبيد(٣). وقال الفرَّاء(٤): أضافَ الظهورَ إلى واحدٍ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ، فصار الواحدُ في معنى الجمعِ بمنزلةِ الجيش(٥) والجند، فلذلك ذكَّر وجمع الظهور،

(١) السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤، ووقع في (م) و(د): يخرجون بفتح الياء، وهو خطأ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٧. دون: قول: أراد أزواج النبات، وهو في تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣.

(٣) في زاد المسير ٧/ ٣٠٤: أبو عبيدة.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨.

(٥) في (د) و(ظ): الجنس، والكلام أيضاً بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٦-٥٥٧.

أي: على ظهورِ هذا الجنس.

الثانية: قال سعيدُ بن جبير: الأنعامُ هنا الإبلُ والبقر. وقال أبو معاذ: الإبلُ وحدَها، وهو الصحيحُ؛ لقولهِ عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ راكبٌ بقرةً إذ قالت له: لَمْ أُخلَق لهذا، إنما خُلِقتُ للحرث». فقال النبيُّ ﷺ: «آمنتُ بذلك أنا وأبو بكر وعمرُ». وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورةِ النحل مستوفى. والحمدُ لله[١].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعني به الإبل خاصَّةً بدليلِ ما ذكرنا، ولأنَّ الفُلكَ إنما تُركب بطونُها، ولكنه ذكَرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدِهما. ويحتمل أن يجعلَ ظاهرها باطنها[٢]؛ لأن الماءَ غَمَره وسَتَره، وباطنها ظاهراً[٣]؛ لأنَّه انكشفَ للظاهرين وظهرَ للمبصرين.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: ركبتم عليه، وذِكرُ النِعمةِ هو الحمدُ لله على تسخيرِ ذلك لنا في البرِّ والبحر. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: ذلَّل لنا هذا المركبَ[٤]. في قراءةِ عليّ بن أبي طالب: «سُبْحانَ مَنْ سَخَّرَ لَنا هَذا»[٥]. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين؛ في قولِ ابن عباس والكلبي[٦]. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: «مُقْرِنينَ» ضابطين[٧]. وقيل: مماثلين في

---

(١) ١٢/ ٢٧٧ ، والحديث أخرجه أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة ﷺ. قوله: وما هما بالقوم، أي: ليسا حاضرَيْن، والعبارة عند البخاري ومسلم: وما هما ثَمَّ.

(٢) في النسخ الخطية: باطنهما، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ . والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن: ظاهر.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٥٩ قول ابن عباس.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٢ ، وقول الأخفش في النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

الأَيْد والقوَّة؛ من قولهم: هو قِرنُ فلانٍ، إذا كان مثلَه في القوَّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان، أي: ضابط له. وأَقرنتُ كذا، أي: أَطقتُه. وأَقرنَ له، أي: أَطاقه وقوِيَ عليه، كأنه صارَ له قِرْناً. قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أي: مطيقين. وأنشدَ قُطْرب قولَ عمرو بنِ مَعْد يكَرِب:

لقد علمَ القبائلُ ما عُقيلٌ ... لنا في النائباتِ بمُقرنينا[1]

وقال آخرُ:

رَكبتُم صَعْبَتي أَشَراً وَحَيْفاً ... ولستم للصِّعاب بمقرنينا[2]

والمُقْرِنُ أيضاً: الذي غلبته ضَيعتُه، يكونُ له إبلٌ أو غنمٌ ولا معينَ له عليها، أو يكون يسقي إبلَه ولا ذائدَ له يَذودُها[3]. قال ابنُ السِّكّيت: وفي أصلِه قولان: أحدهما: أنه مأخوذٌ من الإقرانِ، يقال: أقرنَ يُقرنُ إقراناً إذا أطاق. وأقرنتَ كذا: إذا أَطقتَه وحكمتَه، كأنه جعله في قَرَن ـ وهو الحبلُ ـ فأَوثقه به وشدَّه. والثاني: أنَّه مأخوذٌ من المقارنةِ وهو أن يقرنَ بعضَها ببعض في السير. يقال: قَرَنتُ كذا بكذا: إذا ربطتَه به وجعلتَه قرينَه[4].

الخامسة: علَّمنا اللهُ سبحانه ما نقولُ إذا رَكبنا الدَّوابَّ، وعرَّفَنا في آيةٍ أخرى على لسانِ نوح عليه السلام ما نقولُ إذا رَكبنا السفن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١][5] فكم من راكبِ دابَّةٍ عَثَرت به أو شَمَسَت، أو تَقَحَّمت أو طَاحَ من ظهرِها فهلك[6]، وكم مِن راكبين في سفينةٍ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي وهو في ديوانه ص٤٦٢ ، ووقع في (ظ): وحيناً، بدل: وحيفاً، وهي رواية أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢ ، وقال شارح ديوان الكميت: أي: ركبتم أمري، وأشراً: بطراً.

(٣) الصحاح (قرن).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ .

(٦) في (د) و(ظ): فهلكت.

انكسرتْ بهم فغرِقوا، فلمَّا كان الركوبُ مباشرةَ أمرٍ مخطر واتصالاً بسبب[١] من أسبابِ التلفِ؛ أُمِر ألَّا ينسى عندَ اتصالِه به يومَه، وأنه هالكٌ لا محالةَ فمنقلبٌ إلى الله عزَّ وجل غير منفلتٍ من قضائِه، ولا يَدع ذكرَ ذلك بقلبِه ولسانِه حتى يكون مستعدًّا للقاءِ الله بإصلاحِه من نفسِه، والحذر من أن يكونَ ركوبُه ذلك من أسبابِ موتِه في علمِ الله وهو غافلٌ عنه.

حكى سليمانُ بنُ يسار أنَّ قوماً كانوا في سفرٍ، فكانوا إذا ركبوا قالوا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وكان فيهم رجلٌ على ناقةٍ له رَازِمٍ ـ وهي التي لا تتحرَّكُ هُزالاً[٢] ـ فقال: أمَّا أنا فإني لِهذه لَمُقرِنٌ. قال: فقَمَصت به، فدَقَّت عنقَه. ورُوي أنَّ أعرابيًّا ركب قَعوداً له، وقال: إني لَمقرِنٌ له، فركضت به القعودُ حتى صَرَعته، فاندقَّت عنقُه. ذكر الأوَّلَ الماورديُّ، والثانيَ ابنُ العربي[٣]. قال[٤]: وما ينبغي لعبدٍ أن يدعَ قولَ هذا، وليس بواجبٍ ذكره باللسان؛ فيقول متى ركبَ وخاصَّةً في السفرِ إذا تذكَّر: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال[٥]، اللهمَّ إني أعوذُ بك من وَعْثاء السفر، وكآبةِ المنقلَب، والحَوْر بعدَ الكَوْر، وسوءِ المنظر في الأهلِ والمال. يعني بـ«الحَور بعد الكور» تَشتُّتَ أمرِ الرجلِ بعد اجتماعِه.

وقال عمرُو بنُ دِينار: ركبتُ مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحوَ حائطٍ يقالُ لها:

---

(١) في النسخ: أمر محظور واتصالاً بأسباب، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٨٠ والكلام منه.

(٢) وقع بعدها في (ف) و(م) ما نصُّه: الرازم من الإبل: الثابت على الأرض لا يقوم من الهُزال، وقد رَزَمت الناقة ترزُم وترزِم رُزوماً ورُزاماً: قامت من الإعياء والهُزال، فلم تتحرك، فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح. اهـ. وهذا الكلام قد أُقحم في نص هاتين النسختين، فقد وقع حاشيةً في هامش كلٍّ من (ز) و(ك)، ولم يرد في (د) و(ظ).

(٣) الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٨، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٥.

(٤) أي: ابن العربي.

(٥) هو بنحوه عند مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مدركة، فركبَ على جملٍ صَعْبٍ فقلتُ له: أبا جعفر! أَما تخاف أن يصرعَك. فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «على سنامِ كلِّ بعيرٍ شيطانٌ إذا ركبتموها، فاذكروا اسمَ اللهِ كما أَمركم ثم امتهنوها لأنفسِكم، فإنَّما يحملُ الله»[(١)].

وقال عليّ بن ربيعة: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب ركبَ دابةً يوماً فلمَّا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: باسم الله، فلما استوى على الدابةِ قال: الحمدُ لله، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثم قال: الحمدُ لله والله أكبر ـ ثلاثاً ـ اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت؛ ثم ضحكَ، فقلت له: ما أَضحكَك؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ صنعَ كما صنعتُ، وقال كما قلتُ، ثم ضحكَ، فقلت له: ما يُضحِكُك يا رسولَ الله؟ قال: «العبدُ، أو قال: عجباً لعبدٍ أن يقولَ: اللهمَّ لا إلهَ إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. يعلم أنه لا يغفرُ الذنوب غيره». خَرَّجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[(٢)]، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ خُوَيْزِمَنْدَاد في «أحكامه».

وذكر الثعلبيُّ نحوَه مختصراً عن عليٍّ ﷺ، ولفظُه عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «باسمِ الله، فإذا استوى قال: الحمدُ للهِ على كلِّ حال، سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقْرِنينَ وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون. وإذا نَزلتم من الفلكِ والأنعام فقولُوا: اللهمَّ أَنزلنا منزلاً مباركاً وأنتَ خير المنزلين».

وروى ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد قال: مَن ركبَ ولم يقل: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» قال له الشيطانُ: تَغَنَّه؛ فإن لم يحسن قال له: تمنَّه. ذكره النَّحاسُ[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٩) من طريق عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، عن النبي ﷺ، مرسلاً. وأخرجه مرفوعاً أحمد (١٧٩٣٨) (١٧٩٣٩)، من حديث أبي لاس الخزاعي ﷺ، و(١٦٠٣٩)، من حديث حمزة الأسلمي ﷺ.

(٢) برقم (١٣٢)، وهو عند أحمد (١٠٥٦)، والكلام السالف في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٥.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٤٠، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٤.

ويستعيذُ بالله من مقامِ مَن يقول لقرنائه: تعالَوْا نَتنزَّه على الخيلِ أو في بعضِ الزوارق، فيركبونَ حاملينَ مع أنفسِهم أواني الخمرِ والمعازف، فلا يزالون يسقون[١] حتى تُمَلّ طلاهم وهم على ظهورِ الدوابّ، أو في بطونِ السفن وهي تجري بهم، لا يذكرونَ إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامرَه. الزَّمخشريُّ[٢]: ولقد بلغني أنَّ بعضَ السلاطين ركبَ وهو يشرب الخمرَ من بلد إلى بلد بينهما مسيرةُ شهر، فلم يَصْحُ إلا بعدَ ما اطمأنَّت به الدار، فلم يشعرْ بمسيرهِ ولا أحسَّ به؛ فكم بينَ فعلِ أولئك الراكبين، وبينَ ما أمر الله به في هذه الآية؟!

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ أي: عِدْلاً؛ عن قتادة[٣]. يعني: ما عُبِد من دون الله عزَّ وجلَّ. الزجاجُ[٤] والمبرِّدُ: الجزءُ هاهنا البناتُ، عجَّب المؤمنينَ من جهلِهِم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ خالق السماوات والأرض هو اللهُ، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أنَّ من قدرَ على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضدُ به أو يستأنسُ به؛ لأنَّ هذا من صفات النقص. قال الماورديّ: والجزءُ عندَ أهلِ العربية البناتُ، يقال: قد أَجزأتِ المرأةُ: إذا وَلدتِ البناتِ، قال الشاعرُ:

إنْ أَجـزأتْ حُـرَّةٌ يـومـاً فـلا عـجـبٌ قد تُـجزئُ الـحُـرَّةُ الـمِذكـارُ أحيـانـا[٥]

الزمخشري[٦]: ومِن بِدعِ التفاسير تفسيرُ الجزءِ بالإناث، وادِّعاء أنَّ الجزء في لغةِ

---

(١) في (م): يستقون.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وما قبله.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٥، والطبري ٢٠/ ٥٦١.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩. والبيت أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠١ وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، واللسان (جزأ).

(٦) الكشاف ٣/ ٤٨١.

العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العرب، ووضعٌ مستحدَثٌ منحول، ولم يُقنعهم ذلك حتى اشتقُّوا منه: أجزأتِ المرأة، ثم صنعوا بيتاً، وبيتاً:

إنْ أجزأت حرةٌ[١] يوماً فلا عجبٌ

زُوِّجْتُهَا من بناتِ الأوسِ مُجزِئة[٢]

وإنَّما قولُه: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» متصلٌ بقوله: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» أي: ولئن سألتَهم عن خالقِ السماوات والأرض لَيعترفُنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعترافِ من عبادِهِ جزءاً، فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى «مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» أنْ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولدُ بَضْعَةً من والدِه وجزءاً له، وقُرئ «جُزُؤا» بضمتين[٣]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ يعني: الكافر[٤] ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ قال الحسنُ: يَعُدُّ المصائبَ وينسى النعمَ[٥]. «مُبِينٌ»: مظهرٌ الكفرَ.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميمُ صِلةٌ، تقديره: أتخذَ ممَّا يخلقُ بناتٍ كما زعمتم أنَّ الملائكةَ بنات الله؟ فلفظُه لفظُ الاستفهام ومعناهُ التوبيخ. ﴿وَأَصْفَـٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: اختصَّكم وأخلصكم بالبنين[٦]، يقال: أَصفيتُه بكذا، أي: آثرتُه به. وأَصفيتُه الوُدَّ: أَخلصتُه له. وصافيتُه وتصافينا: تَخالصنا[٧]. عَجِبَ من إضافتِهم إلى الله اختيارَ البنات مع اختيارِهم لأنفسهم البنين، وهو مقدَّس عن أن

---

(١) في النسخ الخطية: حمدة، والمثبت من المصادر، وهذا الشطر هو نفسه صدر البيت السالف قبله.

(٢) هو صدر بيت، وعجزه: للعوسج اللَّدْنِ في أبياتها زَجَلُ، وهو في مجالس ثعلب ص١٤٥، واللسان (جزأ)، وصدر البيت هذا والذي قبله في الكشاف ٣/ ٤٨١، والكلام بعده منه.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٦) الوسيط ٤/ ٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥.

(٧) الصحاح (صفا).

يكون له ولدٌ إن توهَّم جاهل أنه اتخذَ لنفسه ولداً، فهلَّا أضافَ إليه أرفعَ الجنسين! ولِمَ جعل هؤلاء لأنفسِهم أشرفَ الجنسين وله الأخسَّ؟ وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بأنَّه وُلِدت له بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صارَ وجهُه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل: ببطلانِ مَثَلِه الذي ضربه. وقيل: بما بُشِّر به من الأنثى[١]، دليلُه في سورة النحل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨].

ومِن حالِهم أنَّ أحدَهم إذا قيل له: قد وُلِدت له أنثى اغتمَّ واربدَّ وجهُه غيظاً وتأسُّفاً وهو مملوءٌ من الكرب. وعن بعضِ العربِ أنَّ امرأتَه وَضعت أنثى، فهجرَ البيتَ الذي فيه المرأةُ، فقالت:

ما لِأبي حمزةَ لا يأتينا ... يَظَلُّ في البيتِ الذي يلينا
غضبانَ ألَّا نلدَ البنينا ... وإنَّما نأخذُ ما أُعطينا[٢]

وقُرِئ: مُسودٌّ، ومسوادٌّ[٣].

وعلى قراءةِ الجماعةِ يكون وجهُه اسمَ «ظلَّ»، و«مُسْوَدًّا» خبرَ «ظَلَّ». ويجوزُ أن يكونَ في «ظَلَّ» ضميرٌ عائد على «أحد» وهو اسمُها، و«وَجْهُهُ» بدل من الضميرِ، و«مُسْوَدًّا» خبر «ظَلَّ». ويجوز أن يكون رُفِعَ «وَجْهُهُ» بالابتداء، ويرفع «مُسْوَدًّا» على أنه

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٢) الرَّجز في الكشاف ٣/ ٤٨٢ وفيه قبل البيت الأخير: ليس لنا من أمرنا ما شينا. وفي البيان والتبيين ١/ ١٨٦ و ٤/ ٤٧. وفيه زيادة على ما أورده المصنف.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري ٣/ ٤٨٢؛ قال: على أن في «ظلَّ» ضمير المبشّر، و«وجهه مسودٌّ» جملة واقعة موقع الخبر. وسيذكر المصنف جواز هذا الوجه لغةً، وذكر ذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٢، ولم يذكرا أنها قراءة.

خبرُه، وفي «ظَلَّ» اسمُها، والجملةُ خبرُها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزين؛ قاله قتادةُ. وقيل: مكروبٌ؛ قاله عكرمة. وقيل: ساكت؛ قاله ابنُ أبي حاتم؛ وذلك لفسادِ مَثَله وبطلانِ حجتِه[١]. ومَن أجازَ أن تكون الملائكةُ بناتِ الله فقد جعلَ الملائكةَ شِبهاً لِله؛ لأنَّ الولدَ من جنس الوالد وشبهه[٢]. ومَنِ اسودَّ وجهُه بما يُضاف إليه ممَّا لا يرضى، أولى من أن يسودَّ وجهُه بإضافةِ مثل ذلك إلى مَن هو أجلُّ منه، فكيف إلى اللهِ عزَّ وجل! وقد مضى في «النحلِ» في معنى هذه الآية ما فيهِ كفايةٌ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨ وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ **فيه مسألتان**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ﴾ أي: يُرَبَّى و يَشِبُّ. والنُّشوءُ: التربيةُ[٤]، يقال: نَشأتُ في بني فلان نَشْئاً ونشوءاً: إذا شَبَبْتَ فيهم، ونُشِّئ وأُنشئ بمعنًى[٥]. وقرأ ابنُ عباس، والضحَّاكُ وابنُ وَثَّاب، وحفصٌ وحمزة، والكسائيُّ وخلف: «يُنَشَّأُ» بضم الياءِ وفتح النونِ وتشديد الشين، أي: يُربَّى ويَكْبَر في الحِلْية. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى. وقرأ الباقون: «يَنْشأ» بفتحِ الياء وإسكان النون[٦]، واختاره أبو حاتم، أي: يرسخُ وينبت[٧]، وأصلُه من نشأَ، أي: ارتفعَ، قاله الهروي. فـ «يُنَشَّأ» متعدٍّ، و«يَنشَأ» لازمٌ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٦٣ قول قتادة.

(٢) بنحوه في زاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٣) ١٢/ ٣٤٠ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٥) الصحاح (نشأ).

(٦) السبعة ص٥٨٤ ، والتيسير ص١٩٦ ، والنشر ٢/ ٣٦٨ .

(٧) في (ظ): يثبت.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: في الزينة. قال ابنُ عباس وغيرُه: هنَّ الجواري زِيُّهن غيرُ زِيِّ الرجالِ. قال مجاهد: رُخِّص للنساءِ في الذهبِ والحرير؛ وقرأَ هذه الآية[١]. قال الكيا[٢]: فيه دلالةٌ على إباحةِ الحُليّ للنساء، والإجماعُ منعقدٌ عليه، والأخبارُ فيه لا تُحصى.

قلت: رُوي عن أبي هريرةَ أنه كان يقول لابنتِه: يا بُنَيَّة، إياكِ والتَّحلِّيَ بالذهب، فإني أخاف عليكِ اللهب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في المجادلة والإدلاءِ بالحُجَّة. قال قتادة: ما تكلمت امرأةٌ ولها حُجةٌ إلَّا جعلَتْها على نفسِها[٤]. وفي مصحف عبدِ الله: «وهو في الكلامِ غيرُ مبين»[٥]. ومعنى الآية: أَيُضاف إلى اللهِ مَن هذا وصفُه؟! أي: لا يجوزُ ذلك.

وقيل: المُنشَّأُ في الحلية أصنامُهم التي صاغُوها من ذهبٍ وفضةٍ وحلَّوها؛ قاله ابنُ زيد والضَّحاكُ[٦]. ويكون معنى: «وَهُوَ فِي الخصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» على هذا القولِ: أي: ساكتٌ عن الجوابِ. و«مَن» في محلِّ نصبٍ، أي: اتخذوا للهِ مَن يُنشَّأ في الحِليةِ[٧]. ويجوزُ أن يكون رفعاً على الابتداءِ والخبرُ مضمرٌ؛ قاله الفراء[٨]. وتقديرُه:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٦٣-٥٦٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ٣٦٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٣٨)، وأحمد في الزهد ص١٩٢ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٠ ، والبيهقي في الشعب (٦١٩١) و(١٠٦٩١) بلفظ: ... لا تلبسي... قال الذهبي في السير ٢/ ٦٢٩ : هذا صحيح عن أبي هريرة، وكأنه كان يذهب إلى تحريم الذهب على النساء أيضاً، أو أن المرأة إذا كانت تختال في لبس الذهب وتفخر، فإنه يحرم، كما فيمن جر ثوبه خيلاء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٥ عن ابن زيد.

(٧) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٤٠ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٩ ، وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٠ .

أَوَ مَن كان على هذه الحالةِ يَستحقُّ العبادة؟ وإن شئتَ قلتَ: خُفِض ردًّا إلى أوّل الكلام، وهو قولُه: «بِما ضَرَبَ»، أو على «ما» في قوله: «مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ»(١). وكون(٢) البدل في هذين الموضعين ضعيف؛ لكونِ ألفِ الاستفهام حائلةً بين البدلِ والمبدَلِ منه.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ قرأ الكوفيون: «عِبَادُ» بالجمع(٣) واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى، ولأنَّ الله تعالى إنَّما كذَّبهم في قولهم: إنَّهم بناتُ اللهِ، فأخبرهم أنَّهم عبيدٌ، وأنَّهم ليسوا ببناتِه. وعن ابن عباس أنَّه قرأ: «عِبادُ الرَّحْمَنِ»، فقال سعيد بنُ جبير: إنَّ في مصحفي: «عند(٤) الرحمن» فقال: امحهُا واكتبها «عِبَادُ الرَّحْمَنِ». وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾(٥) [الأنبياء:٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف:١٠٢]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف:١٩٤].

وقرأ الباقون: «عند الرحمن» بنون ساكنةٍ. واختارَه أبو حاتم(٦). وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف:٢٠٦] وقوله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾(٧) [الأنبياء:١٩]. والمقصودُ إيضاحُ كذبِهم وبيانُ جهلِهم في نسبةِ الأولادِ إلى الله سبحانَه، ثمَّ في تحكُّمِهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ. وذِكرُ العبادِ مدحٌ لهم، أي: كيفَ عَبَدوا مَن هو في نهاية العبادة، ثم كيف حَكموا بأنَّهم إناثٌ من غير دليل. والجعلُ هنا بمعنى القولِ والحُكْم، تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ

---

(١) تفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٢) في (ظ): وكونه.

(٣) وكذا قرأ أبو عمرو. السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٤) في (د) و(م): عبد. وهو خطأ، والكلام بنحوه في إعراب للنحاس ٤/١٠٣.

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٧/٢٠٣.

(٦) قرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر.

الناس، أي: حكمتُ له بذلك[١].

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ أي: أَحضَروا حالةَ خلقِهم حتى حكموا بأنَّهم إناث[٢]. وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ سألَهم وقال: «فما يُدريكم أنَّهم إناثٌ؟» فقالوا: سَمِعنا بذلك من آبائنا؛ ونحن نشهدُ أنَّهم لم يَكْذبوا في أنَّهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: يُسألونَ عنها في الآخرة[٣].وقرأَ نافعٌ: «أَأُشْهِدُوا»[٤] بهمزةِ استفهام داخلةٍ على همزةٍ مضمومةٍ مسهَّلة[٥]، ولا يَمدُّ؛ سوى ما رَوَى المسيَّبي عنه أنه يمدّ[٦]. ورَوى المفضل عن عاصمٍ مثلَ ذلك وتحقُّقَ الهمزتين[٧]. والباقون: «أَشَهِدُوا» بهمزة واحدةٍ للاستفهام[٨]. ورُويَ عن الزُّهري: «أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» على الخبر[٩].

﴿سَتُكْتَبُ﴾ قراءةُ العامةِ بضمِّ التاء على الفعل المجهول، «شَهَادَتُهُمْ» رفعاً. وقرأَ السُّلمِيُّ وابنُ السَّمَيْفَع وهُبيرة عن حفص: «سَنَكْتُبُ» بنون، «شَهَادَتَهُمْ» نصباً بتسمية الفاعل[١٠]. وعن أبي رجاء: «سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ» بالجمع[١١].

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠٧.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٦.

(٥) اختلف رسمها في النسخ، فوقع في (د) و(ز) و(م): أَوُشْهدوا، وفي (ظ) و(ف): أو اشهدوا، والمثبت من (ق).

(٦) هي من رواية ورش عنه، وسهلها قالون مع إدخال ألف بخلف عنه. التيسير ص١٩٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠. وذكر في السبعة ص٥٨٥ رواية المفضل عن عاصم مثل نافع.

(٨) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠.

(١٠) رواية هبيرة عن حفص في جامع البيان ٢/ ٤٠٠.

(١١) نسبها في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠، والقراءات الشاذة ص١٣٥ للحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاءَ الرحمنُ على زعمِكم ما عَبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وكلُّ شيءٍ بإرادة الله، وإرادتُه تجب، وكذا علمُه، فلا يُمكِن الاحتجاجُ بهما[1]؛ وخلافُ المعلومِ والمرادِ مقدورٌ وإن لم يقع. ولو عَبَدوا الله بدلَ الأصنام، لَعلمنا أنَّ الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» عند قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الآية: ١٤٨]، وفي «يس»: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[2] [الآية: ٤٧].

وقولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردودٌ إلى قوله: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً» أي: ما لهم بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله من علم؛ قاله قتادةُ ومقاتلٌ والكلبي[3]. وقال مجاهدٌ وابن جريج: يعني الأوثان[4]، أي: ما لهم بعبادةِ الأوثانِ من علم. «مِن» صِلة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحدِسون ويَكذبون، فلا عذرَ لهم في عبادة غيرِ الله عزَّ وجلَّ. وكان في ضمن كلامِهم أنَّ الله أمَرنا بهذا، أو رضي ذلك منَّا، ولهذا لم يَنْهَنا ولم يُعاجِلنا بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾

هذا معادِلٌ لقوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ». والمعنى: أَحضَروا خلقَهم، أم آتيناهم كتاباً من قَبْله؟ أي: من قبلِ القرآنِ بما ادَّعَوه، فهم به متمسكون يعملون بما فيه!

---

(١) في (م): بها.

(٢) ٩/١٠٢، و١٧/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٦٨ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بنُ عبد العزيز[١]. وكان يقرأ هو ومجاهدٌ وقتادة: «على إِمَّةٍ» بكسر الألف[٢]. والإِمَّةُ: الطريقة[٣]. وقال الجوهري[٤]: والإِمَّة، بالكسرِ: النعمة. والإِمَّةُ أيضاً لغةٌ في الأُمَّة ـ وهي الطريقةُ والدين ـ عن أبي عبيد[٥].

قال عَديُّ بنُ زيد في النعمة:

ثم بعدَ الفَلَاحِ والمُلْكِ والإِمَّـ ـةِ وارتْهُمُ هناك القبورُ

عن غير الجوهري[٦].

وقال قتادةُ وعطية: «على أُمَّةٍ»: على دِينٍ[٧]، ومنه قولُ قيس بنِ الخطيم:

كُنَّا على أُمَّةِ آبائنا ويقتدي الآخِرُ بالأَوَّلِ[٨]

قال الجوهري: والأُمَّةُ: الطريقةُ والدِّين، يقال: فلانٌ لا أُمَّة له، أي: لا دينَ له ولا نِحْلة. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢١.

(٢) نسبها لعمر بن عبد العزيز ومجاهد الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٠، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٤، والطبري ٢٠/ ٥٧٠، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ وزاد نسبتها للجحدري.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، والنكت والعيون ٥/ ٢٢١، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤.

(٤) في الصحاح (أمم).

(٥) في (م)، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥: أبو عبيدة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٧١.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٠، عن ابن عباس وقتادة والسدي.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٢١.

وهـل يـسـتـوي ذو أُمَّـةٍ وكَـفُـورُ[١]

وقال مجاهد وقطرب: على دينٍ، على مِلَّة. وفي بعضِ المصاحف: «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّة». وهذه الأقوالُ متقاربة. وحُكِي عن الفرَّاء: على ملة: على قِبْلة. الأخفشُ: على استقامة، وأنشدَ قولَ النابغة:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـرك لـنـفـسـكَ ريـبـةً وهـل يـأثَـمَـنْ ذو أُمَّـةٍ[٢] وهـو طـائـعُ[٣]

الثانية: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: نهتدي بهم. وفي الآية الأخرى: «مُقْتَدُونُ»، أي: نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون: متَّبِعون[٤]. وفي هذا دليلٌ على إبطال التقليد؛ لِذَمِّه إياهم على تقليدِ آبائهم، وتركِهم النظرَ فيما دَعاهم إليه الرسولُ ﷺ[٥]. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» مستوفًى[٦].

وحكى مقاتلٌ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبةَ وشيبة ابني ربيعة من قريش[٧]، أي: وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلَهم أيضاً. يُعَزِّي نبيَّه ﷺ؛ ونظيره: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]. والمترفُ: المُنْعمُ، والمرادُ هنا الملوكُ والجبابرة.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لقومك: أَوَليسَ قد جئتُكم من عند الله بأهدى، يريد: بأرشدَ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم

(١) الصحاح (أمم).
(٢) قال في اللسان (أمم): ويروى ذو إمة.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢١، والبيت في ديوان النابغة ص٨١، وسلف ٥/ ٢٦٠.
(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٢، وهو في النكت والعيون.
(٥) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩.
(٦) ٣/ ١٦ فما بعد.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١.

بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: بكلِّ ما أُرسِل به الرسل. فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولفظُه لفظُ الجمع؛ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لمن سواه.

وقُرئ: «قُلْ» و«قَالَ»، و«جِئْتُكُمْ» و«جِئْنَاكُمْ» يعني: أتتَّبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دينِ آبائنا لا ننفكُّ عنه وإن جئتنا بما هو أهدى[١]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في التقليد وذمِّه[٢]، فلا معنى لإعادته.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحط والقتل والسَّبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: آخِرُ أمرِ مَن كذَّب الرسل.

وقراءة العامة: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ». وقرأ ابن عامر وحفص: «قَالَ أَوَلَوْ»[٣]، على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنون وألف[٤]، على أنَّ المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي: ذكِّرهم إذ قال ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البَراء يُستعمل للواحد فما فوقه؛ فلا يُثنَّى ولا يجمع ولا يؤنَّث؛ لأنه مصدرٌ وُضع موضعَ النعت[٥]؛ لا يقال: البراءان والبراؤون؛ لأن المعنى: ذو[٦] البراء،

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٤، وسيرد ذكر القراءات.

(٢) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٣) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٦٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٧٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، والكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٦) في (ف): ذوا، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٧/ ٣٠٩، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨.

وذوو البراء.

قال الجوهري[(١)]: وتبرَّأتُ من كذا، وأنا منه بَرآء، وخَلاءٌ منه، لا يثنَّى ولا يجمع؛ لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سَمِع سَماعاً. فإذا قلت: أنا بريءٌ منه وخَليّ، ثَنَّيتَ وجمعت وأنَّثت، وقلتَ في الجمع: نحن منه بُرَآء، مثل: فقيهٌ وفقهاء، وبِراء أيضاً، مثل: كريم وكِرام، وأَبْراء، مثل: شريف وأشراف، وأبرياء، مثل: نصيب وأَنصِبَاء، وبريئون. وامرأةٌ بريئة، وهما بريئتان، وهن بريئاتٌ وبَرايا، ورجلٌ بريء وبُراء، مثل: عجيب وعُجاب. والبَراء، بالفتح: أوّلُ ليلةٍ من الشهر، سُمِّيت بذلك لتبرُّؤ القمرِ من الشمس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصل؛ لأنهم عبدوا اللهَ مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون: اللهُ ربُّنا[(٢)]؛ مع عبادة الأوثان. ويجوز أن يكونَ منقطعاً[(٣)]؛ أي: لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقةً بالله، وتنبيهاً لقومه أنَّ الهداية مِن ربه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ الضمير في «جَعَلَهَا» عائدٌ على قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي». وضمير الفاعل في «جَعَلَهَا» لله عزَّ وجلَّ؛ أي: وجعل اللهُ هذه الكلمةَ والمقالةَ باقيةً في عَقِبه، وهم ولده وولدُ ولده؛ أي: إنهم توارثوا البراءةَ عن عبادة غيرِ الله، وأوصى بعضُهم بعضاً في ذلك. والعَقِبُ مَن يأتي بعده[(٤)]. وقال السُّدِّيُّ: هم آل محمدٍ ﷺ. وقال ابن عباس: قوله: «فِي عَقِبِهِ» أي: في خَلَفه[(٥)]. وفي

(١) في الصحاح (برأ).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٥ ، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨ .

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٦ ، والكشاف ٣/ ٤٨٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢ ، وأخرج القولين الطبري ٢٠/ ٥٧٨ .

الكلام تقديمٌ وتأخير؛ المعنى: فإنه سيهدينِ لعلهم يرجعون وجعلها كلمةً باقية في عقبه، أي: قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله[١].

قال مجاهدٌ وقتادة: الكلمة: لا إله إلا الله؛ قال قتادة: لا يزال من عقبه مَن يعبد اللهَ إلى يوم القيامة[٢]. وقال الضحَّاك: الكلمة: أنْ لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الحج: ٧٨]. القُرَطي: وجَعل وصيةَ إبراهيم التي وصَّى بها بنيه ـ وهو قولُه: ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةُ المذكورة في البقرة [الآية: ١٣٢] ـ كلمَةً باقية في ذُرِّيته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ»، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٤].

وقيل: الكلمة: النبوَّة. قال ابن العربي[٥]: ولم تزل النبوَّةُ باقيةً في ذُرِّيَّة إبراهيم، والتوحيد هم أصلُه، وغيرُهم فيه تَبَعٌ لهم.

الثانية: قال ابن العربي[٦]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولةً بالأحقاب؛ بدعوتَيه المجابتَين، إحداهما في قوله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فقد قال: نعم إلَّا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقيل: بل[٧] الأولى قوله: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فكلُّ أُمة تعظِّمه، بنوه وغيرهم؛ ممن يجتمع معه في سام أو نوح.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: جرى ذِكْرُ العَقِب هاهنا موصولاً في المعنى

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٩ .

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٥٧٦-٥٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢ .

(٤) ذكر القولين البغوي ٤/ ١٣٧ . وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٧٧ قول ابن زيد.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) في أحكام القرآن: وقيل بدل.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦-١٦٧٠ ، وما بين حاصرتين منه.

[بالحِقب]، وذلك مما يدخل في الأحكام وتُرتِّبُ عليه عقودُ العُمْرَى والتحبيس[١].

قال النبيُّ ﷺ: «أيُّما رَجلٍ أُعمِر عُمْرَى له ولعقِبه، فإنها لِلذي أُعطِيَها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛ لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث»[٢].

وهي تَرِد على أحدَ عشَرَ لفظاً:

اللفظ الأول: الولد. وهو عند الإطلاق عبارةٌ عمن وُجد من الرجل وامرأتِه في الإناث والذُّكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغةً وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراثُ على الولد المعيَّن وأولاد الذكور من المعيَّن دون ولد الإناث؛ لأنه من قومٍ آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحُبس بهذا اللفظ؛ قاله مالكٌ في المجموعة وغيرِها.

قلت: هذا مذهبُ مالكٍ وجميعِ أصحابه المتقدِّمين، ومِن حجَّتهم على ذلك الإجماعُ على أنَّ ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ﴾ [النساء: ١١]. وقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنَّ ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس بقول[٣] المُحْبِس: حبستُ على ولدي، أو على عَقِبي. وهذا اختيارُ أبي عمر بنِ عبد البَرّ وغيرِه[٤]؛ واحتجُّوا بقول اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. قالوا: فلما حَرَّم اللهُ البنات فَحَرُمت بذلك بنتُ البنت بإجماع، عُلم أنها بنتٌ، ووجب أن تدخل في حُبْس أبيها إذا حَبَسَ على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» مستوفًى[٥].

---

(١) العمرى: من قولهم: أعمرته الدار عُمرى: أي جعلتها له يسكنها مدة عمره، فإذا مات عادت إلي. والتحبيس: الوقف. النهاية (عمر) (حبس).

(٢) صحيح مسلم (١٦٢٥) من حديث جابر، وسلف ١١/ ١٥١ .

(٣) في (م): يقول.

(٤) الذي قاله ابن عبد البرّ في الكافي ٢/ ١٠١٨ : إذا حبس الرجل على ولده وولد ولده، أو على عقبه وعقب عقبه؛ فلا حقَّ لولد البنات في حُبسه ذلك؛ إلا أن يُسميَهم ويدخلَهم فيه، وإنما ذلك لولده وولد ولده الذكور ما تناسلوا.

(٥) ٨/ ٤٤٧ - ٤٤٨ .

اللفظ الثاني: البنون. فإن قال: هذا حُبْسٌ على ابني؛ فلا يتعدَّى الولدَ المعيَّنَ ولا يتعدَّد. ولو قال: ولدي، لَتعدَّى وتعدَّد في كلِّ مَن ولد. وإن قال: على بَنِيّ، دخل فيه الذكورُ والإناث. قال مالك: مَن تصدَّق على بنيه وبني بنيه، فإنَّ بناتِه وبناتِ بناته يدخلن في ذلك. وروى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته؛ فإنَّ بناتِ بنته يدخلن في ذلك مع بنات صُلْبه. والذي عليه جماعةُ أصحابه أنَّ ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ في الحسن ابنِ ابنته: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[(١)]. قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ أَلَا ترى أنه يجوز نفيُه عنه، فيقول الرجل في ولد بنته: ليس بابني؛ ولو كان حقيقةً ما جاز نفيُه عنه؛ لأن الحقائق لا تُنفى عن مُنتسباتها[(٢)]. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله بنِ عباس: إنه هاشميٌّ وليس بهلالي، وإن كانت أُمُّه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غيرُ صحيح، بل هو ولدٌ على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادةِ فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت مِن قول اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]، فجعل عيسى من ذُرِّيَّته، وهو ابنُ بنته على ما تقدَّم بيانُه هناك[(٣)]. فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتُنا ... بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ[(٤)]

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، وسلف ٥/ ١١٦ .

(٢) في (ف): مشبهاتها، وفي أحكام القرآن: مسمياتها.

(٣) ٨/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ١/ ٣٤٦ ، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٦٦ ، ومغني اللبيب ص٥٨٩ ، والخزانة ١/ ٤٤٤ دون نسبة. قال البغدادي: هذا البيت لا يعرف قائله مع شهرته في كتب النحاة وغيرهم. ورأيت في شرح الكرماني في شواهد شرح الكافية للخبيصي أنه قال: هذا البيت قائله أبو فراس همام الفرزدق بن غالب. والله أعلم بحقيقة الحال.

قيل لهم: هذا لا دليلَ فيه؛ لأن معنى قولِه إنما هو أَنَّ[١] ولد بنيه الذُّكرانِ هم الذين لهم حكمُ بنيه في الموارثة والنسب، وأَنَّ ولد بناته ليس لهم حكمُ بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم يَنْفِ عن ولد البناتِ اسمَ الولد؛ لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقًّا، ولا يريد بذلك نفيَ اسمِ الولدِ عنه، وإنما يريد أن ينفيَ عنه حكمَه. ومَن استدلَّ بهذا البيتِ على أنَّ ولد البنت لا يُسمَّى ولداً، فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوَّل على قائله ما لا يصح؛ إذ لا يمكن أن يُسمَّى ولدُ الابن في اللسان العربيِّ ابناً، ولا يُسمَّى ولدُ الابنة ابناً؛ من أجل أنَّ معنى الولادة التي اشتُقَّ منها اسمُ الولد فيه أَبْيَنُ وأقوى؛ لأن ولد الابنةِ هو ولدُها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولدُه بماله مما[٢] كان سبباً للولادة. ولم يُخرِجْ مالكٌ رحمه الله أولادَ البنات مِن حُبْس مَن حَبَس[٣] على ولده من أجل أنَّ اسم الولد غيرُ واقعٍ عليه عنده في اللسان، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة. وقد مضى هذا في «الأنعام»، والحمدُ لله[٤].

اللفظ الثالث: الذُّرِّيَّة. وهي مأخوذةٌ مِن: ذرأَ اللهُ الخلقَ؛ فيدخل فيه[٥] ولدُ البنات، لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]. وإنما كان من ذريته مِن قِبَل أُمه. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذرية[٦] وفي «الأنعام» الكلامُ على «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» الآية [٨٤][٧]؛ فلا معنى للإعادة.

---

(١) لفظة: أن ليست في (د) و(م).

(٢) في (د) و(ف): فما.

(٣) قوله: من حبس، من (ظ).

(٤) ٨/ ٤٤٧-٤٤٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٧ زيادة: عند علمائنا.

(٦) ٢/ ٣٦٨ .

(٧) ٨/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

اللفظ الرابع: العَقِب. وهو في اللغة عبارةٌ عن شيء بعد شيءٍ كان مِن جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أَعقب اللهُ بخير؛ أي: جاء بعد الشِّدَّة بالرَّخاء. وأعقب الشيبُ السَّواد.

وعَقَب يَعْقُب عُقُوباً وعَقْباً: إذا جاء شيئاً بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه[١].

والمِعْقاب من النساء: التي تلد ذَكَراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولدُ ولدِه الباقون بعده. والعاقبة: الولد؛ قال يعقوب: في القرآن: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ». وقيل: بل الورثة كلُّهم عَقِب. والعاقبة: الولد؛ وكذلك[٢] فسَّره مجاهدٌ هنا. وقال ابن زيد: هاهنا هم الذُّرِّيَّة. وقال ابن شهاب: هم الولد وولدُ الولد. وقيل غيره على ما تقدَّم عن السُّدِّيّ[٣].

وفي الصحاح: والعَقِب، بكسر القاف: مُؤخَّر القدم، وهي مؤنثة. وعقب الرجل أيضاً: ولدُه وولدُ ولدِه. وفيه لغتان: عَقِب وعَقْب، بالتسكين، وهي أيضاً مؤنثة، عن الأخفش. وعَقَبَ فلانٌ مكانَ أبيه عاقبةً، أي: خلفه؛ وهو اسمٌ جاء بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٤] [الواقعة: ٢].

ولا فرق عند أحدٍ من العلماء بين لفظ العَقِب والولد في المعنى. واختُلف في الذُّرِّيَّة والنسل، فقيل: إنهما بمنزلة الولد والعَقِب؛ لا يدخل ولدُ البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلامُ في الذرية هنا وفي «الأنعام».

اللفظ الخامس: نَسْلي. وهو عند علمائنا كقوله: ولدي وولدُ ولدي[٥]؛ فإنه

---

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٧١.

(٢) في (د) و(م): ولذلك، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في المسألة الأولى. وقول ابن زيد وابن شهاب أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٧٨.

(٤) الصحاح (عقب).

(٥) في أحكام القرآن: ولد ولدي، بدل: ولدي وولد ولدي.

يدخل فيه ولدُ البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأنَّ نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يَخُصُّه كما اقترن بقوله: عَقِبي ما تناسلوا.

وقال بعض علمائنا: إنَّ النسل بمنزلة الولد والعقبِ، لا يدخل فيه ولدُ البنات؛ إلَّا أنْ يقول المُحبِس: نسلي ونسلُ نسلي، كما إذا قال: عقبي وعَقِبُ عقبي، وأما إذا قال: ولدي أو عقبي مُفْرَداً، فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس: الآل. وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العَصَبةُ والإخوة والأَخَوات[١] والبنات والعمات؛ ولا يدخل فيه الخالات. وأصل الأهل: الاجتماعُ، يقال: مكانٌ آهِل: إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومَن دخل في العقد[٢]، والعَصَبة مشتقَّةٌ منه، وهي أخصُّ به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أَهْلُكَ! ولا نعلم إلَّا خيراً؛ يعني عائشة[٣]. ولكن لا تدخل فيه الزوجةُ بإجماع وإن كانت أصلَ التأهُّل؛ لأنَّ ثبوتها ليس بيقين، إذ قد يتبدَّل ربطُها وينحلُّ بالطلاق. وقد قال مالك: آلُ محمدٍ كلُّ تقي[٤]؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أنَّ الإيمان أخصُّ من القرابة، فاشتملت عليه الدَّعوةُ وقُصد بالرحمة.

وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كلُّ مَن كان من جهة الأبوين. فوفَّى الاشتقاقَ حقَّه، وغَفَلَ عن العُرف ومطلقِ الاستعمال. وهذه المعاني إنما تُبنى

---

(١) قوله: والأخوات ليس في (د) و(ظ) و(م).

(٢) كذا في النسخ الخطية وأحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨ ، والكلام منه، وبعدها في (م): من النساء. وقد ذكر أبو الوليد الباجي في المنتقى ٦/ ١٢٤ كلام ابن القاسم ثم قال: ومعنى ذلك عندي العصبة، أو من كان في قُعْددهنَّ من النساء. والقُعْدُد: الأقرب إلى الأب الأكبر. المصباح المنير (قعد).

(٣) القائل أسامة بن زيد ﷺ كما في البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠). وقد سلف ١/ ٣٩٩ .

(٤) ذكره عنه ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨ . وقد أخرجه مرفوعاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٨٧ ، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥١٣ ، والبيهقي ٢/ ١٥٢ من طريق نافع السلمي، عن أنس ﷺ. قال البيهقي: وهذا لا يحل الاحتجاج بمثله. وأخرجه الطبراني في الصغير (٣١٨)، والأوسط (٣٣٥٦) من طريق نوح ابن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس. قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٦١ : سنده واهٍ جداً.

على الحقيقة، أو على العرف المستعملِ عند الإطلاق، فهذان لفظان.

اللفظ الثامن: قرابة. فيه أربعة أقوال:

الأوّل: قال مالكٌ في كتاب محمدٍ وابنِ[(١)] عَبْدوس: إنهم الأقربُ فالأقربُ بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولدُ البنات ولا ولدُ الخالات.

الثاني: يدخل فيه أقاربُه من قِبَل أبيه وأُمِّه؛ قاله علي بنُ زياد.

الثالث: قال أشهب: يدخل فيه كلُّ رَحِمٍ من الرجال والنساء.

الرابع: قال ابن كِنَانة: يدخل فيه الأعمامُ والعمَّات والأخوال والخالات[(٢)] وبنات الأخت.

وقد قال ابن عباس في تفسير قولِهِ تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣] قال: إلَّا أنْ تَصِلوا قرابةَ ما بيني وبينكم؛ وقال: لم يكن بطنٌ من قريشٍ إلا كان بينه وبين النبيِّ ﷺ قرابة[(٣)]. فهذا يَضبِطه، والله أعلم.

اللفظ التاسع: العشيرة. ويضبِطه الحديثُ الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤] دعا النبيُّ ﷺ بطونَ قريشٍ وسمَّاهم، كما تقدَّم ذِكْرُه[(٤)]، وهم العشيرة الأقربون، وسِوَاهم عشيرةٌ في الإطلاق. واللفظ يُحمل على الأخصِّ الأقربِ بالاجتهاد، كما تقدَّم مِن قول علمائنا.

اللفظ العاشر: القوم. يُحمل[(٥)] ذلك على الرجال خاصَّةً من العَصَبة دون النساء. والقوم يشمل الرجالَ والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

---

(١) لفظة: و، ليست في (م).

(٢) في بعض النسخ الخطية من أحكام القرآن (كما في حواشيه) زيادة: وبنات الأخ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٤)، والبخاري (٣٤٩٧).

(٤) ١٦/ ٨٣.

(٥) قبلها في المطبوع من أحكام القرآن: قال القرويون.

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آل حِصْنٍ أم نساءُ[١]

ولكنه أراد أنَّ الرجل إذا دعا قومه للنُّصرة، عنى الرجال، وإذا دعاهم للحُرْمة، دخل فيهم الرجالُ والنساء؛ فتَعُمُّه الصفة وتخصِّصه القرينة.

اللفظ الحادي عشر: المَوَالي. قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنِه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولادُ مواليه.

قال ابن العربي[٢]: والذي يتحصَّل منه أنه يدخل فيه مَن يرثه بالوَلاء؛ قال: وهذه فصولُ الكلام وأصولُه المرتبطةُ بظاهر القرآن والسنة المبيِّنة له؛ والتفريعُ والتتميم في كتب[٣] المسائل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ وقُرئ: «بَلْ مَتَّعْنا»[٤]. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالإمهال. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: محمدٌ ﷺ بالتوحيد والإسلامِ الذي هو أصلُ دين إبراهيم؛ وهو الكلمة التي بقَّاها اللهُ في عقِبه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يبيِّن لهم ما بهم إليه حاجة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون[٥].

---

(١) سلف ٢/ ١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ ، وما قبله منه.

(٣) المثبت من (ف) وأحكام القرآن، وفي باقي النسخ: كتاب.

(٤) هي قراءة الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦ .

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ﴾ أي: هلَّا نزل ﴿هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وقرئ: «على رَجْل» بسكون الجيم. ﴿مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: من إحدى القريتَين؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما[١]. أو على أحدِ رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الله بن عمر ابن مخزوم عمُّ أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بنُ مسعود الثقفي؛ قاله قتادة. وقيل: عمير بنُ عبد ياليل الثقفي من الطائف، وعتبة بنُ ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أنَّ عظيم الطائف حبيب بنُ عمرٍو الثقفي. وقال السُّدِّيّ: كنانة بنُ عبد بنِ عمرو. وروي أنَّ الوليد بنَ المغيرة ـ وكان يُسمى ريحانةَ قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ حقًّا، لنزل عليَّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٢] يعني النبوَّةَ فيضعونها حيث شاؤوا![٣]

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: أَفْقَرنا قوماً وأغنينا قوماً؛ فإذا لم يكن أمرُ الدنيا إليهم؛ فكيف نفوِّض أمرَ النبوَّة إليهم؟ قال قتادة: تَلْقاه ضعيفَ القوَّة قليلَ الحيلة عَيِيَّ اللسان وهو مبسوطٌ له، وتلقاه شديدَ الحيلة بسيطَ اللسان وهو مُقتَّرٌ عليه[٤].

وقرأ ابن عباس ومجاهدٌ وابن مُحَيْصِن في رواية عنه: «مَعَايِشَهُمْ»[٥]. وقيل: أي: نحن أعطينا عظيمَ القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليَّ، وأنا قادرٌ على نزع النِّعمةِ عنهما، فأيُّ فضلٍ وقَدْرٍ لهما؟!

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: فاضَلْنا بينهم، فمن فاضلٍ ومفضول

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٥ . وقراءة «رَجْل» بسكون الجيم شاذة.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٠-٥٨٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٤-٥٨٥ .

(٥) ذكر القراءة عن ابن عباس ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرِّق؛ فبعضهم مالِكٌ وبعضهم مملوك. وقيل: بالغِنى والفقر؛ فبعضُهم غنيٌّ وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١).

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قال السُّدِّيُّ وابن زيد: خَوَلاً وخُدَّاماً، يسخِّر الأغنياءُ الفقراءَ، فيكون بعضُهم سبباً لمعاشِ بعض. وقال قتادة والضحاك: يعني ليملكَ بعضُهم بعضاً(٢). وقيل: هو من السُّخرِيَّة التي بمعنى الاستهزاء؛ أي: لِيستهزئَ الغنيُّ بالفقير(٣). قال الأخفش: سَخِرت به وسَخِرت منه، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهزِئت منه وبه؛ كلٌّ يقال، والاسم: السُّخرِيَّة، بالضم؛ والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيّ، بالضمِّ والكسر(٤). وكلُّ الناس ضمُّوا «سُخْرِيًّا» إلا ابنَ مُحَيْصِن ومجاهداً، فإنهما قرأا: «سِخْرِيًّا»(٥).

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أفضل ممَّا يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة: النبوَّة، وقيل: الجنة. وقيل: تمامُ الفرائض خيرٌ من كثرة النوافل. وقيل: ما يَتفضَّل به عليهم خيرٌ مما يجازيهم عليه من أعمالهم(٦).

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قال العلماء: ذَكَرَ حقارةَ الدنيا وقلَّةَ خطرها، وأنها عنده من الهوان

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣.
(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٥٨٥-٥٨٦ بنحوها.
(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٧.
(٤) الصحاح (سخر)، وكلام الأخفش فيه.
(٥) ذكر قراءة ابن محيصن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤.

بحيث كان يَجعل بيوتَ الكَفَرةِ ودَرَجها ذهباً وفِضَّةً لولا غلبةُ حبِّ الدنيا على القلوب؛ فيَحمِلُ ذلك على الكفر[١].

قال الحسن: المعنى: لولا أنْ يكفُرَ الناسُ جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركِهم الآخرةَ، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لِهوان الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين، ابنُ عباس والسُّدِّيُّ وغيرهم.

وقال ابن زيد: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» في طلب الدنيا واختيارِها على الآخرة «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سقُفُاً مِنْ فِضَّةٍ»[٢].

وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكونَ في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مِثلُ ذلك، لأعطينا الكفارَ من الدنيا هذا لهوانها.

الثانية: قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: «سَقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ومعناه الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]. وقرأ الباقون بضمِّ السينِ والقافِ على الجمع[٣]؛ مثل: رَهْن ورُهُن. قال أبو عبيد[٤]: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل: كَثِيب وكُثُب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سُقُوف، فيصير جَمْعَ الجمع[٥]؛ سَقْف وسُقُوف، نحو: فَلْس وفُلُوس. ثم جعلوا فُعولاً كأنه اسمُ واحد، فجمعوه على فُعُل.

وروي عن مجاهد: «سَقْفاً» بإسكان القاف[٦].

وقيل: اللام في «لِبيُوتِهِمْ» بمعنى على، أي: على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٠ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٥٨٩ .

(٤) في تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ والكلام منه: أبو عبيدة.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

تقول: فعلت هذا لزيدٍ لكرامته؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: ١١] كذلك قال هنا: ﴿لَّجَعَلۡنَا لِمَن يَكۡفُرُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ لِبُيُوتِهِمۡ﴾[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدَّرَج؛ قاله ابن عباس، وهو قولُ الجمهور. واحدها مِعراج[٢]، والمِعراج: السُّلَّم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع: معارج ومعاريج؛ مثل: مفاتح ومفاتيح[٣]؛ لغتان.

«وَمَعَارِيجَ» قرأ أبو رجاء العُطَارِدِيُّ وطلحة بنُ مُصَرِّف[٤]؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفش: إن شئتَ جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج؛ مثل: مِرقاة ومَرقاة[٥].

﴿عَلَيۡهَا يَظۡهَرُونَ﴾ أي: على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهرت على البيت، أي: علوتُ سطحَه. وهذا لأنَّ مَن علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء، أي: عَلِمْته. وظهرت على العدوّ، أي: غلبته.

وأنشد نابغةُ بني جَعْدَةَ رسولَ الله ﷺ قولَه:

عَلَوْنا السماءَ عِزَّةً ومَهابةً ... وإنَّا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٦]

أي: مصعداً؛ فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: «إلى أين؟» قال: إلى الجنة؟، قال: «أجل إن شاء الله»[٧].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤ ، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ٢٠/ ٥٩٠-٥٩١ .

(٣) الصحاح (عرج).

(٤) قراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٥ . والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٥) الصحاح (عرج).

(٦) ورد البيت في الديوان ص٥١ و ٦٨ في قصيدتين، في الأولى براوية: بلغنا السماء مجدنا وجدودنا، وفي الثانية: بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً.

(٧) أخرجه البزار (٢١٠٤ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٢٦ : فيه يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. اهـ . ورواية البيت فيه: علونا العباد عفة وتكرماً.

قال الحسن: واللهِ لقد مالت الدنيا بأكثرِ أهلِها وما فَعَلَ ذلك! فكيف لو فعل؟![١]

الرابعة: استدلَّ بعض العلماء بهذه الآيةِ على أنَّ السقف لا حَقَّ فيه لربِّ العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السقوفَ للبيوت كما جعل الأبوابَ لها. وهذا مذهبُ مالكٍ رحمه الله.

قال ابن العربي[٢]: وذلك لأنَّ البيت عبارةٌ عن قاعة وجدار وسقف وباب، فمَن له البيتُ، فله أركانه. ولا خلاف أنَّ العُلْوَ له إلى السماء. واختلفوا في السُّفل؛ فمنهم مَن قال: هو له، ومنهم مَن قال: ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان. وقد بيَّن حديثُ الإسرائيليِّ الصحيحِ ـ فيما تقدَّم ـ أنَّ رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جَرَّةً مِن ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريتُ الدارَ دون الجرَّة، وقال البائع: إنما بِعتُ الدار بما فيها، وكلاهما[٣] تدافعها. فقُضي بينهم[٤] أنْ يزوِّجَ أحدُهما ولدَه مِن بنت الآخرَ ويكون المال لهما[٥]. والصحيح أنَّ العُلْو والسُّفل له، إلَّا أنْ يَخرُجَ عنهما بالبيع، فإذا باع أحدُهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به، وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة: مِن أحكام العُلْو والسُّفل: إذا كان العُلْوُ والسُّفلُ بين رجلين، فيعتلُّ السُّفلُ أو يريد صاحبُه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحبُ السُّفل أن يَهدِم، أو أراد صاحبُ العلو أن يبني عُلْوَه، فليس لصاحب السفل أن يهدم إلَّا مِن ضرورة، ويكون هدمُه له أرفقَ لصاحب العلو؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو،

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٣) في النسخ: وكلهم، والمثبت من أحكام القرآن.

(٤) في النسخ زيادة: النبي ﷺ.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٨١٩١)، والبخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وليس لربِّ العلو أن يبنيَ على عُلْوه شيئاً لم يكن قبل ذلك، إلا الشيءَ الخفيفَ الذي لا يَضُرُّ بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبةٌ من سقف العلو، لَأَدخلَ مكانَها خشبةً ما لم تكن أثقلَ منها ويُخافُ ضررُها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السُّفلُ أُجبر صاحبُه على بنائه، وليس على صاحب العُلْوِ أن يبنيَ السُّفل؛ فإن أبى صاحبُ السُّفل من البناء، قيل له: بِعْ ممن يبني.

وروى ابن القاسم عن مالكٍ في السُّفل لرجل والعلوِ لآخَر، فاعتلَّ السُّفل، فإنَّ صلاحه على ربِّ السُّفل، وعليه تعليقُ العُلْوِ حتى يُصلِحَ سُفلَه؛ لأن عليه: إمَّا أن يَحمِلَه على بنيان، أو على تعليق، وكذلك لو كان على العُلو عُلْوٌ، فتعليق العُلوِ الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إنَّ تعليق العُلو الثاني على ربِّ العُلو حتى يبنيَ الأسفل[1].

وحديث النعمان بنِ بشير عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقعِ فيها كمثل قومٍ اسْتَهَمُوا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء، مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا. فإنْ يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً. وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»[2] أصلٌ في هذا الباب. وهو حُجَّةٌ لمالكٍ وأشهب. وفيه دليلٌ على أنَّ صاحب السفل ليس له أن يُحدِثَ على صاحب العُلْوِ ما يَضرُّ به، وأنه إن أحدث عليه ضرراً؛ لَزِمه إصلاحُه دون صاحبِ العُلو، وأنَّ لصاحب العُلو منعَه من الضرر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» ولا يجوز الأخذُ إلَّا على يد الظالم أو مَن هو ممنوعٌ من إحداث ما لا يجوز له في السُّنة.

وفيه دليلٌ على استحقاق العقوبةِ بترك الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وقد

(١) ينظر النوادر والزيادات ١١/ ٢٢٧، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٤٣.

(٢) سلف ٩/ ٤٨٧.

مضى في «الأنفال»[١].

وفيه دليلٌ على جواز القُرعةِ واستعمالِها، وقد مضى في «آل عمران»[٢]. فتأمَّل كُلًّا في موضعه تجدْه مبيَّناً، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ۝٣٤ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝٣٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا﴾ أي: ولَجعلنا لبيوتهم. وقيل: «لِبُيُوتِهِمْ» بدلُ اشتمالٍ مِن قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣]. «أبواباً» أي: مِن فضة. ﴿وَسُرُرًا﴾ كذلك؛ وهو جمع السَّرير[٤]. وقيل: جمع الأَسِرَّة، والأسِرَّة جمعُ السرير، فيكون جمعَ الجمع[٥].

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاء والتَّوكُّؤ: التحامل على الشيء[٦]؛ ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨]. ورجل تُكَأة، مثال هُمَزَة: كثير الاتِّكاء. والتُّكَأة أيضاً: ما يُتَّكأ عليه. واتَّكأ على الشيء فهو متَّكِئ؛ والموضع متَّكأ. وطعنه حتى أتكأه، على أَفْعَلَه، أي: ألقاه على هيئة المُتَّكِئ. وتوكَّأت على العصا. وأصلُ التاء في جميع ذلك واو[٧]، ففُعِل به ما فُعِل بـ: اتَّزن واتَّعد.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيرِه[٨]. نظيرُه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ

---

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) ٥/ ١٣٢.

(٣) مضى في المسألة الثانية من الآية السابقة.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٧.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٧) الصحاح (وكأ).

(٨) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢٠/ ٥٩٢-٥٩٣.

﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣](١) وقد تقدَّم(٢). وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناسُ في منازلهم من الأمتعة والأثاث(٣). وقال الحسن: النقوش(٤)؛ وأصله الزينة. يقال: زخرفت الدار، أي: زيَّنتها. وتزخرف فلان، أي: تزيَّن(٥). وانتصب «زُخْرُفاً» على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى: لَجعلنا(٦) لهم سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً من فضة ومِن ذهب؛ فلما حَذف «مِن»، قال: «وزخرفاً» فنصب.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصمٌ وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف(٧)؛ وقد ذُكر هذا. وروي عن أبي رجاءٍ كسرُ اللام من «لما»؛ فـ «ما» عنده بمنزلة الذي، والعائدُ عليها محذوف، والتقدير: وإنْ كلُّ ذلك لِلذي هو متاعُ الحياةِ الدنيا(٨)، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه في قراءة مَن قرأ: ﴿مَثَلًا مَّا بعوضةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾(٩) [البقرة: ٢٦] و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

أبو الفتح: ينبغي أنْ يكونَ «كُلُّ» على هذه القراءةِ منصوبةً؛ لأنَّ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وهي إذا خُفِّفت وبطَلَ عملُها، لَزِمتها اللامُ في آخر الكلام؛ للفرق بينها وبين «إن» النافيةِ التي بمعنى «ما»؛ نحو: إنْ زيدٌ لقائم، ولا لامَ هنا سوى الجارَّة(١٠).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٣٨.

(٢) ١٣/ ١٧٦.

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٥.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٦٧٢.

(٦) في (د) و(م): فجعلنا. وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩.

(٧) وهو الوجه الثاني لهشام. السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٩٦.

(٨) المحتسب ٢/ ٢٥٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤.

(٩) أي: ما هو بعوضة. المحتسب ٢/ ٢٥٥، وهي قراءة شاذة، وينظر ١/ ٣٦٥.

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٥٥. وقال ابن جني بعد ذلك: ولو جاءت معها لوجب أن تقول: وإنْ كلُّ ذلك لَلِما =

﴿وَٱلْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يريد: الجنةُ لمن اتَّقى وخاف.

وقال كعب: إني لَأجد في بعض كتبِ الله المنزلة: لولا أنْ يَحْزَن عبدي المؤمن، لكلَّلتُ رأسَ عبدي الكافرِ بالإكليل، ولا يتصدَّعُ ولا يَنبِض منه عِرْقٌ بوجع[1].

وفي صحيح الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمن وجَنة الكافر»[2]. وعن سهل بنِ سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جَناحَ بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء». وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديثٌ صحيح[3] غريب[4].

وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ إذاً لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامةً وقد شَبِعت فيها بطونُ البهائمِ

وقال آخر[5]:

تَسَمَّعْ[6] من الأيام إن كنت حازماً فإنَّك فيها بين ناهٍ وآمِرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه فما فاته منها فليس بضائرِ
فلا تَزِنُ الدنيا جناحَ بعوضةٍ ولا وزنَ زِفٍّ[7] من جَناحٍ لطائرِ

= متاعُ الحياة الدنيا. وقال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٩/ ٥٨٦ : كان الوجه أن تدخل اللام الفارقة لعدم إعمالها، إلا أنها لما دلَّ الدليل على الإثبات جاز حذفها.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٩٧ عن معمر، عن أبان.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٤)، وهو عند أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦).

(٣) في (د) و(م): حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٣٢٠). وسلف ٨/ ٣٦٢ .

(٥) هو أبو العتاهية، وقد سلفت الأبيات ٨/ ٣٦٣ باختلاف يسير.

(٦) في (م): تمتع.

(٧) في (د) و(ز) و(م): رق، وفي (ظ): زق، والمثبت من الموضع السالف للأبيات. والزف: صغار ريش النعام، أو كل طائر. القاموس (زفف).

فلم يرضَ بالدنيا ثواباً لمحسنٍ ولا رَضِيَ الدنيا عقاباً لكافرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباسٍ وعكرمة: «ومَن يَعْشَ» بفتح الشين[١]، ومعناه: يعمَى؛ يقال منه: عَشِيَ يَعْشَى عَشاً: إذا عَمِيَ. ورجلٌ أعشى وامرأةٌ عشواء: إذا كان لا يُبصر؛ ومنه قولُ الأعشى:

رأتْ رجلاً غائبَ الوافِدَيْـ ـنِ مختلِفَ الخَلْقِ أعْشَى ضريرا[٢]

وقولُه:

أَأَنْ رأتْ رجلاً أعشى أضَرَّ به رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ[٣]

الباقون بالضم؛ مِن: عشا يعشُو: إذا لَحِقَه ما يلحق الأعشى[٤].

وقال الخليل: العَشْو هو النظر ببصرٍ ضعيف؛ وأنشد:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[٥]

وقال آخر:

لَنِعمَ الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريحُ هبَّت والمكانُ جديبُ[٦]

(١) قراءة ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٢) ديوان الأعشى ص١٤٥ . والوافد: المرتفع من الخد عند المضغ. ومن شاب غاب وافداه. القاموس (وفد).

(٣) سلف ٥/ ١٧٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

(٥) البيت للحطيئة، وسلف ٤/ ٤٩١ . وكلام الخليل في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ ، وينظر كتاب العين ٢/ ١٨٧ .

(٦) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٤٨ . قال شارحه: الشطر الثاني يعني في الشتاء والجدب.

الجوهريّ: والعَشَا ـ مقصور ـ مصدرُ الأعشى، وهو الذي لا يُبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه اللهُ فعَشِيَ ـ بالكسر ـ يَعْشَى عَشًا، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا: يَعْشَوان؛ لأن الواو لمَّا صارت في الواحد ياءً لكسرة ما قبلها، تُركت في التثنية على حالها. وتعاشَى: إذا أرى مِن نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ. وإلى العَشِيَّة عَشَوِيّ. والعشواء: الناقة التي لا تُبصر أمامها؛ فهي تَخْبِط بيديها كلَّ شيء. ورَكِبَ فلانٌ العشواء: إذا خَبَط أمرَه على غير بصيرة. وفلانٌ خابطٌ خَبْطَ عشواء[(١)].

وهذه الآية تتصل بقوله أوَّلَ السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الآية: ٥] أي: نواصل لكم الذِّكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكرِ بالإعراض عنه إلى أقاويل المضِلِّين وأباطيلِهم «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً» أي: نسبِّبْ له شيطاناً جزاءً له على كفره «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» قيل: في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قولِ ابنِ عباس[(٢)].

وقيل: في الآخرة إذا قام مِن قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْرِي.

وفي الخبر: أنَّ الكافر إذا خرج من قبره، يُشْفَعُ بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأنَّ المؤمن يُشْفع بملَك حتى يقضيَ اللهُ بين خلقه؛ ذكره المهدويّ[(٣)].

وقال القُشيري: والصحيح: فهو له قرينٌ في الدنيا والآخرة.

وقال أبو الهيثم والأزهري: عَشْوتُ إلى كذا، أي: قصدته. وعشوت عن كذا، أي: أعرضت عنه، فتفرِّق بين «إلى» و«عن»؛ مثل: ملْتُ إليه، ومِلْتُ عنه[(٤)]. وكذا

---

(١) الصحاح (عشو).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٩ عن سعيد الجُريري بنحوه، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ لسعيد بن جبير.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٥٥-٥٦ .

قال قتادة: يَعْشُ: يُعْرِض؛ وهو قول الفراء[(١)].

النحاس[(٢)]: وهو غيرُ معروفٍ في اللغة. وقال القُرَظي: يولّي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه [عنه][(٣)].

وأنكر القُتَبيُّ[(٤)] عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب: تعاشيت. والقول قول أبي الهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة.

وقرأ السُّلَمِيُّ، وابن أبي إسحاق، ويعقوبُ، وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش: «يقيِّض» بالياء؛ لِذِكر «الرَّحْمَن» أوّلاً؛ أي: يقيِّض له الرحمنُ شيطاناً[(٥)]. الباقون بالنون.

وعن ابن عباس: «يُقَيَّضْ له شيطانٌ فهو له قرين»[(٦)] أي: ملازمٌ ومصاحب. قيل: «فَهُوَ» كنايةٌ عن الشيطان؛ على ما تقدَّم. وقيل: عن الإعراض[(٧)] عن القرآن؛ أي: هو قرينٌ للشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: وإنَّ الشياطين لَيصدُّونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع؛ لأن «مَن» في قوله: «وَمَنْ يَعْشُ» في معنى الجمع[(٨)].

---

(١) معاني القرآن له ٣/ ٣٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٦ . قال الفراء: ومن قرأها: يَعْشَ عن: يريد: يَعْمَ عنه.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٣٥٧ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة، وما بين حاصرتين منه، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٥ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٩ عن أبي عبيدة والأخفش بلفظ: يظلم بصرف بصره عنه.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩٨ . ووقع في (د) و(ز) و(م): العتبي.

(٥) قراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٦٩ ، ورواية عصمة ـ وهي عن أبي بكر عن عاصم ـ في جامع البيان ٢/ ٤٠١ ، والنشر ٢/ ٣٦٩ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥ .

(٧) في النسخ الخطية: التعرض.

(٨) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقيل: ويَحسبُ الكفار أنَّ الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وحفص؛ يعني: الكافر يوم القيامة. الباقون: «جاءانا» على التثنية[1]، يعني: الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة[2]؛ فيقول الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: مشرق الشتاء ومشرقُ الصيف[3]، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ونحوُه قولُ مقاتل[4].

وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرُها الإفراد، فالمعنى لهما جميعاً؛ لأنه قد عرَّف ذلك بما بعده؛ كما قال:

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ ... شُقَّت مآقيهما من أُخُرْ[5]

قال مقاتل: يتمنَّى الكافرُ أنَّ بينهما بُعْدَ مشْرِق أطولِ يومٍ في السنة إلى مَشْرِق أقصرِ يومٍ في السنة، ولذلك قال: «بُعْدَ المَشْرِقَيْن»[6].

وقال الفراء[7]: أراد المشرقَ والمغرب، فغَلَّب اسمَ أحدهما، كما يقال: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر، والبصرتان: للكوفة والبصرة، والعصران: للغَدَاة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماءِ عليكُمُ ... لنا قمراها والنجوم الطوالعُ[8]

(١) السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٩٦.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٩.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٣، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٩٨.

(٤) سيأتي قوله.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦، وسلف ١٦/ ٢٦.

(٦) ذكر قوله بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٦.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٣.

(٨) سلف عند تفسير الآية (٥٢) من سورة فصلت.

وأنشد أبو عبيدة لجرير:

ما كان يرضى رسولُ الله فعلَهُمُ والعُمَران[١] أبو بكر ولا عُمَرُ

وأنشد سيبويه:

قَدْنِيَ مِن نَصْر الخُبَيْبَيْنِ قَدِي

يريد عبدَ الله ومصعباً ابنيَ الزبير، وإنما أبو خبيب عبدُ الله[٢].

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس الصاحبُ أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخُدرِيّ: إذا بُعث الكافرُ، زُوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقُه حتى يصيِّرَه إلى النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ «إذْ» بَدَلٌ من اليوم؛ أي: يقول الله للكافرين[٤]: لن ينفعَكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلامُ؛ وهو قولُ الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْني وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: لا تنفع الندامة اليوم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسر ﴿فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهي قراءة ابنِ عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح[٥]. وهي في موضع رفع، تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراكُكم في العذاب[٦]؛ لأنَّ لكل واحدٍ نصيبَه الأوفرَ منه. أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنه مَنعَ أهلَ النار التأسِّيَ كما يتأسَّى أهلُ المصائب في الدنيا، وذلك أنَّ التأسِّيَ يستروِحه أهلُ الدنيا، فيقول أحدهم: لي

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): والطيبان، وسلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٣٤) من سورة فصلت.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٦١ . وسلف الرجز عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الصافات.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): للكافر.

(٥) السبعة ص٥٨٦ . وقراءة ابن عامر المذكورة هي من رواية التغلبي عنه، كما ذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١١ .

في البلاء والمصيبة أُسوة؛ فيُسكن ذلك مِن حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[١]

فإذا كان في الآخرة، لم ينفعهم التأسِّي شيئاً؛ لِشغلهم بالعذاب.

وقال مقاتل: لن ينفعَكم الاعتذارُ والندم اليوم؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٤٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس لك ذلك؛ فلا يضيقُ صدرُك إن كفروا؛ ففيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. وفيه ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم، وأنَّ الهدى والرُّشدَ والخِذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝٤١ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ۝٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد: نخرجنَّك من مكةَ من أذى قريش[٣]. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتك. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قد أراه اللهُ ذلك يومَ بدر[٤]؛ وهو قولُ أكثرِ المفسرين[٥].

---

(١) ديوانها ص٨٤-٨٥.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.
(٤) زاد المسير ٧/ ٣١٧.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبيِّ ﷺ مِن الفتن. و«نَذْهَبَنَّ بِكَ» على هذا: نتوفَّينَّك. وقد كان بعد النبيِّ ﷺ نِقمةٌ شديدةٌ، فأكرم الله نبيَّه ﷺ وذهب به، فلم يُرِه في أُمته إلَّا الذي[١] تَقرُّ به عينُه، وأبقى النِّقمةَ بعده، وليس مِن نبيٍّ إلَّا وقد أُرِي النقمةَ في أمته[٢]. ورُوِيَ أن النبيَّ ﷺ أُرِي ما لَقِيَت أُمَّتُه مِن بعده، فما زال منقبضاً، ما انبسط ضاحكاً حتى لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ[٣]. وعن ابن مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد اللهُ بأُمَّة خيراً، قَبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً. وإذا أراد بأمة عذاباً، عذَّبها ونبيُّها حيٌّ؛ لتَقَرَّ عينُه لمَّا كذَّبوه وعصَوا أمرَه»[٤].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤٣ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ۝٤٤﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريد: القرآن، وإنْ كذَّب به مَن كذَّب؛ فَـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآنُ شرفٌ لك ولقومك من قريش[٥]؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيرُه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شَرَفُكم. فالقرآن نزل بلسان قريشٍ وإياهم خاطَب؛ فاحتاج أهلُ اللغات كلِّها إلى لسانهم، كلُّ مَن آمن بذلك، فصاروا عِيالاً عليهم؛ لأن أهل كلِّ لغةٍ احتاجوا إلى أنْ يأخذوه من لغتهم، حتى يقفوا على المعنى الذي عني به، من الأمر والنهيِ وجميعِ ما

---

(١) في النسخ عدا (ظ): التي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٠ عن الحسن وقتادة بنحوه.

(٣) هو بعض أثر قتادة السالف.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٦٦٤٧) من حديث أبي موسى ﷺ. وأورده مسلم (٢٢٨٨) وقال فيه: حُدِّثت عن أبي أسامة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٣٠).

فيه من الأنباء، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات؛ ولذلك سُمِّي عربيًّا.

وقيل: بيانٌ لك ولأُمتك فيما بكم إليه حاجة.

وقيل: تذكرةٌ تذكُرون به أمرَ الدِّينِ وتعملون به[١].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني الخلافة؛ فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مُسْلمُهم تَبَعٌ لمسلمهم، وكافرُهم تبع لكافرهم»[٢].

وقال مالك: هو قول الرجل: حدَّثني أبي عن أبيه، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه، عن مالك بن أنس، فيما ذكر الماورديُّ[٣] والثعلبيُّ وغيرهما.

قال ابن العربي[٤]: ولم أجد في الإسلام هذه الرتبة[٥] لأحد إلا ببَغْداد، فإنَّ بني التميميِّ بها يقولون: حدَّثني أبي قال: حدَّثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شَرُفت أَقدارُهم، وعظَّم الناسُ شأنهم، وتهمَّمت الخلافة بهم. ورأيتُ بمدينة السلامِ ابنَي أبي محمدٍ رِزقِ الله بنِ عبد الوهَّاب أبي الفرج بنِ عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بنِ عبد الله التميميِّ، وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزقَ الله يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول[٦]: سمعت عليَّ بن أبي طالب ﷺ يقول ـ وقد سئل عن الحنَّان المَنَّان ـ فقال: الحنَّان الذي يُقبل على مَن أعرض عنه،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عيسى.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧١ .

(٥) في أحكام القرآن: المرتبة.

(٦) عبارة: سمعت أبي؛ وردت في (ز) و(ق) سبع مرات، وفي (ظ) ثماني مرات، وفي أحكام القرآن ثلاث مرات. وقد أخرجه الخطيب في تاريخه ١١/ ٣٢ عن عبد الوهاب بن عبد العزيز، بهذا الإسناد.

والمنَّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال[١]. والقائل سمعتُ عليًّا: أُكَيْنة بنُ عبد الله جَدُّهم الأعلى. والأقوى أن يكون المرادُ بقوله: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام، وإليه يرجع المصير، والله أعلم.

قال الماورديّ: «وَلِقَوْمِكَ» فيه[٢] قولان: أحدهما: مَن اتَّبعك مِن أمتك؛ قاله قتادة، وذكره الثعلبيُّ[٣] عن الحسن. الثاني: لقومك من قريش؛ فيقال: ممن هذا؟ فيقال: من العرب، فيقال: من أيِّ العرب؟ فيقال: من قريش؛ قاله مجاهد[٤].

قلت: والصحيح أنه شرفٌ لمن عَمِلَ به، كان من قريش أو من غيرهم. رويَ عن ابن عباس قال: أَقبَل نبيُّ الله ﷺ من سَرِيَّة أو غَزَاة، فدعا فاطمةَ فقال: «يا فاطمة، اشتري نفسَك من الله، فإني لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً». وقال مثلَ ذلك لنِسْوَته، وقال مثلَ ذلك لِعترته، ثم قال نبيُّ الله ﷺ: «ما بنو هاشم بأَولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريشٌ بأولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصارُ بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة، وأنتم كجِمَام[٥] الصاع، ليس لأحد على أحد فضلٌ إلَّا بالتقوى»[٦].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونوا[٧] شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها، كلُّكم بنو آدم

---

(١) أورده الذهبي في الميزان ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ في ترجمة عبد العزيز بن الحارث وقال: آذى نفسه ووضع حديثاً أو حديثين في مسند الإمام أحمد. وقال: وأكثر أجداده لا ذكر لهم لا في تاريخ ولا في أسماء رجال.

(٢) في النسخ: فيهم، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ للماوردي.

(٣) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ .

(٥) الجمام: الكيل إلى رأس المكيال. القاموس (جمم).

(٦) لم نقف عليه. وقد سلف بمعناه ١٦/ ٨٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): يكونون، وفي مصادر التخريج: ليكونن.

وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ[١] الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي»[٢]. خرَّجهما الطبري[٣]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الحجرات» إن شاء اللهُ تعالى[٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتلٌ والفرَّاء[٥]. وقال ابن جُريج: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما آتاك[٦]. وقيل: تسألون عما عملتم فيه[٧]؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن عباس وابنُ زيد: لمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجدُ بيتِ المقدس ـ بعث الله له آدمَ ومَن وُلد من المرسلين، وجبريلُ مع النبيِّ ﷺ؛ فأذَّن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد، تقدَّم فصلِّ بهم؛ فلما فرغ رسولُ الله ﷺ، قال له جبريل ﷺ: «سَلْ يا محمدُ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا: أَجعلنا مِن دون الرحمنِ آلهةً يُعبدون». فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل؛ قد اكتفيت»[٨]. قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيًّا، منهم إبراهيمُ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلمَ بالله منهم[٩].

---

(١) العبيَّة: الكِبْر. النهاية (عبب).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) لم نقف عليهما عنده.

(٤) عند تفسير الآية (١٣) منها.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤، وقول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٧) تفسير الرازي ٢٧/ ٢١٥.

(٨) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤١، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

في غير رواية ابنِ عباس: فصلَّوا خلف رسول الله ﷺ سبعةَ صفوف، المرسلون ثلاثةُ صفوف، والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهرَ رسول الله ﷺ إبراهيمُ خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل، وعلى يساره إسحاق، ثم موسى، ثم سائر المرسلين، فأَمَّهم ركعتين؛ فلمَّا انفتل قام فقال: «إنَّ ربي أوحى إليَّ أنْ أسألَكم: هل أُرسل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادةِ غير الله تعالى؟» فقالوا: يا محمد، إنا نشهد أنَّا أُرسلنا أجمعين بدعوة واحدة: أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون من دونه باطل، وأنك خاتمُ النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيَّانا، وأنْ لا نبيَّ بعدك إلى يوم القيامة، إلا عيسى ابنَ مريم فإنه مأمورٌ أن يتَّبعَ أثرك».

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال: لقيَ الرُّسلَ ليلةَ أُسري به[(١)].

وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قال: سألتُ عن ذلك خُلَيد بنَ دَعْلَج[(٢)]، فحدَّثني عن قتادة قال: سألهم ليلةَ أُسري به، لقي الأنبياءَ، ولقي آدم ومالك خازنَ النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و«مِنْ» التي قبل «رُسُلِنَا» على هذا القولِ غيرُ زائدة.

وقال المبرِّد وجماعةٌ من العلماء: إنَّ المعنى: واسأل أممَ مَن قد أرسلنا من قبلك مِن رسلنا. وروي أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «وَاسْأَلْ الذين[(٣)] أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلنا»[(٤)]. وهذه قراءةٌ مفسِّرة؛ فـ«مِن» على هذا زائدة، وهو قول مجاهدٍ والسُّدِّيِّ

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩ ، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) أبو حَلْبَس، ويقال: أبو عبيد، وأبو عمرو، وأبو عمر، السَّدوسي. محدث بصري ضعيف، نزل الموصل ثم سكن بيت المقدس. مات بحران سنة ١٦٦هـ. السير ٧/ ١٩٥ .

(٣) في النسخ عدا (ف): الذي، وهو خطأ.

(٤) أخرج القراءة الطبري ٢٠/ ٦٠٤ ، وذكرها البغوي في تفسيره ٤/ ١٤١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

والضحاك وقتادة وعطاء والحسن، وابنِ عباس أيضاً. أي: واسأل مؤمني أهلِ الكتابين: التوراة والإنجيل[١].

وقيل: المعنى: سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك[٢]؛ فحذفت «عن»، والوقف على «رُسُلِنَا» على هذا تامّ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى: واسأل تُبَّاعَ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا، فحذف المضاف. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمّتُه[٣].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال: «يُعْبَدُونَ» ولم يقل: تُعبد، ولا يُعبدن، لأنَّ الآلهة جرت عندهم مَجرى مَن يعقل، فأجرى الخبرَ عنهم مُجرى الخبرِ عمن يعقل[٤].

وسبب هذا الأمرِ بالسؤال أنَّ اليهود والمشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ ما جئت به مخالفٌ لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياءَ على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شكٍّ منه[٥].

واختلف أهل التأويل في سؤال النبيِّ ﷺ لهم على قولين: أحدهما: أنه سألهم، فقالت الرسل: بُعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. الثاني: أنه لم يسألهم؛ ليقينه بالله عزَّ وجلَّ؛ حتى حكى ابنُ زيد أنَّ ميكائيل قال لجبريل: «هل سألك محمدٌ عن ذلك؟ فقال جبريل: هو أشدُّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسألَ عن ذلك»[٦]. وقد تقدَّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤ - ٦٠٥ عن مجاهد والسدي والضحاك وقتادة. وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٢) ذكر هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٤، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ لمَّا أعلم النبيَّ ﷺ أنه منتقمٌ له مِن عدوِّه، وأقامَ الحجَّةَ باستشهاد الأنبياء واتفاقِ الكلِّ على التوحيد، أكَّد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان مِن فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب، أي: أرسلنا موسى بالمعجزات، وهي التسع الآيات، فكُذِّب؛ فجُعلت العاقبةُ الجميلة له، فكذلك أنت. ومعنى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أنَّ تلك الآياتِ سحرٌ وتخييل، وأنهم قادرون عليها.

وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظمَ مما قبلها. وقيل: «إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» لأن الأُولى تقتضي علماً، والثانيةَ تقتضي علماً، فتُضَمُّ الثانيةُ إلى الأولى فيزداد الوضوح، ومعنى الأُخوَّة: المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه، أي: هما قريبتان في المعنى.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: على تكذيبهم بتلك الآيات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لمَّا عاينوا العذاب قالوا: يا أيها الساحر؛ نَادَوه بما كانوا

ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم[١]. وقيل: كانوا يسمُّون العلماءَ سَحَرة، فنادَوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: «يا أيُّها السَّاحِر»: يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً[٢] يُوقِّرونه؛ ولم يكن السحر صفةَ ذمّ.وقيل: يا أيها الذي غَلَبنا بسحره[٣]؛ يقال: ساحرتُه فسحرته، أي: غلبته بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته، أي: غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته، ونحوِها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحرَ على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاءَ أن يؤمنوا.

وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بنُ وَثَّاب: «أيُّهُ الساحر» بغير ألفٍ، والهاءُ مضمومة[٤]، وعِلَّتها أنَّ الهاء خُلطت بما قبلها، وأُلزمت ضمَّ الياء الذي أوجبه النداءُ المفرَد. وأنشد الفرَّاء:

يـا أيُّـهُ الـقـلـبُ الـلَّـجُـوجُ الـنَّـفْـسِ   أَفـقْ عـن الـبِيـض الـحِـسَـانِ الـلُّـعْـسِ[٥]

فضمَّ الهاءَ حملاً على ضم الياء؛ وقد مضى في «النور» معنى هذا[٦].

ووقف أبو عمرو وابنُ أبي إسحاق ويحيى والكسائي: «أيها» بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف[٧]؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف.

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرنا عن عهده إليك إنْ آمنا كشف عنا؛ فسله يكشفْ عنا[٨] ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٨.

(٢) ذكر قوله ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٢٠، وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٩، والنكت والعيون ٥/ ٢٢٩، والوسيط للواحدي ٤/ ٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٤) قراءة ابن عامر في السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٦١ - ١٦٢.

(٥) سلف ١٥/ ٢٢٨.

(٦) ١٥/ ٢٢٨. وسلف الشعر والكلام عليه ثمة.

(٧) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص٦١ و ١٦٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

﴿ٱلۡعَذَابَ﴾أي: فدعا فكشفنا .﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ أي: يَنقضُون العهدَ الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» إخبارٌ منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذابَ ارتدُّوا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرۡعَوۡنُ فِي قَوۡمِهِۦ﴾ قيل: لمَّا رأى تلك الآيات، خاف مَيلَ القوم إليه، فجمع قومه فقال. فنادى بمعنى: قال؛ قاله أبو مالك[1]. فيجوز أن يكون عنده عظماءُ القِبط، فرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم يُنشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أَمر مَن ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج[2]. ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَيۡسَ لِي مُلۡكُ مِصۡرَ﴾ أي: لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه مَلَكَ منها أربعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقَّاش. وقيل: أراد بالمُلك هنا الإسكندرية[3].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ يعني: أنهار النيل، ومعظمُها أربعة: نهر الملِك، ونهر طولون، ونهر دِمياط، ونهر تِنِّيس[4]. قال قتادة: كانت جِنَاناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره[5]. وقيل: «مِنْ تَحْتِي» أي: تصرُّفي نافذٌ فيها من غير صانع[6]. وقيل: كان إذا أمسك عِنَانه، أمسك النيلُ عن الجَرْي. قال القشيريّ: ويجوز ظهورُ خوارقِ العادة على مدَّعي الرُّبُوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة. وقيل: معنى «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أي: القوَّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي»

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق، وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ ، والقول الثاني حكاه عن مجاهد.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٠ .

(٦) ذكره بمعناه الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٦ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٢ ونسباه للحسن.

أي: أُفرِّقها على مَن يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار[١].

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عظمتي وقوَّتي وضَعْفَ موسى.وقيل: قدرتي على نفقتكم[٢] وعجزَ موسى. والواو في «وَهَٰذِهِ» يجوز أن تكونَ عاطفةً للأنهار على «مُلْكُ مِصْرَ» و«تَجْرِي» نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واوَ الحال، واسمُ الإشارة مبتدأ، و«الْأَنْهَارُ» صفة لاسم الإشارة، و«تَجْرِي» خبر للمبتدأ[٣].

وفَتَحَ الياءَ مِن «تَحْتِيَ» أهلُ المدينة والبَزِّيُّ وأبو عمرو، وأسكن الباقون[٤].

وعن الرشيد أنه لمَّا قرأها قال: لأُوَلِّيَنَّها أخسَّ[٥] عبيدي، فولَّاها الخصيب، وكان على وضوئه.و عن عبد الله بنِ طاهر أنه وَلِيَها فخرج إليها، فلمَّا شارفها ووقع عليها بصره، قال: أهذه القريةُ التي افتخر بها فرعونُ حتى قال: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ»؟! واللهِ لَهي عندي أقلُّ مِن أنْ أَدخلَها! فثنى عِنانه[٦].

ثم صرَّح بحاله فقال: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» قال أبو عبيدة والسُّدِّي: «أَمْ» بمعنى «بل»[٧]. وليست بحرف عطف؛ على قول أكثرِ المفسرين[٨]. والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خيرٌ «مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» أي: لا عِزَّ له؛ فهو يمتهن نفسَه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني ما كان في لسانه من العُقدة؛ على ما تقدَّم في «طه»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠، وكلام الضحاك منه.

(٢) في النكت والعيون: نفعكم.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٢، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٣.

(٤) السبعة ص٥٩٠، والتيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٥) في (م): أحسن، وهو خطأ.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٩٢.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٤، وأخرج الطبري ٢٠/ ٦٦١-٦٦٢ قول السدي.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤٢.

(٩) ١٤/ ٥١. ونقلنا ثمة عن ابن كثير قوله: إن اتهام فرعون لموسى بأنه لا يكاد يبين، إنما هو افتراء من =

وقال الفراء[١]: في «أَمْ» وجهان: إن شئتَ جعلتَها من الاستفهام الذي جُعل بـ «أَم» لاتصاله بكلامٍ قبله، وإن شئتَ جعلتَها نَسَقاً على قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ».

وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون «أَمْ» زائدة؛ والمعنى: أنا خير من هذا الذي هو مهين[٢]. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ وبين النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[٣]

أي: أنتِ أحسن أم أُمُّ سالم؟

ثم ابتدأ فقال: «أَنَا خَيْرٌ».

وقال الخليل وسيبويه: المعنى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، أم أنتم بُصَراء؟ فعطف بـ «أم» على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»؛ لأن معنى «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» أي: أم تُبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ منه، كانوا عنده بُصراء[٤].

ورُوي عن عيسى الثَّقفِيِّ ويعقوبَ الحضرميِّ أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف «تبصرون» الثاني. وقيل: مَن وقف على «أم» جعلها زائدة، وكأنه وقف على «تُبْصِرُونَ» مِن قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ». ولا يَتمُّ الكلام على «تُبْصِرُونَ» عند الخليل وسيبويه؛ لأنَّ «أم» تقتضي الاتصالَ بما قبلها. وقال قوم: الوقف على قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ثم ابتدأ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» بمعنى: بل أنا؛

= فرعون، حمله على هذا الكفرُ والعِناد، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة؛ لأن موسى عليه السلام سأل الله عزَّ وجلَّ أن يَحُلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له في ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥.

(٢) قال ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٤: وزعم أبو زيد أن «أم» زائدة، وليس بشيء. اهـ. ونحوه في أمالي ابن الشجري ٣/ ١٠٩ - ١١٠.

(٣) البيت لذي الرُّمة، وسلف ١/ ٢٨٢.

(٤) كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٧٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١١٠.

وأنشد الفرَّاء[١]:

بدت مِثْلَ قَرْن الشمسِ في رَوْنَقِ الضُّحى وصورتِها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه: بل أنتِ أملح.

وذكر الفرَّاء[٢] أنَّ بعض القراء قرأ: «أَمَا أَنَا خَيْرٌ»؛ ومعنى هذا: ألستُ خيراً.

وروي عن مجاهدٍ أنه وقف على «أم»، ثم يبتدئ «أنا خَيْرٌ»[٣]. وقد ذُكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه كان عادةَ الوقت وزِيَّ أهلِ الشرف[٤].

وقرأ حفص: «أَسْوِرَةٌ»[٥] جمع سِوار، كخِمار وأخمرة.

وقرأ أُبَيّ: «أساوِر» جمع إسوار. وابن مسعود: «أساوير»[٦]. الباقون: «أَسَاوِرَة» جمع الأَسْوِرة؛ فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون «أَسَاوِرة» جمعَ «إِسْوَار»، وأُلحقت الهاءُ في الجمع عوضاً من الياء؛ فهو مِثل: زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشِبهه. وقال أبو عمرو بنُ العَلَاء: واحد الأَساورةِ والأساور والأساوير إسوار[٧]، وهي لغةٌ في سِوَار.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٧٢ . وسلف البيت ٢/ ٢٠٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ .

(٥) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ . وقراءة «أساور» نسبها في القراءات الشاذة ص١٣٥ للأعمش. وقراءة «أساوير» نسبها لأُبي أو عبد الله. وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦١٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٤ .

(٧) ذكره عنه بنحوه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١٥ ، والجوهري في الصحاح (سور).

قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا[١] رجلاً، سوَّروه بسوارَين، وطوَّقوه بطوقِ ذهب؛ علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلَّا ألقى ربُّ موسى عليه أساورةً من ذهب إن كان صادقاً! ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معًا[٢]. ابن عباس: يعاونونه على مَن خالفه؛ والمعنى: هلَّا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعُم أنها عند ربه حتى يتكثَّرَ بهم ويَصرِفَهم على أمره ونهيه؛ فيكونَ أهْيَبَ في القلوب. فأَوهمَ قومَه أنَّ رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يَعلم أنَّ رسلَ الله إنما أُيِّدوا بالجنود السماوية؛ وكلُّ عاقلٍ يعلم أنَّ حِفظ الله موسى، مع تفرُّده ووَحدته، من فرعون، مع كثرة أتباعه، وإمدادَ موسى بالعصا واليدِ البيضاء كان أبلغَ مِن أن يكون له أسورةٌ، أو ملائكة يكونون معه أعواناً؛ في قول مقاتلٍ، أو دليلاً على صدقه؛ في قول الكلبي. وليس يَلزم هذا؛ لأن الإعجاز كافٍ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّبَ مع مجيء الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات. وذَكَر فرعونُ الملائكة حكايةً عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة مَن لا يَعرف خالقهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهلَ قومَه[٤] ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لِخِفَّة أحلامهم وقِلَّة عقولهم؛ يقال: استخفَّه الفرح، أي: أزعجه، واستخفَّه، أي: حمله على الجهل، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. وقيل: استفزَّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب[٥]. وقيل: استخفَّ قومَه،

---

(١) في النسخ عدا (ف): سوروا. والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢، والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦١٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣١، وفيه قول مقاتل والكلبي.

(٤) ياقوتة الصراط ص٤٦٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣١ عن ابن زياد.

أي: وجدهم خِفَافَ العقول. وهذا لا يدُلُّ على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بدَّ من إضمارٍ بعيد، تقديره: وجدهم خفافَ العقول فدعاهم إلى الغَوَاية فأطاعوه. وقيل: استخفَّ قومه وقهرهم حتى اتَّبعوه؛ يقال[١]: استخفَّه خلافُ استثقله، واستخفَّ به: أهانه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ روى الضحَّاك عن ابن عباس: أي: غاظونا وأغضبونا. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة: أي: أسخطونا. قال الماورديّ[٢]: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أنَّ السَّخط إظهارُ الكراهة، والغضبَ إرادة الانتقام. القشيريّ: والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إمَّا إرادةُ العقوبة، فيكونُ من صفات الذات، وإما عينُ العقوبة، فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قولِ الماوردي[٣].

وقال عمر بنُ ذَرّ: يا أهل معاصي الله، لا تغترُّوا بطول حِلْمِ اللهِ عنكم، واحذَروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقيل: «آسَفُونَا» أي: أغضبوا رسُلَنا وأولياءنا المؤمنين[٤]؛ نحوُ السَّحَرةِ وبني إسرائيل. وهو كقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] و ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: أولياءه ورسلَه.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ۝٥٦﴾

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي: جعلنا قومَ فرعونَ سَلَفًا. قال أبو مِجْلَز: «سَلَفاً» لمن عَمِلَ عملَهم، «وَمَثَلًا» لمن [لم] يعملْ عملَهم[٥]. وقال مجاهد: «سَلَفًا»

---

(١) قاله الجوهري في الصحاح (خفف).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٣١ ، وما قبله منه. وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٧ .

(٣) الصواب إثبات صفة الغضب لله عز وجل بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٤) الوسيط ٤/ ٧٧-٧٨، والنكت والعيون ٥/ ٢٣٢ .

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٧٣ ، وما بين حاصرتين منه.

إخباراً لأمة محمدٍ ﷺ، «وَمَثَلًا» أي: عِبرةً لهم. وعنه أيضاً: «سَلَفًا» لكفار قومك يتقدَّمونهم إلى النار. قتادة: «سَلَفًا» إلى النار، «وَمَثَلًا»: عِظةً لمن يأتي بعدهم[١]. والسَّلَف: المتقدِّم؛ يقال سَلَفَ يَسْلُف سَلَفًا؛ مثل: طلب يطلُب[٢] طلباً، أي: تقدَّم ومضى. وسلف له عملٌ صالح، أي: تقدَّم. والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون. وسَلَفُ الرَّجُل: آباؤه المتقدِّمون؛ والجمع: أسلافٌ وسُلَّاف.

وقراءة العامة: «سَلَفًا» بفتح السين واللام: جمع سالف؛ كخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكِسائي: «سُلُفًا» بضم السين واللام[٣]. قال الفراء[٤]: هو جمع سَلِيف، نحو: سرير وسُرُر. وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف؛ نحو خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ وحُميد بنُ قيس: «سُلَفاً» بضم السين وفتح اللام، جمع سُلْفة[٥]، أي: فِرقةٌ متقدِّمة. قال المؤرِّج والنَّضْر بنُ شُمَيل: «سُلَفًا» جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

لـمَّا قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ تعلَّق المشركون بأمر عيسى، وقالوا: ما يريد محمدٌ إلَّا أنْ نتخذَه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى ابنَ مريم إلهًا، قاله قتادة. ونحوُه عن مجاهد؛ قالت: إنَّ قريشًا قالت: إنَّ محمدًا يريد أن نعبُدَه كما عبد قومُ عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية[٦].

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٠/ ٦٢٠-٦٢١ .

(٢) قوله: يطلب من (ظ)، وهو موافق لما في الصحاح (سلف)، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٤) كلامه في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ ، وينظر معاني القرآن له ٣/ ٣٦ .

(٥) قراءة علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ ، وقراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٢٢ .

وقال ابن عباس: أراد به مناظرةَ عبدِ الله بنِ الزِّبَعْرَى مع النبيِّ ﷺ في شأن عيسى، وأنَّ الضارب لهذا المثل هو عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى السَّهْمِيُّ حالةَ كفره؛ لمَّا قالت له قريش: إنَّ محمداً يتلو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] الآية، فقال: لو حضرتُه لَرددت عليه؛ قالوا: وما كنتَ تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزَيْراً، أَفَهما من حَصَب جهنم؟ فعَجِبت قريشٌ من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله: «يَصِدُّونَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

ولو تأمل ابنُ الزبعرى الآيةَ ما اعترض عليها؛ لأنه قال: «وَمَا تَعْبُدُونَ» ولم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوَها مما لا يَعقِل، ولم يُرد المسيح ولا الملائكةَ وإنْ كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة الأنبياء[1].

وروى ابنُ عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، لا خير في أَحدٍ يُعبد من دون الله». قالوا: أليس تزعُمُ أنَّ عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحًا، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله!. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾[2]. أي: يَضِجُّون كضجيج الإبلِ عند حمل الأثقال.

وقرأ نافعٌ وابن عامر والكِسائي: «يَصُدُّون». بضم الصاد، ومعناه: يُعرِضون؛ قاله النَّخعيُّ، وكَسَرَ الباقون[3]. قال الكسائي[4]: هما لغتان؛ مثل: يَعْرِشون ويَعْرُشون ويَنِمُّون ويَنُمُّون، ومعناه: يَضِجُّون.

---

(١) ١٤/ ٢٩٠، ومضى فيه أثر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩١٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٩٧.

(٣) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧، وقول النخعي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٤.

(٤) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠.

قال الجوهري[١]: وصَدَّ يَصُدُّ صديداً، أي: ضَجّ. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب[٢]. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحقِّ لكانت: إذا قومُك عنه يصدون[٣]. الفرَّاء[٤]: هما سواء؛ منه وعنه. ابنُ المسيّب: يصدون: يَصيحون[٥]. الضحاك: يَعجُّون. ابن عباس: يضحكون[٦]. أبو عبيدة[٧]: مَن ضَمَّ فمعناه: يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل الميل يعدلون. ولا يُعَدَّى «يَصِدُّون» بمن، وَمن كَسَرَ فمعناه: يضِجُّون؛ فـ «من» متصلةٌ بـ «يَصِدُّون» والمعنى: يَضجون منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ قاله السُّدّيّ. وقال: خاصموه وقالوا: إنَّ كلَّ مَن عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكونَ آلهتُنا مع عيسى والملائكةِ وعُزير، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١][٨]. وقال قتادة: «أَمْ

---

(١) في الصحاح (صدد).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ - ١١٦ ، ثم قال: وفي هذا ردٌّ على الجماعة الذين قراءتهم حجة، وقد خالف بقوله هذا الكسائي والفراء، والذي ذكره من الحجة ليس بواجب؛ لأنه يقال: صددتُ من قوله، أي: لأجل قوله.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٧ .

(٥) في (ف) و(م): يضجون. وذكر هذا الأثر والذي بعده البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ .

(٦) المشهور عن ابن عباس: يضجون؛ كما أخرجه الفراء ٣/ ٣٦ وغيره. وهو في مسند أحمد (٢٩١٨) وقد سلف قريباً تخريجه. وقوله: يضحكون، نسبه في النكت والعيون ٥/ ٢٣٣ لقتادة، وفي تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٤ لليث. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٧ .

هُوَ» يعنون محمداً ﷺ(١).

وفي قراءة ابنِ مسعود: «آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا»(٢). وهو يقوِّي قولَ قتادة، فهو استفهامُ تقريرٍ في أنَّ آلهتهم خير.

وقرأ الكوفيُّون ويعقوب: «أألهتنا» بتحقيق الهمزتين، وليَّن الباقون(٣). وقد تقدَّم.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ﴾ حال، أي: جدلين. يعني: ما ضربوا لك هذا المَثَلَ إلَّا إرادةَ الجدل؛ لأنهم علموا أنَّ المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من المَوَات(٤).

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: مجادِلون بالباطل.

وفي صحيح الترمذِيّ عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل» ثم تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًاۢ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أنعم اللهُ عليه بالنبوَّة، وجَعَلَه مَثَلًا لبني إسرائيل، أي: آيةً وعبرةً يُستدلُّ بها على قدرة الله تعالى، فإنَّ عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراءِ الأَكْمَه والأبرص والأسقامِ كلِّها ما لم يجعل لغيره في زمانه، مع أنَّ بني إسرائيل كانوا يومئذ خيرَ الخلق وأحبَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، والناسُ دونهم، ليس أحدٌ عند الله عزَّ وجلَّ مثلَهم. وقيل: المراد بالعبد المنعَمِ عليه محمدٌ ﷺ، والأوَّلُ أظهر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٣) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧، وقراءة يعقوب هي من رواية روح كما في النشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٩.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (٢٢١٦٤).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بَدَلًا منكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يكونون خَلَفًا عنكم؛ قاله السُّدِّيّ. ونحوُه عن مجاهد قال: ملائكةً يَعمُرون الأرضَ بدلاً منكم[١].

وقال الأزهريّ: إنَّ «مِن» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية[٢].

قلت: قد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»[٣] وغيرِها.

وقيل: لو نشاء لجَعلنا من الإنس ملائكةً وإنْ لم تَجرِ العادةُ بذلك[٤]، والجواهرُ جِنسٌ واحدٌ والاختلافُ بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرضَ الملائكة، وليس في إسكاننا إيَّاهم السماءَ شرفٌ حتى يُعبدوا، أو يقال لهم: بناتُ الله.

ومعنى «يَخْلُفُونَ»: يخلفُ بعضُهم بعضاً؛ قاله ابن عباس[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بنُ جبير: يريد القرآن[٦]؛ لأنه يدلُّ على قُرب مجيء الساعة، أو به تُعلم الساعةُ وأهوالها وأحوالها. وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك والسديُّ وقتادة أيضاً: إنه خروجُ عيسى عليه السلام[٧]، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله يُنزِله من السماء قُبيلَ قيامِ الساعة، كما أنَّ خروج الدجَّال من أعلام الساعة.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٣٠.

(٢) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥.

(٣) ١٠/ ٢٠٧.

(٤) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٣٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٠.

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ عن الحسن وقتادة، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦١، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ عن الحسن وسعيد بن جبير.

(٧) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٦٣١ - ٦٣٣. وقول ابن عباس قطعة من حديث عند أحمد (٢٩١٨)، وسلف بعضه عند الآية (٥٧).

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بنُ دينار والضحاك: «وإنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» بفتح العين واللام[١]، أي: أمارة. وقد روي عن عِكرمة: «وإنه لَلْعَلَم» بلامين[٢]، وذلك خلافٌ للمصاحف.

وعن عبد الله بنِ مسعود قال: لما كان ليلةَ أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، لقي إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فتذاكروا الساعة، فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم؛ فرُدَّ الحديثُ إلى عيسى ابنِ مريم، فقال: قد عُهد إليَّ فيما دون وَجْبَتِها، فأما وجبتُها فلا يعلمُها إلّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فذَكَرَ خروجَ الدجال، قال: فأنزِلُ فأقتُلُه. وذكر الحديث، خرَّجه ابنُ ماجه في سننه[٣].

وفي صحيح مسلم[٤]: «فبينما هو ـ يعني المسيحَ الدجال ـ إذ بعث اللهُ المسيح ابنَ مريم، فيَنزل عند المنارة البيضاءِ شرقيّ دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين واضعاً كفَّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلّا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبُه حتى يدرِكَه بباب لُدٍّ، فيقتله...» الحديث.

وذكر الثعلبيُّ والزَّمَخْشريُّ وغيرهما من حديث أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزل عيسى ابنُ مريم عليه السلام[٥] على ثَنِيَّةٍ من الأرض المقدَّسة، يقال لها: أفِيقُ، بين مُمَصَّرَتَيْن، وشعرُ رأسه دَهين، وبيده حَرْبَةٌ يقتل بها الدَّجَّال، فيأتي بيت المقدس

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥ - ١٣٦ والمحرر الوجيز ٥/ ٦١ . وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، والقراءات الشاذة ص١٣٦ .

(٣) برقم (٤٠٨١). قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٣١٢ : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. قوله: وجبتها، أي: قيامها. شرح السندي ٢/ ٥١٧ .

(٤) برقم (٢٩٣٧)، وسلف ٥/ ١٣٧ .

(٥) بعدها في (م): من السماء.

والناسُ في صلاة العصر والإمامُ يَؤمُّ بهم، فيتأخر الإمام، فيقدِّمه عيسى ويصلِّي خلفه على شريعة محمدٍ ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويَكسِر الصليب، ويخرب البِيَعَ والكنائس، ويقتل النصارى إلَّا مَن آمن به»(١).

وروى خالدٌ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلَّات، أُمهاتُهم شَتَّى ودينُهُم واحد، وأنا أَوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريم، إنه ليس بيني وبينه نبيّ، وإنه أوَّلُ نازلٍ، فيَكسِرُ الصليب، ويقتل الخِنزير، ويقاتلُ الناسَ على الإسلام»(٢).

قال الماورديّ: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا: إذا نزل عيسى رُفع التكليف؛ لئلَّا يكونَ رسولاً إلى ذلك الزمانِ يأمرُهم عن الله تعالى وينهاهم.

وهذا قول مردودٌ لثلاثة أمور؛ منها: الحديث، ولأنَّ بقاء الدنيا يقتضي [بقاء] التكليفِ فيها، ولأنه يَنزل آمرًا بمعروفٍ وناهياً عن منكر. وليس يُستنكر أنْ يكونَ أَمْرُ الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمرِ به والدعاءِ إليه(٣).

قلت: ثبت في صحيح مسلمٍ وابنِ ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ عيسى ابنُ مريم حَكَمًا عادلاً، فليَكْسِرَنَّ الصليب، ولَيَقتُلَنَّ الخِنزير، ولَيَضَعنَّ الجزية، ولَتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ فلا يُسعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتَّباغضُ والتحاسد، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبلُه أحد»(٤). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٤ . وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صفرة خفيفة. النهاية (مصر). وفي الكشاف: وعليه ممصَّرتان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ . وأخرجه أحمد (٩٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه مطولاً. وهو عند البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) مختصر. قوله: إخوة لِعَلَّات؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٨٩ : العَلَّات؛ بفتح المهملة: الضرائر. . . وأولاد العَلَّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتَّى. . . ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد ـ وإن اختلفت فروع الشرائع. وقيل: أزمنتهم مختلفة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو في سنن ابن ماجه (٤٠٧٨) مختصر. وسلف ٥/ ١٥٥ .

نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفي رواية: «فأَمَّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري: ما «أمّكم منكم؟» قلت: تُخْبِرني، قال: فأمّكم بكتاب ربِّكم وسُنَّةِ نبيِّكم ﷺ(١).

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: فهذا نصٌّ على أنه يَنزِل مجدِّدًا لِدِين النبيِّ ﷺ للذي دَرَس منه، لا بشرعٍ مبتَدأ، والتكليفُ باقٍ؛ على ما بيَّنَّاه هنا وفي كتاب «التذكرة»(٢).

وقيل: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي: وإنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعثِ الموتى؛ قاله ابنُ إسحاق(٣).

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: «وَإِنَّهُ»: وإنَّ محمدًا ﷺ لَعِلْم للساعة؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وضَمَّ السَّبَّابةَ والوسطى؛ خرَّجه البخاريُّ ومسلم(٤). وقال الحسن: أوَّلُ أشراطها محمدٌ ﷺ(٥).

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تشكُّون فيها؛ يعني: في الساعة؛ قاله يحيى بنُ سلّام. وقال السُّدِّي: فلا تكذِّبون بها(٦)، ولا تجادلون فيها فإنها كائنةٌ لا محالة. ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ أي: في التوحيد وفيما أُبلِّغكم عن الله. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ قويم إلى الله، أي: إلى جنته.

وأثبت الياءَ يعقوبُ في قوله: «وَاتَّبِعُونِ» في الحالين، وكذلك «وَأَطِيعُونِ». وأبو عمرٍو وإسماعيلُ عن نافع في الوصل دون الوقف(٧)، وحَذَفَ الباقون في الحالين.

---

(١) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤)، (٢٤٦). وسلف ٥/ ١٥٥ . وابن أبي ذئب أحد رجال السند.

(٢) ص٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .

(٤) صحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وسلف ١٢/ ٢٦٨ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٠ بلفظ: محمد ﷺ من أشراطها. ونسبه لابن أبي حاتم.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ بلفظ: فلا تشكون فيها.

(٧) يعني في قوله: ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾. وقراءة نافع المشهورة عنه كقراءة الباقين. السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا تغترُّوا بوساوسه وشُبَهِ الكفار المجادِلين؛ فإنَّ شرائع الأنبياء لم تَختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به مِن عِلم الساعة وغيرِها بما تضمنته من جنةٍ ونار. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تقدَّم في «البقرة»[1] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياءَ الموتى وإبراءَ الأسقام، وخَلْقَ الطير، والمائدةَ وغيرَها، والإخبارَ بكثيرٍ من الغيوب. وقال قتادة: البيِّنات هنا الإنجيل[2]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السُّدِّيّ. ابن عباس: عِلمُ ما يؤدِّي إلى الجميل ويَكفُّ عن القبيح. وقيل: الإنجيل؛ ذكره القشيريُّ والماوردي[3].

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال مجاهد: مِن تبديل التوراة[4]. الزَّجاج[5]: المعنى: لأبين لكم في الإنجيل بعضَ الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيَّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بيَّن لهم بعضَ الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراةِ على قَدْر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياءَ غيرِ ذلك لم يَسألوه عنها. وقيل: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياءَ مِن أمر دينهم وأشياءَ مِن أمر دنياهم، فبيَّن لهم أمرَ دينهم.

(١) ٣/ ١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ ، وقول ابن عباس نسبه لابن عيسى. وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦٣ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٦ .

(٥) معاني القرآن له ٤/ ٤١٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٨ .

ومذهب أبي عبيدة[١] أنَّ البعض بمعنى الكلّ؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وأنشد الأخفش قولَ لبيد:

تَـرَّاكُ أمـكـنـةٍ إذا لـم أرضـهـا أو يـعـتـلـقْ بـعـضَ الـنـفـوس حِـمـامُـهـا

والموت لا يعتلق بعضَ النفوس دون بعض[٢]. ويقال للمنيَّة: عَلُوق وعَلَّاقة. قال المفضَّل النُّكْري[٣]:

وسـائـلـةٍ بـثـعـلـبـةَ بـنِ سَـيْـرٍ وقـد عَـلِـقـت بـثـعـلـبـةَ الـعَـلُـوقُ[٤]

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. يعني: ما أُحلَّ في الإنجيل مما كان محرَّماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحمِ مِن كل حَيَوان، وصيدِ السمك يومَ السبت.

﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الشِّركَ ولا تعبُدوا إلَّا اللهَ وحده؛ وإذا كان هذا قولَ عيسى، فكيف يجوز أن يكونَ إلهًا أو ابنَ إله؟! ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادةُ الله صراطٌ مستقيم، وما سواه معوجٌ لا يؤدِّي سالكَه إلى الحقّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، خالف بعضُهم بعضًا؛

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧ . والبيت في شرح ديوان لبيد ص٣١٣ ، وسلف ٥/ ١٤٧ .

(٣) في (ف) و (م): البكري، وفي (د): الكبرى. وكلاهما خطأ. وهو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي ابن شيبان بن سُود بن عُذرة بن منبِّه بن نُكرة. فضّلته قصيدته التي يقال لها: المُنصِفة. طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥ . والبيت من هذه القصيدة.

(٤) إصلاح المنطق ص٣٦٨ ، والصحاح (علق)، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٨٠ ، واللسان (علق).

قاله مجاهدٌ والسُّدِّيّ. الثاني: فِرَقُ النصارى من النُّسْطُورِية والمَلْكية واليعاقِبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النُّسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت المَلْكية: ثالثُ ثلاثةٍ أحدهم الله تعالى؛ قاله الكلبي ومقاتل(١)، وقد مضى هذا في سورة مريم(٢).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا وأشركوا؛ كما في سورة مريم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أليم عذابُه؛ ومثلُه: ليلٌ نائم؛ أي: يُنام فيه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد: الأحزابُ لا ينتظرون(٣) ﴿إِلَّا السَّاعَةَ﴾ يريد القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجْأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يفطُنون. وقد مضى في غير موضع(٤). وقيل: المعنى: لا ينتظر مشركو العربِ إلَّا الساعة. ويكون «الأَحْزَابُ» على هذا الذين تحزَّبوا على النبيِّ ﷺ وكذَّبوه من المشركين. ويتَّصل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الآية: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يريد: يومَ القيامة. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، يعادي بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضُهم بعضًا. ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخِلَّاءُ في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابنُ عباس ومجاهدٌ وغيرهما.

وحكى النقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أميَّة بنِ خَلَف الجُمَحيِّ وعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط، كانا خليلين؛ وكان عقبةُ يجالس النبيَّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بنُ أبي مُعَيط؛ فقال له أميَّة: وجهي مِن وجهك حرام إنْ لَقِيتَ محمدًا ولم تَتْفُل في وجهه.

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧ . وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٨ .
(٢) ١٣/ ٤٥١ - ٤٥٤ .
(٣) في النسخ الخطية عدا (ق): ينظرون.
(٤) ١/ ٢٩٩ .

ففعل عقبةُ ذلك؛ فنذر النبيُّ ﷺ قتلَه، فقتله يوم بدرٍ صَبْرًا، وقُتل أميةُ في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية[١].

وذكر الثعلبيُّ عن عليٍّ[٢] ﷺ في هذه الآية. قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحدُ المؤمنَين فقال: يا ربّ، إنّ فلانًا كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويُخْبرني أني ملاقيك، يا ربِّ فلا تُضِلَّه بعدي، واهدِه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليلُه المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربّ، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: نِعْمَ الخليلُ ونعم الأخُ ونعم الصاحبُ كان. قال: ويموت أحد الكافرَين فيقول: يا رب، إنَّ فلانًا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أني غيرُ ملاقيك، فأسألك يا ربِّ ألَّا تَهْدِهِ بعدي، وأنْ تُضِلَّه كما أضللتني، وأن تُهينَه كما أهنتني. فإذا مات خليلُه الكافر قال الله تعالى لهما: لِيُثْنِ كلُّ واحد منكما على صاحبه، فيقول: ياربّ، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصيةِ رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أنْ تضاعِفَ عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بِئسَ الصاحبُ والأخ والخليل كنتَ. فيلعنُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه[٣].

قلت: والآية عامةٌ في كل مؤمن ومُتَّقٍ وكافرٍ ومُضِلّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال مقاتل ـ ورواه المعتمر بنُ سليمان عن أبيه ـ: ينادي منادٍ في العَرَصات: «يا

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقوله: «ففعل عقبة ذلك» منكر، ونقلنا ١٥/ ٤٠٢ عن عبد الرزاق والطبري أن الله لم يمكّن عقبة مما أراد فعله.

(٢) قوله: عن علي، ليس في (م).

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٥ من طريق الثعلبي. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٠ .

عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم»، فيرفع أهلُ العَرَصات[١] رؤوسهم، فيقول المنادي: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين» فينكِّس أهلُ الأديان رؤوسَهم غيرَ المسلمين[٢]. وذكر المحاسبيُّ في «الرِّعاية»: وقد روي في هذا الحديثِ أنَّ المنادي ينادي يوم القيامة: «يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكمُ اليومَ ولا أَنتم تَحزنون» فيرفع الخلائقُ رؤوسهم، فيقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مسْلِمِين» فينكِّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحِّدون رافعي رؤوسِهم. ثم ينادي الثالثة: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكِّس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسِهم، قد أزال عنهم الخوفَ والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يَخذُل وليَّه ولا يُسْلِمه عند الهَلَكة. وقرئ: «يَا عِبَادِ»[٣]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قال الزجَّاج[٤]: «الَّذِينَ» نصب على النعت لـ «عبادي»؛ لأن «عِبَادِي» منادَى مضاف. وقيل: «الَّذِينَ آمَنُوا» [خبر لمبتدإ محذوف، أو][٥] ابتداءٌ وخبره محذوف؛ تقديره: هم الذين آمنوا، أو: الذين آمنوا يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ».

وقرأ أبو بكر وزِرُّ بن حُبيش: «يَا عِبَادِيَ» بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ وكذلك أثبتها نافعٌ وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس[٦] ساكنةً في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين[٧]؛ لأنها وقعت مثبَتةً في مصاحف أهلِ الشام والمدينة لا غير[٨].

(١) في النسخ عدا (ظ): العرصة.
(٢) قول مقاتل في الوسيط للواحدي ٤/ ٨٠ - ٨١، ورواية المعتمر أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٤١ بنحوها.
(٣) سترد قريباً.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩.
(٥) ما بين حاصرتين زيادة لضرورة السياق.
(٦) بخلاف عنه كما في النشر ٢/ ٣٧٠.
(٧) السبعة ص٥٨٨، والتيسير ص١٩٧.
(٨) المقنع لأبي عمرو الداني ص٣٤، والنشر ٢/ ٣٧٠.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: اُدخلُوا الجنة، أو: يا عبادي الذين آمنوا ادخلُوا الجنة. ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتُكم[١] من الحور العين. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون، والفرح في القلب. قتادة: تُنعمون؛ النعيم في البدن. مجاهد: تُسرُّون؛ السرور في العين. ابن أبي نَجِيح: تعجبون؛ والعجب هاهنا دَرْكُ ما يُستطرَف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسَّماع[٢]. وقد مضى هذا في «الروم»[٣].

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ أي: لهم في الجنة أطعمةٌ وأشربة يطاف بها عليهم في صِحافٍ مِن ذهب وأكواب. ولم يَذكر الأطعمةَ والأشربة؛ لأنه يُعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكوابِ عليهم مِن غيرِ أنْ يكونَ فيها شيء[٤]. وذَكَرَ الذهبَ في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي الصحيحين[٥] عن حُذيفة أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقد مضى في سورة الحجِّ[٦] أنَّ مَن أكل فيهما في الدنيا أو

---

(١) في النسخ الخطية: زوجاتهم، والمثبت من (م).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٢ ، وعبد الرزاق ٢/ ٢٠٢ ، وقول يحيى أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٠١ .

(٣) ١٦/ ٤٠٥ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٦٤٥ .

(٥) صحيح البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧). وهو عند أحمد (٢٣٣١٤).

(٦) ١٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

لبس الحرير في الدنيا، ولم يتب، حُرم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبَّداً. والله أعلم.

وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلةً سبعون ألفَ غلامٍ بسبعين ألفَ صَحْفةٍ من ذهب، يُغْدَى عليه بها في كل واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبتها، يأكل مِن آخرها كما يأكل من أوّلها، ويجد طعمَ آخِرها كما يجد طعم أوّلها، لا يُشبه بعضُه بعضاً، ويُراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجةً كلَّ يومٍ سبعُ مئةِ ألفِ غلام، مع كل غلامٍ صحفةٌ من ذهب، فيها لونٌ من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكل من أولها، ويجد طعمَ آخرها كما يجد طعم أولها، لا يُشبه بعضُه بعضاً[1].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الإنسان: ١٥].

وذَكَرَ ابنُ المبارك[2] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي قِلَابة قال: يؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك، أُتوا بالشراب الطهور، فَتضْمُرُ لذلك بطونُهم، ويَفيض عرقاً من جلودهم أطيبَ من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يَتْفُلون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخِطون]. قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْح كرشح المِسك، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتحميد - والتكبيرَ في رواية - كما يلهمون النَّفَس»[3].

الثانية: روى الأئمة من حديث أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرجِرُ في بطنه نارَ جهنم»[4]. وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠١ ، والطبري ٢٠/ ٦٤٣-٦٤٤ ، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦ بنحوه.

(٢) في الزهد (٢٧٤ زوائد نعيم).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وهو عند أحمد (١٤٤٠١). وما بين حاصرتين منهما.

(٤) مسند أحمد (٢٦٥٦٨)، وصحيح البخاري (٥٦٣٤)، وصحيح مسلم (٢٠٦٥).

والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها»[١] وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك.

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ابن العربي[٢]: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء؛ لقول النبيِّ ﷺ في الذهب والحرير: «هذان حرامٌ لذكور أُمتي حِلٌّ لإناثها»[٣]. والنهيُ عن الأكل والشرب فيها يدلُّ على تحريم استعمالها؛ لأنه نوعٌ من المتاع، فلم يَجز؛ أصله الأكل والشرب، ولأن العِلَّة في ذلك استعجالُ أَمرِ[٤] الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكلُ والشرب وسائرُ أجزاءِ الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٥]، فلم يجعل لنا فيها حظًّا في الدنيا.

الثالثة: إذا كان الإناءُ مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقةٌ منهما، فقال مالك: لا يُعجبني أنْ يُشربَ فيه، وكذلك المرآةُ تكون فيها الحلقةُ من الفضة، لا يعجبني أن ينظرَ فيها وجهَه. وقد كان عند أنسٍ إناءٌ مضبَّبٌ بفضة، وقال: لقد سَقيتُ فيه النبيَّ ﷺ. قال ابن سيرين: كانت فيه حلقةُ حديد، فأراد أنسٌ أنْ يجعلَ فيه حلقةَ فِضة؛ فقال أبو طلحة: لا أُغيِّر شيئاً مما صنعه رسولُ الله ﷺ؛ فتركه[٦].

الرابعة: إذا لم يَجز استعمالُها لم يجز اقتناؤها؛ لأنَّ ما لا يجوز استعمالُه لا

(١) سلف في المسألة السابقة، وهو من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥) من حديث علي ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥٠)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي ٨/ ١٦٠-١٦١ دون قوله: حل لإناثها.

وله شواهد. منها حديث أبي موسى ﷺ عند أحمد (١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي ٨/ ١٩٠ .

(٤) في أحكام القرآن: أجر.

(٥) سلف في المسألة الأولى.

(٦) هو عند البخاري (٥٦٣٨) عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع، فسلسله بفضة... الخ وفيه قول أبي طلحة لأنس: لا تغيرنَّ شيئاً... الخ. وأبو طلحة: هو الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس. وقد ساق المصنف لفظ الحديث من أحكام القرآن لابن العربي.

يجوز اقتناؤه، كالصنم والطُّنْبور[1]. وفي كتب علمائنا: أنه يلزم الغُرْمُ في قيمتها لمن كسرها، وهو معنًى فاسد، فإنَّ كَسْرَها واجب، فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمُها في الزكاة بحال. وغيرُ هذا لا يُلتفت إليه[2].

قوله تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ قال الجوهري: الصَّحْفة كالقَصْعة، والجمع: صِحاف. قال الكِسائي: أعظم القصاع الجَفْنة، ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تُشبع الخمسة، ثم المِئْكَلة تُشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل. والصحيفة: الكتاب، والجمع: صُحُف وصحائف[3].

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهري[4]: الكوب: كوزٌ لا عُروةَ له، والجمع: أكواب. قال الأعشى يصف الخمر:

صَريفِيَّةٌ[5] طَيِّبٌ طَعْمُها ... لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ

وقال آخر[6]:

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه ... يسعى عليه العَبْدُ بالكوبِ

وقال قتادة: الكُوب: المدوَّرُ القصير العنقِ القصيرُ العروة، والإبريق: المستطيل العنق الطويلُ العروة. وقال الأخفش: الأكواب: الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرًى. وقال مجاهد: إنها الآنيةُ المدوَّرةُ الأفواه. السُّدِّي: هي التي لا آذان لها[7]. ابن عُزيز: «أكواب»: أباريقُ لا عُرَى لها ولا

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو والطرب. المعجم الوسيط (طنب).

(٢) نهاية كلام ابن العربي.

(٣) الصحاح (صحف).

(٤) في الصحاح (كوب).

(٥) في الديوان ص٦٧: صليفية، وهي المعتَّقة كما قال شارحه. والصريفية: نسبة إلى صَريفون: بلدة بواسط منها الخمر الصريفية. أو قيل لها: صريفية؛ لأنها أخذت من الدن ساعتئذ، كاللبن الصريف. القاموس (صرف).

(٦) هو عدي بن زيد، والبيت في تهذيب اللغة ١٠/ ٤٠٠، والصحاح، واللسان (كوب).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨-٢٣٩، وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٤-٦٤٥.

خراطيم؛ واحدها كُوب[١].

قلت: وهو معنى قولِ مجاهدٍ والسُّدِّيّ، وهو مذهب أهلِ اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرًى.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ روى التِّرمذيُّ عن سليمانَ بنِ بُريدة، عن أبيه: أنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن خيل؟ قال: «إنِ اللهُ أدخلك الجنة، فلا تشاءُ أن تحمِلَ فيها على فرس مِن ياقوتة حمراءَ يطير بك [في الجنة] حيث شئتَ[٢]». قال: وسأله رجلٌ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن إبل؟ قال: فلم يقل له مِثلَ ما قال لصاحبه، قال: «إنْ يُدخلكَ اللهُ الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عينُك»[٣].

وقرأ أهل المدينة وابنُ عامر وأهلُ الشام[٤]: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ»، الباقون: «تَشْتَهي الأَنْفُسُ» أي: تشتهيه الأنفس[٥]؛ تقول: الذي ضربت زيد[٦]، أي: الذي ضربته زيد.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ تقول: لذَّ الشيءُ يَلَذُّ لَذاذاً، ولَذاذة. ولَذِذت بالشيء أَلَذّ ـ بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل ـ لَذاذاً ولَذَاذة، أي: وجدته لذيذاً.

---

(١) نزهة القلوب ص٩٨ .

(٢) في رواية أحمد زيادة: إلا ركبت.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٤٣)، وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (٢٢٩٨٢) كلاهما من طريق المسعودي، عن علقمة بن مَرْثَد، عن ابن بريدة... وخالف المسعوديَّ سفيانُ الثوري ـ كما أخرجه الترمذي عقب الحديث ـ فرواه عن علقمة بن مرثد، عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصح من حديث المسعودي .

وللحديث شواهد.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ق): في أهل الشام .

(٥) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ . وقرأ حفص أيضاً عن عاصم مثل قراءة أهل المدينة وابن عامر .

(٦) في النسخ الخطية: زيداً. والمثبت من (م).

والْتذذت به وتلذَّذت به بمعنًى[١]. أي: في الجنة ما تستلَذُّه العينُ، فكان حَسَنَ المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: «وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ كما في الخبر: «أسألك لَذَّةَ النظرِ إلى وجهك»[٢]. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغَّضت.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: يقال لهم: هذه تلك الجنةُ التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالويه: أشار تعالى إلى الجنة بـ «تلك» وإلى جهنم بـ «هذه»؛ ليخوّفَ بجهنم ويؤكِّدَ التحذيرَ منها. وجعلها بالإشارة القريبةِ كالحاضرة التي يُنظر إليها.

﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نَفْسٍ جنةً وناراً؛ فالكافر يرث نارَ المسلم، والمسلمُ يرث جنةَ الكافر[٣]؛ وقد تقدَّم هذا مرفوعاً في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] من حديث أبي هريرة[٤]، وفي «الأعراف» أيضاً[٥].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٧٣﴾

الفاكهة معروفة، وأجناسُها الفواكه، والفاكِهانيُّ: الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمارُ كلُّها، رَطْبُها ويابِسُها، أي: لهم في الجنة سوى الطعامِ والشراب فاكهةٌ كثيرة يأكلون منها.

---

(١) الصحاح (لذذ).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي ٣/ ٥٤-٥٥ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مطولاً.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ٨١.

(٤) ١٥/ ١٥-١٦.

(٥) ٩/ ٢٢٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لمَّا ذكر أحوالَ أهل الجنة؛ ذَكَرَ أحوال أهلِ النار أيضاً؛ ليبيِّنَ فضلَ المطيع على العاصي. ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم ذلك العذاب. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوتَ يأس. وقد مضى في «الأنعام»[١]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسَهم بالشِّرك. ويجوز: «وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبرُ كان[٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازنُ جهنم، خَلَقَه لِغضبه؛ إذا زجر النارَ زجرةً أكل بعضُها بعضاً.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود رضي الله عنهما: «وَنَادَوْا يَا مَالِ». وذلك خلافُ المصحف[٣]. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبيُّ ﷺ: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» باللام خاصة[٤]؛ يعني رَخَّم الاسمَ وحذف الكاف. والترخيمُ الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يُحذفَ مِن آخره حرفٌ أو أكثر، فتقول في مالك: يا مالِ، وفي حارث: يا حارِ، وفي فاطمة: يا فاطمَ، وفي عائشة: يا عائشَ، وفي مروان: يا مروَ، وهكذا. قال[٥]:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) الكلام بنحوه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وهي قراءة ابن مسعود كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٤ . قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤٢٠ : لا تقرأنَّ بها لأنها تخالف المصحف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦ ، والمحتسب ٢/ ٢٥٧ .

(٤) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ ص١٤٦-١٤٧ عن أبي الدرداء ﷺ.

(٥) هو زهير، والبيت في ديوانه ص١٨٠ .

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية لم يَلْقَها سُوقةٌ قَبلي ولا مَلِكُ

وقال امرؤ القيس[(١)]:

أحارِ ترى بَرْقاً أُريك وميضَه كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكلَّلِ

وقال أيضاً[(٢)]:

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجْمِلِ

وقال آخر[(٣)]:

يا مَروَ إنَّ مطيَّتي محبوسةٌ ترجو الحِباءَ ورَبُّها لم ييأسِ

وفي صحيح الحديث: «أي فُلُ، هلُمَّ»[(٤)].

ولكَ في آخر الاسم المرخَّمِ وجهان: أحدهما: أن تُبْقيَه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر: أن تَبنيَه على الضم؛ مثل: يا زيدُ؛ كأنك أنزلته منزلتَه ولم تراعِ المحذوف[(٥)].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ قال: حدَّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيُّ قال: حدَّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال: حدَّثنا حجاجٌ، عن شعبة، عن الحكم بن عتيبة[(٦)]، عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزُّخرف حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «بيتٌ من ذهب»، وكنا لا ندري: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» أو: يا ملك ـ بفتح اللام وكسرها ـ حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» على الترخيم[(٧)]. قال أبو بكر: لا يُعمل

(١) ديوانه ص٢٤ . وسلف ٣/ ٤٢٥ .

(٢) ديوانه ص١٢ .

(٣) هو الفرزدق، والبيت في ديوانه ١/ ٣٨٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٨٤١)، وصحيح مسلم (١٠٢٧): (٨٦) من حديث أبي هريرة مطولاً. وسلف ٨/ ٣٤١ بنحوه. وقوله: فلُ، أي: فلان.

(٥) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ .

(٦) تحرفت في النسخ إلى: عيينة.

(٧) ذكر قول مجاهد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وذكر القطعة الثانية منه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٢١ .

على هذا الحديث؛ لأنه مقطوعٌ لا يُقبل مِثلُه في الرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وكتابُ الله أحقُّ بأن يُحتاطَ له ويُنفى عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاريِّ عن صَفْوان بنِ يَعْلَى، عن أبيه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1] بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: بلغني ـ أو ذُكر لي ـ أنَّ أهل النار استغاثوا بالخَزَنَة، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يومًا واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذاب؛ فرَدَّت عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نَادَوْا مالكًا؛ وهو مُشرِفٌ[2] عليهم وله مجلسٌ في وسطها، وجسورٌ تمرُّ عليها ملائكةُ العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها، فقالوا: «يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ». قال[3]: سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانينَ سَنة، قال: والسَّنة سِتُّونَ وثلاثُ مِئةِ يوم، والشهر ثلاثون يوماً، واليومُ كألف سَنةٍ مما تَعدُّون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: «إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك.

وفي حديث أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «فيقولون: ادعوا مالكاً، فيقولون: يا مالك لِيقضِ علينا ربُّك، قال: إنكم[4] ماكثون». قال الأعمش: نُبِّئتُ أنَّ بين دعائهم وبين إجابةِ مالكٍ إياهم ألفَ عام. خرَّجه الترمذي[5].

وقال ابن عباس: يقولون ذلك فلا يجيبهم ألفَ سنة، ثم يقول: إنكم ماكثون.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٠). وهو عند أحمد (١٧٩٦١)، ومسلم (٨٧١).

(٢) قوله: مشرف، من (ظ).

(٣) لفظة: قال ليست في (م).

(٤) قبلها في سنن الترمذي: فيجيبهم.

(٥) في سننه (٢٥٨٦)، ورجح وقفه. والأعمش أحد رجال السند.

وقال مجاهد ونَوْفٌ البِكَاليّ: بين ندائهم وإجابته إياهم مئةُ سنة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يحتمل أنْ يكونَ هذا من قول مالكٍ لهم، أي: إنكم ماكثون في النار؛ لأننا جئناكم في الدنيا بالحقِّ فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكونَ من كلام الله لهم اليوم، أي: بيَّنَّا لكم الأدلةَ وأرسلنا إليكم الرسل[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: «وَلَكِنّ أَكْثَرَكُمْ» أي: ولكنَّ كلَّكم[٤]. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساءَ والقادةَ منهم، وأما الأَتباعُ فما كان لهم أثر. ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي: للإسلام ودينِ الله ﴿كَٰرِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓاْ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبيِّ ﷺ في دار الندوة، حتى استقرَّ أمرُهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أنْ يبرُزَ من كل قبيلةٍ رجلٌ ليشتركوا في قتله، فتَضعُف المطالبةُ بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل اللهُ جميعَهم ببدر[٥].

«أَبْرَمُوا»: أحكموا. والإبرام: الإحكام. أبرمت الشيءَ: أحكمته. وأبرم الفِتَال: إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سَحِيل؛ كما قال:

.... مِـــنْ سَـــحِـــيـــلٍ ومُـــبْـــرَمِ[٦]

---

(١) قولا ابن عباس ونوف البكالي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٦٤٩، ٦٥٠.

(٢) في الزهد (٣١٩ زوائد نعيم) مطولاً. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٩ - ٦٥٠.

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٦٥. وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٦.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٨٢.

(٥) ذكره مختصراً الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٢٨، وذكره بطوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ غير أنه لم ينسبه لأحد.

(٦) قائله زهير، وهو في ديوانه ص١٤، والبيت بتمامه:

يميناً لَنِعم السيدان وجدتما … على كل حال من سحيل ومبرم

فالمعنى: أم أحكموا كيدًا؛ فإنَّا مُحكِمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب؛ فإنا مُجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قَضَوْا أمرًا؛ فإنَّا قاضون عليهم بالعذاب[١]. وأم بمعنى: بل. وقيل: «أَمْ أَبْرَمُوا» عطفٌ على قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الآية: ٤٥]. وقيل: أي: ولقد جئناكم بالحقّ فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا؛ لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرًا أمِنُوا به العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ﴾ أي: ما يُسِرُّونه في أنفسهم ويتناجَون به بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظةُ عندهم يكتبون عليهم. ورُوِيَ أنَّ هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سَمِع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بنُ كعب القُرَظي[٢]. وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة فصلت[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ اختُلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّي: المعنى: ما كان للرحمن ولد، فـ«إن» بمعنى «ما»، ويكون الكلام على هذا تامًّا، ثم تبتدئ: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» أي: الموحِّدين من أهل مكة

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ . وأخرج هذه الآثار ـ عدا قول الكلبي ـ الطبري ٢٠/ ٦٥٢ .

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٥٣ .

(٣) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة فصلت.

على أنه لا ولدَ له. والوقف على «العابِدِين» تام(١).

وقيل: قل يا محمد: إنْ ثبت لله ولد، فأنا أوَّلُ مَن يَعبد ولدَه، ولكن يستحيل أن يكونَ له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل، فأنا أوَّلُ مَن يعتقده؛ وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيقٌ في الكلام؛ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ: ٢٤]. والمعنى على هذا: فأنا أوَّل العابدين لذلك الولد، لأنَّ تعظيم الولد تعظيمٌ للوالد.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان للرحمن ولد، فأنا أوَّل مَن عبده وحده. على أنه لا ولد له.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: المعنى: لو كان له ولد، كنت أوَّلَ مَن عبده على أنَّ له ولداً؛ ولكن لا ينبغي ذلك.

قال المَهدويّ: فـ «إن» على هذه الأقوالِ للشرط، وهو الأجود، وهو اختيارُ الطبري(٢)؛ لأن كونها بمعنى «ما» يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى.

وقيل: إنَّ معنى «الْعَابِدِينَ»: الآنِفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان: العَبِدِين. وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني(٣): «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِدِينَ» بغير ألف، يقال: عَبِدَ يَعْبَدَ عَبَدًا ـ بالتحريك ـ إذا أَنِف وغضِب، فهو عَبِد، والاسم العَبَدة، مثلُ الأَنفة، عن أبي زيد(٤). قال الفرزدق:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٢ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤١ . وينظر الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٨٦ .

(٢) في تفسيره ٢٠/ ٦٥٧ -٦٥٨ ، وفيه أثر مجاهد والسدي ص٦٥٤ ، ٦٥٦ .

(٣) في النسخ الخطية: أبو عبد الرحمن اليماني، والمثبت من (م)، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ٥٢/ ٩٩ . ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦ لأبي عبد الرحمن. ووقع في القراءات الشاذة ص١٣٧ : أبو عبد الله واليماني، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٨ .

(٤) الصحاح (عبد).

أولـئـك أحـلاسـي فـجـئـنـي بـمـثـلـهـم وأَعْـبَـدُ أن أهـجُـو كُـلَـيْـبًـا بـدارمِ[١]

ويُنشد أيضاً:

أولـئـك نـاس إن هَـجَـونـي هـجـوتُـهـم وأَعْـبَـدُ أن يُـهـجـى كُـلَـيْـبٌ بـدارم[٢]

قال الجوهري[٣]: وقال أبو عمرو: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَـٰبِدِينَ﴾ من الأنَف والغضب، وقاله الكِسائيُّ والقُتَبي، حكاه الماورديُّ عنهما[٤]. وقال الهَرَوِي: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَـٰبِدِينَ﴾ قيل: هو من عَبِد يَعْبَد، أي: من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال: عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد؛ وقلَّما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذِّ، ولكنَّ المعنى: فأنا أوَّلُ مَن يعبدُ الله عزَّ وجلَّ على أنه واحدٌ لا ولد له.

ورُوي أنَّ امرأة دخلت على زوجها فوَلدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمانَ ﷺ فأمر برجمها؛ فقال له عليٌّ ﷺ: قال الله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿وَفِصَـٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤] فوالله ما عَبِدَ عثمانُ أنْ بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب: يعني: ما استنكف ولا أَنِف[٥].

وقال ابن الأعرابي: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: الغِضابِ الآنفين. وقيل: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: أنا أوَّلُ مَن يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم[٦]. أبو عبيدة[٧]: معناه الجاحدين؛ وحُكي: عَبَدَني حَقِّي، أي: جحدني[٨].

(١) إصلاح المنطق ص٥٩، والصحاح (عبد)، وفصل المقال لأبي عبيد البكري ص٣٨١. قوله: الأحلاس جمع حِلْس: وهو الكبير من الناس. القاموس (حلس).

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٥١٢، واللسان (عبد) باختلاف يسير.

(٣) في الصحاح (عبد).

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٤١. وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن له ص٤٠١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٧.

(٦) ياقوتة الصراط ص٤٦١ - ٤٦٢.

(٧) في مجاز القرآن ٦/ ٢٠٧.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصمًا: «وُلْدٌ» بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم: «وَلَدٌ». وقد تقدَّم[١].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تنزيهاً له وتقديساً، نَزَّه نفسه عن كلِّ ما يقتضي الحدوث. وأمرَ النبيَّ ﷺ بالتنزيه .﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ﴾ يعني كفارَ مكةَ حين كذَّبوا بعذاب الآخرة. أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إمَّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إنَّ هذا منسوخٌ بآية السيف. وقيل: هو مُحْكَم، وإنما أُخرج مُخرجَ التهديد[٢].

وقرأ ابن مُحيصِن ومجاهدٌ وحُميدٌ وابن القَعقاع وابن السَّمَيْفَع: «حَتَّى يَلْقَوا» بفتح الياء وإسكانِ اللام مِن غير ألف وفتحِ القاف، هنا وفي «الطور» و«المعارج». الباقون: «يُلَاقُوا»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذا تكذيبٌ لهم في أنَّ لله شريكًا وولدًا، أي: هو المستحِقُّ للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر ﷺ وغيرُه: المعنى: وهو الذي في السماء إلهٌ في[٤] الأرض[٥]؛ وكذلك قرأ[٦]. والمعنى[٧]: أنه يُعبد فيهما. ورُوي أنه قرأ هو وابنُ مسعود وغيرُهما:

---

(١) السبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٤٩ - ١٥٠، وتقدم ١٣/ ٥١٩.

(٢) الكلام بنحوه في المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٨.

(٣) قراءة ابن القعقاع في هذه المواضع في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي من العشرة، وقراءة ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٤) في (د) و(ظ): وفي ...

(٥) بعدها في (ظ): إله.

(٦) في (د) و(ظ): قرئ، ولم نقف عليها.

(٧) قبلها في (ظ): ويقرى بغير واو وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله يعني إله السماء والأرض واحد.. (وقع بعدها سواد).

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ»[١] وهذا خلاف المصحف. و«إلهٌ» رفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي[٢]. وحَسُن حذفُه لطول الكلام[٣]. وقيل: «في» بمعنى «على»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل؛ أي: هو القادر على السماء والأرض. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل، من البركة. وقد تقدَّم[٥]. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: وقتُ قيامها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكِسائي: «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» بالياء. الباقون بالتاء[٦]. وكان ابن مُحَيْصِن وحُميدٌ ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوَّلَه على أصولهم. وضَمَّ الباقون[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ «مَنْ» في موضع الخفض. وأراد بـ «الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونه» عيسى وعُزَيراً والملائكة. والمعنى: ولا يملك هؤلاء الشفاعة

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢.

(٣) أمالي ابن الشجري ١/ ١١٣ و ٣٣١ بنحوه.

(٤) ١/ ٤٢٩.

(٥) ٩/ ٢٤٤.

(٦) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٧) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي بالتاء من رواية روح، وبالياء من رواية رويس.

إلَّا لمن شهد بالحقِّ وآمن على علمٍ وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره[١]. قال: وشهادةُ الحقِّ: لا إله إلا الله.

وقيل: «مَنْ» في محلِّ رفع؛ أي: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعةَ ـ يعني الآلهة؛ في قول قتادة[٢]، أي: لا يشفعون لعابديها ـ إلَّا مَن شهد بالحق، يعني عُزيراً وعيسى والملائكة؛ فإنهم يشهدون بالحقِّ والوَحدانيةِ لله[٣]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به.

وقيل: إنها نزلت بسبب أنَّ النَّضْر بنَ الحارث ونَفَراً من قريش قالوا: إنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا فنحن نتولَّى الملائكة، وهم أحقُّ بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[٤] أي: اعتقدوا أنَّ الملائكة أو الأصنام أو الجِنَّ أو الشياطين تشفع لهم، ولا شفاعةَ لأحد يومَ القيامة.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أُذِن لهم. قال ابن عباس: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» أي: شَهِد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله[٥].

وقيل: أي: لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يَشفعَ لهم أحدٌ إلَّا مَن شَهِد بالحق؛ فإنَّ مَن شهد بالحق يَشفع له ولا يَشفع لمشرك. و«إلَّا» بمعنى: لكن، أي: لا ينال المشركون[٦] الشفاعةَ، لكن ينال الشفاعةَ مَن شهد بالحق؛ فهو استثناءٌ منقطع.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦١ عن مجاهد، والاستثناء على هذا التأويل منفصل، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٢) أخرج قوله الطبري ٢٠/ ٦٦٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ ، والاستثناء على هذا التأويل متصل، وهو ما رجحه البغوي وابن عطية، وتكون «مَنْ» في محل رفع على البدلية من «الذين»، ويجوز أيضاً النصب على الاستثناء. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣) دون قوله: وأن محمداً رسول الله.

(٦) في النسخ الخطية: المشركين.

ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملةِ «الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الملائكةَ[١]. ويقال: شَفَعْته وشَفَعْت له؛ مثل: كِلْته وكِلْت له. وقد مضى في «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها[٢]، فلا معنى لإعادتها.

وقيل: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ»: إلَّا مَن تشهد له الملائكةُ بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأنْ يكونَ اللهُ أخبرهم به، أو بأنْ شاهدوه على الإيمان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على معنيين: أحدهما: أنَّ الشهادة[٣] بالحقِّ غيرُ نافعةٍ إلّا مع العلم، وأنَّ[٤] التقليد لا يُغني مع عدم العلمِ بصحة المقالة. والثاني: أنَّ شرط سائرِ الشهادات في الحقوق وغيرِها أن يكونَ الشاهدُ عالماً بها. ونحوُه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ «إذا رأيتَ مِثلَ الشمس فاشهد، وإلَّا فَدَعْ». وقد مضى في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: لَأقرُّوا بأنَّ الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيرَه رجاءَ شفاعتِهم له. يقال: أَفَكه يَأْفِكه أَفْكًا؛ أي: قَلَبه وصَرَفه عن الشيء. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[٦] [الأحقاف: ٢٢]. وقيل: أي: ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى «مَنْ خَلَقَهُمْ» لَقالوا: الله. «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي: فأنَّى يُؤفك هؤلاء في ادِّعائهم إياهم آلهةً!

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٨.
(٢) ٢/ ٧٦.
(٣) في (م): الشفاعة.
(٤) في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩ ـ والكلام منه ـ: فإن.
(٥) ٤/ ٤٤١.
(٦) الصحاح (أفك).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٌ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾

في «قِيلِهِ» ثلاثُ قراءات: النصب، والجرّ، والرفع. فأمَّا الجرُّ، فهي قراءةُ عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب[١]. وأما الرفع؛ فهي قراءة الأعرجِ وقتادةَ وابنِ هُرْمُزٍ[٢] ومسلم بن جُنْدب[٣].

فمن جَرَّ حمله على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وعلمُ قِيلِه.

ومَن نصب فعلى معنى: وعنده عِلم الساعة ويعلم قِيلَه؛ وهذا اختيار الزَّجاج[٤].

وقال الفرَّاء والأخفش[٥]: يجوز أن يكون ﴿قِيلَهُۥ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠].

قال ابن الأنباري[٦]: سألتُ أبا العباس محمد بنَ يزيدَ المبرِّد: بأيِّ شيءٍ تَنْصِبُ القيل؟ فقال: أنصبه على «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيعْلَم قِيلَه». فمن هذا الوجهِ لا يَحسُن الوقفُ على «تُرْجَعُونَ»، ولا على «يَعْلَمُونَ». ويحسُن الوقفُ على «يَكْتُبُونَ». وأجاز الفراءُ والأخفش[٧] أن يُنصبَ القيلُ على معنى: [أنَّا] لا نسمع سِرَّهم ونجواهم وقِيلَه؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجهِ لا يحسُن الوقف على «يَكْتُبُونَ»[٨].

وأجاز الفراء والأخفش أيضًا[٩] أن يُنصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قِيلَه، وشكا شكواه إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال كعب بن زهير:

---

(١) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٢) هو نفسه الأعرج المذكور، واسمه عبد الرحمن، روى له الجماعة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٨، والقراءات الشاذة ص١٣٦، والبحر ٨/ ٣٠.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٢١.

(٥) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.

(٦) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٦.

(٧) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

(٨) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧.

(٩) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

يـمـشـي الـوُشـاةُ جَـنـابَـيـهـا وقِـيـلَـهُـمُ إنَّـك يـا ابـنَ أبـي سُـلْـمَـى لَـمـقـتـولُ

أراد: ويقولون قيلَهم[١].

ومَن رفع «قيله»، فالتقدير: وعنده قِيلُه، أو: قِيلُه مسموع[٢]، أو: قِيلُه هذا القولُ.

الزمخشريّ: والذي قالوه ليس بقويٍّ في المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسُن اعتراضًا، ومع تنافر النَّظْم. وأقوى من ذلك وأوجهُ أن يكونَ الجرُّ والنصب على إضمار حرفِ القَسَم وحذفِه. والرفع على قولهم: أَيمُنُ الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولَعَمرُك، ويكون قولُه: «إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» جوابَ القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله: ياربِّ، أو: قيلِهِ: يا ربِّ قَسَمي، إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون[٣].

وقال ابن الأنباري[٤]: ويجوز في العربية: «وقيلُه» بالرفع، على أنْ تَرفعَه بـ «إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون». المهدوي: أو يكون على تقدير: وقِيلُه قِيلُه يا ربّ؛ فحذف قيله الثاني[٥] الذي هو خبر. وموضع «يا ربّ» نصبٌ بالخبر المضمَر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذفُ بعضِ الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كَثُر حتى صار بمنزلة المذكور.

والهاء في «قِيله» لعيسى[٦]، وقيل: لمحمد ﷺ، وقد جرى ذِكْرُه إذ قال: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ»[٧].

---

(١) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ . وبيت كعب في ديوانه ص٨٩ ، وروايته: يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٨ .

(٤) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧.

(٥) في النسخ الخطية: الأول.

(٦) ضعَّف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٦٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

وقرأ أبو قِلابة: «يَاربَّ» بفتح الباء[١]. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر: «نهى عن قِيْلٍ وقال»[٢]. ويقال: قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا. وفي النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [الآية: ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قال قتادة: أمرَه بالصَّفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفحُ منسوخاً بالسيف. ونحوُه عن ابن عباس قال: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ»: أَعرِض عنهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌۚ﴾ أي: معروفًا؛ أي: قل لمشركي أهل مكة «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم نُسخ هذا في سورة براءةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [الآية: ٥][٣]. وقيل: هي مُحْكَمة لم تُنسخ.

وقراءة العامة: «فَسَوْفَ يعلمون» بالياء؛ على أنه خبرٌ من الله تعالى لنبيِّه بالتهديد. وقرأ نافعٌ وابن عامر: «تَعْلَمُونَ» بالتاء[٤]؛ على أنه من خطاب النبيِّ ﷺ للمشركين بالتهديد. و«سَلَامٌ» رفع بإضمار: عليكم؛ قاله الفرَّاء[٥]. ومعناه: الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيَّةً لهم؛ حكاه النقَّاش. وروى شعيب بن الحَبْحاب أنه عرَّفه بذلك كيف السلامُ عليهم[٦]؛ والله أعلم.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٧، وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة، وسلف ٥/ ٢٥١.

(٣) أخرج قولهما النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٤، وقول قتادة أخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٦٥.

(٤) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣.

سورة الدُّخَان

مكية باتفاق؛ إلا قولَه تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًاۚ﴾ [الآية: ١٥]. وهي سبعٌ وخمسون آية. وقيل: تسع[١]. وفي مسند الدَّارميِّ[٢] عن أبي رافع قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوِّج من الحور العين». رفعه الثعلبيُّ من حديث أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»[٣]. وفي لفظ آخر عن أبي هريرةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن قرأ الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألفَ ملَك»[٤]. وعن أبي أمامةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن قرأ حم الدخان ليلةَ الجمعة أو يوم الجمعة، بَنى الله له بيتاً في الجنة»[٥].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ٢ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ٣﴾

إن جعلت «حم» جوابَ القسم، تمَّ الكلام عند قوله: «المُبِين»، ثم تبتدِئُ: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ». وإن جعلت «إِنَّا كُنَّا مُنْذِرين» جواب القسم الذي هو «الكتاب»، وقفت على:

---

(١) الكشاف ٣/٤٩٩، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٦٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٣٦ أن السورة مكية كلها.

(٢) برقم (٣٤٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المِقدام يضعف، ولم يسمع الحسنُ من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعُمر بن أبي خَثْعَم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ٢/١٦٨: فيه فضَّال بن جبير وهو ضعيف جدًّا.

«مُنْذِرِينَ»، وابتدأت: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»[١]. وقيل: الجواب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»[٢]، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقْسَم به، ولا تكون صفة المقسَم به جواباً للقَسَم.

والهاء في «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن[٣]. ومَن قال: أقسم بسائر الكتب فقوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كَنَى به عن غير القرآن، على ما تقدَّم بيانه في أوَّل «الزخرف»[٤].

والليلةُ المباركة ليلةُ القدر. ويقال: ليلةُ النصف من شعبان، ولها أربعةُ أسماء: الليلةُ المباركة، وليلةُ البراءة، وليلة الصَّكّ، وليلة القدر[٥]. ووصفها بالبركة لِمَا يُنزِّل الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلةَ أن النبيَّ ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لِستٍّ مَضَيْنَ من رمضان، وأُنزِلت الزَّبور لاثنتي عَشْرَةَ من رمضان، وأُنزِل الإنجيل لثمان عَشْرة خلت من رمضان، وأُنزِل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان»[٦].

ثم قيل: أُنزِل القرآن كلُّه إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أُنزِل نَجْماً نَجْماً في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب[٧]. وقيل: كان ينزل في كلِّ ليلةِ القدر ما ينزل

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٤) ص٦ من هذا الجزء.

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٥ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي ٩/ ١٨٨ وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت، وأن الزبور أنزل لثمان عشرة خلت. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عمران القطان، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٧ : فيه عمران القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وسلف ٣/ ١٦١ دون ذكر الزبور، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة.

(٧) سلف هذا القول في سورة البقرة ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

في سائر السنة(١). وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة(٢). وقال عكرمة: الليلةُ المباركة ها هنا ليلةُ النصف من شعبان(٣). والأوّل أصحُّ لقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كلَّه في ليلة القدر من أمّ الكتاب إلى بيت العِزَّة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة(٤). وهذا المعنى قد مضى في «البقرة»(٥) عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الآية: ١٨٥]، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾

قال ابن عباس: يُحْكِم اللهُ أمرَ الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرُهم(٦). وقيل: إلا الشقاءَ والسعادةَ فإنهما لا يتغيَّران. قاله ابن عمر(٧). قال المهدوي: ومعنى هذا القول: أمرَ الله عزَّ وجلَّ الملائكةَ بما يكون في ذلك العام، ولم يَزَل ذلك في علمه عزَّ وجلَّ. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يُبْرَم فيها أمر السَّنة، ويُنسَخ الأحياءُ من الأموات، ويُكتَب الحاجُّ، فلا يُزادُ فيهم أحد ولا يُنْقَص منهم أحد(٨).

وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «تُقطَع الآجال من شعبانَ إلى

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢١٥، والوسيط ٤/ ٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

(٤) أخرج قول ابن زيد الطبريُّ ٢١/ ٦، وأورد قول قتادة البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٨.

(٥) ٣/ ١٦٠ - ١٦١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٩٦ - ٣٩٧.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩.

شعبانَ حتى إنَّ الرجل ليَنْكِح ويُولَد له وقد خرج اسمه في الموتى»[١]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلتها، وصوموا نهارها[٢]، فإن الله يَنزِل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول: ألا مستغفرٌ فأغفرَ له، ألا مبتلًى فأُعافيَه، ألا مسترزقٌ فأرزقه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلعَ الفجر»[٣] ذكره الثعلبي.

وخرج الترمذيُّ بمعناه عن عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفرُ لأكثرَ من عدد شعر غَنَم كَلْب»[٤]. وفي الباب عن أبي بكرٍ الصديق قال أبو عيسى: حديثُ عائشةَ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاجِ بن أرْطاة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، وسمعت محمداً يُضعِّف هذا الحديث، وقال: يحيى بنُ أبي كثير لم يَسمع من عروة، والحجاجُ بن أرطاة لم يَسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديثَ عائشة مطوَّلاً صاحبُ كتاب «العروس»، واختار أنَّ الليلة التي يُفْرَق فيها كلُّ أمر حكيم ليلةُ النصف من شعبان، وأنها تُسمَّى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والردَّ عليه في غير هذا الموضع، وأنَّ الصحيح إنما هي ليلةُ القدر على ما بيَّنَّاه.

روى حمَّاد بن سَلَمةَ قال: أخبرنا ربيعة بنُ كُلْثوم قال: سأل رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، أرأيت ليلة القدر، أفي كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله

---

(١) كذا أخرجه الطبري ٢١/ ١٠ مرسلاً، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن المغيرة. وعثمان هذا هو ابن محمد بن المغيرة الأخنس منسوب إلى جده، قال ابن حجر في التقريب: صدوق له أوهام.

(٢) في (ظ) و(ق): يومها.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢٢) وفيه ابن أبي سَبْرَة، واسمه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال في الزوائد: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة. . . قال فيه أحمد بن حنبل وابن مَعين: يضع الحديث.

(٤) سنن الترمذي (٧٣٩) والكلام بعده منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٠١٨)، وابن ماجه (١٣٨٩).

الذي لا إله إلا هو، إنها لفي[١] كلِّ رمضان، إنها الليلةُ التي يُفرَق فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يَقضي الله كلَّ خلق وأجلٍ ورزقٍ وعمل إلى مثلها[٢].

وقال ابن عباس: يُكتب من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّ، يقال: يحجُّ فلان ويحجُّ فلان[٣]. وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى[٤]. وهذه الإبانة لأحكام السَّنة إنما هي للملائكة الموكَّلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً.

وقال القاضي أبو بكر بنُ العربي[٥]: وجمهورُ العلماء على أنها ليلةُ القدر. ومنهم مَن قال: إنها ليلةُ النصف من شعبان، وهو باطلٌ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليلَ ها هنا بقوله: ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفِرْية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديثٌ يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها[٦].

الزمخشريُّ[٧]: وقيل: يُبدَأ في استنساخ ذلك من اللَّوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتُدفَع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخةُ الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخةُ الأعمال إلى

(١) في (د) و(م): في.

(٢) الاستذكار ١٠/ ٣٣٨، وأخرجه الطبري ٢١/ ٧ من طريق يزيد وابن عُليَّة عن ربيعة بن كلثوم.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٥ وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠، والحاكم ٢/ ٤٤٨ - ٤٤٩.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٨.

(٦) غير أن فضلها ورد بمجموع أحاديث، وهي - وإن كان في إسناد كلٍّ منها مقال - تتقوى ببعضها. تنظر أحاديث الباب في حاشية المسند (٦٦٤٢).

(٧) في الكشاف ٣/ ٥٠٠، وإلى آخر تفسير الآية منه.

إسماعيلَ صاحبِ سماء الدنيا، وهو مَلَك عظيم، ونسخةُ المصائب إلى مَلَك الموت. وعن بعضهم: يُعطى كلُّ عامل بركاتِ أعماله، فيُلقى على ألسنة الخلق مدحُه، وعلى قلوبهم هيبتُه.

وقُرِئ: «يُفرِّق»[(١)] بالتشديد، و«يَفْرُق»[(٢)] كلٌّ على بنائه للفاعل ونصبِ «كلّ»، والفارقُ الله عزّ وجلّ. وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «نفرُق» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: كلُّ شأنٍ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ قال النقّاش: الأمرُ هو القرآنُ؛ أنزله الله من عنده. وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في اللَّيلة المباركة من أحوال عباده[(٣)].

وهو مصدرٌ في موضع الحال. وكذلك ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش[(٤)] حالان، تقديرهما: أنزلناه آمرين به وراحمين. المبرِّد: «أمرًا» في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالاً[(٥)]. الفرَّاء والزجّاج: «أمرًا» نصب بـ «يُفْرَق»، مثلُ قولك: يُفْرَق فرقًا، فأمر بمعنى فَرْق فهو مصدر، مثلُ قولك: يضرب ضرباً[(٦)]. وقيل: «يُفرَق» يدلُّ على يؤمر، فهو مصدرٌ عمل فيه ما قبله[(٧)].

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ . رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ قال الفراء[(٨)]: «رَحْمَةً» مفعول بـ «مرسِلين».

---

(١) في (م): نفرق. وقراءة: يُفَرِّق؛ بالتشديد، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٠ .

(٢) قرأ «يَفرُق» بفتح الياء وضم الراء الحسن والأعرج والأعمش، وقرأها بفتح الياء وكسر الراء أبو المتوكل وأبو نهيك ومعاذ القارئ. ينظر القراءات الشاذة ص١٣٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦ .

(٤) في معاني القرآن ٢/ ٦٩١ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٩ ، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٧) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٤ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٣٩ .

والرحمةُ النبيُّ ﷺ. وقال الزجّاج: «رَحْمَةً» مفعولٌ من أجله، أي: أرسلناه للرحمة[١]. وقيل: هي بدل من قوله: «أَمْراً». وقيل: هي مصدر[٢]. الزمخشريُّ: «أَمْراً» نصب على الاختصاص، جعل كلَّ أمر جَزْلاً فَخْماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جَزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمراً حاصلاً من عندنا، كائناً من لَدُنَّا، وكما اقتضاه علمنا وتدبيرنا.

وفي قراءة زيد بن عليٍّ: «أَمْرٌ مِنْ عِنْدِنَا» على: هو أمرٌ، وهي تَنْصُر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمةٌ» على تلك هي رحمةٌ، وهي تنصر انتصابها بأن مفعول له[٣].

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون: «رَبِّ» بالجرّ. الباقون بالرفع[٤]؛ رَدًّا على قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾. وإن شئت على الابتداء، والخبرُ: لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف، تقديره: هو ربُّ السماوات والأرض. والجرُّ على البدل من «رَبِّكَ»، وكذلك: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ بالجرِّ فيهما، رواه الشَّيْزَريّ[٥] عن الكسائي. الباقون بالرفع على الاستئناف.

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترفِ بأن الله خلق السماواتِ

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٤ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٥ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ .

(٤) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٥) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيزري الحنفي، مقرىء عالم نحوي، كان حجازياً، ثم انتقل إلى شيزر، وأقام بها إلى أن مات، فنسب إليها، أخذ القراءة عرضاً وسماعاً عن الكسائي، وله عنه انفرادات. طبقات القراء ١/ ٦٠٨ ، وقراءته في القراءات الشاذة ص١٣٧ .

والأرض، أي: إن كنتم موقنين به؛ فاعلموا أنَّ له أن يُرسل الرسل، ويُنَزِّلَ الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع مَن لا يعترف أنه الخالق، أي: ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقنُ ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنْجِد، أي: يريد نَجْداً. ويُتهِم، أي: يريد تِهامة[١].

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ أي: هو خالقُ العالم، فلا يجوز أن يُشرَك به غيرُه ممَّن لا يقدر على خلق شيء. و«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالِكُكم ومالكُ مَن تقدَّم منكم. واتَّقُوا تكذيب محمد لئلا يَنْزِل بكم العذاب.

﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يُظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقُهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شكّ. وإن توهَّموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يعُنُّ من غير حجة. وقيل: «يَلْعَبُونَ»: يضيفون إلى النبيِّ ﷺ الافتراءَ استهزاءً. ويقال لمن أعرض عن المواعظ[٢]: لاعب، وهو كالصبيِّ الذي يلعب فيفعل ما لا يدري عاقبته.

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه: انتظر، أي: انتظر يا محمدُ بهؤلاء[٣] الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين. قاله قتادة[٤]. وقيل: معناه: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين، ولذلك سُمِّيَ الحافظُ رقيباً[٥].

---

(١) ينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤١.

(٢) في (ظ): الذكر.

(٣) في (ظ): هؤلاء، وقوله: أي انتظر، من (ظ).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

وفي الدُّخان أقوال ثلاثة:

الأول: أنه من أشراط الساعة لم يَجِئ بعدُ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيصيبه مثل الزُّكام، وأما الكافرُ والفاجر فيدخل في أنوفهم فيَثْقُبُ مسامِعَهم، ويُضَيِّقُ أنفاسهم، وهو من آثار جهنَم يوم القيامة. وممَّن قال إن الدخان لم يأتِ بعدُ: عليٌّ، وابن عباس، وابنُ عمر، وأبو هريرة، وزيدُ ابن عليٍّ، والحسنُ، وابنُ أبي مُلَيكَة، وغيرُهم[١]. وروى أبو سعيدٍ الخُدْريُّ مرفوعاً أنه دخانٌ يَهيجُ بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمنَ منه كالزَّكْمة، وينفخُ الكافرَ حتى يخرج من كلِّ مسمع منه. ذكره الماوردي[٢].

وفي صحيح مسلم عن أبي الطُّفَيل، عن حُذيفةَ بنِ أَسِيدٍ الغِفاريِّ قال: اطَّلع النبيُّ ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون»؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تَرَوْا قبلها عَشْرَ آيات ـ فذكر ـ الدُّخانَ، والدَّجَّالَ، والدَّابَّةَ، وطلوعَ الشمس من مغربها، ونزولَ عيسى ابنِ مريم، وخروجَ يأجوجَ ومأجوجَ، وثلاثةَ خُسُوف: خَسْفٌ بالمَشْرِق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ بجزيرة العرب، وآخِرُ ذلك نارٌ تخرج من اليَمَن تَطْرُد الناس إلى مَحْشَرهم»[٣].

وفي رواية عن حُذيفة: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عَشْرُ آيات: خَسْفٌ بالمشرق، وخَسْفٌ بالمغرب، وخَسْفٌ في جزيرة العرب، والدُّخانُ، والدَّجَّالُ، ودابَّةُ الأرض، ويأجوجُ ومأجوجُ، وطلوعُ الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قَعْر عَدَن تُرَحِّلُ الناس»[٤].

---

(١) قول علي في تفسير عبد الرزاق ٢/٢٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٨ (١٨٥٣٤)، وقول ابن عباس وابن عمر والحسن في تفسير الطبري ٢١/١٨ - ١٩. وقول أبي هريرة في زاد المسير ٧/٣٣٩، وقول زيد بن علي في المحرر الوجيز ٥/٦٩، وقول ابن أبي مليكة في المفهم ٧/٢٣٩.

(٢) في النكت والعيون ٥/٢٤٧، وأخرجه الطبري ٢١/١٩، وابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٧ (١٨٥٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٣٩)، وهو عند أحمد (١٦١٤١).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٤٠).

وخرَّجه الثعلبيُّ أيضاً عن حُذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أوَّلُ الآيات خروجاً: الدَّجَّالُ، والدخان[(١)]، ونزولُ عيسى ابنِ مريم، ونارٌ تخرج من قَعْرِ عَدَن أبْيَنَ تسوق الناس إلى المحشر، تَبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيل معهم إذا قالوا، وتُصبح معهم إذا أصبحوا، وتُمْسي معهم إذا أمسَوا». قلت: يا نبيَّ الله، وما الدُّخان؟ قال: «هذه الآية: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمَّا المؤمنُ فيصيبه منه شبهُ الزُّكام، وأما الكافرُ فيكون بمنزلة السَّكران يخرج الدخان من فمه ومَنْخَره وعينيه وأُذُنيه ودبره»[(٢)].فهذا قول.

القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبيِّ ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً. قاله ابن مسعود[(٣)]. قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم.

والحديثُ عنه بهذا في صحيح البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ. قال البخاريُّ: حدثني يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مَسْرُوق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لمَّا استعصت على النبيِّ ﷺ، دعا عليهم بسنينَ كَسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال: فأُتيَ رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضَر فإنها قد هلكت. قال: «لِمُضَر! إنك لَجَريء». فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ [الآية: ١٥]. فلمَّا أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾. قال: يعني يومَ بدر[(٤)].

---

(١) قوله: والدخان، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٩ - ٢٠ .

(٣) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٤٠ .

(٤) صحيح البخاري (٤٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨): (٤٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٤)، وهو عند أحمد (٣٦١٣).

قال أبو عبيدة[١]: والدُّخان الجَدْب. القُتَبيُّ[٢]: سُمِّيَ دخاناً ليُبس الأرض منه حين يرتفع منها كالدخان.

القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لمَّا حجبت السماءَ الغبرةُ. قاله عبد الرحمن الأعرج[٣].

﴿يَغْشَى ٱلنَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدُّخان، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود، فهو خاصٌّ بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراط الساعة فهو عامٌّ على ما تقدم. ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقول الله لهم: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». فمن قال: إن الدخان قد مضى، فقولُه: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» حكايةُ حالٍ ماضية، ومَن جعله مستقبلاً، فهو حكايةُ حالٍ آتية. وقيل: «هَذَا» بمعنى ذلك. وقيل: أي: يقول الناس لذلك الدخان: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»[٤]. وقيل: هو إخبارٌ عن دُنُوِّ الأمر، كما تقول: هذا الشتاء فأعِدَّ له.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝١٢﴾

أي: يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب، فـ«إِنَّا مُؤْمِنُونَ»، أي: نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشًا أتَوُا النبيَّ ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذابَ، أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول[٥]. قال قتادة: «العَذَابَ» هنا الدخان. وقيل: الجوع. حكاه النقَّاش[٦].

قلت: ولا تناقض، فإن الدُّخان لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم، على ما

---

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٨، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٧ (١٨٥٣٢).

(٤) هذا القول في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٥، وزاد المسير ٧/ ٣٤١.

(٥) سلف هذا القول في الآية السابقة في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود ﷺ.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧.

تقدَّم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ ليُبس الأرض في سنة الجَدْب، وارتفاع الغبار بسبب قلَّة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجَدْب: الغَبْراء[1]. وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماورديُّ[2]: وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة، أو في أهل مكة، ولم تكن مكةُ من بلاد الثلج، غير أنه مقولٌ فحكيناه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذكُّر والاتعاظ عند حلول العذاب. ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: يبيِّن لهم الحقَّ، والذِّكْرى والذِّكْرُ واحد. قاله البخاريُّ[3]. ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا. قال ابن عباس: أي: متى يتَّعظون واللهُ أبعدهم من الاتعاظ والتذكُّر بعد تولِّيهم عن محمد ﷺ وتكذيبِهم إيَّاه؟! وقيل: أي: أنَّى ينفعهم قولُهم: «إِنَّا مُؤْمِنُونَ» بعد ظهور العذاب غدً أو بعد ظهور أعلام الساعة! فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلتَ الدخان آية مرتقبة. ﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ أي: عَلَّمه بَشَرٌ، أو علَّمه الكَهَنة والشياطين، ثم هو مجنونٌ وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: وقتاً قليلاً، وعَدَ أن يكشف عنهم ذلك العذابَ قليلاً، أي: في زمانٍ قليلٍ ليعلم أنهم لا يَفُون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه. قاله ابن مسعود. فلمَّا كُشِف ذلك عنهم باستسقاء النبيِّ ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه[4]. ومَن قال: إن الدخان منتظَرٌ قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفُرْجة بين

---

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ وما قبله منه.

(٣) في صحيحه قبل حديث (٤٨٢٣).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٧ .

آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم مَن قضى عليه بالكفر يستمرُّ على كفره، ومَن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذابَ، لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ﴾ إلينا، أي: مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى: «إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا[١].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليه ﴿مُنتَقِمُونَ﴾، أي: ننتقم منهم يوم نبطِش. وأبعده بعض النَّحْويين بسبب أنَّ ما بعد «إنَّ» لا يفسِّر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه «مُنْتَقِمُونَ». وهو بعيدٌ أيضاً؛ لأن ما بعد «إن» لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلُّقهُ بقوله: «عَائِدُونَ»، ولا بقوله: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ»؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبُه بإضمار فعل، كأنه قال: ذكِّرهم، أو: اذكر. ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عائدون، فإذا عُدتُم أنتَقِمُ منكم يومَ نبطِش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمانَ إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرِقوا. وقيل: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ» كلامٌ تامٌّ. ثم ابتدأ: «يَوْمَ نَبْطِشُ البَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أي: ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدُّخان وارتقب يَوْمَ نَبْطِش، فحذف واو العطف، كما تقول: اتق النار اتق العذاب.

و﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قولُ ابنِ عباس وأُبَيِّ بن كعب ومجاهدٍ والضحاك[٢]. وقيل: عذابُ جهنمَ يوم القيامة. قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً[٣]، واختاره الزَّجَّاج. وقيل: دخانٌ يقع في الدنيا، أو جوعٌ أو قحطٌ

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٤٧.

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢١/٢٥ - ٢٧.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٤٨، وأخرج قولهم الطبري ٢١/٢٧.

يقع قبل يوم القيامة. الماورديُّ[١]: ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمةُ بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه. والاسم منه النَّقْمة، والجمعُ النَّقِمات[٢]. وقيل بالفرق بين النَّقْمة والعقوبة، فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنَّقْمة قد تكون قبلها. قاله ابن عباس[٣]. وقيل: العقوبةُ ما تقدَّرت، والانتقامُ غير مقدَّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝١٧﴾

أي: ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنةِ والابتلاءِ الأمرُ بالطاعة. والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذَّبوا فأُهلِكوا، فهكذا أَفعلُ بأعدائك يا محمدُ إن لم يؤمنوا. وقيل: فتنَّاهم: عذَّبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، والتقدير: ولقد جاء آلَ فرعون رسولٌ كريمٌ وفتنَّاهم، أي: أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل. والواو لا تُرتِّب.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريمٌ في قومه. وقيل: كريمُ الأخلاق بالتجاوز والصفح[٤]. وقال الفرَّاء[٥]: كريمٌ على ربِّه إذِ اختصه بالنبوَّة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝١٩﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ﴾ قال ابن عباس: المعنى: جاءهم فقال: اتبعوني[٦]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» منادى. وقال مجاهد: المعنى: أَرسِلوا معي عبادَ الله

(١) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ .

(٢) الصحاح (نقم) .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٨ والكلام وما سيرد منه : قاله ابن عيسى .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٠ .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩ .

وأطلقوهم من العذاب[١]. فـ«عِبَادَ اللَّهِ» على هذا مفعول. وقيل: المعنى: أدُّوا إليَّ عبادَ الله ما وجبَ عليكم من حقوق الله. وقيل: أي[٢]: أدُّوا إليَّ سمعَكم حتى أُبلِّغكم رسالةَ ربي.

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمينٌ على الوحي فاقبلوا نُصحي. وقيل: أمينٌ على ما أستأديه منكم، فلا أَخونُ فيه[٣].

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغُوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله[٤]. والفرقُ بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جُريح: لا تَعْظُمُوا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة[٥] الله. والفرقُ بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاولُ المقتدِر، والاستكبارَ تَرفُّعُ المحتقِر. ذكره الماوردي[٦].

﴿إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ قال قتادة: بعذر بيِّن. وقال يحيى بن سلام: بحجة بيِّنة. والمعنى واحد، أي: برهان بيِّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ۝٢٠﴾

كأنهم توعَّدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: «تَرْجُمُونِ» بالحجارة[٧]. وقال ابن عباس: تشتمونِ، فتقولوا: ساحرٌ كذَّاب[٨]. وأظهر الذَّال من «عُذْتُ» نافعٌ وابنُ

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٨ بنحوه.
(٢) من قوله: أدُّوا إليَّ، إلى هذا الموضع من (ظ).
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٩.
(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣١.
(٥) في (د) والنكت والعيون ٥/ ٢٤٩: عباد.
(٦) في النكت والعيون ٥/ ٢٤٩ وما سيرد منه.
(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢.
(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢ بنحوه.

كثير وابن عامر وعاصمٌ ويعقوب، وأدغم الباقون[1]. والإدغامُ طلباً للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عذت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. وقيل: إني أعوذ، كما تقول: نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله، أي: أُقسِم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أي: إن لم تصدِّقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني. فاللام في «لي» لامُ أَجْل[2]. وقيل: أي: وإن لم تؤمنوا بي[3]، كقوله: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] أي: به. ﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: دعُوني كَفافاً لا ليَ ولا عَلَيَّ[4]. قاله مقاتل. وقيل: أي: كونوا بمعزل مني[5] وأنا بمعزِل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلُّوا سبيلي وكُفُّوا عن أذاي[6]. والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذفٌ، أي: فكفروا فدعا ربه. ﴿أَنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ بفتح «أَنَّ» أي: بأنَّ هؤلاء[7]. ﴿قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ﴾ أي: مشركون[8]، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيلَ ومن الإيمان.

---

(١) التيسير ص٤٢، والنشر ٢/ ١٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٧١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٢، والكشاف ٣/ ٥٠٣. وفي القاموس: دعني كَفافِ، كقطامِ: كُفَّ عني وأكفُّ عنك. قال الزَّبيدي في شرحه: ويجيء معرباً، ومنه قول عمر ﷺ: وددتُ أني سلمت من الخلافة كفافاً، لا عليَّ ولا لي.

(٥) في (د) و(ظ): عني.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦، والوسيط ٤/ ٨٨، والكشاف ٣/ ٥٠٣.

(٨) زاد المسير ٧/ ٣٤٣.

قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أنْ أسرِ بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿لَيْلًا﴾ أي: قبل الصباح. ﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ وقرأ أهل الحجاز «فاسْرِ» بوصل الألف. وكذلك ابنُ كثير، مِن سَرَى. الباقون: «فَأَسْرِ» بالقطع، مِن أَسْرى[١]. وقد تقدَّم[٢]. وتقدَّم خروجُ فرعونَ وراء موسى في «البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس»[٣] وإغراقُه وإنجاءُ موسى، فلا معنى للإعادة.

الثانية: أُمِر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً. وسَيْرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خَوْف، والخوفُ يكون بوجهين: إمَّا من العدوِّ فيتخذ الليل سِتراً مُسْدِلاً، فهو من أستار الله تعالى. وإمَّا مِن خوْفِ المشقة على الدَّواب والأبدان بِحَرٍّ أو جَدْب، فيتخذ السُّرَى مصلحةً من ذلك. وكان النبيُّ ﷺ يَسْرِي ويُدْلج[٤] ويترفَّق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة[٥]. وفي الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «إذا سافرتم في الخِصْب، فأعطوا الإبل حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السَّنَة، فبادروا بها نِقْيَها»[٦]. وقد مضى في أول «النحل»، والحمد لله.

(١) التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/ ٢٩٠.

(٢) ١١/ ١٨٢.

(٣) ٢/ ٩٢ - ٩٣، و١١/ ٤٥، و١٤/ ١١١، ١٦/ ٣١ وما بعدها.

(٤) قوله: ويدلج من الدُّلْجة، وهو السير من أول الليل. القاموس (دلج).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٩.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ١٢/ ٢٧٧. والمراد بالسَّنة القحط، ونقيها - بكسر النون وإسكان القاف - وهو المخّ، أي: إن سافرتم في القحط فعجّلوا السير لتصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها. شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/ ٦٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًاۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾

قال ابن عباس: ﴿رَهْوًاۖ﴾ أي: طريقاً. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضاً: سَمْتاً. الضحَّاك والربيع: سهلاً. عكرمة: يَبَسًا[(١)]، لقوله: ﴿فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]. وقيل: مفترِقاً. مجاهد: منفرِجًا[(٢)]. وعنه: يابسًا[(٣)]. وعنه: ساكنًا[(٤)]. وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة[(٥)] والهرويُّ. وقال غيرهما: منفرِجًا. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جَرْيُه انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرَّهْوُ عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا، أي: ساكنة. قال:

والخيل تَمْزَعُ رَهْوًا في أعنَّتها ... كالطير تنجو من الشُّؤْبُوبِ ذي البرَدِ[(٦)]

الجوهري[(٧)]: ويقال: افعل ذلك رَهْوًا، أي: ساكناً على هِينَتِك. وعيشٌ راهٍ، أي: ساكنٌ رافِهٌ. وخِمْسٌ[(٨)] راهٍ: إذا كان سهلاً. ورها البحر، أي: سَكَن. وقال أبو عبيدة[(٩)]: رَهَا بين رجليه يَرْهُو رَهْوًا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ

(١) أخرج هذه الأقوال دون قول ابن عباس الأول وقول الحسن الطبريُّ ٢١/ ٣٥-٣٧، أما قول ابن عباس الأول فقد أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ٨٩، وقول الحسن أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص١٥١.

(٢) أورد هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢١٨، والماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٨٩، وعلقه عنه البخاري قبل الحديث (٤٨٢٠).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٣، والوسيط ٤/ ٨٨، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٢٠).

(٥) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١.

(٦) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص ٣٤، وفيه: غَرْباً، بدل: رهواً. والغَرْب الفرس الكثير الجري. وتمزع، أي: تسرع. والشؤبوب: الدُّفعة من المطر. القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب).

(٧) في الصحاح (رها).

(٨) الخِمس: من أظمأ الإبل، وهي أن ترعى ثلاثة أيام، وترد اليوم الرابع، وقد أخمس الرجل، أي: وردت إبله خِمساً. الصحاح (خمس).

(٩) في (م): أبو عبيد.

رَهْوًا﴾. والرَّهْوُ: السيرُ السَّهْل، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا. قال ابن الأعرابي: رَهَا يَرْهُو في السير، أي: رَفَقَ. قال القَطامي في نعت الرِّكَاب:

يَمْشِينَ رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلةٌ ولا الصدورُ على الأعجاز تَتَّكِلُ[(١)]

والرَّهْوُ والرَّهْوَة: المكان المرتفع، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرَّهو: الجَوْبَةُ تكون في[(٢)] مَحَلَّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره[(٣)]. وفي الحديث أنه قضى أن «لا شُفعةَ في فِناء ولا طريقٍ ولا مَنْقَبةٍ ولارُكْحٍ ولا رَهْوٍ»[(٤)]. والجمع رِهَاء. والرَّهْوُ: المرأةُ الواسعة الهَنِ، حكاه النَّضْر بن شُمَيلٍ. والرَّهْو: ضربٌ من الطير، ويقال: هو الكُرْكِيُّ.

قال الهَرَويُّ: ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى ـ وقاله القشيريّ ـ أي: سِرْ ساكنًا على هِينَتِك، فالرَّهوُ من نعت موسى وقومِه لا من نعت البحر. وعلى الأوّل هو من نعت البحر، أي: اتركه ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه[(٥)].

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لمَّا قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون، فقيل له هذا[(٦)].

وقيل: ليس الرَّهو من السكون، بل هو الفُرجة بين الشيئين، يقال: رَهَا ما بين الرِّجلين، أي: فرج. فقوله: «رَهْوًا» أي: منفرِجًا. وقال الليث: الرَّهْو مَشْيٌ في

---

(١) ديوان القطامي ص ٢٦.

(٢) بعدها في (د) و(ظ): فناء. اهـ. والجَوْبة: الحفرة المستديرة الواسعة. المعجم الوسيط.

(٣) غريب الحديث ٣/ ١٢٢.

(٤) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ٣/ ١٢١، وابن الأثير في النهاية ٢/ ٢٨٥. قال أبو عبيد: المَنْقَبة هي الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلكه أحد. والرُّكح: ناحية البيت من ورائه، وربما كان فضاء لا بناء فيه.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٤.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري ٢١/ ٣٥.

سكون[1]، يقال: رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ. وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافض. وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا، أي: ساكنًا بغير شدَّة. وقد ذكرناه آنفاً.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن فرعون وقومه ﴿جُندٌ مُّغْرَقُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفًى[2]. ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَـٰكِهِينَ﴾ النَّعْمة ـ بالفتح ـ: التنعيم، يقال: نعَّمه الله وناعَمَه فتَنعَّم، وامرأةٌ مُنَعَّمةٌ ومُناعَمَةٌ، بمعنًى. والنِّعمة ـ بالكسر ـ: اليد والصنيعة والمِنَّة وما أُنعِم به عليك. وكذلك النُّعْمى. فإن فتحتَ النون مددتَ وقلتَ: النَّعماء. والنعيم مثله. وفلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، جميعه عن الجوهريّ[3]. وقال ابن عمر: المراد بالنَّعمة نيلُ مصر. ابن لهيعة: الفَيُّوم[4]. ابن زياد: أرضُ مصرَ لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعَة. وقد يقال: نَعْمَة ونِعْمَة؛ بفتح النون وكسرها، حكاه الماورديّ[5]. قال: وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أنها بكسر النون في المِلْك، وبفتحها في البَدَن والدِّين. قاله النَّضْر بن شُمَيل.

الثاني: أنها بالكسر من المِنَّة؛ وهو الإفضال والعطيَّة، وبالفتح من التنعيم؛ وهو

(١) ذكر قول الليث الأزهري في تهذيب اللغة ٦/ ٤٠٣ .

(٢) ١٣/ ١٠٢ وما بعدها .

(٣) في الصحاح (نعم).

(٤) الفيوم: موضع بمصر، بينها وبين الفسطاط أربعة أيام ، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى . معجم البلدان ٤/ ٢٨٦ .

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥١ - ٢٥٢ .

سَعةُ العيش والراحة. قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه.

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «فَكِهِينَ» بغير ألف[(١)]، ومعناه: أشِرين بَطِرين[(٢)]. قال الجوهري: فَكِهَ الرجل ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مَزَّاحاً. والفَكِه أيضاً الأشِر البَطِر. وقرئ: «وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ»، أي: أشِرين بَطِرين. و«فَاكِهِينَ» أي: ناعمين[(٣)]. القشيري: «فَاكِهِينَ»: لاهين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي مَزَّاح. وفيه فكاهة، أي: مَزِح. الثعلبيّ: وهما لغتان كالحاذر والحَذِر، والفارِه والفَرِه. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة؛ كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة[(٤)]. والفاكهة: فضلٌ عن القوت الذي لا بدّ منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾

قال الزَّجَّاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على «كَذَلِكَ»[(٥)]. وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير: نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه[(٦)]. وقال الكلبي: «كَذَلِكَ» أفعل بمن عصاني[(٧)]. وقيل: «كَذَلِكَ» كان أمرهم فأُهلكوا. ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل، ملّكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبَدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث[(٨)]. ونظيره:

---

(١) قراءة أبي رجاء والحسن في تفسير الطبري ٢١/ ٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٣، وقراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٥٤، وهو من العشرة.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٣٩.

(٣) الصحاح للجوهري (فكه).

(٤) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٢، ونسبه لابن عيسى.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢٦.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٦.

(٧) الوسيط ٤/ ٨٩، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٢.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢.

﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين بالغرق[1]. وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبته الأشياءَ حتى بكته السماءُ والأرضُ والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

الـريـحُ تـبـكـي شَـجْـوَهُ ... والـبـرقُ يـلـمـع فـي غـمـامـه[2]

وقال آخر:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة ... تبكي عليك نجومَ اللَّيل والقمرا[3]

وقالت الخارجية:

أيا شجرَ الخابور مَالَكَ مُورِقًا ... كأنك لم تجزع على ابن طَرِيفِ[4]

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجَزَع والبكاءِ عليه[5].

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظُم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فَقْد.

وقيل: في الكلام إضمار، أي: ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من

(١) ذكر هذا الكلام الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٣ ونسبه للكلبي.

(٢) البيت ليزيد بن المفرِّغ الحميري، وهو في ديوانه ص ١٤٣ براوية: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٢/ ٧٣٦ وجاء الشطر الأول فيه: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وهو برواية المصنف في الكامل ٢/ ٨٣٣، والعقد الفريد ١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤ وغيرهم وقوله: «نجومَ» بالفتح، نصبت بـ«كاسفة» يعني أنها تكسف النجومَ والقمر بإفراط ضيائها. ينظر الكامل للمبرد.

(٤) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ٢٦٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٤.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٤.

الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] بل سُرُّوا بهلاكهم. قاله الحسن(١).

وروى يزيد الرَّقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله. فإذا مات، فقداه فبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾»(٢).

يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعِد لهم إلى السماء عملٌ صالح فتبكي فَقْدَ ذلك.

وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً(٣). قال أبو يحيى: فعجبت من قوله، فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد [كان] يَعْمُرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدوِيِّ النحل!(٤).

وقال عليٌّ وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مُصَلَّاه من الأرض، ومصعدُ عمله من السماء. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعدُ عملهم من السماء، ولا مواضعُ عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جُبير(٥).

وفي بكاء السماء والأرض ثلاثةُ أوجه: أحدُها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قولَ مجاهد(٦). وقال شُريحٌ الحضرمي: قال النبيُّ ﷺ: «إن الإسلام

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ - ٢٥٣، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة ويزيد بن أبان يضعفان في الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٧٠، والطبري ٢١/ ٤٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٨٩) وأبو يحيى: هو القتَّات، وهو لين الحديث كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٢ وأخرج قول علي ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وقول ابن عباس الطبري ٢١/ ٤٢، والبيهقي في الشعب (٣٢٨٨) بنحوه مطولاً، وقول سعيد بن جبير الطبري ٢١/ ٤٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء يوم القيامة. قيل: مَن هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين إذا فسد الناس صَلَحُوا». ثم قال: «ألا لا غُرْبَةَ على مؤمن، وما مات مؤمن في غُربة غائبًا عنه بواكيه إلَّا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على الكافر»[١].

قلت: وذكر أبو نعيم [حدثنا] محمد بن مَعْمر قال: حدثنا أبو شعيب الحرَّاني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: حدثني عطاءٌ الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بُقعة من بقاع الأرض إلَّا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت[٢].

وقيل: بكاؤهما: حمرةُ أطرافهما. قاله عليُّ بن أبي طالب ﷺ وعطاءٌ[٣] والسدِّيُّ والترمذيُّ محمد بنُ عليٍّ وحكاه عن الحسن. قال السدِّي: لمَّا قُتِل الحسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بكت عليه السماء، وبكاؤها حمرتُها[٤]. وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لمَّا قُتِل الحسينُ بن علي بنِ أبي طالب رضي الله عنهما، احمرَّ له آفاقُ السماء أربعةَ أشهر. قال يزيد: واحمرارُها بكاؤها[٥]. وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشَّفَق لم تكن حتى قُتِل الحسينُ بن عليٍّ رضي الله عنهما[٦]. وقال سليمان القاضي: مُطِرْنا دماً يوم قُتِل الحسين.

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣ مختصراً، وهو مرسل، والصحيح منه قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وسلف ٥/ ٢٦٣ .

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ٥/ ١٩٧ وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣٤٠) عن الأوزاعي عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، وقول عطاء أخرجه الطبري ٢١/ ٤١ .

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١، والسُّدي ـ وهو محمد بن مروان ـ متَّهم بالكذب كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣، ويزيد بن أبي زياد ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: كَبِر فتغير وصار يتلقَّن وكان شيعياً.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/ ٢٢٨ .

قلت: روى الدَّارَقُطْنيُّ من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «الشفق الحمرة»[١].

وعن عُبادةَ بنِ الصامت وشدَّاد بن أوس قالا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حَلَّت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة[٢]. وهذا يردُّ ما حكاه ابن سيرين.

وقد تقدَّم في «سبحان»[٣] عن قرَّةَ بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بنِ زكريا والحسينِ بن عليٍّ، وحمرتُها بكاؤها.

وقال محمد بن عليٍّ الترمذيّ: البكاءُ إدرار الشيء، فإذا أدرَّتِ العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت السماء بحمرتها، قيل: بكت، وإذا أدرَّت الأرض بغبرتها، قيل: بكت؛ لأن المؤمن نورٌ ومعه نورُ الله، فالأرض مضيئةٌ بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدتْ نورَ المؤمن اغبرَّت فدرَّت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراءَ بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئة بنور المؤمن؛ فإذا قُبِض المؤمنُ منها دَرَّت بغبرتها.

وقال أنس: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه النبيُّ ﷺ المدينة، أضاء كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي قُبِض فيه، أظلم كلُّ شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيديَ منه حتى أنكرنا قلوبنا.[٤]

وأمَّا بكاءُ السماء فحمرتُها كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر، وإنما ذلك لدنوِّ الساعة، فتدُرُّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين.

---

(١) سنن الدارقطني (١٠٥٦). قال البيهقي في السنن الكبرى ١/ ٣٧٣: الصحيح موقوف.

(٢) سنن الدارقطني (١٠٥٤) (١٠٥٥). قال البيهقي في معرفة السنن والآثار ٢/ ٢٠٥: لا يصح فيه شيء وعن النبي ﷺ...

(٣) ١٣/ ٢٧.

(٤) سلف ٥/ ٣٤٦.

وقيل: بكاؤها: أمارةٌ تظهر منها تدلُّ على أسف وحزن[1].

قلت: والقولُ الأوَّل أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تُسبِّحُ وتسمع وتتكلم كما بيَّنَّاه في «سبحان ومريم وحم فصلت»[2]، فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك، والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ۝٣٠ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٣١﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم، وتُكلِّفُهم الأعمالَ الشاقَّة. ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من «الْعَذَابِ الْمُهِينِ»[3]، فلا تتعلق «مِنْ» بقوله: «مِنَ الْعَذَاب» لأنه قد وصِف، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي: أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبَّارًا من المشركين. وليس هذا عُلوَّ مَدْح، بل هو عُلُوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقيل: هذا العلوُّ هو الترفُّعُ عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: عالَمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا قولُ قتادةَ وغيره[4]. وقيل: على كلِّ العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصَّةٌ لهم وليس لغيرهم. حكاه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٣.

(٢) ١٣/ ٨٩ وما بعدها، و١٣/ ٥٢١ - ٥٢٢، وعند تفسير الآية (١١) من سورة فصلت.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٧٤.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٦ بنحوه.

ابن عيسى[١] والزَّمَخْشريُّ[٢] وغيرهما. ويكون قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق، وإيراثهم الأرضَ بعد فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: من معجزات موسى[٣] ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ قال قتادة: الآياتُ: إنجاؤهم من فرعون، وفَلْقُ البحر لهم، وتظليلُ الغمام عليهم، وإنزالُ المَنِّ والسَّلْوَى[٤]. ويكون هذا الخطابُ متوجِّهًا إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قولَ الفرَّاء[٥]. ويكون الخطابُ متوجِّهًا إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشرُّ الذي كَفَّهم عنه والخيرُ الذي أمرهم به. قاله عبد الرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجِّهًا إلى الفريقين معًا من قوم فرعونَ وبني إسرائيل[٦].

وفي قوله: «بَلَاءٌ مُبِينٌ» أربعة أوجه:

أحدها: نعمة ظاهرة. قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال زهير:

فأبلاهما خيرَ البلاءِ الذي يَبْلُو[٧]

الثاني: عذاب شديد. قاله الفرَّاء[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٤.
(٣) في (م): من المعجزات لموسى.
(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧.
(٥) قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٤٢ بنحو قول قتادة السالف ولم يقل: إنها العصا واليد.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٥٤.
(٧) عجز بيت له وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم، وهو في ديوانه ص١٠٩. وسلف ١٨/ ٧٢.
(٨) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

الثالث: اختبار يتميَّز به المؤمن من الكافر. قاله عبد الرحمن بنُ زيد[1]. وعنه أيضاً: ابتلاؤهم بالرَّخاء والشدة[2]، ثم قرأ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعني كفارَ قريش[3] ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين. ﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أنشرَ الله الموتى فنُشِروا. وقد تقدَّم[4]. والمنشورون: المبعوثون. قيل: إنَّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنتَ صادقاً في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا: أحدُهما: قصيُّ بنُ كِلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسألَه عمَّا يكون بعد الموت. وهذا القولُ من أبي جهل مِن أضعفِ الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنتَ صادقاً في إعادتهم للجزاء، فأعِدْهم للتكليف. وهو كقول قائل لو قال: إن كان ينشأ بعدنا قومٌ من الأبناء، فلم لا يرجع من مضى من الآباء. حكاه الماوردي[5].

ثم قيل: «فَأْتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبةٌ للنبيِّ ﷺ وحده، كقوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قاله الفرَّاء[6]. وقيل: مخاطبةٌ له ولأتباعه.

---

(١) أورد هذه الأوجه الثلاثة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٤ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .
(٤) ٤/ ٣٠٦ .
(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .
(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢ .

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هذا استفهامُ إنكار، أي: إنهم مستحقُّون في هذا القول العذابَ؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تُبَّع والأمم المهلَكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى: أهم أظهرُ نعمةً وأكثرُ أموالاً أم قومُ تُبَّع؟ وقيل: أهم أعزُّ وأشدُّ وأمنع أم قومُ تُبَّع؟[١].

وليس المراد بتُبَّع رجلاً واحداً، بل المرادُ به ملوكُ اليمن، فكانوا يسمُّون ملوكهم التبابعة. فتُبَّع لقبٌ للملك منهم، كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفُرْس، وقَيْصر للروم. وقال أبو عبيدة[٢]: سُمِّيَ كلُّ واحد منهم تُبَّعًا لأنه يَتْبَع صاحبه. قال الجوهري[٣]: والتبابعةُ ملوك اليمن، واحدهم تُبَّع، والتُّبَّع أيضاً الظِّلُّ، وقال:

يَـردُ الـمـيـاهَ حـضِـيـرةً ونَـفِـيـضـةً ... وِرْدَ الـقـطـاةِ إذا اسْـمَـألَّ الـتُّـبَّـعُ[٤]

والتُّبَّعُ أيضاً ضربٌ من الطير.

وقال السهيلي[٥]: تُبَّع اسمٌ لكل مَلِك مَلَكَ اليمن والشِّحْر[٦] وحضرموت. وإنْ مَلَكَ اليمن وحدها لم يُقَل له تُبَّع. قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٥ .

(٢) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٩ .

(٣) في الصحاح (تبع) .

(٤) أورده الأصمعي في الأصمعيات ص ١٠٣ ، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٩٢ ، وابن دريد في الاشتقاق ١/ ٢٠٧ ونسبوه لسعدى بنت الشمردل الجهنية، والحضيرة : النفر يُغزى بهم ، ومقدمة الجيش . القاموس (حضر) . والنفيضة : القوم الذين يَنفُضون ، يتقدمون الجيش . واسمأل : ضَمَر . ينظر الاشتقاق .

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(٦) الشِّحْر : هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن . معجم البلدان ٣/ ٣٢٧ .

وهو ابن همال ذي شدد[١]. وأبرهةُ ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمَرْقَنْد. وأفريقيس[٢] بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقيَّةَ مِنْ أرض كنعان، وبه سُمِّيت إفريقية.

والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشدَّ من معرفة غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ولا أدري أتُبَّعٌ لَعِينٌ أم لا»[٣]. ثم قد رُوِيَ عنه أنه قال: «لا تَسُبُّوا تُبَّعًا فإنه كان مؤمناً»[٤]. فهذا يدلُّك على أنه كان واحداً بعينه، وهو ـ والله أعلم ـ أبو كَرِب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لمَّا أُخبِر أنها مُهَاجَر نبيٍّ اسمه أحمد. وقال شعراً أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبيُّ ﷺ، فأدَّوْهُ إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد ابن زيد. وفيه:

شَهِدتُ على أحمدٍ أنهُ ... رسولٌ من الله باري النَّسَمْ
فلو مُدَّ عُمْري إلى عُمْرِهِ ... لكنتُ وزيراً له وابنَ عَمْ[٥]

(١) في (م): ذي سدد، وفي الروض الأنف ١/ ٣٤: وهو ابن همال بن ذي شدد.

(٢) في التعريف والإعلام: وإفريقش.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة مرفوعاً.
وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/ ١٥٣ عن الزهري مرسلاً، وقال: وهو أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٠) من طريق ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد ﷺ. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان.
وأخرجه الطبراني في الكبير (١١٧٩٠)، وفي الأوسط (١٤٤١)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه مؤمَّل بن إسماعيل وهو صدوق سيِّئ الحفظ، وفيه سماك بن حرب عن عكرمة، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأَخَرة، فكان ربما تَلَقَّن. قاله ابن حجر في التقريب.

(٥) أورد هذين البيتين غير السهيلي ابنُ رشيق في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/ ٢٢٦.

وذكر الزجّاج[١] وابن أبي الدنيا والزمخشري[٢] وغيرُهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء ـ ويقال: بناحية حمير ـ في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: هذا قبر حُبَّى ولَميس. ويُروى أيضًا: حُبَّى وتماضر. ويُروى أيضًا: هذا قبر رضوى وقبرُ حُبَّى ابنتا تُبَّع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قلت: وروى ابن إسحاق وغيرُه أنه كان في الكتاب الذي كتبه: «أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أُنزِل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنتُ بربِّك وربِّ كلِّ شيء، وآمنت بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإن أدركتُك فبِها ونِعمت، وإن لم أُدْرِكْك فاشفع لي ولا تَنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأوّلين وبايعتُك قبل مجيئك، وأنا على ملَّتك وملَّةِ أبيك إبراهيم عليه السلام». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وكتب على عنوانه: «إلى محمد بن عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتمِ النبيِّين ورسولِ ربِّ العالمين ﷺ. من تُبَّع الأوّل». وقد ذكرنا بقيَّة خبره وأوّلَه في «اللُّمع اللؤلؤية في[٣] شرح العشر بينات النبوية» للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تُبَّع إلى اليوم الذي بُعِث فيه النبيُّ ﷺ ألفُ سنة لا يزيد ولا ينقص.

واختلف هل كان نبِيًّا أو مَلِكًا؟ فقال ابن عباس: كان تُبَّع نبيًّا[٤]. وقال كعب: كان تُبَّع ملِكًا من الملوك، وكان قومه كُهَّانًا، وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأَمَر الفريقين أن يقرِّب كلُّ فريق منهم قُرْبَاناً ففعلوا، فَتُقُبِّل قربان أهل الكتاب فأسلم[٥].

(١) في معاني القرآن ٤/ ٤٢٧.
(٢) في الكشاف ٣/ ٥٠٥.
(٣) لفظة: في، ليست في (م).
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٧٥.
(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٠٩.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبُّوا تُبَّعاً فإنه كان رجلاً صالحاً[١]. وحكى قتادة أن تُبَّعًا كان رجلاً من حِمير، سار بالجيوش[٢] حتى عبر الحِيرة وأتى سَمَرْقَنْدَ فهدَمها. حكاه الماوردي[٣]. وحكى الثعلبيُّ عن قتادةَ أنه تُبَّعٌ الحِميري، وكان سار بالجيوش[٤] حتى عبر الحِيرة. وبنى سَمَرْقَنْدَ[٥] وقتل وهدم البلاد.

وقال الكلبي: تُبَّع هو أبو كَرِب أسعدُ بن مَلْكيكرِب[٦]، وإنما سُمِّيَ تُبَّعاً لأنه تَبع مَن قبله. وقال سعيد بن جُبَير: هو الذي كسا البيت الحِبَرات[٧]. وقال كعب: ذمَّ الله قومه ولم يذمَّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعِظمهم في نفوسهم، فلمَّا أهلكهم الله تعالى ومَن قبلهم ـ لأنهم كانوا مجرمين ـ كان مَن أجرمَ مع ضعف اليد وقلَّةِ العدد أحرى بالهلاك[٨]. وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تُبَّع خيراً من قريش.

وقيل: سُمِّيَ أوّلُهم تُبّعاً لأنه اتبع قرن الشمس، وسافر في الشرق[٩] مع العساكر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ﴾ «الَّذين» في موضع رفع عطفٌ على «قَوْمُ تُبَّعٍ»[١٠]. «أَهْلَكْناهُمْ» صلته. ويكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» متعلّقاً به.

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٣).
(٢) في (د) و(م): بالجنود.
(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٥٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٠.
(٤) في (د) و(م): بالجنود.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٢.
(٦) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٤٩، ووقع في النسخ الخطية: ملكيكوب، وجاء في السيرة النبوية ١/ ٣٤: كُلِي كَرِب. وفي البداية والنهاية ٣/ ١٢٢: كُلْكيكرِب.
(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٥٣، والحِبَرات جمع حِبَرة، وهي ضرب من برود اليمن. القاموس (حبر).
(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٨، والطبري ٢١/ ٥٠ منه قوله: ذم الله قومه ولم يذمَّه.
(٩) في (د) و(ظ): المشرق.
(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.

ويجوز أن يكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» صلةَ «الَّذين»، ويكونَ في الظرف عائدٌ إلى الموصول. وإذا كان كذلك؛ كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمَّا أن يقدَّر معه «قد»، فيكون في موضع الحال. أو يقدَّر حذف موصوف، كأنه قال: قومٌ أهلكناهم. والتقدير: أفلا تعتبرون أنَّا إذا قَدَرْنا على إهلاك هؤلاء المذكورين؛ قَدَرنا على إهلاك المشركين.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ابتداء، خبرُه: «أَهْلَكْنَاهُمْ».

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع جَرٍّ عطفاً على «تُبَّعٍ» كأنه قال: قومُ تُبَّع المهلَكين من قبلهم.

ويجوز أن يكون «الَّذين» في موضع نصب بإضمار فعل دلَّ عليه «أَهْلَكْنَاهُمْ»[(١)]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ أي: غافلين؛ قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي[(٢)]. ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحقّ؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحقّ؛ قاله الكلبي[(٣)] والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحقّ وإظهارِه من توحيد الله والتزام طاعته[(٤)]. وقد مضى هذا المعنى في «الأنبياء»[(٥)]. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثرَ الناس ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ هو يومُ القيامة، وسُمِّيَ بذلك لأن الله تعالى يَفْصِل فيه بين خلقه. دليلُه قولُه تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ٣].

(١) المصدر السابق.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٦.
(٤) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٢٨٤.
(٥) ١٤/ ١٨٤.

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فـ «يَوْم الفَصْل» ميقاتُ الكلِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا﴾ [النبأ: ١٧] أي: الوقتُ المجعول لتمييز المُسيء من المحسن والفصلِ بينهما؛ فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غايةٌ في التحذير والوعيد.

ولا خلاف بين القرَّاء في رفع «مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إنَّ»، واسمُها «يَوْمَ الفَصْلِ». وأجاز الكسائي والفرَّاء[١] نصبَ «مِيقَاتهم». بـ «إنَّ»، و«يوم الفصل» ظرفٌ في موضع خبر «إن»، أي: إن ميقاتَهم يومَ الفصل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا﴾ «يَومَ» بدلٌ من «يوم» الأوّل[٢]. والمَوْلَى: الوَليُّ، وهو ابن العمِّ والناصر، أي: لا يدفع ابن عمٍّ عن ابن عمِّه، ولا قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقرابته. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ﴾ «مَنْ» رفع على البدل من المضمر في «يُنْصَرُونَ»[٣]، كأنك قلت: لا يقوم أحدٌ إلا فلان. أو على الابتداء، والخبرُ مضمر، كأنه قال: إلا مَن رحم الله فمغفورٌ له[٤]، أو: فيُغني عنه ويُشفَّع ويُنصَر. أو على البدل من «مَوْلًى» الأول، كأنه قال: لا يغني إلا مَن رحم الله[٥]. وهو عند الكسائي والفرَّاء[٦] نصب

(١) في معاني القرآن ٣/ ٤٢، ونقله المصنف بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٣.
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٤) في (ظ): فإنه مغفور له.
(٥) ذكر هذا الوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.
(٦) في معاني القرآن ٣/ ٤٢.

على الاستثناء المنقطع[١]، أي: لكنْ مَن رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى مَن يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناءً متصلاً، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يُؤذَن لهم في شفاعة بعضهم لبعض.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقمُ من أعدائه، الرحيمُ بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ كلُّ ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء، إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ . طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ . قاله ابن الأنباري[٢].

و﴿ٱلْأَثِيمِ﴾: الفاجر؛ قاله أبو الدرداء[٣]. وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همَّام بن الحارث: كان أبو الدرداء يُقرِئ رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِيم» والرجلُ يقول: طعام اليتيم، فلمَّا لم يفهم قال له: «طعام الفاجر»[٤]. قال أبو بكر الأنباريُّ: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا نصر قال: حدَّثنا أبو عبيد قال: حدَّثنا نُعيم بن حماد، عن عبد العزيز بن محمد، عن ابن عجلان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: عَلَّم عبد الله بن مسعود رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّوم طَعَامُ الْأَثِيم» فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب، وأعاد الرجل الخطأ، فلمَّا رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أَمَا تُحسِنُ أن تقول: طعام الفاجر؟ قال: بلى، قال: فافعل[٥]. ولا حجةَ في هذا للجُهَّال من أهل الزَّيغ أنه يجوز

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٧.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٢٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٢، والكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٦)، والطبري ٢١/ ٥٤ بنحوه.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٣ بنحوه.

إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلِّم، وتوطئةً منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمالِ الحقِّ والتكلُّم بالحرف على إنزال الله وحكايةِ رسول الله ﷺ.

وقال الزَّمَخْشريّ[١]: وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائزٌ إذا كانت مؤدِّيةً معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدِّيَ القارئ المعانيَ على كمالها من غير أن يَخْرِم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كَلَا إجازة؛ لأن في كلام العرب ـ خصوصاً في القرآن الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابةِ نظمه وأساليبه ـ من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يُحسِن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقُّق وتبصُّر. وروى عليُّ بن الجعد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة مثلَ قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

وشجرة الزَّقُّوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسمَّاها الشجرةَ الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحارّ. وشُبِّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهْل، وهو النُّحاس المذاب.

وقراءة العامة: «تَغْلي» بالتاء حملاً على الشجرة. وقرأ ابن كَثير وحفص وابن مُحَيْصِن ورُوَيْس عن يعقوب: «يغلي» بالياء حملاً على الطعام[٢]، وهو في معنى الشجرة. ولا يُحمل على المُهْل لأنه ذُكِر للتشبيه[٣]. و«الأثيم»: الآثم، مِن أثِم يأثَم إثْمًا؛ قاله القشيريُّ وابن عيسى[٤]. وقيل: هو المشرك المكتسبُ للإثم؛ قاله يحيى بن سلام[٥]. وفي الصحاح: وقد أثِم الرجل ـ بالكسر ـ إثماً ومأثماً: إذا وقع في الإثم،

(١) في الكشاف ٣/ ٥٠٦.

(٢) السبعة ص ٥٩٢، والتيسير ص ١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧١.

(٣) ينظر الحجة ٦/ ١٦٦، وزاد المسير ٧/ ٣٤٩.

(٤) نقله عن ابن عيسى الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

فهو آثم وأثيمٌ وأثوم أيضاً[١]. فمعنى «طَعَامُ الْأَثِيمِ» أي: ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل[٢]. وذلك أنه قال: يَعِدُنا محمدٌ أن في جهنم الزَّقوم، وإنما هو الثريد بالزُّبد والتمر، فبيَّن الله خلاف ما قاله. وحكى النقَّاش عن مجاهد أن شجرة الزَّقُّوم أبو جهل[٣].

قلت: وهذا لا يصحُّ عن مجاهد. وهو مردودٌ بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة «والصافَّات وسبحان»[٤] أيضاً.

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذُوهُ﴾ أي: يقال للزَّبانية: خذوه، يعني الأثيم[٥]. ﴿فَٱعْتِلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه وسُوقُوه. والعَتْل: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتِلَه، أي: تجرّه إليك لِتَذهب به إلى حبس أو بليَّة[٦]. عَتَلت الرجل أعتِله وأعتُله عَتْلًا: إذا جذبتَه[٧] جَذْباً عنيفاً. ورجل مِعْتَل ـ بالكسر ـ. وقال يصف فرساً:

نَفْرَعُه فَرْعًا ولسنا نَعْتِلُه[٨]

وفيه لغتان، عَتَلَهُ وعَتَنَه، باللام والنون جميعاً. قاله ابن السِّكِّيت[٩]. وقرأ

(١) الصحاح (أثم).

(٢) الوسيط ٤/ ٩١، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٤.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.

(٤) ١٣/ ١١١ - ١١٢، و١٨/ ٤١.

(٥) الوسيط ٤/ ٩٢، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥.

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٢٧٠.

(٧) بعدها في (د) و(ظ): إليك.

(٨) أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ١/ ٧٧ ونسبة لأبي النجم، وأبو علي القالي في أماليه ١/ ٥٧ دون نسبة.

(٩) الصحاح (عتل).

الكوفيون وأبو عمرو: «فَاعْتِلُوه» بالكسر. وضم الباقون[1]. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم[2]. ﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ﴾. قال مقاتل: يضرب مالك خازنُ النار ضربة على رأس أبي جهل بِمِقْمَع من حديد، فيتفتَّتُ رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ المَلكُ فيه ماء حميماً قد انتهى حرُّه، فيقعُ في بطنه، فيقول المَلَك: ذُقِ العذاب[3]. ونظيره: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباريّ[4]: اجتمعت[5] العوامُّ على كسر «إنّ». وروي عن الحسن بن[6] عليٍّ رحمه الله: «ذُق أَنَّكَ» بفتح «أنَّ»، وبها قرأ الكسائيُّ[7]. فمن كسر «إنَّ» وقف على «ذُقْ». ومَن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى: ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزُّ منِّي ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾[8]. وقال عكرمة: التقى النبيُّ ﷺ وأبو جهل، فقال النبيُّ ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أَوْلَى لك فأولى» فقال: بأيِّ شيء

---

(١) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٥٧.
(٣) زاد المسير ٧/ ٣٥٠، وأورده مختصراً الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٢، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٥٥.
(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٩.
(٥) في (ز) و (ق): أجمعت.
(٦) في النسخ: عن، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٤، والكشاف ٣/ ٥٠٧، والمحرر الوجيز ٨/ ٤٠.
(٧) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.
(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٠٩، والطبري ٢١/ ٦١ بنحوه.

تهدِّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلا بي شيئًا، إني لَمِن أعزِّ هذا الوادي وأكرمِه على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذلَّه، ونزلت هذه الآية[١]. أي يقول له المَلَك: ذُق إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شُعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلۡحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنُون السفيهَ الجاهلَ في أحد التأويلات على ما تقدَّم[٢]. وهذا قول سعيد بن جبير[٣].

﴿إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكُّون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٥٢ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ لمَّا ذكر مستقرَّ الكافرين وعذابَهم، ذكر نُزُل المؤمنين ونعيمَهم. وقرأ نافع وابن عامر: «في مُقَامٍ» بضم الميم، الباقون بالفتح[٤]. قال الكسائي: المُقام المكان، والمُقام الإقامة، كما قال:

عفَتِ الديارُ مَحلُّها فمُقامُها[٥]

قال الجوهريُّ: وأمَّا المَقام والمُقام فقد يكون كلٌّ واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن قام يقوم؛ فمفتوح، وإن جعلته

---

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٨ مختصراً. وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٣ بنحوه وعزاه للأموي.

(٢) ١١/ ١٩٤.

(٣) أورده بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٥٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٥٠.

(٤) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) صدر بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢٩٧، وعجزه: بمنًى تأبَّد غولُها فرجامُها، والكلام في معاني القرآن للنحاس ١/ ٤١٥. وقوله: عفت، أي: دَرَسَت. والمحلُّ والمُقام، قال شارح الديوان: هما مكان الحلول ومكان الإقامة.

من أقام يقيم؛ فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبَّه ببنات الأربعة، نحو: دحرج وهذا مُدَحْرجُنا[1]. وقيل: المَقام؛ بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدَّر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة[2].

﴿أَمِينٍ﴾: يُؤمَن[3] فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مَقَامٍ أَمِينٍ».

﴿يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسُّنْدُس: ما رَقَّ من الدِّيباج. والإستبرق: ما غَلُظَ منه. وقد مضى في «الكهف»[4].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك الذي ذكرناه[5]. فيوقف على «كَذَلِكَ». وقيل: أي: كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدَّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوَّجناهم حُوراً عِيناً. وقد مضى الكلام في العِين في «والصَّافَّاتِ»[6]. والحُوْر: البِيض؛ في قول قتادَة والعامةِ، جمعُ حَوْراء. والحَوْراء: البيضاء التي يُرى ساقها من وراء ثيابها، ويَرى الناظر وجهه في كعبها، كالمِرآة من رِقَّة[7] الجلد وبضاضة البشرة وصفاء اللون. ودليلُ هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود: «بِعِيس عِين»[8]. وذكر أبو بكر الأنباريُّ: أخبرنا أحمد بن الحسين قال: حدَّثنا حسين قال: حدَّثنا عمار بن

(١) الصحاح (قوم).
(٢) ينظر مجمع البيان ٢٥/ ١١٩.
(٣) في (د) و(ظ): يأمن.
(٤) ١٣/ ٢٦٦ - ٢٦٧.
(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٣٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.
(٦) ١٨/ ٣٤.
(٧) في (م): دقة.
(٨) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٦١.

محمد قال: صلَّيت خلف منصور بن المعتمر، فقرأ في «حم» الدُّخان: «بِعِيس عِين. لا يذوقون طعم الموتِ إلا الموتة الأولى». والعِيس: البِيض؛ ومنه قيل للإبل البِيض: عيس، واحدُها بعيرٌ أَعْيَس، وناقة عَيْساء. قال امرؤ القيس:

يَرُعْنَ إلى صوتي إذا ما سمعنَه كما تَرْعَوي عِيطٌ إلى صوتِ أَعْيَسا[1]

فمعنى الحُوْر هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحُور العِين ليُرى مُخُّ ساقها من وراء اللَّحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلَّةً، كما يُرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء[2]. وقال مجاهد: إنما سمِّيت الحُور حوراً لأنهنَّ يَحارُ الطَّرْف في حسنهنَّ وبياضهنَّ وصفاء لونهنَّ[3].

وقيل: إنما قيل لهنَّ حُوْر لِحَوَر أعينهنَّ. والحَوَر: شدَّةُ بياض العين في شدَّة سوادها. [يقال]: امرأة حَوْراء بيِّنةُ الحَوَر. [و] يقال: احورَّت عينه احوراراً، واحورَّ الشيء: ابيضَّ. قال الأصمعي: ما أدري ما الحَوَر في العَيْن؟ وقال أبو عمرو: الحَوَر أن تسودَّ العين كلُّها مثل أعين الظِّباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُورُ العِين لأنهنَّ يشبَّهن بالظِّباء والبقر. وقال العجَّاج:

بأَعْيُنٍ مُحَوَّراتٍ بِيضِ[4]

يعني الأعينَ النقيات البياض، الشديداتِ سواد الحَدَق[5]. والعِين جمعُ عَيْناء،

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦، والعِيط: خيار الإبل وأفتاؤها. القاموس (عيط).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٦٠ - زوائد نعيم بن حماد)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٦٧)، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤).

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٥ بنحوه.

(٤) ديوان العجَّاج ص ٢٢٨، وفيه: حور، بدل: بيض، وقبله: إذ ترتمي من خَلَل الخُدُور.

(٥) الصحاح (حور) وما بين حاصرتين منه، وفيه: حور، بدل: بيض.

وهي الواسعةُ العظيمةُ العينين[١]. وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العِين قبضاتُ التمر وفِلَق الخبز»[٢]. وعن أبي قِرصافةَ: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «إخراج القُمَامة من المسجد مهورُ الحُور العِين»[٣]. وعن أنس أن النبيَّ ﷺ قال: «كنس المساجد مهورُ الحُور العِين»[٤] ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في كتاب «التذكرة»[٥] والحمد لله.

واختلف أيُّما أفضلُ في الجنة؛ نساءُ الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رِشْدِين، عن ابن أنْعُم، عن حِبَّان بن أبي جَبَلة قال: إن نساء الآدميات مَن دخل منهنَّ الجنة، فُضِّلن على الحُور العِين بما عملن في الدنيا[٦]. ورُوِيَ مرفوعاً: «إن الآدميات أفضلُ من الحُور العِين بسبعين ألفَ ضعف»[٧]. وقيل: إن الحُور العِين

---

(١) الطبري ٢١/ ٦٦، والوسيط ٥/ ٩٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٥٥.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٦٨٤ وفيه عمر بن صبح بن عمران التميمي، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٢٠٦ - ٢٠٧: ليس بثقة ولا مأمون. قال ابن حبان: كان يضع الحديث. وقال الدارقطني: متروك.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) مطولاً. قال الهيثمي في المجمع ٢/ ٩: في إسناده مجاهيل. اهـ. وأبو قرصافة اسمه جندرة بن خيشنة، له صحبة، سكن فلسطين، وقيل: كان يسكن أرض تهامة. الاستيعاب بهامش الإصابة ١٢/ ٩٣ - ٩٤.

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٢٥ وقال: هذا حديث لا يصح من جميع جهاته. وحديث أنس فيه مجاهيل، وعبد الواحد ليس بثقة، قاله يحيى. وقال البخاري والفلَّاس والنسائي. متروك الحديث. اهـ. وسلف ١٥/ ٢٨٥ بلفظ: ... وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين.

(٥) ص ٤٧٨ - ٤٨٠.

(٦) الزهد (٢٥٥ - زوائد نعيم بن حماد)، ورشدين، وهو ابن سعد المَهْري المصري، قال الذهبي في الميزان ٢/ ٤٩: كان صالحاً عابداً سيِّئ الحفظ غير معتمد. وقال ابن معين: ليس بشيء. وقال أبو زرعة: ضعيف. وقال النسائي: متروك. اهـ وابن أنعُم وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف، الميزان ٢/ ٥٦٢.

(٧) أورده المصنف في كتابه التذكرة ص ٤٧٧، ولم نقف عليه.

أفضلُ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: «وأبدِله زوجاً خيراً من زوجه»[١]. والله أعلم.

وقرأ عكرمة: «بِحُورِ عِينٍ» مضاف[٢]. والإضافة والتنوين في «بحور عين» سواء.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ۝٥٥﴾

قال قتادة: «آمنين» من الموت والوَصَب والشيطان[٣]. وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذًى أو مكروه[٤].

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٦ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝٥٧﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها[٥]. ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع[٦]، أي: لكنْ الموتةُ الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

مَن كان أسرع في تَفَرُّق فالجٍ ... فلبونُه جَرِبت معًا وأغدَّتِ

ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إلا كناشِرَةَ الذي ضيَّعتُمُ ... كالغصنِ في غُلَوائه المتنبِّتِ[٧]

---

(١) هو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٣٩٧٥)، ومسلم (٩٦٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ﷺ.
(٢) المحتسب ٢/ ٢٦١.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٧.
(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤١٧.
(٥) المصدر السابق.
(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٨.
(٧) الكتاب لسيبويه ٢/ ٣٢٨ ونسبه لعنز بن دجاجة المازني، وكذا نسبه لعنز أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦١، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣٦٤. وسماه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/ ١٧١ - ١٧٢ عتر بن دجاجة؛ قال: ويروى لمعاوية بن كاسر، اهـ. ونسب البيت لغيره، ينظر الخزانة ٦/ ٣٦٢، والمقتضب ٤/ ٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/ ٣٠٢. قوله: أغدَّت؛ أي: أصابتها الغدّة.

وقيل: إن «إلَّا» بمعنى بَعْد، كقولك: ما كلَّمت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك، أي: بعد رجل عندك. وقيل: «إلَّا» بمعنى سوى، أي: سوى الموتةِ التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾[1] [النساء:٢٢]. أي: سوى ما قد سلف[2]. وهو كما تقول: ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

وقال القتبيُّ: «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويَلْقى الرَّوْح والرَّيحان، وكان موته في الجنة لاتصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح[3]. والموتُ عَرضٌ لا يذاق، ولكن جُعِل كالطعام الذي يُكره ذوقه، فاستُعير فيه لفظُ الذوق.

﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ . فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: فعل ذلك بهم تفضُّلًا منه عليهم.[4] فـ «فَضْلًا» مصدر عمل فيه «يَدْعُونَ». وقيل: العامل فيه «وَوَقَاهُمْ»[5]. وقيل: فعل مضمر. وقيل: معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضُّلٌ منه عليهم، إذ وفَّقهم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: السعادةُ والربح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل: هو من قولك: فاز بكذا، أي: ناله وظَفِر به.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآن، أي: سهَّلناه بلغتك عليك

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/٤٢٨، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٥١ - ٣٥٢.
(٢) قوله: أي ما قد سلف، من (ظ) و(ق).
(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٥ - ٥٦.
(٤) تفسير البغوي ٤/١٥٦.
(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.

وعلى مَن يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتّعظون وينزجرون. ونظيرُه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فختم السورة بالحثِّ على اتِّباع القرآن وإن لم يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] على ما تقدَّم.

﴿فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون لك الموت. حكاه النقاش[١].

وقيل: انتظر الفتح من ربك، إنهم منتظرون بزعمهم قهرَك[٢].

وقيل: انتظر أن يَحكُم الله بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك رَيْب الحَدَثان. والمعنى متقارب.

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لِمَا وعدتهم من العقاب.

وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جُعِلوا كالمرتقِبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٥٩.

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٢٨٦.

سورة الجاثية

مكيَّةٌ كلُّها في قول الحسن [وعطاء] وجابر وعكرمة. وقال ابن عباس وقتادة: إلَّا آية، هي: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الآية: ١٤] نزلت بالمدينة في عمرَ بن الخطاب ﷺ؛ ذكره الماوردي[١].

وقال المهدوي والنَّحَّاس عن ابن عباس: إنَّها نزلت في عمر ﷺ، شتَمه رجلٌ من المشركين بمكَّة قبل الهجرة، فأراد أنْ يبطش به، فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. ثم نُسِخت بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[٢] [التوبة: ٥]. فالسورةُ كلُّها مكيةٌ على هذا من غير خلاف. وهي سبعٌ وثلاثون آية. وقيل: ست[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ مبتدأ، و﴿تَنزِيلُ﴾ خبرُه. وقال بعضهم: «حم» اسم السورة، و«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ» مبتدأ، وخبره «مِنَ اللَّهِ».

و«الكتاب»: القرآن. و«الْعَزِيزِ»: المنيع. «الحكِيم» في فعله. وقد تقدَّم جميعُ هذا[٤].

---

(١) في النكت والعيون ٥ / ٢٦٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٥ ، وسيتكلم المصنف عليه ١٩/ ١٥٠ .

(٣) الكشاف ٣/ ٥٠٨ .

(٤) ١/ ٤٢٩ ، ٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤ .

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: في خلقهما ﴿لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ . وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ . وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ﴾ يعني المطر. ﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تقدَّم جميعه مستوفًى في «البقرة» وغيرها[١].

وقراءةُ العامَّة: ﴿وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ﴾ ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ﴾ بالرفع فيهما. وقرأ حمزةُ والكسائيّ بكسر التاء فيهما[٢].

ولا خلاف في الأوّل أنَّه بالنصب على اسم «إنَّ»، وخبرُها «في السَّماوَاتِ». ووجه الكسر في «آيات» الثاني العطفُ على ما عملت فيه؛ التقدير: إنَّ في خلقكم وما يبثُّ منْ دابَّةٍ آياتٍ.

فأمَّا الثالث فقيل: إنَّ وجهَ النصب فيه تكريرُ «آيَات» لمَّا طال الكلام؛ كما تقول: ضربتُ زيداً زيداً[٣].

وقيل: إنَّه على الحمل على ما عملَتْ فيه «إنَّ» على تقدير حذف «في»؛ التقدير: وفي اختلاف الليل والنهار آياتٍ. فَحُذِفت «في» لتقدُّم ذكرها. وأنشد سيبويه في الحذف[٤]:

---

(١) ٢/ ٤٩٠ وما بعدها، و١٦/ ٤٦٦ .

(٢) السبعة ص ٥٩٤ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٣) ويكون قوله تعالى: ﴿وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ معطوفاً على ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ . كما ذكر مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٠ ، ومثّلَ له بقوله: ما زيدٌ قائماً ولا جالساً زيدٌ، فنصب جالساً على أن زيداً الأخير هو الأول، ولكن أظهرته ثانيةً للتأكيد. ومثَّل له العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٢: بقوله: إن بثوبك دماً وبثوب زيد دماً. فدم الثاني مكرر؛ لأنك مستغنٍ عن ذكره.

(٤) الكتاب ١/ ٦٦ ، ونسبه لأبي دؤاد.

أَكُلَّ امرئٍ تَحسِبينَ امرأً ونارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

فحذفَ «كلّ» المضاف إلى نارٍ المجرورة لتقدُّمِ ذكرها.

وقيل: هو من باب العطف على عاملين. ولم يُجِزْه سيبويه، وأجازَه الأخفش وجماعةٌ من الكوفيين؛ فعطفَ «واخْتِلَافِ» على قوله: «وفي خَلْقِكُمْ» ثم قال: «وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٍ» فيحتاجُ إلى العطف على عاملين، والعطف على عاملين قبيحٌ من أجل أنَّ حروفَ العطف تنوب منابَ العامل، فلم تَقْوَ أنْ تنوبَ مناب عاملين مختلفين؛ إذْ لو نابَ مناب رافعٍ وناصب، لكان رافعاً ناصبًا في حال.

وأمَّا قراءةُ الرفع فحملاً على موضع «إنّ» مع ما عملت فيه.

وقد ألزم[1] النحويون في ذلك أيضاً العطفَ على عاملين؛ لأنَّه عَطَف[2] «وَاخْتِلَافِ» على «وفِي خَلْقِكُمْ»، وعطف «آيات» على موضع «آيات» الأوَّل، ولكنَّه يقدَّر على تكرير «في».[3]

ويجوزُ أنْ يُرفَع على القطع ممَّا قبلَه فيرفع بالابتداء، وما قبلَه خبره، ويكون عطفَ جملةٍ على جملة. وحكى الفرَّاء رفع «واختِلاف» و«آيات» جميعاً، وجعلَ الاختلاف هو الآيات[4].

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه آياتُ الله، أي: حُجَجُه وبراهينُه الدالَّةُ على وحدانيته وقدرته.

---

(١) في (د) و(ز) و(ق): التزمت، وفي (ظ): التزم.

(٢) بعدها في النسخ الخطية: على.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٢، والبيان لأبي البركات ابن الأنباري ٢/ ٣٦٣.

(٤) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٥. ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن له ٤/ ١٤١ وقال: وقد كفى المؤونة فيه بأن قال: ولم أسمع أحداً قرأ به.

﴿نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالصِّدق الذي لا باطلَ ولا كذب فيه. وقُرِئ: «يَتْلُوهَا» بالياء[١].

﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ﴾ أي: بعدَ حديث الله، وقيل: بعدَ قرآنه[٢] ﴿وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ وقراءةُ العامَّة بالياء على الخبر، وقرأ ابنُ مُحَيْصن، وأبو بكر عن عاصم، وحمزةُ، والكسائيُّ: «تُؤْمِنُونَ» بالتاء على الخطاب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ «وَيْلٌ» وادٍ في جهنم[٤]. توعَّد من ترك الاستدلال بآياته. والأفَّاك: الكذَّاب، والإفكُ: الكذب. «أثيم» أي: مرتكبٌ للإثم[٥]. والمراد فيما رُوِيَ: النضرُ بن الحارث[٦]. وعن ابن عباس أنَّه الحارثُ بن كَلَدَة[٧]. وحكى الثعلبيُّ أنَّه أبو جهل[٨] وأصحابه.

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ يعني آيات القرآن. ﴿ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: يتمادى على

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٠٩، وهي قراءة شاذة.

(٢) ينظر الكشاف ٣/ ٥٠٩.

(٣) وهي قراءة ابن عامر ـ من السبعة ـ أيضاً. السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٩٨.

(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (١١٧١٢) عن أبي سعيد الخدري. وإسناده ضعيف. وسلف ٢/ ٢٢٠ - ٢٢١.

(٥) في (ظ): الإثم.

(٦) ذكر هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٣، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ لابن جريج.

(٧) قول ابن عباس كما في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٢: أن الآية نزلت في النضر بن كلدة، وفي زاد المسير ٧/ ٣٥٥ عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في النضر بن الحارث.

(٨) وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨١، وذكر القول الآخر في أنها نزلت في النضر بن الحارث. ثم قال: والصواب أن سببها ما كان المذكوران وغيرهما يفعل، وأنها تعم كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة.

كفره متعظِّمًا في نفسه عن الانقياد[١]؛ مأخوذٌ من صرَّ الصُّرة: إذا شدَّها. قال معناه ابن عباس وغيره[٢].

وقيل: أصلُه من إصرار الحمار على العانة[٣]، وهو أنْ ينحنيَ عليها صارًّا أذنيه. و«أنْ» من «كأنْ» مخففةٌ من الثقيلة؛ كأنَّه لم يسمعها، والضميرُ ضميرُ الشأن؛ كما في قوله:

كأنْ ظَبْيَةً تَعْطُو إلى ناضر السَّلَمْ[٤]

ومحل الجملة النصب [على الحال]، أي يُصِرُّ مثلَ غير السامع[٥]. وقد تقدَّم في أوَّل «لقمان» القولُ في معنى هذه الآية[٦]. وتقدَّم معنى ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ في «البقرة»[٧].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ﴾ نحو قوله في الزَّقُّوم: إنَّه الزُّبدُ

---

(١) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦١. وفيه أن قائله ابن عيسى. بدل: ابن عباس.

(٣) العانة: الأتان. القاموس المحيط (عون).

(٤) هو عجز بيت صدره: ويوماً توافينا بوجه مُقَسَّمٍ. نسبه سيبويه في الكتاب ٢/ ١٣٤ لابن صريم اليشكري، ونسبه صاحب الأصمعيات ص ١٥٧ لعِلْبَاء بن أرقم. وتعطو: تناول، يقال: عطا يعطو، إذا تناول. ويروى: وارق السلم. بدل: ناضر. وناضر من النضارة، وهي الحسن وأراد به خضرته. والسَّلَم: ضربٌ من شجر البادية يعظم وله شوك، واحدته سَلَمة. ينظر خزانة الآداب ١٠/ ٤١٦.

(٥) الكشاف ٣/ ٥٠٩. وما سلف بين حاصرتين منه، وتفسير الرازي ٢٧/ ٢٦١.

(٦) ١٦/ ٤٦٥.

(٧) ١/ ٣٠١، ٣٥٨.

والتمر[١]، وقوله في خزنة جهنم: إنْ كانوا تسعةَ عشر فأنا ألقاهُم وحدي[٢]. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مُذِلٌّ مخزٍ.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: من وراء ما هم فيه من التعزُّز في الدنيا والتكبُّر عن الحقِّ جهنمُ[٣]. وقال ابن عباس: ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: أمامهم[٤]، نظيره: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي: من أمامه. قال:

أليسَ ورائي إنْ تراخت منيَّتي أَدُبُّ مع الولدان أزْحَفُ كالنَّسْرِ[٥]

﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا﴾ أي: من المال والولد؛ نظيره: ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠][٦].

﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: الأصنام. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: دائمٌ مؤلم.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ ابتداءٌ وخبر؛ يعني القرآن. وقال ابن عباس: يعني كلَّ ما جاء به محمدٌ ﷺ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ أي: جحدوا دلائله.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ الرجز: العذاب، أي: لهم عذابٌ من عذابٍ أليم؛

---

(١) القائل أبو جهل كما أخرجه الطبري ١٤/ ٦٤٨ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) وهو حكاية عن استهزاء أبي جهل بالخزَنة التسعة عشر أخرجه الطبري ٢٣/ ٤٣٦ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد، ولفظ رواية ابن عباس أنَّ أبا جهل قال لقريش: أسمع ابن أبي كبشة يخبركم أنَّ خزنة النار تسعة عشر، وأنتم الدَّهم، أفيعجز كلُّ عشرة منكم أن يبطشوا برجلٍ من خزنة جهنم؟ . . .

(٣) مجمع البيان ٢٥/ ١٢٧.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٥.

(٥) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٠. دون نسبة. والشطر الأول صدر بيت للبيد، وعجزه: لزومُ العصا تُحنى عليها الأصابعُ. وهو في ديوانه ص ١٧٠، وسلف ١٢/ ١٢٠.

(٦) بعدها في (د) و(ز) و(م): أي من المال والولد.

دليله قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ٥٩] أي: عذاباً. وقيل: الرِّجز القذَر مثل الرِّجس؛ وهو كقوله تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦] أي: لهم عذابٌ مِن تَجَرُّعِ الشراب القذِر(١).

وضمَّ الراءَ من الرِّجز ابنُ محيصن حيث وقع(٢). وقرأ ابنُ كثير وابن محيصن وحفص: «أَلِيمٌ» بالرفع(٣)؛ على معنى لهم عذابٌ أليمٌ من رجز. الباقون بالخفض نعتاً للرجز.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ذكرَ كمالَ قدرته وتمام نعمته على عباده، وبيَّن أنَّه خلقَ ما خلقَ لمنافعهم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ يعني: أنَّ ذلك فعلُه وخلقُه وإحسانٌ منه وإنعام. وقرأ ابنُ عباس والجحدريُّ وغيرُهما: «جَمِيعاً مِنَّةً» بكسر الميم وتشديد النون وتنوين الهاء، منصوباً على المصدر(٤). قال أبو عمرو: وكذلك سمعتُ مَسْلَمَة يقرؤُها: «مِنَّةً»(٥) أي: تفضُّلاً وكرمًا. وعن مَسْلَمَة بن مُحارب أيضاً: «جميعًا مَنُّهُ»

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٧٤ - ١٧٥، وينظر ما سلف ٢/ ١٣٤.

(٢) إتحاف فضلاء البشر ص ١٨٠.

(٣) السبعة ص ٥٩٤، والتيسير ص ١٨٠. وقراءة ابن محيصن في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٢. ونقل ابن عطية في المحرر ٥/ ٨٢ عن أبي حاتم قوله: سند هذه القراءة إلى ابن عباس مظلم.

(٥) لم نقف عليها. وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٢، والسمين في الدر المصون ٩/ ٦٤٥ عن مسلمة بن محارب: مِنَّةٌ؛ بكسر الميم، وبالرفع في التاء. ومسلمة: هو ابن عبد الله بن محارب، أبو عبد الله الفِهري البصري النحوي، له اختيار في القراءة. كان مع ابن إسحاق وأبي عمرو بن العلاء، وقال مجاهد: كان من العلماء بالعربية. غاية النهاية ٢/ ٢٩٨.

على إضافة المنّ إلى هاء الكناية. وهو عند أبي حاتم خبرُ ابتداءٍ محذوف، أي: ذلك، أو هو منّه[١]. وقراءة الجماعة ظاهرة .﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ جزم على جواب «قُلْ» تشبيهًا بالشرط والجزاء؛ كقولك: قُمْ تُصِب خيرًا[٢]. وقيل: هو على حذف اللام. وقيل: على معنى قل لهم: اغفروا؛ يغفروا؛ فهو جوابُ أمرٍ محذوف؛ دلَّ الكلامُ عليه؛ قاله عليّ بن عيسى واختاره ابن العربيّ[٣].

ونزلت الآيةُ بسبب أنَّ رجلاً من قريش شتم عمرَ بن الخطاب، فهمَّ أنْ يبطشَ به. قال ابنُ العربيّ: وهذا لم يصح[٤].

وذكر الواحديُّ[٥] والقشيريُّ وغيرهما عن ابن عباس أنَّ الآيَةَ نزلت في عمرَ مع عبد الله بن أُبَيّ في غَزْوة بني المُصْطَلِق، فإنَّهم نزلُوا على بئرٍ يُقَال لها: المُرَيْسِيع، فأرسلَ عبدُ الله غلامه ليستقي، وأبطأ عليه فقال: ما حبسَك؟ قال: غلامُ عمرَ بن الخطاب قعد على فم البئر، فما ترك أحداً يستقي حتى ملأ قِربَ النبيِّ ﷺ وقِرَب أبي بكر، وملأ لمولاه. فقال عبد الله: ما مَثَلُنا ومثلُ هؤلاء إلّا كما قيل: سَمِّن كلبك يأكُلْك. فبلغ عمرَ ﷺ قولُه، فاشتملَ على سيفه يريد التوجُّه إليه ليقتلَه؛ فأنزلَ الله هذه الآية. هذه روايةُ عطاء عن ابن عباس.

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٢ .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٦ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٣ .

(٣) نقله عن علي بن عيسى النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٤٣ ، واختيار ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨١ .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨١ ، وسلف الخبر في سبب النزول ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٥) في أسباب النزول ص٤٠١ .

ورَوى عنه ميمونُ بن مِهران قال: لمَّا نزلت ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة:٢٤٥] قال يهوديٌّ بالمدينة يقالُ له فِنحاص: احتاج ربُّ محمد! قال: فلمَّا سمع عمرُ بذلك اشتملَ على سيفه وخرج في طلبه، فجاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النبيِّ ﷺ فقال: إنَّ ربّك يقول لك: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾. واعلم أنَّ عمرَ قد اشتملَ على سيفه، وخرجَ في طلب اليهوديّ؛ فبعثَ رسولُ الله ﷺ في طلبه، فلمَّا جاء قال: «يا عمر، ضَعْ سيفك» قال: يا رسول الله، صدقت، أشهدُ أنَّك أُرسِلت بالحق. قال: «فإنَّ ربك يقول: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ قال: لا جرم! والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهي»[١].

قلت: وما ذكره المهدوِيُّ والنَّحّاس[٢] فهو رواية الضَّحّاك عن ابن عباس، وهو قول القُرَظيّ والسُّدِّي[٣]، وعليه يتوجَّه النسخُ في الآية. وعلى أنَّ الآيَةَ نزلت بالمدينة، أو في غزوة بني المُصْطَلِق؛ فليست بمنسوخة.

ومعنى «يَغْفِرُوا»: يعفوا ويتجاوزوا. ومعنى «لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ»: أي: لا يرجون ثوابَه. وقيل: أي لا يَخافون بأسَ الله ونِقَمه. وقيل: الرجاءُ بمعنى الخوف؛ كقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون له عظمةً. والمعنى: لا يَخْشَوْن[٤] مثلَ عذاب الأمم الخالية. والأيام يُعبَّر بها عن الوقائع. وقيل: لا يأمُلون نصرَ الله لأوليائه وإيقاعَه بأعدائه[٥]. وقيل: المعنى: لا يخافون البعث.

﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ قراءةُ العامَّة: «لِيَجْزِيَ» بالياء على معنى: ليجزيَ اللهُ.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٢) سلف قولهما أول السورة.

(٣) قولهما كما ذكر البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٨ : نزل في أناس من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل مكة كانوا في أذىً شديد من المشركين ، من قبل أن يؤمروا بالقتال ، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ ؛ فأنزل الله هذه الآية .

(٤) في (م) لا تخشون .

(٥) ينظر الكشاف ٣/ ٥١٠ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وابنُ عامر: «لِنَجْزِيَ» بالنون على التعظيم. وقرأ أبو جعفر والأعرجُ وشيبةُ: «لِيُجْزى» بياءٍ مضمومة، وفتحِ الزاي على الفعل المجهول، «قَوْماً» بالنصب(١). قال أبو عمرو: وهذا لحنٌ ظاهر. وقال الكسائيُّ: معناه: ليُجْزَى الجزاءُ قومًا(٢)، نظيره: ﴿وَكَذَلِكَ نُجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ على قراءة ابن عامر وأبي بكر في سورة الأنبياء [الآية:٨٨](٣). قال الشاعر:

ولو وَلَدَتْ قُفَيْرَةُ جَرْوَ كَلْبٍ لَسُبَّ بذلك الجَرْوِ الكلابا(٤)

أي: لَسُبَّ السَّبُّ.

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾﴾

تقدَّم(٥).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: التوراة. ﴿وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ الحكم: الفهمُ في الكتاب. وقيل: الحكم على النَّاس والقضاء(٦). «والنُّبُوَّة» يعني: الأنبياء من وقت يوسفَ عليه السلام إلى زمن عيسى عليه السلام.

---

(١) السبعة ص٥٩٥، والتيسير ص١٩٨، والنشر ٢/ ٣٧٢.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٥٨.
(٣) التيسير ص ١٥٥.
(٤) البيت لجرير، وسلف ١٤/ ٢٧٦.
(٥) عند تفسير الآية (٤٦) من سورة فصلت.
(٦) الكشاف ٣/ ٥١١.

﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي: الحلال من الأقوات والثِّمار والأطعمة التي كانت بالشام. وقيل: يعني المَنَّ والسَّلْوَى في التِّيه.

﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على عالَمِي زمانِهم؛ على ما تقدَّم في «الدخان» بيانه[1].

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ابن عباس: يعني أمرَ النبيِّ ﷺ، وشواهدَ نبوَّته بأنَّه يهاجر من تِهامة إلى يَثْرِب، وينصره أهلُ يثرب[2]. وقيل: بيّناتٍ من الأمرِ: شرائعُ واضحاتٌ في الحلال والحرام ومعجزات.

﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ يريد يُوشَع بن نُون؛ فآمَنَ بعضهم وكفر بعضهم؛ حكاه النقاش[3]. وقيل: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بنبوَّة النبيِّ ﷺ فاختلفوا فيها.

﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ أي: حسدًا على النبيِّ ﷺ؛ قال معناه الضحاك[4]. وقيل: معنى «بَغْيًا»: أي: بَغَى بعضُهم على بعضٍ بطلبِ الفَضْل والرياسة، وقتلوا الأنبياء؛ فكذا مشركو عصرك يا محمد، قد جاءتهم البيِّناتُ، ولكنْ أعرضوا عنها للمنافسة في الرياسة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ﴾ أي: يحكم ويفْصِل ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾

فيه مسألتان:

---

(١) ص١٢٣ من هذا الجزء.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٦٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ .

(٤) قول الضحاك كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٣ : بغيًا على رسول الله ﷺ في جحود ما في كتابهم من نبوة وصفته.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ الشريعة في اللُّغة: المذهبُ والمِلَّة. ويقال لِمَشْرَعة الماء - وهي موردُ الشاربة -: شريعة[١]. ومنه الشارع؛ لأنَّه طريقٌ إلى المَقْصِد. فالشريعة: ما شَرَع الله لعباده من الدين، والجمعُ الشرائع[٢]. والشرائع في الدين: المذاهبُ التي شَرَعها الله لخلقه. فمعنى: ﴿جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: على منهاجٍ واضحٍ من أمر الدّين يَشْرَعُ بك إلى الحقّ.

وقال ابن عباس: «عَلَى شَرِيعَةٍ» أي: على هدًى من الأمر. قتادة: الشريعةُ: الأمرُ والنهيُ والحدودُ والفرائض[٣]. مقاتل: البيِّنة؛ لأنَّها طريقٌ إلى الحقّ. الكلبيّ: السُّنَّة؛ لأنَّه يَستنُّ بطريقة مَن قبله من الأنبياء. ابن زيد: الدِّين؛ لأنَّه طريقُ النجاة[٤].

قال ابن العربيّ[٥]: والأمرُ يَرِدُ في اللُّغة بمعنيين: أحدهما: بمعنى الشأن، كقوله: ﴿فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧]. والثاني: أحد أقسام الكلام الذي يقابله النهي. وكلاهما يصحُّ أنْ يكونَ مرادًا هاهنا؛ وتقديرُه: ثمَّ جعلناك على طريقةٍ من الدين، وهي ملَّة الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل:١٢٣].

ولا خلاف أنَّ الله تعالى لم يُغَاير بين الشرائع في التوحيد والمكارم والمصالح، وإنَّما خالفَ بينها[٦] في الفروع؛ حسبما علمه سبحانه.

الثانية: قال ابنُ العربيّ[٧]: ظنَّ بعضُ من تكلَّم[٨] في العلم أنَّ هذه الآيةَ دليلٌ

---

(١) الصحاح (شرع).

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٨٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢.

(٦) في النسخ: بينهما. والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٢، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٨) في (د) و(ز) و(ق) و(م): يتكلم.

على أنَّ شَرْعَ مَنْ قَبْلَنا ليس بشرعٍ لنا؛ لأنَّ الله تعلى أفردَ النبيَّ ﷺ وأمته في هذه الآية بشريعة، ولا ننكر[١] أنَّ النبيَّ ﷺ وأمتَه منفردان بشريعة، وإنَّما الخلافُ فيما أخبر النبيُّ ﷺ عنه مِن شرع مَن قبلَنا في مَعرض المدح والثناء [والعظة]، هل يلزمُ اتِّباعه أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يعني: المشركين. وقال ابن عباس: قُريظة والنَّضِير. وعنه: نزلتْ لمَّا دعته قريشٌ إلى دين آبائه[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ﴾ أي: إنْ اتَّبعتَ أهواءَهم لا يدفعون عنك من عذاب الله شيئاً[٣]. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ﴾ أي: أصدقاءُ وأنصار وأحباب. قال ابن عباس[٤]: يريد أنَّ المنافقينَ أولياءُ اليهود.

﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ناصرُهم ومُعِينُهم. والمتَّقون هنا: الذين اتَّقوا الشركَ والمعاصي.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَصَـٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: هذا الذي أَنْزلتُ عليك براهينُ ودلائلُ ومعالمُ للنَّاس في الحدود والأحكام[٥]. وقُرِئ: «هَذِهِ بَصَائِرُ» أي: هذه الآيات[٦]. ﴿وَهُدًى﴾ أي: رَشَدٌ وطريقٌ يؤدّي إلى الجنَّة لمن أَخَذَ به. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾

---

(١) في (خ) و(ظ) و(ق): ينكر.

(٢) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٠.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٤) في (ظ): ابن زيد.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) الكشاف ٣/ ٥١١، والقراءة المذكورة شاذة.

في الآخرة ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: اكتسبوها. والاجتراح: الاكتساب؛ ومنه الجوارح[١]، وقد تقدَّم في المائدة[٢].

﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قال الكلبيّ: «الَّذِينَ اجْتَرَحُوا» عُتبةُ وشَيبةُ ابنا ربيعة والوليدُ بن عُتبة. و«الَّذِينَ آمَنُوا» عليٌّ وحمزةُ وعُبيدةُ بن الحارث ﷺ حين بَرَزُوا إليهم يومَ بدرٍ فقتلوهم[٣]. وقيل: نزلت في قومٍ من المشركين قالوا: إنَّهم يُعطَون في الآخرة خيرًا مما يُعطاه المؤمن[٤]؛ كما أخبر الربُّ عنهم في قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

وقوله: «أَمْ حَسِبَ» استفهامٌ معطوفٌ معناه الإنكار. وأهلُ العربيةُ يُجوِّزون ذلك من غير عطف إذا كان متوسطاً للخطاب. وقوم يقولون: فيه إضمار، أي: والله وليُّ المتقين؛ أفيعلمُ المشركون ذلك؛ أم حسبوا أنَّا نسوِّي بينهم.

وقيل: هي أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها إنكار الحُسبان[٥]. وقراءةُ العامَّة: «سَوَاءٌ» بالرفع على أنَّه خبرُ ابتداءٍ مقدَّم، أي: محياهم ومماتهم سواء. والضمير في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» يعود على الكفار[٦]، أي: محياهم محيا سوء، ومماتهم كذلك.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٢) ٧/ ٣٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٤ . وخبر المبارزة أخرجه أحمد (٩٤٨) عن علي ﷺ .

(٤) ذكر نحوه البغوي في تفسيره ٤/ ١٥٩ .

(٥) الكشاف ٣/ ٥١١ .

(٦) الكلام بنحوه في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٢ .

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ والأعمشُ: «سَوَاءً» بالنصب[١]، واختاره أبو عبيد قال: معناه نجعلهم سواءً[٢]. وقرأ الأعمش أيضًا وعيسى بن عمر: «وَمَمَاتَهم» بالنصب[٣]؛ على معنى سواءً في محياهم ومماتهم؛ فلما أُسقط الخافضُ انتصب. ويجوزُ أنْ يكون «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» بدلاً من الهاء والميم في نجعلهم؛ المعنى: أنْ نجعلَ محياهم ومماتَهم سواءً كمحيا الذين آمنوا ومماتِهم[٤]. ويجوزُ أنْ يكون الضميرُ في «مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ» للكفار والمؤمنين جميعًا[٥].

قال مجاهد: المؤمنُ يموت مؤمنًا ويُبعث مؤمنًا، والكافرُ يموت كافرًا ويُبعث كافرًا[٦]. وذكر ابنُ المبارك: أخبرنا شعبةُ، عن عمرو بن مُرَّة، عن أبي الضُّحى، عن مسروق قال: قال رجلٌ من أهل مكَّة: هذا مقامُ تميم الداري، لقد رأيتُه ذاتَ ليلةٍ حتى أصبح أو قرب أن يُصبح يقرأُ آيةً من كتاب الله، ويركع، ويسجد، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية كلها[٧].

وقال: نُسَير[٨]: بِتُّ عند الربيع بن خُثَيْم ذاتَ ليلةٍ، فقامَ يُصَلِّي، فمرَّ بهذه الآية، فمكث لَيلَه حتى أصبح لم يَعْدُها ببكاءٍ شديد[٩]. وقال إبراهيم بن الأشعث: كثيرًا

(١) وهي قراءة حفص عن عاصم أيضاً. السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٨. وذكرها عن الأعمش ابنُ خالويه في القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٨.

(٢) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٥.

(٣) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص ١٣٨.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٣٣، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩.

(٦) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٨٨ بنحوه.

(٧) الزهد لابن المبارك (٦٤)، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٢٥٠)، وقال ابن حجر في الإصابة ١/ ٣٠٥: رواه البغوي في الجعديات بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٨) في النسخ: بشير، والمثبت من المصادر، وهو نُسير بن ذُعْلُوق الثوري مولاهم، أبو طعمة الكوفي. تهذيب التهذيب ٤/ ٢١٦.

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة ٢/ ٤٧٧، ١٣/ ٣٩٦.

ما رأيتُ الفُضيلَ بن عياض يردِّد من أوّل الليل إلى آخره هذه الآية ونظيرَها، ثم يقول: ليت شعري! مِن أيِّ الفريقين أنت[١]؟ وكانت هذه الآية تُسمَّى مَبكاة العابدين[٢]، لأنَّها محكمة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الحق. ﴿وَلِتُجْزَىٰ﴾ أي: ولكي تُجزى. ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: في الآخرة. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قال ابنُ عباس والحسن وقتادة: ذلك الكافر اتَّخذَ دينَه ما يهواه؛ فلا يهوى شيئًا إلَّا ركبه[٣]. وقال عكرمة: أفرأيت من جَعَل إلهه الذي يعبدُه ما يهواه أو يستحسنه؛ فإذا استحسن شيئاً وهَوِيَهُ اتَّخذه إلهًا.

قال سعيدُ بن جُبير: كان أحدُهم يَعبدُ الحجر؛ فإذا رأى ما هو أحسنُ منه رمى به، وعبد الآخر[٤].

وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن قيس السهميّ؛ أحد المستهزئين، لأنَّه كان يعبدُ ما تهواه نفسه[٥].

وقال سفيانُ بن عيينة: إنَّما عبدوا الحجارة لأنَّ البيتَ حجارة.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥١٢، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ دون نسبة.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٨٥ ونسب هذا القول للثعلبي.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٥٩، وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٦٤، وأخرج قول ابن عباسٍ وقتادة الطبريُّ ٢١/ ٩٢ - ٩٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٥) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٢.

وقيل: المعنى: أفرأيتَ من يَنقادُ لهواه انقياده لإلهه[١] ومعبودِه؛ تعجيباً لذوي العقول من هذا الجهل[٢].

وقال الحسين بن الفضل: في هذه الآية تقديمٌ وتأخير، مجازه: أفرأيتَ من اتَّخذ هواه إلهه.

وقال الشَّعْبيُّ: إنَّما سُمِّي الهوى؛ لأنَّه يهوي بصاحبه في النَّار.

وقال ابنُ عباس: ما ذَكر اللهُ هَوًى في القرآن إلَّا ذمَّه[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ: «لا يُؤمن أحدُكم حتى يكون هواه تَبَعاً لما جئتُ به»[٤].

وقال أبو أمامة: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «ما عُبِد تحت السماء إلهٌ أبغض إلى الله من الهوى»[٥]. وقال شدَّادُ بن أوس عن النبيِّ ﷺ: «الكَيِّس من دَان نفسَه، وعَمِلَ لِمَا

(١) قوله: انقياده لإلهه. من (خ) و(ظ).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٨٦. وقول الشعبي السالف منه.

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٥)، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٦٩، والبغوي في شرح السنة ١/ ٢١٣.

قال الإمام النووي: حديث حسن صحيح. وينظر كلام الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣ - ٣٩٥.

(٥) أخرجه بهذا اللفظ الواحدي في الوسيط ٤/ ٩٩. وأخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (٣)، والطبراني في الكبير (٧٥٠٢). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١/ ١٨٨: وفيه الحسن بن دينار، وهو متروك الحديث. اهـ. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٣٢٦: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، وفيه جماعة ضعاف، والحسن بن دينار والخصيب كذابان عند علماء النقل.

بعد الموت. والعاجز[١] من أَتبَعَ نفسَه هواها، وتمنَّى على الله»[٢]. وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا، وهَوًى مُتَّبَعًا، ودنيا مؤثَرة، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه؛ فعليك بخاصَّة نفسك، ودَعْ عنك أمرَ العامَّة»[٣]. وقال ﷺ: «ثلاثٌ مهلكات، وثلاثٌ منجيات، فالمهلكات: شُحٌّ مطاعٌ، وهوًى مُتَّبعٌ، وإعجابُ المرء بنفسه. والمنجياتُ: خشيةُ الله في السرِّ والعلانية، والقصدُ في الغنى والفقر، والعدلُ في الرضا والغضب»[٤]. وقال أبو الدرداء ﷺ: إذا أصبحَ الرجلُ، اجتمعَ هواه وعمله وعلمه؛ فإنْ كان عمله تبعًا لهواه فيومُه يومُ سوء، وإنْ كان عملُه تبعًا لعلمه فيومه يوم صالح[٥].

وقال الأصمعي: سمعتُ رجلاً يقول:

إنَّ الهَوانَ هو الهوى قُلِبَ اسمُه ... فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا

وسُئِل ابن المقفَّع عن الهوى فقال: هَوَانٌ سُرقت نونه، فنظمه شاعرٌ فقال[٦]:

نُونُ الهَوانِ من الهَوَى مسروقةٌ ... فإذا هَوِيتَ فقد لقيتَ هَوانا[٧]

وقال آخر:

إنَّ الهوى لهو الهوانُ بعينهِ ... فإذا هَوِيتَ فقد كَسَبْتَ هَوانا

(١) في (د) و(ز) و(ق) و(م): الفاجر، وفي (ظ): العاجل، والمثبت من (خ) وهو الموافق للمصادر.

(٢) أخرجه أحمد (١٧١٢٣)، وفي إسناده أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. وسلف بعضه ١/ ٢٢١.

(٣) سلف ٨/ ٢٥٠.

(٤) أخرجه البزار (كشف الأستار) (٨٠)، والطبراني في الأوسط (٥٤٤٨) عن أنس بن مالك ﷺ. قال المنذري في الترغيب والترهيب ١/ ٣٦٢: وهو مروي عن جماعة من الصحابة، وأسانيده وإن كان لا يسلم شيء منها من مقال، فهو بمجموعها حسن إن شاء الله تعالى.

(٥) ذكره ابن الجوزي في ذم الهوى ص ٢٢، وصفة الصفوة ١/ ٦٣٦ بنحوه.

(٦) في (م): فأخذه شاعر فنظمه وقال.

(٧) ذم الهوى لابن الجوزي ص٣٣. وهذا البيت نسبه الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص١١٣ لعبيد الله ابن عبد الله بن طاهر.

وإذا هَوِيتَ فقد تعبَّدك الهوى فاخْضَعْ لِحبِّك كائنًا من كانا[١]

ولعبد الله بن المبارك:

ومن البلاء وللبلاء[٢] علامةٌ ألَّا يُرى لك عن هواك نزوعُ

العبدُ عبدُ النَّفس في شهواتها والحرُّ يشبع تارةً ويجوعُ[٣]

ولابن دُرَيْد:

إذا طالبتك النَّفْسُ يومًا بشهوةٍ وكان إليها للخلاف طريقُ

فَدَعْها وخالفْ ما هَوِيتَ فإنَّما هواكَ عدوٌّ والخلافُ صديقُ[٤]

ولأبي عبيد الطُّوسيّ:

والنفسُ إنْ أعطيتَها مُناها فاغرةٌ نحو هواها فاها[٥]

وقال أحمدُ بن أبي الحَواري: مررتُ براهبٍ فوجدته نحيفًا، فقلت له: أنت عليل؟ قال: نعم. قلت: مذْ كم؟ قال: مذْ عرفتُ نفسي! قلت: فتداوى؟ قال: قد أعياني الدواء وقد عزمتُ على الكيّ. قلت: وما الكَيّ؟ قال: مخالفةُ الهوى[٦].

وقال سهلُ بن عبد الله التُّسْتَرِيّ: هواك داؤُك، فإنْ خالفتَه فدواؤك.

وقال وَهْب: إذا شككتَ في أمرين ولم تدرِ خيرهما، فانظرْ أبعدَهما من هواك فأْته[٧].

---

(١) ذكر الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٤ البيت الثاني، وقبله البيت السالف الذي أوله: نون الهوان...

(٢) في (د) و(ز) و(م): ومن البلايا للبلاء، وفي (خ) و(ق): ومن البلاء للبلاء. والمثبت من (ظ) والمصادر.

(٣) البيتان في بهجة المجالس ٢/٣٠٦، وذم الهوى ص ٣٤.

(٤) البيتان ذكرهما الثعالبي في التمثيل والمحاضرة ص ٤٥٣ دون نسبة. وفيه: فخالف هواها ما استطعت. بدل: فدعها وخالف ما هويت.

(٥) البيت لأبي العتاهية كما في أشعاره وأخباره ص ٤٥٩، وفيه: اتبعتها. بدل: أعطيتها.

(٦) ذم الهوى ص ٢٨.

(٧) المحرر الوجيز ٥/٨٦. ونسب القول الأخير أيضاً لسهل بدل: وهب.

وللعلماء في هذا الباب في ذمِّ الهوى ومخالفته كتبٌ وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيه كفايةٌ منه؛ وحسبُك بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ . فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمٍ قد علمَه منه. وقيل: أضلَّه عن الثواب على علمٍ منه بأنَّه لا يستحقه[١]. وقال ابن عباس: أي على علمٍ قد سبق عنده أنَّه سيَضل. مقاتل: على علمٍ منه أنَّه ضالّ[٢]. والمعنى متقارب. وقيل: على علمٍ من عابد الصنم أنَّه لا ينفع ولا يضر. ثم قيل: «عَلَى عِلْمٍ» يجوزُ أنْ يكون حالاً من الفاعل؛ المعنى: أضلَّه على علمٍ منه به، أي: أضلَّه عالماً بأنَّه من أهل الضَّلال في سابق علمه. ويجوز أنْ يكون حالاً من المفعول؛ فيكون المعنى: أضلَّه في حال علم الكافر بأنَّه ضال.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: طبع على سمعه حتى لا يسمعَ الوعظ، وطبعَ على قلبه حتى لا يفقَه الهدى. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ أي: غطاءً حتى لا يبصر الرشد[٣]. وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «غَشْوة» بفتح الغين من غير ألف[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥]. وقال الشاعر:

أمـا والـذي أنـا عـبـدٌ لـه ... يَـمـيـنًـا ومـالَـك أُبـدي الـيـمـيـنـا
لـئـن كـنـتَ ألـبـسـتـنـي غَـشْـوةً ... لـقـد كـنـتُ أصـفـيـتُـك الـوُدَّ حـيـنـا[٦]

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ أي: من بعد أنْ أضلَّه. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾: تتَّعظون وتعرفون

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٤٧-١٤٨.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٤) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٥) ١/ ٢٩١ - ٢٩٢.

(٦) لم نقف عليهما.

أنَّه قادرٌ على ما يشاء.

وهذه الآيةُ تردُّ على القدريَّة والإماميَّة ومن سلك سبيلَهم في الاعتقاد؛ إذْ هي مصرِّحةٌ بمنعهم من الهداية.

ثم قيل: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ إنَّه خارجٌ مخرجَ الخبر عن أحوالهم. وقيل: إنَّه خارجٌ مخرجَ الدُّعاء بذلك عليهم(١)؛ كما تقدَّم في أوّل «البقرة»(٢).

وحكى ابنُ جُريج أنَّها نزلت في الحارث بن قيس من الغياطلة(٣).

وحكى النَّقَاش أنَّها نزلت في الحارث بن نوفل بن عبد مناف(٤).

وقال مقاتل: نزلت في أبي جهل، وذلك أنَّه طاف بالبيت ذات ليلةٍ ومعه الوليد ابن المغيرة؛ فتحدَّثا في شأن النبيِّ ﷺ، فقال أبو جهل: والله إني لأعلم إنَّه لَصادق! فقال له: مَهْ! وما دلَّك على ذلك! قال: يا أبا عبد شمس، كنَّا نسمِّيه في صباهُ الصادقَ الأمين؛ فلما تمَّ عقلُه وكَمُل رُشْده، نسمِّيه الكذَّابَ الخائن!! والله إنِّي لأعلم إنَّه لصادق! قال: فما يمنعُك أنْ تصدِّقَهُ وتؤمنَ به؟ قال: تتحدَّثُ عني بنات قريش أني قد اتَّبعت يتيمَ أبي طالبٍ من أجل كِسرة، واللاتِ والعُزَّى إنْ اتَّبعتُه أبداً. فنزلت: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾(٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ هذا إنكارٌ منهم للآخرة،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥.

(٢) ١/ ٢٨٤.

(٣) قال ابن دريد في الاشتقاق ١/ ١٢٠: بنو قيس بن عدي، كانوا من رجال قريش، يلقَّبون الغياطل. وكان قيس بن عدي سيِّد قريش في دهره غير مُدافَع... والغياطل: جمع غيطلة، وهو الشجر الملتف.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٥ ونسب القول الأخير للضحاك بدل النقاش.

(٥) لم نقف عليه.

وتكذيبٌ للبعث، وإبطالٌ للجزاء. ومعنى: «نَمُوتُ وَنَحْيَا» أي: نموتُ نحن وتحيا[١] أولادنا؛ قاله الكلبيّ. وقُرِئ: «ونُحْيَا» بضم النون. وقيل: يموتُ بعضنا ويحيا بعضنا. وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت؛ وهي قراءة ابن مسعود[٢].

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُۚ﴾ قال مجاهد: يعني السنين والأيام. وقال قتادة: إلَّا العمر[٣]؛ والمعنى واحد. وقُرِئ: «إلا دهرٌ يمرّ»[٤].

وقال ابنُ عيينة: كان أهلُ الجاهلية يقولون: الدهرُ هو الذي يُهلكنا، وهو الذي يُحيينا ويُميتنا؛ فنزلتْ هذه الآية[٥]. وقال قُطْرب: وما يُهلكُنا إلَّا الموت؛ وأنشد قولَ أبي ذُؤيب:

أَمِنَ المَنُونِ وَرَيْبِهَا تَتَوجَّعُ ... والدَّهْرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يَجْزَعُ[٦]

وقال عكرمة: أي: وما يُهلكُنا إلَّا الله[٧]. وروَى أبو هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «كان أهلُ الجاهلية يقولون: ما يهلِكُنا إلَّا الليلُ والنَّهار، وهو الذي يهلكنا ويميتُنا ويحيينا، فيسبُّون الدهرَ. قال الله تعالى: يؤذيني ابنُ آدم يَسُبُّ الدَّهْرَ، وأنا الدَّهْرُ، بيدي الأمرُ، أُقلِّبُ الليلَ والنهار[٨]».

قلت: قوله: قال الله. إلى آخره. نَصُّ البخاريِّ ولفظُه. وخرَّجه مسلمٌ أيضاً

---

(١) في (د) و(م): يحيا.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٣) أخرجهما الطبري ٢١/ ٩٦.

(٤) هي قراءة ابن مسعود كما في تفسير الطبري ٢١/ ٩٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٨٧. وقال ابن خالويه: يهلكنا إلا دهراً؛ ابن مسعود. تأويله إلا دهراً يمر.

(٥) أخرجه ابن حبان (٥٧١٥)، والحاكم ٢/ ٤٥٣.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٦٦.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٩٧.

وأبو داود[١].

وفي الموطأ عن أبي هريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يقولنَّ أحدُكم: يا خيبةَ الدهر، فإنَّ الله هو الدهر»[٢].

وقد استدلَّ بهذا الحديث من قال: إنَّ الدهرَ من أسماء الله.[٣] وقال من لم يجعلهُ من العلماء اسماً: إنَّما خرج ردًّا على العرب في جاهليتها؛ فإنَّهم كانوا يعتقدونَ أنَّ الدهرَ هو الفاعل، كما أخبر اللهُ عنهم في هذه الآية؛ فكانوا إذا أصابهم ضَرٌّ أو ضَيْمٌ أو مكروه، نَسبوا ذلك إلى الدهر، فقيل لهم على ذلك: لا تسبُّوا الدهرَ؛ فإنَّ الله هو الدهر، أي: إنَّ اللهَ هو الفاعلُ لهذه الأمور التي تضيفونَها إلى الدهر، فيرجعُ السبُّ إليه سبحانه، فَنُهُوا عن ذلك. ودلَّ على صحة هذا ما ذكره من حديث أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: قال اللهُ تبارك وتعالى: يؤذيني ابنُ آدم .. الحديث[٤]. ولقد أحسنَ من قال، وهو أبو عليٍّ الثقفي:

يا عاتبَ الدهرِ إذا نابَهُ ... لا تَلُمِ الدهرَ على غَدْرِهِ[٥]

الدهرُ مأمورٌ، له آمرٌ ... وينتهي الدهرُ إلى أمرِهِ

كم كافرٍ أموالُه جَمَّةٌ ... تزدادُ أضعافًا على كفرِهِ[٦]

ومؤمنٍ ليس له درهمٌ ... يزداد إيمانًا على فَقْرِهِ[٧]

(١) صحيح البخاري (٤٨٢٦)، وصحيح مسلم (٢٢٤٦): (٢)، وسنن أبي داود (٥٢٧٤)، وهو عند أحمد (٧٢٤٥).

(٢) الموطأ ٢/ ٩٨٤، وأخرجه أيضاً أحمد (٩١١٦)، ومسلم (٢٢٤٦) (٤).

(٣) الصحيح أن الدهر ليس من أسماء الله عز وجل. وانظر كلام المصنف بعده.

(٤) سلف قريباً. والكلام بنحوه في المفهم ٥/ ٥٤٩.

(٥) الشطر الأول في المصادر الآتي ذكرها: يا لائم الدهر إذا ما نبا.

(٦) الشطر الأول في المصادر: كم كافرٍ بالله أمواله.

(٧) روضة العقلاء ص ٢٨٠، وشعب الإيمان ١/ ٢٣٢. ونسب فيه لأحمد بن عبيد الله الدارمي.

وروي أنَّ سالم بن عبد الله بن عمر كان كثيراً ما يذكرُ الدَّهرَ، فزجرهُ أبوه وقال: إيَّاك يا بنيَّ وذِكْرَ الدهر! وأنشد:

فما الدهرُ بالجاني لشيءٍ لِحَيْنِه ... ولا جالبَ البَلْوَى فلا تشتم الدّهْرَا
ولكنْ متى ما يبعثِ الله باعثًا ... على معشرٍ يَجعلْ مياسيرهم عُسْرا

وقال أبو عبيد[1]: ناظرتُ بعضَ المُلْحدة فقال: ألا تراه يقول: «فإنَّ الله هو الدهر»!؟ فقلتُ: وهل كان أحدٌ يسبُّ الله في آباد الدهر، بل كانوا يقولون كما قال الأعشى:

إنَّ مَحَلًّا وإنَّ مُرْتَحَلا ... وإنَّ في السَّفْرِ إذ مَضَوْا مَهَلَا
استأثر اللهُ بالوفاء وبالـ ... ـعَدْل وولَّى المَلامَةَ الرَّجُلَا[2]

قال أبو عبيد[3]: ومن شأن العرب أنْ يذمُّوا الدهرَ عند المصائبِ والنوائب؛ حتى ذكروه في أشعارهم، ونسبوا الأحداثَ إليه. قال عمرو بن قميئة[4]:

رمتني بناتُ الدَّهر من حيث لا أرى ... فكيف بمن يُرْمَى وليس برامِ
فلو أنَّها نَبْلٌ إذًا لاتَّقيتُها ... ولكنني أُرْمَى بغير سهامِ
على الراحتين مرَّةً وعلى العصا ... أنُوءُ ثلاثًا بعدهنَّ قيامي

ومثلُه كثيرٌ في الشعر. ينسبون ذلك إلى الدهر، ويضيفونَه إليه، واللهُ سبحانه الفاعلُ لا ربَّ سواه.

﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: علمٌ. و«مِن» زائدة، أي: قالوا ما قالوا شاكِّين.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ أي: ما هم إلَّا يتكلمون بالظَّنّ. وكان المشركونَ أصنافاً؛

---

(١) في غريب الحديث ٢/ ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) ديوان الأعشى ص ٢٨٣. وفيه: ما مضى. بدل: إذ مضوا.

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٤٦ - ١٤٧.

(٤) في ديوانه ص ٤٥-٤٦.

منهم هؤلاء، ومنهم من كان يُثْبِتُ الصانعَ وينكر البعث، ومنهم من كان يَشُكُّ في البعث ولا يَقْطعُ بإنكاره.

وحَدَث في الإسلام أقوامٌ ليس يمكنهم إنكارُ البعث خوفًا من المسلمين؛ فيتأوَّلون ويرون القيامةَ موتَ البدن، ويرون الثوابَ والعقابَ إلى خيالاتٍ تَقعُ للأرواح بزعمهم، فشرُّ هؤلاء أضرُّ من شرِّ جميع الكفار؛ لأنَّ هؤلاء يُلَبِّسونَ على الحقّ، ويُغتَرُّ بتلبيسهم الظاهر. والمشركُ المجاهرُ بشركه يحذرُه المسلم.

وقيل: نموتُ وتَحيا آثارُنا؛ فهذه حياةُ الذكر. وقيل: أشاروا إلى التناسخ، أي: يموتُ الرَّجل فتجعل روحه في مواتٍ فتحيا به.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ﴾ أي: وإذ تُقرأ على هؤلاء المشركين آياتُنا المنزَّلةُ في جواز البعث، لم يكنْ ثَمَّ دَفْعٌ.

﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ «حُجَّتَهُمْ» خبرُ كان، والاسم ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ الموتى؛ نسألهم عن صدق ما تقولون؛ فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ يعني: بعد كونكم نُطَفًا أمواتًا ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كما أحياكم في الدنيا .﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ الله يعيدُهم كما بدأهم.

الزمخشريّ: فإن قلتَ: لم سمَّى قولَهم حجةً، وليس بحجة؟ قلت: لأنَّهم أدْلَوْا به كما يُدْلي المحتجُّ بحجَّته، وساقوه مساقَها، فسُمِّيت حجةً على سبيل التَّهكُّم. أو لأنَّه في حسبانهم وتقديرهم حجَّةٌ. أو لأنَّه في أسلوب قولهم[١]:

تَـحِـيَّـةُ بـيـنِـهـم ضَـرْبٌ وَجـيـعُ[٢]

---

(١) في النسخ عدا (ظ): قوله. والمثبت موافق للكشاف.

(٢) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب، وسلف ٣/ ٣٨٩.

كأنَّه قيل: ما كان حجَّتَهم إلّا ما ليس بحُجَّة. والمراد نفيُ أنْ تكون لهم حجَّةٌ الْبَتَّةَ. فإنْ قلتَ: كيف وقع قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ جواباً [لقولهم]: «ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ»؟ قلتُ: لمَّا أنكروا البعثَ، وكذَّبوا الرسلَ، وحسبوا أنَّ ما قالوه قولٌ مُبَكِّتٌ[١]، أُلزِموا ما هم مُقِرُّون به من أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ هو الذي يحييهم ثم يميتهم، وضُمَّ إلى إلزام ذلك إلزامُ ما هو واجبُ الإقرارُ به إنْ أنصفوا وأصغَوْا إلى داعي الحقِّ، وهو جَمْعُهم إلى[٢] يوم القيامة، ومن كان قادراً على ذلك، كان قادراً على الإتيان بآبائهم، وكان أهونَ شيءٍ عليه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ خَلْقًا ومُلْكًا.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ «يَوْمَ» الأوَّل منصوبٌ بـ«يَخْسَرُ»، و«يَوْمَئِذٍ» تكريرٌ للتأكيد[٤] أو بدل. وقيل: إنَّ التقدير: وله الملكُ يوم تقوم السَّاعة. والعاملُ في «يَوْمِئِذٍ»: «يَخْسَر»، ومفعول «يَخسَرُ» محذوف؛ والمعنى: يخسرون منازلَهم في الجنَّة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ﴾ أي: من هول ذلك اليوم. والأُمَّة هنا: أهلُ كلِّ ملَّة. وفي الجاثية تأويلاتٌ خمس.

---

(١) التبكيت: الغَلَبة بالحُجَّة. القاموس (بكت).

(٢) قوله: إلى. ليس في (د) و(م).

(٣) الكشاف ٣/ ٥١٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

الأوَّل: قال مجاهد: مستوفِزة. وقال سفيان: المستوفز الذي لا يُصيب الأرضَ منه إلَّا ركبتاه وأطرافُ أنامله. الضَّحَّاك: ذلك عند الحساب.

الثاني: مجتمعة؛ قاله ابن عباس. الفرَّاء: المعنى: وترى أهلَ كلِّ دينٍ مجتمعين.

الثالث: متميِّزة؛ قاله عكرمة.

الرابع: الرابع: خاضعة، بلغة قريش؛ قاله مُؤَرِّج.

الخامس: باركة على الرُّكَب؛ قاله الحسن(١).

والجَثْوُ: الجلوسُ على الركب. جثا على ركبتيه يَجْثو ويجثي جُثُوًّا وجُثِيًّا؛ على فُعول فيهما، وقد مضى في «مريم»(٢). وأصل الجَثْوَة: الجماعةُ من كلِّ شيءٍ. قال طَرَفةُ يصف قبرين:

ترى جُثْوَتَيْنِ من ترابٍ عليهما صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ(٣)

ثم قيل: هو خاصٌّ بالكفار؛ قاله يحيى بن سلَّام. وقيل: إنَّه عامٌّ للمؤمن والكافر انتظارًا للحساب(٤).

وقد رَوى سفيانُ بن عيينة عن عمرٍو عن عبد الله بن باباه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «كأني أراكم بالكَوْم جاثينَ دون جهنم». ذكره الماورديُّ(٥).

وقال سلمان: إنَّ في يوم القيامة لساعةً هي عشرُ سنينَ يخِرُّ الناسُ فيها جُثاةً على

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧ عدا قول الضحاك والفراء. وأخرج قول الضحاك الطبريُّ ٢١/ ١٠١، وقولُ الفراء في معاني القرآن ٣/ ٤٨.

(٢) ١٣/ ٤٨٧.

(٣) ديوان طرفة بن العبد ص٣٣، وسلف ١٣/ ٤٨٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٦٧.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٢٦٧. والحديث أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢١٣، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٢ (١٨٥٤١)، وأبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩٩، عمرو: هو ابن دينار. قال ابن حجر في الفتح ١١/ ٤٠٥: أخرجه البيهقي في البعث من مرسل عبد الله بن باباه بسند رجاله ثقات رفعه. اهـ. والكوم: بالفتح: المواضع المُشرِفة، واحدها: كَومة. النهاية (كوم).

رُكَبهم، حتى إنَّ إبراهيمَ عليه السلام لَيُنادي: لا أسألُكَ اليومَ إلَّا نفسي[١].

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ قال يحيى بنُ سلَّام: إلى حسابها. وقيل: إلى كتابها الذي كان يُستنسخُ لها فيه ما عملتْ من خيرٍ وشرّ؛ قاله مقاتل. وهو معنى قول مجاهد[٢]. وقيل: «كِتابهَا»: ما كتبت الملائكةُ عليها[٣]. وقيل: كتابها المنزَّل عليها لِينظر هل عملوا بما فيه[٤]. وقيل: الكتابُ ها هنا اللوحُ المحفوظ[٥]. وقرأ يعقوب الحضرميّ: «كُلَّ أُمَّةٍ» بالنصب على البدل من «كُلّ» الأُولى لِمَا في الثانية من الإيضاح الذي ليس في الأولى؛ إذ ليس في جُثوّها شيءٌ من حال شرح الجُثوّ كما في الثانية من ذكر السبب الداعي إليه، وهو استدعاؤُها إلى كتابها. وقيل: انتصبَ بإعمال «تَرىَ» مضمراً[٦]. والرفعُ على الابتداء. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ أو شرّ.

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ قيل: من قول الله لهم. وقيل: من قول الملائكة.

﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يشهد. وهو استعارة؛ يقال: نَطَقَ الكتابُ بكذا، أي: بَيَّن. وقيل: إنَّهم يقرؤونه، فيُذكِّرهُم الكتابُ ما عملوا؛ فكأنَّه ينطق عليهم[٧]؛ دليلُه قولُه: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف: ٤٩]. وفي «المؤمنين»: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية: ٦٢]،

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠١ .

(٢) هو قول الكلبي ، وليس بقول مقاتل ولا مجاهد . كما في النكت والعيون ٥/ ٢٦٩ . وقول مقاتل ومجاهد فيه في تفسير الآية التي بعدها. والله أعلم .

(٣) ذكره بنحوه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٨٩ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ ونسبه للجاحظ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦١ .

(٦) ينظر مجمع البيان ٢٥/ ١٣٧ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٢ ، وهو من العشرة.

(٧) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٠٥ .

وقد تقدَّم[١].

و«يَنْطِقُ» في موضع الحال من الكتاب، أو من ذا، أو خبرٌ ثانٍ لذا، أو يكون «كِتَابُنَا» بدلاً من «هَذَا»، و«يَنْطِقُ» الخبر[٢].

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمرُ بنسخ ما كنتم تعملون.

قال عليٌّ ﷺ: إنَّ لِلَّه ملائكةً ينزلون كلَّ يومٍ بشيءٍ يكتبون فيه أعمالَ بني آدم[٣].

وقال ابن عباس: إنَّ الله وكَّل ملائكةً مطهَّرين، فينسخون من أمِّ الكتاب في رمضانَ كلَّ ما يكون من أعمال بني آدم، فيُعارضون حَفَظَةَ الله على العباد كلَّ خميس، فيجدون ما جاء به الحفظةُ من أعمال العباد موافقًا لما في كتابهم الذي استنسخوا من ذلك الكتاب، لا زيادةَ فيه ولا نقصان[٤]. قال ابن عباس: وهل يكون النَّسخُ إلَّا من كتاب[٥].

الحسن: نستنسخُ ما كتبته الحفظة على بني آدم؛ لأنَّ الحفَظةَ تَرفعُ إلى الخَزَنة صحائفَ الأعمال[٦].

وقيل: تَحمل الحفظةُ كلَّ يومٍ ما كتبوا على العبد، ثمَّ إذا عادوا إلى مكانهم نُسِخَ[٧] منه الحسناتُ والسيئات؛ ولا تُحوَّلُ المباحاتُ إلى النسخة الثانية.

وقيل: إنَّ الملائكةَ إذا رفعتْ أعمالَ العباد إلى الله عزَّ وجلَّ، أمر بأنْ يُثْبَتَ عندَه منها ما فيه ثوابٌ وعقاب، ويُسقَطَ من جملتها ما لا ثواب فيه ولا عقاب[٨].

---

(١) ١٣/ ٢٩٧ - ٢٩٨ و١٥/ ٦٠ .

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٤) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٢٧ من رواية الضحاك عن ابن عباس .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٠٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٦٨ .

(٧) في (د) و(ظ) : نسخوا .

(٨) معاني القرآن للفراء ٣/ ٤٨ - ٤٩ .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ أي: الجنَّة ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ . وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي: فيقال لهم ذلك، وهو استفهامُ توبيخ .﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن قبولها .﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: مشركين تكسِبون المعاصي. يقال: فلانٌ جريمةُ أهله. إذا كان كاسِبَهم[1]؛ فالمجرم: من أكسبَ نفسَه المعاصي. وقد قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥] فالمجرمُ ضدُّ المسلم، فهو المذنبُ بالكفر إذاً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث كائن .﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ وقرأ حمزةُ: «وَالسَّاعَةَ» بالنصب عطفًا على «وَعْدَ». الباقون بالرفع[2] على الابتداء، أو العطف على موضع «إنَّ وَعْدَ اللهِ». ولا يحسُنُ على الضمير الذي في المصدر؛ لأنَّه غيرُ موكَّد، والضميرُ المرفوع إنَّما يُعطَفُ عليه بغير تأكيدٍ في الشعر[3].

﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ هل هي حقٌّ أم باطل؟!

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ تقديره عند المبَرِّد: إنْ نحن إلا نظنُّ ظنًّا. وقيل: التقدير: إنْ نَظنُّ إلَّا أنَّكم تظنُّون ظنًّا[4]. وقيل: أي: وقلتم: إنْ نظنُّ إلا ظنًّا.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أنَّ الساعةَ آتيةٌ.

---

(١) الصحاح (جرم).

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٩٩.

(٣) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ١٧٩ - ١٨٠.

(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٣.

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: ظَهر لهم جزاءُ سيئاتِ ما عملوا. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: نزل بهم وأحاط ﴿مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من عذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ أي: نترُكُكم في النار كما تركْتُم لقاءَ يومِكم هذا، أي: تركتم العمل له. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ أي: مسكنُكم ومستقرُّكم. ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: مَنْ ينصرُكم.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: القرآن ﴿هُزُوًا﴾: لعباً. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعَتْكُم بأباطيلها وزخارفها؛ فظننتُم أنْ ليس ثَمَّ غيرُها، وأنْ لا بعث.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ أي: من النار. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾: يُسترْضَوْن. وقد تقدَّم[1].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ: «فاليوم لا يخرجون» بفتح الياء وضمِّ الراء[2]؛ لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠]. الباقون بضمِّ الياء وفتح الراء؛ لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا﴾ [النساء: ٧٥]. ونحوه[3].

---

(١) ١٢/٤٠٧ - ٤٠٨.

(٢) السبعة ص ٥٩٥، والتيسير ص ١٧٥.

(٣) الحجة للفارسي ٦/١٧٩.

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

قرأ مجاهد وحُميد وابن مُحَيْصِن «رَبُّ السمٰوات وربُّ الأرض ربُّ العالمين» بالرفع فيها كلِّها على معنى: هو رَبُّ[1].

﴿وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ أي: العَظَمَةُ والجلالُ والبقاءُ والسلطانُ والقدرةُ والكمال ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[2].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٩٠، وذكر القراءة فيه عن ابن محيصن، وهي قراءة شاذة.

(٢) بعدها في (د) و(م): والله أعلم. ختم تفسير سورة الجاثية والحمد لله.

سورة الأحقاف

مكيةٌ في قول جميعهم. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل: خمسٌ[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿حمٓ . تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ تقدَّم[2]. ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ تقدَّم أيضاً[3]. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني القيامة؛ في قول ابنِ عباس وغيره[4]. وهو الأجلُ الذي تنتهي إليه السماواتُ والأرض[5]. وقيل: إنه هو الأجل المقدورُ لكلِّ مخلوقٍ[6]. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾: خُوِّفوا ﴿مُعْرِضُونَ﴾: مُوَلُّون لاهُون غير مستعدِّين له. ويجوز أن تكون «ما» مصدرية، أي: عن إنذارهم ذلك اليوم[7].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٤ ، وقوله : مكية في قول الجميع، فيه نظر ؛ فقد روي عن ابن عباس وقتادة أن فيها آية مدنية كما هو في النكت والعيون ٥/ ٢٧٠ ، وزاد المسير ٧/ ٣٦٨ . وروي أيضاً عن مقاتل: نزلت بمكة غير آيتين. ذكره ابن الجوزي أيضاً . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٩١ .

(٢) ص١٤٣ من هذا الجزء.

(٣) ١٢/ ٢٤٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥١٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما تعبدون من الأصنام والأندادِ من دون الله. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: هل خَلَقوا شيئاً من الأرض؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ أي: نصيبٌ ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: في خلق السماوات مع اللهِ. ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ أي: من قبل هذا القرآن[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قراءة العامة: «أَوْ أثارةٍ» بألفٍ بعد الثاء.

قال ابن عباس عن النبيِّ ﷺ: «هو خطٌّ كانت تخطُّه العرب في الأرض»[٢]؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ. وقال ابن العربي[٣]: ولم يصحَّ. وفي مشهور الحديث عن النبيِّ ﷺ قال: «كان نبيٌّ من الأنبياء يَخُطُّ، فَمَنْ وافَق خطَّه فذاك» ولم يصحَّ أيضاً.

قلت: هو ثابتٌ من حديث معاوية بن الحَكَم السُّلمي؛ خَرَّجه مسلم[٤]. وأسند النحاس: حدَّثنا محمد بن أحمد ـ يعرف بالجرايحي[٥] ـ قال حدثنا محمد بن بندار قال: حدَّثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان الثوري، عن صفوان بن سُلَيم، عن أبي سَلَمة، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ قال: «الخطّ» وهذا صحيحٌ أيضاً[٦].

---

(١) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٢٩ - ٢٣٠.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٣، وسيذكره المصنف بلفظ: ﴿أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾: الخط.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤.

(٤) برقم (٥٣٧)، وهو عند الإمام أحمد (٢٣٧٦٢).

(٥) في (خ) و(د) بالجريحي. وفي (ظ) بالحريجي.

(٦) أخرجه الإمام أحمد (١٩٩٢)، والبغدادي في تاريخ بغداد ٤/ ٣٥٥، وعبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والطبري ٢١/ ١١٣، وسلف آنفاً.

قال ابن العربي[١]: واختلفوا في تأويله؛ فمنهم من قال: جاء لإباحة الضربِ؛ لأن بعضَ الأنبياء كان يفعله. ومنهم من قال: جاء للنهي عنه؛ لأنه ﷺ قال: «فمَنْ وافقَ خطَّه فذاك». ولا سبيلَ إلى معرفة طريق النبيِّ المتقدِّم فيه؛ فإذاً لا سبيل إلى العمل به. قال[٢]:

لَعمرك ما تدري الضواربُ بالحصا ولازاجراتُ الطير ما اللهُ صانعُ

وحقيقتُه عند أربابه ترجع إلى صور الكواكب، فيدلُّ ما يخرج منها على ما تدل عليه تلك الكواكبُ من سعدٍ أو نحسٍ يحلُّ بهم، فصار ظنًّا مبنيًّا على ظنّ، وتعلقًا بأمرٍ غائب قد دَرَسَتْ طريقُه وفات تحقيقُه؛ وقد نهت الشريعةُ عنه، وأخبرت أن ذلك مما اختصَّ الله به، وقطَعه عن الخَلق، وإن كانت لهم قبل ذلك أسبابٌ يتعلَّقون بها في درك الأشياء المغيَّبة؛ فإن الله قد رفعَ تلك الأسبابَ، وطمسَ تيك الأبوابَ، وأفرد نفسَه بعلم الغيب؛ فلا يجوز مزاحمتُه في ذلك، ولا يَحلُّ لأحدٍ دعواه. وطلبُه عناءٌ لو لم يكن فيه نهيٌ، فإذ وقد ورد النهي؛ فطلبه معصية أو كفرٌ بحسب قصد الطالب.

قلت: ما اختاره هو قول الخطابي[٣]. قال الخطابي: قوله عليه الصلاة والسلام: «فمن وافَق خطَّه فذاك» هذا يَحتمل الزجر إذ كان ذلك عَلَماً لنبوَّته، وقد انقطعت، فنُهينا عن التعاطي لذلك. قال القاضي عياض[٤]: الأظهر من اللفظ خلافُ هذا، وتصويب خط من يوافق خطَّه؛ لكن من أين تُعلم الموافقة والشرعُ منعَ من التخرُّص وادعاءِ الغيب جملةً؟ فإنما معناه: أن من وافق خطه فذاك الذي يجدون إصابته؛ لا أنه يريد إباحةَ ذلك لفاعله على ما تأوَّله بعضُهم.

---

(١) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٤ - ١٦٨٥ .

(٢) لبيد بن ربيعة ، ديوانه ص ٩٠ .

(٣) ينظر معالم السنن ١/ ٢٢٢ .

(٤) في إكمال المعلم ٢/ ٤٦٤ ، ونقله أبو العباس في المفهم ٢/ ١٤١ - ١٤٢ ، والكلام وما قبله منهما .

وحكى مكيٌّ في تفسير قوله: «كان نبيٌّ من الأنبياء يخطُّ»: أنه كان يخطُّ بأصبعه السبابة والوسطى في الرمل ثم يَزْجُر. وقال ابن عباس في تفسير قوله: «ومنَّا رجالٌ يخطُّون»[١]: هو الخطُّ الذي يَخطُّه الحازي[٢] فيعطيه[٣] حُلواناً فيقول: اقعد حتى أخطَّ لك؛ وبين يدي الحازي غلامٌ معه مِيلٌ، ثم يأتي إلى أرضٍ رَخْوةٍ، فيخطُّ الأستاذُ خطوطاً معجلةً لئلَّا يلحقَها العددُ، ثم يرْجع فيمحو على مَهَلٍ خطَّين خطَّين، فإن بقي خطَّان فهو علامة النُّجح، وإن بقي خطٌّ فهو علامة الخيبة. والعرب تسميه: الأسحم، وهو مشؤوم عندهم.

الثالثة: قال ابن العربي[٤]: إن اللهَ تعالى لم يُبْقِ من الأسباب الدالة على الغيب التي أذن في التعلُّق بها والاستدلال منها إلا الرؤيا؛ فإنه أذِن فيها، وأخبر أنها جزء من النبوة[٥] وكذلك الفأل[٦]؛ وأما الطِّيَرة والزَّجر فإنه نَهى عنهما. والفَأْلُ: هو الاستدلال بما يَسْمَع من الكلام على ما يُريد من الأمر إذا كان حسناً؛ فإذا سمِع مكروهاً فهو تطيُّر، أمرَه الشرعُ بأن يفرح بالفأل ويمضيَ على أمره مسروراً. وإذا سمع المكروه أعرَض عنه ولم يرجع لأجْله، وقد قال النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ لا طَيْرَ إلا طيرك، ولا خيرَ إلى خيرُك، ولا إله غيرُك»[٧]. وقد روى بعضُ الأدباء:

الفَأْلُ والزَّجْرُ والكُهَّانُ كلُّهُمُ مضلَّلون ودون الغيبِ أقْفالُ[٨]

---

(١) هو قطعة من حديث معاوية بن الحكم السلمي السالف.

(٢) الحازي: هو الكاهن، ويقال له أيضاً: الحزَّاء، وهو الذي يحزر الأشياء ويُقدرها بظنه. النهاية (حزو).

(٣) في (م) و(د) و(ظ) فيعطى. والمثبت من (خ) و(ز) و(ق) والإكمال والمفهم. وهو في النهاية لابن الأثير (خطط) ذكره عن ابن عباس أيضاً.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٥.

(٥) سلف قوله ﷺ ١١/ ٢٤٧ عن الرؤيا «جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

(٦) سلف ٧/ ٢٩٠ - ٢٩١ حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «لا طِيرة، وخيرها الفأل» قيل: يا رسول الله، وما الفأل؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»، وهو في الصحيحين.

(٧) قطعة من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، وسلف ٩/ ٣٠٧.

(٨) ذكره المبرد في الكامل ١/ ٤١٩، والبغدادي في الخزانة ١٠/ ٣٢١ دون نسبة.

وهذا كلامٌ صحيح، إلا في الفأل فإن الشرع استثناه وأقرَّبه، فلا يُقبل من هذا الشاعر ما نظَمه فيه؛ فإنه تكلم بجهل، وصاحبُ الشرع أصدقُ وأعلم وأحكم.

قلت: قد مضى في الطِّيرَة والفأل وفي الفرق بينهما ما يكفي في «المائدة»[١] وغيرها. ومضى في «الأنعام»[٢] أنَّ الله سبحانه منفرِدٌ بعلم الغيب، وأن أحداً لا يعلم من ذلك إلا ما أعلمه اللهُ، أو يجعل على ذلك دلالةً عادية يعلم بها ما يكون على جري العادة، وقد يختلف، مثاله: إذا رأى نخلةً قد أطلَعَت، فإنه يعلم أنها ستثمر، وإذا رآها قد تناثر طَلْعُها عَلِم أنها لا تثمر. وقد يجوز أن يأتي عليها آفةٌ تُهلك ثمرَها فلا تثمر؛ كما أنه جائز أن تكون النخلة التي قد تناثر طَلْعُها يُطلع اللهُ فيها طلعاً ثانياً فتثمر. وكما أنه جائز ـ أيضاً ـ ألَّا يلي شهرَه شهرٌ ولا يومَه يوم إذا أراد اللهُ إفناءَ العالَم ذلك الوقت. إلى غير ذلك مما تقدَّم في «الأنعام» بيانُه.

الرابعة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ يريد الخطَّ. وقد كان مالك رحمه اللهُ يحكم بالخطّ إذا عرَف الشاهدُ خطَّه. وإذا عرف الحاكم خطَّه أو خطَّ من كتب إليه حكَم به، ثم رجع عن ذلك حين ظهر في الناس ما ظهر من الحِيل والتزوير. وقد روي عنه أنه قال: يُحدِث الناس فجوراً فتحدث لهم أقضية. فأمَّا إذا شهد الشهود على الخطِّ المحكوم به؛ مثل أن يشهدوا أن هذا خطُّ الحاكم وكتابُه، أَشهدنا على ما فيه وإن لم يعلَموا ما في الكتاب. وكذلك الوصية أو خطّ الرجل باعترافه بمالٍ لغيره يشهدون أنه خطه، ونحو ذلك، فلا يختلف مذهبه أنه يحكم به[٣].

وقيل: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْم»: أو بقية من علم؛ قاله ابن عباس والكلبي[٤] وأبو بكر

---

(١) ٧/ ٢٩٠.

(٢) ٨/ ٤٠٢ وما بعدها.

(٣) ينظر الكافي لابن عبد البرّ ٢/ ٩١٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

ابن عياش[١] وغيرهم. وفي الصحاح[٢] «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: بقية منه. وكذلك الأَثَرَة، بالتحريك. ويقال: سَمِنت الإبل على أثارة، أي: بقية شحم كان قبل ذلك. وأنشد الماورديُّ[٣] والثعلبي قولَ الراعي:

وذاتِ أثارة أكلت عليها نباتاً في أكمَّته قِفارا[٤]

وقال الهَرَوي: والأثارة والأثر: البقيَّة؛ يقال: ما ثَمَّ عين ولا أثر. وقال ميمون ابن مِهران وأبو سَلَمة بن عبد الرحمن وقتادة: «أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ»: خاصة من علم[٥]. وقال مجاهد: روايةٍ تأثرونها عمَّن كان قبلكم[٦]. وقال عكرمة ومقاتل: رواية عن الأنبياء[٧].وقال القُرَظِي: هو الإسناد[٨]. الحسن: المعنى شيء يثار أو يستخرج[٩]. وقال الزجاج[١٠]: «أَوْ أَثَارَةٍ» أي: علامة. والأثارة مصدر كالسماحة والشجاعة[١١]. وأصل الكلمة من الأَثَر، وهي الرواية؛ يقال: أثرت الحديث آثُرهُ أَثْرًا وأَثَارَةً وأُثْرة فأنا آثر؛ إذا ذكرتَه عن غيرك. ومنه قيل: حديث مأثور، أي: نقله خَلَف عن سَلَف. قال الأعشى:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ ، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٥ .

(٢) مادة: (أثر).

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١ .

(٤) ديوان الراعي النميري ص١٤٢ ، وجاء في النسخ الخطية: قصارا، بدل: قفارا، والمثبت من (م)، ونسب البيت أيضاً للشماخ، وهو في ديوانه ص٤٤٥ .

قوله: في أكمّته أي: في غُلفه ، جمع كِمام، وهو جمع كِمّ، والكِمّ: غطاء النَّور وغلافه . وقوله: قِفارا أي: خالياً من الناس . فَرَعَته الناقةُ وحدها . وقفار: وصف نبات. الخزانة ١٠/ ١٤١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ .

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٤ - ١١٥ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣ .

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢ .

(٩) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٥ ، والطبري ٢١/ ١١٤ .

(١٠) في معاني القرآن له ٤/ ٤٣٨ .

(١١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٠ .

إن الـــذي فـــيـــه تَـــمَـــارَيْـــتُـــمَـــا بُـــيِّـــن لـــلـــســـامـــع والآثـــر

ويروى: «بَيَّنَ»[١] وقرئ: «أَوْ أُثْرَة» بضم الهمزة وسكون الثاء. ويجوز أن يكون معناه: بقية من علم. ويجوز أن يكون معناه: شيئاً مأثوراً من كتب الأوَّلين[٢]. والمأثور: ما يُتحدَّث به مما صحَّ سنده عمن تُحدِّث به عنه.

وقرأ السُّلَمِيُّ والحسن وأبو رجاء بفتح الهمزة والثاء من غير ألف[٣]، أي: خاصة من علم أُوتيتموها، أو أوثرتم بها على غيركم. وروي عن الحسن أيضاً وطائفة: «أَثْرةٍ» مفتوحة الألف ساكنة الثاء؛ ذكر الأولى الثعلبيُّ والثانيةَ الماورديُّ[٤]. وحكى الثعلبي عن عكرمة: أو ميراث من علم[٥]. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فيه بيان مسالك الأدلة بأسرها، فأوّلها المعقول، وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وهو احتجاجٌ بدليل العقل في أن الجمادَ لا يصحُّ أن يُدعى من دون الله؛ فإنه لا يَضرُّ ولا ينفع. ثم قال: ﴿ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾ فيه بيان أدلة السمع ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي: لا أحدَ أضلُّ وأجهل ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن

---

(١) الصحاح (أثر)، والبيت في ديوان الأعشى ص ١٩١، وغريب الحديث ٢/ ٥٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والخزانة ٣/ ٤٠٠، ورواية الديوان والخزانة: والناظر، بدل: والآثر.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٠.

(٣) القراءات الشاذة ص ١٣٩، والمحتسب ٢/ ٢٦٤.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٧١، وذكرها أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٦٩.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٩٢.

(٦) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧١.

﴿لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وهي الأوثان. ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾ يعني لا يسمعون ولا يفهمون؛ فأخرجها ـ وهي جمادٌ ـ مخرجَ ذكورِ بني آدم؛ إذ قد مَثَّلَتها عبدتُها بالملوك والأمراء التي تُخدم[١].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾ يريد يوم القيامة. ﴿كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: هؤلاء المعبودون أعداء الكفارِ يومَ القيامة. فالملائكة أعداء الكفار، والجنُّ والشياطين يتبرؤون غداً من عبدتهم، ويلْعَن بعضُهم بعضاً. ويجوز أن تكون الأصنامُ للكفار الذين عبدوها أعداءً؛ على تقدير خلق الحياة لها؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾[٢] [القصص: ٦٣]. وقيل: عادوا معبوداتهم لأنهم كانوا سبب هلاكهم، وجحد المعبودون عبادتهم؛ وهو قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ الميم صلةٌ، التقدير: أيقولون افتراه، أي: تقوَّله محمدٌ. وهو إضرابٌ عن ذكر تسميتهم الآيات سحراً. ومعنى الهمزة في «أم» الإنكارُ والتعجبُ، كأنه قال: دعْ هذا واسمع قولَهم المستنكر المقضي[٣] منه العجبُ، وذلك

---

(١) تفسير الطبري ٢١/١١٧.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/٢٣٠، والوسيط ٤/١٠٣.

(٣) في (د)، والكشاف ٣/٥١٦: «المفضي».

أن محمداً كان لا يقدرُ عليه حتى يقولَه ويفترِيَه على الله، ولو قدر عليه دون أُمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزةً لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقاً من اللهِ له، والحكيم لا يصدِّق الكاذب فلا يكون مفترياً، والضمير للحق، والمراد به الآيات. ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ﴾ على سبيل الفَرْض. ﴿فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لا تقدرون على أن تردُّوا عني عذابَ الله؛ فكيف أفتري على الله لأجلكم؟![1]. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: تقولونه؛ عن مجاهد[2]. وقيل: تخوضون فيه من التكذيب[3]. والإفاضة في الشيء: الخوض فيه والاندفاع. أفاضوا في الحديث، أي: اندفعوا فيه. وأفاض البعير، أي: دفع جِرَّته من كَرِشِه فأخرجها؛ ومنه قول الشاعر:

وأفَضْنَ بعد كُظومِهِنَّ بِجِرَّةٍ[4]

وأفاض الناس من عرفاتٍ إلى مِنًى، أي: دفعوا، وكلُّ دَفْعة إفاضةٌ[5].

﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾ نصب على التمييز. ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هو يعلَمُ صدقي وأنكم مبطِلُون. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أي: أوّل من أُرسل، قد كان قبلي رسل؛ عن ابن عباس وغيره[6]. والبِدْعُ: الأوّل.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٠٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ١١٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٦٣.

(٤) صدر بيت للراعي النميري، وهو في ديوانه ص ٢٢٤، وسلف ٥/ ٣١٨، وعجزه: من ذي الأبارق إذ رَعَيْن حقيلا وقوله: كظومهن بجرة. قال الفيروز: كظم البعير كظوماً: أمسَكَ عن الجرة. والجِرَّة: وما يفيض به البعير فيأكله ثانيةً، واللقمة يتعلل بها البعير إلى وقت عَلَفِه. القاموس (كظم وجرر).

(٥) الصحاح (فيض)، وبنحوه في تهذيب اللغة ١٢/ ٧٧ - ٧٨.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١١٩ - ١٢٠، وابن أبي حاتم كما في تغليق التعليق ٤/ ٣١١.

وقرأ عكرمة وغيره: «بِدَعًا» بفتح الدال، على تقدير حذفِ المضاف؛ والمعنى: ما كنتُ صاحبَ بِدَعٍ[١].

وقيل: بِدْع وبديع بمعنًى؛ مثلُ: نصف ونصيف. وأبدع الشاعر: جاء بالبديع. وشيء بِدْع ـ بالكسر ـ أي: مبتدَع. وفلان بِدْعٌ في هذا الأمر، أي: بديع. وقوم أبداع؛ عن الأخفش[٢]. وأنشد قُطْرُب قولَ عديٍّ بن زيد:

فلا أنا بِدْعٌ من حوادثَ تعتري رجالاً غدت من بعد بؤسي بأسعدِ[٣]

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ يريد يوم القيامة ـ ولـمَّا نزلَت فَرِحَ المشركون واليهود والمنافقون، وقالوا: كيف نتبع نبيًّا لا يدري ما يُفعل به ولا بنا، وأنه لا فضل له علينا، ولولا أنه ابتدع الذي يقوله من تلقاء نفسه لأخبره الذي بعثه بما يفعلُ به؛ فنزلَت: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فنسخت هذه الآية، وأرغم اللهُ أنْفَ الكفارِ. وقالت الصحابة: هنيئًا لك يا رسولَ الله، لقد بيَّن اللهُ لك ما يَفعلُ بك يا رسولَ الله، فليت شِعرنا ما هو فاعلٌ بنا؟ فنزلت: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح: ٥] الآية. ونزلت: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[٤] [الأحزاب: ٤٧] ـ قاله أنسٌ وابن عباس وقتادة والحسن وعكرمة والضحاك[٥].

---

(١) المحتسب ٢/ ٢٦٤، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن أبي حيوة.

(٢) ينظر معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣ ولم نقف على كلامه بتمامه ثمة، وهو بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١١٩ والبغوي ٤/ ١٦٤ دون نسبة.

(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١١٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٢، والحماسة البصرية ٢/ ٤٩، وجمهرة أشعار العرب ١/ ٥٠٠، وفي بعضها: عرت، بدل: غدت، و«أسعدُ»، بدل: بأسعد، وهو بهذا اللفظ في النكت والعيون ٥/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢١ عن عكرمة والحسن البصري بنحوه، وسيذكره المصنف عن عطاء عن ابن عباس أول سورة الفتح، وسيرد في الفتح أيضاً خبر قول الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله... الخ، وهو من حديث أنس ﷺ، وهو في الصحيح، وليس فيه ذكر لآية الأحقاف.

(٥) يعني قولهم في تفسير الآية أعلاه: يريد يوم القيامة، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٣.

وقالت أمُّ العلاء ـ امرأة من الأنصار ـ: اقتسمنا المهاجرين، فطار لنا عثمان بن مَظْعُون بن حُذافة بن جُمَح، فأنزلناه أبياتنا، فَتُوفِّيَ، فقلت: رحمةُ الله عليك أبا السائب! إن الله أَكْرَمك. فقال النبيُّ ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه»؟ فقلت: بأبي وأمي يا رسولَ الله! فمن؟! قال: «أمَّا هو فقد جاءه اليقينُ، وما رأينا إلا خيراً، فواللهِ إني لَأَرجو له الجَنَّة، وواللهِ إني لَرسولُ اللهِ، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم». قالت: فواللهِ لا أزكّي بعدَه أحداً أبداً[1]. ذكره الثعلبيُّ، وقال: وإنما قال هذا حين لم يعلَم بغفران ذَنْبِه، وإنَّما غفَر اللهُ له ذنبَه في غَزْوَةِ الحُدَيْبِيَة قبل موته بأربع سنين.

قلت: حديثُ أمِّ العلاء خَرَّجه البخاريُّ، وروايتي فيه: «وما أدري ما يُفعل به» ليس فيه: «بي ولا بكم»، وهو الصحيح إن شاء اللهُ[2]، على ما يأتي بيانه. والآية ليست بمنسوخة؛ لأنها خبر.

قال النحاس[3]: محالٌ أن يكون في هذا ناسخ ولا منسوخ من جهتين: أحدهما أنه خبر، والآخر أنه من أوَّل السورة إلى هذا الموضع خطابٌ للمشركين واحتجاجٌ عليهم وتوبيخ لهم؛ فوجب أن يكون هذا ـ أيضاً ـ خطاباً للمشركين كما كان قبلَه وما بعده، ومحال أن يقولَ النبيُّ ﷺ للمشركين: ما أدري ما يُفعل بي ولا بكم في

(١) أخرجه بنحوه الإمام أحمد (٢٧٤٥٧)، والبخاري (١٢٤٣) عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أمّ العلاء. وأم العلاء الأنصارية، من المبايعات، حديثها عند أهل المدينة، وقيل: هي بنت الحارث بن ثابت. الإصابة ١٣/ ٣٥٥.

(٢) رواية: «وما أدري ما يفعل به» أخرجها البخاري - كما قال المصنف رحمه الله - (٢٦٨٧)، ورواية: «ما يفعل بي ولا بكم» أخرجها البخاري - أيضاً ـ (٧٠١٨) وهي عند الإمام أحمد (٢٧٤٥٨).

وأما قول المصنف - فيما يتعلق برواية: «ما يفعل به» -: وهو الصحيح؛ فقد قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٣/ ١١٥ - ١١٦: في رواية الكشميهني «به» وهو غلط منه... وإنما قال رسول الله ﷺ ذلك - أي: «ما يفعل بي ولا بكم» - موافقة لقوله تعالى في سورة الأحقاف. ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ وكان ذلك قبل نزول قوله تعالى: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾...

(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٨ - ٦٢٩.

الآخرة، ولم يَزَل ﷺ من أوَّل مبعثه إلى مماته يخبر أنَّ مَن مات على الكفر مخلَّد في النار، ومن مات على الإيمان واتبعه وأطاعه فهو في الجنة، فقد رأى ﷺ ما يفعل به وبهم في الآخرة. وليس يَجوز أن يقول لهم: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الآخرة؛ فيقولون: كيف نتبعك وأنت لا تدري أتصير إلى خفضٍ ودَعة، أم إلى عذابٍ وعقاب؟!.

والصحيح في الآية قولُ الحسن، كما قرئ على محمد[١] بن جعفر بن حفص، عن يوسف بن موسى، قال حدَّثنا وكيع قال: حدَّثنا أبو بكر الهذلي، عن الحسن: «وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ فِي الدُّنْيَا»[٢] قال أبو جعفر[٣]: وهذا أصحُّ قولٍ وأحسنه، لا يدري ﷺ ما يَلحقه وإياهم من مرضٍ وصحَّة، ورُخصٍ وغلاء، وغنًى وفقر. ومثله: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ [الأعراف:١٨٨]. وذكر الواحديُّ وغيره، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس: لمَّا اشتد البلاءُ بأصحاب رسولِ الله ﷺ رأى في المنام أنه يهاجر إلى أرضٍ ذات نخلٍ وشجر وماء، فقصَّها على أصحابه، فاستبشروا بذلك، ورأوا فيها فَرَجاً ممَّا هم فيه من أذى المشركين، ثم إنهم مَكَثوا بُرْهةً لا يرون ذلك، فقالوا: يا رسول الله، متى نُهاجر إلى الأرض التي رأيتَ؟ فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزَل اللهُ تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ أي: لا أدري أأخرجُ إلى الموضع الذي رأيته في منامي أم لا. ثم قال: «إنما هو شيء رأيتُه في منامي ما أتبع إلا ما يُوحَى إليَّ»[٤] أي: لم يوح إليَّ ما أخبرتكم به. قال القُشَيريُّ: فعلى هذا لا نسخَ في الآية. وقيل: المعنى: لا أدري ما

(١) في النسخ: كما قرأ علي بن محمد، والمثبت من الناسخ والمنسوخ للنحاس.
(٢) وأخرجه أيضاً الطبري ٢١/ ١٢٢ - ١٢٣ مطولاً، وسيأتي قريباً.
(٣) في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٩.
(٤) أسباب النزول للواحدي ص ٤٠١ . وإسناده ضعيف، وذكره عن ابن عباس - أيضاً - البغوي في تفسيره ٤/ ١٦٤ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٢ ، والرازي ٢٨/ ٨ ، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ عنه مختصراً ، وأبو الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٠ عن الكلبي .

يُفْرَض عليَّ وعليكم من الفرائض.

واختار الطبريُّ[١] أن يكون المعنى: ما أدري ما يَصيرُ إليه أمري وأمرُكم في الدنيا، أتؤمنون أم تكفرون، أم تُعاجَلون بالعذاب أم تؤخَّرون.

قلت: وهو معنى قولِ الحسن والسُّدِّيِّ وغيرِهما. قال الحسن: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا، أما في الآخرة فَمَعاذَ الله! قد عُلم أنه في الجنة حين أخذ ميثاقه في الرسل، ولكن قال: ما أدري ما يفعل بي في الدنيا أَأُخرج كما أُخرجت الأنبياء قبلي، أو أُقتل كما قُتلت الأنبياء قبلي؛ ولا أدري ما يفعل بكم، أَأُمَّتي المصدِّقة أم المكذِّبة، أم أمتي المرمية بالحجارة من السماء قَذْفاً، أو مخسوفٌ بها خسفاً؛ ثم نزلت: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح:٢٨]. يقول: سيُظهر دينَه على الأديان. ثم قال في أمته: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]. فأخبرَه تعالى بما يصنع به وبأمته[٢].

ولا نسخَ على هذا كلِّه، والحمدُ لله. وقال الضحاك أيضاً: «ما أدري ما يفعل بي ولا بكم» أي: ما تؤمرون به وتنهون عنه[٣]. وقيل: أمرَ النبيُّ ﷺ أن يقول للمؤمنين: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في القيامة، ثم بيَّن اللهُ تعالى ذلك في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:٢] وبيَّن فيما بعد ذلك حالَ المؤمنين، ثم بيَّن حالَ الكافرين[٤].

قلت: وهذا معنى القول الأوّل، إلا أنه أطلَق فيه النسخَ بمعنى البيان، وأنه أمَرَ أن يقول ذلك للمؤمنين، والصحيحُ ما ذكرناه عن الحسن وغيرِه.

---

(١) في تفسيره ٢١/ ١٢٣، والقول الذي قبله منه.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٢، وفي إسناده أبو بكر الهذلي؛ قال الحافظ ابن حجر في تقريب التهذيب: أخباري متروك الحديث.

(٣) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، والرازي في تفسيره ٢٨/ ٨، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٤ دون نسبة.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٢٠.

و«ما» في ﴿مَا يُفْعَلُ﴾: يَجوز أن تكون موصولةً، وأن تكون استفهامية مرفوعة.

﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وقرئ: «يُوحِي» أي: اللهُ عزَّ وجلَّ[١]. تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني القرآن. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقال الشعبيُّ: المرادُ محمدٌ ﷺ[٢]. ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قال ابن عباس والحسن وعكرمة وقتادة ومجاهد: هو عبدُ الله بن سَلَام، شهِدَ على اليهود أن رسولَ الله ﷺ مذكورٌ في التوراة، وأنه نبيٌّ من عند الله[٣].

وفي الترمذي[٤] عنه: ونَزَلت فيَّ آياتٌ من كتاب الله، نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد تقدَّم في آخر سورة الرعد[٥].

وقال مسروق: هو موسى والتوراة، لا ابنُ سَلَام؛ لأنه أسلَم بالمدينة، والسورةُ مكيةٌ. وقال: وقوله: ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ مخاطبة لقريش.

الشعبيُّ: هو مَن آمن مِن بني إسرائيل بموسى والتوراة؛ لأن ابن سَلَام إنما أسلَم قبل وفاة النبيِّ ﷺ بعامين، والسورةُ مكية[٦].

---

(١) الكشاف ٣/ ٥١٨، وذكر القراءة أيضاً أبو حيان في البحر ٨/ ٧٥، وهي قراءة شاذة.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٣) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٢٨-١٣٠، وتفسير عبد الرزاق ٢/ ٢١٥، والنكت والعيون ٥/ ٢٧٣.

(٤) برقم (٣٢٥٦).

(٥) ١٢/ ٩٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٣، وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٢٥ - ١٢٦.

قال القُشَيْرِيُّ: ومن قال: الشاهدُ موسى، قال: السورة مكية، وأسلَم ابنُ سَلَام قبلَ موتِ النبيِّ ﷺ بعامين[١]. ويجوز أن تكون الآيةُ نَزَلت بالمدينة وتوضع في سورةٍ مكية؛ فإن الآية كانت تنزل فيقول النبيُّ ﷺ ضعوها في سورة كذا[٢].

والآيةُ في مُحاجَّة المشركين، ووجهُ الحجَّة أنهم كانوا يراجعون اليهودَ في أشياء، أي: شهادتهم لهم وشهادة نبيِّهم لي من أوضح الحجج. ولا يبعد أن تكون السورةُ في مُحاجَّة اليهود، ولمَّا جاء ابن سَلَام مُسْلِمًا من قبل أن تعلم اليهود بإسلامه قال: يا رسولَ الله، اجعلني حَكَماً بينك وبين اليهود، فسألهم عنه: «أيُّ رجلٍ هو فيكم؟» قالوا: سَيِّدُنا وعالِمُنا. فقال: «إنه قد آمن بي» فأساؤوا القولَ فيه... الحديث، وقد تقدَّم[٣]. قال ابن عباس: رضيَت اليهودُ بحكم ابن سلام، وقالت للنبيِّ ﷺ: إن يشهد لك آمنَّا بك؛ فسئل فشهِد ثم أسلَم[٤]. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ أي: على مثل ما جئتكم به، فشهِد موسى على التوراة، ومحمدٌ على القرآن. وقال الجُرْجَانيُّ. «مِثْل» صلة، أي: وشهد شاهدٌ عليه أنه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي: هذا الشاهد. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أنتم عن الإيمان. وجوابُ «إِنْ كَانَ» محذوفٌ تقديره: فآمن، أتؤمنون؟ قاله الزجاج[٥].

وقيل: «فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ» أليس قد ظلمتم؟ يبيِّنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقيل: «فَآمَنَ واسْتَكْبَرْتُمْ» أفتأْمنون عذابَ الله؟[٦]. و«أَرَأَيْتُمْ» لفظٌ موضوع للسؤال والاستفهام؛ ولذلك لا يقتضي مفعولاً. وحكى النقاشُ وغيره: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، وتقديره: قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهِد شاهدٌ من بني إسرائيل فآمن هو وكفرتم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين[٧].

---

(١) سلف قول القشيري هذا ١٢/ ٩٩ .

(٢) ذكر هذا القول الرازيُّ في تفسيره ٢٨/ ١٠ عن الكلبي .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٢٠٥٧) ، والبخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس رضي الله عنه بنحوه .

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ١٢٧ - ١٢٨ بنحوه .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠ ، وذكر هذا الكلام البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٦٥ .

(٦) الوسيط ٤/ ١٠٤ - ١٠٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٧٤ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ اختلف في سبب نزولها على ستة أقوال:

الأوّل: أنَّ أبا ذَرٍّ الغفاريَّ دعاه النبيُّ ﷺ إلى الإسلام بمكة فأجاب، واستجار به قومُه، فأتاه زعيمُهم فأسلَم، ثم دعاهم الزعيمُ فأسلَموا، فبلغَ ذلك قريشاً، فقالوا: غفارٌ الحلفاء لو كان هذا خيراً ما سَبقونا إليه؛ فنزلَت هذه الآيةُ، قاله أبو المتوكل[1].

الثاني: أن زِنِّيرة أسلَمت فأصيب بصرُها، فقالوا لها: أصابك اللاتُ والعزَّى؛ فردَّ اللهُ عليها بصرَها. فقال عظماء قريش: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقَتْنا إليه زِنِّيرة؛ فأنزَل اللهُ تعالى هذه الآية؛ قاله عروة بنُ الزبير[2].

الثالث: أن الذين كفَروا هم بنو عامر، وغَطَفان، وتميم، وأسَد، وحَنْظَلة، وأشْجَع، قالوا لمن أسلَم مِن غِفار وأسلَم وجُهينة ومُزينة وخزاعة: لو كان ما جاء به محمدٌ خيراً ما سبقتنا إليه رُعَاةُ البَهْم؛ إذ نحن أعزُّ منهم؛ قاله الكلبيُّ والزَّجَّاج[3]، وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس.

وقال قتادة: نزَلت في مشركي قريش، قالوا: لو كان ما يدعونا إليه مُحمدٌ خيراً ما

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وزاد المسير ٧/ ٣٧٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، وأخرج نحوه الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ عن أبي الزناد، عن أبيه، وذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ عن أبي الزناد، دون ذكر زِنِّيرة.

وزِنيرة هي مولاة أبي بكر الصديق ﷺ وهي أحد السبعة الذين كانوا يعذَّبون في الله، فاشتراهم أبو بكر، وأعتقهم. ينظر الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ١٤ - ١٥.

(٣) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٠، وذكره أيضاً الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٦٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٥ دون ذكر تميم وحنظلة وخزاعة.

سبقنا إليه بِلال وصُهيب وعَمَّار وفلانٌ وفلان[١]. وهو القول الرابع.

القول الخامس: أن الذين كفروا من اليهود قالوا للذين آمنوا ـ يعني عبد الله بن سلام وأصحابه ـ: لو كان دين محمد حقًّا ما سبقونا إليه؛ قاله أكثر المفسرين، حكاه الثعلبيُّ[٢].

وقال مسروقٌ: إن الكفار قالوا: لو كان خيراً ما سبقتنا إليه اليهود؛ فنزلت هذه الآية.

وهذه المعارضةُ من الكفار في قولهم: لو كان خيراً ما سبقونا إليه من أكبرِ المعارضات بانقلابها عليهم لكلِّ من خالَفهم؛ حتى يقال لهم: لو كان ما أنتم عليه خيراً ما عدلنا عنه، ولو كان تكذيبكم للرسول خيراً ما سبقتمونا إليه؛ ذكره الماورديُّ[٣].

ثم قيل: قوله: ﴿مَا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾ يجوز أن يكون من قول الكفار لبعض المؤمنين، ويجوز أن يكون على الخروج من الخطاب إلى الغيبة؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم﴾[٤] [يونس: ٢٢]. ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ﴾ يعني الإيمان. وقيل: القرآن. وقيل: محمد ﷺ. ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ أي: لمَّا لم يصيبوا الهدى بالقرآن ولا بمن جاء به؛ عادَوْه ونسبُوه إلى الكذب، وقالوا: هذا إفك قديمٌ؛ كما قالوا: أساطير الأوَّلين[٥]. وقيل لبعضهم: هل في القرآن: مَن جَهِل شيئاً عاداه؟ فقال: نعم، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾ ومثله:

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ ، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٦ ، والطبري ٢١/ ١٣٢ - ١٣٣ ، وينظر ما سلف ١٥/ ٣٩١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٩٥ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وقول مسروق هو القول السادس .

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ١١ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٦٦ بنحوه .

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩].

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ أي: ومن قبل القرآن ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ أي: التوراة ﴿إِمَامًا﴾ يقتدى بما فيه ﴿وَرَحْمَةً﴾ من اللهِ. وفي الكلام حذفٌ؛ أي: فلم يهتدوا به. وذلك أنه كان في التوراة نعتُ النبيِّ ﷺ والإيمانُ به، فتركوا ذلك. و«إِمَامًا» نصب على الحال؛ لأن المعنى: وتقدَّمه كتابُ موسى إماماً. «وَرَحْمَةً» معطوف عليه. وقيل: انتصب بإضمار فعلٍ، أي: أنزلناه إماماً ورحمة(١). وقال الأخفش(٢): على القطع؛ لأن كتاب موسى معرفةٌ بالإضافة؛ لأن النكرة إذا أعيدت أو أُضيفت أو أدخل عليها ألف ولام صارت معرفةً. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ﴾ يعني القرآن ﴿مُّصَدِّقٌ﴾ يعني للتوراةِ ولِمَا قبلَه من الكتب. وقيل: مصدِّق للنبيِّ ﷺ. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال؛ أي: مصدِّق لِمَا قبلَه عربيًّا، و﴿لِّسَانًا﴾ توطئة للحال، أي: تأكيد؛ كقولهم: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، فتذكر رجلاً توكيداً(٣). وقيل: نصب بإضمار فعل تقديره: وهذا كتابٌ مصدِّق؛ أعني لساناً عربيًّا. وقيل: نصب بإسقاط حرفِ الخفض تقديره: بلسانٍ عربيٍّ. وقيل: إن لساناً مفعول، والمراد به النبيُّ ﷺ، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ للنبيِّ ﷺ لأنه معجزته؛ والتقدير: مصدِّق ذا لسان عربيٍّ. فاللسان منصوب بمصدِّق، وهو النبيُّ ﷺ. ويبعد أن يكون اللسان القرآنَ؛ لأن المعنى يكون يصدِّق نفسَه(٤). ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ قراءة العامة: «لِيُنْذِرَ» بالياء خبرٌ عن الكتاب، أي: لينذر الذين ظلموا أنفسَهم بالكفر والمعصية.

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٠ - ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) ينظر كلامه في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٣.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤١، والوسيط ٤/ ١٠٦.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٤، وبنحوه في معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٣.

وقيل: هو خبرٌ عن الرسول ﷺ. وقرأ نافعٌ وابن عامر والبَزِّيُّ: بالتاء[١]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ على خطاب النبيِّ ﷺ، قال اللهُ تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ﴾ [الرعد:٧]. ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ «بُشْرَى» في موضع رفع[٢]، أي: وهو بشرى. وقيل: عطفاً على الكتاب، أي: وهذا كتاب مصدِّقٌ وبشرى. ويجوز أن يكون منصوباً بإسقاط حرف الخفض، أي: لينذر الذين ظلَموا، وللبشرى؛ فلمَّا حذف الخافض نصب. وقيل: على المصدر، أي: وتبشر المحسنين بشرى، فلمَّا جعل مكان وتبشر بشرى أو بشارة؛ نصب؛ كما تقول: أتيتك لأَزورَك، وكرامةً لك وقضاءً لحقك؛ يعني لأزورك وأكرمك وأقضي حقَّك؛ فنصب الكرامة بفعلٍ مضمر[٣].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ الآية تقدَّم معناها[٤]. وقال ابن عباس: نزلت في أبي بكر الصدِّيق[٥]. والآية تعمُّ. ﴿جَزَآءَۢ﴾ نصب على المصدر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٥﴾

فيه سبع مسائل:

---

(١) السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩.
(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٢، وينظر الكشف عن وجوه القراءات السبع ٢/ ٢٧١.
(٣) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٥، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥١ - ٥٢.
(٤) عند تفسير الآية (٣٠) من سورة فصلت.
(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٠ لابن عساكر.
(٦) إملاء ما من به الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات الإلهية.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ بيَّن اختلافَ حالِ الإنسان مع أبويه، فقد يُطيعهما وقد يُخالفهما، أي: فلا يَبعُد مثلُ هذا في حقِّ النبيِّ ﷺ وقومِه حتى يَستجيب له البعضُ ويَكفُر البعض. فهذا وجهُ اتصال الكلام بعضه ببعض؛ قاله القشيريُّ[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حُسْنًا﴾ قراءة العامة: «حُسْنًا» وكذا هو في مصاحف أهل الحرمين والبصرة والشامِ. وقرأ ابن عباس والكوفيون: «إِحْسَاناً» وحُجتهم قوله تعالى في سورة الأنعام [الآية: ١٥١] وبني إسرائيل [الآية: ٢٣]: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وكذا هو في مصاحف الكوفة.

وحجةُ القراءة الأولى قولُه تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾[٢] [الآية: ٨]، ولم يختلفوا فيها. والحُسْن خلاف القُبْح. والإحسان خلاف الإساءة[٣]. والتوصية: الأمر. وقد مضى القول في هذا وفيمن نزلت[٤].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: بكرهٍ ومشقَّة[٥]. وقراءة العامة بفتح الكاف. واختاره أبو عبيد، قال: وكذلك لفظ الكره في كلِّ القرآن ـ بالفتح ـ إلا التي في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [الآية: ٢١٦] لأن ذلك اسمٌ، وهذه كلُّها مصادر. وقرأ الكوفيون: «كُرْهًا» بالضم[٦]. قيل: هما لغتان مثل الضُّعْف والضَّعْف، والشُّهْد والشَّهْد[٧]؛ قاله الكسائيُّ، وكذلك

---

(١) بعدها في (ظ) زيادة: وقتادة.

(٢) قرأ: «إحساناً» عاصم وحمزة والكسائي، وقرأ الباقون من السبعة: «حسناً» السبعة ص٥٩٦، والتيسير ص١٩٩، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٢، والطبري ٢١/ ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

(٤) ١٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩.

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٣٧.

(٦) قرأ بالضم عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر في رواية ابن ذكوان، والباقون من السبعة؛ بالفتح. السبعة ص ٥٩٦، والتيسير ص ١٩٩.

(٧) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ١٤.

هو عند جميع البصريين. وقال الكسائيُّ أيضاً والفرَّاء في الفرْق بينهما: إن الكُره ـ بالضم ـ ما حمل الإنسان على نفسه، وبالفتح ما حمل على غيره[١]؛ أي: قهْراً وغَضَباً؛ ولهذا قال بعض أهل العربية: إن كَرهاً ـ بفتح الكاف ـ لَحنٌ[٢].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ قال ابن عباس: إذا حَمَلَت تسعة أشهر أرضعت إحدى وعشرين شهرًا، وإن حملَت ستة أشهر أرضعت أربعة وعشرين شهراً[٣].

وروي أن عثمان قد أتي بامرأةٍ قد ولدت لستة أشهر، فأراد أن يقضي عليها بالحدِّ؛ فقال له عليٌّ ﷺ: ليس ذلك عليها، قال الله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣] فالرضاع أربعة وعشرون شهراً، والحمل ستة أشهر، فرجع عثمان عن قوله ولم يحدَّها[٤]، وقد مضى في «البقرة»[٥].

وقيل: لم يعدَّ ثلاثة أشهر في ابتداء الحمل؛ لأن الولد فيها نطفةٌ وعلقة ومضغة، فلا يكون له ثِقَل يُحسُّ به، وهو معنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾[٦] [الأعراف: ١٨٩]. والفِصالُ: الفِطام. وقد تقدَّم في «لقمان» الكلامُ فيه[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٦ .

(٢) وقال صاحب هذا القول: لو حملته كَرهاً لَرَمَتْ به عن نفسها، لأن الكَره القهرُ والغضبُ. وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧. ورده أبو جعفر النحاس بأن الكَره والكُره لغتان بمعنى واحد.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٦، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧، وسلف ٤/ ١١٠ - ١١١ .

(٤) سلفت ص٩٠ من هذا الجزء.

(٥) الذي مضى الكلام عن أحكام الرضاع ٤/ ١٠٦ وما بعد .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ١٤ .

(٧) ١٦/ ٤٧٤ .

وقرَأ الحسنُ ويعقوب وغيرهما: «وفَصْله» بفتح الفاء وسكون الصاد[١].

وروي أن الآية نَزَلت في أبي بكر الصدِّيق، وكان حملُه وفصاله في ثلاثين شهراً[٢]، حملته أمه تسعةَ أشهر، وأرضعته إحدى وعشرين شهراً.

وفي الكلام إضمارٌ، أي: ومدَّة حملِه ومدَّة فصاله ثلاثون شهراً، ولولا هذا الإضمارُ لنصب ثلاثون على الظرف وتغيَّر المعنى[٣].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قال ابن عباس: ثماني عشرة سنة[٤]. وقال في رواية عطاء عنه: إن أبا بكر صحب النبيَّ ﷺ وهو ابن ثماني عشرة سنة، والنبيّ ﷺ ابن عشرين سنة، وهم يريدون الشامَ للتجارة، فنَزلوا منزِلاً فيه سدرة، فقعد النبيُّ ﷺ في ظلِّها، ومضى أبو بكر إلى راهبٍ هناك، فسأله عن الدِّين. فقال الراهب: مَن الرجل الذي في ظلِّ الشجرة؟ فقال: ذاك محمدُ بن عبد الله بن عبد المطلب. فقال: هذا واللهِ نبيٌّ، وما استظلَّ أحدٌ تحتَها بعد عيسى. فوقَع في قلب أبي بكر اليقينُ والتصديق؛ وكان لا يَكاد يُفارِق رسولَ الله ﷺ في أسفاره وحضَرِه. فلما نُبِّئَ رسولُ الله ﷺ وهو ابن أربعين سنة، صدَّق أبو بكر رضي الله عنه رسولَ الله ﷺ وهو ابن ثمانية وثلاثين سنة. فلمَّا بلَغ أربعين سنة قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾[٥] الآية. وقال الشعبيُّ وابن زيد: الأشُدُّ: الحُلُم[٦]. وقال الحسن: هو

---

(١) ذكر قراءة الحسن النحاسُ في إعراب القرآن ٤/ ١٦٤، وابنُ عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٧، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢٧٩ وهي من العشرة.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٧ بنحوه، وأخرجه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٣ عن الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، دون قوله: «وكان حمله وفصاله في ثلاثين شهراً..».

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٦، وينظر إملاء ما به بن الرحمن ٤/ ٣٢٠ على هامش الفتوحات.

(٤) لم نقف عليه، وأخرج الطبري ١٣/ ٦٧ - ٦٨ عنه أنه بضع وثلاثون، ثم قال: وروي عن ابن عباس من وجه غير مرضيٍّ أنه قال: ما بين ثماني عشرة سنةً إلى ثلاثين.

(٥) أسباب النزول للواحدي ص٤٠١-٤٠٢، وزاد المسير ٧/ ٣٧٧ - ٣٧٨، وأشار الحافظ ابن حجر في الإصابة ١/ ٢٩٤ (ترجمة بحيرا) إلى ضعفه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره عنهما ٩/ ٦٦٤، وابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٨) عن الشعبي، وسلف ٩/ ١١٢ من قول ابن زيد.

بلوغ الأربعين[١]. وعنه: قيام الحجة عليه. وقد مضى في «الأنعام»[٢] الكلامُ في الآية. وقال السّدِّي والضحاك: نزلَت في سعد بن أبي وقاص. وقد تقدم[٣]. وقال الحسن: هي مرسَلة نزلَت على العموم[٤]. واللهُ أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ﴾ أي: ألهمني. ﴿أَنۡ أَشۡكُرَ﴾ في موضع نصب على المصدر، أي: شُكْرَ نعمتِك ﴿عَلَيَّ﴾ أي: ما أنعمتَ به عليَّ من الهداية ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ بالتحنُّن والشفقة حتى ربَّياني صغيراً. وقيل: أنعمتَ عليَّ بالصحَّة والعافية، وعلى والديَّ بالغنى والثَّروة[٥].

وقال عليٌّ ﷺ: هذه الآية نزلت في أبي بكر الصدِّيق ﷺ؛ أسلَم أبواه جميعاً، ولم يَجتمع لأحدٍ من المهاجرين [أن][٦] أسلم أبواه غيرُه، فأوصاه اللهُ بهما، ولزِم ذلك مَن بعده[٧]. ووالدُه: هو أبو قُحافة عثمانُ بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعدِ بن تَيْم[٨]. وأمُّه: أمُّ الخير، واسمها سَلْمَى بنت صخر بن عامر[٩] بن كعب بن سعد[١٠].وأم أبيه أبي قحافة: قَيْلة، بالياء المعجمة باثنتين من تحتها[١١]، وامرأة أبي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم ٥/ ١٤١٩ (٨٠٨٧).

(٢) ٩/ ١١١ وما بعد.

(٣) ١٦/ ٤٧٣.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣٧٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٧٧.

(٦) لفظة أن من (م).

(٧) الوسيط ٤/ ١٠٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٦٧.

(٨) الاستيعاب ١٢/ ٩٢ على هامش الإصابة، والتعريف والإعلام للسهيلي ص ١٥٦.

(٩) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو.

(١٠) الاستيعاب على هامش الإصابة ١٣/ ٢١٦، وفي الإصابة ١٢/ ٣١٠ و١٣/ ٢٠٣: بنت صخر بن عامر ابن كعب...، وقيل: بنت صخر بن عمرو بن عامر القرشية.

(١١) ذكر ابن ماكولا في الإكمال ٧/ ١٣٠: أن اسمها: قيلة بنت أذة بن رياح..، وقال ابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٨٩: أمه: آمنة بنت عبد العزى العدوية، عديَ قريش، وقيل: اسمها: قيلة..

بكر الصديق اسمُها قَتْلَة[١] ـ بالتاء المعجمة باثنتين من فوقها ـ بنتُ عبد العُزَّى.

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ قال ابن عباس: فأجابه اللهُ، فأعتَق تسعةً من المؤمنين يعذَّبون في الله، منهم بلال وعامر بن فُهيرة؛ ولم يدَع شيئاً من الخير إلا أعانَه اللهُ عليه[٢].

وفي الصحيح[٣] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من أَصبَح منكم اليوم صَائماً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فَمن تَبع منكم اليوم جَنَازةً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن أطعَم منكم اليوم مِسْكِيناً؟» قال أبو بكر: أنا. قال: «فمن عاد منكم اليوم مَريضاً؟» قال أبو بكر: أنا. قال رسولُ الله ﷺ: «ما اجتَمَعن في امرئ إلا دخَل الجَنَّةَ».

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ أي: اجعل ذرِّيَّتي صالحين[٤]. قال ابن عباس: فلم يبقَ له ولدٌ ولا والد ولا والدة إلا آمَنوا بالله وحدَه[٥]. ولم يكن أحدٌ من أصحابِ رسول الله ﷺ أسلَم هو وأبواه وأولادُه وبناته كلُّهم إلا أبو بكر[٦].

وقال سهل بن عبد الله: المعنى اجعلْهم لي خَلَف صِدقٍ، ولك عبيدَ حقٍّ. وقال أبو عثمان: اجعلهم أبراراً لي مطيعين لك. وقال ابن عطاء: وفقهم لصالح أعمالٍ ترضى بها عنهم. وقال محمد بن علي: لا تجعل للشيطان والنفْس والهوى عليهم سبيلاً[٧]. وقال مالك بن مِغول[٨]: اشتكى أبو معشر ابنَه إلى طلحة بن مُصَرِّف؛

(١) في (م): قتيلة، وهو صحيح أيضاً؛ توضيح المشتبه ٧/ ١٤٤ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٠٧-١٠٨ ، وزاد المسير ٧/ ٣٨٧ . وقد سمَّى ابن هشام في السيرة ١/ ٣١٨ - ٣١٩ سبعة ممن أعتقهم أبو بكر ﷺ.

(٣) صحيح مسلم (١٠٢٨) .

(٤) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٠٨ .

(٦) زاد المسير ٧/ ٣٨٧ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٨) في (م) مقول ، وهو خطأ.

فقال: استعِن عليه بهذه الآية؛ وتلا: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[(١)].

﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: رجعْتُ عن الأمر الذي كنتُ عليه[(٢)]. ﴿وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المخلِصين بالتوحيد[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ قراءة العامة بضم الياء فيهما. وقرئ: «يَتَقبَّلُ، وَيَتَجَاوزُ» بفتح الياء[(٤)]؛ والضمير فيهما يرجعُ لِله عزَّ وجلَّ. وقرأ حفص وحمزة والكسائيُّ: «نَتَقبَّلُ، ونَتَجَاوَزُ» بالنون فيهما[(٥)]، أي: نغفرها ونصفح عنها. والتجاوزُ أصلُه من جزت الشيءَ: إذا لم تقف عليه. وهذه الآيةُ تدلُّ على أن الآية التي قبلها ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إلى آخرها مرسلةٌ نزلَت على العموم. وهو قول الحسن[(٦)].

ومعنى «نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ» أي: نتقبل منهم الحسنات، ونتجاوزُ عن السيئات. قال زيد ابن أسلم ـ ويحكيه مرفوعاً ـ: إنهم إذا أسلموا قُبلت حسناتُهم وغُفرت سيئاتُهم. وقيل: الأحسن ما يَقتضي الثواب من الطاعات، وليس في الحسن المباح ثواب ولا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤١ ، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ١٩ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٧٨ .

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٢ .

(٤) هي قراءة عيسى والأعمش كما في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٧٩ لأبي المتوكل وأبي رجاء وأبي عمران الجوني ، ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٨ للحسن.

(٥) وقرأ الباقون من السبعة بالياء، كما سلف، وهم نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. السبعة ص٥٩٧ ، والتيسير ص١٩٩ .

(٦) سلف قوله ص١٩٧ من هذا الجزء.

عقاب؛ حكاه ابن عيسى[١]. ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ «في» بمعنى مع[٢]، أي: مع أصحاب الجنة، تقول: أكرمك وأحسن إليك في جميع أهل البلد، أي: مع جميعهم[٣].

﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ نصب لأنه مصدرٌ مؤكد لمَا قبله؛ أي: وعد الله أهلَ الإيمان أن يَتقبل من مُحسنهم ويتجاوزَ عن مسيئهم وعد الصدق[٤]. وهو من باب إضافة الشيء إلى نفسه؛ لأن الصدقَ هو ذلك الوعدُ الذي وعده اللهُ؛ وهو كقوله تعالى: ﴿حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ [الحجر: ٩٩] وهذا عند الكوفيين، فأما عند البصريين فتقديره: وَعْد الكلامِ الصدق أو الكتابِ الصدق، فحذف الموصوف. وقد مضى هذا في غير موضع[٥].

﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على ألسنة الرسل؛ وذلك الجنة[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيۡلَكَ ءَامِنۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفّٖ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أن أُبعث[٧]. ﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ قراءة نافعٍ وحفص وغيرِهما: «أُفٍّ» مكسور منوَّن. وقرأ ابن كثير وابن محيصن وابن عامر والمفضَّل عن عاصم: «أُفَّ» بالفتح من غير تنوين. الباقون بالكسر غير منوَّن[٨]؛ وكلُّها لغات، وقد مضى في «بني إسرائيل»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩، ولم نقف على قول زيد بن أسلم مرفوعاً.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٧٩.

(٣) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢١.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٤٣.

(٥) ١٢/ ١٢٨.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٧٩.

(٨) وقرأ عاصم في رواية حفص: أُفٍّ، بالكسر منون، وقرأ في رواية شعبة: أُفِّ. السبعة ص ٥٩٧، والتيسير ص ١٣٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٩٩.

(٩) ١٣/ ٥٧.

وقراءة العامة: «أَتَعِدَانِنِي» بنونين مخففتين. وفتح ياءه أهلُ المدينة ومكة. وأسكن الباقون. وقرَأ أبو حيوة والمغيرة وهشام: «أَتَعِدَانِّي» بنون واحدة مشدَّدة، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام[1]. والعامة على ضم الألف وفتح الراء من «أَنْ أُخْرَجَ». وقرأ الحسن ونصر وأبو العالية والأعمش وأبو معمر بفتح الألف وضم الراء[2].

قال ابن عباس والسُّدِّي وأبو العالية ومجاهد: نزلت في عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما، وكان يَدعوه أبواه إلى الإسلام فيجيبهما بما أخبر الله عزَّ وجلَّ[3]. وقال قتادة والسديُّ أيضاً: هو عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه، وكان أبوه وأمه أمُّ رومان يَدعوانه إلى الإسلام ويَعدانه بالبعث؛ فيردُّ عليهما بما حكاه الله عزَّ وجلَّ عنه؛ وكان هذا منه قبل إسلامه[4].

وروي أن عائشة رضي الله عنها أنكرت أن تكون نزلت في عبد الرحمن[5]. وقال الحسن وقتادة أيضاً: هي نعتُ عبدٍ كافرٍ عاقٍّ لوالديه[6]. وقال الزجاج[7]: كيف يقال نزلت في عبد الرحمن قبل إسلامه والله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: العذاب، ومن ضرورته عدمُ الإيمان، وعبدُ الرحمن من أفاضل المؤمنين؛ فالصحيحُ أنها نزلت في عبدٍ كافر عاقٍّ لوالديه.

---

(١) التيسير ص ١٩٩ .

(٢) ذكرها عن الحسن ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، وعن الأعمش ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٩٩ .

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ عن مجاهد .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٧٩ - ٢٨٠ عن السدي ، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ عن قتادة والكلبي .

(٥) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٩ . وأخرج البخاري في صحيحه (٤٨٢٧) عن يوسف بن ماهَك ... فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئاً من القرآن ، إلا أن الله أنزل عذري .

(٦) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ١٤٥ .

(٧) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٣ - ٤٤٤ ، ونقله عنه بواسطة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٨٠ .

وقال محمد بن زياد: كتب معاوية إلى مروان بن الحكم حتى يبايعَ الناسُ ليزيد؛ فقال عبد الرحمن بن أبي بكر: لقد جئتم بها هِرَقْلِيَّةً، أتبايعون لأبنائكم! فقال مروان: هو الذي يقول الله فيه: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ الآية. فقال: واللهِ ما هو به، ولو شئتُ لسمَّيت، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه، فأنت فَضَض من لعنة الله[١].

قال المهدويُّ: ومن جعل الآيةَ في عبد الرحمن كان قوله بعد ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يراد به من اعتقد ما تقدَّم ذِكره؛ فأول الآية خاصٌّ وآخرها عام[٢].

وقيل: إن عبد الرحمن لمَّا قال: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ قال مع ذلك: فأين عبدُ الله بن جُدْعان، وأين عثمان بن عمرو، وأين عامر بنُ كعب ومشايخ قريش حتى أسألَهم عمَّا يقولون[٣]. فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يرجعُ إلى أولئك الأقوام.

قلت: قد مضى من خبر عبد الرحمن بن أبي بكر في سورة الأنعام[٤] عند قوله: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ [الآية: ٧١] ما يدلُّ على نزول هذه الآية فيه؛ إذ كان كافراً، وعند إسلامه وفضله تعيَّن أنه ليس المراد بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾.

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١١٤٢٧)، والحاكم ٢/ ٤٨١ عن محمد بن زياد الجمحي، وقوله: لقد جئتم بها هرقلية. أراد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم والعجم. وهرقل: اسم ملِك الروم. النهاية (هرقل). وقوله: «فأنت فضض من لعنة الله» أراد قطعة وطائفة منها. النهاية (فضض).

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر رحمه الله في الفتح ٨/ ٥٧٧ أن القول في عبد الرحمن ضعيف؛ كالقول في عبد الله، وأن نفي عائشة أن تكون نزلت في عبد الرحمن وآل بيته أصح إسناداً وأولى بالقبول.

(٣) في (د) و(ظ): فأين عبد الرحمن بن جذعان، وابن عثمان بن عمرو، وابن عامر بن كعب ..، وذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٥٤، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٩، والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٢١ - ٥٢٢ ولفظه عند الفراء: ابن جدعان بن عمرو، وعثمان بن عمرو وهما من أجداده، وبنحوه عند الزمخشري.

(٤) ٨/ ٤٢٨.

﴿وَهُمَا﴾ يعني والديه. ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ﴾ أي: يدعوان اللهَ له بالهداية[١]. أو يستغيثان بالله من كفره؛ فلمَّا حذف الجارّ وصل الفعل فنصب. وقيل: الاستغاثة: الدعاء؛ فلا حاجةَ إلى الباء[٢]. قال الفرَّاء: أجاب الله دعاءه وغُواثه.

﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي: صدِّق بالبعث. ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: صِدْقٌ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾ أي: ما يقوله والداه. ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: أحاديثهم وما سطروه مما لا أصلَ له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني الذين أشار إليهم ابن أبي بكر في قوله: أحْيُوا لي مشايخَ قريش، وهم المعنيُّون بقوله: ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي﴾. فأما ابن أبي بكر عبدُ الله أو عبدُ الرحمن فقد أجاب اللهُ فيه دعاءَ أبيه في قوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ﴾ على ما تقدَّم[٣].

ومعنى «حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ» أي: وجب عليهم العذابُ، وهي كلمة اللهِ: «هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»[٤]. ﴿فِيٓ أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم. ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: تقدَّمت ومضت. ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ الكافرين ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: تلك الأممُ الكافرة ﴿كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لأعمالهم؛ أي: ضاع سعيهم وخسِروا الجنةَ.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ١٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ﴾ أي: ولكلٍّ واحدٍ من الفريقين المؤمنين والكافرين من الجنِّ والإنس مراتبُ عند الله يومَ القيامة بأعمالهم. قال ابن زيد: درجاتُ أهل النار في هذه الآية تذهبُ سَفالاً، ودَرجُ أهل الجنة عُلُوًّا[٥]. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٠٩.

(٢) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٤.

(٣) ص١٩٨ من هذا الجزء.

(٤) سلف ٥/ ١٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ١٤٦.

﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن وعاصم وأبو عمرو ويعقوب بالياء لِذِكرِ اللهِ قبلَه، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ واختاره أبو حاتم. الباقون بالنون[١] ردًّا على قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ وهو اختيار أبي عبيد. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزاد على مسيء ولا ينقص من محسن.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ أي: ذكِّرهم يا محمد يومَ يُعرض ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُكشَف الغطاء فيقرَّبون من النار ويَنظُرون إليها[٢]. ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ أي: يقال لهم: أذهبتم[٣]؛ فالقولُ مضمر. وقرَأ الحسنُ ونصر وأبو العالية ويعقوب وابن كثير: «أَأَذْهَبْتُمْ» بهمزتين مخففتين، واختاره أبو حاتم. وقرأ أبو حيوة وهشام: «آذهبتم» بهمزة واحدة مطولة على الاستفهام. الباقون بهمزة واحدة من غير مدٍّ على الخبر[٤]، وكلُّها لغاتٌ فصيحة ومعناها التوبيخ، والعَرب توبِّخُ بالاستفهام وبغير الاستفهام[٥]؛ وقد تقدَّم. واختار أبو عبيد تركَ الاستفهام؛ لأنه قراءة أكثرِ أئمة السبعة: نافع وعاصم وأبي عمرو وحمزة والكسائي، مع مَن وافقهم: شيبة والزهري وابن مُحَيْصن والمغيرة بن أبي شهاب ويحيى بن الحارث والأعمش ويحيى بن وثَّاب وغيرهم؛ فهذه عليها جِلَّةُ الناس. وتركُ الاستفهام أحسن؛ لأن إثباته يوهم أنهم لم

(١) وقرأ بالياء أيضاً من السبعة ابن عامر في رواية هشام، وبالنون في رواية ابن ذكوان. السبعة ص ٥٩٨، والتيسير ص ١٩٩، والنشر ٢/ ٣٧٣.

(٢) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٠.

(٤) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص١٩٩، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٤، وإعراب القرآن النحاس ٤/ ٦٦، والنشر ١/ ٣٦٦.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٥١.

يفعلوا ذلك، كما تقول: أنا ظلمتُك؟ تريد: أنا لم أظلمك. وإثباته حسنٌ أيضاً؛ يقول القائل: ذهبت فعلت كذا؛ يُوَبِّخ ويقول: أذهبت فعلت! كلُّ ذلك جائز[١]. ومعنى «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: تمتَّعتم بالطيبات في الدنيا واتبعتم الشهوات واللذات؛ يعني المعاصي[٢]. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: عذابَ الخِزْي والفضيحة. قال مجاهد[٣]: الهُون: الهَوان. قتادة: بلغة قريش.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تستعلُون على أهلها بغير استحقاق. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ في أفعالكم بَغْيًا وظلماً. وقيل: «أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ» أي: أفنيتم شبابَكم في الكفر والمعاصي. قال ابنُ بحر: الطيباتُ: الشباب والقوَّةُ؛ مأخوذ من قولهم: ذهب أطيباه، أي: شبابه وقوَّته. قال الماورديُّ[٤]: ووجدت الضحاكَ قاله أيضاً.

قلت: القول الأوّل أظهر، روى الحسن عن الأحنف بن قيس، أنه سمع عمر بنَ الخطاب ﷺ يقول: لَأَنا أعلمُ بخفض العيش، ولو شئتُ لجعلتُ أكباداً وصلاء وصِنابًا وصَلائِقَ، ولكني أستبقي حسناتي؛ فإن اللهَ عزَّ وجلَّ وصَف أقواماً فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٥].

وقال أبو عبيد في حديث عمر: لو شئتُ لدعوت بصلائق وصناب وكَرَاكِرَ وأسنمة. وفي بعض الحديث: وأفلاذٍ[٦]. قال أبو عمرو وغيرُه: الصِّلاءُ ـ بالمدّ

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ .

(٣) في تفسيره ٢/ ٥٩٤ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ وما قبله منه سوى قوله : أي أفنيتم شبابكم ...

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في إصلاح المال (٣٥٧) ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨١ عن الحسن بن دينار عن الأحنف . وأخرجه بنحوه ابن المبارك في الزهد (٥٧٩) ، وابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٧٩ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٤٩ عن جرير بن حازم قال : سمعت الحسن يقول ... وذكره .

(٦) ذكرها الزمخشري في الفائق ٢/ ٣١١ .

والكسر ـ : الشِّواء؛ سُمِّي بذلك لأنه يُصْلَى بالنار[١]. والصِّلاء أيضاً: صِلاء النار؛ فإن فتحتَ الصاد قصرت وقلت: صَلَى النارِ. والصِّنابُ: الأصبغة المتخَذة من الخردل والزَّبيب[٢]. قال أبو عمرو: ولهذا قيل للبِرذَوْن: صِنابِيٌّ؛ وإنما شُبِّه لونه بذلك. قال: والسلائق ـ بالسين ـ هو ما يسلَق من البقول وغيرها. وقال غيره: هي الصلائق بالصاد؛ قال جرير:

تُكَلِّفُني مَعيشَةَ آلِ زيدٍ ... ومَن لي بالصَّلائق والصِّنابِ[٣]

والصَّلائقُ: الخبزُ الرِّقاق العريض. وقد مضى هذا المعنى في «الأعراف»[٤]. وأما الكراكِرُ فكراكر الإبلِ، واحدتها كِرْكِرَة، وهي معروفة؛ هذا قول أبي عبيد[٥]. وفي الصحاح[٦]: والكِرْكِرة: رَحَى زَوْر البعير، وهي إحدى الثَّفِنات الخمس[٧]. والكِركِرة أيضاً: الجماعةُ من الناس. وأبو مالك عمرو بن كِرْكِرة رجلٌ من علماء اللغة[٨]. قال أبو عبيد: وأما الأفلاذ فإن واحدها فِلْذ، وهي القطعة من الكَبِد. قال أعْشَى باهلة:

تَكْفِيهِ حُزَّةُ فِلْذٍ إن أَلَمَّ بها ... من الشِّواء ويُرْوي شُرْبَه الغُمَرُ[٩]

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٢٦٣ - ٢٦٤

(٢) الصحاح (صلي ـ صنب).

(٣) غريب الحديث ٣/ ٢٦٤ ، والبيت في ديوان جرير ٢/ ٨١٢ .

(٤) ٩/ ٢٠٧ .

(٥) في غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ .

(٦) مادة (كرر) .

(٧) الزَّوْر: أعلى الصدر، والثَّفِنات: جمع ثَفِنة، وهي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استناخ وغلظ، كالركبتين وغيرهما. الصحاح (زور) (ثفن).

(٨) هو أبو مالك الأعرابي ، دخل الحاضرة وأخذ الناس عنه ، وكان مَولى لبني سعد ، ويقال : إنه كان يحفظ اللغة كلها ، وكان بصري المذهب ، ذكره الأزهري في التهذيب ١/ ١٢ في الطبقة الثانية من الأئمة الذين اعتمد عليهم في جمعه لكتابه ترجمته في إنباه الرواة ٢/ ٣٦٠ ، ومعجم الأدباء ١٦/ ١٣١ - ١٣٢ .

(٩) غريب الحديث ٣/ ٢٦٥ ، والبيت في الأصمعيات ص ٩١ ، والكامل للمبرد ١/ ٤٥٩ ، والخزانة =

وقال قتادة: ذكر لنا أن عمر ﷺ قال: لو شئتُ كنت أطيَبَكم طعاماً، وألينَكم لباساً، ولكني أستبقي طيباتي للآخرة. ولمَّا قدِم عمر الشامَ صُنع له طعامٌ لم يرَ قطُّ مثلَه؛ قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبِعوا من خبز الشعير! فقال خالد بنُ الوليد: لهم الجنة؛ فاغْرَوْرَقت عَيْنَا عمرَ بالدموع وقال: لئن كان حظُّنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا هم في حظِّهم بالجنة فلقد باينونا بَوْنًا بعيداً[1].

وفي صحيح مسلم وغيرِه أن عمر ﷺ دخَل على النبيِّ ﷺ وهو في مَشْرُبَته حين هَجَرَ نساءه قال: فالتفتُّ فلم أرَ شيئاً يردُّ البصر إلا أُهُباً جلوداً معطونة قد سطَع ريحُها؛ فقلت: يا رسولَ الله، أنت رسولُ الله وخِيرته، وهذا كِسْرى وقَيْصر في الديباج والحرير؟ قال: فاستوى جالساً وقال: «أفي شَكٍّ أنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قومٌ عُجِّلت لهم طيباتُهم في حياتهم الدنيا» فقلت: استغفر لي! فقال: «اللهم اغفر له»[2].

وقال حفص بن أبي العاص: كنت أتغدَّى عند عمر بن الخطاب رضي عنه الخبزَ والزيتَ، والخبز والخلَّ، والخبز واللبنَ، والخبز والقَدِيد، وأقلُّ ذلك اللحم الغَريض[3]. وكان يقول: لا تنخلوا الدقيقَ؛ فإنه طعامٌ كلُّه؛ فجيء بخبزٍ متفلع[4] غليظ؛ فجعل يأكل ويقول: كلوا؛ فجعلنا لا نأكل؛ فقال: ما لكم لا تأكلون؟ فقلنا: واللهِ يا أمير المؤمنين نرجع إلى طعام ألين من طعامك هذا؛ فقال: يا ابن أبي العاص، أَمَا ترى بأني عالم أن لو أمرتُ بعَناق[5] سمينةٍ فيلقى عنها شَعَرها، ثم

= ١/١٩٨ ، وقوله : «حُزَّة» أي: قطعة من اللحم قطعت طولاً . و«ألمَّ بها» : أصابها يعني أكلها . و«الغُمَرُ» : قَدَح صغير لا يروي . كذا في الخزانة .

(١) أخرجه عبد الرزاق ٢/٢١٧ مختصراً ، والطبري ٢١/١٤٧ بتمامه .

(٢) صحيح مسلم (١٤٧٩): (٣٤) بنحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عند الإمام أحمد (٢٢٢) ، والبخاري (٤٩١٣)، وسلف بنحوه ١٨/ ١٩٠ .

(٣) أي: الطري.

(٤) في (خ) و(ظ) : متقطع ، وفي (د) و(ق) متقلع . والمتفلع : هو المشقق والمقطع . القاموس (فلع) .

(٥) العناق : الأنثى من أولاد المعز . القاموس (عنق) .

تُخرج مَصْلِيَّةً كأنها كذا وكذا. أما ترى بأني عالِمٌ أنْ لو أمرت بصاعٍ أو صاعين من زبيب فأجعله في سقاء ثم أشنُّ عليه من الماء فيصبح كأنه دم غَزال؛ فقلت: يا أمير المؤمنين، أجل! ما تبعتَ[١] العيش، قال: أجل! واللهِ الذي لا إله إلا هو لولا أني أخافُ أن تنقصَ حسناتي يوم القيامة لشاركناكم في العيش! ولكني سمعتُ اللهَ تعالى يقول لأقوامٍ: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾[٢].

﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي: الهوان. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: تتعظمون عن طاعة الله وعلى عباد الله. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾: تخرجون عن طاعة الله.

وقال جابر: اشتهى أهلي لحماً فاشتريته لهم فمررتُ بعمر بن الخطاب ﷺ فقال: ما هذا يا جابر؟ فأخبرته؛ فقال: أوكلَّما اشتهى أحدُكم شيئاً جعله في بطنه! أمَا يخشى أن يكون من أهل هذه الآية: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ الآية[٣].

قال ابن العربي[٤]: وهذا عتابٌ منه له على التوسُّع بابتياع اللحم والخروج عن جِلْف الخبز والماء؛ فإنَّ تعاطي الطيبات من الحلال تستشْرهُ لها الطباع وتستمرئها العادةُ، فإذا فَقَدَتْها استسهلَتْ في تحصيلها بالشبهات حتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراهِ الهوى على النفس الأمارة بالسوء؛ فأخذ عمر الأمرَ من أوّله، وحماه من ابتدائه كما يفعله مثله. والذي يَضبط هذا البابَ ويحفظ قانونَه على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً كان أو قَفاراً، ولا يتكلَّف الطيِّبَ ويتخذَه عادة؛ وقد كان

---

(١) في (م) و(ز) و(ق) تنعت. ولم تجود في (خ).

(٢) أخرجه بنحوه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٢٨٠، وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ١٤/ ٤١٥. وحفص ابن أبي العاص بن بشر الثقفي، هو أخو عثمان بن أبي العاص الصحابي المشهور، ذكره ابن حجر في الإصابة ٢/ ٢٦٦، وقال: روى البلاذري بإسناد لا بأس به أن حفص كان يحضر طعام عمر، الحديث.

(٣) أخرجه الواحدي في الوسيط ٤/ ١١١ - ١١٢، وبنحوه الإمام مالك في الموطأ ٢/ ٩٣٦، وأحمد في الزهد ص١٥٣.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٨٦ - ١٦٨٧.

النبيُّ ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبِر إذا عَدِم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسلَ إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر؛ ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله دَيْدَناً. ومعيشةُ النبيّ ﷺ معلومة، وطريقة الصحابة منقولة؛ فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاصُ عسيرٌ، واللهُ يَهَبُ الإخلاصَ، ويُعينُ على الخلاص برحمته.

وقيل: إن التوبيخ واقعٌ على ترك الشكر لا على تناول الطيِّبات المحللة، وهو حسن؛ فإن تناولَ الطيب الحلال مأذونٌ فيه، فإذا ترك الشكر عليه واستعان به على ما لا يَحلُّ له فقد أذهبه. واللهُ أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ۝٢١﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ هو هود بن عبد الله بن رباح عليه السلام[1]، كان أخاهم في النَّسَب لا في الدِّين[2].

﴿إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ أي: اذكر لهؤلاء المشركين قصةَ عادٍ ليعتبروا بها. وقيل: أمرَه بأن يتذكّر في نفسه قصةَ هود ليقتديَ به، ويهون عليه تكذيب قومه له[3].

والأحقاف: ديار عاد، وهي الرِّمال العظام؛ في قول الخليل وغيره[4]. وكانوا قهَروا أهلَ الأرض بفضل قوَّتِهم. والأحقاف جمع حِقْف، وهو ما استطالَ من الرمل العظيم واعوجّ ولم يبلغ أن يكون جبلاً[5]، والجمع حِقاف وأحقاف [وحقوف][6].

---

(١) التعريف والإعلام ص ١٥٦ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٠١ بنحوه .

(٥) تفسير الطبري ٢١/ ١٥٠ .

(٦) من (م) ، وينظر اللسان (حقف) .

واحقوقف الرمل والهلال، أي: اعوج. وقيل: الحِقْف جمع حِقاف. والأحقاف جمع الجمع. ويقال: حِقْفٌ أحقف[١]. قال الأعشى:

بـات إلـى أرطـاةِ حِـقـفٍ أحْـقَـفَـا[٢]

أي: رمل مستطيل مشرف. والفعل منه: احقوقف. قال العجَّاج:

طَـيَّ الـلـيـالـي زُلَـفـاً فـزُلَـفـا سَـمَـاوَةَ الـهـلالِ حـتـى احْـقَـوْقَـفـا[٣]

أي: انحنى واسْتَدَارَ. وقال امرؤ القيس:

كحِقف النَّقا يمشي الوِلِيدَانِ فوقَه بما احتَسَبا من لِين مَسٍّ وتَسْهَالِ[٤]

وفيما أُريد بالأحقاف هاهنا مختلَف فيه: فقال ابن زيد: هي رمالٌ مشرفة مستطيلة كهيئة الجبال، ولم تبلغ أن تكون جبالاً؛ وشاهدُه ما ذكرناه[٥].

وقال قتادة: هي جبال مشرفة بالشِّحْر، والشِّحْرُ قريبٌ من عَدن؛ يقال: شِحْرُ عُمَان وشَحْرُ عُمان، وهو ساحل البحر بين عُمان وعدن. وعنه أيضاً: ذكر لنا أن عاداً كانوا أحياءً باليمن، أهلَ رملٍ مشرفين على البحر بأرضٍ يقال لها: الشّحْر[٦].

(١) الكلام بنحوه في تهذيب اللغة ٤/ ٦٨، والصحاح (حقف).

(٢) كذا قال، والرجز للعجاج بن رؤبة، وهو في ديوانه ص٤٢٧، ومعاني القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣، وتفسير الطبري ٢١/ ١٥٣، والنكت والعيون ٥/ ٢٨٢. وقوله: «أرطاة»؛ الأرْطَى: شجر ينبت بالرَّمل. اللسان (أرط). أما بيت الأعشى فهو:

يـلـوذ إلـى أرطـاة حـقـف تـلـفّـهُ خـريـق شَـمـال يـتـرك الـوجـهَ أقـتـمـا

وهو في ديوانه ص ٣٤٥.

(٣) ديوان العجاج ص ٤٢٦، قال شارحه: قوله «زلفاً فزلفاً» يريد: زلفة فزلفة أي: درجة فدرجة، والزلف: الدرج. و«سماوة الهلال» هي أعلاه.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ٣٠، قال شارحه: «النقا»: ما استدار من الرمل. «احتسبا»: اكتفيا. يقول: جسم هذه المرأة أو عجيزتها كهذا النقا في لينه وامتلائه، وهو مع لينه صلبٌ شديد ليس بمنهال متناثر...

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وذكر قول ابن زيد أيضاً البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٠، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٣.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠، وزاد المسير ٧/ ٣٨٤، وأخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢١٧، والطبري ٢١/ ١٥٢ - ١٥٣ بنحوه، وينظر معجم البلدان ٣/ ٣٢٧، والقاموس المحيط (شحر).

وقال مجاهد: هي أرضٌ من حِسْمَى تسمَّى بالأحقاف[١]. وحِسْمَى - بكسر الحاء - اسم أرض بالبادية، فيها جبال شواهقُ؛ مُلْسُ الجوانب، لا يَكاد القَتام يُفارقها. قال النابغةُ:

فأصبحَ عاقِلاً بجبالِ حِسْمَى دُقاقَ التُّرْبِ مُحْتَزِمَ القَتامِ

قاله الجوهريُّ[٢].

وقال ابن عباس والضحَّاك: الأحقاف جبلٌ بالشام. وعن ابن عباس أيضاً: وادٍ بين عُمان ومَهْرة[٣].

وقال مقاتل: كانت منازل عاد باليمن في حضرموت بواد يقال له: مَهَرَة[٤]، وإليه تنسب الإبل المَهْرِيَّة؛ فيقال: إبل مَهْرِيّة ومَهارِي. وكانوا أهل عُمُد سيَّارة في الربيع، فإذا هاج العودُ رجعوا إلى منازلهم؛ وكانوا من قبيلة إرم[٥].

وقال الكلبيُّ: أحقاف الجبلِ ما نضَب عنه الماءُ زمانَ الغرَق، كان يَنْضُب الماء من الأرض ويبقى أثره.

وروى [أبو] الطُّفيل عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: خيرُ وادِيَيْن في الناس وادٍ بمكة؛ ووادٍ نزَل به آدم بأرض الهند، وشرُّ وادِيَيْن في الناس وادٍ بالأحقاف؛ ووادٍ

---

(١) تفسير مجاهد ٢/ ٥٩٤، بلفظ: خساف من حسمى، وذكر قوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥٢.

(٢) في الصحاح (حسم) ومن قوله: وحِسْمى... إلى هذا الموضع، ليس في (ظ). ولعله حاشية في الأصل، والبيت في ديوان النابغة الذبياني ص ١١٤ وفيه: وأضحى ساطعاً. وقوله: «القَتام»، أي: الغبار. القاموس (قتم) قال ابن بري: أي: حِسْمى قد أحاط به القتام كالحزام له. اللسان (حسم). وحسمى أرض ببادية الشام، ينظر معجم البلدان ٢/ ٢٥٨ - ٢٥٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٥١.

(٤) قال ياقوت الحموي في معجم البلدان ٥/ ٢٣٤: مَهرة قبيلة، وهي مهرة بن حَيْدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠.

بحضرمَوْت يدعى بَرَهُوت تلقى فيه أرواحُ الكفار. وخير بئرٍ في الناس بئرُ زمزم، وشرُّ بئر في الناس بئر بَرَهُوت، وهو في ذلك الوادي الذي بحضرموت(١).

﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: مَضت الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ أي: من قبل هود. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ أي: ومن بعده؛ قاله الفرَّاء. وفي قراءة ابن مسعود: «من بين يديه ومن بعده»(٢). ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا من قول المرسَل، فهو كلام معترض(٣). ثم قال هود: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وقيل: «أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ» من كلام هود، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: لتزيلنا عن عبادتها بالإفك.

الثاني: لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع؛ قاله الضحاك(٤). قال عُرْوة بن أُذَيْنَة:

إن تك عن أحسن الصنيعة(٥) مأ فوكاً ففي آخرين قد أفِكوا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٢ - ٢٨٣ وما بين حاصرتين منه، وهو الصواب. وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور ٦/ ٤٣. وقوله: «وخير بئر في الناس زمزم... إلى قوله: بحضرموت» أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١١١٦٧) من حديث ابن عباس مرفوعاً، بنحوه. قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٢٨٦: رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات، وصححه ابن حبان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، وذكر القراءة أيضاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٥٤، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٦٨ - ١٦٩.

(٣) الكلام بنحوه في الوسيط ٤/ ١١٣.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣.

(٥) في (ظ) حسن الصنيعة. وسلف البيت عند تفسير الآية (٢٥) من سورة فصلت.

يقول: إن لم توفَّق للإحسان فأنت في قومٍ قد صُرِفوا.

﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ هذا يدلُّ على أن الوعدَ قد يوضع موضعَ الوعيد. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنك نبيٌّ. ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ بوقت مجيء العذاب ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا عندي ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ عن ربكم. ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ في سؤالكم استعجالَ العذاب. ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ قال المبرِّد: الضمير في «رَأَوْهُ» يعودُ إلى غير مذكور؛ وبيَّنه قولُه: «عَارِضًا»، فالضمير يعودُ إلى السحاب؛ أي: فلمَّا رأوا السحابَ عارضاً[1]. فـ «عارضاً» نصب على التكرير؛ سُمِّي بذلك لأنه يبدو في عُرض السماء. وقيل: نصب على الحال[2]. وقيل: يرجع الضمير إلى قوله: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا»[3] فلما رأوه حسبوه سحاباً يمطرهم، وكان المطر قد أبطأ عنهم، فلما رأوه «مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ» استبشروا[4]. وكان قد جاءهم من وادٍ جرَت العادةُ أنَّ ما جاء منه يكون غَيْثاً؛ قاله ابن عباس وغيره.

قال الجوهريُّ: والعارض السحاب يَعترض في الأفق؛ ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي: ممطرٌ لنا؛ لأنه معرفة لا يجوز أن يكون صفةً لعارض وهو نكرة. والعربُ إنما تفعل مثلَ هذا في الأسماء المشتقة من الأفعال دون غيرها. قال جرير:

يا رُبَّ غابِطِنا لو كان يطلبكم ... لاقى مباعدةً منكم وحِرْمَانَا[5]

ولا يجوز أن يقال: هذا رجلٌ غلامنا. وقال أعرابيٌّ بعد الفِطر: رُبَّ صائمة لن

(١) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٢٨.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٣، والرازي ٢٨/ ٢٨.

(٥) ديوان جرير ١/ ١٦٣، وهو في الكتاب ١/ ٤٢٧، والمقتضب للمبرد ٣/ ٢٢٧ و٤/ ١٥٠، وتحصيل عين الذهب ص ٢٤٢، وشرح المفصل لابن يعيش ٣/ ٥١. قال الشنتمري في شرحه: رُبَّ من يغبطنا ويَسرُّنا بطلب معروفنا لو طلب ما عندكم لَبُوعد وحُرم، والشاهد في البيت إضافةُ «رب» إلى غابطنا، وربَّ لا تعمل إلا في النكرة، فغابطنا في نية التنوين والانفصال.

تصومه، وقائمةٍ لن تقومه؛ فجعله نعتاً للنكرة وأضافه إلى المعرفة[١].

قلت: قوله: «لا يجوز أن يكون صفة لعارض» خلاف قول النحويين، والإضافة في تقدير الانفصال، فهي إضافة لفظية لا حقيقية؛ لأنها لم تفد الأوّل تعريفاً، بل الاسم نكرة على حاله؛ فلذلك جرى نعتاً على النكرة. هذا قول النحويين في الآية والبيت. ونعت النكرة نكرة. و«رُبّ» لا تدخل إلا على النكرة.

﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: قال هود لهم. والدليل عليه قراءة من قرأ: «قال هود بل هو»[٢] وقرئ: «قُلْ بَلْ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ هِيَ رِيحٌ»[٣] أي: قال الله: قل بل هو ما استعجلتم به؛ يعني قولهم: «فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا» ثم بيَّن ما هو فقال: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ والريح التي عُذِّبوا بها نشأت من ذلك السحاب الذي رأوه، وخرج هودٌ من بين أظهرهم، فجعلت تحملُ الفساطيط وتحمل الظَّعِينةَ فترفعها كأنها جرادة[٤]، ثم تضرب بها الصخور. قال ابن عباس: أول ما رأوا العارض قاموا فمدّوا أيديهم، فأوّل ما عرَفوا أنه عذاب رأوا ما كان خارجاً من ديارهم من الرجال والمواشي تطيرُ بهم الريح ما بين السماء والأرض مثل الريش، فدخَلوا بيوتهم وأغلَقوا أبوابهم، فقلعت الريحُ الأبوابَ وصرعتهم، وأمرَ اللهُ الريح؛ فأمالت عليهم الرمالَ، فكانوا تحت الرمال سبعَ ليالٍ وثمانية أيامٍ حسوماً[٥]، ولهم أنين؛ ثم أمر اللهُ الريحَ فكشفت عنهم الرمالَ واحتملتهم فرمتهم في البحر، فهي التي قال اللهُ تعالى فيها: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ أي: كل شيء مرَّت عليه من رجال عادٍ وأموالها[٦]. قال ابن عباس: أي: كل

---

(١) الصحاح (عرض).

(٢) هي قراءة ابن مسعود كما ذكر ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٥.

(٣) هي قراءة ابن مسعود أيضاً كما ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٢٤.

(٥) قوله: حسوماً، ليس في المصادر الآتي ذكرها، وهو الأشبه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٠ - ١٧١، والكشاف ٣/ ٥٢٤، والرازي ٢٨/ ٢٨.

شيء بُعثت إليه، والتدمير: الهلاكُ. وكذلك الدمار. وقرئ: «يَدْمُرُ كُلُّ شَيْءٍ» من دَمَر دماراً[١]. يقال: دَمَّره تدميراً ودماراً ودَمَّر عليه بمعنًى. ودَمَر يَدْمُر دُموراً: دخَل بغير إذن. وفي الحديث: «مَن سَبَقَ طَرْفُه استئذانَه فقد دَمَر» مخفف الميم. وتَدْمُر: بلد بالشام. ويَرْبُوع تَدْمُرِي إذا كان صغيراً قصيراً[٢]. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾: بإذن ربها[٣]. وفي البخاري[٤] عن عائشة رضي الله عنها زوجِ النبيِّ ﷺ قالت: ما رأيتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضاحكاً حتى أرى منه لَهَواتِهِ، إنما كان يتبسَّم. قالت: وكان إذا رأى غَيْماً أو رِيحًا عُرِف في وجهه. قالت: يا رسولَ الله، الناسُ إذا رَأَوا الغَيْمَ فرِحوا رجاءَ أنْ يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيتَه عُرِف في وجهك الكراهية! فقال: «يا عائشة، ما يُؤَمِّنُني أن يكونَ فيه عذابٌ، عُذِّب قومٌ بالرِّيح، وقد رأى قومٌ العذابَ فقالوا: هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا» خَرَّجه مسلمٌ والترمذيُّ، وقال فيه: حديث حسن[٥].

وفي صحيح مسلم[٦] عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «نُصِرتُ بالصَّبا، وأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ».

وذكر الماورديُّ[٧] أن القائل: «هَذَا عَارِض مُمْطِرُنَا» من قوم عاد: بكر بنُ معاوية؛ ولمَّا رأى السحابَ قال: إني لأَرَى سحاباً مُرْمِداً، لا تدع من عاد أحداً.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٤، وهي قراءة شاذة.

(٢) الصحاح (دمر)، وأخرج الحديث الطبراني في المعجم الكبير (٧٥٠٧) بنحوه من حديث أبي أمامة ﷺ. وفي إسناده عبد الله بن صالح: صدوق كثير الغلط، ثبت في كتابه، وكانت فيه غفلة. والسفر بن نُسَيْر: ضعيف. كذا قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) تفسير أبي الليث السمرقندي ٣/ ٢٣٥.

(٤) (٤٨٢٨ - ٤٨٢٩).

(٥) صحيح مسلم (٨٩٩): (١٦)، وسنن الترمذي (٣٢٥٧) بنحوه، وهو عند الإمام أحمد (٢٤٣٦٩) وسلف بنحوه ٢/ ٥٠٣.

(٦) برقم (٩٠٠)، وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٧) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ - ٢٨٤.

فذكر عمرو بنُ ميمون: أنها كانت تأتيهم بالرجل الغائب حتى تقذفه في ناديهم. قال ابنُ إسحاق: واعتَزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، ما يصيبه ومن معه منها إلا ما يلين على[1] ثيابهم. وتلتذ الأنفس به؛ وإنها لتمرُّ من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدْمَغُهُم بالحجارة حتى هَلكوا. وحكى الكلبيُّ أنَّ شَاعرَهم قال في ذلك:

فـدعـا هـودٌ عـلـيـهـم   دعـوةً أَضـحَـوْا هُـمـودا
عـصـفـت ريـحٌ عـلـيـهـم   تـركـت عـاداً خُـمـودا
سُـخِّـرتْ سـبـعَ لـيـالٍ   لـم تـدع فـي الأرض عُـودا

وعَمَّر هودٌ في قومه بعدهم مئة وخمسين سنة.

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ قرأ عاصم وحمزة: «لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ» بالياء غير مسمى الفاعل. وكذلك روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إلا أنه قرأ: «ترى» بالتاء. وقد رُوي ذلك عن أبي بكر عن عاصم. الباقون: «تَرى» بتاء مفتوحة. «مَسَاكِنَهُم» بالنصب[2]، أي: لا ترى يا محمد إلا مساكنَهم. قال المهدوِيُّ: ومن قرأ بالتاء غير مسمى الفاعل فعلى لفظ الظاهر الذي هو المساكن المؤنثة، وهو قليل لا يستعمل إلا في الشعر. وقال أبو حاتم: لا يَستقيم هذا في اللغة إلا أن يكون فيها إضمار؛ كما تقول في الكلام: لا تُرى النساء إلا زينب. ولا يجوز: لا تُرى إلا زينب. وقال سيبويه: معناه: لا تُرى أشخاصهم إلا مساكنهم.

واختار أبو عبيد وأبو حاتم قراءةَ عاصم وحمزة. قال الكسائيُّ: معناه لا يُرى شيء إلا مساكنهم[3]، فهو محمولٌ على المعنى؛ كما تقول: ما قام إلا هندٌ، والمعنى ما قام أحدٌ إلا هند. وقال الفرَّاءُ: لا يُرى الناسُ لأنهم كانوا تحتَ الرمل، وإنما تُرى

---

(١) في النسخ: أعلى. والمثبت من (د) والنكت والعيون، والعبارة فيه: إلا ما يلين على الجلود.

(٢) السبعة ص٥٩٨، والتيسير ص ٢٠٠. ولم نقف على وجهي القراءة لابن كثير وعاصم، والمتواتر عن عاصم: يُرى، وعن ابن كثير: تَرى.

(٣) تفسير الرازي ٢٨/٢٨.

مساكنُهم لأنها قائمة[١]. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: مثل هذه العقوبة نُعاقب بها المشركين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ قيل: إنَّ «إنْ» زائدةٌ؛ تقديره: ولقد مكنَّاهم فيما مكنَّاكم فيه. وهذا قول القتبيِّ[٢].

وأنشد الأخفش:

يُرَجِّي المرءُ ما إنْ لا يراهُ وتَعرِضُ دون أدناهُ الخُطوبُ[٣]

وقال آخر:

فما إنْ طِبُّنا جُبْنٌ ولكن منايانا ودَوْلَةُ آخرينا[٤]

وقيل: إن «ما» بمعنى الذي. و«إن» بمعنى ما؛ والتقدير: ولقد مكناهم في الذي ما مكناكم فيه؛ قاله المبرّدُ[٥].

وقيل: شرطية وجوابها مضمر محذوف؛ والتقدير: ولقد مكناهم في ما إن

---

(١) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠ .

(٢) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٨ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٩ .

(٣) النوادر في اللغة ص ٦٠ ، والصاهل والشاحج ص ٢٥٤ ، وخزانة الأدب ٨/ ٤٤٠ . وقائله ـ كما في النوادر ـ هو جابر بن رألان الطائي جاهلي .

(٤) البيت لفروة بن مُسيك كما في الكتاب ٣/ ١٥٣ ، والصاهل والشاحج ص٢٥٤-٢٥٥ ، وذكره المبرد في الكامل ١/ ٤٤١ ، والبغدادي في الخزانة ٤/ ١١٢ دون نسبة ، وقوله : «طِبُّنا» الطِّبُّ بمعنى العلة والسبب، أي: لم يكن سبب قتلنا الجبن وإنما كان ما جرى به القدر من حضور المنية وانتقالِ الحال عنا والدُّولة. قاله في الخزانة .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٠ ، والوسيط ٤/ ١١٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٧١ .

مكناكم فيه كان بغيُكم أكثرَ وعنادكم أشدّ؛ وتمَّ الكلام[١]، ثم ابتدأ فقال: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً﴾ يعني قلوباً يفقهون بها[٢]. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ﴾ من عذاب الله. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾: يكفرون. ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم﴾: أحاط بهم[٣] ﴿مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يُريدُ حِجْرَ ثمود وقُرى لوط ونحوهما مما كان يجاورُ بلادَ الحجاز، وكانت أخبارهم متواترة عندهم. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ يعني الحُجَجَ والدلالاتِ وأنواعَ البيِّنات والعِظات، أي: بيَّناها لأهل تلك القرى[٤]. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم يَرْجعوا. وقيل: أي: صرَّفنا آياتِ القرآن في الوعد والوعيد والقصص والإعجاز لعلَّ هؤلاء المشركين يَرْجِعون.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ «لَوْلَا» بمعنى هلَّا، أي: هلَّا نصرَهم آلهتُهم التي تقرَّبوا بها ـ بزعمهم ـ إلى الله لتشفع لهم حيث قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]، ومنعَتهم من الهلاك الواقع بهم! قال الكسائيُّ: القُرْبان كلُّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى من طاعةٍ ونَسيكة، والجمعُ: قرابين؛ كالرُّهبان والرَّهابين[٥].

وأحد مفعولي «اتخذ» الراجعُ إلى «الذين» المحذوف، والثاني: «آلِهةً».

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٤ – ٢٨٥.
(٢) زاد المسير ٧/ ٣٨٦.
(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦.
(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦١، ومجمع البيان ٢٦/ ٢١.
(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧١ – ١٧٢ دون نسبة.

و«قُرْبَاناً»: حال، ولا يصحُّ أن يكون «قُرْبَانًا» مفعولاً ثانياً، و«آلِهةً» بدل منه؛ لفساد المعنى؛ قاله الزمخشري. وقرئ: «قُرُباناً»؛ بضم الراء[1].

﴿بَلْ ضَلُّواْ عَنْهُمْ﴾ أي: هَلكوا عنهم. وقيل: «بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ» أي: ضلَّت عنهم آلهتهم؛ لأنها لم يُصبها ما أصابهم؛ إذ هي جمادٌ. وقيل: «ضَلُّوا عَنْهُمْ»، أي: تركوا الأصنام وتبرؤوا منها. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ أي: والآلهة التي ضلَّت عنهم هي إفكهم في قولهم: إنها تقرِّبهم إلى الله زلفى[2].

وقراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» بكسر الهمزة وسكون الفاء، أي: كذبهم. والإفك: الكذب، وكذلك الأفِيكة، والجمع: الأفائك. ورجل أفَّاكٌ، أي: كَذَّاب.

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن الزبير: «وَذَلِكَ أَفَكَهُمْ» بفتح الهمزة والفاء والكافِ، على الفعل، أي: ذلك القول صَرَفهم عن التوحيد[3]. والأَفْكُ ـ بالفتح ـ مصدر قولك: أفكه يَأفِكه أفْكاً، أي: قلبَه وصرَفه عن الشيء.

وقرأ عكرمة: «أَفَّكهم» بتشديد الفاء على التأكيد والتكثير[4]. قال أبو حاتم: يعني قَلبهم عمَّا كانوا عليه من النعيم.

وذكر المهدويُّ عن ابن عباس أيضاً: «آفِكُهم» بالمدِّ وكسر الفاء، بمعنى صارِفُهم.

---

(١) الكشاف ٤/ ٥٢٦ وقد أعرب «قرباناً» مفعول اتخذوا، وآلهة بدلاً منه: العكبري في الإملاء ٢/ ٢٣٥، وذكره مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٦٩. وقوله: ولا يصح أن يكون «قرباناً» مفعولاً ثانياً... إلخ، قال السمين الحلبي في الدر المصون ٩/ ٦٧٧: ووجه الفساد - والله أعلم - أن القربان اسم لما يتقرب به إلى الإله، فلو جعلناه مفعولاً ثانياً وآلهة بدلاً منه لزم أن يكون الشيء المتقَرَّبُ به آلهةً، والفرض أنه غير الآلهة، بل هو شيءٌ يتقرب به إليها فهو غيرها، فكيف تكون الآلهة بدلاً منه؟ هذا ما لا يجوز.

(٢) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ١٧٢.

(٣) ذكرها عنهم جميعاً ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩، وعن ابن عباس ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وأخرجها عنه أيضاً الطبري في تفسيره ٢١/ ١٦٣.

(٤) قراءة عكرمة في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٤، وذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٧، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ١٣٩ عن عياض.

وعن عبد الله بن الزُّبير باختلاف عنه: «آفَكَهم» بالمدّ[١]، فجاز أن يكون أفعلَهم، أي: أصَارَهم إلى الإفك. وجاز أن يكون فاعلَهم، كخَادَعَهم.

ودليلُ قراءة العامة: «إِفْكُهُمْ» قوله: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي: يكذبون.

وقيل: «إِفْكُهُم» مثلُ: «أَفَكَهُم». الإفْك والأَفَك كالحِذْر والحَذَر[٢]؛ قاله المهدويُّ.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ هذا توبيخ لمشركي قريش، أي: إن الجنَّ سمِعوا القرآن فآمنوا به، وعلموا أنه من عند الله، وأنتم معرضون مصِرُّون على الكفر[٣]. ومعنى: «صَرَفْنَا»: وجَّهنا إليك وبَعَثنا. وذلك أنهم صُرِفوا عن استراق السمع من السماء برجوم الشُّهُب ـ على ما يأتي ـ ولم يكونوا بعدَ عيسى قد صُرِفوا عنه إلا عند مبعثِ النبيِّ ﷺ[٤].

قال المفسرون؛ ابنُ عباس وسعيد بن جبير ومجاهد وغيرهم: لمَّا مات أبو طالب خَرج النبيُّ ﷺ وحدَه إلى الطائف يَلْتمِس من ثَقيف النصرةَ، فقصد عبْدَ ياليل ومسعوداً وحبيباً وهم إخوة، بنو عمرو بن عمير، وعندهم امرأة من قريش من بني جُمَح، فدعاهم إلى الإيمان، وسألَهم أن يَنْصُروه على قومه، فقال أحدهم: هو يَمْرُط ثياب الكعبة[٥] إن كان اللهُ أرسلَك! وقال الآخر: ما وجَد اللهُ أحداً يرسِله غيرَك! وقال

(١) يعني بالمد وفتح الفاء والكاف كما في القراءات الشاذة ص١٣٩ ، والمحتسب ٢/ ٢٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤ .

(٢) المحتسب ٢/ ٢٦٧ - ٢٦٨ ، وذكر صاحب القاموس: أنها بكسر الهمزة وفتحها وبالتحريك.

(٣) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٥ .

(٥) أي: ينزعه ويسقطه عنها . ينظر القاموس (مرط).

الثالثُ: واللهِ لا أكلمك كلمةً أبداً؛ إن كان اللهُ أرسلك كما تقول؛ فأنت أعظمُ خطراً من أن أردَّ عليك الكلامَ، وإن كنت تكذبُ؛ فما ينبغي لي أن أكلِّمَك. ثم أغرَوْا به سفهاءَهم وعبيدَهم يسبُّونه ويضحكون به، حتى اجتمع عليه الناسُ، وألجؤوه إلى حائطٍ لعتبة وشيبة ابني ربيعة. فقال لِلْجُمَحِيَّة: «ماذا لقينا من أَحمائك»؟ ثم قال: «اللهم إني أشكو إليك ضَعْفَ قوّتي وقِلَّةَ حِيلتي وهواني على الناس، يا أرحمَ الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، لِمن تَكِلُني! إلى عبدٍ يَتَجَهَّمُني[1]، أو إلى عدوٍّ ملَّكته أمري! إن لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتُك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك من أن يَنزل بي غضبك، أو يحلَّ عليَّ سخطك، لك العُتْبَى حتى ترضى، ولا حول ولا قوّة إلا بك». فرحمه ابنا ربيعة وقالا لغلامٍ لهما نصرانيٍّ يقال له عدَّاس: خذ قِطْفاً من العنب، وضَعْه في هذا الطبق، ثم ضعْه بين يدي هذا الرجل. فلمَّا وضعَه بين يدي رسولِ الله ﷺ قال النبيُّ ﷺ: «باسم الله» ثم أكَل. فنظَر عدَّاس إلى وجهه ثم قال: واللهِ إن هذا الكلامَ ما يقوله أهلُ هذه البلدة! فقال النبيُّ ﷺ: «مِن أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس، وما دينُك؟» قال: أنا نصرانيٌّ من أهل نِينَوَى. فقال له النبيُّ ﷺ: «أَمِن قرية الرجلِ الصالح يونس بن متَّى؟» فقال: وما يدريك ما يونس بن متَّى؟ قال: «ذاك أخي، كان نبيًّا وأنا نبيٌّ». فانكبَّ عدَّاس حتى قبَّل رأس النبيِّ ﷺ ويديه ورجليه. فقال له ابنا ربيعة: لِمَ فَعلتَ هكذا!؟ فقال: يا سَيِّدِي، ما في الأرض خيرٌ من هذا، أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبيٌّ. ثم انصرف النبيُّ ﷺ حين يئس من خير ثَقيف، حتى إذا كان ببطن نَخْلة؛ قام من الليل يصلّي، فمرَّ به نفرٌ من جنِّ أهل نَصِيبِين[2].

---

(١) أي: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. النهاية (جهم).

(٢) السيرة النبوية ١/ ٤١٩ - ٤٢٢ بنحوه، وأخرجه مختصراً الطبراني في المعجم الكبير ٢٥/ ٣٤٦، والبغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٩٠١) من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما.

وذكره ابن حبان في الثقات ١/ ٧٦-٧٩، وابن حجر في الإصابة ٦/ ٣٩٩ مختصراً في ترجمة عداس ﷺ.

وكان سبب ذلك أن الجنَّ كانوا يَسترِقون السمعَ، فلما حُرست السماء ورُمُوا بالشُّهب قال إبليس: إن هذا الذي حدَث في السماء لِشيء حدث في الأرض؛ فبعث سراياه ليعرف الخبرَ ـ أوّلهم رَكْب نَصيبين، وهم أشراف الجنِّ ـ إلى تِهامة، فلما بلغوا بَطْن نخلة سمعوا النبيَّ ﷺ يصلِّي صلاةَ الغداة ببطن نخلة ويتلو القرآن، فاستمعوا له وقالوا: أنصتوا[١].

وقالت طائفة: بل أُمِر النبيُّ ﷺ أن يُنذر الجنّ ويَدعوَهم إلى الله تعالى ويَقْرَأ عليهم القرآن، فصرف الله عزَّ وجلَّ إليه نفراً من الجنِّ من نِينَوى وجمعَهم له؛ فقال النبيُّ ﷺ: «إني أريد أن أقْرَأ القرآن على الجنِّ الليلةَ فأيكم يَتْبَعني؟» فأطرَقوا، ثم قال الثانيةَ فأطرَقوا، ثم قال الثالثة فأطرقوا؛ فقال ابن مسعود: أنا يا رسول الله؛ قال ابن مسعود: ولم يحضر معه أحدٌ غيري، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة دخَل النبيُّ ﷺ شِعْبًا يقال له: «شِعْب الْحَجُون»[٢] وخطَّ لي خطًّا وأمرَني أن أجلس فيه وقال: «لا تخرج منه حتى أعود إليك». ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن، فجعلت أرى أمثال النسور تهوي وتمشي في رفرفها[٣]، وسمعت لَغَطاً وغَمْغَمَةً حتى خِفْتُ على النبيِّ ﷺ، وغَشِيته أَسْوِدةٌ كثيرة حالَت بيني وبينه حتى ما أسمعُ صوتَه، ثم طفِقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، ففرَغ النبيُّ ﷺ مع الفجر فقال: «أَنِمْتَ»؟ قلت: لا واللهِ، ولقد هممتُ مِرَاراً أن أستغيثَ بالناس حتى سمعتُك تَقْرَعهم بعصاك تقول: اجلِسوا؛ فقال: «لو خرجتَ لم آمَن عليك أن يخطفكَ بعضُهم» ثم قال: «هل رأيتَ شيئاً؟» قلت: نعم يا رسول الله، رأيتُ رِجالاً سوداً مُسْتَثْفِري ثياباً بيضاً[٤]؛ فقال:

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٤ عن ابن عباس مطولاً. وأخرجه عنه الإمام أحمد (٢٢٧١)، والبخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩) بنحوه.

(٢) الحَجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها. معجم البلدان ٢/ ٢٢٥.

(٣) في (ظ) دفوفها.

(٤) كذا في النسخ، وفي تفسير الطبري ٢١/ ١٦٨: مستثفري ثياب بياض. والاستثفار: هو أن يدخل الرَّجل ثوبه بين رجليه كما يفعل الكلب بذنَبه. النهاية (ثفر).

«أولئك جِنُّ نَصِيبين سألوني المتاع والزادَ، فمتَّعتهم بكل عظم حائل[١] ورَوْثة وبعرة». فقالوا: يا رسول الله، يَقْذَرها الناس علينا. فنهى رسول الله ﷺ أن يُسْتَنْجَى بالعظم والرَّوْث. قلت: يا نبيَّ الله، وما يُغْني ذلك عنهم! قال: «إنهم لا يجدون عظماً إلا وجدوا عليه لحمه يوم أُكِل، ولا رَوْثة إلا وجدوا فيها حَبَّها يوم أُكِل» فقلت: يا رسول الله، لقد سمعت لَغَطاً شديداً؟ فقال: «إن الجِنَّ تدارأت في قتيل بينهم، فتحاكموا إليَّ فقضيت بينهم بالحقّ». ثم تبرَّز النبيُّ ﷺ ثم أتاني فقال: «هل معك ماء»؟ فقلت يا نبيَّ الله، معي إداوة فيها شيء من نبيذ التمر، فصببت على يديه فتوضأ فقال: «تمرة طيِّبة وماء طهور»[٢]. روى معناه معمر عن قتادة وشُعبة أيضاً عن ابن مسعود. وليس في حديث معمر ذكر نبيذ التمر.

ورويَ عن أبي عثمان النَّهْدِيِّ أن ابن مسعود أَبْصَرَ زُطًّا[٣] فقال: ما هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزُّطّ. قال: ما رأيت شبههم إلا الجنّ ليلة الجنِّ، فكانوا مستفزِّين يتبع بعضهم بعضاً[٤].

وذكر الدَّارقُطْنيُّ[٥] عن عبد الله بن لَهِيعة، حدَّثني قيس بن الحجَّاج، عن حَنَش، عن ابن عباس، عن ابن مسعود أنه وضَّأ النبيَّ ﷺ ليلةَ الجنِّ بنبيذٍ، فتوضأ به وقال: «شراب وطهور». ابنُ لَهِيعة لا يحتج به. وبهذا السند عن ابن مسعود: أنه خَرج مع النبيِّ ﷺ ليلة الجنِّ، فقال له رسول الله ﷺ: «أمعك ماءٌ يا ابنَ مسعود»؟ فقال: معي

(١) أي متغير، قد غَيَّره البِلَى. النهاية (حول).

(٢) أخرجه مقطعاً الطبريُّ في تفسيره ٢١/ ١٦٦ - ١٦٩، وأخرجه بسياق أخصر منه الإمامُ أحمد (٤٣٨١)، وإسناده ضعيف. وسلف ١٥/ ٤٤١ قولُه: «تمرة طيبة وماء طهور» ومداره على أبي زيد، وهو مجهول اهـ. قال النووي في شرحه لصحيح مسلم ٤/ ١٦٩: وحديث النبيذ ضعيف باتفاق المحدثين.

(٣) الزط: جنس من السودان والهنود. النهاية (زطط).

(٤) عزاه الزيلعي في نصب الراية ١/ ١٤٠ للبيهقي، وأخرجه بنحوه عبد الرزاق ٢/ ٢١٨ - ١١٩، والطبري ٢١/ ١٦٧.

(٥) برقم (٢٤٣).

نبيذٌ في إداوةٍ؛ فقال رسول الله ﷺ: «صُبَّ عليَّ منه». فتوضأ وقال: «هو شراب وطهور» تفرَّد به ابن لَهِيعة، وهو ضعيف الحديث[١].

قال الدَّارَقُطْنِي[٢]: وقيل: إن ابن مسعود لم يشهد مع النبيِّ ﷺ ليلةَ الجنِّ. كذلك رواه علقمة بن قيس وأبو عبيدة بن عبد الله وغيرهما عنه أنه قال: ما شهدت ليلة الجنِّ. حدّثنا أبو محمد بن صاعد، حدَّثنا أبو الأشعث، حدَّثنا بشر بن المفضَّل[٣]، حدثنا داود بن أبي هند، عن عامر، عن علقمة بن قيس، قال: قلت لعبد الله بن مسعود: أشَهِدَ رسولَ الله ﷺ أحدٌ منكم ليلةَ أتاه داعي الجنِّ؟ قال: لا. قال الدَّارقُطْنِيُّ: هذا إسناد صحيح لا يُختلف في عدالة رواته[٤].

وعن عمرو بن مُرّة قال: قلت لأبي عبيدة: حضر عبد الله بن مسعود ليلةَ الجنّ؟ فقال: لا[٥]. قال ابن عباس: كان الجنُّ سبعة نفر من جنِّ نَصِيبين فجعلَهم النبيُّ ﷺ رسلاً إلى قومهم[٦].

وقال زِرُّ بن حُبيش: كانوا تسعة؛ أحدهم زَوْبعة. وقال قتادة: إنهم من أهل نِينَوَى[٧]. وقال مجاهد: من أهل نجران. وقال عكرمة: من جزيرة الموصل. وقيل: إنهم كانوا سبعة، ثلاثة من أهل نجران، وأربعة من أهل نَصِيبين[٨].

(١) سنن الدارقطني (٢٤٤).

(٢) إثر الحديث السالف (٢٤٣).

(٣) في (ظ) و(م) الفضل. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني.

(٤) في (م) راويه. والمثبت من باقي النسخ وسنن الدارقطني ورقمه (٢٤٥)، وهو عند الإمام أحمد (٤١٤٩)، ومسلم (٤٥٠).

(٥) سنن الدارقطني (٢٤٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ١٦٥، والطبراني في المعجم الكبير ١١/ ٢٥٦ (١١٦٦٠) وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٤٨٨.

(٧) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ١٦٥ - ١٦٦.

(٨) المثبت من (خ) وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، والكلام منه، وفي غير (خ): حران.

وروى ابن أبي الدنيا أن النبيَّ ﷺ قال في هذا الحديث وذكر فيه نَصِيبين فقال: «رفعت إليَّ حتى رأيتها، فدعوتُ الله أن يكثر مطرَها وينضر شجرَها وأن يُغْزر نهرها»[١].

وقال السهيلي[٢]: ويقال: كانوا سبعة، وكانوا يهوداً فأسلموا؛ ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى».

وقيل في أسمائهم: شاصر وماصر ومنشى وماشى والأحقب؛ ذكر هؤلاء الخمسة ابنُ دريد. ومنهم عمرو بن جابر؛ ذكره ابن سلام من طريق أبي إسحاق السَّبِيعي عن أشياخه، عن ابن مسعود: أنه كان في نَفَرٍ من أصحاب النبيِّ ﷺ يَمشون، فرفع لهم إعصار، ثم جاء إعصارٌ أعظم منه؛ فإذا حَيَّةٌ قتيل، فعمد رجلٌ منا إلى ردائه فشقَّه وكفَّن الحيةَ ببعضه، ودفنها، فلما جَنَّ الليل إذا امرأتان تسألان: أيُّكم دفن عمرو بنَ جابر؟ فقلنا: ما ندري مَن عمرو بنُ جابر! فقالتا: إن كنتم ابتغيتم الأجرَ فقد وجدتموه، إن فَسقَةَ الجنِّ اقتتلوا مع المؤمنين فقُتل عمرو، وهو الحيَّة التي رأيتم، وهو مِن النفر الذين استمعوا القرآن من محمدٍ ﷺ ثم وَلَّوْا إلى قومهم منذِرين. وذكر ابنُ سلام رواية أخرى: أن الذي كفَّنه هو صفوان بن المُعَطَّل.

قلت: وذكر هذا الخبر الثعلبي بنحوه فقال: وقال ثابت بن قُطْبة: جاء أناس إلى ابن مسعود فقالوا: إنا كنا في سفر، فرأينا حيةً متشحِّطة في دمائها[٣]، فأخذها رجل منا فواريناها؛ فجاء أناس فقالوا: أيكم دفن عَمْرًا؟ قلنا: وما عمرو! قالوا: الحية التي دفنتم في مكان كذا؛ أمَا إنه كان من النفر الذين سمعوا القرآنَ من النبيِّ ﷺ،

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (٧٤) بنحوه عن حذيفة بن غانم العدوي، وفي إسناده محمد بن عباد ابن موسى العُكْلي؛ قال فيه الحافظ ابن حجر في التقريب: صدوق يخطئ. ومحمد بن زياد بن زبَّار الكلبي، قال فيه يحيى بن معين: ليس بشيء، الميزان ٣/ ٢٥٥. وحذيفة بن غانم العدوي لم نعرفه.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٦ - ١٥٧.

(٣) أي: مضرجة بالدم. ينظر القاموس (شحط).

وكان بين حَيَّيْن من الجنِّ مسلمين وكافرين قتال فقُتل[١].

ففي هذا الخبر أن ابن مسعود لم يكن في سفر ولا حَضَرَ الدفن؛ والله أعلم. وذكر ابن أبي الدنيا عن رجلٍ من التابعين سَمَّاه: أن حية دخلت عليه في خِبائه تلْهَثُ عطشاً فسقاها، ثم إنها ماتت فدفنها، فأُتي من الليل فسلَّم عليه وشكره؛ وأخبر أن تلك الحيَّةَ كانت رجلاً من جنِّ نَصِيبين اسمه: زوبعة.

قال السُّهَيْلِيُّ[٢]: وبلغنا في فضائل عمر بن عبد العزيز ﷺ مما حدَّثنا به أبو بكر بن طاهر الأشبيلي، أن عمر بن عبد العزيز كان يمشي بأرض فلاة، فإذا حية ميِّتة فكفَّنها بفضلةٍ من ردائه ودفنها؛ فإذا قائل يقول: يا سرق، أشهدُ لسمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «ستموتُ بأرض فلاة، فيكفنك رجلٌ صالح». فقال: ومَن أنت يرحمك الله! فقال: رجلٌ من الجنِّ الذين استمعوا القرآن من رسول الله ﷺ لم يبق منهم إلا أنا وسرق؛ وهذا سرق قد مات[٣].

وقد قَتَلَت عائشة رضي الله عنها حيةً رأتها في حُجرتها تستمع[٤] وعائشةُ تقرَأ؛ فأُتيت في المنام فقيل لها: إنك قتلت رجلاً مؤمناً من الجنِّ الذين قدِموا على رسول الله ﷺ؛ فقالت: لو كان مؤمناً ما دخَل على حرَم رسول الله ﷺ؛ فقيل لها: ما دخل عليك إلا وأنت مقنَّعة، وما جاء إلا ليستمع الذِّكر. فأصبحت عائشةُ فزِعةً، واشترت رقابًا فأعتقتهم[٥].

---

(١) ذكره عن ثابت الحكيمُ الترمذي في نوادر الأصول ص٥١ بنحوه، والله أعلم بصحته.

(٢) في التعريف والإعلام ص ١٥٧ - ١٥٨ وما قبله منه.

(٣) وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق ٤٥/ ١٤٦ عن أبي معمر الأنصاري... فذكره، والله أعلم بصحته.

(٤) بعدها في (ظ): القرآن.

(٥) ذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ٥١، وابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٢٥٩ عن ابن أبي مليكة وغيره عن عائشة رضي الله عنها. وذكره العيني في عمدة القاري ١٠/ ١٨٥ عن ابن أبي مليكة عن عائشة بنت طلحة أن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها رأت في مغتسلها حية فقتلتها... فذكره.

قال السهيليُّ[(١)]: وقد ذكرنا من أسماء هؤلاء الجنِّ ما حضَرَنا؛ فإن كانوا سبعةً فالأحقب منهم وَصْفٌ لأحدهم، وليس باسم عَلَم؛ فإن الأسماء التي ذكرناها آنفاً ثمانيةٌ بالأحقب. والله أعلم.

قلت: وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه: هامة بن الهيم بن الأقيس[(٢)] بن إبليس؛ قيل: إنه من مؤمني الجنِّ وممن لقي النبيَّ ﷺ وعلَّمه سورة ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ و﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ و﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ﴾ و﴿الـمُـعَـوِّذَتَـيْـنِ﴾. وذكَر أنه حضر قتلَ هابيل وشَرِك في دمه وهو غلام ابن أعوام، وأنه لقي نُوحاً وتاب على يديه، وهوداً وصالحاً ويعقوب ويوسف وإلياسَ وموسى بنَ عمران وعيسى بن مريم عليهم السلام[(٣)]. وقد ذكر الماورديُّ أسماءهم عن مجاهد فقال: حسى ومسى ومنشى وشاصر وماصر والأرد وأنيان والأحقم[(٤)]. وذكرها أبو عمرو عثمان بن أحمد المعروف بابن السمَّاك قال: حدَّثنا محمد بن البراء قال: حدَّثنا الزبير بن بكار قال: كان حمزة بن عتبة بن أبي لهب يُسَمِّي جِنَّ نَصِيبين الذين قدِموا على رسول الله ﷺ فيقول: حسى ومسى وشاصر وماصر والأفخر والأرد وأنيال.

---

(١) في التعريف والإعلام ص١٥٨، وما قبله منه.

(٢) في المصادر الآتية: لاقيس، بدل: الأقيس، وقال ابن حجر في الإصابة ١٠/ ٢٢٧ في «هامة»: ذكره جعفر المستغفري في الصحابة: وقال: لا يثبت إسناد خبره.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الهواتف (١٠١)، والعقيلي في الضعفاء ٤/ ٩٦ - ٩٧، من حديث أنس ﷺ. وفي إسناده محمد بن عبد الله الأنصاري، منكر الحديث كما في الضعفاء وتهذيب الكمال ٢٥/ ٤٨١ - ٤٨٢.

وأخرجه - أيضاً - العقيلي في الضعفاء ١/ ٩٨ - ١٠٠، والبيهقي في الدلائل ٥/ ٤١٨ - ٤٢٠ من حديث عمر ابن الخطاب ﷺ. وقال الذهبي في الميزان ١/ ١٨٦: لا أعلم أشنع من الحديث الذي رواه العقيلي ... فذكره ثم قال: وهذا الحديث قد رواه البيهقي بإسناد أصلح من هذا.. اهـ وقال العقيلي ٣/ ٥٩٩: ... وهو باطل بالإسنادين.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٦، وأخرجه ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٩٧ (١٨٥٨٠) عن سويد بن عبد العزيز، عن رجل سماه عن ابن جريج. وسويد ضعيف كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب. ولم يذكر في المصادر اسم «منشى»، وينظر الدر المنثور ٦/ ٤٥.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي: حضروا النبيَّ ﷺ، وهو من باب تلوين الخطاب. وقيل: لما حضروا القرآن واستماعه[١] ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ أي: قال بعضهم لبعض: اسكتوا لاستماع القرآن. قال ابن مسعود: هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرَأ القرآنَ ببطن نَخْلة، فلمَّا سمعوه ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ قالوا: صه. وكانوا سبعة: أحدهم زوبعة؛ فأنزلَ اللهُ تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وقيل: «أَنْصِتُوا» لسماع قولِ رسول الله ﷺ؛ والمعنى متقارب. ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقرأ لاحق بن حُميد وخُبيب بن عبد الله بن الزبير: «فَلَمَّا قَضَى» بفتح القاف والضاد[٣]؛ يعني النبيَّ ﷺ قبل الصلاة. وذلك أنهم خرَجوا حين حُرست السماء من استراق السمع ليستخبروا ما أوجب ذلك؟ فجاؤوا وادي نخلة والنبيُّ ﷺ يقرأ في صلاة الفجر، وكانوا سبعة، فسمعوه وانصرفوا إلى قومهم منذِرين، ولم يعلم بهم النبيُّ ﷺ. وقيل: بل أُمر النبيُّ ﷺ أن ينذِر الجنَّ ويقرَأ عليهم القرآن، فصرف اللهُ إليه نفراً من الجنِّ ليستمعوا منه وينذِروا قومَهم؛ فلمَّا تلا عليهم القرآنَ وفرَغ؛ انصرفوا بأمره قاصدين مَن وراءهم من قومهم من الجنِّ، منذرين لهم مخالفةَ القرآن ومحذِّرين إياهم بأسَ الله إن لم يؤمنوا. وهذا يدلُّ على أنهم آمنوا بالنبيِّ ﷺ، وأنه أرسلهم. ويدلُّ على هذا قولُهم: «يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ» ولولا ذلك لمَا أنذَروا قومَهم[٤]. وقد تقدَّم عن ابن عباس أنَّ النبيِّ ﷺ جعلهم رسلاً إلى قومهم[٥]؛ فعلى هذا ليلةُ الجنِّ

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٠ .

(٢) أخرجه الدارقطني في العلل ٥/ ٥٥ دون قوله: فأنزل: ﴿إذ صرفنا ...﴾، وأخرجه بتمامه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٦، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٤٤ لابن أبي شيبة، وابن منيع وابن مردويه وأبي نعيم والبيهقي.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٥، والبحر المحيط ٨/ ٦٧، وهي قراءة شاذة.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ١٦٤ و١٧١ .

(٥) ص٢٢٤ من هذا الجزء.

ليلتان، وقد تقدَّم هذا المعنى مستوفًى. وفي صحيح مسلم[(١)] ما يدلُّ على ذلك؛ على ما يأتي بيانه في ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ [الجن: ١].

وفي صحيح مسلم عن مَعْن قال: سمعتُ أبي قال: سألت مسروقاً: مَن آذنَ النبيَّ ﷺ بالجنِّ ليلةَ استمعوا القرآن؟ فقال: حدَّثني أبوك ـ يعني ابنَ مسعود ـ أنه آذَنَتْه بهم شَجَرةٌ[(٢)].

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ أي: القرآن؛ وكانوا مؤمنين بموسى. قال عطاء: كانوا يهوداً فأسلَموا، ولذلك قالوا: «أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى». وعن ابن عباس: أن الجِنَّ لم تكن سمِعتْ بأمر عيسى؛ فلذلك قالت: «أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى»[(٣)].

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني ما قبْلَه من التوراة. ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾: دينِ الحق. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: دينِ اللَّهِ القويم. ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ يعني محمداً ﷺ، وهذا يَدلُّ على أنه كان مبعوثاً إلى الجِنِّ والإنس. قال مقاتل: ولم يَبعث اللهُ نبيًّا إلى الجنِّ والإنس قبلَ محمدٍ ﷺ[(٤)].

---

(١) برقم (٤٤٩) من حديث ابن عباس ﷺ، وسلف بنحوه ص٢٢٠-٢٢٢ من هذا الجزء.

(٢) صحيح مسلم (٤٥٠) (١٥٣)، وقوله: «آذنته بهم شجرة» أي أعلمته بهم، وظاهره أن الله تعالى خلق فيها نطقاً فهِمه النبيُّ ﷺ، كما خَلَق في الذراع المسمومة نطقاً. المفهم ٤٢٢/٧. ومعن: هو ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود.

(٣) الكشاف ٥٢٧/٣، وذكر قول عطاء ابنُ الجوزي في زاد المسير ٣٩٠/٧، وذكر قول ابن عباس ابنُ عطية في المحرر الوجيز ١٠٦/٥.

(٤) الوسيط ١١٥/٤، والرازي ٣٢/٢٨ - ٣٣.

قلت: يَدلُّ على قوله ما في صحيح مسلم(١): عن جابر بن عبد الله الأنصاريِّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أعطِيتُ خمساً لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ قبلي، كان كلُّ نبيٍّ يُبعثُ إلى قومه خاصَّةً وبُعثت إلى كلِّ أحمرَ وأسْوَدَ، وأحِلَّت ليَ الغنائمُ ولم تُحَلّ لأحدٍ قبلي، وجُعلت ليَ الأرضُ طيِّبةً طهوراً ومسجداً، فأيُّمَا رَجُلٍ أدركته الصلاةُ صلَّى حيثُ كان، ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ بين يَدَيْ مسيرةِ شَهْرٍ، وأُعطِيتُ الشفاعةَ». قال مجاهد: الأحمرُ والأسود: الجنُّ والإنس(٢). وفي روايةٍ من حديث أبي هريرة: «وبُعثتُ إلى الخَلق كافةً، وخُتم بيَ النَّبيُّون»(٣).

﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالداعي، وهو محمدٌ ﷺ. وقيل: «به» أي: باللهِ؛ لقوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾. قال ابن عباس: فاستجاب لهم من قومهم سبعون رجلاً، فرجَعوا إلى النبيِّ ﷺ فوافقوه بالبطحاء؛ فقرَأ عليهم القرآنَ وأمرَهم ونهاهم.

مسألة: هذه الآي تدلُّ على أن الجِنَّ كالإنس في الأمر والنهي والثوابِ والعقاب(٤). وقال الحسن: ليس لمؤمني الجنِّ ثوابٌ غير نجاتهم من النار(٥)؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وبه قال أبو حنيفة قال: ليس ثوابُ الجِنِّ إلا أن يُجاروا من النار(٦)، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثلَ البهائم. وقال آخرون: إنهم كما يُعاقبون في الإساءة يُجازَوْن في الإحسان مثل الإنس.

---

(١) برقم (٥٢١)، وسلف ٤/ ٢٥٨ و٩/ ٣٢.

(٢) مسند أحمد (٢١٢٩٩).

(٣) صحيح مسلم (٥٢٣): (٥) وهو عند الإمام أحمد (٩٣٣٧).

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣١.

(٥) لم نقف عليه من قول الحسن، وأخرج البيهقي في البعث (١١٧) عن الحسن، عن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ: «إن مؤمني الجن لهم ثواب وعليهم عقاب» فسألناه عن ثوابهم وعن مؤمنيهم؟ فقال: «على الأعراف، وليسوا في الجنة مع أمة محمد ﷺ»... وفي إسناده: يوسف بن يزيد: صدوق ربما أخطأ، وعروة بن رويم: صدوق يرسل كثيراً. كذا في تقريب التهذيب.

قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم ٤/ ١٦٩: والصحيح أنهم يدخلونها [أي: الجنة] ويتنعمون فيها بالأكل والشرب وغيرهما. وهذا قول الحسن البصري وغيره...

(٦) الكشاف ٤/ ٥٢٧.

وإليه ذَهب مالكٌ والشافعيُّ وابن أبي ليلى. وقد قال الضحاك: الجِنُّ يَدخلون الجنة ويأكلون ويشربون[(١)]. قال القشيريُّ: والصحيح أن هذا مما لم يُقطع فيه بشيء، والعلمُ عند الله.

قلت: قوله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ يدلُّ على أنهم يُثابون ويَدخلون الجنةَ؛ لأنه قال في أوّل الآية: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾ إلى أن قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ [الأنعام: ١٣٠-١٣٢]. واللهُ أعلم؛ وسيأتي لهذا في سورة الرحمن[(٢)] مزيدُ بيانٍ إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يَفوت اللهَ ولا يَسبِقُه. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ أي: أنصارٌ يمنعونه من عذاب الله. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الرؤيةُ هنا بمعنى العِلْم. و«أنّ» واسمها وخبرها سدّت مسدَّ مفعولَي الرؤية. ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ احتجاجٌ على منكري البعثِ. ومعنى «لَمْ يَعْيَ»: يَعْجِز ويَضْعُف عن إبداعهنَّ. يقال: عَيَّ بأمره وعَيِيَ: إذا لم يهتدِ لوجهه[(٣)]؛ والإدغام أكثر. وتقول في الجمع: عَيُوا ـ مخففاً ـ وعَيّوا أيضاً؛ بالتشديد. قال:

(١) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٢٨/ ٣٣.

(٢) عند تفسير الآية (٤٦) منها.

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٩١ بنحوه.

عَـيُّـوا بِـأمـرهـمُ كـمَـا ... عَـيَّـتْ بـبـيـضـتـهـا الـحـمـامـه[١]

وعَيِيتُ بأمري: إذا لم تهتد لوجهه. وأعياني هو.

وقرأ الحسن: «وَلَمْ يَعْيَ» بكسر العين وإسكانِ الياء[٢]؛ وهو قليلٌ شاذٌّ، لم يأتِ إعلالُ العين وتصحيح اللام إلا في أسماء قليلة، نحو: غاية وآية. ولم يأت في الفعل سوى بيت أنشده الفرَّاءُ؛ وهو قول الشاعر:

فـكـأنـهـا بـيـن الـنـسـاء سَـبِـيـكَـةٌ ... تـمـشِـي بِـسُـدَّة بَـيْـتـهـا فـتُـعِـيُّ[٣]

﴿بِقَـٰدِرٍ﴾ قال أبو عبيدة والأخفشُ: الباء زائدة للتوكيد كالباء في قوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقوله: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠]. وقال الكسائيُّ والفرَّاءُ والزجَّاج: الباء فيه خَلَفُ الاستفهام والجحد في أوّل الكلام[٤]. قال الزجَّاج[٥]: والعرب تدخلها مع الجحد؛ تقول: ما ظننت أن زيداً بقائم. ولا تقول: ظننت أن زيداً بقائم. وهو لدخول «ما» ودخول «أنّ» للتوكيد. والتقديرُ: أليس اللهُ بقادر، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَـٰدِرٍ﴾ [يس: ٨١].

وقرأ ابن مسعود والأعرجُ والجَحدريُّ وابن أبي إسحاق ويعقوب: «يَقدر»[٦]

---

(١) البيت لعبيد بن الأبرص كما في أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٦٧ - ٦٨ ، والصحاح (عيي) ، وزهر الأكم ٢/ ١٩٠ ، وهو في ديوان عبيد ص ١٣٨ بلفظ :

بـرمـت بـنـو أسـدٍ كـمـا ... بَـرِمـت بـبـيـضـتـهـا الـحـمـامـه

ونسب لسلامة بن جندل، وهو في ديوانه ص٢٤٨ .

(٢) القراءات الشاذة ص ١٣٩ ، والمحتسب ٢/ ٢٦٩ .

(٣) البيت للحُطيئة كما في تاج العروس (عيي) ، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٣/ ٢٥٨ ، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٩ ، وقال أبو إسحاق النحوي - كما في تهذيب اللغة -: هذا غير جائز عند حذاق النحويين. وذكر أن البيت الذي استشهد به الفراء ليس بمعروف . وقال الأزهري : والقياس ما قال أبو إسحاق وكلام العرب عليه...

(٤) الوسيط ٤/ ١١٦ ، وينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢١٣ ، ومعاني الأخفش ٢/ ٦٩٤ ، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٥٦ .

(٥) في معاني القرآن له ٤/ ٤٤٧ بنحوه .

(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٥٥ ، وهي من العشرة. وعن الأعرج والجحدري وابن أبي إسحاق في تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٣ - ١٧٤ .

واختاره أبو حاتم؛ لأن دخول الباء في خبر «أنّ» قبيحٌ. واختار أبو عبيدة قراءةَ العامة؛ لأنها في قراءة عبد الله: «خَلَقَ السَّمَاواتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ» بغير باء[1]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: ذكِّرْهم يومَ يعرضون فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فيقول لهم المقرِّرُ: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: بكفركم.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ قال ابن عباس: ذوو الحزمِ والصبر[2].

قال مجاهد: هم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمدٌ عليهم الصلاة والسلام. وهم أصحاب الشرائع[3].

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٧٥، والكشاف ٣/ ٥٢٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٣٩٢ دون نسبة وذكره عن ابن عباس البغويُّ في تفسيره ٤/ ١٧٦ دون قوله: والصبر. وذكره عن الضحاك بلفظ: ذوو الجد والصبر.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٢ عن مجاهد وغيره، وذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن ابن عباس وقتادة، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن عطاء الخراساني. وهؤلاء الأنبياء الخمسة: هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧] وأشار إلى ذلك المصنف ثمة.

وقال أبو العالية: إن أولي العزم: نوح، وهود، وإبراهيم. فأمر اللهُ عزَّ وجل نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يكون رابعَهم. وقال السدّيُّ: هم ستة: إبراهيم، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى، ومحمدٌ؛ صلوات الله عليهم أجمعين[١].

وقيل: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، ولوط، وموسى، وهم المذكورون على النسق في سورة الأعراف والشعراء[٢].

وقال مقاتل: هم ستة: نوحٌ؛ صبرَ على أذى قومِه مدَّةً، وإبراهيم؛ صبر على النار، وإسحاق؛ صبر على الذبح، ويعقوب؛ صبر على فقد الولد وذهاب البصر. ويوسف؛ صبر على البئر والسجن. وأيوب؛ صبر على الضُّرِّ[٣].

وقال ابن جُريج: إن منهم إسماعيل ويعقوب وأيوب، وليس منهم يونس ولا سليمان ولا آدم[٤].

وقال الشعبيُّ والكلبيُّ ومجاهد أيضاً: هم الذين أُمِروا بالقتال، فأظهروا المكاشفةَ وجاهدوا الكفرة[٥]. وقيل: هم نجباءُ الرسل المذكورون في سورة الأنعام[٦]، وهم ثمانية عشر: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وداود، وسليمان، وأيوب، ويوسف، وموسى، وهرون، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس، وإسماعيل، واليسع، ويونس، ولوط. واختاره الحسن بن الفضل؛ لقوله في عقبه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[٧] [الأنعام: ٩٠].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٨٨، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٣) الوسيط ٤/ ١١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩، وزاد المسير ٧/ ٣٩٢.

(٥) ذكره الواحديُّ في الوسيط ٤/ ١١٦، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٧٦ عن الكلبي.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

وقال ابن عباس أيضاً: كلُّ الرسل كانوا أولي عزم[١]. واختاره عليُّ بن مهدي الطبريُّ، قال: وإنما دخلت «من» للتجنيس لا للتبعيض[٢]؛ كما تقول: اشتريتُ أرديةً من البَزِّ وأكسيةً من الخزِّ[٣]. أي: اصبر كما صَبَرَ الرسلُ. وقيل: كلُّ الأنبياء أولو عَزْمٍ إلا يونس بن متى[٤]؛ ألا ترى أن النبيَّ ﷺ نُهي أن يكون مثلَه؛ لخفَّةٍ وعَجَلةٍ ظهرت منه حين ولَّى مُغاضِباً لقومه[٥]، فابتلاه الله بثلاث: سلَّط عليه العمالقة حتى أغاروا على أهله وماله، وسلَّط الذئبَ على ولده فأكلَه، وسلَّط عليه الحوتَ فابتلعه؛ قاله أبو القاسم الحكيم.

وقال بعض العلماء: أولو العزم اثنا عشر نبيًّا أرسلوا إلى بني إسرائيل بالشام فعصَوهم، فأوحى اللهُ إلى الأنبياء: إني مرسلٌ عذابي إلى عصاة بني إسرائيل؛ فشقَّ ذلك على المرسلين، فأَوحى اللهُ إليهم: اختاروا لأنفسكم، إن شئتم أنزلتُ بكم العذابَ وأنجيتُ بني إسرائيل، وإن شئتم نجَّيتكم وأنزلتُ العذابَ ببني إسرائيل؛ فتشاوروا بينهم، فاجتمع رأيُهم على أن ينزل بهم العذاب، وينجي اللهُ بني إسرائيل[٦]؛ فأنجى الله بني إسرائيل وأنزَل بأولئك العذاب. وذلك أنه سلط عليهم ملوكَ الأرض؛ فمنهم من نُشر بالمناشير، ومنه من سُلِخَ جلدة رأسه ووجهه، ومنهم من صُلب على الخشب حتى مات، ومنهم من حُرِّق بالنار. والله أعلم.

وقال الحسن: أُولو العزم أربعة: إبراهيم، وموسى، وداود، وعيسى؛ فأما

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ١٧٧ عن ابن زيد.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦.

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٧ من قول أبي القاسم الحكيم، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٩٣ عن الثعلبي.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٦ بنحوه.

(٦) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٧.

إبراهيم فقيل له: ﴿أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، ثم ابتلِيَ في ماله وولده ووطنه ونفسه، فوجد صادقاً وافيًا في جميع ما ابتلي به. وأما موسى فعزمُه حين قال له قومه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ . قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]. وأما داود فأخطأ خطيئته فنُبِّه عليها، فأقام يبكي أربعين سنةً حتى نبتت من دموعه شجرة، فقعد تحت ظلِّها. وأما عيسى فعزمُه أنه لم يضع لَبِنة على لَبِنة وقال: إنها مَعْبَرةٌ، فاعبرُوها ولا تعمرُوها[١]. فكأن اللهَ تعالى يقولُ لرسوله ﷺ: اصبر، أي: كن صادقاً فيما ابتُليتَ به مثل صدق إبراهيم؛ واثقاً بنُصرة مولاك مثل ثقة موسى، مهتمًّا بما سلَف من هفواتك مثل اهتمام داود، زاهداً في الدنيا مثل زهد عيسى.

ثم قيل: هي منسوخة بآية السيف. وقيل: محكمة؛ والأظهر أنها منسوخة؛ لأن السورة مكيَّةٌ. وذكر مقاتل: أن هذه الآية نزَلت على رسول الله ﷺ يومَ أُحُد، فأمرَه الله عزَّ وجل أن يصبر على ما أصابه كما صبرَ أولو العزم من الرسل؛ تسهيلاً عليه وتثبيتاً له[٢]. والله أعلم.

﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ قال مقاتل: بالدعاء عليهم[٣]. وقيل: في إحلالِ العذاب بهم، فإن أبعدَ غاياتهم يومُ القيامة. ومفعولُ الاستعجال محذوفٌ، وهو العذاب[٤].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾ قال يحيى: من العذاب. النقَّاش: من الآخرة. ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ﴾ أي: في الدنيا حتى جاءهم العذاب، وهو مقتضى قول يحيى. وقال النقَّاش: في قبورهم حتى بُعثوا للحساب[٥]. ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ يعني في جنْب يومِ القيامة.

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٢٨، والرازي ٢٨/ ٣٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) تفسير الرازي ٢٨/ ٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

وقيل: نَسَّاهم هَوْلُ ما عاينوا من العذاب طولَ لَبثهم في الدنيا. ثم قال: ﴿بَلَٰغٌ﴾ أي: هذا القرآنُ بلاغ؛ قاله الحسن[١]. فـ«بلاغ» رفع على إضمار مبتدأ[٢]؛ دليله قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ﴾ [إبراهيم:٥٢]، وقوله: ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦]. والبلاغ بمعنى التبليغ. وقيل: أي: إن ذلك اللَّبث بلاغ؛ قاله ابن عيسى[٣]، فيوقف على هذا على «بلاغ» وعلى «نَهَارٍ». وذكر أبو حاتم: أن بعضهم وقف على «وَلَا تَسْتَعْجِلْ»، ثم ابتدأ: «لَهُمْ»؛ على معنى: لهم بلاغ. قال ابن الأنباريِّ: وهذا خطأ؛ لأنك قد فصَلت بين البلاغ وبين اللام ـ وهي رافعة ـ بشيء ليس منهما.

ويجوز في العربية: بلاغاً وبلاغٍ؛ النصب على معنى إلا ساعة بلاغاً، على المصدر أو على النعت للساعة. والخفض على معنى من نهارٍ بلاغ. وبالنصب قرأ عيسى بن عمر والحسن[٤]. ورُوي عن بعض القرَّاء: «بَلِّغْ» على الأمر؛ فعلى هذه القراءة يكون الوقف على «مِنْ نَهَارٍ» ثم يبتدئ: «بَلِّغْ»[٥].

﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون على أمر الله[٦]؛ قاله ابن عباس وغيره.

وقرأ ابن مُحَيْصن: «فَهَلْ يَهْلِكُ إلَّا الْقَوْمُ»[٧] على إسناد الفعل إلى القوم.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٥.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٨٩.

(٤) المحتسب ٢/ ٢٦٨، والقراءات الشاذة ص ١٤٠.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٩٤ – ٨٩٥، وقراءة «بلِّغ» ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٠، وابن جني في المحتسب ٢/ ٢٦٨ من قراءة أبي مجلز وسراج.

(٦) الوسيط ٤/ ١١٧، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٧ دون نسبة.

(٧) القراءات الشاذة ص ١٤٠، والمحتسب ٢/ ٢٦٨.

وقال ابن عباس: إذا عَسِرَ على المرأة وَلَدُها؛ تكتب هاتين الآيتين والكلمتين في صحيفة، ثم تُغسَل وتُسقى منها، وهي: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لا إله إلا اللهُ العظيمُ الحليم الكريم، سبحان الله ربِّ السماوات وربِّ الأرض وربِّ العرش العظيم، ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[1] صدق الله العظيم.

وعن قتادة: لا يُهلك الله إلا هالكاً مشركاً[2]. وقيل: هذه أقوى آية في الرجاء[3].

والله أعلم.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٢٧ وإسناده ضعيف.

(٢) في (د) و(ظ): لا يهلك إلا هالك مشرك. وذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١١٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٧٨ بنحوه.

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٨ عن الثعلبي.

سورة القتال، وهي سورة محمد ﷺ

مدنية في قول ابن عباس؛ ذكره النحاس[١].

وقال الماوردي[٢]: [مدنية] في قول الجميع إلا ابن عباس وقتادة فإنَّهما قالا: إلا آيةً منها نزلت عليه بعد حَجَّة الوداع حين خرج من مكة، وجعل ينظر إلى البيت وهو يبكي حُزناً عليه؛ فنزل عليه ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ﴾ [محمد: ١٣].

وقال الثعلبيّ: إنَّها مكية؛ وحكاه ابن هبة الله عن الضحَّاك وسعيد بن جبير. وهي تسع وثلاثون آية. وقيل: ثمان[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ①﴾

قال ابن عباس ومجاهد: هم أهلُ مكةَ؛ كفروا بتوحيد الله[٤]، وصدّوا أنفسَهم والمؤمنين عن دين الله ـ وهو الإسلام ـ بنهيهم عن الدخول فيه، وقاله السدّي. وقال الضحاك: «عَنْ سَبِيلِ اللهِ»: عن بيت الله بمنع قاصديه[٥].

ومعنى «أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ»: أبطلَ كيدَهم ومكرهم بالنبيّ ﷺ، وجعل الدائرة عليهم. قاله الضحاك[٦]. وقيل: أبطل ما عملوه في كفرهم مما كانوا يسمونه مكارم؛ من صلة الأرحام، وفَكِّ الأسارى، وقِرَى الأضياف، وحفظ الجوار[٧].

---

(١) في الناسخ والمنسوخ له ٣/ ٤ .

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ ، وما بين حاصرتين منه.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٢٩ .

(٤) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٣٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٠ .

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٢٩-٥٣٠ .

وقال ابن عباس: نزلت في المُطعِمِين ببدر، وهم اثنا عشر رجلاً: أبو جهل، والحارث بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأُبيّ وأُميّة ابنا خَلَف، ومُنَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجَّاج، وأبو البَخْتَري بن هشام، وزَمْعةُ بن الأسود، وحكيمُ بن حزام، والحارثُ ابن عامر بن نوفل(١).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: هم الأنصار. وقال مقاتل: إنَّها نزلت خاصة في ناسٍ من قريش(٢). وقيل: هما عامّتان فيمن كفر وآمن(٣).

ومعنى «أَضَلَّ أعْمَالَهُمْ»: أبطلَها. وقيل: أضلَّهم عن الهدى بما صرفهم عنه من التوفيق(٤).

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من قال: إنَّهم الأنصار، فهي المواساة في مساكنهم وأموالهم. ومن قال: إنَّهم من قريش، فهي الهجرة(٥). ومن قال بالعموم، فالصالحات جميع الأعمال التي ترضي الله تعالى.

﴿وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ﴾: لم يخالفوه في شيء. قاله سفيان الثوري(٦). وقيل: صدّقوا محمداً ﷺ فيما جاء به. ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ يريد أنَّ إيمانَهم هو الحقُّ من

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٢٩١، وفيه «الوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط» بدل «الحارث بن هشام، وأبيّ بن خلف».

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١ دون ذكر مجاهد، وذكر قوله ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٠٩.

(٣) بنحوه في الكشاف ٣/ ٥٣٠.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٥) المصدر السابق.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٧٧.

ربهم. وقيل: أي: إنَّ القرآن هو الحقُّ من ربهم[١]، نَسَخَ به ما قبلَه ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي: ما مضى من سيئاتهم قبل الإيمان.

﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: شأنَهم؛ عن مجاهد وغيره. وقال قتادة: حالَهم. ابن عباس: أمورَهم. والثلاثة متقاربة، وهي متأوّلة على إصلاح ما تعلق بدنياهم. وحكى النقاشُ أنَّ المعنى: أصلح نياتِهم؛ ومنه قول الشاعر:

فإن تُقبلي بالودِّ أقبِلْ بمثله وإن تُدبري أذهبْ إلى حالٍ باليا[٢]

وهو على هذا التأويل[٣] محمول على إصلاح دينهم[٤].

«والبال» كالمصدر، ولا يعرف منه فعل، ولا تجمعه العربُ إلا في ضرورة الشِّعر فيقولون فيه: بالات[٥].

المبرِّد: قد يكون البال في موضع آخر بمعنى القلب؛ يقال: ما يخطر فلان على بالي، أي: على قلبي[٦].

الجوهري[٧]: والبال رخاءُ النفس؛ يقال: فلان رخيّ البال. والبال: الحال؛ يقال: ما بالك؟ وقولهم: ليس هذا من بالي، أي: مما أباليه. والبال: الحوتُ العظيمُ من حيتان البحر، وليس بعربيّ. والبالة: وعاء الطِّيب؛ فارسي معرَّب، وأصله بالفارسية بيله. قال أبو ذؤيب:

كأنَّ عليها بالةً لَطَمِيَةً لها من خلال الدَّأيتَيْنِ أريجُ[٨]

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩١-٢٩٢، والبيت أيضاً في أمالي الزجاجي ص١٦١ غير منسوب.

(٣) في (م): التأول.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٢.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١١٠، وفيه: البال: مصدر، كالحال والشأن.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨.

(٧) في الصحاح (بول).

(٨) البيت في ديوان الهذليين ص٥٩. اللطميّة: أو: اللطيمة: هي العنبرة التي لُطِمت بالمسك، فتفتّقت =

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ «ذلِك» في موضع رفع، أي: الأمر ذلك، أو ذلك الإضلال والهدى المتقدم ذكرهما سببُه هذا[١]. فالكافر اتّبع الباطل، والمؤمن اتّبع الحقّ. والباطل: الشرك. والحقّ: التوحيد والإيمان. ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ﴾ أي: كهذا البيان الذي بُيّن؛ يُبيّن الله للناس أمر الحسنات والسيئات[٢]. والضمير في «أَمْثَالَهُمْ» يرجع إلى الذين كفروا والذين آمنوا[٣].

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ لـمَّا ميّز بين الفريقين؛ أمرَ بجهاد الكفار.

قال ابن عباس: الكفار المشركون عبدةُ الأوثان. وقيل: كلُّ من خالف دينَ الإسلام من مشركٍ أو كتابيٍّ إذا لم يكن صاحبَ عهد ولا ذِمّة. ذكره الماوردي[٤]، واختاره ابن العربيّ[٥] وقال: وهو الصحيح لعموم الآية فيه.

= به حتى نشبت رائحتها. الدأي: ضلوع الصدر في ملتقاه وملتقى الجنب. الأريج: الريح الطيبة. اللسان (لطم) (دأي) (أرج).

(١) أي: تكون «ذلك» إما في موضع رفع خبر، على إضمار مبتدأ، أي: الأمر ذلك، أو في موضع رفع بالابتداء، وما بعده خبره. إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٨ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٣) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٣ .

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٣ .

(٥) في أحكام القرآن له ٤/ ١٦٨٨ .

«فَضَرْبَ الرِّقَابِ» مصدر[١]. قال الزجَّاج[٢]: أي: فاضربوا الرِّقاب ضرباً.

وخصّ الرِّقاب بالذِّكر؛ لأنَّ القتلَ أكثر ما يكون بها[٣]. وقيل: نصب على الإغراء[٤]. قال أبو عبيدة[٥]: هو كقولك: يا نفسُ صبراً.

وقيل: التقدير: اقصدوا ضرب الرقاب[٦].

وقال: «فَضَرْبَ الرِّقَابِ» ولم يقل: فاقتلوهم؛ لأنَّ في العبارة بضرب الرِّقاب من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل؛ لِما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة؛ وهو حزُّ العنق وإطارةُ العضو الذي هو رأس البدن وعُلوه وأوْجَهُ أعضائه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: أكثرتُم القتل. وقد مضى في «الأنفال» عند قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الأنفال: ٦٧][٨]. ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ أي: إذا أسرتُموهم. والوَثاق اسم من الإيثاق، وقد يكون مصدراً؛ يقال: أوثقتُه إيثاقاً ووَثاقاً[٩].

وأما الوِثاق ـ بالكسر ـ فهو اسم الشيء الذي يوثَق به؛ كالرِّباط. قاله القشيري.

وقال الجوهَري[١٠]: وأوثقه في الوِثاق، أي: شدّه، وقال تعالى: «فَشُدُّوا الوَثَاقَ». والوِثاق ـ بكسر الواو ـ لغة فيه.

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ .

(٢) في معاني القرآن له ٥/ ٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦١ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩ ـ ونسب القول فيه للفراء ـ وتفسير البغوي ٤/ ١٧٨ .

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢١٤ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٨٨ .

(٧) الكشاف ٣/ ٥٣٠ .

(٨) ١٠/ ٧٤ .

(٩) الوسيط ٤/ ١١٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٧ .

(١٠) في الصحاح (وثق).

وإنما أمر بشدّ الوَثاق لئلا يُفلِتوا. ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا﴾ عليهم بالإطلاق من غير فِدْية ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾[1]. ولم يذكر القتل هاهنا؛ اكتفاءً بما تقدّم من القتل في صدر الكلام.

و«مَنًّا» و«فِدَاءً» نصب بإضمار فعل. وقرئ: «فَدًى» بالقصر مع فتح الفاء، أي: فإما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا، وإما أن تفادوهم فِداءً[2].

روي عن بعضهم أنَّه قال: كنت واقفاً على رأس الحجَّاج حين أُتيَ بالأسرى من أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث وهم أربعة آلاف وثمانُ مئة، فقتل منهم نحواً من ثلاثة آلاف حتى قدم إليه رجل من كِندة فقال: يا حجَّاج، لا جازاك الله عن السنّة والكرم خيراً! قال: ولم ذلك؟ قال: لأنَّ الله تعالى قال: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ في حقّ الذين كفروا، فوالله ما مَنَنْتَ ولا فَدَيتَ! وقد قال شاعركم فيما وصف به قومَه من مكارم الأخلاق:

ولا نَقتلُ الأسرى ولكن نفكُّهم ... إذا أثقلَ الأعناقَ حملُ المغارِمِ[3]

فقال الحجَّاج: أفٍّ لهذه الجِيَف! أمَا كان فيهم مَنْ يحسن مثل هذا الكلام؟! خَلُّوا سبيل من بقي. فخُلِّيَ يومئذ عن بقية الأسرى ـ وهم زهاء ألفين ـ بقول ذلك الرجل[4].

الثالثة: واختلف العلماء في تأويل هذه الآية على خمسة أقوال:

الأوّل: أنها منسوخةٌ، وهي في أهل الأوثان، لا يجوز أن يفادَوا ولا يُمَنَّ عليهم. والناسخُ لها عندهم قولُه تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[5]

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٧٨ بنحوه.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣١، وتفسير الرازي ٢٨/ ٤٤، وذكر قراءة: فَدًى، الزمخشري، وهي قراءة شاذة.

(٣) البيت للفرزدق كما في طبقات فحول الشعراء ٢/ ٤٠٢، والأغاني ١٥/ ٣٤٣.

(٤) القصة مختصرة في العقد الفريد ٢/ ١٧٤ ورواية البيت فيه: (القلائد) بدل: (المغارم)، وبهجة المجالس ١/ ٩٩، ووقع في وفيات الأعيان لابن خلّكان ٢/ ٣٩ أنّه رجل من بني تميم.

(٥) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥.

[التوبة: ٥] وقولُه: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧] وقولُه: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦] الآية. قاله قتادة والضحاك والسُّدّي وابنُ جُرَيج والعَوْفي عن ابن عباس، وقاله كثير من الكوفيين(١).

وقال عبد الكريم الجَزَري(٢): كُتب إلى أبي بكر في أسير أسِر، فذكروا أنَّهم التمسوه بفداء كذا وكذا، فقال: اقتلوه، لَقَتْلُ رجلٍ من المشركين أحبّ إليّ من كذا وكذا(٣).

الثاني: أنها في الكفار جميعاً. وهي منسوخة على قول جماعة من العلماء وأهل النظر، منهم قتادة ومجاهد. قالوا: إذا أُسِر المشركُ، لم يجز أن يُمَنَّ عليه، ولا أن يفادى به فيردّ إلى المشركين، ولا يجوز أن يفادى عندهم إلا بالمرأة؛ لأنَّها لا تُقتل. والناسخ لها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] إذ كانت «براءة» آخر ما نزلت بالتوقيف؛ فوجب أن يُقتل كل مشرك إلا من قامت الدلالة على تركه من النساء والصبيان ومن تؤخذ منه الجِزية(٤) ـ وهو المشهور من مذهب أبي حنيفة(٥) ـ خيفة أن يعودوا حَرْباً للمسلمين.

ذكر عبد الرّزاق أخبرنا معمر عن قتادة ﴿فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ قال: نسخها: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٧]. وقال مجاهد: نسخها: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]. وهو قول الحكَم.(٦)

الثالث: أنها ناسخة. قاله الضحاك وغيره. روى الثوري عن جُوَيبِر عن الضحاك:

---

(١) تفسير الطبري ٢١/ ١٨٣-١٨٥ .

(٢) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الجوزي، والمثبت من باقي النسخ، وهو الصواب.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٠ ، والطبري في تفسيره ٢١/ ١٨٤ ، وذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٠ .

(٤) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٢/ ٤٢٤ ، ٣/ ٧ .

(٥) ينظر أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٠ .

(٦) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠ ، وأثر قتادة في تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٢١ .

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] قال: نسخها ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾. وقال ابن المبارك عن ابن جُرَيج عن عطاء: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإمَّا فِدَاءً» فلا يُقتل المشرك ولكن يُمَنّ عليه ويُفادى؛ كما قال الله عزَّ وجلَّ. قال الأشعث: كان الحسن يكره أن يقتل الأسير، ويتلو: «فَإِمَّا مَنًّا بَعدُ وإمَّا فِدَاءً»(١).

وقال الحسن أيضاً: في الآية تقديم وتأخير؛ فكأنه قال: فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها. ثم قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ﴾. وزعم أنَّه ليس للإمام إذا حصل الأسير في يديه أن يقتله، لكنه بالخيار في ثلاثة منازل: إما أن يَمُنّ، أو يُفادى، أو يسترقّ(٢).

الرابع: قول سعيد بن جُبَير: لا يكون فداءٌ ولا أسر إلا بعد الإثخان والقتل بالسيف؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]. فإذا أُسِر بعد ذلك، فللإمام أن يحكمَ بما رآه من قتل أو غيره(٣).

الخامس: أنَّ الآية محكمة، والإمام مخيَّر في كل حال(٤)؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس(٥)، وقاله كثير من العلماء؛ منهم ابن عمرَ والحسن وعطاء، وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ والثوريِّ والأوزاعيِّ وأبي عبيد وغيرهِم، وهو الاختيار؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ والخلفاءَ الراشدين فعلوا كلَّ ذلك(٦)؛ قَتَل النبيُّ ﷺ عُقبة بنَ أبي مُعَيط والنضرَ بنَ الحارث يوم بدر صَبْرًا(٧)، وفادى سائر أسارى بدر، ومنَّ على أبي عروة

(١) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٠-١١.
(٢) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤.
(٣) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٥، ١١.
(٤) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٥.
(٥) أخرجه أبو عبيد في الأموال ص١٧٠ (٣٤٢)، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢.
(٦) الأوسط لابن المنذر ١١/ ٢٢٤-٢٢٧، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٧٨.
(٧) سلف ١٠/ ٢٣.

الجمحي[١]، وقتل بني قريظة وقد نزلوا على حكم سعد وصاروا في يده سِلْماً[٢]. ومَنَّ على ثُمامة بن أُثَال الحنفي وهو أسير في يده[٣]، وأخذ من سلمة بن الأكوع جاريةً ففدى بها أناساً من المسلمين[٤]، وهبط عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ قوم من أهل مكة، فأخذهم النبيُّ ﷺ وقد منّ عليهم، وقد منّ على سَبي هوازن[٥]. وهذا كلُّه ثابت في الصحيح، وقد مضى جميعه في «الأنفال»[٦] وغيرها.

قال النحاس[٧]: وهذا على أنَّ الآيتين محكمتان معمول بهما، وهو قولٌ حسن؛ لأنَّ النسخ إنما يكون لشيء قاطع، فإذا أمكن العمل بالآيتين فلا معنى للقول بالنسخ، إذ كان يجوز أن يقع التعبُّد، إذا لقينا الذين كفروا قتلناهم، فإذا كان الأسر؛ جاز القتل والاسترقاق والمفاداة والمنّ على ما فيه الصلاح للمسلمين. وهذا القول يروى عن أهل المدينة والشافعي وأبي عبيد.

وحكاه الطحاوي مذهباً عن أبي حنيفة، والمشهورُ عنه ما قدّمناه[٨]، وبالله عزَّ وجلَّ التوفيق.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَاۚ﴾ قال مجاهد وابن جبير: هو خروج عيسى عليه السلام[٩]. وعن مجاهد أيضاً: أن المعنى حتى لا يكون دينٌ إلا دين

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣١ وفيه (الحجبي) بدل (الجمحي).

(٢) من قوله: «ومنّ على أبي عروة» إلى قوله: «في يده سلماً». من (خ) و(د) و(ظ) و(ف). وحكم سعد في بني قريظة سلف ٦/ ٦٣ . ووقع في (د) «وقتل من قريظة» بلد «وقتل بني قريظة».

(٣) سلف ٢/ ٤٢٢ .

(٤) أخرجه أحمد (١٦٥٠٢)، ومسلم (١٧٥٥) مطولاً.

(٥) سلف ١٠/ ١١ .

(٦) ١٠/ ٧١ فما بعدها.

(٧) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٢ .

(٨) الكشاف ٣/ ٥٣١ .

(٩) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٣ ، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٧ .

الإسلام، فَيُسْلِم كل يهوديّ ونصرانيّ وصاحب مِلّة، وتأمن الشاة من الذئب[١]. ونحوه عن الحسن والكلبي والفرّاء[٢] والكسائي. قال الكسائي: حتى يُسْلِم الخلق.

وقال الفرّاء: حتى يؤمنوا ويذهب الكفر. وقال الكلبي: حتى يظهر الإسلام على الدِّين كلِّه[٣]. وقال الحسن: حتى لا يعبدوا إلا الله.

وقيل: معنى الأوزار السلاح؛ فالمعنى: شدّوا الوثاق حتى تأمنوا وتضعوا السلاح[٤].

وقيل: معناه حتى تضع الحرب؛ أي: الأعداءُ المحاربون أوزارَهم[٥]؛ وهو سلاحهم بالهزيمة أو الموادعة[٦]. ويقال للكراع: أوزار. قال الأعشى:

وأعددْت للحرب أوزارَها ... رماحاً طِوَالاً وخَيْلاً ذُكُورا

ومِن نَسْج داودَ يحدى بها ... على أثر الحيِّ عِيراً فعِيرا[٧]

وقيل: «حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا» أي: أثقالها. والوِزر: الثقل، ومنه وزير الملك؛ لأنَّه يتحمّل عنه الأثقالَ. وأثقالها: السلاح؛ لثقل حملها[٨].

قال ابن العربي[٩]: قال الحسن وعطاء: في الآية تقديم وتأخير؛ المعنى:

---

(١) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٧٤-٣٧٥، وقول مجاهد أيضاً في تفسيره ٢/ ٥٩٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ١٨٨.

(٢) في معاني القرآن له ٣/ ٥٧-٥٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٤ بنحوه.

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٥.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٧) تفسير غريب القرآن ص٤٠٩، والبيتان في ديوان الأعشى ص١٤٩، ورواية البيت الثاني فيه:

ومن نَسْجِ داودَ موضونة ... تُساق مع الحيِّ عيراً فعيرا

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٩٣.

(٩) في أحكام القرآن ١٦٩١ - ١٦٩٢.

فضرب الرِّقاب حتى تضع الحربُ أوزارَها، فإذا أثخنتموهم فشدّوا الوَثاق، وليس للإمام أن يقتل الأسير. وقد روي عن الحجّاج أنه دفع أسيراً إلى عبد الله بن عمر ليقتله، فأبى وقال: ليس بهذا أمرنا الله، وقرأ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾. قلنا: قد قاله رسولُ الله ﷺ وفعله[(١)]، وليس في تفسير الله للمنّ[(٢)] والفداء منع من غيره، فقد بيّن الله في الزنى حكم الجلد، وبيّن النبيّ ﷺ حكم الرجم، ولعلَّ ابنَ عمر كره ذلك من يد الحجاج فاعتذر بما قال، وربك أعلم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾ «ذَلِكَ» في موضع رفع على ما تقدّم، أي: الأمر ذلك الذي ذكرت وبينت[(٣)]. وقيل: هو منصوب على معنى افعلوا ذلك[(٤)]. ويجوز أن يكون مبتدأ، المعنى: ذلك حكمُ الكفار. وهي كلمة يستعملها الفصيح عند الخروج من كلام إلى كلام، وهو كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص:٥٥]. أي: هذا حقٌّ وأنا أعرّفكم أنَّ للظالمين كذا.

ومعنى: «لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ» أي: أهلكهم بغير قتال[(٥)]. وقال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة[(٦)]. ﴿وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ﴾ أي: أمركم بالحرب ليبلُوَ ويختبرَ بعضَكم ببعض، فيعلم المجاهدِين والصابرين، كما في السورة نفسِها[(٧)]. ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يريد قتلى أُحُد من المؤمنين ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ قراءة العامة: «قاتلوا» وهي اختيار أبي عبيد. وقرأ أبو عمرو وحفص: «قُتِلوا» بضم القاف وكسر التاء[(٨)]،

---

(١) سلف ١٠/ ٧٣.

(٢) في النسخ الخطية (لكم) بدل (للمنّ)، وهي نسخة من أحكام القرآن كما في حواشيه، والمثبت من (م) والأحكام.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٧٩.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٦) نسب القول في النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ للكلبي.

(٧) الآية ٣١، وينظر الكشاف ٣/ ٥٣١.

(٨) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

وكذلك قرأ الحسن إلا أنه شدّد التاء على التكثير[١]. وقرأ الجَحْدرِيّ وعيسى بن عمر وأبو حَيْوة: «قَتَلُوا» بفتح القاف والتاء من غير ألف[٢]؛ يعني الذين قتلوا المشركين.

قال قتادة: ذكر لنا أنَّ هذه الآية نزلت يوم أُحُد ورسولُ الله ﷺ في الشِّعب، وقد فَشَت فيهم الجراحات والقتل[٣]، وقد نادى المشركون: اعْلُ هُبَلُ. ونادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ. وقال المشركون: يومٌ بيوم بَدر والحرب سِجال. فقال النبي ﷺ: «قولوا: لا سواء. قتلانا أحياءٌ عند ربهم يرزقون، وقتلاكم في النار يعذَّبون». فقال المشركون: إنَّ لنا العُزّى ولا عُزَّى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم. وقد تقدّم ذكر ذلك في «آل عمران»[٤].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۞﴾

قال القشيري: قراءة أبي عمرو: «قُتِلوا» بعيدة؛ لقوله تعالى: «سَيَهْدِيهِم وَيُصْلِحُ بالَهُمْ» والمقتول لا يوصف بهذا. قال غيره: يكون المعنى سيهديهم إلى الجنة، أو سيهدي من بقي منهم. أي: يحقّق لهم الهداية. وقال ابن زياد: سيهديهم إلى محاجّة منكر ونكير في القبر[٥].

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية والمراد بها إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق المُفْضية إليها؛ من ذلك قوله تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ . سَيَهْدِيهِمْ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلكوهم إليها[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص١٤٠ .

(٢) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٧٩ ، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ١٩٠-١٩١ .

(٤) ٥/ ٣٥٨ - ٣٥٩ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤ .

(٦) في (م) و(ق): فاسلكوا بهم إليها، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ١/ ٧٣ وكلام أبي المعالي منه.

قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۝٦﴾

أي: إذا دخلوها يقال لهم: تفرّقوا إلى منازلكم، فهم أعرفُ بمنازلهم من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم. قال معناه مجاهد وأكثر المفسرين[١]. وفي البخاري[٢] ما يدل على صحة هذا القول عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يَخْلُص المؤمنون من النار، فيُحبسون على قنطرةٍ بين الجنَّة والنار [فيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالمُ كانت بينهم في الدنيا] حتى إذا هُذِّبُوا ونُقُّوا، أُذِن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفسُ محمد بيده لَأَحدُهم أهْدى بمنزله في الجنة [منه] بمنزلِه كان[٣] في الدنيا».

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: بيّنها لهم حتى عرفوها من غير استدلال[٤].

قال الحسن: وصف الله تعالى لهم الجنةَ في الدنيا، فلما دخلوها عرفوها بصفتها[٥]. وقيل: فيه حذف، أي: عَرَّف طرقَها ومساكنَها وبيوتَها لهم، فحذف المضاف.

وقيل: هذا التعريف بدليل، وهو المَلَك الموكَّل بعمل العبد يمشي بين يديه[٦] ويتبعه العبد حتى يأتي العبدُ منزلَه، ويعرّفه المَلَك جميع ما جُعل له في الجنة. وحديث أبي سعيد الخُدْريّ يردّه.

وقال ابن عباس: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: طيّبها لهم بأنواع الملاذّ؛ مأخوذ من العَرْف،

(١) الوسيط ٤/ ١٢١ دون ذكر مجاهد، وينظر قوله في الكشاف ٣/ ٥٣٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٩٨ .

(٢) في صحيحه (٦٥٣٥) وما سيأتي بين حاصرتين منه، وسلف عند تفسير الآية (٧٣) من سورة الزمر. القنطرة: الجسر. اللسان (قنطر).

(٣) لفظة «كان» ليست في (م).

(٤) الوسيط ٤/ ١٢١ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٤-٢٩٥ .

(٦) تفسير الرازي ٢٨/ ٤٨ بنحوه.

وهو الرائحة الطيبة. وطعام مُعَرَّف، أي: مطيّب[١]، تقول العرب: عرّفت القِدر: إذا طيبتَها بالملح والأبزار[٢].

وقال الشاعر يخاطب رجلاً ويمدحه:

عَـرُفْـتَ كـإتْـبٍ عـرّفـتـه الـلّـطـائـمُ

يقول[٣]: كما عَرُف الإتْب، وهو البَقِير والبَقِيرة، وهو قميص لا كمّينِ[٤] له، تلبسه النساء[٥].

وقيل: هو من وضع الطعام بعضه على بعض من كثرته، يقال: خزير[٦] معرّف، أي: بعضه على بعض، وهو من العُرْف المتتابع كعُرف الفرس.

وقيل: «عَرَّفَهَا لَهُمْ» أي: وفّقهم للطاعة حتى استوجبوا الجنة. وقيل: عرّف أهل السماء أنّها لهم؛ إظهاراً لكرامتهم فيها. وقيل: عرّف المطيعين أنها لهم.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ أي: إن تنصروا دين الله ينصركم على الكفار. نظيره: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠] وقد تقدّم[٧].

وقال قُطْرُب: إن تنصروا نبيّ الله ينصركم الله، والمعنى واحد.

﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ أي: عند القتال. وقيل: على الإسلام. وقيل: على الصراط.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢١، وتفسير البغوي ٤/ ١٧٩.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٢ بنحوه.

(٣) في (م): يقوله.

(٤) في النسخ الخطية: كمّي.

(٥) الصحاح (عرف) (بقر). اللطائم: ـ جمع لطيمة ـ قطعة مسك. اللسان (لطم).

(٦) في النسخ حرير، والمثبت من تهذيب اللغة ٢/ ٣٤٥، والكلام منه. والخزير: اللحم الغابّ يؤخذ فيقطع صغاراً في القدر، ثمّ يطبخ بالماء الكثير والملح. اللسان (خزر).

(٧) ١٤/ ٤١٢.

وقيل: المراد تثبيت القلوب بالأمن[١]؛ فيكون تثبيتُ الأقدام عبارةً عن النصر والمعونة في موطن الحرب[٢].

وقد مضى في «الأنفال» هذا المعنى[٣]. وقال هناك: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢] فأثبت هناك واسطة ونفاها هنا، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم نفاه بقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢] ومثله كثير؛ فلا فاعل إلا الله وحدَه.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل الرفع على الابتداء، والنصب بما يفسره «فَتَعْسًا لَّهُمْ» كأنه قال: أتْعَسَ الذين كفروا[٤].

و«تَعْسًا لهم» نصب على المصدر بسبيل الدعاء. قاله الفرّاء[٥]، مثل: سَقْيًا له ورَعيًا.

وهو نقيض: لَعًا له. قال الأعشى:

فالتَّعْس أوْلَى لها من أن أقول لَعَا[٦]

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥.

(٢) المحرر الوجيز ٢/ ٥٠٧.

(٣) ٩/ ٤٦٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) نقله عنه البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٠.

(٦) الكشاف ٤/ ٥٣٢، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥٣، ودرة الغواص للحريري ص١١٠ وروايتهما (أدنى) بدل (أولى) وصدره: بذات لَوْث عَفَرْناةٍ إذا عثرت. اللوث بالفتح: القوة، وناقة عفرناة، أي: قوية. اللسان (لوث) (عفر). قال في درة الغواص: العرب تقول في الدعاء على العاثر: تعساً له وفي الدعاء له: لعاً.

وفيه عشرة أقوال: الأوّل: بُعْدًا لهم. قاله ابن عباس وابن جريج[١]. الثاني: خزياً لهم[٢]. قاله السدي. الثالث: شقاء لهم. قاله ابن زيد. الرابع: شَتماً لهم من الله. قاله الحسن. الخامس: هلاكاً لهم. قاله ثعلب. السادس: خَيْبَةً لهم. قاله الضحاك وابن زيد. السابع: قبحاً لهم. حكاه النقاش. الثامن: رغماً لهم. قاله الضحاك أيضاً[٣]. التاسع: شَرًّا لهم. قاله ثعلب أيضاً[٤]. العاشر: شقوة لهم. قاله أبو العالية[٥].

وقيل: إنَّ التَّعس الانحطاطُ والعِثار[٦].

قال ابن السِّكّيت: التعس أن يَخِرّ على وجهه[٧]. والنَّكْس أن يَخِرّ على رأسه. قال: والتعس أيضاً الهلاك[٨].

قال الجوهري[٩]: وأصله الكَبّ، وهو ضدّ الانتعاش، وقد تَعَس ـ بفتح العين ـ يَتْعَس تَعْساً، وأتعسه الله. قال مُجَمّع بن هلال[١٠]:

تقول وقد أفرَدْتُها من حَلِيلها[١١] تَعَسْتَ كما أتْعَسْتَني يا مُجَمِّعُ[١٢]

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٢) في (م) و(ز) و(ق): حزناً لهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ والكلام منه.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ وفيه: (سقوطاً) بدل (شقوة).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٥ .

(٧) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٢ ، ونسبه في تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ للرُّستُمي.

(٨) تهذيب اللغة ٢/ ٧٨ ، ومعاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٦٨ .

(٩) في الصحاح (تعس).

(١٠) هو مجمّع بن مالك بن هلال، شاعر جاهلي. معجم الشعراء ص٤٣٨ .

(١١) في (م) و(ق) خليلها، والمثبت من باقي النسخ.

(١٢) البيت في درة الغواص ص١١٠ ، والخزانة ١٠/ ٤٠٣ .

يقال: تعساً لفلان، أي: ألزمه الله هلاكاً[١]. قال القُشَيرِي: وجوّز قوم تعِس بكسر العين.

قلت: ومنه حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس عَبدُ الدينار والدرهم والقَطِيفة والخَمِيصة، إن أُعطيَ رَضيَ، وإنْ لم يُعْطَ لم يرض» خرّجه البخاري[٢]. في بعض طرق هذا الحديث: «تَعِس وانتكس، وإذا شِيك فلا انْتَقَش» خرّجه ابن ماجه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: أبطلها؛ لأنّها كانت في طاعة الشيطان[٤]. ودخلت الفاء في قوله: «فَتَعْساً» لأجل الإبهام الذي في «الَّذينَ»، وجاء «وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ» على الخبر حملاً على لفظ الذين؛ لأنّه خبر في اللفظ، فدخول الفاء حملاً على المعنى، «وأضلّ» حَملاً على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾

أي: ذلك الإضلال والإتعاس[٥]؛ لأنّهم ﴿كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من الكتب والشرائع. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: مالهم من صور الخيرات، كعمارة المسجد وقِرى الضيف وأصناف القُرَب، ولا يَقبَل الله العملَ إلا من مؤمن. وقيل: أحبط أعمالهم، أي: عبادة الصنم.

---

(١) الصحاح (تعس).

(٢) في صحيحه (٢٨٨٦). قوله: القطيفة كساء له خَمْل؛ والخميصة: ثوب من خزّ أو صوف مُعْلَم، وكانت من لباس الناس قديماً. النهاية (قطف) (خمص).

(٣) في سننه (٤١٣٦)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٢٨٨٧) قوله: «انتكس» أي: انقلب على رأسه، وهو دعاءٌ عليه بالخيبة، وقوله: «وإذا شيك فلا انتقش» أي: إذا دخلتْ فيه شوكة، لا أخرجها من موضعها وهو دعاء عليه أيضاً. النهاية (نقش) (نكس).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٥) الوسيط ٤/ ١٢١ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾﴾

بيَّنَ أحوالَ المؤمن والكافر تنبيهاً على وجوب الإيمان، ثمَّ وصل هذا بالنظر؛ أي: ألم يَسِرْ هؤلاء في أرض عاد وثمود وقوم لوط وغيرهم ليعتبروا بهم ﴿فَيَنظُرُوا﴾ بقلوبهم ﴿كَيْفَ كَانَ﴾ آخِرُ أمر الكافرين قبلهم ﴿دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أهلكهم واستأصلهم.

يقال: دمّره تدميراً ودمّر عليه، بمعنىً[1].

ثم توعّد مشركي مكةَ فقال: ﴿وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾[2] أي: أمثالُ هذه الفَعْلة[3]؛ يعني التدمير.

وقال الزَّجّاج والطبري: الهاء تعود على العاقبة؛ أي: وللكافرين من قريش أمثالُ عاقبة تكذيب الأمم السالفة إن لم يؤمنوا[4].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾﴾

أي: وليُّهم وناصرُهم[5].

وفي حرف ابن مسعود: «ذَلِكَ بِأنَّ اللهَ وَليُّ الَّذينَ آمَنُوا». فالمولى: الناصر هاهنا. قاله ابن عباس وغيره. قال:

فَغدَت كِلاَ الفَرجَيْنِ تحسبُ أنه   مَولَى المخافة خَلْفُها وأمامُها[6]

(١) الصحاح (دمر).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٣ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ١٩٥ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨١-١٨٢ . والبيت للبيد، وهو في ديوانه ص٣١١ ، والبيت أيضاً في تهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٩ وروايته فيه: (فعدت) بدل (فغدت) وذكر الأزهري في شرح البيت أنه يصف =

قال قتادة: نزلت يوم أُحُد والنبيّ ﷺ في الشِّعب إذ صاح المشركون: يومٌ بيوم، لنا العُزّى ولا عُزّى لكم؛ قال النبي ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم» وقد تقدّم[١]. ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ينصرهم أحد من الله[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تقدّم في غير موضع.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ في الدنيا كأنّهم أنعام، ليس لهم هِمّة إلا بطونُهم وفروجُهم، ساهون عمّا في غدِهم. وقيل: المؤمن في الدنيا يتزوّد، والمنافق يتزين، والكافر يتمتع[٣]. ﴿وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ أي: مقام ومنزل[٤].

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ تقدّم الكلام في «كَأَيِّنْ» في «آل عمران»[٥]. وهي هاهنا بمعنى كم، أي: وكم من قرية. وأنشد الأخفش قول لبيد:

وكائنْ رأينا من ملوكٍ وسُوقةٍ ... ومفتاحِ قَيْدٍ للأسير المكبَّل[٦]

= بقرة وحشية غرها القناص فعدت، وكلا فرجيها: وهما أمامها وخلفها، وقال في اللسان (فرج): الفرج الثغرُ المخُوف، وهو موضع المخافة.

(١) ص٢٥٠ من هذا الجزء.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٨.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٠.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٢.

(٥) ٥/ ٣٤٩-٣٥١.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٦، والبيت في ديوان لبيد ص٣، ورواية البيت فيه:

وكائنْ رأيتُ من ملوك وسوقة ... وصاحبْتُ من وفدٍ كرام وموكب

فيكون معناه: وكم من أهل قرية ﴿هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ أي: أخرجَك أهلها[١].

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ قال قتادة وابن عباس: لما خرج النبيُّ ﷺ من مكة إلى الغار، التفت إلى مكة وقال: «اللَّهُمْ أنتِ أحبُّ البلاد إلى الله، وأنتِ أحبُّ البلاد إليّ، ولولا المشركون أهْلُكِ أخرجوني لَما خرجت منك». فنزلت الآية[٢]؛ ذكره الثعلبي، وهو حديث صحيح.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الألف ألف تقرير[٣]. ومعنى «على بينةٍ» أي: على ثبات ويقين. قاله ابن عباس.

أبو العالية: وهو محمد ﷺ. والبينة: الوَحْيُ[٤].

﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ أي: عبادة الأصنام، وهو أبو جهل والكفار[٥]. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ أي: ما اشتهوا. وهذا التزيينُ من جهة الله خلقاً. ويجوز أن يكون من الشيطان دعاءً ووسوسة. ويجوز أن يكون من الكافر، أي: زيَّن لنفسه سوءَ عمله وأصرّ على الكفر.

وقال: «سُوءُ» على لفظ «مَن» «واتَّبَعُوا» على معناه[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/٢٩٦.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/١٩٨ عن ابن عباس، وأخرجه بنحوه الترمذي (٣٩٢٦).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/٩.

(٤) النكت والعيون ٥/٢٩٦.

(٥) تفسير البغوي ٤/١٨٠ بنحوه.

(٦) الكشاف ٤/٥٣٣.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ لما قال عزَّ وجلَّ: «إنَّ الله يُدْخِلُ الَّذين آمنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّات» وصف تلك الجنات، أي: صفة الجنة المعدَّة للمتقين. وقد مضى الكلام في هذا في «الرعد»(١).

وقرأ علي بن أبي طالب: «مِثَالُ الجَنَّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ»(٢). ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ أي: غير متغير الرائحة. والآسِن من الماء مثل الآجِن(٣).

وقد أسَن الماء يأسُن ويأسِن أُسُوناً: إذا تغيّرت رائحته. وكذلك أجَن الماء يأجُن ويأجِن أَجْناً وأُجُوناً(٤).

ويقال بالكسر فيهما: أجِن وأسِن يأسَن ويأجَن أَسَناً وأَجَناً. قاله اليزيدي.

وأسِنَ الرجل أيضاً يأسَن؛ بالكسر لا غير(٥): إذا دخل البئر فأصابته ريحٌ منتنة من ريح البئر أو غير ذلك، فغُشِي عليه أو دارَ رأسُه، قال زُهير:

قـد أتـرك الـقِـرنَ مُـصـفَـرًّا أنـامـلُـه ... يَميدُ في الرُّمح مَيدَ المائحِ الأسِنِ(٦)

(١) ١٢/ ٨٠-٨١ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١١٤ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١ بنحوه.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ .

(٥) يعني في الماضي كما قيده صاحب القاموس على مثال: فرح.

(٦) الصحاح (أجن) (أسن)، والبيت في شرح ديوان زهير ص١٢١ ، وخزانة الأدب ١١/ ٢٥٩ ، ورواية الديوان:

يـغـادر الـقِـرْنَ مـصـفـرًّا أنـامـلُـه ... يَميلُ في الرُّمح مَيْل المائح الأسن

القِرْن: كفؤك في الشجاعة. الصحاح (قرن). قال شارح الديوان: مصفرًّا أناملُه؛ دنا موته فاصفرَّت أنامله، والمائح: الذي ينزل إلى أسفل البئر يملأ الدلو إذا قلَّ الماء.

ويروى: «الوَسِن». وتأسّن الماء: تغيّر. أبو زيد: تأسّن عليَّ تأسُّناً: اعتلّ وأبطأ. أبو عمرو: تأسّن الرجل أباه: أخذ أخلاقه. وقال اللّحيانيّ: إذا نزع إليه في الشَّبَه[(١)].

وقراءة العامة: «آسن» بالمدّ. وقرأ ابن كثير وحُميد: «أَسِن» بالقصر، وهما لغتان[(٢)]، مثل حاذر وحَذِر. وقال الأخفش: أَسِنَ للحال، وآسنَ مثل فاعل يراد به الاستقبال. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ أي: لم يحمض بطول المقام كما تتغير ألبان الدنيا على الحموضة[(٣)].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ أي: لم تُدنسْها الأرجلُ ولم تُرنِّقْها الأيدي كخمر الدنيا[(٤)]؛ فهي لذيذةُ الطعم، طيبةُ الشرب، لا يتكرَّهها الشاربون.

يقال: شراب لَذٌّ ولذيذ بمعنًى. واستلذّه: عدّه لذيذاً[(٥)].

﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ العسل ما يسيل من لُعاب النَّحل[(٦)]. «مُصَفًّى» أي: من الشمع والقَذَى، خلقه الله كذلك؛ لم يطبخ على نار، ولا دنّسه النَّحل.

وفي الترمذيّ عن حكيم بن معاوية، عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ في الجنَّة بحرَ الماء، وبحرَ العسل، وبحرَ اللّبن، وبحرَ الخمر، ثمّ تشقّق الأنهارُ بعدُ». قال: حديث حسن صحيح[(٧)].

وفي صحيح مسلم[(٨)] عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحانُ وجَيْحانُ والنِّيلُ والفُراتُ، كلٌّ من أنهار الجنّة». وقال كعب: نهر دجلةَ نهرُ ماء أهل

---

(١) الصحاح (أسن).

(٢) السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠٠.

(٣) الوسيط ٤/ ١٢٢.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١ بنحوه. وترنّق، أي: تكدّر.

(٥) الصحاح (لذذ).

(٦) تهذيب اللغة ٢/ ٩٣.

(٧) سنن الترمذي (٢٥٧١)، وهو في مسند أحمد (٢٠٠٥٢).

(٨) برقم (٢٨٣٩)، وسلف ١٦/ ٢٩.

الجنة، ونهر الفرات نهرُ لبنِهم، ونهر مصرَ نهرُ خمرِهم، ونهر سَيْحان نهرُ عسلِهم. وهذه الأنهار الأربعةُ تخرج من نهر الكوثر(١).

والعسل: يذكَّر ويؤنث. وقال ابن عباس: «مِن عَسَلٍ مُصَفًّى» أي: لم يخرج من بطون النَّحل(٢).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ «مِن» زائدة للتأكيد.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: لذنوبهم. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ قال الفرّاء: المعنى أفمن يخلد في هذا النَّعيم كمن يخلد في النَّار(٣). وقال الزجّاج(٤): أي: أفمن كان على بيِّنة من ربِّه وأعطي هذه الأشياءَ كمن زُيِّن له سوءُ عمله وهو خالد في النار؟!

فقوله: «كَمَنْ» بدل من قوله: «أفَمَنْ زُيِّن لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ». وقال ابن كَيْسان: مَثَلُ هذه الجنة التي فيها الثمار والأنهار كَمَثَلِ النار التي فيها الحميم والزقُّوم. ومَثَلُ أهل الجنة في النعيم المقيم كَمَثَلِ أهل النار في العذاب المقيم.

﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ أي: حارًّا شديدَ الغليان، إذا أُدْني(٥) منهم شَوَى وجوهَهم، ووقعت فروةُ رؤوسهم، فإذا شربوه قطَّع أمعاءَهم وأخرجها من دبورهم. والأمعاء: جمع مِعًى، والتثنية مِعْيان، وهو جميعُ ما في البطن من الحوايا(٦).

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ أي: من هؤلاء الذين يتمتعون ويأكلون كما

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.
(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٤ دون نسبة.
(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠١.
(٤) في معاني القرآن له ٥/ ١٠.
(٥) في النسخ الخطية: دنى، والمثبت من (م).
(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨١.

تأكل الأنعام، وُزيِّن لهم سوءُ عملهم، قومٌ يستمعون إليك. وهم المنافقون: عبدُ الله ابن أُبيّ ابن سَلُول، ورفاعةُ بن التابوت، وزيدُ بن الصليت، والحارثُ بن عمرو، ومالكُ بن دُخْشم، كانوا يحضرون الخطبةَ يوم الجمعة، فإذا سمعوا ذكرَ المنافقين فيها أعرضوا عنه، فإذا خرجوا سألوا عنه. قاله الكلبي ومقاتل. وقيل: كانوا يحضرون عندَ رسول الله ﷺ مع المؤمنين، فيستمعون منه ما يقول، فيَعيه المؤمن ولا يعيه الكافر[١]. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ أي: إذا فارقوا مجلسَك. ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ قال عكرمة: هو عبدُ الله بن العباس[٢]. قال ابن عباس: كنت ممن يُسأل[٣]، أي: كنت من الذين أوتوا العلم.

وفي رواية عن ابن عباس: أنه يريد عبدَ الله بن مسعود[٤]. وكذا قال عبد الله بن بريدة: هو عبد الله بن مسعود. وقال القاسم بن عبد الرحمن: هو أبو الدرداء. وقال ابن زيد: إنهم الصحابة[٥].

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ أي: الآن؛ على جهة الاستهزاء، أي: أنَّا لم نلتفت[٦] إلى قوله. و«آنِفاً» يراد به الساعة التي هي أقربُ الأوقات إليك[٧]، من قولك: استأنفت الشيء: إذا ابتدأتَ به. ومنه أمْرٌ أنُف، ورَوضة أنُف؛ أي: لم يرْعها أحد[٨]. وكأس أنُف: إذا لم يُشرب منها شيء، كأنَّه استؤنف شربُها، مثل روضة أنف[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٩٧ وفيه: «ولا يعيه المنافق» بدل «ولا يعيه الكافر».

(٢) المصدر السابق.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والكشاف ٣/ ٥٣٤، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٤، والحاكم في المستدرك ٢/ ٤٥٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨١، والمحرر الوجيز ٥/ ١١٥ دون ذكر أنه رواية عن ابن عباس.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨.

(٦) في النسخ عدا (د) و(ظ): ألتفت.

(٧) قوله: «إليك» من (م).

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٥ بنحوه.

(٩) الصحاح (أنف).

قال الشاعر:

ويَحْرُم سِرُّ جارتهم عليهم ويأكل جارُهم أُنُفَ القِصاعِ[١]

وقال آخر:

إنّ الشِّواء والنَّشِيلَ والرُّغُفْ والقَيْنَةَ الحسناءَ والكأسَ الأُنُفْ

للطاعنين الخيلَ والخيلُ خُنُفْ[٢]

وقال امرؤ القيس:

قد غَدَا يحملُني في أَنْفِهِ[٣]

أي: في أوّله. وأنْفُ كلِّ شيء أوّله.

وقال قتادة في هؤلاء المنافقين: الناس رجلان: رجلٌ عَقَل عن الله فانتفع بما سمع، ورجلٌ لم يعقلْ ولم ينتفعْ بما سمع. وكان يقال: الناس ثلاثة: فسامعٌ عامل، وسامعٌ عاقل، وسامعٌ غافل تارك[٤].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فلم يؤمنوا. ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ في الكفر. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ﴾ أي: للإيمان؛ زادهم الله هدًى. وقيل: زادهم النبيّ ﷺ هدى[٥].

---

(١) البيت للحطيئة، وقوله: أُنُف القصاع، يعني جيد الطعام وصفوته، وسلف البيت ٤/ ١٤٩ .

(٢) الرجز للقيط بن زرارة كما في الكامل ٢/ ٨٨٧ . وهو أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١ ، وفيه: قُطُف، بدل: خُنُف. والخنف جمع خَنُوف، وهي الدابة إذا مالت بيديها في أحد شقيها من النشاط. اللسان (خنف).

ووقع في (خ) وهو حاشية في (ق) ما نصه: النشيل لحم يطبخ بلا توابل، والرُّغف جمع رغيف، ويقال: أرغفة ورغفان. اهـ . والكلام في الصحاح (نشل).

(٣) ديوان امرئ القيس ص١٤٦ ، وعجز البيت: لاحقُ الإطلَين محبوكٌ مُمَرّ، قال شارحه: يحملني في أنفه أي: في أول هذه المطْرة، وأنف كل شيء: أوله، لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكَشحين، والمحبوك: المدمج الخَلْق الشديد، والممر نحوه في المعنى.

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٠٣ .

(٥) تفسير الرازي ٢٨/ ٥٩ بنحوه.

وقيل: ما يستمعونه من القرآن هدًى، أي: يتضاعف يقينُهم. وقال الفرّاء[١]: زادهم إعراضُ المنافقين واستهزاؤهم هدًى. وقيل: زادهم نزولُ الناسخ هدًى.

وفي الهدى الذي زادهم أربعةُ أقاويل: أحدها: زادهم علماً. قاله الربيع بن أنس. الثاني: أنَّهم علموا ما سمعوا وعملوا بما علموا. قاله الضحاك. الثالث: زادهم بصيرة في دينهم وتصديقاً لنبيِّهم. قاله الكلبيّ. الرابع: شرح صدورَهم بما هم عليه من الإيمان[٢].

﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ أي: ألهمهم إياها[٣]. وقيل فيه خمسة أوجه: أحدها: آتاهم الخشيةَ. قاله الربيع. الثاني: ثوابَ تقواهم في الآخرة. قاله السدّي. الثالث: وفَّقهم للعمل الذي فرض عليهم. قاله مقاتل. الرابع: بيَّن لهم ما يتقون. قاله ابن زياد والسدّيّ أيضاً. الخامس: أنه تركُ المنسوخ والعملُ بالناسخ. قاله عطية. الماوردي[٤]. ويحتمل سادساً: أنه تركُ الرُّخص والأخذُ بالعزائم[٥].

وقرئ: «وَأَعْطَاهُمْ» بدل: «وآتاهُمْ»[٦]. وقال عكرمة: هذه نزلت فيمن آمن من أهل الكتاب[٧].

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فجأةً. وهذا وعيد

(١) في معاني القرآن له ٣/ ٦١ بنحوه، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ .

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١١ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٩٨ وما قبله منه دون قول السدي: بيَّن لهم ما يتقون، وهو في الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ٣٨ .

(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٤ .

(٧) زاد المسير ٧/ ٤٠٣ .

للكفار. ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَاۚ﴾ أي: أماراتها وعلاماتها[١]. وكانوا قد قرؤوا في كتبهم أنَّ محمداً ﷺ آخر الأنبياء، فَبَعْثُه من أشراطها وأدلتها. قاله الضحاك والحسن[٢].

وفي الصحيح عن أنس قال: قال رسولُ الله ﷺ: «بعثت أنا والساعةَ كهاتين» وضمّ السبابة والوسطى، لفظ مسلم: وخرّجه البخاريّ والترمذيّ وابن ماجه[٣].

ويروى: «بعثتُ والساعةَ كَفَرَسَي رِهان»[٤]. وقيل: أشراطُ الساعة: أسبابُها التي هي دون معظمها، ومنه يقال للدُّون من النَّاس: الشَّرَط[٥].

وقيل: يعني علامات الساعة؛ انشقاق القمر، والدخان، قاله الحسن أيضاً[٦].

وعن الكلبي: كثرةُ المال، والتجارة، وشهادة الزور، وقطع الأرحام، وقلةُ الكرام، وكثرة اللئام[٧]. وقد أتينا على هذا الباب في كتاب «التذكرة» مستوفىً والحمد لله[٨].

وواحد الأشراط شَرَط، وأصله الأعلام. ومنه قيل: الشُّرَط؛ لأنَّهم جعلوا لأنفسهم علامةً يعرفون بها، ومنه الشَّرْط في البيع وغيره[٩].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ بنحوه عند الضحاك.

(٣) صحيح مسلم (٢٩٥١): (١٣٥)، وصحيح البخاري (٦٥٠٤)، وسنن الترمذي (٢٢١٤) وهو في مسند أحمد (١٢٢٤٥) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٥)، وابن ماجه (٤٠٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ. وأخرجه أحمد (١٤٤٣١)، وابن ماجه (٤٥) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما. وسلف حديث أنس ﷺ ١٢/ ٢٦٨.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٠٩)، والبيهقي في الشعب (١٠٢٣٧)، وأبو الشيخ في الأمثال (٣٤٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ. قوله: كفرسي رهان: أي: يتسابقان إلى غاية. النهاية (فرس).

(٥) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩ دون ذكر الدخان.

(٧) الكشاف ٣/ ٣٥٣.

(٨) ص٦٢٤ فما بعدها.

(٩) تهذيب اللغة ١١/ ٣٠٨-٣٠٩.

قال أبو الأسود:

فإن كنتَ قد أزْمَعْتَ بالصَّرْم بيننا فقد جَعَلَتْ أشراطُ أوّله تبدو[(١)]

ويقال: أشرطَ فلان نفسه في عمل كذا أي: أعلمها وجعلها له. قال أوس بن حجر يصف رجلاً تدلَّى بحبل من رأس جبل إلى نَبْعة ليقطعها يَتخذ[(٢)] منها قوسًا:

فأشْرَطَ فيها نفسَه[(٣)] وهو مُعْصِمٌ وألقى بأسبابٍ له وتَوَكَّلا[(٤)]

﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ «أنْ» بدل اشتمال من «الساعة»، نحو قوله: ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ من قوله: ﴿رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ﴾.

وقرئ: «بَغَتَّةً» بوزن جَرَبَّة[(٥)]، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختُها، وهي مَرْوِية عن أبي عمرو. الزمخشري[(٦)]: وما أخوفني أن تكون غلطةً من الراوي عن أبي عمرو، وأن يكون الصواب «بَغَتة» بفتح الغين من غير تشديد، كقراءة الحسن.

وروى أبو جعفر الرؤاسي وغيره من أهل مكة: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً»[(٧)].

قال المهدويّ: ومن قرأ: «إن تَأْتِهِمْ بَغْتَةً» كان الوقف على «السَّاعَة»، ثمَّ استأنف الشرط. وما يحتمله الكلام من الشكِّ مردودٌ إلى الخلق، كأنه قال: إن شكُّوا في مجيئها «فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا».

قوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ «ذِكْرَاهُمْ» ابتداء، و«أنَّى لَهُمْ» الخبر. والضمير المرفوع في «جَاءتْهُمْ» للساعة؛ التقدير: فمن أين لهم التذكُّر إذا جاءتهم

---

(١) البيت في الأغاني ١٢/ ٣٣٤، والكشاف ٣/ ٥٣٥. الصَّرْم: الهجران اللسان (صرم). وهي أبيات قالها في أبي الجارود الشاعر وكان قد هجره كما في الأغاني.

(٢) في (م): يقطعها ليتخذ.

(٣) في النسخ: نفسه فيها، والمثبت من جمهرة اللغة (رشط) ـ والكلام فيه بنحوه، ومما سلف ٥/ ٢٣٧.

(٤) جاء في (خ) و(ز) بعد البيت ـ وهو في حاشية (ق) ـ ما نصه: النبع شجرٌ يتخذ منه القسيّ، الواحدة: نبعة، ويتخذ من أغصانها السهام. اهـ. وهذا الكلام في الصحاح (نبع).

(٥) أي: جماعة الحُمُر. اللسان (جرب).

(٦) في الكشاف ٣/ ٥٣٥ وما قبله منه، والقراءة أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والمحتسب ٢/ ٢٧١.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٧٠، ووقع في النسخ عدا (م) و(ق) تأتيهم.

الساعة. قال معناه قتادة وغيره[١].

وقيل: فكيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الذكرى عند مجيء الساعة! قاله ابن زيد[٢].

وفي الذكرى وجهان: أحدهما: تذكيرُهم بما عملوه من خير أو شرّ. الثاني: هو دعاؤهم بأسمائهم تبشيراً وتخويفاً، روى أبان عن أنس، عن النبيّ ﷺ قال: «أحسنوا أسماءَكم، فإنكم تُدْعَون بها يوم القيامة: يا فلانُ قُمْ إلى نُورِك، يا فلانُ قُم لا نُور لك» ذكره الماوَرْدِي[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ قال الماوردي[٤]: وفيه ـ وإن كان الرسول عالماً بالله ـ ثلاثة أوجه: يعني إعلم أنَّ الله أعلمك أن لا إله إلا الله. الثاني: ما علمتَه استدلالاً فاعلمْه خبراً يقيناً. الثالث: يعني فاذكر أن لا إله إلا الله، فعبّر عن الذكر بالعلم لحدوثه عنه.

وعن سفيان بن عيينة أنه سئل عن فضْل العلم فقال: ألم تسمع قولَه حين بدأ به ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فأمر بالعمل بعد العلم وقال: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ إلى قوله: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠-٢١] وقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٢٨]. ثم قال بعد: ﴿فَٱحْذَرُوهُمْ﴾[٥]. وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ [الأنفال: ٤١]. ثم أمر

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٣ دون نسبة، وذكر معنى قول قتادة أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٣، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٤.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٩٩.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٩٩-٣٠٠، وذكره الديلمي في الفردوس ١/ ٩٨، وسلف ١٣/ ١٠١ بنحوه عن أبي الدرداء وإسناده منقطع.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٥) كذا وقع في النسخ، والكشاف ٣/ ٥٣٥، والكلام منه، ولعله يريد الآية (١٤) من التغابن: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾.

بالعمل بعد.

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما: يعني استغفر الله إنْ يقع منك ذنب. الثاني: استغفر الله ليعصمَك من الذنوب[١].

وقيل: لما ذكر له حالَ الكافرين والمؤمنين، أمره بالثبات على الإيمان، أي: اثبُتْ على ما أنت عليه من التوحيد والإخلاص والحذَر عما تحتاج معه إلى استغفار[٢].

وقيل: الخطابُ له، والمرادُ به الأمة، وعلى هذا القول توجب الآيةُ استغفارَ الإنسان لجميع المسلمين[٣].

وقيل: كان عليه الصلاة والسلام يضيق صدرُه من كفر الكفار والمنافقين؛ فنزلت الآية. أي: فاعلم أنَّه لا كاشفَ يكشف ما بك إلا الله؛ فلا تعلِّق قلبَك بأحد سواه.

وقيل: أمر بالاستغفار لتقتديَ به الأمة[٤]. ﴿وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ أي: ولذنوبهم. وهذا أمرٌ بالشفاعة[٥].

وروى مسلم عن عاصم الأحول، عن عبد الله بن سَرْجِس المخزوميّ قال: أتيت النبيَّ ﷺ وأكلتُ من طعامه فقلت: يا رسول الله، غفر الله لك! فقال له صاحبي: هل استغفر لك النبي ﷺ؟ قال: نعم، ولك. ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ ثم تحوّلت فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه، جُمعٌ[٦]؛ خِيلانٌ كأنه الثآليل[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ١١٦.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٢ بنحوه.

(٥) الوسيط ٤/ ١٢٥.

(٦) كذا في (خ) و(د) و(ز) و(ف) و(ق)، وفي (ظ): جميع، وهي نسخة كما ذكر النووي في شرحه على صحيح مسلم ١٥/ ٩٩. ووقع في (م): جمعاً.

(٧) صحيح مسلم (٢٣٤٦) بنحوه وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً بنحوه أحمد (٢٠٧٧٨). قوله: =

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ فيه خمسة أقوال: أحدها: يعلم أعمالكم في تصرفكم وإقامتكم[١]. الثاني: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أعمالكم نهاراً «وَمَثْوَاكُمْ» في ليلكم نياماً[٢].

وقيل: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في الدنيا والآخرة. قاله ابن عباس والضحاك. وقال عكرمة: «مُتَقَلَّبَكُمْ» في أصلاب الآباء إلى أرحام الأمهات. «وَمَثْوَاكُمْ»: مُقامكم في الأرض. وقال ابن كَيْسان: «مُتَقَلَّبَكُمْ» من ظهر إلى بطن إلى الدنيا. «وَمَثْوَاكُمْ» في القبور[٣].

قلت: والعموم يأتي على هذا كلِّه، فلا يخفى عليه سبحانه شيءٌ من حركات بني آدمَ وسَكَناتهم، وكذا جميع خلقه. فهو عالم بجميع ذلك قبلَ كونه؛ جملةً وتفصيلاً؛ أُولَى وأُخرَى. سبحانه، لا إله إلا هو.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: المؤمنون المخلصون. ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ اشتياقاً للوَحْي وحرصاً على الجهاد وثوابه. ومعنى «لَوْلَا» هلا[٤]. ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾ لا نسخ فيها. قال قتادة: كلُّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي مُحْكمة، وهي أشدُّ

= جمع؛ يريد مثل جُمع الكف؛ وهو أن يجمع الأصابع ويضمها. خيلانٌ: جمع خال؛ وهو الشامة في الجسد. الثآليل: جمع ثؤلول: وهو هذه الحبة التي تظهر في الجلد كالحمّصة فما دونها. النهاية (جمع) (خيل) (ثأل).

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٤) زاد المسير ٧/ ٤٠٥ .

القرآن على المنافقين[١]. وفي قراءة عبد الله: «فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْدَثَةٌ»[٢]، أي: محدَثةُ النزول. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾ أي: فُرض فيها الجهاد[٣].

وقرئ: «فَإِذَا نَزَلَتْ[٤] سُورَةٌ، وَذَكَرَ فِيهَا القِتَالَ» على البناء للفاعل ونصب القتال. ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ ونفاق[٥]. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾ أي: نظر مغمومين[٦] مغتاظين بتحديد وتحديق، كمن يشخص بصرَه عند الموت؛ وذلك لجبنهم عن القتال جزعاً وهَلَعاً[٧]، ولميلهم في السرّ إلى الكفار.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ . طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ «فأوْلَى لَهُمْ» قال الجوهريّ[٨]: وقولهم: أوْلَى لَكَ، تهديد ووعيد. قال الشاعر:

فأَوْلَى ثمّ أَوْلَى ثمّ أَوْلَى   وهل لِلدَّرِّ يُحْلَبُ من مَرَدِّ

قال الأصمعي: معناه قارَبَه ما يُهْلِكه؛ أي: نزل به. وأنشد:

فعادَى بين هادِيَتَيْن منها   وأوْلَى أن يزيدَ على الثلاثِ[٩]

أي: قارب أن يزيد. قال ثعلب: ولم يقل أحد في «أوْلَى» أحسنَ مما قال الأصمعي[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣، وأخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٠.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٠، والكشاف ٣/ ٥٣٥.
(٣) زاد المسير ٧/ ٤٠٥.
(٤) في (م) و(خ): أنزلت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٣٥ والكلام منه.
(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.
(٦) في (م) و(خ): مغموصين، والمثبت من باقي النسخ.
(٧) تأويل مشكل القرآن ص٣٥٢، والكشاف ٣/ ٥٣٥ بنحوه.
(٨) في الصحاح (ولي)، والبيت الآتي لعبد الله بن الزبير الأسدي كما في الأغاني ١٤/ ٢٣٧.
(٩) البيت أيضاً في خزانة الأدب ٩/ ٣٤٥ قال البغدادي: قال ابن عقيل: عادى؛ من العِداء، وهو الموالاة بين الصيدين بصرع أحدهما على إثر الآخر في طلق واحد، والهادية: أوّل الوحش.
(١٠) الصحاح (ولي)، وتهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

وقال المُبَرِّد: يقال لمن هَمَّ بالعَطَب[١] ثم أفْلَت: أوْلى لك؛ أي: قاربت العطب[٢].

كما رُوِي أنَّ أعرابيًّا كان يوالي رَميَ الصيد، فيُفْلِت منه فيقول: أوْلى لك. ثمَّ رمى صيداً فَقاربه ثمَّ أفلت منه فقال:

فلو كان «أوْلَى» يُطعِم القومَ صِدْتُهم ولكنّ «أوْلَى» يَتْرُكُ القومَ جُوَّعا[٣]

وقيل: هو كقول الرجل لصاحبه: يا محروم، أيُّ شيء فاتك[٤]؟

وقال الجُرْجَانيْ: هو مأخوذ من الويل، فهو أفعل، ولكن فيه قلب؛ وهو أنَّ عينَ الفعل وقع موقع اللام. وقد تَمَّ الكلام على قوله: «فأوْلَى لَهُمْ».

قال قتادة: كأنه قال: العِقاب أوْلَى لهم[٥]. وقيل: أي: وَلِيَهم المكروه[٦].

ثم قال: «طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ» أي: طاعة وقول معروف أمثل وأحسن، وهو مذهب سيبويه والخليل.

وقيل: إنَّ التقدير: أمرنا طاعة وقول معروف[٧]؛ فحذف المبتدأ، فيوقف على «فأوْلَى لَهُمْ». وكذا من قدّر: يقولون مِنَّا طاعة[٨]، وهي قراءة أُبيّ: «يقولون طاعة»[٩].

---

(١) في (ظ): همَّ بالغضب.

(٢) في (ظ): قاربت الغضب.

(٣) في (د) و(ظ) و(ق) صيدهم، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٧٩ والكلام منه، والبيت أيضاً في الكامل ٣/ ١٤١٦، والخزانة ٩/ ٣٤٦. قال البغدادي: هو بيت لرجل يقتنص الصيد، فإذا أفلته الصيد قال: أولى لك. اهـ. وقوله: صدتُهم، أي: صدتُ لهم، قال في اللسان: صدت فلاناً صيداً: إذا صدتَه له. اللسان (صيد).

(٤) تهذيب اللغة ١٥/ ٤٤٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠١.

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٤.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧.

(٨) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤.

(٩) قوله: وهي قراءة أُبيّ... الخ، وقع في (ظ) في هذا الموضع، وهو الصواب، ووقع في باقي النسخ =

وقيل: إن الآية الثانية متصلةٌ بالأولى. واللام في قوله: «لَهُم» بمعنى الباء[١]؛ أي: الطاعة أولى وأليقُ بهم، وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله.

وقيل إن: «طَاعَةٌ» نعت لـ «سورة»؛ على تقدير: فإذا أنزلت سورة ذاتُ طاعة. فلا يوقف على هذا على «فَأَوْلَى لَهُمْ»[٢].

قال ابن عباس: إن قولهم: «طَاعَةٌ» إخبارٌ من الله عزَّ وجلَّ عن المنافقين. والمعنى: لهم طاعةٌ وقولٌ معروف، قيل: وجوب الفرائض عليهم، فإذا أنزلت الفرائض شقَّ عليهم نزولُها. فيوقف على هذا على «فَأَوْلَى».

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أي: جدّ القتال، أو وجب فرض القتال[٣]، كرهوه. فكرهوه جواب «إذا» وهو محذوف.

وقيل: المعنى فإذا عزم أصحاب الأمر[٤]. ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الإيمان والجهاد[٥]. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ من المعصية والمخالفة.

قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ اختلف في معنى «إن تَوَلَّيْتُمْ» فقيل: هو من الولاية.

= بعد قوله: «وأحقُّ لهم من ترك امتثال أمر الله». الآتي. وهي في الكشاف ٣/ ٥٣٦، والرازي ٢٨/ ٦٣.

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤. وقال مكي: القولان الأولان أبين وأشهر.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٣، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٣ بنحوه.

(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٦، وتفسير الرازي ٢٨/ ٦٣.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨١.

قال أبو العالية: المعنى فهل عسيتم إن تولَّيتم الحكمَ فجُعِلتم حكّاماً أن تفسدوا في الأرض بأخذ الرُّشَا. وقال الكلبيّ: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم أمرَ الأمة أن تفسدوا في الأرض بالظلم. وقال ابن جريج: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن الطاعة أن تفسدوا في الأرض بالمعاصي وقطعِ الأرحام[١].

وقال كعب: المعنى: فهل عسيتم إن تولَّيتم الأمرَ أن يقتلَ بعضُكم بعضاً[٢].

وقيل: من الإعراض عن الشيء.

قال قتادة: أي: فهل عسيتم إن تولَّيتم عن كتاب الله أن تفسدوا في الأرض بسفك الدماء الحرام، وتقطعوا أرحامَكم[٣].

وقيل: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» أي: فلعلكم إن أعرضتم عن القرآن وفارقتم أحكامَه، أن تفسدوا في الأرض فتعودوا إلى جاهليتكم[٤].

وقرىء بفتح السين وكسرها[٥]. وقد مضى في «البقرة» القول فيه مستوفًى[٦].

وقال بكر المزني: إنَّها نزلت في الحَرُوريّة والخوارج. وفيه بُعدٌ، والأظهر أنه إنما عُني بها المنافقون. وقال ابن حيان: قريش[٧].

ونحوه قال المسيّب بن شريك والفرّاء، قالا: نزلت في بني أمية وبني هاشم[٨]، ودليل هذا التأويل ما روى عبدُ الله بن مُغَفّل قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: ﴿فَهَلْ

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٢ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٣ .

(٥) قرأ نافع بكسر السين، والباقون بالفتح. السبعة ص١٨٦ ، والتيسير ص٨١ .

(٦) ٤/ ٢٢٩ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢ دون ذكر الحرورية، وذكر أنها في الحرورية النحاس في معاني القرآن له ٦/ ٤٨٢ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .

عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ثمَّ قال: «هم هذا الحيّ من قريش؛ أخذ الله عليهم إن وَلُوا الناسَ ألّا يفسدوا في الأرض ولا يقطّعوا أرحامَهم»[١].

وقرأ عليّ بن أبي طالب: «إن تُوُلِّيْتُم أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ» بضم التاء والواو وكسر اللام[٢]. وهي قراءة ابن أبي إسحاق، ورواها رُوَيس عن يعقوب[٣].

يقول: إن وليتُكم ولاةٌ جائرةٌ، خرجتم معهم في الفتنة وحاربتموهم[٤]. ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ﴾ بالبغي والظلم والقتل[٥].

وقرأ يعقوب وسلام وعيسى وأبو حاتم: «وتَقْطَعُوا»[٦] بفتح التاء وتخفيف القاف، من القطع؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]. وروى هذه القراءةَ هارونُ عن أبي عمرو[٧]. وقرأ الحسن: «وَتَقَطَّعُوا» مفتوحةَ الحروف مشدّدة[٨]؛ اعتباراً بقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٩٣]. الباقون: «وتُقَطِّعُوا» بضم التاء مشدّدة الطاء، من التقطيع على التكثير، وهو اختيار أبي عبيد. وتقدّم ذكر «عَسَيْتُمْ» في «البقرة»[٩].

وقال الزجاج[١٠] في قراءة نافع: لو جاز هذا لجاز «عَسِي» بالكسر.

قال الجوهري[١١]: ويقال عَسَيت أن أفعل ذلك، وعَسِيت بالكسر. وقرىء: «فَهَلْ عَسِيْتُمْ» بالكسر.

---

(١) أخرجه الطبري في تهذيبه كما في فتح الباري ٨/ ٥٨١ .
(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ ، والقراءة في القراءات الشاذة ص١٤٠ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٢ .
(٣) النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة.
(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ .
(٥) الوسيط ٤/ ١٢٧ .
(٦) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤ ، وهي من العشرة، وقراءة سلام في القراءات الشاذة ص١٤٠ .
(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١١٨ دون ذكر هارون.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٨٢ .
(٩) ٤/ ٢٢٩ .
(١٠) في معاني القرآن له ٥/ ١٣ ، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٨٧ .
(١١) في الصحاح (عسا).

قلت: ويدل قوله هذا على أنَّهما لغتان. وقد مضى القول فيه في «البقرة» مستوفًى(١).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: طَردَهم وأبعدَهم من رحمته(٢) ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾ عن الحقّ ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ أي: قلوبَهم عن الخير. فأتبع الأخبارَ بأنَّ مَن فعل ذلك حقّت عليه لعنته، وسلبه الانتفاعَ بسمعه وبصره حتى لا ينقاد للحق وإن سمعه، فجعله كالبهيمة التي لا تعقل. وقال: «فَهَلْ عَسَيْتُمْ» ثم قال: «أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ» فرجع من الخطاب إلى الغَيبة على عادة العرب في ذلك.

الثانية: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: يتفهمونه فيعلمون ما أعدّ الله للذين لم يتولّوا غير(٣) الإسلام. ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالٌ أقفلَها الله عزَّ وجلَّ عليهم فهم لا يعقلون(٤). وهذا يردّ على القدرية والإمامية مذهبَهم.

وفي حديث مرفوع أنّ النبيّ ﷺ قال: «إنَّ عليها أقفالاً كأقفالِ الحديد حتى يكون اللهُ يفتحها»(٥). وأصل القَفْل: اليُبس والصلابة.

ويقال لما يبس من الشجر: القَفْل. والقفيل مثله. والقَفِيل أيضاً: نبت. والقفيل: السوط(٦). قال الراجز:

---

(١) ٤/ ٢٢٩ - ٢٣٠ .

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٥ .

(٣) في (م): عن.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢١٥ .

(٥) كذا ذكر المصنف رحمه الله، والذي أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢١٧ ، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٧ ، والبغوي ٤/ ١٨٤ ، من حديث هشام بن عروة، عن أبيه. قال: تلا رسول الله ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ فقال شابٌّ من أهل اليمن: بل على قلوب أقفالها حتى يكون الله يفتحها أو يفرِّجها. واللفظ للبغوي.

(٦) في (م) و(د) و(ز) و(ق): الصوت، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في الصحاح والكلام منه.

لـمّـا أتـاك يـابـسـاً قِـرْشَـبّـاً قـمـتَ إلـيـه بـالـقَـفِـيـل ضـربـا
كـيـف قَـرَيْـتَ شَـيْـخَـك الأزَبَّـا[1]

القِرشَبُّ؛ بكسر القاف: المُسِنّ؛ عن الأصمعي. وأقفله الصوم، أي: أيبسه. قاله القشيريّ والجوهريّ[2]. فالأقفال هاهنا إشارة إلى ارتتاج القلب وخلوّه عن الإيمان. أي: لا يدخل قلوبَهم الإيمانُ ولا يخرج منها الكفر؛ لأنَّ الله تعالى طبع على قلوبهم وقال: «عَلَى قُلُوبٍ» لأنَّه لو قال: على قلوبهم، لم يدخل قلبُ غيرهم في هذه الجملة. والمراد: أم على قلوب هؤلاء وقلوبِ من كانوا بهذه الصفة أقفالُها.

الثالثة: في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله خلقَ الخلْقَ، حتى إذا فرغ منهم، قامت الرَّحِم فقالت: هذا مَقامُ العائذ بك من القطيعة. قال: نَعَمْ: أما ترضَين أنْ أصِلَ من وصَلَكِ وأقطعَ من قطعكِ؟ قالت: بلى. قال: فذاك لكِ ـ ثمَّ قال رسولُ الله ﷺ ـ اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا أَرْحَامَكُمْ . أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ . أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾[3]

وظاهر الآية أنَّها خطاب لجميع الكفار. وقال قتادة وغيره: معنى الآية فلعلَّكم، أو يخاف عليكم، إن أعرضتم عن الإيمانِ أن تعودوا إلى الفساد في الأرض بسفك[4] الدماء[5].

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تَوَلَّوْا عن كتاب الله تعالى! ألم يسفكوا الدماءَ

---

(١) الصحاح (قفل) (قرشب)، ونسب الرجزَ في اللسان (قفل) لأبي محمد الفقعسي، وهو أيضاً في الأصمعيات ص١٦٣ دون نسبة وباختلاف في ترتيبه، وفيه: (يائساً) بدل (يابساً)، و(ضيفك) بدل (شيخك). قوله: الأزبّ، أي: كثير شعر الذراعين والحاجبين والعينين. اللسان (زبب).

(٢) في الصحاح (قرشب) دون قوله: وأقفله الصوم أي: أيبسه. وهو في تهذيب اللغة ٩/ ١٦١ .

(٣) صحيح مسلم (٢٥٥٤)، وأخرجه أحمد (٨٣٦٧)، والبخاري (٤٨٣٠).

(٤) في (م) لسفك.

(٥) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

الحرام ويقطعوا الأرحامَ وعصَوُا الرَّحمن(١).

فالرَّحِم على هذا رَحِمُ دين الإسلام والإيمان، التي قد سمَّاها الله أُخُوَّة بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، وعلى قول الفرّاء: إنَّ الآية نزلت في بني هاشم وبني أمية(٢)، والمراد: مَن أضمر منهم نفاقاً؛ فأشار بقطع الرحِم إلى ما كان بينهم وبين النبيّ ﷺ من القرابة بتكذيبهم النبيّ ﷺ. وذلك يوجب القتال.

وبالجملة؛ فالرحِمُ على وجهين: عامَّة وخاصَّة. فالعامَّة رحِم الدين، ويجب مواصلتُها بملازمة الإيمان، والمحبةِ لأهله ونُصرتِهم، والنصيحةِ وتركِ مضارتهم، والعدل بينهم، والنَّصَفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة؛ كتمريض المرضى، وحقوق الموتى مِن غسلهم، والصلاةِ عليهم ودفنهم، وغير ذلك من [الحقوق] المترتبة لهم.

وأما الرَّحم الخاصَّة ـ وهي رحمُ القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه ـ فتجب لهم الحقوقُ العامة(٣) وزيادة؛ كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم؛ وتتأكد في حقِّهم حقوقُ الرحم العامةِ، حتى إذا تزاحمت الحقوقُ بدئ بالأقرب فالأقرب.

وقال بعض أهل العلم: إنَّ الرَّحم التي تجب صلتُها هي كلُّ رَحِم مَحْرَم، وعليه فلا تجب في بني الأعمام وبني الأخوال. وقيل: بل هذا في كلِّ رحم ممن ينطلق عليه ذلك من ذوي الأرحام في المواريث، مَحْرَماً كان أو غير مَحْرَم. فيخرج من هذا أنَّ رحمَ الأمِّ التي لا يُتوارث بها لا تجب صلتُهم ولا يحرم قطعُهم. وهذا ليس بصحيح، والصواب أنَّ كلَّ ما يشمله ويعمُّه الرحم تجب صلته على كل حال، قربةً ودينية؛ على ما ذكرناه أولاً، والله أعلم(٤).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ . وفيه: الدم الحرام، وقطَّعوا. . .

(٢) المفهم ٦/ ٥٢٦ .

(٣) في (م) و(د) و(ز) و(ق) الخاصة، والمثبت من (خ) و(ظ)، وهو الموافق لما في المفهم والكلام منه.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤ و٥٢٧ - ٥٢٨ .

وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده[١] قال: حدثنا شعبة قال: أخبرني محمد ابن عبد الجبار، قال: سمعت محمد بن كعب القُرَظِي يحدّث عن أبي هريرة قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ للرَّحم لساناً يوم القيامة تحت العرش، يقول: يا ربِّ قُطعتُ، يا ربِّ ظُلمت، يا ربِّ أُسيء إليّ، فيجيبها ربُّها: ألا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وصلكِ وأقطعَ مَن قطعكِ».

وفي صحيح مسلم عن جُبير بن مُطعِم، عن النبيّ ﷺ قال: «لا يدخل الجنةَ قاطع». قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطعَ رَحِم. ورواه البخاري[٢].

الرابعة: قوله عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الله تعالى خلق الخلْقَ حتى إذا فرغ منهم...» «خلق» بمعنى اخترع، وأصله التقدير، كما تقدم[٣]. والخلق هنا بمعنى المخلوق. ومنه قوله تعالى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: ١١] أي: مخلوقه. ومعنى «فرغ منهم»: كَمَّل خلقَهم. لا أنَّه اشتغل بهم ثمَّ فرغ من شُغْله بهم؛ إذ ليس فعلُه بمباشرة ولا مناولة، ولا خَلْقُه بآلة ولا محاولة، تعالى عن ذلك[٤].

وقوله: «قامت الرَّحم فقالت» يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكونَ اللهُ تعالى أقام من يتكلم عن الرَّحم من الملائكة فيقول ذلك، وكأنّه وكَّل بهذه العبادة من يناضل عنها ويكتب ثوابَ من وصلها ووِزْر مَن قطعَها؛ كما وكَّل الله بسائر الأعمال كراماً كاتبين، وبمشاهدة أوقات الصلوات ملائكةً متعاقبين.

وثانيهما: أنَّ ذلك على جهة التقدير والتمثيل المُفْهِم للإغياء[٥] وشدّة الاعتناء.

---

(١) برقم (٢٥٤٣).

(٢) صحيح مسلم (٢٥٥٦) (١٨)، وصحيح البخاري (٥٩٨٤)، وهو في مسند أحمد (١٦٧٦٣).

(٣) ١/ ٣٤١، وسلف الحديث في المسألة قبلها.

(٤) المفهم ٦/ ٥٢٤.

(٥) في النسخ عدا (خ) للاعياء، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٢٥ والكلام منه.

فكأنه قال: لو كانت الرَّحم ممن يعقل ويتكلم لقالت هذا الكلام، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] [الحشر: ٢١].

وقوله: «فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة» مقصود هذا الكلام: الإخبارُ بتأكّد أمر صلة الرحم، وأن الله سبحانه قد نزّلها بمنزلة من استجار به فأجاره، وأدخله في ذمَّته وخَفارته[2]. وإذا كان كذلك فجارُ الله غيرُ مخذول، وعهدُه غيرُ منقوض. ولذلك قال مخاطباً للرَّحِم: «أمَا تَرْضَيْن أن أصلَ مَن وَصَلكِ وأقطع مَن قطعكِ». وهذا كما قال عليه الصلاة والسلام: «من صلَّى الصبحَ فهو في ذمة الله تعالى، فلا يطلبنكم اللهُ من ذمَّته بشيء، فإنه من يطلبُه بذمته بشيء يدركه، ثمَّ يَكُبّه في النار على وجهه»[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾

قال قتادة: هم كفار أهل الكتاب، كفروا بالنبيّ ﷺ بعد ما عرفوا نعتَه عندهم. وقاله ابن جريج[4]. وقال ابن عباس والضحاك والسدي: هم المنافقون[5]، قعدوا عن القتال بعد ما علموه في القرآن.

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيّن لهم خطاياهم. قاله الحسن. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدّ لهم الشيطان في الأمل، ووعدهم طولَ العمر؛ عن الحسن أيضاً. وقال: إنَّ الذي

(١) المفهم ٦/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) الخَفارة: الأمان. اللسان (خفر).

(٣) أخرجه مسلم (٦٥٧): (٢٦٢)، وأخرجه أحمد (١٨٨١٤) مختصراً، من حديث جندب البجلي، وأخرجه أحمد (٥٨٩٨) ـ مختصراً أيضاً ـ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٢.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

أملى لهم في الأمل ومدّ في آجالهم هو الله عزّ وجلّ. قاله الفرّاء والمفضل. وقال الكَلْبيّ ومقاتل: إنَّ معنى «أَمْلَى لَهُمْ»: أمهلهم؛ فعلى هذا يكون الله تعالى أمْلَى لهم بالإمهال في عذابهم(١).

وقرأ أبو عمرو وابن أبي إسحاق وعيسى بن عمر وأبو جعفر وشيبة: «وَأُمْلِيَ لَهُمْ»(٢) بضم الهمزة وكسر اللام وفتح الياء؛ على ما لم يسمَّ فاعله(٣). وكذلك قرأ ابن هُرْمُز ومجاهد والجَحْدرِيُّ ويعقوب، إلا أنَّهم سكَّنوا الياء؛ على وجه الخبر من الله تعالى عن نفسه أنه يفعل ذلك بهم؛ كأنَّه قال: وأنا أملي لهم(٤). واختاره أبو حاتم، قال: لأنَّ فتح الهمزة يُوهم أنَّ الشيطان يملي لهم، وليس كذلك؛ فلهذا عدل إلى الضم. قال المهدويّ: ومن قرأ: «وَأَمْلَى لَهُمْ» فالفاعل اسم الله تعالى. وقيل: الشيطان. واختار أبو عبيد قراءةَ العامة، قال: لأنَّ المعنى معلوم؛ لقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ﴾ [الفتح: ٩] ردّ التسبيحَ على اسم الله، والتوقيرَ والتعزيرَ على اسم الرسول.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟﴾ أي: ذلك الإملاء لهم حتى يتمادَوْا في الكفر بأنهم قالوا؛ يعني المنافقين واليهود ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهم المشركون: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: في مخالفة محمد والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه وتوهين أمره في السرِّ. وهم إنَّما قالوا ذلك سرًّا، فأخبر الله نبيَّه(٥).

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣.

(٢) قراءة أبي عمرو في السبعة ص٦٠٠، والتيسير ص٢٠١، وقراءة عيسى وشيبة في المحرر الوجيز ٥/ ١١٩. وقراءة أبي جعفر المشهورة عنه: «وأَمْلَى» كقراءة العامة. النشر ٢/ ٣٧٤.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤.

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٧٢، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٤، وهي من العشرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٤ بنحوه.

وقراءة العامة: «أَسْرَارَهُمْ» بفتح الهمزة جمع سِرّ، وهي اختيار أبي عبيد وأبي حاتم. وقرأ الكوفيون وابن وثّاب والأعمش وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم: «إِسْرَارَهُمْ» بكسر الهمزة على المصدر[١]، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٩] جُمع لاختلاف ضروب السر[٢].

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ﴾ أي: فكيف تكون حالهم[٣]. ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ﴾ أي: ضاربين؛ فهو في موضع الحال[٤]. ومعنى الكلام التخويف والتهديد، أي: إن تأخر عنهم العذابُ فإلى انقضاء العمر. وقد مضى في «الأنفال» و«النحل»[٥].

وقال ابن عباس: لا يتوفى أحد على معصية إلا بضرب شديد لوجهه وقفاه[٦].

وقيل: ذلك عند القتال نُصْرَةً لرسول الله ﷺ، بضرب الملائكة وجوهَهم عند الطلب، وأدبارَهم عند الهرب. وقيل: ذلك في القيامة عند سَوْقهم إلى النار[٧].

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك جزاؤهم[٨]. ﴿بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١١٩ ، والسبعة ص٦٠١ ، والتيسير ص٢٠١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .
(٢) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٧٨ .
(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .
(٤) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٤ .
(٥) ١٠/ ٤٤ - ٤٥ و١٢/ ٣١٥ .
(٦) الكشاف ٣/ ٥٣٧ بنحوه، ووقع في (ظ): يضرب ضرباً شديداً.
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٣-٣٠٤ .
(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٩٠ .

قال ابن عباس: هو كتمانُهم ما في التوراة من نعت محمد ﷺ[١]. وإن حُملت على المنافقين فهو إشارة إلى ما أضمروا عليه من الكفر. ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ يعني: الإيمان. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: ما عملوه من صدقة وصلةِ رحم وغير ذلك؛ على ما تقدّم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: نفاق وشكٌّ[٣]، يعني المنافقين. ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ﴾ الأضغان ما يُضمر من المكروه.

واختلف في معناه؛ فقال السُّدِّيّ: غِشّهم. وقال ابن عباس: حسدهم. وقال قُطْرُب: عداوتهم، وأنشد قول الشاعر:

قُل لابن هندٍ ما أردتَ بمَنْطِقٍ ساءَ الصديقَ وشيَّدَ الأضغانا

وقيل: أحقادهم[٤]. واحدها ضِغن[٥]. قال:

وذي ضِغْنٍ كففتُ النفسَ عنهُ

وقد تقدم[٦].

وقال عمرو بن كلثوم:

وإنَّ الضِّغنَ بعدَ الضِّغنِ يَفْشُو عليك ويُخرجُ الداءَ الدفينا[٧]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٥، وسلف ص٢٥٥ من هذا الجزء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤.

(٤) المصدر السابق، وفيه: (وسرَّ ذا الأضغان) بدل (وشيد الأضغانا).

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٦) صدر بيت للزبير بن عبد المطلب وعجزه: وكنت على مساءته مقيتا، وسلف ٦/ ٤٨٦.

(٧) شرح المعلقات للنحاس ٢/ ١٠١ ـ معلقة عمرو بن كلثوم ـ قال النحاس: الداء: يعني الحقد.

قال الجوهريّ: الضِّغن والضَّغينة: الحِقْد. وقد ضَغِنَ عليه ـ بالكسر ـ ضِغناً. وتضاغن القومُ واضْطَغَنُوا: انْطَوَوْا[1] على الأحقاد. واضْطَغَنْت الصبيَّ: إذا أخذتَه تحت حضنك. وأنشد الأحمر:

كـأنّـه مُـضْـطَـغِـنٌ صـبِـيَّـا[2]

أي: حامله في حِجْره. وقال ابن مُقبل:

إذا اضطغنتُ سلاحي عند مَغْرِضِها ومِرفقٍ كرِئاس السيفِ إذْ شَسَفَا[3]

وفرس ضاغن: لا يعطي ما عنده من الجري إلا بالضرب.

والمعنى: أم حسبوا أن لن يُظهرَ الله عداوتَهم وحقدَهم لأهل الإسلام. ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ أي: لعرَّفناكهم[4].

قال ابن عباس: وقد عرّفه إيَّاهم في سورة براءة[5].

تقول العرب: سأريك ما أصنع، أي: سأعلمك[6]، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥] أي: بما أعلمك.

﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم. قال أنس: ما خفيَ على النبيّ ﷺ بعد هذه الآية أحدٌ من المنافقين؛ كان يعرفهم بسيماهم[7]. وقد كنا في غَزَاة وفيها سبعة من المنافقين يشكونهم الناس[8]، فأصبحوا ذات ليلة وعلى جبهة كلِّ واحد منهم مكتوبٌ

(١) في النسخ: أبطنوا، والمثبت من الصحاح، والكلام منه.

(٢) الصحاح (ضغن)، والرجز أيضاً في غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ١٩٣ .

(٣) هذه رواية الصحاح، وفي ديوان ابن مقبل ص١٨٦ : (ثم اضطبنت) بدل (إذا اضطغنت). اضطبنت: أي: احتضنت، والمغرض: جانب البطن أسفل الأضلاع، ورئاس السيف: مقبضه، وشسفَ، أي: يبس من الضمر والهزال. اللسان (ضبن) (غرض) (رأس) (شسف).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ بنحوه.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٢ .

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٢٢٢ .

(٧) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥ ، والكشاف ٣/ ٥٣٧ .

(٨) في (ف): يشكوا الناس، وفي الكشاف ٣/ ٥٣٧ والكلام منه: يشكوهم الناس.

«هذا منافق» فذلك سيماهم[١].

وقال ابن زيد: قدَّر الله إظهارَهم، وأمر أن يُخرجوا من المسجد، فأبَوا إلا أن يتمسكوا بلا إله إلا الله، فحُقنت دماؤهم ونكحوا وأنكحوا بها[٢].

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: في فحواه ومعناه. ومنه قول الشاعر:

وخيرُ الكلام ما كان لَحْنَا

أي: ما عُرف بالمعنى ولم يُصَرَّح به[٣].

مأخوذ من اللَّحن في الإعراب، وهو الذهابُ عن الصواب، ومنه قول النبيّ ﷺ: «إنَّكم تختصمون إليَّ، ولعلَّ بعضَكم أن يكون ألحنَ بحجته من بعض» أي: أذهبَ بها في الجواب لقوّته على تصريف الكلام[٤].

أبو زيد: لَحَنْتُ له ـ بالفتح ـ ألْحَنُ لَحْناً: إذا قُلْتَ له قوْلاً يفهمه عنك، ويخْفى على غيره. ولَحِنَه هو عَنِّي ـ بالكسر ـ يلحَنه لَحْناً، أي: فهمه. وألحنته أنا إياه. ولاحنْتُ الناس: فاطنتُهم، قال الفَزارِيّ:

وحديثٍ ألَذُّهُ هو ممّا يَنْعَتُ النَّاعِتُون يُوزَنُ وزْنَا
منطِقٌ رائعٌ وتَلْحَنُ أحيا ناً وخيرُ الحديث ما كان لحنَا[٥]

يريد أنَّها تتكلم وهي تريد غيرَه، وتُعَرِّض في حديثها فتزيله عن جهته من فطنتها وذكائها. وقد قال تعالى: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾. وقال القَتَّال الكِلابيّ:

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٧، وفيه (تسعة) بدل (سبعة).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ٢١/ ٢٢٣.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٤٨٥-٤٨٦، وفيه: (وخير الحديث) بدل (وخير الكلام)، والشعر لمالك بن أسماء الفزاري وسيأتي قريباً.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٠٤-٣٠٥، والحديث سلف ٢/ ٢٧٤.

(٥) الصحاح (لحن) وهذه روايته، والبيت أيضاً في الشعر والشعراء ٢/ ٧٨٢، والأغاني ١٧/ ٢٣٦ وروايتهما فيه: (صائب) بدل (رائع)، و(أحلى) بدل (خير)، ووقع في الشعر والشعراء أيضاً (يشتهي) بدل (ينعت)، والفزاري قال ابن قتيبة: هو مالك بن أسماء بن خارجة، وآباؤه سادة غَطَفان.

ولقد وَحَيْتُ لكم لكيما تفهموا ولَحَنْتُ لحنًا ليس بالمرتابِ[١]

وقال مرار الأسدي:

ولحنتِ لحنًا فيه غشٌّ ورابني صدودُكِ تُرْضين الوُشاةَ الأعادِيا

قال الكلبي: فلم يتكلم بعد نزولها عند النبيّ ﷺ منافق إلا عرفه[٢].

وقيل: كان المنافقون يخاطبون النبيَّ ﷺ بكلام تواضعوه فيما بينهم، والنبيُّ ﷺ يسمع ذلك ويأخذ بالظاهر المعتاد، فنبهه الله تعالى عليه، فكان بعد هذا يعرف المنافقين إذا سمع كلامَهم.

قال أنس: فلم يَخْفَ منافقٌ بعد هذه الآية على رسول الله ﷺ؛ عَرّفه الله ذلك بوحي أو علامة عرَفها بتعريف الله إياه[٣].

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نتعبّدكم بالشرائع وإن علمنا عواقبَ الأمور، وقيل: لنعاملنَّكم معاملة المختبرين[٤].

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ عليه. قال ابن عباس: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نميّز. وقال عليّ ﷺ: «حَتَّى نَعْلَمَ»: حتى نرى. وقد مضى في «البقرة»[٥].

---

(١) الصحاح (لحن) وهذه روايته، وهو في ديوان القتّال الكلابي ص٣٦ برواية:

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا ووحيت وحياً ليس بالمرتاب

والقتّال الكِلابي: هو عبد الله بن مُجيب بن المضرحيّ، شاعر فارس. المؤتلف والمختلف للآمدي ص٢٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٠٥، والبيت السالف فيه.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥، والكشاف ٣/ ٥٣٧.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٥.

(٥) ٢/ ٤٣٧ - ٤٣٨.

وقراءة العامة بالنون في «نَبْلُونَّكُمْ» و«نعلم» «وَنَبْلُوَ». وقرأ أبو بكر عن عاصم بالياء فيهنّ. وروى رُوَيس عن يعقوب إسكانَ الواو من «نبلو» على القطع مما قبل. ونصب الباقون ردًّا على قوله: «حَتَّى نَعْلَمَ»[1].

وهذا العِلمُ هو العِلمُ الذي يقع به الجزاء؛ لأنَّه إنَّما يجازيهم بأعمالهم لا بعلمه القديم عليهم. فتأويله: حتى نعلمَ المجاهدين علمَ شهادة؛ لأنَّهم إذا أمروا بالعمل يشهد منهم ما عملوا، فالجزاءُ بالثواب والعقاب يقع على علم الشهادة[2]. ﴿وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ﴾: نختبرها ونظهرها.

قال إبراهيم بن الأشعث: كان الفُضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبتلنا[3]؛ فإنَّك إذا بلوتنا فضحْتَنا وهتكْتَ أستارَنا[4].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾

يرجع إلى المنافقين أو إلى اليهود[5].

وقال ابن عباس: هم المطعِمون يوم بدر. نظيرها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٦] الآية[6].

﴿وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عادوه وخالفوه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: علموا أنه نبيّ بالحُجج والآيات. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ بكفرهم. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ أي: ثوابَ ما عملوه[7].

---

(١) السبعة ص٦٠١، والتيسير ص٢٠١، والنشر ٢/ ٣٧٥. والكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٦ بنحوه.
(٣) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: لا تبتلينا.
(٤) الكشاف ٣/ ٥٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢١ دون ذكر إبراهيم بن الأشعث.
(٥) المحرر الوجيز ٥/ ١٢١.
(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.
(٧) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ لمَّا بيَّن حال الكفار، أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره، والرسولِ في سننه.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: حسناتِكم بالمعاصي. قاله الحسن. وقال الزُّهْرِي: بالكبائر. ابن جريج: بالرِّياء والسُّمعة[1]. وقال مقاتل والثُّمَاليّ: بالمَنّ[2]؛ وهو خطاب لمن كان يمنّ على النبيّ ﷺ بإسلامه. وكلُّه متقارب، وقول الحسن يجمعه.

وفيه إشارة إلى أنَّ الكبائرَ تحبط الطاعات، والمعاصي تُخرِج عن الإيمان[3].

الثانية: احتج علماؤنا وغيرُهم بهذه الآية على أنَّ التحللَ من التطوّع ـ صلاةً كان أو صوماً ـ بعد التلبس به لا يجوز؛ لأنَّ فيه إبطالَ العمل، وقد نهى الله عنه. وقال من أجاز ذلك ـ وهو الإمام الشافعي وغيرُه ـ: المراد بذلك إبطالُ ثواب العمل المفروض، فنهى الرجل عن إحباط ثوابه. فأمّا ما كان نفلاً فلا؛ لأنَّه ليس واجباً عليه. فإن زعموا أنَّ اللفظ عام، فالعامّ يجوز تخصيصه. ووجه تخصيصه أنَّ النَّفلَ تطوّع، والتطوّع يقتضي تخييراً[4].

وعن أبي العالية: كانوا يرون أنه لا يضر مع الإسلام ذنب، حتى نزلت هذه الآية فخافوا الكبائر أن تُحبط الأعمال. وقال مقاتل: يقول الله تعالى إذا عصيتم الرسول فقد أبطلتم أعمالكم[5].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦.

(٢) زاد المسير ٧/ ٤١٢ دون نسبة.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٣٨ - ٥٣٩ بنحوه، وهذا كلام المعتزلة، ومذهب أهل السنة أن المعاصي لا تبطل الحسنات، ولا تُخرج صاحبها عن الإيمان، غير أن من أصرَّ عليها خيف عليه أن يرين على قلبه، فيخرجه من الإيمان. وينظر روح المعاني ٢٦/ ٧٩ - ٨٠، والداء والدواء ص١٠٣-١٠٥.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٥) لفظ قول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٨٦: «لا تَمُنُّوا على رسول الله ﷺ؛ فتبطلوا أعمالكم». وذكر قول أبي العالية بنحوه أيضاً الواحدي في الوسيط ٤/ ١٢٩، وأبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٧.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾

بيّن أنَّ الاعتبارَ بالوفاة على الكفر يوجبُ الخلودَ في النار. وقد مضى في «البقرة» الكلام فيه[١]. وقيل: إنَّ المرادَ بالآية أصحابُ القليب. وحكمها عام[٢].

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ أي: تضعفوا عن القتال[٣].

والوَهْن: الضعف. وقد وَهَن الإنسانُ وَوَهَنَهُ غيره، يتعدّى ولا يتعدَّى. قال:

إنَّــنــي لَــسْــتُ بِـمَـوْهُـونٍ فَـقِـرْ[٤]

ووَهِن أيضاً ـ بالكسر ـ وَهْنًا، أي: ضعف[٥].

وقرىء: «فما وَهُنُوا» بضم الهاء وكسرها. وقد مضى في «آل عمران»[٦].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: الصُّلح. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ أي: وأنتم أعلمُ بالله منهم. وقيل: وأنتم الأعلون في الحجة[٧]. وقيل: المعنى: وأنتم الغالبون لأنَّكم مؤمنون وإن غلبوكم في الظاهر في بعض الأحوال[٨].

---

(١) ٣/ ٤٣٠ .

(٢) الكشاف ٣/ ٥٣٩ ، والقليب: البئر ، والمراد: قليب بدر. النهاية (قلب).

(٣) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٤) عجز بيت لطرفة وصدره: وإذا تلسُنُني ألسُنها، وهو في ديوانه ص٥٣ ، والكلام في الصحاح (وهن).

(٥) الصحاح (وهن).

(٦) ٥/ ٣٥٣ ، ولم نقف على من قرأ «وهُنوا» بضم الهاء.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٣٠١ .

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦ .

وقال قتادة: لا تكونوا أوّلَ الطائفتين ضرعتْ إلى صاحبتها(١).

الثالثة: واختلف العلماء في حكمها؛ فقيل: إنها ناسخة لقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١] لأنَّ الله تعالى منع من المَيْل إلى الصلح إذا لم يكن بالمسلمين حاجةٌ إلى الصلح. وقيل: منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]. وقيل: هي محكمة. والآيتان نزلتا في وقتين مختلفي الحال. وقيل: إنَّ قوله: «وإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا» مخصوص في قوم بأعيانهم، والأخرى عامة(٢).

فلا يجوز مهادنة الكفار إلا عند الضرورة؛ وذلك إذا عجزنا عن مقاومتهم لضعف المسلمين(٣). وقد مضى هذا المعنى مستوفى(٤).

﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾ أي: بالنَّصر والمعونة(٥)؛ مثل: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينقصكم؛ عن ابن عباس وغيره(٦).

ومنه الموتور الذي قُتِل له قتيل فلم يدرك بدمه، تقول منه: وَتَرَه يَتِره وتْرًا وَتِرَةً(٧).

ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من فاتته صلاةُ العصر فكأنَّما وُتِرَ أهلَه ومالَه» أي: ذُهب بهما(٨).

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٣٩، وفيه: ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ١٣، وينظر ٢/ ٣٨٥ منه.

(٣) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٥.

(٤) ١٠/ ٦٢ فما بعدها.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦ عن مجاهد وقطرب، وقول مجاهد في تفسيره ٢/ ٥٩٩.

(٧) الصحاح (وتر).

(٨) أخرجه أحمد (٦٣٢٤)، والبخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦): (٢٠١) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وكذلك وَتَرَهُ حقّه أي: نقصه. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن ينتقصكم في أعمالكم، كما تقول: دخلتُ البيت؛ وأنت تريد في البيت. قاله الجوهري[١].

الفرّاء: «وَلَنْ يَتِرَكُمْ» هو مشتقٌّ من الوتر، وهو الفرد؛ فكان المعنى: ولن يفردكم بغير ثواب[٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ تقدّم في «الأنعام»[٣]. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ شرط، وجوابه. ﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يأمركم بإخراج جميعها في الزكاة؛ بل أمر بإخراج البعض. قاله ابن عُيينة وغيره[٤].

وقيل: «لا يَسْأَلْكم أموالَكم» لنفسه[٥] أو لحاجة منه إليها، إنَّما يأمركم بالإنفاقِ في سبيله؛ ليرجع ثوابُه إليكم.

وقيل: «لَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ» إنّما يسألكم أمواله؛ لأنّه أملَكُ[٦] لها، وهو المنعم بإعطائها[٧].

وقيل: ولا يسألكم محمدٌ أموالَكم أجراً على تبليغ الرسالة. نظيره: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧] الآية. ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ﴾: يلحّ عليكم.

---

(١) في الصحاح (وتر).

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٢٢ دون نسبة. وقال: والأول أصح.

(٣) ٨/ ٣٦٠ - ٣٦١.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٢٣ بنحوه عن ابن عيينة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٦.

(٦) في (م): المالك.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧.

يقال: أحفى بالمسألة وألحف وألحّ بمعنًى واحد. والحَفيّ المستقصِي في السؤال، وكذلك الإحفاء الاستقصاء في الكلام والمنازعة. ومنه أحفى شاربَه؛ أي: استقصى في أخذه(١).

﴿تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ أي: يخرج البخل أضغانكم.

قال قتادة: قد علم الله أنّ في سؤال المال خروجَ الأضغان(٢).

وقرأ ابن عباس ومجاهد وابن مُحَيصِن وحميد: «وتَخْرُج» بتاء مفتوحة وراء مضمومة. «أضْغَانُكُمْ» بالرفع لكونه الفاعل(٣). وروى الوليدُ عن يعقوب الحضرميّ «ونخرج» بالنون(٤). وأبو معمر عن عبد الوارث عن أبي عمرو: «ويخرج» بالرفع في الجيم على القطع والاستئناف(٥)، والمشهور عنه: «ويُخْرِجْ» كسائر القرّاء، عطف على ما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ أي: هأنتم هؤلاء أيُّها المؤمنون تُدعون ﴿لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد وطريق الخير. ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ﴾ أي: على نفسه؛ أي: يمنعها الأجرَ والثواب. ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾ أي: إنَّه ليس بمُحتاجٍ إلى أموالكم. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ﴾ إليها.

(١) الصحاح (حفا).

(٢) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨، والوسيط ٤/ ١٣٠، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٢٤.

(٣) القراءات الشاذة ص١٤١، والبحر المحيط ٨/ ٨٦.

(٤) البحر المحيط ٨/ ٨٦، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤١ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) المحتسب ٢/ ٢٧٣، والقراءات الشاذة ص١٤١.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي: أطوعَ لله منكم[١].

روى الترمذي[٢] عن أبي هريرة قال: تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم﴾ قالوا: ومن يُستبدل بنا؟ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ على منكِب سلمان ثم قال: «هذا وقومُه. هذا وقومُه» قال: حديث غريب في إسناده مقال.

وقد روى عبد الله بن جعفر بن نجيح والد علي بن المديني أيضاً هذا الحديث عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال أناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله، مَنْ هؤلاء الذين ذكر اللهُ إنْ تَوَلَّينا استُبدلوا، ثمَّ لا يكونوا أمثالَنا؟ قال: وكان سلمانُ جنبَ رسول الله ﷺ قال: فضرب رسولُ الله ﷺ فخذَ سلمان، قال: «هذا وأصحابُه. والذي نفسي بيدِه لو كان الإيمانُ مَنُوطًا بالثُّرَيَّا لتناولَه رجالٌ من فارس»[٣].

وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس والروم[٤]. قال المحاسبيّ: فلا أحد بعد العرب من جميعِ أجناسِ الأعاجم أحسنُ دِيناً، ولا كانت العلماءُ منهم إلا الفرس.

وقيل: إنَّهم اليمن، وهم الأنصار. قاله شريح بن عبيد[٥]. وكذا قال ابن عباس:

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٤٨.

(٢) في سننه (٣٢٦٠).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦١)، وهو في صحيح ابن حبان (٧١٢٣) من طريق مسلم بن خالد عن العلاء...
وأخرجه البخاري (٤٨٩٧)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣١) بلفظ: «... فوضع يده على سلمان ثم قال: «لو كان الإيمان عند الثريا، لَنَالَهُ رجال من هؤلاء».
وأخرجه أحمد (٨٠٨١)، ومسلم (٢٥٤٦) (٢٣٠) بلفظ: «لو كان الدين عند الثريا، لذهب به رجل من فارس - أو قال - من أبناء فارس».

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٨٧، والكشاف ٣/ ٥٤٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٠٧.

هم الأنصار[١]. وعنه: أنَّهم الملائكة[٢]. وعنه: هم التابعون. وقال مجاهد: إنَّهم من شاء من سائر الناس[٣].

﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ قال الطبريّ: أي: في البُخل بالإنفاق في سبيل الله. وحُكي عن أبي موسى الأشعريّ أنَّه لمّا نزلت هذه الآيةُ، فرح بها رسولُ الله ﷺ وقال: «هي أحبُّ إليَّ من الدنيا»[٤]. والله أعلم.

ختمت السورةُ بحمد الله وعونه، وصلَّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه الأطهار.

---

(١) نسبه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/٤١٦ لمقاتل.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/١٧ دون نسبة.

(٣) زاد المسير ٧/٤١٦ .

(٤) النكت والعيون ٥/٣٠٨ .

سورة الفتح

مدنيَّةٌ بإجماع، وهي تسع وعشرون آية. ونزلت ليلاً بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيْبِية. روى محمد بن إسحاق عن الزهريّ عن عروة عن المِسْوَر بن مَخرَمة ومروان ابن الحكم، قالا: نَزلتْ سورةُ الفتح بين مكة والمدينة في شأن الحُدَيبية من أوَّلها إلى آخرها[(١)].

وفي الصحيحين عن زيد بن أسلم عن أبيه أنَّ رسول الله ﷺ كانَ يسيرُ في بعض أسفاره، وعمرُ بنُ الخطَّابِ يسيرُ معه ليلاً فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبه رسول الله ﷺ، ثمَّ سأله فلم يُجبه، ثمَّ سألَه فلم يُجِبه؛ فقال عمرُ بن الخطاب: ثَكِلَتْ أمُّ عمر، نَزَرْتَ رسول الله ﷺ ثلاثَ مرَّاتٍ كُلَّ ذلك لم يجبك؛ فقال عمر: فحرَّكتُ بعيري ثمَّ تقدَّمتُ أمامَ الناس، وخشيتُ أنْ يُنزَلَ فيَّ قرآن، فما نَشِبتُ أنْ سمعتُ صارخاً يصرخ بي؛ فقلت: لقد خشيتُ أنْ يكون نَزل فيَّ قرآن، فجئتُ رسولَ الله ﷺ فسلَّمتُ عليه؛ فقال: «لقد أُنزِلت عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ ممّا طَلَعت عليه الشمس ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾». لفظ البخاريّ[(٢)]. وقال الترمذي: حديث حسن غريب صحيح[(٣)].

وفي صحيح مسلم[(٤)] عن قتادة أنَّ أنس بن مالك حدَّثهم قال: لمَّا نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ مَرْجِعَه من الحُدَيْبِيَة وَهُم يخالطُهم الحزنُ والكآبة، وقد نَحر الهَديَ بالحُدَيْبِيَة، فقال: «لقد أُنزِلَتْ عليَّ آيةٌ هي أحبُّ إليَّ من الدنيا جميعاً».

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣.

(٢) صحيح البخاري (٤١٧٧) و(٤٨٣٣). وليس في صحيح مسلم ولم يعزه المزي إليه ٨/٦. وهو في مسند أحمد (٢٠٩). وقوله: نزرتَ رسول الله، أي: ألححتَ عليه في المسألة إلحاحاً. ولم ينشب أن فعل كذا: أي لم يلبث. النهاية (نزر) (نشب).

(٣) سنن الترمذي (٣٢٦٢).

(٤) برقم (١٧٨٦)، وأخرجه أحمد (١٣٢٤٦).

وقال عطاء عن ابن عباس: إنَّ اليهودَ شتموا النبيَّ ﷺ والمسلمين لمَّا نَزلَ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف:٩] وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفعل به! فاشتدَّ ذلك على النبيِّ ﷺ، فأنزلَ الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[١].

ونحوه قال مقاتل بن سليمان: لمَّا نزلَ قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فَرحَ المشركون والمنافقون، وقالوا: كيف نتَّبع رجلاً لا يدري ما يُفْعَل به ولا بأصحابه فنزلتْ بعد ما رجع من الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ أي: قضينا لك قضاء. فنَسخَتْ هذه الآيةُ تلك. فقال النبيُّ ﷺ: «لقد أُنزلت عليَّ سورةٌ ما يَسُرُّني بها حُمْرُ النَّعَم»[٢].

وقال المسعودي: بلغني أنَّه من قرأ سورةَ الفتح في أوَّل ليلةٍ من رمضان في صلاة التطوُّع حفظَه الله ذلك العام[٣].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾

اختُلِف في هذا الفتح ما هو؟ ففي البخاري[٤]: حدّثني محمد بن بشار قال: حدّثنا غُندر قال: حدّثنا شعبة قال: سمعت قتادةَ عن أنس: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: الحُدَيْبِيَة.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص٤٠٣-٤٠٤، وسلف نحوه في موضعه من الأحقاف.

(٢) ذكره بنحوه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٤٩، وليس فيه ذكر النَّسخ، ولا قول النبي ﷺ «لقد نزلت علي سورة...».

(٣) ذكر السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٠ وعزاه للسِّلَفي في الطيوريات، ولم يذكر المسعودي إسناده إلى من بلغه، فالخبر ضعيف. ثم إن المسعودي ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عتبة بن عبد الله بن مسعود ـ صدوق اختلط قبل موته؛ كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) برقم (٤٨٣٤).

وقال جابر: ما كنا نعدُّ فتح مكَّة إلا يومَ الحُدَيْبية[١].

وقال البراء[٢]: تعدُّون أنتم الفتحَ فتحَ مكَّة، وقد كان فتح مكَّة فتحاً، ونحن نعدُّ الفتحَ بيعةَ الرِّضوان يومَ الحديبية، كنا نَعُدُّ مع النبي ﷺ أربع عشرة مئة، والحديبية بئر[٣].

وقال الضحاك: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ بغير قتال. وكان الصلح من الفتح[٤].

وقال مجاهد[٥]: هو مَنْحَره بالحديبية وحلقه رأسه.

وكان[٦] فتحُ الحديبية آيةً عظيمة، نُزِح ماؤُها، فمجَّ فيها، فدرَّت بالماء حتى شَرب جميعُ من كان معه[٧].

وقال موسى بن عقبة: قال رجلٌ عند مُنصَرَفهم من الحديبية: ما هذا بفتح؛ لقد صدُّونا عن البيت. فقال النبيُّ ﷺ: «بل هو أعظمُ الفتوح، قد رضيَ المشركون أنْ يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ويسألوكم القضيَّة، ويرغبوا إليكم في الأمان، وقد رأوا منكم ما كرهوا»[٨].

وقال الشعبيُّ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ قال: هو فتحُ الحديبية، لقد

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٢ .

(٢) في النسخ: الفراء. وهو خطأ.

(٣) قطعة من حديث البراء أخرجه البخاري (٤١٥٠)، والطبري ٢١/ ٢٤٣ ، وأخرج بعضه أحمد (١٨٥٦٣). وفي الطبري: خمس عشرة مئة. بدل: أربع عشرة مئة. قال الحافظ ابن حجر ٧/ ٤٤٠ : والجمع بين هذا الخلاف أنهم كانوا أكثر من ألف وأربع مئة، فمن قال: ألفاً وخمس مئة جبر الكسر، ومن قال ألفاً وأربع مئة ألغاه.

(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٨ .

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٣٩ .

(٦) في النسخ عدا (د) و(ز): وقال: كان. بدل: وكان.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩ ، والكشاف ٣/ ٥٤٠ . وهذا المعنى هو بعض حديث البراء عند البخاري (٤١٥٠) السالف ذكره.

(٨) ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٤١ . وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٤/ ١٦٠ .

أصاب بها ما لم يُصِب في غزوة، غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وبُويع بيعةَ الرضوان، وأُطعِموا نخلَ خيبر، وبلغَ الهَدْيُ مَحِلّه، وظهرت الرومُ على فارس، ففرح المؤمنون بظهور أهل الكتاب على المجوس(١).

وقال الزهريّ: لقد كان الحديبيةُ أعظمَ الفتوح؛ وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ جاء إليها في ألف وأربع مئة، فلما وقع الصلحُ؛ مشى الناس بعضهم في بعض وعلموا وسمعوا عن الله، فما أراد أحدٌ الإسلام إلا تمكَّن منه؛ فما مضتْ تلك السنتان إلاَّ والمسلمونَ قد جاؤوا إلى مكَّة في عشرة آلاف(٢). وقال مجاهدٌ أيضاً والعَوْفي(٣): هو فتح خَيبر. والأوَّل أكثر؛ وخَيبَرُ إنَّما كانت وعْدًا وُعِدُوه؛ على ما يأتي بيانه في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: ٢٠].

وقال مُجَمِّع بن جارية ـ وكان أحدَ القرّاء الذين قرؤوا القرآن ـ: شهدنا الحديبيةَ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرفنا عنها، إذا الناس يهزُّون الأباعر، فقال بعضُ النَّاس لبعض: ما بالُ النَّاس؟ قالوا: أوحَى الله إلى النبيِّ ﷺ. قال: فخرجنا نُوجِف فوجدنا نبيَّ الله ﷺ عند كُراع الغَمِيم، فلمَّا اجتمع الناسُ قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾. فقال عمرُ بن الخطاب: أوَ فتحٌ هو يا رسول الله؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده إنَّه لَفتح». فقُسِمت خيبرُ على أهل الحديبية، لم يُدْخَل فيها(٤) أحدٌ إلاَّ من شَهد الحديبية(٥).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٥٥، والطبري ٢١/ ٢٤٤، والبيهقي في الدلائل ٤/ ١٦٢-١٦٣.

(٢) أخرجه النحاس في الناسخ والمنسوخ ٣/ ١٧.

(٣) ذكر قولهما ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٢٣.

(٤) لفظة: فيها. ليست في (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٤٧٠)، وأبو داود (٢٧٣٦). قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٦٨: وفي إسناده ضعف. اهـ. قوله: يهزون الأباعر: أي يحثُّونها ويدفعونها، والوهز: شدَّة الدفع والوَطء. النهاية (وهز)، وقوله: نوجف: الإيجاف سرعة السير، النهاية (وجف). وكُراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة. معجم البلدان ٤/ ٤٤٣.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: «فَتْحاً» يدلُّ على أنَّ مكَّة فُتِحت عَنْوةً؛ لأنَّ اسم الفتح لا يقع مطلقاً إلاَّ على ما فُتِح عَنْوةً. هذا هو حقيقةُ الاسم. وقد يقال: فُتِح البلد صُلحاً، فلا يفهمُ الصُّلح إلَّا بأن يُقرن بالفتح، فصار الفتحُ في الصلح مجازاً[١]. والأخبارُ دالةٌ على أنَّها فُتِحت عَنْوة؛ وقد مضى القولُ فيها، ويأتي[٢].

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾

قال ابن الأنباري: «فَتحاً مُبيناً» غير تام؛ لأنَّ قولَه: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ﴾ متعلقٌ بالفتح. كأنَّه قال: إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً لكي يجمعَ الله لك مع الفتح المغفرة؛ فيجمع الله لك به ما تَقَرُّ به عينُك في الدنيا والآخرة. وقال أبو حاتم السّجستانيّ: هي لام القسم. وهذا خطأ؛ لأنَّ لامَ القسم لا تُكسر ولا يُنصب بها؛ ولو جاز هذا لجاز: ليقوم زيد؛ بتأويل ليقومنَّ زيد[٣].

الزَّمخْشَرِي[٤]: فإنْ قلتَ: كيف يجعل فتحَ مكَّة عِلَّةً للمغفرة؟ قلت: لم يُجعل علَّةً للمغفرة، ولكن لاجتماع ما عدَّد من الأمور الأربعة؛ وهي: المغفرةُ، وإتمامُ النعمة، وهدايةُ الصراط المستقيم، والنصرُ العزيز. كأنَّه قيل[٥]: يَسَّرْنا لك فتح مكَّة، ونصرناك على عدوِّك ليُجمع لك عِزُّ الدَّارين، وأغراضُ[٦] العاجل والآجل. ويجوز أنْ يكونَ فتحُ مكَّة من حيثُ إنَّه جهادٌ للعدوّ سبباً للغفران والثواب.

وفي الترمذيّ عن أنس قال: أُنزلت على النبيّ ﷺ: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ

(١) ينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣ .

(٢) سلف ١٤/ ٣٥٢ ، وسيأتي ص٢٨٢ من هذا الجزء.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٠ و٧٠٠ .

(٤) في الكشاف ٣/ ٥١٤ .

(٥) في (م): قال.

(٦) في النسخ: أعراض. والمثبت من الكشاف.

﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مَرجِعَه من الحديبية؛ فقال النبي ﷺ: «لقد أُنزِلت عليَّ آيةٌ أحبُّ إليَّ ممَّا على وجه الأرض». ثم قرأها النبيُّ ﷺ عليهم؛ فقالوا: هنيئاً مريئاً يا رسولَ الله، لقد بيَّن الله لك ماذا يُفْعَل بك؛ فماذا يُفْعَل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ حتى بلغ: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٥]. قال: حديثٌ حسنٌ صحيح، وفيه عن مُجَمِّع بن جارية(١).

واختلف أهلُ التأويل في معنى ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ فقيل: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ بعدها؛ قاله مجاهد(٢). ونحوه قال الطبريُّ وسفيانُ الثوري.

قال الطبريّ: هو راجعٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ إلى قوله: ﴿تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١-٣]. ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ قبل الرسالة ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ إلى وقت نزول هذه الآية(٣).

وقال سفيانُ الثوري: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾: ما عملتَه في الجاهلية من قبل أنْ يوحى إليك. ﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾: كلَّ شيء لم تعمله؛ وقاله الواحدي(٤).

وقد مضى الكلام في جريان الصغائر على الأنبياء في سورة البقرة(٥)؛ فهذا قول.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل الفتح. «ومَا تَأَخَّرَ» بعد الفتح. وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: قبل نزول

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٣)، وهو عند أحمد (١٢٢٢٦)، وأخرجه البخاري (٤١٧٢) من طريق شعبة عن قتادة. قال شعبة: فقدمت الكوفة، فحدثت بهذا كلّه عن قتادة، ثم رجعت فذكرت له فقال: أما ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ فعن أنس، وأما هنيئاً مريئاً، فعن عكرمة. اهـ. وأخرج مسلم (١٧٨٦) الشطر الأول منه. وحديث مجمّع بن جارية سلف قريباً.

(٢) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩، وعنه نقل المصنف كلام الطبري. إلا أن قول الطبري كما في تفسيره ٢١/ ٢٣٦: ... ما تقدم من ذنبك قبل فتحه لك ما فتح، وما تأخر بعد فتحه لك ذلك.

(٤) في الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) ١/ ٤٥٨-٤٦٠.

هذه الآية. «ومَا تَأخَّرَ» بعدها[١].

وقال عطاء الخراسانيّ: «مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ» يعني من ذنب أبويك آدم وحوّاء. «ومَا تَأخَّرَ» من ذنوب أمتك[٢].

وقيل: من ذنب أبيك إبراهيم. «وَمَا تَأخَّرَ» من ذنوب النبيّين.

وقيل: «مَا تَقَدَّمَ»: من ذنب يوم بدر. «ومَا تَأخَّرَ» من ذنب يوم حُنَين. وذلك أنَّ الذنب المتقدّم يوم بدر، أنَّه جعل يدعو ويقول: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة لا تُعْبد في الأرض أبداً». وجعل يردِّدُ هذا القول دفعات، فأوحى الله إليه: من أين تعلم أني لو أهلكتُ هذه العصابة لا أُعبد أبداً؛ فكان هذا الذنبَ المتقدِّم. وأمَّا الذنبُ المتأخر فيوم حنين، لمَّا انهزمَ النَّاسُ قال لعمه العباس ولابن عمه أبي سفيان: «ناولاني كَفًّا من حَصْباء الوادي» فناولاه، فأخذَه بيده ورمى به في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه. حَم. لا ينصرون». فانهزمَ القوم عن آخرهم، فلم يبق أحدٌ إلا امتلأت عيناه رملاً وحصباء. ثم نادى في أصحابه فرجَعوا، فقال لهم عند رجوعهم: «لو لم أرمهم لم ينهزموا». فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧] فكان هذا هو الذنبَ المتأخِّر.

وقال أبو علي الرُّوذَبَاري: يقول: لو كان لك ذنبٌ قديم أو حديثٌ لغفرناه لك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس: في الجنة[٤]. وقيل: بالنبوّة والحكمة[٥]. وقيل: بفتح مكّة والطائف وخيبر. وقيل: بخضوع من استكبر، وطاعة من تجبَّر[٦]. ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يُثبِّتك على الهدى إلى أنْ يقبضك إليه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

(٢) ذكره البغوي ٤/ ١٨٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٢٦.

(٣) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٥٣ دون نسبة.

(٤) الوسيط ٤/ ١٣٤.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٠.

﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: غالباً منيعاً لا يَتبعُه ذلّ.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾﴾

«السَّكِينَة»: السكونُ والطُّمأنينة. قال ابن عباس: كلُّ سكينةٍ في القرآن هي الطُّمأنينة إلا التي في «البقرة»[(١)]. وتقدَّم معنى زيادة الإيمان في «آل عمران»[(٢)].

وقال ابنُ عباس: بُعث النبيُّ ﷺ بشهادة أنْ لا إله إلاَّ الله، فلمَّا صدَّقوه فيها زادَهم الصَّلاة، فلما صدَّقوه زادهم الزكاة، فلما صدَّقوه زادهم الصِّيام، فلما صدَّقوه زادهم الحج، ثمَّ أكمل لهم دينَهم[(٣)]؛ فذلك قوله: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ أي: تصديقاً بشرائع الإيمان مع تصديقهم بالإيمان. وقال الربيعُ بن أنس: خَشْيَةً مع خشيتهم[(٤)]. وقال الضَّحَّاك: يقيناً مع يقينهم[(٥)].

﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال ابن عباس: يريدُ الملائكةَ والجنَّ والشياطين والإنس[(٦)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بأحوال خلقه ﴿حَكِيمًا﴾ فيما يريده.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾

أي: أنزل السكينةَ ليزدادوا إيماناً. ثم تلك الزيادة سبب[(٧)] إدخالهم الجنة. وقيل:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٨٩ .

(٢) ٥/ ٤٢٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٤٦ ، والطبراني في الكبير (١٣٠٢٨).

(٤) قاله الربيع في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. كما في تفسير الطبري ١١/ ٢٩-٣٠ .

(٥) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٨٩ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٥ .

(٧) في (د) و(ز) و(ق): لسبب، وفي (م): بسبب. والمثبت من (خ) و(ظ) و(ف). وينظر تفسير الرازي ٢٨/ ٨١-٨٢ .

اللام في «لِيُدْخِلَ» يتعلق بما يتعلق به اللّام في قوله: «لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ»[١].

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ذلك الوعدُ من دخول مكّة وغفران الذنوب. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ أي: نجاةً من كلِّ غمٍّ، وظفراً بكلِّ مطلوب.

وقيل: لمّا قرأ النبيُّ ﷺ على أصحابه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قالوا: هنيئاً لك يا رسول الله، فماذا لنا؟ فنزل: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾. ولمّا قرأ ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ قالوا: هنيئاً لك؛ فنزلت: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ [المائدة: ٣] فلمّا قرأ: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ نزل في حقِّ الأمّة: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]. ولما قال: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ نزل: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]. وهو كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٣] ذكره القشيريُّ.

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ⑥ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ⑦﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ أي: بإيصال الهموم إليهم بسبب عُلُوّ كلمة المسلمين، وبأنْ يُسلِّط النبيَّ عليه الصلاة والسلام قَتْلاً وأسرًا واسترقاقاً.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني ظنّهم أنَّ النبيّ ﷺ لا يرجعُ إلى المدينة، ولا أحدٌ من أصحابه حين خرج إلى الحديبية، وأنَّ المشركين يستأصلونَهم. كما قال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]. وقال الخليل وسيبويه: «السَّوء» هنا الفساد[٢].

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/٢٤٧.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٠.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ في الدنيا بالقتل والسَّبي والأسر، وفي الآخرة بجهنَّم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿دائرةُ السُّوء﴾ بالضم. وفتحَ الباقون[1]. قال الجوهري[2]: ساءه يسوءه سَوْءاً؛ بالفتح، ومَسَاءة ومَسائية؛ نقيضُ سرَّه، والاسم: السُّوء؛ بالضم. وقُرِئ ﴿عليهم دائرةُ السُّوء﴾ يعني: الهزيمة والشر. ومن فَتَح فهو من المساءة.

﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا . وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. تقدَّم في غير موضع جميعه، والحمد لله.

وقيل: لمَّا جرى صُلح الحديبية قال ابن أُبيّ: أيظنُّ محمدٌ أنَّه إذا صالح أهلَ مكَّة أو فتحها لا يبقى له عدوّ، فأين فارسُ والروم؟ فبيَّنَ الله عزَّ وجلَّ أنَّ جنودَ السماوات والأرضِ أكثرُ من فارس والروم.

وقيل: يدخل فيه جميع المخلوقات. وقال ابن عباس: ولله جنود السماوات: الملائكة، وجنود الأرض: المؤمنون. وأعاد لأنَّ الذي سبقَ عقيبَ ذكر المشركين من قريش، وهذا عقيبَ ذكر المنافقين وسائر المشركين. والمرادُ في الموضعين التخويف والتهديد. فلو أراد إهلاكَ المنافقين والمشركين لم يُعجزه ذلك، ولكن يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسَمَّى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ قال قتادة: على أمَّتك بالبلاغ. وقيل: شاهداً عليهم بأعمالهم من طاعةٍ أو معصية. وقيل: مُبيِّنًا لهم ما أرسلناك به إليهم[3]. وقيل:

---

(١) السبعة ص٦٠٣، والتيسير ص١١٩.

(٢) في الصحاح (سوأ).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٢.

شاهداً عليهم يوم القيامة. فهو شاهدُ أفعالهم اليوم، والشهيدُ عليهم يوم القيامة. وقد مضى في «النساء» عن سعيد بن المسيِّب[١] هذا المعنى مبيَّناً.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ لمن أطاعه بالجنة. ﴿وَنَذِيرًا﴾ من النار لمن عصى؛ قاله قتادة وغيره[٢]. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ البِشارة والنِّذارة ومعناهما[٣]. وانتصبَ «شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» على الحال المقدَّرة. حكى سيبويه[٤]: مررتُ برجلٍ معه صقرٌ صائداً به غداً. فالمعنى: إنَّا أرسلناك مقدِّرين بشهادتك يومَ القيامة. وعلى هذا تقول: رأيت عمراً قائماً غداً.

﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قرأ ابنُ كثير وابنُ مُحَيصن وأبو عمرو: «لِيُؤْمِنُوا» بالياء، وكذلك «وَيُعَزِّرُوهُ وَيُوَقِّرُوهُ وَيُسَبِّحُوهُ» كلُّه بالياء على الخبر. واختاره أبو عبيد لذكر المؤمنين قبله وبعده؛ فأمَّا قبلَه فقولُه: ﴿لِيُدْخِلَ﴾ وأمَّا بعدَه فقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ الباقون بالتاء على الخطاب[٥]، واختارَه أبو حاتم.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تُعظِّموه وتُفخِّموه؛ قاله الحسن والكلبي[٦]. والتعزير: التعظيم والتوقير. وقال قتادة: تنصروه وتمنعوا منه[٧]. ومنه التعزير في الحدّ؛ لأنَّه مانع. قال القَطاميّ[٨]:

ألا بَكَرَتْ مَيٌّ بغيرِ سَفَاهةٍ ... تُعاتِبُ والمَوْدُود ينفعه العَزْرُ

---

(١) في النسخ عدا (خ) و(ظ): سعيد بن جبير ـ وسلف هذا المعنى عن سعيد بن المسيب ٦/٣٢٦ .
(٢) النكت والعيون ٥/٣١٣ ، وأخرج قول قتادة الطبري ٢١/٢٥٠ .
(٣) ١/٢٨١ ، ٣٥٨ .
(٤) في الكتاب ٢/٤٩ .
(٥) قراءة ابن كثير وأبي عمرو في السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص٢٠١ .
(٦) النكت والعيون ٥/٣١٣ .
(٧) أخرجه الطبري ٢١/٢٥١ .
(٨) في ديوانه ص١٢٤ . وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/٣١٣ ، والكلام فيه بنحوه.

وقال ابن عباس وعكرمة: تقاتلون معه بالسيف[١]. وقال بعضُ أهل اللغة: تطيعوه. ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ أي: تسوِّدُوه؛ قاله السُّديّ[٢]. وقيل: تُعظموه. والتوقير: التعظيم والتَّرْزِين أيضاً[٣]. والهاء فيهما للنبيِّ ﷺ. وهنا وقفٌ تام، ثم تبتدئ: «وتُسَبِّحُوهُ». أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: عَشِيًّا.

وقيل: الضمائرُ كلُّها لله تعالى؛ فعلى هذا يكون تأويل «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تُثبتوا له صحةَ الربوبية وتنفوا عنه أنْ يكونَ له ولدٌ أو شريك[٤]. واختارَ هذا القول القشيريّ. والأوّل قولُ الضَّحَّاك، وعليه يكون بعضُ الكلام راجعاً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو: «وَتُسَبِّحُوهُ» من غير خلاف، وبعضُه راجعاً إلى رسوله ﷺ وهو «وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» أي: تَدْعوه بالرسالة والنبوَّة لا بالاسم والكُنية.

وفي «تُسَبِّحُوهُ» وجهان: أحدهما: تسبيحُه بالتنزيه له سبحانه من كلِّ قبيح. والثاني: هو فعلُ الصلاة التي فيها التسبيح. «بُكْرَةً وَأَصِيلًا» أي: غُدْوة وعَشِيّاً[٥]. وقد مضى القول فيه[٦]. وقال الشاعر[٧]:

لَعَمْري لأنتَ البيتُ أُكْرِمُ أهلَهُ   وأجلس في أفْيائه بالأصائلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾ بالحديبية يا محمد. ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ بيَّن

(١) قول ابن عباس من طريق مبشر بن عبيد عن الحجاج بن أرطأة عن عكرمة عنه أخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٦٠ وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي فقال: قال أحمد: مبشر بن عبيد كان يضع الحديث. وقول عكرمة أخرجه الطبري ٢١/ ٢٥٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٣ .

(٣) الصحاح (وقر). وسلف قوله: تعظموه عن الحسن والكلبي.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٣ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٣-٣١٤ .

(٦) ١٧/ ١٦٧ - ١٦٨ .

(٧) هو أبو ذؤيب. والبيت في ديوان الهذليين ١/ ١٤١ . وسلف ٩/ ٤٣٥ .

أن بيعتهم لنبيِّه ﷺ إنَّما هي بيعةُ الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وهذه المبايعةُ هي بيعةُ الرِّضوان؛ على ما يأتي بيانها في هذه السورة إنْ شاء الله تعالى.

﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ قيل المعنى[١]: يدُه في الثواب فوق أيديهم في الوفاء، ويدُه في المِنَّة عليهم بالهداية فوق أيديهم في الطاعة[٢]. وقال الكلبيّ: معناه نعمة الله عليهم فوق ما صنعوا من البيعة[٣]. وقال ابن كَيْسان: قوَّةُ الله ونصرتُه فوق قوَّتهم ونصرتهم[٤].

﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ بعد البيعة. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ أي: يَرجعُ ضررُ النَّكث عليه؛ لأنَّه حَرَمَ نفسَه الثوابَ، وألزمَها العقاب.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ قيل: في البيعة. وقيل: في إيمانه. ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني في الجنَّة.

وقرأ حفصٌ والزُّهريّ: «عليهُ الله» بضمِّ الهاء. وجرَّها الباقون. وقرأ نافعٌ وابنُ كثير وابن عامر: «فَسَنُؤتِيهِ» بالنون. واختاره الفرّاء وأبو معاذ. وقرأ الباقون بالياء[٥]. وهو اختيارُ أبي عبيد وأبي حاتم؛ لِقُرب اسم الله منه.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ قال مجاهدٌ وابن عباس: يعني

(١) لفظة: المعنى. ليست في (م).

(٢) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٢ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٠ .

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٦ .

(٥) السبعة ص٦٠٣ ، والتيسير ص١٤٤ ، ٢٠١ .

أعراب غِفار ومُزَيْنة وجُهينة وأسلم وأشْجَع والدِّيل؛ وهم الأعرابُ الذين كانوا حول المدينة؛ تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ حين أرادَ السَّفر إلى مكَّة عام الفتح، بعد أنْ كان استنفرَهم ليخرجوا معه حَذَراً من قريش، وأحرم بعُمرَةٍ وسَاق معه الهَدْيَ؛ ليعلَمَ النَّاسُ أنَّه لا يريدُ حرباً، فتثاقلوا عنه، واعتلُّوا بالشُّغل؛ فنزلت[١]. وإنما قال: «المُخَلَّفُونَ»؛ لأنَّ الله خلَّفهم عن صُحبة نبيِّه. والمخَلَّف المتروك. وقد مضى في «براءة»[٢].

﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ أي: ليس لنا من يقومُ بهما. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾ جاؤوا يطلبون الاستغفار واعتقادُهم بخلاف ظاهرهم؛ ففضَحَهم الله تعالى بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ﴾ وهذا هو النِّفاقُ المحض.

﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ قرأ حمزةُ والكسائيّ: «ضُرًّا» بضمِّ الضَّاد هنا فقط، أي: أمراً يضرُّكم. وقال ابنُ عباس: الهزيمة. الباقون بالفتح[٣]؛ وهو مصدر ضررته ضَرًّا. وبالضَّمِّ اسمٌ لمَا ينالُ الإنسان من الهُزال وسوء الحال[٤]. والمصدرُ يؤدّي عن المرّة وأكثر. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قالا: لأنَّه قابَله بالنفع، وهو ضدُّ الضَّرِّ[٥]. وقيل: هما لغتان بمعنًى؛ كالفَقْر والفُقْر، والضَّعْف والضُّعف[٦]. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾ أي: نصراً وغَنيمةً. وهذا ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أنَّ التخلُّف عن الرسول يدفعُ عنهم الضُّرَّ ويعجِّلُ لهم النفع[٧].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ .

(٢) ١٠/ ٣١٦ .

(٣) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٤) ينظر الصحاح (ضرر).

(٥) ذكر قول أبي عبيد النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٩٩ .

(٦) حجة القراءات لابن زنجلة ص٦٧٢ ، والحجة للفارسي ٦/ ٢٠٢ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٣٧ .

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ وذلك أنَّهم قالوا: إنَّ محمداً وأصحابَه أكَلَةُ رأسٍ لا يرجعون[1]. ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: النِّفاق. ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ وهذا التزيينُ من الشيطان، أو يخلقُ الله ذلك في قلوبهم.

﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ أنَّ الله لا يَنْصر رسولَه. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ أي: هَلْكَى؛ قاله مجاهد. وقال قتادة: فاسدين لا يصلحون لشيءٍ من الخير[2]. قال الجَوهريّ[3]: البُور: الرجلُ الفاسدُ الهالك الذي لا خير فيه. قال عبدُ الله بن الزِّبَعرى السَّهمِي[4]:

يا رسولَ المليك إنَّ لساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُورُ

وامرأةٌ بُور أيضاً؛ حكاه أبو عبيد[5]. وقوم بُورٌ هَلْكَى. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ وهو جمع بائر؛ مثل: حائل وحُول. وقد بار فلانٌ، أي: هلك. وأباره الله، أي: أهلكه.

وقيل: «بُوراً»: أشراراً؛ قاله ابن بحر[6]. وقال حسان بن ثابت:

لا ينفع الطُّول من نُوكِ القلوبِ وقد ... يهدي الإلهُ سبيلَ المَعْشَرِ البورِ[7]

أي: الهالك.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٩١ . وقولهم: هم أكلة رأس، أي: هم قليلٌ يشبعُهم رأسٌ واحد. الصحاح (أكل).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .

(٣) في الصحاح (بور).

(٤) ديوانه ص٣٦ .

(٥) في الصحاح: أبو عبيدة.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣١٤ .

(٧) ديوان حسان ص١٢٣ . وفيه: الرجال. بدل: القلوب. ونقله المصنف عن الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٤١٣ ، ووقع في الديوان، والخزانة ٤/ ٧٢ : ولا يهدي. بدل: وقد يهدي. وقوله: النوك، بضم النون، أي: الحماقة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾

وعيدٌ لهم، وبيانُ أنَّهم كفروا بالنِّفاق.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾

أي: هو غنيٌّ عن عباده، وإنَّما ابتلاهم بالتكليف ليُثيبَ من آمن، ويعاقبَ من كفر وعصى.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانم خيبر؛ لأنَّ الله عزَّ وجلَّ وَعَدَ أهلَ الحديبية فتحَ خَيْبر، وأنها لهم خاصَّةً من غاب منهم ومن حضر. ولم يَغِب منهم عنها غيرُ جابر بن عبد الله، فقسَم له رسولُ الله ﷺ كَسَهْمِ من حضر[(١)].

قال ابن إسحاق: وكان المتولِّي للقسمة بخيبر جَبّار بن صخر الأنصاري من بني سلمة[(٢)]، وزيد بن ثابت من بني النَّجّار؛ كانا حاسِبَين قاسمَين[(٣)].

﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ أي: دعونا. تقول: ذَرْه، أي: دعه. وهو يَذَرُه، أي: يَدَعُه. وأصله: وَذِرَه يَذَرُه، مثالُ: وَسِعَه يَسَعُه. وقد أُميت مصدرُه[(٤)]، لا يقال: وَذْره ولا

(١) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٤٩.

(٢) جبار بن صخر ﷺ ممن شهد بدراً، وكان ابن اثنين وثلاثين سنة، ثم شهد أحداً وما بعدها من المشاهد، وكان أحد السبعين ليلة العقبة، توفي في المدينة سنة ثلاثين. الاستيعاب (بهامش الإصابة ٢/ ١٢٥).

(٣) الدرر ص٢٣٧، ووقع في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٥٧: يزيد بن ثابت.

(٤) في النسخ: صدره. والمثبت من الصحاح (وذر) والكلام منه. قال الزبيدي في تاج العروس (وذر): أماتوا مصدره وماضيَه.

وَاذِر، ولكنْ تركه وهو تارك .

قال مجاهد: تخلفوا عن الخروج إلى مكَّة، فلمَّا خرج النبي ﷺ، وأخذَ قوماً، ووجَّه بهم، قالوا: ذَرُونا نتَّبعكم فنقاتلَ معكم[(١)].

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ﴾ أي: يغيِّروا. قال ابنُ زيد: هو قوله تعالى: ﴿فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ الآية [التوبة: ٨٣]. وأنكر هذا القولَ الطبريُّ[(٢)] وغيره؛ بسبب أنَّ غزوةَ تَبوك كانت بعد فتح خَيْبَر وبعد فتح مكَّة. وقيل: المعنى يريدون أنْ يغيِّروا وعدَ الله الذي وَعَد لأهل الحُدَيبِيَة، وذلك أنَّ الله تعالى جعل لهم غنائم خيبر عِوَضاً عن فتح مكة إذ رجعوا من الحديبية على صلح؛ قاله مجاهدٌ وقتادة، واختارَه الطبريُّ[(٣)]، وعليه عامَّةُ أهل التأويل[(٤)].

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «كَلِمَ» بإسقاط الألف وكسر اللام؛ جمع كلمة؛ نحو سَلِمة وسَلِم. الباقون: «كَلَامَ» على المصدر[(٥)]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤].

والكلام: ما استقلَّ بنفسه من الجمل. قال الجوهريّ: الكلام اسمُ جنسٍ يَقع على القليل والكثير. والكَلِم لا يكون أقلَّ من ثلاث كلمات؛ لأنَّه جمعُ كَلِمة؛ مثل نَبِقة ونَبِق. ولهذا قال سيبويه[(٦)]: هذا بابُ عِلم مَا الكَلِمُ من العربية، ولم يقل: ما الكلام؛ لأنَّه أراد نفسَ ثلاثة أشياء: الاسمُ والفعلُ والحرف، فجاء بما لا يكون إلا جمعاً، وتركَ ما يمكن أنْ يقعَ على الواحد والجماعة. وتميمٌ تقول: هي كِلْمةٌ، بكسر

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٦٢ .

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٦٣ .

(٣) في تفسيره ٢١/ ٢٦١-٢٦٢ ، وخرج قولي مجاهد وقتادة فيه.

(٤) ينظر تفسير البغوي ٤/ ١٩٢ .

(٥) السبعة ص٦٠٤ ، والتيسير ص٢٠١ .

(٦) في الكتاب ١/ ١٢ .

الكاف[١]، وقد مضى في «براءة» القول فيها[٢].

﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ أي: مِنْ قبل رجوعنا من الحديبية: إنَّ غنيمةَ خيبر لمن شهد الحديبية خاصة. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أنْ نُصيبَ معكم من الغنائم[٣]. وقيل: قال رسول الله ﷺ: «إنْ خرجتُم لم أمنعكم إلا أنَّه لا سهمَ لكم». فقالوا: هذا حسد. فقال المسلمون: قد أخبرنا الله في الحديبية بما سيقولونه وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ فقال الله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يعلمون إلَّا أمر الدنيا. وقيل: لا يفقهونَ من أمر الدين إلَّا قليلاً؛ وهو ترك القتال.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾

فيه أربع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ أي: قل لهؤلاء الذين تخلَّفوا عن الحديبية: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ قال ابنُ عباس وعطاءُ بن أبي رباح ومجاهدٌ وابنُ أبي لَيْلَى وعطاءُ الخراسانيّ: هم فارس. وقال كعبٌ والحسنُ وعبدُ الرحمن بن أبي لَيْلَى: الروم. وعن الحسن أيضاً: فارس والروم. وقال ابن جُبَير: هوازن وثَقِيف. وقال عكرمة: هوازن. وقال قتادة: هوازن وغَطَفان يومَ حُنين. وقال الزُّهْريّ ومقاتل: بنو حنيفة أهلُ اليمامة أصحابُ مُسَيلِمة. وقال رافعُ بن خَديج: والله لقد كنَّا نقرأ هذه الآية فيما مضى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فلا نعلم مَن هم؛ حتى دعانا أبو بكر إلى قتال بني حنيفة؛ فعلمنا أنَّهم هم. وقال أبو هريرة: لم

---

(١) الصحاح (كلم).

(٢) ١٠/٢١٩-٢٢٠.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/١٣٨، وتفسير البغوي ٤/١٩٢.

تأت هذه الآية بعدُ. وظاهر الآية يردُّه[١].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على صحة إمامة أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما؛ لأنَّ أبا بكرٍ دعاهم إلى قتال بني حنيفة، وعمر دعاهم إلى قتال فارس والروم. وأمَّا قولُ عكرمة وقتادة: إنَّ ذلك في هوازن وغطفان يوم حنين. فلا؛ لأنَّه يمتنع أنْ يكون الداعي لهم الرسول عليه الصلاة والسلام، لأنَّه قال: ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا﴾. فدلَّ على أن المراد بالداعي غيرُ النبي ﷺ. ومعلومٌ أنَّه لم يدعُ هؤلاء القومَ بعد النبي ﷺ إلَّا أبو بكرٍ وعمرُ رضي الله عنهما[٢]. الزَّمَخْشَرِي[٣]: فإنْ صحَّ ذلك عن قتادة؛ فالمعنى: لنْ تخرجوا معي أبداً ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدِّين، أو على قول مجاهد؛ كان الموعدُ أنَّهم لا يتَّبعون رسولَ الله ﷺ إلَّا متطوِّعين لا نصيبَ لهم في المغنم. والله أعلم.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ هذا حكمُ من لا تُؤخذ منهم الجِزية، وهو معطوفٌ على «تُقَاتِلُونَهُمْ». أي: يكونُ أحدُ الأمرين: إمَّا المقاتلةُ وإمَّا الإسلام، لا ثالث لهما. وفي حرف أُبَيّ: «أَوْ يُسْلِمُوا»[٤] بمعنى: حتى يُسْلِمُوا، كما تقول: كُلْ أو تشبع، أي: حتى تشبع. قال:

فقلتُ له لاتَبْكِ عَيْنُكَ إنَّما نحاوِلُ مُلْكاً أو نموتَ فنُعذَرا[٥]

وقال الزَّجَّاج: قال: «أَوْ يُسْلِمُونَ»؛ لأنَّ المعنى: أو هم يُسلِمون من غير قتال[٦]. وهذا في قتال المشركين، لا في أهل الكتاب.

---

(١) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣١٥-٣١٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٩٢، وزاد المسير ٧/ ٤٣١.

(٢) أحكام القرآن للجصاص ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٤٥.

(٤) القراءات الشاذة ص١٤٣.

(٥) البيت لامرئ القيس وهو في ديوانه ص٦٦، وسلف ٥/ ١٧٣.

(٦) كلام الزجاج بنحوه في البيان لابن الأنباري ٢/ ٣٧٧.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَإِن تُطِيعُواْ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾: الغنيمةَ والنَّصر في الدنيا، والجنَّة في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾: عام الحُدَيْبِيَة ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾: وهو عذابُ النار.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾

قال ابن عباس: لمَّا نزلت ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال أهلُ الزَّمانة: كيف بنا يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[١] أي: لا إثمَ عليهم في التخلُّف عن الجهاد لِعَماهم وزمانتهم وضعفهم. وقد مضى في «براءة» وغيرها الكلام فيه مُبيَّنًا[٢].

والعَرَجُ: آفةٌ تَعرِض لرِجلٍ واحدة، وإذا كان ذلك مؤثِّرًا؛ فخللُ الرِّجْلين أولى أنْ يؤثِّر.

وقال مقاتل: هم أهلُ الزَّمانة الذين تخلَّفوا عن الحديبية وقد عذرهم[٣]. أي: مَنْ شاء أنْ يسير منهم معكم إلى خَيْبَر فليفعل.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قرأ نافعٌ وابنُ عامر: «نُدْخِلْهُ» بالنون على التعظيم. الباقون بالياء[٤]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لتقدُّم اسم الله أوّلاً. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

---

(١) ذكره أبو الليث في تفسيره ٣/ ٢٥٦، ونسبه للكلبي.

(٢) ١٠/ ٣٣١، ١٥/ ٣٤٣-٣٤٤.

(٣) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٣٩.

(٤) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠١.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ هذه بيعة الرِّضوان، وكانت بالحُديبية، وهذا خبرُ الحديبية على اختصار: وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ أقام مُنْصَرَفَه من غَزْوة بني المُصطَلِق في رمضان وشوَّال، وخرج في ذي القَعدة مُعْتَمِرًا، واستنفر الأعرابَ الذين حول المدينة، فأبطأ عنه أكثرُهم، وخرج النبيُّ ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن اتَّبعه من العرب، وجميعُهم نحو ألفٍ وأربع مئة[١] وقيل: ألف وخمس مئة[٢]. وقيل غير هذا، على ما يأتي. وساقَ معه الهَدْيَ، فأحرم رسول الله ﷺ لِيَعْلَم النَّاسُ أنَّه لم يخرجْ لحرب، فلمَّا بلغ خروجُه قريشاً خرج جمْعُهم صادِّين لرسول الله ﷺ عن المسجد الحرام ودخول مكة، وإنَّه إنْ قاتلهم قاتلوه دون ذلك، وقدَّموا خالدَ بن الوليد في خيل إلى كُرَاع الغَمِيم[٣]. فورد الخبرُ بذلك على رسول الله ﷺ وهو بعُسفان[٤] وكان المخبرَ له بشرُ بن سفيان الكَعبيّ[٥]، فسلك

(١) هو قول جابر ﷺ كما في مسند أحمد (١٤٨٢٣)، وصحيح البخاري (٤١٥٤)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسيأتي بتمامه ص٣١٧ من هذا الجزء، وسلف من قول البراء أيضاً ص٢٩٦ من هذا الجزء.

(٢) هو قول جابر ﷺ أيضاً كما في مسند أحمد (١٤١٨١)، وسيأتي ص٣١٧ من هذا الجزء.

(٣) كذا في سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ ، والدرر لابن عبد البر ص٢٢٢ والكلام منه. وفي صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) في حديث طويل عن المسور بن مخرمة ومروان... قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل...» قال ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٥ : وسياق الحديث ظاهر في أنه كان قريباً من الحديبية فهو غير كراع الغميم... وهو الذي بين مكة والمدينة، وأما الغميم هذا فقال ابن حبيب: هو قريب من مكان بين رابغ والجحفة.

(٤) عُسْفان: على مرحلتين من مكة على طريق المدينة. معجم البلدان ٤/ ١٢٢ .

(٥) سيرة ابن هشام ٢/ ٣٠٩ . ثم قال ابن هشام: ويقال: بُسْر. اهـ . والأخير هو الذي صححه الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٥/ ٣٣٤ . وهو بُسْر بن سفيان بن عمرو بن عويمر الخزاعي. أسلم سنة ست من الهجرة. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١/ ٣٠٩ .

طريقاً يخرجُ به في ظهورهم، وخرج إلى الحديبية من أسفل مكة، وكان دليلَه فيه[١] رجلٌ من أسلم، فلمَّا بلغ ذلك خيلَ قريشٍ التي مع خالد؛ جرتْ إلى قريشٍ تُعلمهم بذلك.

فلمّا وصل رسولُ الله ﷺ إلى الحديبية؛ بركت ناقتُه ﷺ، فقال الناس: خلأت خلأت! فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأتْ؛ وما هو لها بخُلُق، ولكن حبسَها حابسُ الفيل عن مكَّة. لا تدعوني قريشٌ اليومَ إلى خُطَّةٍ يسألوني فيها صلة رَحِم إلَّا أعطيتُهم إيَّاها». ثم نزلَ ﷺ هناك؛ فقيل: يا رسول الله، ليس بهذا الوادي ماء! فأخْرج عليه الصلاة والسلام سهماً من كِنَانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في قَليبٍ من تلك القُلُب، فغرزَه في جوفه، فجاشَ بالماء الرَّواء حتى كفى جميعَ الجيش[٢].

وقيل: إنَّ الذي نزل بالسَّهم في القليب ناجية بن جُنْدب بن عمير الأسلمي، وهو سائقُ بُدْن النبيِّ ﷺ يومئذٍ. وقيل: نزل بالسَّهم في القَليب البرَاءُ بن عازب.

ثمَّ جرت السُّفَراء بين رسول الله ﷺ وبين كفار قريش، وطال التراجع والتنازع إلى أنْ جاءه[٣] سُهيل بن عمرو العامريّ، فقاضاه على أنْ ينصرف عليه الصلاة والسلام عامَه ذلك، فإذا كان من قابل، أتى مُعْتَمِراً، ودخل هو وأصحابُه مكَّة بلا سلاح[٤]، حاشا السيوف في قُرُبها، فيقيم بها ثلاثاً ويخرج، وعلى أنْ يكون بينه

(١) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): فيهم. والمثبت من (خ) و(د) و(ظ) وهو الموافق للدرر ص٢٢٢ والكلام منه.

(٢) خبر وقوف ناقته ﷺ، ونبع الماء من القليب عند أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) من حديث عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطول.

وقوله خلأت: الخلاء للنوق كالإلحاح للجمال، والحران للدواب. النهاية (خلأ). وماء رَواء. أي: كثير مروٍ. اللسان (روي).

(٣) في (م): جاء.

(٤) في (د) و(م): بغير سلاح، وفي (خ): بالسلاح، وفي (ز): بسلاح. والمثبت من (ظ) و(ف) و(ق). وهو الموافق للدرر والكلام منه.

وبينهم صلحُ عشرة أعوام، يتداخل فيها الناس ويأمنُ بعضهم بعضاً، وعلى أنَّ من جاء من الكفَّار إلى المسلمين مسلماً من رجلٍ أو امرأةٍ رُدَّ إلى الكفار، ومن جاء من المسلمين إلى الكفار مرتداً، لم يردُّوه إلى المسلمين؛ فعَظُم ذلك على المسلمين حتى كان لبعضهم فيه كلام، وكان رسولُ الله ﷺ أعلم؛ لما[1] علَّمه الله من أنَّه سيجعل للمسلمين فرجاً، فقال لأصحابه: «اصبروا؛ فإن الله يجعلُ هذا الصلحَ سبباً إلى ظهور دينه». فأنِس الناسُ إلى قوله هذا بعد نفارٍ منهم.

وأبَى سهيلُ بن عمرو أنْ يُكْتَب في صدر صحيفة الصُّلح: من محمدٍ رسول الله، وقالوا له[2]: لو صدَّقناك بذلك ما دفعناك عمَّا تريد! فلابدَّ أنْ تكتب: باسمك اللهم. فقال لعليٍّ ـ وكان يكتب صحيفةَ الصلح ـ: «امح يا عليّ، واكتب باسمك اللهم» فأبى عليٌّ أن يمحو بيده: «محمد رسول الله». فقال له رسول الله ﷺ: «اعرضه عليَّ» فأشار إليه فمحَاه رسولُ الله ﷺ بيده، وأمره أنْ يكتب: «من محمد بن عبد الله».

وأتى أبو جَنْدل بن سهيل يومئذٍ بإثر كتاب الصلح، وهو يَرْسُفُ في قيوده، فردَّه رسولُ الله ﷺ إلى أبيه؛ فعظُم ذلك على المسلمين، فأخبرهم رسول الله ﷺ وأخبر أبا جندل أنَّ الله سيجعلُ له فرجاً ومخرجاً[3].

وكان رسول الله ﷺ قبل الصلح قد بعث عثمان بن عفان إلى مكَّةَ رسولاً، فجاء خبرٌ إلى رسول الله ﷺ بأنَّ أهل مكَّة قتلوه، فدعا رسول الله ﷺ حينئذٍ إلى المبايعة له على الحرب والقتال لأهل مكَّة؛ فرُوي أنَّه بايعَهم على الموت. ورُوي أنَّه بايعَهم على ألَّا يَفِرُّوا؛ وهي بيعةُ الرِّضوان تحت الشجرة، التي أخبرَ الله تعالى أنَّه رضيَ عن المبايعين لرسول الله ﷺ تحتَها. وأخبر رسولُ الله ﷺ أنَّهم لا يدخلون النَّار. وضربَ

---

(١) في (م) والدرر ص٢٢٤ : بما.

(٢) في الدرر: وقال له.

(٣) الدرر ص٢٢٤ ، وقصة أبي جندل خرجها أحمد في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم (١٨٩١٠)، وهي في صحيح البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢) دون قوله: «أن الله سيجعل له فرجاً ومخرجاً».

رسولُ الله ﷺ بيمينه على شماله لعثمان، وقال: «هذه عن عثمان»[١]؛ فهو كمن شهدَها. وذكر وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبيّ قال: أوَّلُ من بايع رسولَ الله ﷺ يوم الحديبية أبو سنان[٢] الأسدي[٣].

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير عن جابر قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحتَ الشجرة وهي سَمُرَة، وقال: بايعناه على ألّا نفرَّ، ولم نبايعه على الموت[٤].

وعنه أنَّه سمع جابراً يُسأل: كم كانوا يومَ الحديبية؟ قال: كنَّا أربعَ عشرة مئة؛ فبايعناه وعمرُ آخذٌ بيده تحت الشجرة؛ وهي سَمُرة؛ فبايعناه، غيرَ جَدِّ بن قيس الأنصاري، اختبأ تحتَ بطن بعيره[٥].

وعن سالم بن أبي الجَعْد قال: سألتُ جابرَ بن عبد الله عن أصحاب الشجرة، فقال: لو كنَّا مئة ألفٍ لكفانا، كنَّا ألفاً وخمس مئة[٦]. وفي روايةٍ: كنَّا خمسَ عشرة مئة[٧].

وعن عبد الله بن أبي أوْفى قال: كان أصحابُ الشجرة ألفاً وثلاث مئة، وكانت أسلَمُ ثُمُنَ المهاجرين[٨].

---

(١) خبر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان ﷺ أخرجه البخاري (٣٦٩٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) في النسخ: أبو سفيان. والمثبت من المصادر.

(٣) الدرر ص٢٢٢-٢٢٥ والكلام من أول قصة الحديبية منه. وخبر الشعبي أخرجه ابن أبي شيبة ١٢/ ٢٠٤ .

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٦): (٦٧)، وسلف طرفه ص٣١٤ من هذا الجزء. والسمرة: هي الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان. النهاية (سمر).

(٥) أخرجه أحمد (١٥٢٥٩)، ومسلم (١٨٥٦): (٦٩).

(٦) أخرجه أحمد (١٤١٨١)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٢). وقوله: لكفانا، يعني الماء الذي جعل يفور من بين أصابعه ﷺ عندما وضع يده الشريفة في الركوة، كما في رواية البخاري (٤١٥٢).

(٧) أخرجه البخاري (٣٥٧٦)، ومسلم (١٨٥٦): (٧٣).

(٨) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، ومسلم (١٨٥٧).

وعن يزيد بن أبي عبيد قال: قلتُ لسلمة: على أيِّ شيء بايعتُم رسولَ الله ﷺ يومَ الحديبية؟ قال: على الموت[١].

وعن البَرَاء بن عازب قال: كتب عليٌّ ﷺ الصُّلح بين النبيِّ ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية؛ فكتب: هذا ما كاتبَ عليه محمدٌ رسول الله ﷺ، فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو نعلمُ أنَّك رسول الله لم نقاتلك. فقال النبيّ ﷺ لعليٍّ: «امْحُه». فقال: ما أنا بالذي أمحاه؛ فمحاه النبيُّ ﷺ بيده. وكان فيما اشترطوا: أن يدخلوا مكة فيقيموا فيها ثلاثاً، ولا يدخلها بسلاح إلا جُلُبَّان السلاح؛ القِراب وما فيه[٢].

وعن أنس: أنَّ قريشاً صالحوا النبيَّ ﷺ؛ فيهم سهيل بن عمرو، فقال النبيُّ ﷺ لعليّ: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سهيلُ بن عمرو: أما بسم الله، فما ندري ما بسم الله الرحمن الرحيم! ولكن اكتب ما نعرف: باسمك اللهم. فقال: «اكتب من محمدٍ رسول الله» قالوا: لو علمنا أنَّك رسوله لاتبعناك! ولكنْ اكتب اسمكَ واسمَ أبيك. فقال النبيُّ ﷺ: «اكتب: من محمد بن عبد الله». فاشترطوا على النبيِّ ﷺ أنَّ من جاء منكم لم نردَّه عليكم، ومن جاء[٣] منَّا رددتموه علينا. فقالوا: يا رسول الله، أنكتبُ هذا! قال: «نعم، إنَّه مَن ذهب[٤] منَّا إليهم فأبعدَه الله، ومن جاءنا منهم فسيجعلُ الله له فرجاً ومخرجاً»[٥].

وعن أبي وائل قال: قام سهلُ بن حُنيف يومَ صِفِّين فقال يا أيُّها الناس، اتَّهموا أنفسَكم، لقد كنَّا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا؛ وذلك في

---

(١) أخرجه أحمد (١٦٥٠٩)، والبخاري (٢٩٦٠)، ومسلم (١٨٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٥٦٧)، والبخاري (٢٦٩٨)، ومسلم (١٧٨٣): (٩٠). وقوله: القِراب وما فيه. هو من كلام أبي إسحاق؛ راوي الحديث عن البراء. كما في صحيح مسلم.

(٣) في (م): جاءكم.

(٤) في النسخ الخطية: جاء، والمثبت من (م).

(٥) أخرجه أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

الصُّلح الذي كان بين رسول الله ﷺ وبين المشركين. فجاء عمرُ بن الخطاب ﷺ، فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ألسنا على حقٍّ وهم على باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: «بلى» قال: ففيَم نعطي الدَّنِيَّة في ديننا، ونرجعُ ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «يا ابن الخطاب إنِّي رسولُ الله، ولن يُضَيِّعَني الله أبداً» قال: فانطلق عمر، فلم يصبر مُتَغَيِّظاً، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، ألسنا على حق وهم على باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قتلانا في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار؟ قال: بلى. قال: فعلام نعطي الدَّنيَّة في ديننا، ونرجع ولمَّا يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: يا ابن الخطاب، إنَّه رسولُ الله، ولن يُضيعه الله أبداً. قال: فنَزل القرآنُ على رسول الله ﷺ بالفتح، فأرسل إلى عمر، فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أوَ فَتْحٌ هو؟ قال: «نعم». فطابتْ نفسُه ورجع[١].

قوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الصدق والوفاء؛ قاله الفراء[٢]. وقال ابن جريج وقتادة: من الرِّضا بأمر البيعة على ألَّا يفرُّوا. وقال مقاتل: من كراهة البيعة على أن يقاتلوا معه على الموت[٣]. ﴿فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ حتى بايعوا.

وقيل: ﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ من الكآبة بصدِّ المشركين إيَّاهم، وتخلُّفِ رؤيا النبيِّ ﷺ عنهم؛ إذ[٤] رأى أنَّه يدخل الكعبة، حتَّى قال رسول الله ﷺ: «إنَّما ذلك رؤيا منام». وقال الصِّدِّيق: لم يكن فيها الدخولُ في هذا العام.

والسكينة: الطُّمأنينةُ وسكونُ النفس إلى صدق الوعد. وقيل: الصبر.

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قال قتادة وابن أبي ليلى: فتحُ خيبر. وقيل: فتحُ مكة[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٧٥)، والبخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥): (٩٤).

(٢) النكت والعيون ٥/٣١٦.

(٣) ذكر قول مقاتل الماورديُّ في النكت والعيون ٥/٣١٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٣٤ قال ابن عطية: وهذا ضعيف: فيه مذمة للصحابة.

(٤) في (د) و(م): إذا.

(٥) النكت والعيون ٥/٣١٦، وقول قتادة وابن أبي ليلى أخرجه الطبري ٢١/٢٧٨.

وقُرِئ: «وآتاهُمْ»[(١)].

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ يعني: أموال خيبر، وكانت خيبرُ ذاتَ عقار وأموال، وكانت بين الحديبية ومكَّة. فـ«مَغَانِمَ» على هذا بدلٌ من «فَتْحًا قَرِيبًا»، والواو مقحمة. وقيل: «وَمَغَانِمَ» فارس والروم.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد: إنَّها المغانمُ التي تكون إلى يوم القيامة. وقال ابن زيد: هي مغانمُ خيبر. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ أي: خيبر؛ قاله مجاهد. وقال ابن عباس: عجَّل لكم صلحَ الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ يعني أهلَ مكَّة؛ كفَّهم عنكم بالصلح. وقال قتادة: كفَّ أيديَ اليهود عن المدينة بعد خروج النبيِّ ﷺ إلى الحديبية وخيبر. وهو اختيار الطبريّ[(٢)]؛ لأنَّ كفَّ أيدي المشركين بالحديبية مذكورٌ في قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. وقال ابن عباس: في «كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ» يعني عُيَينة ابن حِصْن الفَزَارِي وعوف بن مالك النَّضْريّ ومن كان معهما؛ إذ جاؤوا لينصروا أهل خيبر والنبيُّ ﷺ محاصرٌ لهم؛ فألقى الله عزَّ وجلَّ في قلوبهم الرُّعب، وكَفَّهم عن المسلمين[(٣)].

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ولتكون هزيمتُهم وسلامتكم آيةً للمؤمنين؛ فيعلموا أنَّ الله يحرسهم في مشهدهم ومَغيبهم[(٤)]. وقيل: أي: وليكون[(٥)] كفُّ أيديهم عنكم

(١) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٩٦، ونسبها للحسن ونوح القارئ، وهي قراءة شاذة.

(٢) في تفسيره ٢١/ ٢٨٢، والأقوال السالفة جميعها أخرجها الطبري ٢١/ ٢٧٩-٢٨٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠١.

(٤) تفسير الطبري ٢١/ ٢٨٣.

(٥) في (ف) و(م): ولتكون.

آيةً للمؤمنين. وقيل: أي: ولتكون هذه التي عجَّلها لكم آيةً للمؤمنين على صدقك حيثُ وعدتهم أنْ يصيبوها(١).

والواو في «ولِتَكُونَ» مقحمةٌ عند الكوفيين. وقال البصريون: عاطفةٌ على مضمر، أي: وكفَّ أيديَ النَّاس عنكم لتشكروه ولتكون آيةً للمؤمنين(٢).

﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ أي: يزيديكم هُدًى، أو يثبِّتكم على الهداية.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ «أُخْرَى» معطوفة على «هذِهِ»؛ أي: فعجَّل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى(٣).

﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ﴾ قال ابن عباس: هي الفتوح التي فُتحت على المسلمين؛ كأرض فارسَ والروم، وجميع ما فتحه المسلمون(٤). وهو قول الحسن ومقاتل وابن أبي ليلى(٥).

وعن ابن عباس أيضاً والضَّحَّاك وابن زيد وابن إسحاق: هي خيبر، وَعَدَها اللهُ نبيَّه قبل أنْ يفتحها، ولم يكونوا يرجونها حتى أخبرهم الله بها(٦).

وعن الحسن أيضاً وقتادة: هو فتح مكَّة(٧). وقال عكرمة: حُنين(٨)؛ لأنَّه قال:

---

(١) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣١٧، وزاد المسير ٧/ ٤٣٦.

(٢) ينظر الخلاف بين الكوفيين والبصريين على زيادة الواو في الإنصاف في مسائل الخلاف لأبي البركات الأنباري ٢/ ٤٥٦.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٤٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨.

(٥) أخرج قول ابن عباس والحسن وابن أبي ليلى الطبريُّ ٢١/ ٢٨٤، وقول مقاتل في تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

(٦) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٢٨٥.

(٧) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٥ ورجحه. ورجحه أيضاً الطبري ٢١/ ٢٨٦.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨.

﴿لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾. وهذا يدلُّ على تقدُّم محاولةٍ لها، وفواتِ دَرْكِ المطلوب في الحال، كما كان في مكَّة؛ قاله القشيريّ.

وقال مجاهد: هي ما يكون إلى يوم القيامة[١].

ومعنى ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: أي: أعدَّها لكم، فهي كالشيء الذي قد أُحيط به من جوانبه، فهو محصورٌ لا يفوت، فأنتم وإنْ لم تقدروا عليها في الحال؛ فهي محبوسةٌ عليكم لا تفوتكم.

وقيل: ﴿أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾: علم أنَّها ستكون لكم، كما قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقيل: حفظَها الله عليكم؛ ليكون فتحُها لكم[٢].﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ قال قتادة: يعني: كفارَ قريشٍ في الحديبية[٣]. وقيل: «وَلَوْ قَاتَلَكُم» غَطَفان وأسد، والذين أرادوا نُصرة أهل خيبر[٤]؛ لكانت الدائرة عليهم.

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُۖ﴾ يعني: طريقةُ الله وعاداتُه السالفةُ نصرُ أوليائه على أعدائه. وانتصب «سُنَّة» على المصدر. وقيل: «سُنَّةَ اللهِ» أي: كَسُنَّةِ الله[٥]. والسنة: الطريقة والسِّيرة[٦]. قال:

(١) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥٠٧ .
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ .
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٨٧ .
(٤) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ١٩٨ .
(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٩٨ .
(٦) الصحاح (سنن).

فلا تَجْزَعَنْ من سُنَّةٍ[١] أنت سِرْتَها ... فأوَّلُ راضٍ سُنَّةً من يَسيرها[٢]

والسُّنة أيضاً: ضَرْبٌ من تمر المدينة[٣]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ وهي الحديبية[٤].

﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ رَوى يزيدُ بن هارون قال: أخبرنا حمَّادُ بنُ سلمةَ عن ثابتٍ عن أنسٍ أنَّ ثمانينَ رجلاً من أهل مكَّةَ هبطوا على النبيِّ ﷺ من جبل التَّنعيم متسلِّحين، يريدون غِرَّةَ النبيِّ ﷺ وأصحابه؛ فأخذناهم سِلْماً فاستحييناهم؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[٥].

وقال عبد الله بن مُغفَّل المُزَنيُّ: كنا مع النبيِّ ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله في القرآن؛ فبينَا نحن كذلك، إذ خرجَ علينا ثلاثون شابّاً عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم النبيُّ ﷺ، فأخذَ الله بأبصارِهم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد، أو هل جَعل لكم أحدٌ أماناً». قالوا: اللهم لا، فخلَّى سبيلهم. فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ الآية[٦].

---

(١) في (م): سيرة.

(٢) البيت لخالد بن زهير الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٥٧ .

(٣) الصحاح (سنن).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وهو قول أنس كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ .

(٥) أخرجه أحمد (١٢٢٥٤)، ومسلم (١٨٠٨). وفيهما: فأخذهم سلماً فاستحياهم. والغِرَّة: هي الغفلة. الصحاح (غرر).

(٦) أخرجه مطولاً ـ أحمد (١٦٨٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٤٤٧).

وذكر ابنُ هشامٍ عن وكيع: وكانت قريشٌ قد جاء منهم نحو سبعين رجلاً أو ثمانين رجلاً للإيقاع بالمسلمين وانتهاز الفرصة في أطرافهم؛ ففطِنَ المسلمون لهم، فأخذوهم أسرى، وكان ذلك، والسفراءُ يمشونَ بينهم في الصلح، فأطلقهم رسول الله ﷺ، فهم الذين يُسَمَّونَ العُتَقاء، ومنهم معاويةُ وأبوه[١].

وقال مجاهد: أقبل النبيُّ ﷺ مُعتَمِراً، إذ أخذ أصحابُهُ ناساً من الحرم غافلين، فأرسلهم النبيُّ ﷺ؛ فذلك الإظفارُ ببطن مكة[٢].

وقال قتادة: ذُكِرَ لنا أنَّ رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له: زُنيم، اطَّلعَ الثنيَّة من الحديبية، فرماه المشركون بسهمٍ فقتلوه؛ فبعث النبيُّ ﷺ خيلاً، فأتَوا باثني عشرَ فارساً من الكفار، فقال لهم النبيُّ ﷺ: «هل لكم عليَّ ذمّة؟» قالوا: لا. فأرسلَهم، فنزلت[٣]. وقال ابن أبْزَى والكلبيُّ: هم أهل الحديبية، كفَّ الله أيديَهم عن المسلمين حتى وقع الصُّلح، وكانوا خرجوا بأجمعهم وقصدوا المسلمين، وكفَّ أيديَ المسلمين عنهم.

وقد تقدَّم أنَّ خالدَ بنَ الوليد كان في خيل المشركين[٤]. قال القشيري: فهذه رواية، والصحيحُ أنَّه كان مع النبيِّ ﷺ في ذلك الوقت.

وقد قال سلمةُ بن الأكْوَع: كانوا في أمر الصُّلح إذ أقبل أبو سفيان، فإذا الوادي يسير بالرجال والسلاح، قال: فجئت بستَّةٍ من المشركين أسُوقُهم متسلِّحين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا؛ فأتيتُ بهم رسولَ الله ﷺ[٥].

وكان عمر قال في الطريق: يا رسولَ الله، نأتي قوماً حَرْباً وليس معنا سلاح

(١) الدرر لابن عبد البر ص٢٢٥ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠١-٦٠٢ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩٠-٢٩١ .

(٤) ص٣١٤ من هذا الجزء.

(٥) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة في مصنفه ١٤/ ٤٤٠-٤٤١ .

ولا كُراع؟ فبعث رسولُ الله ﷺ إلى المدينة من الطريق، فأتَوه بكلِّ سلاح وكُراعٍ كان فيها، وأُخبِر رسول الله ﷺ أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهْلٍ خرج إليك في خمس مئة فارس؛ فقال رسول الله ﷺ لخالد بن الوليد: هذا ابنُ عمِّك أتاك في خمس مئة. فقال خالد: أنا سيفُ الله وسيفُ رسوله، فيومئذٍ سُمِّي بسيف الله، فخرج ومعه خيلٌ، وهَزم الكفارَ ودفعهم إلى حوائط مكَّة[1]. وهذه الروايةُ أصحُّ.

وكان بينهم قتالٌ بالحجارة[2]. وقيل: بالنَّبَل والظُّفْر[3]. وقيل: أراد بكفِّ اليد أنَّه شَرَطَ في الكتاب أنَّ من جاءنا منهم فهو رَدٌّ عليهم، فخرج أقوامٌ من مكَّةَ مسلمون، وخافوا أنْ يردَّهم الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المشركين، فلحقوا بالسَّاحل، ومنهم أبو بصير، وجعلوا يُغيرون على الكفار ويأخذون عِيْرهم، حتى جاء كبارُ قريشٍ إلى النبيِّ ﷺ وقالوا: اضممهم إليك حتى نأمن؛ ففعل[4].

وقيل: هَمَّت غَطَفان وأسد منع المسلمين من يهود خَيبر[5]؛ لأنَّهم كانوا حلفاءَهم، فمنعهم الله عن ذلك؛ فهو كفُّ اليد.

﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ فيه قولان: أحدهما: يريد به مكَّة. الثاني: الحُديبية؛ لأنَّ بعضَها مضافٌ إلى الحرم. قال الماوردي[6]: وفي قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾: بفتح مكَّة[7]. وتكون هذه نزلت بعد فتح مكَّة، وفيها دليلٌ على أنَّ مكَّة فُتحت صُلحاً؛

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٢٩١ عن ابن أبزى. والكراع: اسم يجمع الخيل. الصحاح (كرع).

(٢) هو قول ابن عباس كما في الكشاف ٣/ ٥٤٧ .

(٣) هو قول مقاتل كما في زاد المسير ٧/ ٤٣٨ . والظُّفْر: هو ما وراء معقد الوتر إلى طرف القوس، أو طرف القوس. القاموس (ظفر).

(٤) قصة أبي بصير أخرجها أحمد (١٨٩١٠)، والبخاري (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

(٥) ذكره الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٧٥ ، وعزاه لابن المنذر عن ابن جريج.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣١٨ ، وما قبله منه.

(٧) يعني أظفركم عليهم بفتح مكة، وهو أحد ثلاثة أقوال في تفسير الآية، ذكرها الماوردي، واقتصر المصنف على الأول.

لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾.

قلت: الصحيحُ أنَّ هذه الآية نزلت في الحديبية قبل فتح مكَّة، حسب ما قدَّمناه عن أهل التأويل من الصحابة والتابعين.

ورَوى الترمذيُّ قال: حدَّثنا عبدُ بن حُميد، قال: حدَّثني سليمانُ بن حرب، قال: حدَّثنا حمَّاد بنُ سلمةَ عن ثابتٍ، عن أنس؛ أنَّ ثمانينَ هبطوا على رسول الله ﷺ وأصحابِهِ من جبل التنعيم، عند صلاة الصبح، وهم يريدون أنْ يقتلوه؛ فأُخذوا أخذاً، فأعتقهُمْ رسولُ الله ﷺ؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ الآية. قال أبو عيسى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيح. وقد تقدَّم[١].

وأمَّا فتحُ مكَّة، فالذي تدلُّ عليه الأخبارُ أنها إنَّما فُتحت عَنوة، وقد مضى القول في ذلك في «الحج» وغيرها[٢]. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾.

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ **فيه ثلاث مسائل:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: قريشاً؛ منعوكم دخولَ المسجد الحرام عامَ الحُدَيبية، حين أحرم النبيُّ ﷺ مع أصحابه بعُمْرة[٣]، ومنعوا الهَدْيَ وحبسوهُ عن أنْ يبلغ مَحِلَّه. وهذا كانوا لا يعتقدونه، ولكنَّه حملتهم الأنفة، ودَعَتْهم

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٤)، وتقدم ص٣٢٣ من هذا الجزء.

(٢) ١٤/ ٣٥٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

حَمِيَّةُ الجاهلية إلى أن يفعلوا مالا يعتقدونه دِيناً، فوَبَّخهم الله على ذلك وتوعَّدهم عليه، وأدخل الأُنس على رسول الله ﷺ ببيانه ووعده[١].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً. وقيل: واقفاً[٢]. وقال أبو عمرو بن العلاء: مجموعاً.

الجوهريُّ[٣]: عَكَفَه، أي: حبسه ووَقَفه، يَعْكِفُه ويَعْكُفه عَكْفاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾؛ يقال: ما عَكفَكَ عن كذا. ومنه الاعتكافُ في المسجد، وهو الاحتباس.

﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ أي: مَنْحَرَه؛ قاله الفراء[٤]. وقال الشافعي ﷺ: الحَرَم[٥]. وكذا قال أبو حنيفة ﷺ: المُحصَر محلُّ هَدْيه الحرَم[٦]. والمَحِلُّ؛ بكسر الحاء: غايةُ الشيء، وبالفتح: هو الموضع الذي يَحُلُّه الناس. وكان الهَدْيُ سبعين بَدَنة[٧]، ولكنَّ الله بفضله جعل ذلك الموضع له مَحِلّاً[٨]. وقد اختلف العلماء في هذا على ما تقدَّم بيانه في «البقرة»[٩] عند قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ [الآية:١٩٦] والصحيحُ ما ذكرناه.

وفي صحيح مسلم عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله قال: نَحَرنا مع رسول الله ﷺ عامَ الحديبية البدَنَةَ عن سبعة، والبقرة عن سبعة[١٠].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٢) في (م) موقوفاً. والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٥/ ٣١٩، والكلام منه.

(٣) في الصحاح (عكف).

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٦) الكلام بنحوه في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٧٨.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣١٩.

(٨) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٤.

(٩) ٣/ ٢٨٣-٢٨٤.

(١٠) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٤١٢٧).

وعنه قال: اشتركنا مع رسول الله ﷺ في الحجِّ والعُمرة، كلُّ سبعةٍ في بدنة. فقال رجلٌ لجابر: أيُشتَرَكُ في البدَنة ما يُشترك في الجَزُور؟ قال: ما هي إلَّا من البُدْن. وحضر جابرٌ الحديبية قال: ونحرنا يومئذٍ سبعين بَدَنة، اشتركنا كلُّ سبعةٍ في بَدَنة[١].

وفي البخاريِّ[٢] عن ابن عمرَ قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ مُعتمرين؛ فَحَال كفارُ قريشٍ دون البيت، فنحر رسولُ الله ﷺ بُدْنَه، وحَلَق رأسَه.

قيل: إنَّ الذي حلق رأسَه يومئذٍ خِراشُ بن أميَّة بن أبي العيص الخزاعي[٣]. وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أنْ ينحروا ويَحِلُّوا؛ ففعلوا بعد توقُّفٍ كان منهم أغضبَ رسول الله ﷺ. فقالت له أمّ سلمةَ: لو نحرتَ لنحروا؛ فنحر رسولُ الله ﷺ هَدْيَه، ونحروا بِنَحْرِهِ، وحَلَق رسولُ الله ﷺ رأسَه، ودعا للمُحَلِّقين ثلاثاً وللمقصِّرين مرةً[٤]. ورأى كعبَ بن عُجرَة والقَمْلُ يسقط على وجهه؛ فقال: «أيؤذيك هوامُّك؟» قال: نعم؛ فأمره أنْ يَحلِقَ وهو بالحديبية. خرَّجه البخاريُّ والدَّارقُطنيّ[٥]. وقد مضى في «البقرة»[٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ الهَديُ والهَدِيُّ لغتان. وقُرئ: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ

---

(١) صحيح مسلم (١٣١٨): (٣٥٣)، وأخرجه مختصراً أحمد (١٥٠٤٣).

(٢) برقم (١٨١٢).

(٣) الدرر ص٢٢٥، وفيه، وفي سيرة ابن هشام ٢/ ٣١٩: ابن الفضل الخزاعي، بدل: ابن أبي العيص. وهو خراش بن أمية بن ربيعة بن الفضل الخزاعي، مدني، شهد مع رسول الله ﷺ الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد، توفي آخر خلافة معاوية. الإصابة ٣/ ٨٦، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٣/ ١٩١-١٩٢.

(٤) الدرر ص٢٢٥، وقصة أم سلمة أخرجها البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان ابن الحكم (٢٧٣١-٢٧٣٢) وسلف بعضه ص٣٢٥ من هذا الجزء.
ودعاء النبي للمحلقين ثم للمقصرين سلف ٣/ ٢٨٧.

(٥) صحيح البخاري (١٨١٧)، وسنن الدارقطني (٢٧٨٠)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٨١١٣)، ومسلم (١٢٠١).

(٦) ٣/ ٢٩٠.

﴿مَحِلَّهُۥ﴾ [البقرة:١٩٦] بالتخفيف والتشديد[١]؛ الواحدة هَدْية [وهَدِيَّة][٢]. وقد مضى في «البقرة» أيضاً[٣]. وهو معطوفٌ على الكاف والميم من «صَدُّوكُمْ». و﴿مَعْكُوفًا﴾ حال، وموضع «أنْ» من قوله: «أَن يَبْلُغَ مَحِلَّه» نُصِبَ على تقدير الحَمْل على «صَدُّوكُمْ» أي: صدُّوكم وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغ[٤]. ويجوز أنْ يكون مفعولاً له؛ كأنه قال: وصَدُّوا الهَديَ كراهيةَ أن يبلغ مَحِلَّه. أبو علي: لا يصحُّ حمله على العَكف[٥]؛ لأنَّا لا نعلم «عكف» جاء متعدِّياً[٦]، ومجيءُ «مَعْكُوفاً» في الآية يجوز أنْ يكون محمولاً على المعنى؛ كأنه لمّا كان حَبْساً حُمِل المعنى على ذلك، كما حُمِل الرَّفَثُ على معنى الإفضاء، فَعُدِّيَ بإلى، فإنْ حُمل على ذلك كان موضعه نَصْباً على قياس قول سيبويه، وجراً على قياس قول الخليل. أو يكونُ مفعولاً له؛ كأنه قال: محبوساً كراهة[٧] أن يبلغ مَحِلَّه. ويجوز تقدير الجرِّ في «أن»؛ لأنّ «عن» تقدَّمت؛ فكأنه قال: وصدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهَدْيَ عن أن يبلغَ مَحِلَّه. ومثله ما حكاه سيبويه عن يونس: مررتُ برجلٍ إنْ زيدٍ و إن عمرٍو؛ فأضمر الجارَّ لِتَقدُّم ذكره.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ يعني المستضعفين من المؤمنين بمكَّة

---

(١) القراءة بالتشديد هي قراءة الأعرج كما في القراءات الشاذة ص١٢ . وبالتخفيف قراءة الجمهور.

(٢) الصحاح (هدي) وما بين حاصرتين منه.

(٣) ٣/ ٢٨٢ .

(٤) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٢ .

(٥) المثبت من (ق) و(م)، وفي غيرهما: العطف.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٦ .

(٧) في (م): كراهية.

وسطَ الكفار[١]؛ كسلمةَ بنِ هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، ، وأبي جَنْدل بن سهيل، وأشباهِهم.

﴿لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ﴾ أي: تعرفوهم. وقيل لم تعلموهم أنهم مؤمنون[٢].

﴿أَن تَطَـُٔوهُمۡ﴾ بالقتل والإيقاع بهم؛ يقال: وَطِئتُ القوم، أي: أوقعتُ بهم. و«أنْ» يجوز أنْ يكون رفعاً على البدل من «رجالٌ، ونساءٌ» كأنَّه قال: ولولا وَطْؤكُم رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات. ويجوز أنْ يكون نصباً على البدل من الهاء والميم في «تَعْلَمُوهُمْ»؛ فيكون التقدير: لم تعلموا وَطْأهم؛ وهو في الوجهين بدلُ الاشتمال. و«لَمْ تَعْلَمُوهُمْ» نعتٌ لـ«رجالٌ» و«نساءٌ». وجواب «لَوْلا» محذوف[٣]؛ والتقدير: ولولا[٤] أنْ تطؤوا رجالاً مؤمنينَ ونساءً مؤمنات لم تعلموهم، لأذِنَ الله لكم في دخول مكَّة، ولسَلَّطكم عليهم؛ ولَكِنَّا صُنَّا من كان فيها يَكتمُ إيمانَه خوفاً[٥]. وقال الضَّحَّاك: لولا مَن في أصلاب الكفار وأرحام نسائهم من رجالٍ مؤمنين ونساءٍ مؤمنات، لم تعلموهم[٦] أنْ تطؤوا آباءهم فيَهلك أبناؤهم[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ المَعَرَّة: العيب، وهي مَفْعَلَة من العُر، وهو الجَرَب، أي: يقول المشركون: قد قتلوا أهلَ دينهم. وقيل: المعنى: يصيبكم من قَتلهم ما يلزمُكم من أجله كفارةُ قتل الخطأ؛ لأنَّ الله تعالى إنما أوجبَ على قاتل المؤمن في دار الحرب إذا لم يكن هاجرَ منها ولم يَعلم بإيمانه، الكفارةَ دون الدِّية في قوله: ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوٍّ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .
(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢/ ٣٠٩ .
(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨ .
(٤) في (م): لو.
(٥) لفظة: خوفاً. ليست في (م). وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .
(٦) في (ز) و(ظ) و(ف): تعلموا. والمثبت من (خ) و(ق) و(م).
(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢] قاله الكلبي ومقاتل وغيرهما[١]. وقد مضى في «النساء» القول فيه[٢].

وقال ابن زيد: «مَعَرَّةٌ»: إثم؛ وقاله الجوهريُّ[٣]. ابن إسحاق[٤]: غُرْم الدِّيَة. قطرب: شِدَّة. وقيل: غمّ[٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ تفضيلٌ للصحابة، وإخبارٌ عن صفتهم الكريمة من العفَّة عن المعصية، والعصمة عن التعدِّي، حتى لو أنَّهم أصابوا من ذلك أحداً، لكان عن غير قصد. وهذا كما وصفت النملةُ عن جند سليمان عليه السلام في قولها: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٦] [النمل: ١٨].

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ **فيه أربع مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟﴾ اللام في «لِيُدْخِلَ» متعلقةٌ بمحذوف[٧]، أي: لو قتلتموهم لأدخلهم الله في رحمته[٨]. ويجوز أنْ تتعلَّقَ بالإيمان[٩]. ولا تُحملُ على مؤمنينَ دون مؤمناتٍ، ولا على مؤمناتٍ دون مؤمنين؛ لأنَّ الجميعَ يدخلون في الرحمة.

وقيل: المعنى لم يأذن الله لكم في قتال المشركين، ليُسلمَ بعد الصلح من قضى أن يُسلم من أهل مكّة؛ وكذلك كان، أسلمَ الكثيرُ منهم وحَسُنَ إسلامُهُ، ودخلوا في رحمته، أي: جنته.

---

(١) نسبه للكلبي الماورديُّ في النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ . وهو في تفسير الطبري ٢١/ ٣٠٦ . دون نسبة.

(٢) ٧/ ٢٥ .

(٣) في الصحاح (عرر)، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٣٠٥ .

(٤) في (م): وقال الجوهري وابن إسحاق. وهو خطأ.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥ .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ .

(٨) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٥١٠ .

(٩) والتقدير ـ كما في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ ـ : لولا قوم مؤمنون آمنوا ليدخل الله من يشاء في رحمته.

الثانية: قوله تعالى: ﴿لَوْ تَـزَيَّلُواْ﴾ أي: تميَّزوا؛ قاله القُتَبيّ[١]. وقيل: لو تفرقوا؛ قاله الكلبي. وقيل: لو زَال المؤمنون من بين أَظهُر الكفار، لَعذَّب الكفارَ بالسيف؛ قاله الضَّحَّاك. ولكنَّ الله يدفع بالمؤمنينَ عن الكفار[٢]. وقال عليٌّ ﷺ: سألتُ النبيَّ ﷺ عن هذه الآية: ﴿لَوْ تَـزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ﴾ فقال: «هم المشركون من أجداد نبيِّ الله، ومن كان بعدهم وفي عصرهم، كان في أصلابهم قومٌ مؤمنون، فلو تزيَّل المؤمنونَ عن أصلاب الكافرين، لعذَّب الله تعالى الكافرين عذاباً أليماً»[٣].

الثالثة: هذه الآيةُ دليلٌ على مراعاة الكافر في حُرمة المؤمن؛ إذ لا يمكن إذايةُ الكافر إلا بإذاية[٤] المؤمن. قال أبو زيد: قلت لابن القاسم: أرأيت لو أنَّ قوماً من المشركين في حصنٍ من حصونهم، حَصَرهم أهلُ الإسلام، وفيهم قومٌ من المسلمين أُسارى في أيديهم، أَيُحرقُ هذا الحصنُ أم لا؟ قال: سمعت مالكاً، وسُئلَ عن قوم من المشركين في مراكبهم: أنرمي في مراكبهم بالنَّار ومعهم الأُسارى في مراكبهم؟ قال: فقال مالك: لا أرى ذلك؛ لقوله تعالى لأهل مكَّة: ﴿لَوْ تَـزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَـرُواْ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيـمًا﴾[٥]. وكذلك لو تَتَرَّس كافرٌ بمسلم، لم يجز رَميُهُ. وإن فعل ذلك فاعلٌ فأتلفَ أحداً من المسلمين، فعليه الدِّية والكفَّارة. فإنْ لم يعلموا فلا دية ولا كفَّارة؛ وذلك أنَّهم إذا علموا فليس لهم أنْ يرموا، فإذا فعلوه صاروا قتَلَة خطأً، والدِّية على عواقلهم. فإنْ لم يعلموا، فلهم أنْ يرموا، وإذا أُبيحوا الفعل لم يجز أن يبقَى عليهم فيها تِبَاعة.

قال ابن العربي: وقد قال جماعةٌ: إنَّ معناه: لو تزيَّلوا عن بطون النساء وأصلاب

(١) في تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٣) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٣٧ مختصراً. وعزاه للثعلبي والنقاش. وفي رفعه نظر.

(٤) في (م): أذية الكافر إلا بأذية.

(٥) المدونة الكبرى ٣/ ٢٤ ، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٥-١٦٩٦ .

الرجال. وهذا ضعيف؛ لأنَّ مَن في الصُّلب أو في البطن لا يُوطأ، ولا تُصيبُ منه معرَّة. وهو سبحانه قد صرَّح فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ وذلك لا ينطلق على مَن في بطن المرأة وصُلب الرجال، وإنَّما ينطلق على مثل الوليد بن الوليد، وسلمةَ بن هشام، وعيَّاش بن أبي ربيعة، وأبي جندل بن سهيل، وكذلك قال مالك. وقد حاصرنا مدينةً للروم(١) فحُبس عنهم الماء، فكانوا يُنزِلون الأُسارى يستقون لهم الماء، فلا يقدرُ أحدٌ على رميهم بالنَّبل، فيحصل لهم الماء بغير اختيارنا. وقد جوَّز أبو حنيفة وأصحابهُ والثَّوريُّ الرَّميَ في حصون المشركين، وإنْ كان فيهم أُسارى من المسلمين وأطفالِهم. ولو تَتَرَّس كافرٌ بولدِ مسلم، رُميَ المشرك، وإن أُصيب أحدٌ من المسلمين فلا دية فيه ولا كفَّارة. وقال الثوري: فيه الكفَّارة ولا دية. وقال الشافعيُّ بقولنا. وهذا ظاهر؛ فإنَّ التوصُّلَ إلى المباح بالمحظور لا يجوز؛ سِيَّما بروحِ المسلم؛ فلا قولَ إلا ما قاله مالك ﷺ. والله أعلم(٢).

قلت: قد يجوز قتل التُّرس، ولا يكون فيه اختلافٌ إنْ شاء الله، وذلك إذا كانت المصلحةُ ضروريةً كليَّةً قطعيةً. فمعنى كونها ضروريةً: أنَّها لا يحصل الوصول إلى الكفار إلَّا بقتل التُّرس. ومعنى أنها كُلِّية: أنه قاطعةٌ لكلِّ الأمَّة، حتى يحصلَ من قتل التُّرس مصلحةُ كلِّ المسلمين؛ فإنْ لم يفعل، قَتَلَ الكفارُ التُّرسَ واستولوا على كلِّ الأمة. ومعنى كونها قطعيةً: أنَّ تلك المصلحةَ حاصلةٌ من قتل التُّرس قطعاً(٣).

قال(٤) علماؤنا: وهذه المصلحةُ بهذه القيود لا ينبغي أن يختلف في اعتبارها؛ لأنَّ الفَرْضَ أنَّ التُّرسَ مقتولٌ قطعاً؛ فإما بأيدي العدوِّ فتحصل المفسدة العظيمة، التي

---

(١) في النسخ عدا (ف): الروم. والمثبت من (ف) وهو الموافق لأحكام القرآن لابن العربي.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٦ .

(٣) ينظر المستصفى ١/ ٤٢٠ ، والمحصول ٦/ ١٦٤ .

(٤) في (ظ): قاله.

هي استيلاءُ العدوِّ على كل المسلمين. وإما بأيدي المسلمين، فَيهلِكَ العدُّو وينجو المسلمون أجمعون. ولا يتأتى لعاقل أن يقول: لا يُقتل التُّرس في هذه الصورة بوجه؛ لأنَّه يلزم[١] منه ذهابُ التُّرس والإسلام والمسلمين، لكنْ لمَّا كانت هذه المصلحةُ غيرَ خاليةٍ من المفسدة، نفرتْ منها نفسُ من لم يمعن النظر فيها؛ فإنَّ تلك المفسدة بالنسبة إلى ما يحصل منها عدمٌ أو كالعدم. والله أعلم.

الرابعة: قراءة العامة: «لَوْ تَزَيَّلُوا» إلا أبا حَيْوَة فإنه قرأ: «تَزَايَلُوا»[٢] وهو مثل «تَزَيَّلُوا» في المعنى. والتزايل: التباين[٣]. و«تَزَيَّلُوا» تفعَّلوا، من زِلْت. وقيل: هي تَفَيْعَلُوا.

«لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا» قيل: اللام جواب لكلامين؛ أحدهما: «لَولاَ رِجَالٌ» والثاني: «لَوْ تَزَيَّلُوا»[٤]. وقيل جواب «لَوْلَا» محذوف؛ وقد تقدَّم[٥]. و«لَوْ تَزَيَّلُوا» ابتداء كلام.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾

العامل في «إذْ» قوله تعالى: «لَعَذَّبْنَا» أي: لعذَّبناهم إذ فعلوا[٦] هذا. أو فعلٌ مضمرٌ تقديره: واذكروا[٧].

---

(١) في (م): تلزم.

(٢) المحرر الوجيز ٥/١٣٧ .

(٣) الصحاح (زيل).

(٤) تأويل مشكل القرآن ص٢٨٥ .

(٥) ص٣٣٠ من هذا الجزء.

(٦) في (م): جعلوا.

(٧) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/٥٤٨-٥٤٩ ، والمحرر الوجيز ٥/١٣٩ .

﴿ٱلْحَمِيَّةَ﴾ فعِيلة، وهي الأنَفَة. يقال: حَمِيتُ عن كذا حَمِيَّة ـ بالتشديد ـ ومَحْمِيَّة: إذا أنِفْتَ منه وداخلك عارٌ وأَنَفَةٌ أن تفعله[1]. ومنه قول المتلمِّس:

ألا إنني منهم وعِرْضي عِرْضُهم كذِي الأنْفِ يحمي أنفَه أن يُكَشَّما[2]

أي: يمنع.

قال الزهريُّ: حَمِيَّتُهم: أَنَفَتُهم من الإقرار للنبيِّ ﷺ بالرسالة والاستفتاحِ ببسم الله الرحمن الرحيم، ومنعُهم من دخول مكة[3]. وكان الذي امتنع من كتابة بسم الله الرحمن الرحيم، ومحمدٌ رسول الله: سهيلُ بن عمرو؛ على ما تقدَّم[4].

وقال ابن بحر: حمِيَّتُهم عصبيَّتُهم لآلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، والأنَفَةُ من أنْ يعبدوا غيرها[5]. وقيل: «حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ» إنَّهم قالوا: قَتلوا أبناءنا وإخواننا، ثمَّ يدخلون علينا في منازلنا؛ واللات والعُزَّى لا يدخلها أبداً[6].

﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ﴾ أي: الطمأنينةَ والوقار ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: ثبَّتهم على الرِّضا والتسليم، ولم يُدخِل قلوبَهم ما أدخلَ قلوبَ أولئك من الحميَّة.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قيل: لا إله إلا الله. روي مرفوعاً من حديث أُبيِّ بن كعب عن النبيِّ ﷺ[7]. وهو قول عليٍّ، وابن عمر، وابن عباس، وعمرو بن ميمون،

---

(١) الصحاح (حمى).

(٢) في النسخ الخطية: كذا الرأس يحمي أنفه أن يهشما، والمثبت من (م) وهو الموافق لخزانة الأدب ١٠/٥٨ ، والبيت فيه، بلفظ: يهشما. بدل: يكشما.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٤) ص٣١٦ من هذا الجزء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٢٠ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٠٤ .

(٧) أخرجه أحمد (٢١٢٥٥)، والترمذي (٣٦٢٥). قال أبو عيسى: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعا إلا من حديث الحسن بن قَزَعة. قال: وسألت أبا زرعة عن هذا الحديث فلم يعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه.

ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، والضحاك، وسلمةَ بن كُهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة ابن مُصَرِّف، والربيع، والسُّدِّيّ، وابن زيد. وقاله عطاءٌ الخُراسانيّ، وزاد: محمدٌ رسول الله(١).

وعن عليّ وابن عمر أيضاً: هي لا إله إلا الله، والله أكبر(٢).

وقال عطاء بن أبي رباح ومجاهد أيضاً: هي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كل شيء قدير(٣).

وقال الزهريُّ: بسم الله الرحمن الرحيم. يعني أنَّ المشركين لم يُقِرُّوا بهذه الكلمة؛ فخصَ الله بها المؤمنين، وكلمةُ التَّقوَى: هي التي يُتَّقى بها من الشرك.

وعن مجاهد أيضاً: أنَّ كَلِمَةَ التَّقوى: الإخلاص(٤).

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ أي: أحقَّ بها من كفار مكَّة؛ لأنَّ الله تعالى اختارهم لدينه وصُحبة نبيّه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾

قال قتادة: كان رسولُ الله ﷺ رأى في المنام أنه يدخل مكة على هذه الصِّفة؛ فلمَّا صالح قريشاً بالحُدَيبية ارتاب المنافقون، حتى قال رسول الله ﷺ: إنَّه يدخل

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١٣ . عدا أقوال ابن عمر، وسلمة بن كهيل، وعبيد بن عمير، وطلحة بن مصرف، والربيع، والسدي. وذكر قول ابن عمر النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٠٣ ، وذكر قول السدي ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤١ .

(٢) أخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٣١٠-٣١١ ، ٣١٣ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٤ من طريق ابن جريج عن مجاهد وعطاء. وقول مجاهد فيه: كلمة التقوى: الإخلاص وسيأتي.

(٤) أخرج القولين الطبري ٢١/ ٣١٤ .

مكَّة؛ فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ فأعلمهم أنَّهم سيدخلون في غير ذلك العام، وأنَّ رؤياه ﷺ حقٌّ[١]. وقيل: إنَّ أبا بكر هو الذي قال: إن المنام لم يكن مؤقَّتاً بوقت، وأنه سيدخل. وروي أن الرؤيا كانت بالحديبية[٢]، ورؤيا[٣] الأنبياء حقٌّ. والرؤيا أحدُ وجوه الوحي إلى الأنبياء.

﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ أي: في العام القابل ﴿ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن كيسان: إنَّه حكايةُ ما قيل للنبي ﷺ في منامه؛ خُوطِبَ في منامه بما جرت به العادة؛ فأخبر الله عن رسوله أنّه قال ذلك، ولهذا استثنى؛ تأدَّبَ بأدب الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣][٤]. وقيل: خاطب الله العبادَ بما يُحبُّ[٥] أن يقولوه، كما قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. وقيل: استثنى فيما يعلم، ليستثني الخلقُ فيما لا يعلمون، قاله ثعلب[٦]. وقيل: كان الله علم أنه يُميتُ بعضَ هؤلاء الذين كانوا معه بالحديبية، فَوَقع الاستثناءُ لهذا المعنى، قاله الحسينُ بنُ الفضل[٧]. وقيل: الاستثناء من «آمِنِينَ»، وذلك راجعٌ إلى مخاطبة العباد على ما جَرت به العادة[٨]. وقيل: معنى «إنْ شَاءَ اللهُ» إنْ أمرَكُم الله بالدخول[٩]. وقيل: أي: إنْ سهَّل الله. وقيل: «إن شَاءَ اللهُ» أي:

(١) القول بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٢٢، وأخرجه مختصراً الطبري ٢١/ ٣١٦.

(٢) هو قول مجاهد. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٦، وذكر الألوسي ٢٦/ ١٢٠ أن قول من قال: إن الرؤيا قبل خروجه إلى الحديبية هو الأصح.

(٣) في (م): وإن رؤيا.

(٤) القول بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٥.

(٥) في (ظ): يجب.

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٣.

(٧) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥.

(٨) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٤٤ بنحوه، وعزاه للثعلبي.

(٩) هو قول الزجاج كما في معاني القرآن له ٥/ ٢٨.

كما شاء الله. وقال أبو عبيدة: «إنْ» بمعنى «إذ»[١]، أي: إذ شاء الله، كقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] أي: إذ كنتم. وفيه بُعْدٌ، لأنَّ «إذ» في الماضي من الفعل، و«إذا» في المستقبل، وهذا الدُّخول في المستقبل، فوَعَدهم دخولَ المسجد الحرام وعلَّقه بشرط المشيئة، وذلك عامَ الحديبية؛ فأَخبر أصحابه بذلك، فاستبشروا؛ ثم تأخَّر ذلك عن العام الذي طمعوا فيه، فساءَهم ذلك واشتدَّ عليهم، وصالحهم ورجع؛ ثم أذِنَ الله في العام المقبل، فأنزل الله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾. وإنَّما قيل له في المنام: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ فحكى في التنزيل ما قيل له في المنام؛ فليس هنا شكٌّ كما زعم بعضُهم أنَّ الاستثناءَ يدلُّ على الشك، والله تعالى لا يَشكُّ، و«لَتَدْخُلُنَّ» تحقيقٌ، فكيف يكون شك. فـ«إنْ» بمعنى «إذا»[٢].

﴿آمِنِينَ﴾ أي: من العدوّ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ والتحليقُ والتقصير جميعاً للرجال، ولذلك غَلَّب المذكّر على المؤنَّث. والحلقُ أفضل، وليس للنِّساء إلا التقصيرُ. وقد مضى القول في هذا في «البقرة»[٣]. وفي الصحيح أنَّ معاوية أخذ من شعر النبيِّ ﷺ على المَرْوَة بمِشْقَص[٤]. وهذا كان في العمرة لا في الحجّ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ حَلَق في حَجَّته[٥].

﴿لَا تَخَافُونَ﴾ حالٌ من المحلِّقين والمقصِّرين، والتقدير: غير خائفين[٦]. ﴿فَعَلِمَ

(١) ذكره عن أبي عبيدة الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٠٥، وأشار إليه النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٠٤، ثم ردَّه.

(٢) في النسخ الخطية: إذ، والمثبت من (م).

(٣) ٣/ ٢٨٧.

(٤) أخرجه أحمد (١٦٨٨٥)، والبخاري (١٧٣٠)، ومسلم (١٢٤٦). والمشقص: نصل السهم إذا كان طويلا غير عريض. النهاية (شقص).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٩٧ وخبر حَلْق النبي ﷺ في حجته؛ أخرجه أحمد (٤٨٨٩)، والبخاري (١٧٢٦)، ومسلم (١٣٠٤).

(٦) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٧٨.

﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي: علم ما في تأخير الدخول من الخير والصلاح ما لم تعلموه أنتم[1]. وذلك أنَّه عليه الصلاة والسلام لما رجع، مضى منها إلى خَيْبَرَ فافتتحها، ورجع بأموالِ خيبرَ، وأخذ من العُدَّة والقوَّة أضعافَ ما كان فيه في ذلك العام، وأقبلَ إلى مكة على أُهبةٍ وقوَّةٍ وعُدَّة بأضعاف ذلك.

وقال الكلبيُّ: أي علم أنَّ دخولها إلى سنةٍ، ولم تعلموه أنتم. وقيل: عَلِم أنَّ بمكَّةَ رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمناتٍ لم تعلموهم[2].

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَالِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ أي: من دون رؤيا النبيِّ ﷺ فتح خيبر؛ قاله ابن زيد والضحاك[3]. وقيل: فتح مكة. وقال مجاهد: هو صلح الحديبية[4]؛ وقاله أكثر المفسرين. قال الزُّهريُّ: ما فتحٌ[5] في الإسلام كان أعظمَ من صلح الحديبية؛ لأنَّه إنَّما كان القتالُ حين تلتقي الناس، فلَّما كانت الهدنةُ؛ وَضعتِ الحربُ أوزارَها، وأَمِنَ الناس بعضُهم بعضاً؛ فالتقَوا وتفاوضوا الحديث والمناظرة، فلم يُكَلَّمْ أحدٌ بالإسلام يعقلُ شيئاً إلَّا دخل فيه، فلقد دخل في تَينك السنتين في الإسلام مثلُ ما كان في الإسلام قبل ذلك وأكثر[6]. يدلُّكَ على ذلك أنَّهم كانوا سنة ستٍّ يومَ الحديبية ألفاً وأربع مئة، وكانوا بعد عام الحديبية سنةَ ثمانٍ في عشرة آلاف.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ يعني: محمداً ﷺ ﴿بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ

---

(١) الوسيط ٤/ ١٤٥ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٢ .

(٣) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/ ٣١٩ .

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٣ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨ .

(٥) في (ز) و(م): ما فتح الله.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٣١٨ ، وفيه: ما فُتِح في الإسلام فتحٌ.

﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: يُعليه على كل الأديان. فالدين اسمٌ بمعنى المصدر، ويستوي لفظ الواحد والجمع فيه. وقيل: أي: لِيُظهرَ رسولَه على الدين كلِّه ـ أي: على الدين الذي هو شَرْعُهُ ـ بالحجّة، ثمَّ باليد والسيف؛ ونسخ ما عداه.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ «شَهِيداً» نصبٌ على التفسير، والباء زائدة، أي: كفى اللهُ شهيداً لنبيِّه ﷺ؛ وشهادته له تبيِّن صحة نبوَّته بالمعجزات. وقيل: «شَهِيداً» على ما أُرسل به؛ لأنَّ الكفارَ أبَوا أنْ يكتبوا: «هذا ما صالح عليه محمدٌ رسولُ الله»[(١)].

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ «مُحَمَّدٌ» مبتدأ، و«رَسُولُ» خبره. وقيل: «مُّحَمَّدٌ» ابتداء، و«رَسُولُ اللَّهِ» نعته، «وَالَّذِينَ مَعَهُ» عطفٌ على المبتدأ، والخبر فيما بعده؛ فلا يُوقَفُ على هذا التقدير على «رَسُولُ اللَّهِ». وعلى الأول يُوقَف على «رَسُولُ اللَّهِ»؛ لأنَّ صفاتِه عليه الصلاة والسلام تزيد على ما وَصَفَ به[(٢)] أصحابَه؛ فيكون «مُحَمَّدٌ» ابتداءٌ، و«رَسُولُ اللَّهِ» الخبر؛ «وَالَّذِينَ مَعَهُ» ابتداءٌ ثانٍ، و«أَشِدَّاءُ» خبره، و«رُحَمَاءُ» خبر ثانٍ[(٣)].

وكونُ الصفات في جملة أصحاب النبيِّ ﷺ هو الأشبه. قال ابن عباس: أهل

(١) سلفت القصة ١٦/٣١٦، ٣١٨.

(٢) لفظة: به. ليست في (م).

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٧٨-٦٧٩.

الحديبية أشدَّاءُ على الكفار، أي: غلاظٌ عليهم كالأَسد على فريسته[1]. وقيل: المراد بـ«الَّذِينَ مَعَهُ» جميع المؤمنين.

﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يرحم بعضهم بعضاً. وقيل: متعاطفون متوادُّون[2]. وقرأ الحسن: «أَشِدَّاءَ عَلَى الكُفارِ رُحَماءَ بينهم» بالنصب على الحال[3]، كأنَّه قال: والذين معه في حال شدَّتهم على الكفار وتراحمهم بينهم ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ إخبارٌ عن كثرة صَلاتهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ أي: يطلبون الجنَّةَ ورضا الله تعالى.

الثانية: قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ السِّيما: العلامة؛ وفيها لغتان: المدُّ والقصر، أي: لاحت علاماتُ التهجُّد بالليل وأمارات السهر.

وفي سنن ابن ماجه قال: حدَّثنا إسماعيل بن محمد الطَّلحِيُّ قال: حدّثنا ثابت بن موسى أبو يزيد، عن شَريك، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَثُرتْ صلاته بالليل، حَسُنَ وجهُه بالنهار»[4].

وقال ابن العربي[5]: ودَسَّه قومٌ في حديث النبيِّ ﷺ على وجه الغلط، وليس عن النبيِّ ﷺ فيه ذكرٌ بحرف.

وقد روى ابن وهب عن مالك: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ ذلك مما يتعلَّق بجباههم من الأرض عند السجود؛ وبه قال سعيد بن جبير. وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: صلَّى صبيحةَ إحدى وعشرينَ من رمضان، وقد وَكَفَ المسجدُ

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ١٤٦ .

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦ .

(٣) القراءات الشاذة ص١٤٣ ، والمحتسب ٢/ ٢٧٦ .

(٤) سنن ابن ماجه (١٣٣٣). قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في الكافي الشاف ص١٥٤ : واتفق أئمة الحديث وابن عدي والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدي: سرقه جماعة من ثابت كعبد الله بن شبرمة الشريكي وعبد الحميد بن بحر وغيرهما.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٩٨-١٦٩٩ .

وكان على عريش؛ فانصرف النبيُّ ﷺ من صلاته وعلى جبهته وأرنبته أثرُ الماء والطين[١].

وقال الحسن: هو بياضٌ يكون في الوجه يومَ القيامة[٢]. وقاله سعيد بن جبير أيضاً، ورواه العَوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقاله الزهري[٤].

وفي الصحيح عن رسول الله ﷺ من حديث أبي هريرة، وفيه: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أنْ يُخرِجَ برحمته من أراد من أهل النار؛ أمر الملائكة أن يُخرجوا من النار مَن كان لا يشرك بالله شيئاً، ممن أراد اللهُ أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار، يعرفونهم[٥] بأثر السجود، تأكل النارُ ابنَ آدمَ إلا أثرَ السجود، حرَّم الله على النار أن تأكلَ أثرَ السجود»[٦].

وقال شَهْرُ بن حَوْشَب: يكون موضعُ السجود من وجوههم كالقمر ليلةَ البدر[٧].

وقال ابنُ عباسٍ ومجاهد: السِّيما في الدنيا، وهو السَّمْتُ الحسن. وعن مجاهدٍ أيضاً: هو الخشوع والتواضع. قال منصور: سألتُ مجاهداً عن قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ أهو أثرٌ يكون بين عيني الرجل؟ قال: لا؛ ربما يكون بين عيني الرجل مثلُ رُكْبة العَنْز، وهو أقسى قلباً من الحجارة، ولكنَّه نورٌ في وجوههم من الخشوع[٨].

---

(١) صحيح البخاري (٢٠١٨)، وصحيح مسلم (١١٦٧): (٢١٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند أحمد (١١١٨٧). ومعنى وَكف: قطر. الصحاح (وكف).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٣.

(٣) رواية العوفي عن ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٤) في (ز) و(ف) و(ق) و(م): قاله. دون واو. والمثبت من (خ) و(ظ) ورواية الزهري ذكرها الواحدي في الوسيط ٤/ ١٤٦.

(٥) لفظة: يعرفونهم. ليس في (ز) و(ق) و(م).

(٦) قطعة من حديث طويل أخرجه أحمد (٧٧١٧)، والبخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٧) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٨) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٣٢٣-٣٢٤.

وقال ابن جُريج: هو الوقار والبهاء.

وقال شِمْر بن عطية: هو صفرةُ الوجه من قيام الليل[١].

قال الحسن: إذا رأيتَهم حسبتهم مرضى، وما هم بمرضى. وقال الضَّحَّاك: أمَا إنَّه ليس بالنَّدْب في وجوههم، ولكنَّه الصُّفرة[٢].

وقال سفيان الثَّوريُّ: يصلُّون بالليل، فإذا أصبحوا رُؤي ذلك في وجوههم؛ بيانه قولُه ﷺ: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار». وقد مضى القول فيه آنفاً.

وقال عطاء الخُراسانيُّ: دخل في هذه الآية كلُّ من حافظ على الصلوات الخمس[٣].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ قال الفرَّاء[٤]: فيه وجهان، إن شئتَ قلتَ: المعنى: ذلك مَثَلُهم في التوراة وفي الإنجيل أيضاً؛ كمثلهم في القرآن؛ فيكون الوقف على «الإنْجِيل». وإن شئت قلت: تمامُ الكلام: ذلك مَثَلهم في التوراة. ثم ابتدأ فقال: ومَثَلُهم في الإنجيل[٥]. وكذا قال ابن عباس وغيره: هما مَثَلان؛ أحدهما في التوراة، والآخر في الإنجيل؛ فيوقف على هذا على «التَّورَاةِ»[٦]. وقال مجاهد: هو مَثَل واحد[٧]؛ يعني أنَّ هذه صفتُهم في التوراة والإنجيل، فلا يوقف على «التَّورَاةِ» على هذا، ويوقف على «الإنْجِيل»، ويَبتدئ: ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ على معنى: وهُم كزرعٍ.

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٥ بلفظ: تَهيُّج. بدل: صفرة.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠١، وكلام الفراء السالف منه.

(٦) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢ دون نسبته إلى ابن عباس.

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٢٩.

و«شَطأَهُ» يعني فراخه وأولاده، قاله ابن زيد وغيره[١]. وقال مقاتل: هو نبتٌ واحد، فإذا خرج ما بعده فقد شَطَأه[٢]. قال الجوهريُّ: شَطْءُ، الزرع والنبات: فراخُهُ، والجمعُ: أشطاء. وقد أشطأ الزرعُ: خرج شَطؤه. قال الأخفش في قوله: «أخْرَجَ شَطأَهُ» أي: طَرفَه[٣]. وحكاه الثعلبي عن الكسائي. وقال الفراء: أشطأ الزرعُ فهو مُشطِئٌ، إذا خرج. قال الشاعر:

أخرج الشَّطءَ على وجه الثَّرى ومن الأشجار أفنانَ الثمرْ[٤]

الزَّجّاج[٥]: أخرج شطأه، أي: نباته.

وقيل: إنَّ الشَّطءَ شوكُ السُّنْبُل، والعرب أيضاً تسمِّيه: السَّفَا، والبُهْمَى[٦]، قاله قُطْرُب. وقيل: إنَّه السنبل، فيخرج من الحبة عشرُ سنبلاتٍ وتسعٌ وثمان؛ قاله الفرَّاء[٧]، حكاه الماورديُّ[٨].

وقرأ ابن كثير وابن ذَكوان: «شَطَأه» بفتح الطَّاء، وأَسكنَ الباقون[٩]. وقرأ أنسٌ ونصرُ بن عاصم وابنُ وثَّاب: «شَطَاه»، مثل: عصاه[١٠]. وقرأ الجحدريُّ وابن أبي

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٦.

(٣) الصحاح (شطأ).

(٤) البيت للزبير بن العوام ﷺ. وهو في جمهرة أشعار العرب ١/ ١٣٩، وفيه: يخرج. بدل: أخرج.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٩.

(٦) في النسخ الخطية: السفا والبهم، والمثبت من النكت والعيون والكلام منه. وقال في الصحاح: السَّفا: شوك البُهْمى، ونحوه في (م). وقال في القاموس: السَّفا: كل شجر له شوك. والبُهْمَى: هو نبت (يشبه الشعير) تَجِد به الغنم وجداً شديداً ما دام أخضر، فإذا يبس هرَّ شوكه وامتنع. تهذيب اللغة ٦/ ٣٣٩.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٦٩.

(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

(٩) السبعة ص٦٠٤، والتيسير ص٢٠٢.

(١٠) نسب هذه القراءة ابنُ جني في المحتسب ٢/ ٢٧٧ لعيسى الهمداني، ونسبها أبو حيان في البحر ٨/ ١٠٢ لزيد بن علي.

إسحاق: «شَطَه» بغير همز؛ وكلُّها لغاتٌ فيها[1].

وهذا مَثَلٌ ضربَه الله تعالى لأصحاب النبيِّ ﷺ؛ يعني أنَّهم يكونون قليلاً ثم يزدادون ويكثرون؛ فكان النبيُّ ﷺ حين بدأ بالدُّعاء إلى دينه ضعيفاً، فأجابه الواحدُ بعد الواحد حتى قَوِيَ أمرُه؛ كالزرع يبدو بعد البَذْر ضعيفاً، فيقوَى حالاً بعد حالٍ حتى يغلُظَ ساقُه[2] وأفراخه. فكان هذا من أصحِّ مَثَلٍ، وأوضح[3] بيان.

وقال قتادة: مَثَلُ أصحاب محمدٍ ﷺ في الإنجيل مكتوبٌ أنَّه سَيَخرجُ من قومٍ ينبتون نباتَ الزَّرع يأمرون بالمعروف، وينهَوْن عن المنكر[4].

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه وأعانه وشدَّه؛ أي: قوَّى الشطءُ الزرعَ. وقيل بالعكس، أي: قوَّى الزرعُ الشطءَ[5].

وقراءةُ العامة: «آزَرَهُ» بالمدِّ. وقرأ ابن ذكوانٍ وأبو حَيوةَ وحُميد بن قيس: «فأَزَرَهُ» مقصورة، مثل: فَعَلَه[6]. والمعروف المدُّ. قال امرؤ القيس:

بِمَحْنِيَةٍ قد آزرَ الضَّالُ نَبْتَها مَجَرَّ جيوشٍ غانمينَ وخُيَّبِ[7]

﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾: على عوده الذي يقوم عليه، فيكون ساقاً له[8]. والسُّوق: جمع الساق.

---

(١) نسبها للجحدري أبو حيان في البحر المحيط ٨/ ١٠٣.

(٢) في (ز) و(م): نباته، وفي (ق): شانه.

(٣) في (م): وأقوى. والمثبت من النسخ الخطية وهو الموافق للنكت والعيون ٥/ ٣٢٤ والكلام منه.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٣٠.

(٥) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٢.

(٦) قراءة ابن ذكوان ـ وهو راوية ابن عامر ـ في السبعة ص٦٠٥، والتيسير ص٢٠٢.

(٧) ديوان امرئ القيس ص٤٥، قال شارحه: المحنية: حيث ينحني الوادي؛ وهو أخصب موضع فيه... وقوله: مجر جيوش. أي: هذه المحنية في موضع تمر الجيوش به من غانمٍ أو خائب، فلا ينزلُها أحدٌ ليرعاها خوفاً من الجيوش؛ فذلك أوفر لخصبها، وأتم لكلئها. اهـ. والضَّالُ: السِّدْر البَرّي، أو ما لا يسقيه إلا المطر منه. القاموس (ضال).

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٢٣.

﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ أي: يعجب هذا الزرعُ زُرَّاعَه. وهو مَثَلٌ كما بيَّنَّا، فالزرعُ محمدٌ ﷺ، والشطءُ أصحابه، كانوا قليلاً فكثروا، وضعفاء فَقَوُوا، قاله الضحاك وغيره.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾ اللام متعلقة بمحذوف، أي: فَعَلَ الله هذا لمحمدٍ ﷺ وأصحابه، ليغيظ بهم الكفار[1].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: وعد الله هؤلاء الذين مع محمد ﷺ وهم المؤمنون الذين أعمالهم صالحة .﴿مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ أي: ثواباً لا ينقطع، وهو الجنَّة.

وليست «مِن» في قوله: «منهم» مبعِّضةً لقومٍ من الصحابة دون قوم، ولكنَّها عامةٌ مجنِّسة، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]، لا يُقصَد للتبعيض؛ لكنَّه يذهب إلى الجنس، أي: فاجتنبوا الرِّجس من جنس الأوثان، إذْ كان الرِّجس يقع من أجناسٍ شتَّى؛ منها الزِّنى، والرِّبا، وشربُ الخمر، والكذب. فأدخل «مِن» يفيدُ بها الجنس، وكذا «منهم»، أي: من هذا الجنس، يعني: جنسَ الصحابة. ويقال: أَنفقْ نفقتَكَ من الدراهم، أي: اجعل نفقتَك هذا الجنس. وقد يُخصَّصُ أصحابُ محمدٍ ﷺ بوعد المغفرة تفضيلاً لهم، وإنْ وَعَدَ اللهُ جميعَ المؤمنين المغفرةَ .

وفي الآية جوابٌ آخر: وهو أنَّ «من» مؤكدةٌ للكلام، والمعنى وَعَدهم الله كلَّهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فجرى مجرى [قول][2] العربي: قطعتُ من الثوب قميصاً؛ يريد قطعتُ الثوبَ كلَّه قميصاً. و«من» لم تبعِّض شيئاً. وشاهدُ هذا من القرآن: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ﴾ [الإسراء: ٨٢] معناه: وننزِّل القرآن شفاءً؛ لأنَّ كلَّ حرفٍ منه يَشفي، وليس الشِّفاءُ مختصًّا به بعضُه دون بعض. على أنَّ من اللُّغويين من يقول:

---

(١) الوجيز (بحاشية مراح لبيد) ٢/٣١٢ .

(٢) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

«من» مجنِّسة؛ تقديرها: نُنزِّل الشفاءَ من جنس القرآن، ومن جهة القرآن، ومن ناحية القرآن. قال زهير[1]:

أمِـن أمِّ أوفـى دِمْـنَـةٌ لـم تَـكَـلَّـمِ

أراد: من ناحية أمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ، أم من منازلها دِمْنَة. وقال الآخر:

أخُـو رغـائـبَ يُـعـطـيـهـا ويُـسـألُـهـا يـأبَـى الـظُّـلامـةَ مـنـه الـنَّـوفَـلُ الـزُّفَـرُ[2]

فـ«من» لم تُبعِّض شيئاً، إذْ كان المقصد: يأبى الظُّلامةَ؛ لأنَّه نَوفَلٌ زُفَرُ. والنَّوفَل: الكثير العطاء. والزُّفَر: حاملُ الأثقال والمؤن عن الناس.

الخامسة: روى أبو عروةَ الزبيريُّ من ولد الزبير: كنَّا عند مالك بن أنس، فذكروا رجلاً ينتقصُ أصحاب رسول الله ﷺ، فقرأ مالكُ هذه الآية: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ حتى بلغ: ﴿يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ﴾. فقال مالك: مَن أصبح من الناس في قلبه غَيظ على أحد من أصحاب رسول الله ﷺ، فقد أصابته هذه الآية؛ ذكره الخطيب أبو بكر[3].

قلت: لقد أحسن مالكٌ في مقالته، وأصاب في تأويله. فمن نَقَصَ واحداً منهم، أو طعن عليه في روايته، فقد ردَّ على الله رَبِّ العالمين، وأبطلَ شرائعَ المسلمين؛ قال الله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ الآية. وقال: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. إلى غير ذلك من الآي التي تضمَّنت الثناءَ عليهم، والشهادةَ لهم بالصدق والفلاح؛ قال الله تعالى: ﴿رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. وقال: ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا﴾ إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾

---

(١) في ديوانه ص٤، وسلف ٤/ ٤٧٣.

(٢) الكلام بنحوه في كتاب الأضداد للأنباري ص٢٥٢-٢٥٣. والبيت لأعشى باهلة كما في الأصمعيات ص٩٠.

(٣) لم نقف عليه عند الخطيب، وأخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/ ٣٢٧.

[الحشر: ٨]، ثم قال عزَّ من قائل: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا كله مع علمه تبارك وتعالى بحالهم ومآلِ أمرهم، وقال رسول الله ﷺ: «خَيرُ الناسِ قَرنِي، ثم الذين يلونهم». وقال: «لا تَسُبُّوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثلَ أُحُدٍ ذهباً، لم يُدرك مُدّ أحدهم ولا نَصِيفه» خرَّجهما البخاري(١). وفي حديث آخر: «فلو أنَّ أحدكم أنفقَ ما في الأرض، لم يُدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفه»(٢).

قال أبو عبيد(٣): معناه لم يُدرك مُدَّ أحدهم إذا تصدَّق به، ولا نصفَ المُدِّ؛ فالنصيفُ هو النصفُ هنا. وكذلك يقال للعُشر: عَشِير، وللخُمس: خميس، وللتِّسع: تَسيع، وللثُّمن: ثَمين، وللسُّبع: سَبيع، وللسُّدس: سَدِيس، وللرُّبع: رَبيع. ولم تقل العرب للثلث ثليث.

وفي البزَّار عن جابرٍ مرفوعاً صحيحاً: «إنَّ الله اختار أصحابي على العالمين سوى النبيِّين والمرسلين، واختار لي من أصحابي أربعة ـ يعني أبا بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليًّا ـ فجعلهم أصحابي. وقال في أصحابي: كلُّهم خير»(٤).

وروى عُوَيم بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عزَّ وجلَّ اختارني واختار لي أصحابي، فجعل لي منهم وزراءَ وأختاناً وأصهاراً، فمن سَبَّهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(٥).

---

(١) الحديث الأول أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، وهو عند أحمد (٣٥٩٤)، ومسلم (٢٥٣٣) عن عبد الله بن مسعود ﷺ، والحديث الثاني أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، وهو عند أحمد (١١٠٧٩)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين ٢/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في غريب الحديث ٢/ ١٦٤ - ١٦٥.

(٤) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (٢٧٦٣). قال البزار: لا نعلمه يروى عن جابر إلا بهذا الإسناد، ولم يشارك عبد الله بن صالح في روايته هذه عن نافع بن يزيد أحد نعلمه. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٦: رجاله ثقات وفي بعضهم خلاف.

(٥) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١٠٠٠)، والطبراني في الأوسط (٤٥٩)، والكبير ١٧/ (٣٤٩)، قال =

والأحاديث بهذا المعنى كثير[١]، فَحذَارِ من الوقوع في أحد منهم، كما فعل مَن طعن في الدِّين فقال: إنَّ المُعَوِّذَتين ليستا من القرآن، وما صحَّ حديثٌ عن رسول الله ﷺ في تثبيتهما ودخولهما في جملة التنزيل، إلاَّ عن عقبةَ بن عامر[٢]، وعقبةُ بن عامرٍ ضعيفٌ لم يوافق غيره عليها، فروايته مُطَّرحة! وهذا ردٌّ لما ذكرناه من الكتاب والسنة، وإبطالٌ لما نقلَته لنا الصحابة من المِلَّة. فإنَّ عقبةَ بن عامر بن عيسى الجُهني، ممن رَوى لنا الشريعةَ في الصحيحين: البخاري ومسلم وغيرهما، فهو ممن مدحهم الله ووصفهم، وأثنى عليهم ووعدهم مغفرةً وأجراً عظيماً. فمن نسبَه أو واحداً من الصحابة إلى كذبٍ، فهو خارجٌ عن الشريعة، مُبطِلٌ للقرآن طاعنٌ على رسول الله ﷺ. ومتى ألحِق واحدٌ منهم تكذيباً فقد سُبَّ؛ لأنَّه لا عارٌ ولا عيبٌ بعد الكفر بالله أعظمَ من الكذب، وقد لَعن رسول الله ﷺ من سَبَّ أصحابه؛ فالمكذِّب لأصغرهم ـ ولا صغيرَ فيهم ـ داخلٌ في لعنة الله التي شهد بها رسولُ الله ﷺ، وألزمَها كلَّ مَن سبَّ واحداً من أصحابه، أو طعن عليه.

وعن عمر بن حبيب[٣] قال: حضرتُ مجلسَ هارونَ الرشيد. فجرتْ مسألةٌ تنازعها الحضور، وعلَتْ أصواتهم؛ فاحتجَّ بعضُهم بحديثٍ يرويه أبو هريرةَ عن رسول الله ﷺ؛ فرفع بعضُهم الحديث، وزادت المدافعةُ والخصام، حتى قال قائلون منهم: لا يُقبل هذا الحديث على رسول الله ﷺ؛ لأنّ أبا هريرة مُتَّهمٌ فيما يرويه،

= الطبراني في المعجم الأوسط: لا يروى عن عويم بن ساعدة إلا بهذا الإسناد، تفرد به محمد بن طلحة التيمي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٦: وفيه من لم أعرفه. وأخرجه ابن حجر في الأمالي المطلقة ص٧٠-٧١ وقال: هذا حديث حسن.

(١) في (م): كثيرة.

(٢) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم (٨١٤) عن عقبة بن عامر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم تر آيات أنزلت هذه الليلة، لم ير مثلهن قط؟: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) هو العدوي البصري القاضي، قال البخاريُّ: يتكلمون فيه، وقال يحيى بن معين: ضعيف، كان يكذب. مات بالبصرة سنة سبع ومئتين. سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠-٤٩١.

وصَرَّحوا بتكذيبه، ورأيتُ الرشيدَ قد نحا نحوهم، ونَصَر قولهم، فقلت أنا: الحديثُ صحيحٌ عن رسول الله ﷺ، وأبو هريرةَ صحيحُ النَّقل، صدوقٌ فيما يرويه عن نبيِّ الله ﷺ وغيره. فنظر إليَّ الرشيدُ نَظر مُغضَب، وقمتُ من المجلس فانصرفتُ إلى منزلي، فلم ألبثْ حتى قيل: صاحبُ البريد بالباب، فدخل فقال لي: أجبْ أميرَ المؤمنين إجابةَ مقتول، وتحنَّط وتكفَّن! فقلت: اللهُم إنَّك تعلم أنِّي دفعتُ عن صاحب نبيِّك، وأجللتُ نبيَّك أن يُطعنَ على أصحابه، فَسلِّمْني منه. فأُدخلتُ على الرشيد وهو جالسٌ على كرسيٍّ من ذهب، حاسرٌ عن ذراعيه؛ بيده السيف، وبين يديه النِّطْع[١]؛ فلما بَصُرَ بي قال لي: يا عمرَ بنَ حبيب، أتتلقَّاني من الردِّ والدفع بما تلقَّيتني به! فقلت: يا أمير المؤمنين، إنَّ الذي قُلتَه وجادلتَ عنه، فيه إزراءٌ[٢] على رسول الله ﷺ [وعلى ما جاء به]. إذا كان أصحابُه كذابين، فالشريعةُ باطلةٌ، والفرائضُ والأحكامُ في الصيام والصلاة والطلاق والنكاح والحدود؛ كلُّه مردودٌ غير مقبول! فرجع إلى نفسه ثم قال: أحييتني يا عمرَ بنَ حبيب أحياك الله، أحييتني يا عمرَ بن حبيب أحياك الله[٣]؛ وأمر لي بعشرة آلاف درهم[٤].

قلت: فالصحابة كلُّهم عدول، أولياءُ الله تعالى وأصفياؤه، وخِيرته من خلقه بعد أنبيائه ورسله. هذا مذهبُ أهل السنة، والذي عليه الجماعةُ من أئمة هذه الأمة. وقد ذهبت شِرذمةٌ لا مبالاةَ بهم إلى أنَّ حالَ الصحابة كحالِ غيرهم، فيلزمُ البحثُ عن عدالتهم.

---

(١) النطع: بساطٌ من الأديم. القاموس (نطع).

(٢) في (م) إزدراء.

(٣) قوله: أحييتني يا عمر بن حبيب أحياك الله. الثانية من (خ) وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١١/ ١٩٦ - ١٩٧ . والقصة مخرجة فيه. وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) أخرج هذه القصة الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد ١١/١٩٦-١٩٧ ، ومن طريقه المزي في تهذيب الكمال ٢١/ ٢٩٤-٢٩٥ . ولا يخفى ما في هذه القصة من نكارة، فصاحبها عمر بن حبيب العدوي ضعيف متهم بالكذب كما تقدَّم.

ومنهم من فرَّق بين حالهم في بَداءة الأمر فقال: إنَّهم كانوا على العدالة إذ ذاك؛ ثم تغيَّرت بهمُ الأحوالُ، فظهرتْ فيهم الحروب وسفك الدماء؛ فلا بُدَّ من البحث.

وهذا مردودٌ؛ فإنَّ خيارَ الصحابة وفضلاءهم كعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وغيرهم ﷺ ممن أثنى الله عليهم وزكَّاهم، ورضيَ عنهم وأرضاهم، ووعدهم الجنة بقوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ وخاصةً العشرةَ المقطوعَ لهم بالجنة بإخبار الرسول، هم القدوةُ مع علمهم بكثيرٍ من الفتن والأمور الجارية عليهم بعد نبيِّهم بإخباره لهم بذلك. وذلك غيرُ مُسقطٍ من مرتبتهم وفضلهم، إذ كانت تلك الأمورُ مبنيةً على الاجتهاد، وكلُّ مجتهد مصيبٌ.

وسيأتي الكلامُ في تلك الأمور في سورة الحجرات مبيَّنةً إنْ شاء الله تعالى[١].

تمَّ تفسيرُ سورة الفتح، والحمد لله.

(١) ١٦/ ٣٢١-٣٢٢.

تفسير سورة الحُجُرات

مدنيَّة بإجماع، وهي ثماني عشرةَ آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قال العلماء: كان في العرب جَفاءٌ وسوءُ أدب في خطاب النبيِّ ﷺ وتلقيبِ الناس. فالسورةُ في الأمر بمكارم الأخلاق ورعاية الآداب.

وقرأ الضحاك ويعقوب الحضرميُّ: «لا تَقَدَّمُوا» بفتح التاء والدال من التقدُّم[2]. الباقون: «تُقَدِّمُوا» بضم التاء وكسر الدال من التقديم، ومعناهما ظاهر. أي: لا تقدِّموا قولاً ولا فعلاً بين يدي الله وقولِ رسوله وفعله فيما سبيلُه أن تأخذوه عنه من أمر الدين والدنيا. ومَن قدَّم قولَه أو فعلَه على الرسول ﷺ، فقد قدَّمه على الله تعالى؛ لأن الرسول ﷺ إنما يأمر عن أمر الله عزَّ وجلَّ.

الثانية: واختلف في سبب نزولها على أقوال ستة:

الأول: ما ذكره الواحديُّ[3] من حديث ابن جُريج قال: حدَّثني ابن أبي مُليكةَ أن عبد الله بنَ الزُّبير أخبره أنه قدِم ركب من بني تميم على رسول الله ﷺ، فقال أبو بكر: أمِّر القَعْقاع بنَ مَعْبد. وقال عمر: [بل] أمِّر الأقرع بن حابس. فقال أبو بكر: ما

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٠٨.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، والنشر ٢/ ٣٧٥، وهي من العشرة.

(٣) في أسباب النزول ص٤٠٦، وما سيرد بين حاصرتين منه.

أردتَ إلا خلافي. وقال عمر: ما أردتُ خلافَك. فتماريا[١] حتى ارتفعت أصواتهما، فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾. رواه البخاريُّ عن الحسن بن محمد بن الصباح[٢]؛ ذكره المهدَويُّ أيضًا.

الثاني: ما رُوِيَ أن النبيَّ ﷺ أراد أن يستخلف على المدينة رجلًا إذ مضى إلى خَيْبَر، فأشار عليه عمر برجل آخر؛ فنزل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾. ذكره المَهْدَويُّ أيضًا.

الثالث: ما ذكره الماورديُّ عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبيَّ ﷺ أنفذ أربعةً وعشرين رجلًا من أصحابه إلى بني عامر فقتلوهم؛ إلا ثلاثةً تأخروا عنهم، فسلموا وانكفؤوا إلى المدينة، فلقُوا رجلين من بني سُليم فسألوهما عن نسبهما فقالا: مِن بني عامر، لأنهم أعزُّ من بني سُلَيم، فقتلوهما، فجاء نفر من بني سُليم إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن بيننا وبينك عهداً، وقد قُتِل منا رجلان، فوداهما النبيُّ ﷺ بمئة بعير، ونزلت عليه هذه الآية في قتلهم الرجلين[٣].

وقال قتادة: إن ناسًا كانوا يقولون: لو أُنزِل فيَّ كذا، لو أُنزِلَ فيَّ كذا؟ فنزلت هذه الآية.

ابن عباس: نُهُوا أن يتكلموا بين يدي كلامه[٤].

مجاهد: لا تفتاتوا على الله ورسوله حتى يقضيَ الله على لسان رسوله. ذكره

---

(١) في (م): فتماديا، وهو خطأ.

(٢) صحيح البخاري (٤٨٤٧).

(٣) النكت والعيون٥/ ٣٢٦، والأقوال الآتية منه. قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٤: وروي في الدلائل [٣/ ٣٤١ - ٣٤٢] من طريق ابن إسحاق، ومن طريق موسى بن عقبة هذه القصة على غير هذا السياق، وأن المقتولين من بني كلاب، وأن الثلاثة قتل منهم واحد، وهو المحفوظ والمشهور في المغازي.

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٢١/ ٣٣٦.

البخاريُّ أيضًا[١].

الحسن: نزلت في قوم ذبحوا قبل أن يصلي رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يعيدوا الذبح[٢].

ابن جريج: لا تقدِّموا أعمال الطاعات قبل وقتها الذي أمر الله تعالى به ورسوله ﷺ[٣].

قلت: هذه الأقوال الخمسةُ المتأخرة ذكرها القاضي أبو بكر بنُ العربي[٤]، وسردها قبله الماوردي.

قال القاضي: وهي كلُّها صحيحةٌ تدخل تحت العموم، فالله أعلم ما كان السبب المثيرُ للآية منها، ولعلها نزلت دون سبب، والله أعلم.

قال القاضي: إذا قلنا: إنها نزلت في تقديم الطاعات على أوقاتها، فهو صحيح؛ لأن كلَّ عبادة مؤقَّتة بميقات لا يجوز تقديمها عليه، كالصلاة والصوم والحجّ، وذلك بيِّن. إلا أن[٥] العلماء اختلفوا في الزكاة، لمَّا كانت عبادة مالية وكانت مطلوبة لمعنًى مفهوم، وهو سدُّ خَلَّة الفقير، ولأن النبيَّ ﷺ استعجل من العباس صدقة عامين، ولِمَا جاء مِن جمع صدقة الفطر قبل يوم الفطر حتى تُعطَى لمستحقِّها[٦] يوم الوجوب، وهو

---

(١) علقه البخاري قبل (٤٨٤٥)، ووصله الطبري ٢١/ ٣٣٦، والبيهقي في الشعب (١٥١٦)، وهو في تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٥.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٣٠، والطبري ٢١/ ٣٣٦.

(٣) هو قول الزجاج، وليس قول ابن جريج، وهو في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣١، ونقله المصنف عنه بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٢٦، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٠. والأقوال الخمسة يعني أقوال قتادة وابن عباس ومجاهد والحسن والزجاج المذكورة.

(٥) في النسخ: وذلك أن، والمثبت من أحكام القرآن لابن العربي.

(٦) في (خ): مستحقها، وفي (م): لمستحقيها.

يوم الفطر، فاقتضى ذلك كلُّه جوازَ تقديمها العام والاثنين[١]. فإن جاء رأس العام والنصابُ بحاله وقعت موقعها. وإن جاء رأس العام وقد تغيَّر النصاب تبيَّن أنها صدقةُ تطوُّع. وقال أشهب: لا يجوز تقديمها على الحول لحظة، كالصلاة، وكأنه طرَّد الأصل في العبادات، فرأى أنها إحدى دعائم الإسلام، فوفَّاها حقَّها في النظام وحسنِ الترتيب. ورأى سائر علمائنا أن التقديم اليسير فيها جائزٌ؛ لأنه معفوٌّ عنه في الشرع بخلاف الكثير. وما قاله أشهب أصحُّ، فإن مفارقة اليسير الكثيرَ في أصول الشريعة صحيحٌ، ولكنه لِمعانٍ تختص باليسير دون الكثير. فأمَّا في مسألتنا، فاليومُ فيه كالشهر، والشهرُ كالسنة. فإما تقديم كلِّيٌّ كما قال أبو حنيفة والشافعيُّ، وإمَّا حفظُ العبادة على ميقاتها كما قال أشهب.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ﴾ أصل في ترك التعرُّض لأقوال النبيِّ ﷺ، وإيجابِ اتباعه والاقتداء به، وكذلك قال النبيُّ ﷺ في مرضه: «مُرُوا أبا بكر فَلْيُصلِّ بالناس». فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: قولي له: إن أبا بكر رجلٌ أَسِيف، وإنه متى يَقُم مَقامَك لا يُسْمِعِ الناسَ من البكاء، فَمُرْ عمرَ[٢] فلْيصلِّ بالناس. فقال ﷺ: «إنكنَّ لأنتنَّ صواحبُ يوسف. مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[٣]. فمعنى

---

(١) في (ظ) و(ف): والعامين.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠١ - ١٧٠٢ (والكلام منه): علياً، وهو خطأ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٥٨٧٦)، والبخاري (٧١٣)، ومسلم (٤١٨): (٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها مطولاً، ولفظه لابن العربي في أحكام القرآن. ومعنى قوله: أسِيف، أي: سريع البكاء والحزن. النهاية (أسف). وقوله: صواحب يوسف كما في فتح الباري ٢/ ١٥٣: أي إنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع، فالمراد به واحد وهي عائشة فقط، كما أن صواحب صيغة جمع والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلك وهو أن لا يتشاءم الناس به. وقد صرحت هي فيما بعد ذلك فقالت: لقد راجعته وما حملني على كثرة مراجعته إلا أنه لم يقع في قلبي أن يحب الناس بعده رجلًا قام مقامه أبداً.

قوله: «صواحب يوسف» الفتنةُ بالردِّ عن الجائز إلى غير الجائز.

وربما احتجَّ نُفَاة[١] القياس بهذه الآية، وهو باطلٌ منهم، فإنَّ ما قامت دلالته فليس في فعله تقديمٌ بين يديه. وقد قامت دلالة الكتاب والسنة على وجوب القول بالقياس في فروع الشرع، فليس إذًا تقدُّمٌ بين يديه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني في التقدُّم المنهيِّ عنه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لقولكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بفعلكم.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾

فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ روى البخاريُّ والترمذيُّ عن ابن أبي مُلَيكة قال: حدثني عبد الله بنُ الزُّبير أن الأقرع بنَ حابس قَدِمَ على النبيِّ ﷺ، فقال أبو بكر: يا رسول الله استعمله على قومه، فقال عمر: لا تستعمله يا رسول الله، فتكلّما عند النبيِّ ﷺ حتى ارتفعت أصواتهما، فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال عمر: ما أردتُ خلافك، قال: فنزلت هذه الآية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ قال: فكان عمر بعد ذلك إذا تكلم عند النبيِّ ﷺ لم يَسْمع كلامه حتى يستفهمه. قال: وما ذكر ابن الزبير جدَّه يعني أبا بكر. قال [أبو عيسى]: هذا حديث غريب حسن. وقد رواه بعضهم عن ابن أبي مُلَيكة مرسلاً[٢]، لم يذكر فيه عن عبد الله بن الزبير[٣].

(١) في (ز) و(ظ) و(م): بغات، وهو خطأ، والكلام في أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١.

(٢) ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩٠ أن صورته الإرسال، لكن ظهر في آخره أن ابن مُليكة حمله على ابن الزبير، كما سيرد بعده، ثم إن ابن أبي مُليكة صرَّح أن ابن الزبير أخبره، كما في رواية البخاري (٤٨٤٧).

(٣) هذا لفظ حديث الترمذي (٣٢٦٦)، وهو من رواية مؤمَّل بن إسماعيل، عن نافع بن عمر، عن ابن =

قلت: هو البخاريُّ، قال عن أبي مُلَيكة: كاد الخيِّران أن يهلكا: أبو بكر وعمر، رفعا أصواتهما عند النبيِّ ﷺ حين قَدِمَ عليه رَكْب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مُجاشِع، وأشار الآخر برجل آخر ـ فقال نافع: لا أحفظ اسمه ـ فقال أبو بكر لعمر: ما أردتَ إلا خلافي. فقال: ما أردتُ خلافك. فارتفعت أصواتهما في ذلك؛ فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية. فقال ابن الزبير: فما كان عمر يُسمِع رسولَ الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه. ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني أبا بكر الصديق(١).

وذكر المهدويُّ عن عليٍّ ﷺ: نزل قوله: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ فينا لمَّا ارتفعت أصواتنا أنا وجعفر وزيدُ بن حارثة، نتنازع ابنة حمزة لمَّا جاء بها زيد من مكة، فقضى بها رسول الله ﷺ لجعفر؛ لأن خالتها عنده. وقد تقدَّم هذا الحديث في «آل عمران»(٢).

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك أن النبيَّ ﷺ افتقدَ ثابتَ بنَ قيس فقال رجل: يا رسول الله، أنا أعلم لك عِلْمَهُ، فأتاه فوجده جالساً في بيته مُنَكِّسًا رأسه؛ فقال له: ما شأنك؟ فقال: شرٌّ، كان يرفع صوته(٣) فوق صوت النبيِّ ﷺ، فقد حبِط عمله وهو من أهل النار. فأتى الرجل النبيَّ ﷺ، فأخبره أنه قال كذا وكذا. فقال موسى(٤): فرجع

= أبي مُليكة، وقد خالف مؤملٌ ابنَ جريج ـ وروايته عند البخاري (٤٨٤٧)، وسلفت أول السورة ـ في حكايته قول أبي بكر وعمر في طلب تأمير القعقاع، وروايةُ ابنِ جُريج أثبت من رواية مؤمَّل، كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح ٨/ ٥٩١ . وقوله: وما ذكر ابن الزبير جده، يعني لم يذكر عن أبي بكر مثل ما ذكره عن عمر ﷺ في أنه لم يَسمع ﷺ كلامَه حتى يستفهمَه، يوضحه قولُ ابن الزبير الآتي، وهو عند البخاري كما سيذكر المصنف.

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٥)، وهو عند أحمد (١٦١٣٣)، وقوله: ولم يذكر ذلك عن أبيه، يعني جده لأمه أسماء. ينظر عمدة القاري ١٩/ ١٨٣ .

(٢) ٥/ ١٣٤، وسلف أيضاً في البقرة ٤/ ١١٣ .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢١ : كذا ذكره بلفظ الغيبة وهو التفات، وكان البيان يقتضي أن يقول: كنت أرفع صوتي.

(٤) هو موسى بن أنس، أحد رجال الإسناد.

المرة الآخرة ببشارة عظيمة؛ فقال: «اذهب إليه فقل له: إنك لستَ من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة». لفظ البخاري[١].

وثابتٌ هذا هو ثابتُ بنُ قيس بنِ شمَّاسٍ الخزرجيُّ، يُكْنَى أبا محمد بابنه محمد. وقيل: أبا عبد الرحمن. قُتِل له يومَ الحرَّة[٢] ثلاثةٌ من الولد: محمد، ويحيى، وعبد الله. وكان خطيباً بليغًا معروفاً بذلك، كان يقال له: خطيبُ رسول الله ﷺ، كما يقال لحسان: شاعرُ رسول الله ﷺ. ولمَّا قَدِمَ وفد تميم على رسول الله ﷺ وطلبوا المفاخرة، قام خطيبهم فافتخر، ثم قام ثابت بن قيس، فخطب خطبة بليغة جَزْلة فغلبهم، وقام شاعرهم وهو الأقرع بن حابس فأنشد:

أتيناك كَيْمَا يعرفَ[٣] الناس فضلَنا ... إذا خالفونا عند ذكرِ المكارِمِ

وإنَّا رؤوسُ الناس من كل مَعشَرٍ ... وأنْ ليس في أرض الحجاز كدارِمِ

وإنَّ لنا المِرْبَاعَ في كلِّ غارة ... تكون بنجد أو بأرض التهائم[٤]

فقام حسان فقال:

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٤٦)، وصحيح مسلم (١١٩): (١٨٧)، وهو عند أحمد (١٢٤٨٠) وجاء عند مسلم وأحمد أن الرجل الذي سأله النبي ﷺ عن ثابت هو سعد بن معاذ، وسعد توفي في بني قريظة سنة خمس، والآية المذكورة نزلت في زمن الوفود بسبب الأقرع بن حابس وغيره، وكان ذلك في سنة تسع. وجمع بينهما الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٦٢٠: بأن الذي نزل في قصة ثابت مجرد رفع الصوت، والذي نزل في قصة الأقرع أول السورة وهو قوله: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

(٢) هي حَرَّة واقِم إحدى حَرَّتي المدينة، وهي الشرقية، وكانت بها الوقعة المشهورة أيام يزيد بن معاوية سنة ٦٣ هـ مع أهل المدينة الذين لم يرضوا أن يبايعوه. ينظر الكامل لابن الأثير ٤/ ١١١ - ١١٢، ومعجم البلدان ٢/ ٢٤٩.

(٣) بالنصب على اعتبار «ما» زائدة، وبالرفع على اعتبارها كافة. ينظر خزانة الأدب ٨/ ٤٩٨ - ٤٩٩.

(٤) أورد هذه الأبيات الواحدي في أسباب النزول ص٤١١، وأوردها دون البيت الأخير أبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩. وذكرها ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٥ - ٥٦٦ باختلاف يسير ونسبها للزِّبرِقان بن بدر، وجاء فيه الشطر الثاني من البيت الأول هكذا: إذا احتفلوا عند احتضار المواسم. وقوله: كدارم، دارِم هم من بني تميم. والمِرباع: أخذ الربع من الغنيمة، يريد أنهم رؤساء. الإملاء المختصر في شرح غريب السير ٣/ ١٥٣ - ١٥٤.

بَـنـي دارمٍ لا تَـفْـخَـرُوا إنَّ فَـخْـرَكُـمْ يـعـود وَبَـالاً عـنـد ذكـر الـمـكـارم
هَـبِـلـتـم عـلـيـنـا تـفـخـرون وأنـتـمُ لـنـا خَـوَلٌ مِـن بـيـن ظِـئـرٍ وخـادمِ[1]

في أبيات لهما.

فقالوا: خطيبهم أخطبُ من خطيبنا، وشاعرهم أشعرُ من شاعرنا، فارتفعت أصواتهم فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾[2].

وقال عطاءٌ الخُراساني: حدَّثتني ابنة ثابت بن قيس قالت: لمَّا نزلت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، دخل أبوها بيته وأغلق عليه بابه، فَفَقَده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه يسأله ما خبرُه، فقال: أنا رجلٌ شديدُ الصوت، أخاف أن يكون حبِط عملي. فقال عليه الصلاة والسلام: «لست منهم، بل تعيش بخير، وتموت بخير».

قال: ثم أنزل الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان:١٨]، فأغلق بابه وطَفِق يبكي، ففقده النبيُّ ﷺ، فأرسل إليه ما خبرُه[3]، فقال: يا رسول الله، إني أحبُّ الجمال، وأحب أن أسود قومي. فقال: «لستَ منهم، بل تعيش حميدًا، وتُقتل شهيدًا، وتدخل الجنة». قالت: فلمَّا كان يومُ اليمامة، خرج مع خالد بن الوليد إلى مُسَيْلِمَةَ، فلما التقَوْا انكشفوا، فقال ثابتٌ وسالمٌ مولى أبي حذيفة: ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ. ثم حفر كلٌّ واحد منهما له حفرة، فثبتا وقاتلا حتى قُتِلا، وعلى ثابت يومئذ دِرْعٌ له نفيسة، فمرَّ به رجل من المسلمين فأخذها، فبينا رجلٌ من

---

(١) ديوان حسان ص٤٤٠ ، وأوردها أيضاً ابن هشام في السيرة النبوية ٢/ ٥٦٦ ، والواحدي في أسباب النزول ص٤١١ - ٤١٢ ، وأبو العباس القرطبي في المفهم ٧/ ٣٩٩ . وجاء في السيرة النبوية : ما بين ظئر وخادم ، بدل : من بين ظئر وخادم . وقوله : هَبِلتم ، أي : فقدتم . والخول : هم الحَشَم . والظئر: التي ترضع ولد غيرها وقد تأخذ على ذلك أجراً. الإملاء المختصر ٣/ ١٥٤ ، وينظر لسان العرب (خول) .

(٢) المفهم ٧/ ٣٩٨ - ٣٩٩ .

(٣) في (ز) و(ظ) و(م) : فأخبره ، والمثبت من (خ) و(ف) و(ق)، وهو الموافق لما في المفهم ٧/ ٣٩٩ والكلام منه .

المسلمين نائم؛ أتاه ثابت في منامه فقال له: أوصيك بوصية، فإياك أن تقول: هذا حُلْم فتضيعَه، إني لمَّا قُتلت أمسِ؛ مرَّ بي رجل من المسلمين، فأخذ دِرعي ومنزلُه في أقصى الناس، وعند خِبائه فرسٌ يَسْتَنُّ في طِوَلِه[١]، وقد كفأ على الدِّرع بُرْمَةً[٢]، وفوق البُرمة رَحْلٌ، فَأْتِ خالدًا فمُرْه أن يبعث إلى درعي فيأخذَها، وإذا قدمتَ المدينة على خليفة رسول الله ﷺ ـ يعني أبا بكر ـ فقل له: إن عليَّ من الدَّين كذا وكذا، وفلانٌ من رقيقي عتيقٌ وفلان، فأتى الرجل خالدًا فأخبره، فبعث إلى الدرع فأتَى بها، وحدَّث أبا بكر برؤياه، فأجاز وصيته. قال: ولا نعلم أحدًا أُجيزتْ وصيَّته بعد موته غيرَ ثابت رحمه الله[٣]. ذكره أبو عمر في الاستيعاب[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ﴾ أي: لا تخاطبوه: يا محمد، ويا أحمد. ولكن: يا نبيَّ الله، ويا رسول الله؛ توقيرًا له[٥]. وقيل: كان المنافقون يرفعون أصواتهم عند النبيِّ ﷺ؛ ليقتديَ بهم ضَعَفة المسلمين، فَنُهي المسلمون عن ذلك[٦]. وقيل: «لَا تَجْهَرُوا لَهُ» أي: لا تجهروا عليه، كما يقال: سَقَط لِفيه، أي: على فيه. ﴿كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ الكاف كافُ التشبيه في محل النصب، أي: لا تجهروا له جهرًا مثلَ جهر بعضكم لبعض. وفي هذا دليلٌ [على] أنهم لم يُنهَوا عن الجهر مطلقًا حتى لا يسوغ لهم إلا أن يكلموه بالهمس والمخافتة، وإنما نُهُوا عن جهر مخصوص

(١) قوله: يَسْتَنُّ، أي: يعدو لِمَرَحه ونشاطه شوطاً أو شوطين ولا راكب عليه. والطِّوَل: الحبل الطويل يُشَدُّ أحد طرفيه في وتد أو غيره، والطرف الآخر في يد الفرس ليدور فيه ويرعى ولا يذهب لوجهه. النهاية (سنن) و(طول).

(٢) البُرْمة: القِدر مطلقاً، وجمعها بِرام، وهي في الأصل المتخذة من الحجر المعروف بالحجاز واليمن. النهاية (برم).

(٣) المفهم ٧/ ٣٩٩ – ٤٠٠.

(٤) الاستيعاب بهامش الإصابة ٢/ ٧٥ – ٧٨، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٢١)، والطبراني في الكبير (١٣٢٠)، والحاكم ٣/ ٢٣٥.

(٥) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٦) ينظر الكشاف ٣/ ٥٥٥.

مقيَّد بصفة، أعني الجهرَ المنعوتَ بمماثلةِ ما قد اعتادوه منه[١] فيما بينهم، وهو الخُلوُّ من مراعاة أُبَّهة النبوَّة وجلالةِ مقدارها وانحطاطِ سائر الرتب وإن جلَّت عن رتبتها[٢].

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: من أجل أن تحبط، أي: تبطل[٣]؛ هذا قول البصريين. وقال الكوفيون: أي: لئلا تحبَطَ أعمالكم وأنتم لا تشعرون[٤].

الثالثة: معنى الآية الأمرُ بتعظيم رسول الله ﷺ وتوقيرِه، وخفضِ الصوت بحضرته وعند مخاطبته، أي: إذا نطق ونطقتم فعليكم ألا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدِّ الذي يبلغه بصوته، وأن تغضُّوا منها بحيث يكون كلامه عاليًا[٥] لكلامكم، وجهرُه باهرًا لجهركم، حتى تكون مزيَّته[٦] عليكم لائحة، وسابقتُه واضحة، وامتيازه عن جمهوركم كشِيَة الأبلق. لا أن تغمروا صوته بلغطكم، وتَبْهَرُوا منطقه بصخَبكم[٧]. وفي قراءة ابن مسعود: «لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ»[٨]. وقد كره بعض العلماء رفع الصوت عند قبره عليه الصلاة والسلام. وكره بعض العلماء رفع الصوت في مجالس العلماء تشريفًا لهم، إذ هم ورثةُ الأنبياء[٩].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[١٠]: حرمةُ النبيِّ ﷺ مَيّتًا كحرمته حيًّا،

---

(١) في (ز) و(م): منهم.

(٢) الكشاف ٣/ ٥٥٥، وما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق.

(٣) المفهم ٧/ ٤٠٠.

(٤) قوله: وأنتم لا تشعرون، ليست في (م).

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): غالبًا، والمثبت من (خ) و(ق) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٤ والكلام منه. وسقط هذا الموضع من (ف).

(٦) في (خ) و(ز): مرتبته، وفي (م): مزيتة.

(٧) في (ظ): بضجتكم.

(٨) أورد قراءة ابن مسعود الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٥، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٩) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٠٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(١٠) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٢ - ١٧٠٣.

وكلامُه المأثورُ بعد موته في الرِّفعة مثلُ[١] كلامه المسموعِ من لفظه، فإذا قُرِئ كلامه، وجب على كلِّ حاضر ألا يرفع صوته عليه، ولا يعرض عنه، كما كان يلزمه ذلك في مجلسه عند تلفظه به. وقد نبَّه الله سبحانه على دوام الحرمة المذكورة على مرور الأزمنة بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]. وكلامُ النبيِّ ﷺ من الوحي، وله من الحكمة[٢] مثلُ ما للقرآن، إلا معانيَ مستثناة، بيانها في كتب الفقه.

الخامسة: وليس الغرض برفع الصوت ولا الجهرِ ما يُقصد به الاستخفافُ والاستهانة؛ لأن ذلك كفرٌ والمخاطبون مؤمنون. وإنما الغرضُ صوتٌ هو في نفسه والمسموع من جَرْسه[٣] غيرُ مناسب لِمَا يُهاب به العظماء ويوقَّر الكبراء، فيتكلَّفُ الغضَّ منه وردَّه إلى حدٍّ يميل به إلى ما يستبين فيه المأمور به من التعزير والتوقير. ولم يتناول النهي أيضاً رفعَ الصوت الذي لا يتأذى[٤] به رسول الله ﷺ؛ وهو ما كان منهم في حرب أو مجادلة معاندٍ أو إرهاب عدوٍّ، أو ما أشبه ذلك، ففي الحديث أنه قال عليه الصلاة والسلام للعباس بن عبد المطلب لمَّا انهزم الناس يوم حُنين: «اصرخ بالناس»[٥]، وكان العباس أجهرَ الناس صوتًا[٦]. يُروى أن غارة أتتهم يومًا فصاح العباس: يا صباحاه! فأسقطت الحوامل لشدَّة صوته[٧]، وفيه يقول نابغة بني جعدة:

---

(١) في (ز) و(خ) و(ق) و(م): مثال.

(٢) في أحكام القرآن لابن العربي: وله من الحرمة.

(٣) الجَرس: الصوت، ويكسر. القاموس (جرس).

(٤) في (ف) و(ق) و(م): الذي يتأذى، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) وهو الموافق لما في الكشاف ٣/ ٥٥٥ والكلام إلى آخر المسألة منه.

(٥) أخرجه مسلم (١٧٧٥): (٧٦) بلفظ: أي عباس، ناد أصحاب السَّمُرة... وسلف بلفظ مسلم ١٠/ ١٤٥.

(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده. اهـ. وسلف ١٠/ ١٤٥.

(٧) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

زَجْــرُ أبــي عُــرْوة الــسِّــبــاعَ إذا أشـفـق أن يـخـتـلـطْـنَ بـالـغـنـمِ[١]

زعمت الرواة أنه كان يزجر السِّباع عن الغنم، فيفْتُقُ مرارةَ السبع في جوفه[٢].

السادسة: قال الزجاج: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ التقدير: لأن تحبط، أي: فتحبط أعمالكم، فاللام المقدرةُ لامُ الصيرورة[٣]، وليس قوله: «أَنْ تَحْبَطَ أعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ» بموجب أن يكفر الإنسان وهو لا يعلم، فكما لا يكون الكافر مؤمناً إلا باختياره الإيمانَ على الكفر، كذلك لا يكون المؤمن كافراً من حيث لا يقصد إلى الكفر ولا يختاره بإجماع. كذلك لا يكون الكافر كافراً من حيث لا يعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي: يخفضون أصواتهم عنده إذا تكلَّموا إجلالًا له، أو كلَّموا غيره بين يديه إجلالًا له. قال أبو هريرة: لمَّا نزلت: ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾، قال أبو بكر ﷺ: والله لا أرفع صوتي إلا كأخي السِّرار[٤].

وذكر سُنَيد قال: حدثنا عبَّاد بن العوام، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة قال: لمَّا نزلت: ﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قال أبو بكر: والذي بعثك بالحق لا أكلِّمك بعد هذا إلا كأخي السِّرار[٥].

وقال عبد الله بن الزبير: لمَّا نزلت: «لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ» ما حدَّث عمر عند

---

(١) ديوان النابغة الجعدي ص١٥٨، وفيه: يلتبسن، بدل: يختلطن.

(٢) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٥: لم أجده.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٢.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٢، والبيهقي في الشعب (١٥٢١).

(٥) لم نقف عليه من حديث أبي سلمة، وأخرجه البزار (٥٦)، والحاكم ٣/ ٧٤، والواحدي في أسباب النزول ص٤٠٨ من حديث أبي بكر ﷺ.

النبي ﷺ بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستفهمه ممَّا يخفض؛ فنزلت: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾(١).

قال الفراء: أي: أخلصَها للتقوى(٢). وقال الأخفش: أي: اختصها للتَّقْوَى(٣). وقال ابن عباس: «امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى»: طهَّرهم من كلِّ قبيح، وجعل في قلوبهم الخوف من الله والتقوى. وقال عمر ﷺ: أذهبَ عن قلوبهم الشهوات(٤).

والامتحان افتعال من مَحَنْتُ الأدِيمَ مَحْنًا حتى أوسعته(٥). فمعنى امتحن الله قلوبهم للتقوى: وسَّعها وشرحها للتقوى. وعلى الأقوال المتقدمة: امتحن قلوبهم فأخلصها، كقولك: امتحنت الفضة، أي: اختبرتها حتى خلصت. ففي الكلام حذف يدلُّ عليه الكلام، وهو الإخلاص. وقال أبو عمرو: كلُّ شيء جَهَدته فقد محنته. وأنشد:

أتــت رذايــا بــادِيــاً كَــلالُــهــا ... قـد مـحـنـت واضـطـربـت آطـالـهـا(٦)

﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

قال مجاهد وغيره: نزلت في أعراب بني تميم(٧)؛ قَدِم الوفد منهم على النبيِّ ﷺ، فدخلوا المسجد ونادَوُا النبيَّ ﷺ من وراء حجرته أنِ اخرج إلينا، فإنَّ مَدْحَنا زَيْنٌ وَذَمَّنا

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢١٠، وهو بنحو حديث البخاري السالف في المسألة الأولى من الآية السابقة دون قوله: فنزلت ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾.

(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٢٧.

(٤) أورد قول عمر الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٤٥.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ١٢١: محنتُ الأديم محناً: إذا مددتَه حتى توسِّعَه.

(٦) أورده مع قول أبي عمرو والزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٥٧. قوله: رذايا جمع رذِيَّة: وهو الضعيف من كل شيء. والآطال جمع إطل وهو الخاصرة، والكَلال: التعب. القاموس (رذي) و(أطل).

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٤٦ - ٣٤٧.

شَيْنٌ. وكانوا سبعين رجلًا قَدِمُوا لِفِداءِ ذَرارِي لهم؛ وكان النبيُّ ﷺ نام للقائلة.

ورُوِيَ أن الذي نادى الأقرعُ بن حابس، وأنه القائل: إنَّ مَدْحيَ زَيْنٌ وإنَّ ذَمِّي شَيْن؛ فقال النبيُّ ﷺ: «ذاك الله»[١]. ذكره الترمذي عن البَرَاء بن عازب أيضًا[٢].

وروى زيد بن أرقم فقال: أتى أناس النبيَّ ﷺ فقال بعضهم لبعض: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يكن نبيًّا فنحن أسعد الناس باتباعه، وإن يكن مَلِكًا نَعِشْ في جنابه. فأتَوا النبيَّ ﷺ، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٣].

قيل: إنهم كانوا من بني تميم. قال مقاتل: كانوا تسعة[٤] نفر: قيس بن عاصم، والزِّبْرِقَان بن بَدْر، والأَقْرَع بن حابس، وسُويد بن هشام[٥]، وخالد بن مالك، وعطاء ابن حابس، والقَعْقاع بن مَعْبَد، ووَكِيع بن وكيع، وعُيَيْنَة بنِ حِصْن وهو الأحمق المطاع، وكان من الجرَّارين يجرُّ عشْرَة آلافِ قناة[٦]، أي: يتبعه، وكان اسمه حذيفة، وسمِّي عُيَيْنَة لِشَترٍ[٧] كان في عينيه. ذكر عبد الرزاق في عُيينَة هذا: أنه الذي نزل فيه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾[٨] [الكهف:٢٨]. وقد مضى في آخر

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٩٩١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١١٧٨)، والطبري ٢١/٣٤٦، والطبراني في الكبير (٨٧٨).

(٢) برقم (٣٢٦٧) وقال: هذا حديث حسن غريب. ولم يسم الرجل الذي نادى النبي ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٣٤٥ - ٣٤٦، والطبراني في الكبير (٥١٢٣) وفيه داود بن راشد الطُّفاوي لين الحديث كما قال ابن حجر في التقريب. ووقع عند الطبري والطبراني: جناحه، بدل: جنابه.

(٤) في النسخ عدا (ز) و(ظ): عشر، والمثبت منهما وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/٣٢٨ والكلام منه.

(٥) في النسخ: وسويد بن هاشم، والمثبت من النكت والعيون، وزاد المسير ٧/٤٥٩ ونسب القول لابن إسحاق، والإصابة ٤/٣٠٤.

(٦) القناة: الرمح، يعني كان يتبعه عشرة آلاف مقاتل.

(٧) الشَّتَر: انقلاب الجَفْن من أعلى وأسفل. القاموس (شتر).

(٨) سلف ١٣/٢٦٠.

«الأعراف» من قوله لعمر ﷺ ما فيه كفاية[١]. ذكره البخاري[٢].

ورُويَ أنهم وَفدوا وقت الظَّهِيرة ورسولُ الله ﷺ راقد، فجعلوا ينادونه: يا محمد[٣]، اخرج إلينا. فاستيقظ وخرج، ونزلت. وسُئِل رسول الله ﷺ عنهم[٤] فقال: «هم جُفاة بني تميم، لولا أنهم من أشدِّ الناس قتالاً للأعور الدجال، لدعوت الله عليهم أن يهلكهم»[٥].

والحُجُرات جمع حُجْرة، كالغُرُفات جمع غُرْفة، والظُّلُمات جمعُ ظُلْمة. وقيل: الحُجُرات جمع الحُجَر، والحُجَر جمع حُجْرة، فهو جمع الجمع. وفيه لغتان: ضمُّ الجيم وفتحُها. قال:

ولمَّا رأونا باديًا رُكَباتُنا على موطنٍ لا نخلِط الجِدَّ بالهَزْلِ[٦]

والحجرة: الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يُحوط عليها. وحَظيرة الإبل تسمَّى الحجرة، وهي فُعْلة بمعنى مفعولة[٧].

---

(١) ٩/ ٤٢١ - ٤٢٢ . وخلاصته أن عيينة قال لأخيه الحر بن قيس بن حصن : هل لك وجه عند هذا الأمير، فتستأذن لي عليه. قال : سأستأذن لك عليه ، فاستأذن لعيينة ، فلما دخل قال : يا ابن الخطاب، والله ما تعطينا الجَزْل ، ولا تَحكم بيننا بالعدل . قال : فغضب عمر حتى هم بأن يقع به...

(٢) برقم (٧٢٨٦) .

(٣) بعدها في (م) : يا محمد .

(٤) لفظة : عنهم ، ليست في (ز) و(م) .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٥٨ ، وأخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ من طريق يعلى ابن الأشدق عن سعد بن عبد الله. ويعلى بن الأشدق، قال عنه البخاري: لا يكتب حديثه، وقال ابن حبان: وضعوا له أحاديث فحدث بها ولم يدر . الميزان ٤/ ٤٥٦ - ٤٥٧ . وأخرج البخاري (٢٥٤٣) واللفظ له، ومسلم (٢٥٢٥) من حديث أبي هريرة قال : ما زلت أحب بني تميم منذ ثلاث ، سمعت من رسول الله ﷺ يقول فيهم ، سمعته يقول : «هم أشد أمتي على الدجَّال» .

(٦) الكتاب ٣/ ٥٧٩ ، وتفسير غريب القرآن ص٤١٥ ، والمحتسب ١/ ٥٦ . قوله: رُكَبات: هو جمع رُكْبة، وهو الشاهد في البيت على فتح جيم حجرات. وقال محقق الكتاب: بدوّ الركبة كناية عن التأهب للحرب.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٥٨ .

وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاع: «الحُجَرات» بفتح الجيم استثقالاً للضمتين[١]. وقُرِئ: «الحُجْرات» بسكون الجيم تخفيفًا[٢].

وأصل الكلمة المنع، وكلُّ ما منعت أن يوصل إليه فقد حَجَرت عليه. ثم يحتمل أن يكون المنادي بعضًا من الجملة فلهذا قال: «أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ» أي: إنَّ الذين ينادونك من جملة قوم الغالبُ عليهم الجهل.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾

أي: لو انتظروا خروجك لكان أصلحَ لهم في دينهم ودنياهم. وكان ﷺ لا يحتجبُ عن الناس إلا في أوقات يشتغل فيها بِمُهِمَّات نفسه، فكان إزعاجه في تلك الحالة من سوء الأدب. وقيل: كانوا جاؤوا شفعاءَ في أُسارى بني عنبر، فأعتق رسول الله ﷺ نصفهم، وفادى على النصف، ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء[٣]. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ۝٦﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في الوليد بن عُقبةَ بنِ أبي مُعَيْط. وسببُ ذلك ما رواه سعيد عن قتادةَ أن النبيَّ ﷺ بعث الوليد بنَ عُقبَةَ مُصَدِّقًا[٤] إلى بني المُصْطَلق، فلمَّا أبصروه أقبلوا نحوه، فهابهم -

---

(١) النشر ٢/٣٧٦، وهي من العشرة.

(٢) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٣ ونسبها لابن أبي عبلة.

(٣) بنحوه في تفسير البغوي ٤/٢١١.

(٤) المصدِّق: آخذ الصدقات. القاموس (صدق).

في رواية: لإِحْنَة كانت بينه وبينهم ـ، فرجع إلى النبيِّ ﷺ، فأخبره أنهم قد ارتدُّوا عن الإسلام. فبعث نبيُّ الله ﷺ خالدَ بنَ الوليد وأمره أن يتثبَّت ولا يَعْجَل، فانطلق خالد حتى أتاهم ليلًا، فبعث عُيُونَه، فلمَّا جاؤوا أخبروا خالدًا أنهم متمسكّن بالإسلام، وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلمَّا أصبحوا أتاهم خالد، ورأى صحة ما ذكروه، فعاد إلى نبيِّ الله ﷺ فأخبره، فنزلت هذه الآية، فكان يقول نبيُّ الله ﷺ: «التأنِّي من الله، والعجلةُ من الشيطان»[(١)].

وفي رواية: أن النبيَّ ﷺ بعثه إلى بني المُصْطَلِق بعد إسلامهم، فلمَّا سمعوا به ركبوا إليه، فلمَّا سمع بهم خافهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره أن القوم قد همُّوا بقتله، ومنعوا صدقاتهم. فهمَّ رسول الله ﷺ بغزوِهم، فبينما هم كذلك إذ قَدِم وفدهم على رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك فخرجنا إليه لنكرمه، ونؤديَ إليه ما قِبَلَنا من الصدقة، فاستمر راجعًا، وبلغنا أنه يزعم لرسول الله أنَّا خرجنا لنقاتله، واللهِ ما خرجنا لذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية[(٢)]؛ وسُمِّيَ الوليدُ فاسقًا، أي: كاذبًا.

قال ابن زيد ومقاتل وسهل بن عبد الله: الفاسق: الكذَّاب. وقال أبو الحسن الوراق[(٣)]: هو المعلِن بالذنب. وقال ابن طاهر: الذي لا يستحي من الله. وقرأ حمزة والكسائي: «فتثبتوا» من التثبُّت. الباقون: «فَتَبَيَّنُوا» من التبيُّن[(٤)] ﴿أَن تُصِيبُواْ﴾ أي: لئلا

---

(١) النكت والعيون ٥/٣٢٨، ٣٢٩ وأحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧٠٣، وأخرجه الطبري ٢١/٣٥١ - ٣٥٢، وجاء عنده: التبين من الله، بدل: التأني من الله، وهو مرسل.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في السيرة النبوية ٢/٢٩٦، والطبري ٢١/٣٥٢ - ٣٥٣ عن يزيد بن رومان مرسلا، وينظر حديث أحمد (١٨٤٥٩). وقال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة الوليد بن عقبة: لا خلاف بين أهل العلم بتأويل القرآن ـ فيما علمت ـ أن قوله عز وجل: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ﴾ نزل في الوليد بن عقبة... الخ وذكر الخبر.

(٣) هو عبد الوهاب بن عبد الحكم بن نافع أبو الحسن البغدادي الوراق، كان كبير الشأن من خواصّ الإمام أحمد، مات في ذي القعدة سنة إحدى وخمسين ومئتين. سير أعلام النبلاء ١٢/٣٢٣ - ٣٢٤.

(٤) السبعة ص٢٣٦، والتيسير ص٩٧، ووقع في (ف) و(م): التبيين، بدل: التبين.

تصيبوا[١]، فـ«أن» في محل نصب بإسقاط الخافض. ﴿قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: بخطأ. ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ على العجلة وتركِ التأنِّي.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على قَبول خبر الواحد إذا كان عَدْلًا[٢]، لأنه إنما أمر فيها بالتثبُّت عند نقل خبر الفاسق. ومَن ثبت فسقه بطل قوله في الأخبار إجماعًا؛ لأن الخبر أمانةٌ والفسقَ قرينةٌ يبطلها[٣]. وقد استثنى الإجماع من جملة ذلك ما يتعلَّق بالدعوى والجحود، وإثباتِ حقٍّ مقصودٍ على الغير، مثل أن يقول: هذا عبدي، فإنه يُقبَل قوله. وإذا قال: قد أنفذ فلان هذا لك هدية، فإنه يقبل ذلك. وكذلك يُقبَل في مثله خبرُ الكافر[٤]. وكذلك إذا أقرَّ لغيره بحقٍّ على نفسه فلا يبطل إجماعًا. وأمَّا في الإنشاء[٥] على غيره فقال الشافعي وغيرُه: لا يكون وليًّا في النكاح. وقال أبو حنيفة ومالك: يكون وليًّا؛ لأنه يَلي ما لها، فيَلِي بُضْعَها؛ كالعدل، وهو وإن كان فاسقًا في دينه إلا أن غَيْرته موفَّرة، وبها يحمي الحريم، وقد يَبْذلُ المالَ ويصونُ الحرمة، وإذا وَليَ المال فالنكاح أوْلَى[٦].

الثالثة: قال ابن العربي[٧]: ومن العَجَب أن يجوِّز الشافعيُّ ونظراؤه إمامةَ الفاسق. ومَن لا يؤتمن على حبة مالٍ [كيف] يصحُّ أن يؤتمن على قنطار دِين؟ وهذا إنما كان أصله أن الولاة الذين كانوا يصلُّون بالناس لمَّا فسدت أديانهم ولم يمكن تركُ الصلاة وراءهم، ولا اسْتُطِيعت إزالتُهم، صُلِّيَ معهم ووراءهم، كما قال عثمان: الصلاة أحسن ما يفعل الناس، فإذا أحسنوا فأحْسِنْ [معهم]، وإذا أساؤوا فاجتنب

(١) الوسيط ٤/ ١٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٢٩.

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣.

(٤) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨١ - ٣٨٢.

(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٣ والكلام وما سيأتي منه: وأما في الإنسان.

(٦) جاء في أحكام القرآن لابن العربي: فالبضع أولى.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٣ - ١٧٠٤، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

إساءتهم[١]. ثم كان من الناس مَن إذا صلَّى معهم تَقِيَّةً أعاد[٢] الصلاة لله، ومنهم مَن كان يجعلها صلاته. وبوجوب الإعادة أقول، فلا ينبغي لأحد أن يترك الصلاة مع مَن لا يرضى من الأئمة، ولكنْ يعيدُ سِرًّا في نفسه، ولا يؤثِر ذلك عند غيره.

الرابعة: وأمَّا أحكامه إن كان واليًا فيَنْفُذ منها ما وافق الحقَّ، ويُردُّ ما خالفه، ولا يُنْقَض حكمُه الذي أمضاه بحال، ولا تلتفتوا إلى غير هذا القول من رواية [تؤثر]، أو قولٍ يُحكى؛ فإن الكلام كثيرٌ، والحقَّ ظاهر[٣].

الخامسة: لا خلاف في أنه يصحُّ أن يكون رسولًا عن غيره في قول يُبَلِّغه، أو شيء يُوصله، أو إذن يُعلِمه، إذا لم يخرج عن حقِّ المرسِل والمبلَّغ، فإن تعلَّق به حقٌّ لغيرهما لم يُقبَل قوله. وهذا جائزٌ للضرورة الداعية إليه، فإنه لو لم يتصرف بين الخلق في هذه المعاني إلا العدولُ لم يحصل منها[٤] شيء؛ لعدمهم في ذلك. والله أعلم.

السادسة: وفي الآية دليلٌ على فساد قول مَن قال: إن المسلمين كلَّهم عدولٌ حتى تثبت الجُرحة؛ لأن الله تعالى أمر بالتثبُّت قبل القَبول، ولا معنى للتثبُّت بعد إنفاذ الحكم، فإنْ حَكَمَ الحاكم قبل التثبُّت، فقد أصاب المحكومَ عليه بجهالة.

السابعة: فإن قضى بما يغلب على الظنِّ، لم يكن ذلك عملًا بجهالة، كالقضاء بالشاهدين العدلين، وقَبولِ قول العالم المجتهد. وإنما العملُ بالجهالة قَبولُ قولِ مَن لا يحصل غلبةُ الظنِّ بقوله[٥]. ذكر هذه المسألةَ القُشَيْريُّ، والتي قبلها المَهْدَوي.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٩٥). عن عبيد الله بن عديّ بن خِيار أنه دخل على عثمان ﷺ وهو محصور، فقال: إنك إمام عامة، ونزل بك ما نرى، ويصلي لنا إمام فتنة وتحَرَّج، فقال عثمان: الصلاةُ أحسن.... الخ.

(٢) في النسخ عدا (ف)، والأحكام: أعادوا، والمثبت من (ف).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤ وما بين حاصرتين منه.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠ والكلام منه: لم يحصل منهم.

(٥) في (م): بقبوله.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ﴾ فلا تَكذِبوا، فإن الله يُعلِمه أنباءكم فتُفْضَحون[1]. ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ أي: لو تسارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر لنالكم مشقةٌ وإثم، فإنه لو قتل القومَ الذي سعى بهم الوليدُ بن عُقبة إليه، لكان خطأً، ولَعَنَتَ مَن أراد إيقاع الهلاك بأولئك القوم لعداوة كانت بينه وبينهم.

ومعنى طاعةِ الرسول لهم: الائتمارُ بما يأمرونه[2] فيما يبلِّغونه عن الناس والسماعُ منهم.

والعَنَت: الإثم، يقال: عَنِت الرجل. والعَنَت أيضاً: الفجور والزنى، كما في سورة النساء[3].

والعَنتُ أيضًا الوقوعُ في أمر شاقٍّ؛ وقد مضى في آخر «براءة»[4] القولُ في «عَنِتُّم» بأكثرَ من هذا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ هذا خطابٌ للمؤمنين المخلِصين[5] الذين لا يكذبون النبيَّ ﷺ ولا يخبرون بالباطل، أي: جعل الإيمان أحبَّ الأديان إليكم. ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾ بتوفيقه ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسَّنه إليكم حتى اخترتموه. وفي هذا ردٌّ على القدرية والإمامية وغيرِهم، حسب ما تقدَّم في غير موضع. فهو سبحانه المنفردُ بخلق ذواتِ الخلق وخلقِ أفعالهم وصفاتِهم واختلافِ ألسنتهم وألوانهم، لا شريك له.

---

(١) في (ز) و(ظ): فتفتضحوا.

(٢) في (ز): يأمروهم، وفي (ق) و(م): يأمر به.

(٣) ٦/٢٢٨.

(٤) ١٠/٤٤١.

(٥) بعدها في (ز): الصادقين.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾ قال ابن عباس: يريد به الكذبَ خاصَّة[١]. وقاله ابن زيد[٢]. وقيل: كلُّ ما أخرج[٣] عن الطاعة، مشتقٌّ من فَسَقتِ الرُّطَبَةُ: خرجت من قِشرها، والفأرة من جُحرها. وقد مضى في «البقرة»[٤] القولُ فيه مستوفًى. والعصيانُ جميع المعاصي[٥].

ثم انتقل من الخطاب إلى الخبر فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعني هم[٦] الذين وفَّقهم الله، فحبَّب إليهم الإيمان وكرَّه إليهم الكفر، أي: قبَّحه عندهم ﴿هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

قال النابغة:

يـا دارَ مَـيَّـةَ بـالـعَـلْـيـاء فـالـسَّـنَـدِ   أقْوَتْ وطال عليها سالِفُ الأمَدِ[٧]

والرَّشَدُ: الاستقامةُ على طريق الحقِّ مع تَصَلُّبٍ فيه، من الرَّشادة[٨] وهي الصخرة.

قال أبو الوازع: كلُّ صخرة رشادةٌ. وأنشد:

وغـيـرُ مُـقَـلَّـدٍ ومُـوَشَّـمـاتٍ   صَلِينَ الضَّوءَ من صُمِّ الرَّشادِ[٩]

---

(١) الوسيط ٤/ ١٥٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢.
(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٥٦ مطولًا.
(٣) في (م)، والنكت والعيون ٥/ ٣٢٩ وهذا القول منه: كل ما خرج.
(٤) ١/ ٣٦٨.
(٥) الوسيط ٤/ ١٥٣. وتفسير البغوي ٤/ ٢١٢، ووقع في (م): جمع، بدل: جميع، وهو خطأ.
(٦) كذا في النسخ، ولعل لفظة: «هم» زائدة، فسياق الكلام: أولئك ـ يعني الذين وفقهم الله، فحبب إليهم الإيمان... الخ ـ هم الراشدون.
(٧) ديوان النابغة الذبياني ص٣٠، وسلف ١٠/ ٤٧٤.
(٨) في (م): الرشاد.
(٩) الكشاف ٣/ ٥٦٢، قال شارح شواهده ص٣٧: الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلَّد بالحبل، وغير المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم: تغيير اللون، أي التي احترقت بضوئها، أي: حرها، ومن صُمِّ الرَّشاد بيان لها، والصمّ: جمع صماء، أي: صلبة.

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي: فعل الله ذلك بكم فضلًا، أي: للفضل[١] والنعمة، فهو مفعول له. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عَلِيمٌ» بما يُصلِحكم «حَكِيمٌ» في تدبيركم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ روى المُعْتَمِرُ بن سليمان [عن أبيه] عن أنس بن مالك قال: قلت[٢]: يا نبيَّ الله، لو أتيتَ عبدَ الله بنَ أُبَيٍّ. فانطلق إليه النبيُّ ﷺ، فركب حمارًا وانطلق المسلمون يمشون، وهي أرضٌ سَبِخة، فلمَّا أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عني! فوالله لقد أذاني نَتْن حمارك. فقال رجل من الأنصار: والله لَحمارُ رسول الله ﷺ أطيبُ ريحًا منك. فغضب لعبد الله رجلٌ من قومه، وغضب لكلٍّ واحد منهما أصحابه، فكان بينهم[٣] حربٌ بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أُنزِل فيهم هذه الآية[٤].

وقال مجاهد: نزلت في الأوس والخزرج. قال مجاهد: تقاتلَ حيَّان من الأنصار بالعصيِّ والنِّعال فنزلت الآية[٥]. ومثله عن سعيد بن جبير: أن الأوس والخزرج كان

---

(١) في النسخ: الفضل، والمثبت من معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٥، والكلام منه، ونقله عنه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١١.

(٢) كذا في النسخ، ووقع عند أحمد والبخاري ومسلم: قيل، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: لم أقف على اسم القائل.

(٣) في (ز) و(ق): بينهما.

(٤) أخرجه أحمد (١٢٦٠٧)، والبخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩) وما بين حاصرتين منها، وقوله: سَبِخَة؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٥/ ٢٩٨: هي الأرض التي لا تنبت، وكانت تلك صفة الأرض التي مر بها ﷺ إذ ذاك.

(٥) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١.

بينهم على عهد رسول الله ﷺ قتالٌ بالسَّعَف والنِّعال ونحوه؛ فأنزل الله هذه الآية فيهم[١].

وقال قتادة: نزلت في رجلين من الأنصار كانت بينهما مُدارَأة[٢] في حقٍّ بينهما؛ فقال أحدهما: لآخذنَّ حقي منك[٣] عَنوة؛ لكثرة عشيرته. ودعاه الآخر إلى أن يحاكمه إلى رسول الله ﷺ، فأبى أن يتَّبعه؛ فلم يزل الأمر بينهما حتى تواقعا[٤]، وتناول بعضهم بعضًا بالأيدي والنعال والسيوف، فنزلت هذه الآية[٥].

وقال الكلبي: نزلت في حرب سُمير وحاطب، وكان سُمير قتل حاطبًا، فاقتتل الأوس والخزرج حتى أتاهم النبيُّ ﷺ، فنزلت[٦]. وأمر الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين أن يُصلحوا بينهما.

وقال السُّدّيُّ: كانت امرأة من الأنصار يقال لها: «أم زيد» تحت رجل من غير الأنصار، فتخاصمت مع زوجها، أرادت أن تزور قومها، فحبسها زوجها وجعلها في عُلِّيَّة لا يَدخل عليها أحدٌ من أهلها، وأن المرأة بعثت إلى أهلها[٧]، فجاء قومها فأنزلوها لينطلقوا بها، فخرج الرجل فاستغاث أهلَه، فجاء[٨] بنو عمه ليحولوا بين

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٤، وقوله: السَّعَف هو جمع سَعَفة - بالتحريك - وهي أغصان النخيل. النهاية (سعف).

(٢) المدارأة: المخالفة والمدافعة. اللسان (درأ). ووقع في (خ): مولاة، وفي (ز): مماراة.

(٣) لفظة: منك، ليست في (م).

(٤) في (خ) و(ز) و(ظ) و(ف): تواقعوا.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦١ مطولاً.

(٦) حرب سُمَيْر وحرب حاطب: حربان وقعتا بين الأوس والخزرج، كان الظَّفَر في حرب سُمَير للأوس، وحرب حاطب للخزرج، وبينهما نحو مئة سنة على ما ذكرابن الأثير في الكامل ١/ ٦٧١ وقال: حرب حاطب آخر وقعة بينهم إلا يوم بُعاث حتى جاء الله بالإسلام.

(٧) في (ز) و(م): قومها.

(٨) في (م): فخرج.

المرأة وأهلها، فتدافعوا واجتلدوا[١] بالنعال، فنزلت الآية[٢].

والطائفة تتناول الرجلَ الواحدَ والجمع والاثنين، فهو ممَّا حُمِل على المعنى دون اللفظ؛ لأن الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد الله: «حتى يفيئوا إلى أمر الله فإن فاؤوا فخذوا بينهم بالقسط». وقرأ ابن أبي عَبْلَة: «اقتتلتا» على لفظ الطائفتين[٣]. وقد مضى في آخر «براءة» القولُ فيه[٤]. وقال ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] قال: الواحد فما فوقه[٥]، والطائفةُ من الشيء: القطعةُ منه.

﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ بالدعاء إلى كتاب الله؛ لهما أو عليهما ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾: تعدَّت ولم تُجِب إلى حكم الله وكتابه. والبغيُ: التطاول والفساد. ﴿فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: ترجعَ إلى كتابه. ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾: رجعت ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾ أي: احملوها على الإنصاف. ﴿وَأَقْسِطُوٓا۟﴾ أيها الناس فلا تقتتلوا. وقيل: أقسطوا، أي: اعدلوا. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين المحقِّين.

الثانية: قال العلماء: لا تخلو الفئتانِ من المسلمين في اقتتالهما؛ إمَّا أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعًا أو لا.

فإن كان الأوّلُ، فالواجبُ في ذلك أن يُمْشَى بينهما بما يُصلِح ذاتَ البَيْن، ويُثمِر المكافَّة والموادعة. فإن لم يتحاجزا ولم يصطلحا وأقامتا على البغي، صِير إلى مقاتلتهما.

وأمَّا إن كان الثاني ـ وهو أن تكون إحداهما باغيةً على الأخرى ـ فالواجبُ أن

---

(١) في (م): وتجالدوا.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٣٠، وأحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧٠٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٠ بنحوه.

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٣، وذكر قراءة ابن أبي عبلة أيضاً ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٣.

(٤) ١٠/ ٤٢٩.

(٥) سلف ١٥/ ١١٤.

تُقاتَل فئةُ البغي إلى أن تكُفَّ وتتوب، فإن فعلتْ أُصلِح بينها وبين المبغيِّ عليها بالقسط والعدل.

فإن التحم القتال بينهما لشبهة دخلت عليهما وكلتاهما عند أنفسهما مُحِقَّة، فالواجبُ إزالةُ الشبهة بالحجَّة النيِّرة والبراهينِ القاطعة على مراشد الحقّ. فإن ركبتا متن اللَّجاج ولم تعملا على شاكلة ما هُدِيَتَا إليه ونُصِحتا به من اتّباع الحقّ بعد وضوحه لهما، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. والله أعلم[١].

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على وجوب قتال الفئة الباغية المعلومِ بغيُها على الإمام، أو على أحد من المسلمين. وعلى فساد قول مَن منع من قتال المؤمنين، واحتجَّ بقوله عليه الصلاة والسلام: «قتالُ المؤمن كفر»[٢]. ولو كان قتال المؤمن الباغي كفراً لكان الله تعالى قد أمر بالكفر، تعالى الله عن ذلك! وقد قاتل الصدِّيق ﷺ مَن تمسك بالإسلام وامتنع من الزكاة[٣]، وأمر ألا يُتبع مُوَلٍّ، ولا يُجهَز على جريح. ولم تَحِلَّ أموالهم، بخلاف الواجب في الكفار. وقال الطبري: لو كان الواجب في كل اختلاف يكون بين الفريقين الهربَ منه ولزومَ المنازل لَمَا أقيم حدٌّ ولا أُبطِل باطل، ولَوَجد أهل النفاق والفجور سبيلاً إلى استحلال كلِّ ما حرَّم الله عليهم من أموال المسلمين وسَبْي نسائهم وسفكِ دمائهم، بأن يتحزَّبوا عليهم، ويكفّ المسلمون أيديَهم عنهم، وذلك مخالف لقوله عليه الصلاة والسلام: «خذوا على أيدي سفهائكم»[٤].

الرابعة: قال القاضي أبو بكر بن العربي[٥]: هذه الآية أصلٌ في قتال المسلمين،

---

(١) الكشاف ٣/ ٥٦٤ .

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٧) ، والبخاري (٤٨) ، ومسلم (٦٤) : (١١٦) عن ابن مسعود ﷺ .

(٣) أخرجه أحمد (١١٧)، والبخاري (١٣٩٩)، ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: والله لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة والزكاة.

(٤) سلف ٧/ ٢٠٤ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٠٥ - ١٧٠٦ ، وما سيرد بين حاصرتين منه .

والعمدةُ في حرب المتأوِّلين، وعليها عوَّل الصحابة، وإليها لجأ الأعيان من أهل الملَّة، وإياها عنى النبيُّ ﷺ بقوله: «تَقْتلُ عَمَّارًا[(١)] الفئةُ الباغية». وقولِه عليه الصلاة والسلام في شأن الخوارج: «يخرجون على حينِ[(٢)] فُرقة» أو «على خير[(٣)] فِرقة»، والروايةُ الأولى أصحُّ، لقوله عليه الصلاة والسلام: «تقتلهم[(٤)] أَوْلَى الطائفتين إلى الحق»[(٥)]. وكان الذي قتلهم عليُّ بن أبي طالب ومَن كان معه. فتقرَّر عند علماء المسلمين وثبت بدليل الدِّين أن علياً ﷺ كان إمامًا، وأنَّ كلَّ مَن خرج عليه باغٍ، وأنَّ قتاله واجبٌ حتى يفيء إلى الحق وينقاد إلى الصلح؛ لأن عثمان ﷺ قُتِل والصحابةُ بُرآء من دمه، لأنه مَنع من قتال مَن ثار عليه وقال: لا أكونُ أوّل مَن خَلَف رسولَ الله ﷺ في أمته بالقتل، فصبر على البلاء، واستسلم للمحنة وفدى بنفسه الأمة. ثم لم يمكن ترك الناس سُدًى، فعُرِضت على باقي الصحابة الذين ذكرهم [عمر] في الشورى، وتدافعوها، وكان عليٌّ كرَّم الله وجهه أحقَّ بها وأهلَها، فقبلَها حَوْطةً على الأمة أن تُسفَك دماؤها بالتهارج والباطل، أو يتخرق أمرها إلى ما لا يتحصَّل. فربما تغيَّر الدِّين وانقضَّ عمود الإسلام. فلمَّا بويع له، طلب أهل الشام في شرط البيعة

---

(١) في النسخ الخطية: عثمان، والمثبت من (م) وهو الصواب، والحديث عند أحمد (٢٦٥٦٣)، ومسلم (١٢٩١٦): (٧٣) عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) في (ق) و(م) وأحكام القرآن لابن العربي: خير، والمثبت من بقية النسخ.

(٣) في (ق) و(م) وأحكام القرآن: حين، وجاء في نسخة من أحكام القرآن: خير، والمثبت من (خ) و(ز) و(ظ) و(ف)، وهو الذي يريده المصنف كما سيرد، وهو ما رجَّحه النووي أيضاً في شرح صحيح مسلم ٧/ ١٦٦، والحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٢/ ٢٩٥؛ لقوله في رواية أخرى: «يخرجون في فُرقة من الناس» و: «عند فُرقة». أي: في وقت افتراق المسلمين، وهو ما كان بين علي ومعاوية رضي الله عنهما. وأما رواية: خير؛ فقد نقل النووي عن القاضي عياض أن المراد به خير القرون، وهم الصدر الأول، أو أن المراد به علي وأصحابه، فعليه كان خروجهم حقيقة؛ لأنه كان الإمام حينئذ. والحديث عند أحمد (١١٠١٨) والبخاري (٣٦١٠) و(٦٩٣٣)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٤) في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه: لقتلهم، بدل: لقوله عليه الصلاة والسلام: تقتلهم.

(٥) أخرجه أحمد (١١٠١٨)، ومسلم (١٠٦٤): (١٥٠) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

التمكنَ من قَتَلة عثمان وأَخْذَ القَوَد منهم، فقال لهم عليٌّ ﷺ: ادخلوا في البيعة واطلبوا الحقَّ تصلوا إليه. فقالوا: لا تستحقُّ بيعةً وقَتَلَةُ عثمانَ معك نراهم صباحًا ومَساء. فكان عليٌّ في ذلك أسدَّ رأيًا وأصوبَ قِيلًا؛ لأن عليًّا لو تعاطى القَوَد منهم، لتعصبت لهم قبائلُ وصارت حربًا ثالثة، فانتظر بهم أن يستوثق الأمر وتنعقدَ البيعةُ، ويقعَ الطلبُ من الأولياء في مجلس الحكم؛ فيجري القضاء بالحق.

ولا خلاف بين الأمة أنه يجوز للإمام تأخيرُ القصاص إذا أدَّى ذلك إلى إثارة الفتنة أو تشتيتِ الكلمة. وكذلك جرى لطلحةَ والزبير، فإنهما ما خلعا عليًّا من ولاية، ولا اعترضا عليه في ديانة، وإنما رأيا[1] أن البداية[2] بقتل أصحاب عثمانَ أولى.

قلت: فهذا قولٌ في سبب الحرب الواقع بينهم. وقال جِلَّة من أهل العلم: إن الوقعة بالبصرة بينهم كانت على غير عزيمة منهم على الحرب، بل فجأةً، وعلى سبيل دَفْع كلٍّ واحد من الفريقين عن أنفسهم؛ لظنه أن الفريق الآخر قد غدر به، لأنَّ الأمر كان قد انتظم بينهم، وتمَّ الصُّلح والتفرُّق على الرضا. فخاف قَتَلةُ عثمانَ ﷺ من التمكين منهم والإحاطةِ بهم، فاجتمعوا وتشاوروا واختلفوا، ثم اتفقت آراؤهم على أن يفترقوا فريقين، ويبدؤوا بالحرب سَحَرةً في العسكرَيْن، وتختلفَ السهام بينهم، ويصيحَ الفريق الذي في عسكر عليٍّ: غَدَر طلحة والزبير. والفريقُ الذي في عسكر طلحةَ والزبير: غدر عليٌّ. فتمَّ لهم ذلك على ما دَبَّروه، وَنشِبَت الحرب، فكان كلُّ فريق دافعًا لمَكْرته عند نفسه، ومانعًا من الإشاطة[3] بدمه. وهذا صوابٌ من الفريقين وطاعةٌ لله تعالى، إذ وقع القتال والامتناع منهما على هذه السبيل. وهذا هو الصحيح المشهور. والله أعلم.

---

(١) في النسخ الخطية عدا (ظ) فإنها غير واضحة فيه: رأوا، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي والكلام منه.

(٢) في (م): البداءة.

(٣) الإشاطة: الإهلاك، وشاط دمُه وأشاط دَمه وبدمه: أذهبه، وأشاط فلان فلاناً إذا أهلكه. اللسان (شيط).

الخامسة: قوله تعالى: ﴿فَقَـٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أمرٌ بالقتال. وهو فرضٌ على الكفاية؛ إذا قام به البعض سقط عن الباقين، ولذلك تخلَّف قوم من الصحابة ﷺ عن هذه المقامات، كسعد بن أبي وَقَّاص وعبدِ الله بنِ عمر[١] ومحمدِ ابن مسلمةَ وغيرِهم. وصوَّب ذلك عليُّ بن أبي طالب لهم، واعتذر إليه كلُّ واحد منهم بعذر قَبِله منه.

ويُروى أن معاويةَ ﷺ لمَّا أفضى إليه الأمر، عاتب سعدًا على ما فعل، وقال له: لم تكن ممن أصلح بين الفئتين حين اقتتلا، ولا ممن قاتل الفئة الباغية. فقال له سعد: ندمتُ على تركي قتالَ الفئةِ الباغية. فتبيَّن أنه ليس على الكلِّ دَرَكٌ[٢] فيما فعل، وإنما كان تصرُّفاً بحكم الاجتهاد وإعمالاً بمقتضى الشرع. والله أعلم.

السادسة: قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ ومن العدل في صلحهم ألا يُطالَبوا بما جرى بينهم من دم ولا مال، فإنه تَلَفٌ على تأويل، وفي طلبهم [له] تنفيرٌ لهم عن الصلح واستشراءٌ[٣] في البغي، وهذا أصل في المصلحة[٤]. وقد قال لسان الأمة[٥]: إن حكمة الله تعالى في حرب الصحابة التعريفُ منهم لأحكام قتال أهل التأويل، إذ كان أحكامُ قتال أهل الشرك قد عُرِفت على لسان الرسول ﷺ وفِعله[٦].

السابعة: إذا خرجت على الإمام العدل خارجةٌ باغيةٌ ولا حجة لها، قاتلهم الإمام

(١) في النسخ عدا (ف): عمرو، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ١٧٠٧/٤ والكلام منه.

(٢) الدَّرَك: التبعة. القاموس (درك).

(٣) أي: تفاقم: القاموس (شرى).

(٤) بعدها في (ظ): وأصلح في الجملة.

(٥) هو أبو بكر ابن الطيب الباقلاني، لقَّبه بذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك ٥٨٥/٤، وسلفت ترجمته ٦٤/١.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ١٧٠٨/٤ وما بين حاصرتين منه.

بالمسلمين كافَّة، أو بمن فيه كفاية، ويدعوهم قبل ذلك إلى الطاعة والدخول في الجماعة، فإنْ أبَوا من الرجوع والصلح قوتلوا. ولا يُقتل أسيرهم، ولا يُتبع مُدْبِرُهم، ولا يُذَفَّف[١] على جريحهم، ولا تُسْبَى ذراريهم ولا أموالُهم. وإذا قَتَل العادلُ الباغيَ، أو الباغي العادلَ وهو وليُّه، لم يتوارثا. ولا يرث قاتلٌ عمداً على حال. وقد قيل: إن العادلَ يَرِث الباغي، قياسًا على القصاص[٢].

الثامنة: وما استهلكه البغاة والخوارج[٣] من دم أو مال ثم تابوا، لم يؤاخَذوا به[٤]. وقال أبو حنيفة: يضمنون. وللشافعي قولان. وجْهُ قولِ أبي حنيفةَ أنه إتلاف بعُدْوان، فيلزم الضمان. والمعوَّل في ذلك عندنا أن الصحابة ﷺ في حروبهم[٥] لم يَتبعوا مُدْبِراً، ولا ذَفَّفُوا على جريح، ولا قتلوا أسيراً، ولا ضمنوا نفساً ولا مالًا، وهم القُدْوة. وقال ابن عمر: قال النبيُّ ﷺ: «يا عبدَ الله، أتدري كيف حكم الله فيمن بَغَى من هذه الأمة»؟ قال: الله ورسوله أعلم. فقال: «لا يُجهَز على جريحها، ولا يُقتل أسيرها، ولا يُطلب هاربها، ولا يُقسم فَيْئُها»[٦]. فأمَّا ما كان قائماً رُدَّ بعينه. هذا كلُّه فيمن خرج بتأويل يسوغ له.

وذكر الزَّمَخْشري في تفسيره[٧]: إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا مَنَعة لها، ضَمِنَت بعد الفيئة ما جَنَت، وإن كانت كثيرة ذاتَ مَنَعة وشوكة، لم تَضمَن؛ إلا عند محمدِ بن الحسن رحمه الله، فإنه كان يُفتي بأنَّ الضمان يَلزمها إذا فاءت. وأمَّا قبل التَّجَمُّع والتَّجَنُّد، أو حين تتفرَّق عند وضع الحرب أوزارَها، فما جنته ضمنته عند

(١) أي: لا يُجهز.
(٢) الكافي ١/ ٤٨٦.
(٣) في (ز) و(ظ): وما استهلك البغاة من الخوارج، وفي (ف): وما استهلك الخوارج أو البغاة.
(٤) الكافي ١/ ٤٨٦.
(٥) في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٠ والكلام منه: خروجهم.
(٦) أخرجه البزار كما في كشف الأستار (١٨٤٩)، والحاكم ٢/ ١٥٥، والبيهقي ٨/ ١٨٢ وفيه كوثر بن حكيم تفرد به كما قاله البزار، وقال فيه ابن معين: ليس بشيء. وقال أحمد: أحاديثه بواطيل ليس بشيء. ميزان الاعتدال ٣/ ٤١٦.
(٧) ٣/ ٥٦٤، والكلام منه إلى آخر المسألة منه.

الجميع. فَمَحْمَلُ[١] الإصلاح بالعدل في قوله: ﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ على مذهب محمد واضحٌ منطبق على لفظ التنزيل. وعلى قول غيره وجْهُه أن يُحمل على كون الفئة الباغية قليلةَ العدد. والذي[٢] ذكروا أن الغرض إماتةُ الضغائن وسلُّ الأحقاد دون ضمان الجنايات، ليس بحُسن الطباق المأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.

قال الزمخشري: فإن قلتَ: فلِمَ قُرِن بالإصلاح الثاني العدلُ دون الأوّل؟ قلتُ: لأن المراد بالاقتتال في أوّل الآية أن يقتتلا باغيتين أو راكبتي شبهة، وأيتُهما كانت فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما إصلاحُ ذات البَيْن، وتسكينُ الدِّماء[٣] بإراءة الحقِّ والمواعظِ الشافية ونفي الشبهة، إلا إذا أصرَّتا فحينئذ تجب المقاتلة، وأمَّا الضمانُ فلا يتَّجه. وليس كذلك إذا بغت إحداهما؛ فإن الضمان متَّجِهٌ على الوجهين المذكورين.

التاسعة: ولو تغلَّبوا على بلد فأخذوا الصدقاتِ وأقاموا الحدود وحكموا فيهم بالأحكام، لم تُثَنَّ عليهم الصدقات ولا الحدود، ولا يُنقض من أحكامهم إلا ما كان خلافاً للكتاب أو السنة أو الإجماع، كما تنقض [من] أحكام أهل العدل والسنة[٤]. قاله مُطَرِّف وابن الماجِشون. وقال ابن القاسم: لا تجوز بحال. ورُويَ عن أصْبَغ أنه جائز. ورُويَ عنه أيضاً أنه لا يجوز؛ كقول ابن القاسم. وبه قال أبو حنيفة؛ لأنه عمل بغير حقٍّ ممن لا تجوز تَوْليته، فلم يجز كما لو لم يكونوا بغاة[٥]. والعمدةُ لنا ما قدَّمناه من أن الصحابة ﷺ لمَّا انجلت الفتنة وارتفع الخلاف بالهدنة والصلح، لم يَعرِضوا لأحد منهم في حكم. قال ابن العربيّ[٦]: الذي عندي أن ذلك لا يصلح؛

---

(١) في (ز) و(م): فحمل.
(٢) في الكشاف: والذين.
(٣) في (م): الدهماء.
(٤) الكافي ١/٤٨٦، وما بين حاصرتين منه.
(٥) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٧١٠ والكلام منه: فلم يجز كما لو كانوا بغاة. وجاء في نسخة منه موافقاً لما ذكره المصنف.
(٦) في أحكام القرآن ٤/١٧١٠.

لأن الفتنة لمَّا انجلت كان الإمام هو الباغي، ولم يكن هناك مَن يعترضه. والله أعلم.

العاشرة: لا يجوز أن يُنسب إلى أحد من الصحابة خطأٌ مقطوعٌ به، إذ كانوا كلُّهم اجتهدوا فيما فعلوه، وأرادوا اللهَ عزَّ وجل، وهم كلُّهم لنا أئمةٌ، وقد تعبَّدَنَا بالكفِّ عما شجر بينهم، وألا نذكرَهم إلَّا بأحسن الذِّكر؛ لحرمة الصحبة، ولنهي النبيِّ ﷺ عن سَبِّهم[1]، وأن الله غفر لهم، وأخبرنا بالرضا عنهم. هذا مع ما قد ورد من الأخبار من طرق مختلفةٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّ طلحةَ شهيدٌ يمشي على وجه الأرض[2]، فلو كان ما خرج إليه من الحرب عصياناً، لم يكن بالقتل فيه شهيداً. وكذلك لو كان ما خرج إليه خطأً في التأويل وتقصيراً في الواجب عليه؛ لأن الشهادة لا تكون إلا بقتلٍ في طاعة، فوجب حملُ أمرهم على ما بيَّنَّاه. وممَّا يدلُّ على ذلك ما قد صحَّ وانتشر من إخبار عليٍّ بأنَّ قاتل الزبير في النار. وقوله: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بشِّر قاتل ابن صفية بالنار»[3]. وإذا كان كذلك فقد ثبت أن طلحةَ والزبيرَ غيرُ عاصيين ولا آثمين بالقتال؛ لأن ذلك لو كان كذلك، لم يقل النبيُّ ﷺ في طلحةَ: «شهيد». ولم

---

(١) ورد النهي عن سبهم في أحاديث كثيرة، منها الحديث الذي أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤١) عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهباً لم يدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه» وسلف ٥/ ٢٦١، وص٣٤٨ من هذا الجزء، وينظر في الموضع الثاني الآيات والأحاديث التي ذكرها المصنف والتي تضمنت الثناء عليهم، والوعيد الشديد لمن سبَّهم وقلَّل من شأنهم.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٣٩)، وابن ماجه (١٢٥) من حديث جابر ﷺ، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث الصَّلْت، وقد تكلم بعض أهل العلم في الصلت بن دينار وفي صالح بن موسى من قبل حفظهما.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الفصل للوصل المدرج في النقل ١/ ١٩٠ من طريق زيد بن أخزم عن علي مرفوعاً، وقال: جعل هذا الراوي وأظنه زيد بن أخزم قوله: بشِّر قاتل ابن صفية بالنار، من كلام النبي ﷺ وذلك وهم، إنما هو من قول علي بن أبي طالب، روى ذلك أبو سلمة التبوذكي... وكذلك رواه زائدة بن قدامة وشيبان... اهـ. وأخرجه موقوفاً على علي ﷺ أحمد (٦٨١)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦)، والطبراني في الكبير (٢٤٣). لكن الحافظ ابن حجر ذكر في الفتح ٦/ ٢٢٩ أن علياً رفعه إلى النبي ﷺ كما رواه أحمد وغيره من طريق زر بن حبيش عن علي بإسناد صحيح. اهـ. ولم نقف عليه مرفوعاً عند أحمد.

يخبر أن قاتل الزبير في النار. وكذلك مَن قعد غيرُ مخطِئ في التأويل. بل صوابٌ أراهم الله الاجتهاد. وإذا كان كذلك لم يُوجِب ذلك لعنَهم والبراءةَ منهم وتفسيقَهم، وإبطالَ فضائلهم وجهادهم، وعظيمَ غنائهم في الدِّين، ﷺ.

وقد سُئل بعضُهم عن الدماء التي أُريقت فيما بينهم فقال: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤]. وسُئِل بعضهم عنها أيضاً فقال: تلك دماءٌ قد طَهَّر الله منها يدي؛ فلا أَخْضِب بها لساني. يعني في التحرز من الوقوع في خطأ، والحكم على بعضهم بما لا يكون مصيباً فيه.

قال ابن فُورَك: ومن أصحابنا مَن قال: إن سبيل ما جرى بين الصحابة من المنازعات كسبيل ما جرى بين إخوة يوسفَ مع يوسف، ثم إنهم لم يخرجوا بذلك عن حدِّ الولاية والنبوَّة؛ فكذلك الأمرُ فيما جرى بين الصحابة.

وقال المحاسبي: فأمَّا الدِّماء فقد أشكل علينا القولُ فيها باختلافهم. وقد سُئِل الحسن البصريُّ عن قتالهم فقال: قتالٌ شهده أصحاب محمد ﷺ وغِبْنا، وعلِموا وجهلنا، واجتمعوا فاتبعنا، واختلفوا فوقفنا. قال المحاسبي: فنحن نقول كما قال الحسن، ونعلم أن القوم كانوا أعلمَ بما دخلوا فيه منا، ونتبعُ ما اجتمعوا عليه، ونقفُ عند ما اختلفوا فيه، ولا نبتدعُ رأياً منا، ونعلمُ أنهم اجتهدوا وأرادوا الله عزَّ وجلَّ، إذ كانوا غير متَّهمين في الدِّين، ونسأل الله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾

فيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ أي: في الدِّين والحُرمة لا في النسب؛ ولهذا قيل: أُخوَّةُ الدِّين أثبتُ من أخوَّة النسب، فإن أُخوَّة النسب تنقطعُ بمخالفة الدين، وأُخوَّة الدِّين لا تنقطع بمخالفة النسب. وفي الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تَجَسَّسُوا، ولا

تَحَسَّسُوا، ولا تناجَشُوا، وكونوا عبادَ الله إخوانًا»(١). وفي رواية: «لا تَحَاسدوا، ولا تَناجَشُوا، ولا تَباغَضُوا، ولا تَدَابروا، ولا يبعْ بعضكم على بَيْع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا. المسلِم أخو المسلم؛ لا يَظْلِمه ولا يَخْذُلْه ولا يَحْقِره. التقوى ها هنا ويشير إلى صدره ثلاثَ مرات «بَحَسْبِ امرئ من الشِّر أن يَحْقِر أخاه المسلم. كلُّ المسلِم على المسلم حرامٌ دَمُه ومالُه وعِرْضُه» لفظ مسلم(٢).

وفي غير الصحيحين عن أبي هريرة؛ قال النبيُّ ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يَعِيبه، ولا يَخْذله، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عليه الريح إلا بإذنه، ولا يؤذيه بقُتار قِدْره إلا أن يَغرِف له غَرْفة، ولا يشتري لبنيه الفاكهةَ فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها». ثم قال النبيُّ ﷺ: «احفظوا، ولا يحفظ منكم إلا قليل»(٣).

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ أي: بين كلِّ مسلمَين تخاصما(٤). وقيل: بين الأوس والخزرج، على ما تقدَّم(٥). وقال أبو عليٍّ: أراد بالأخَوَيْن الطائفتين؛ لأن لفظ التثنية يَرِد، والمراد به الكثرة؛ كقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾(٦) [المائدة: ٦٤]. وقال أبو عبيدة: أي: أصلحوا بين كلِّ أخَوَين، فهو آتٍ

(١) صحيح البخاري (٦٠٦٦)، وصحيح مسلم واللفظ له (٢٥٦٣): (٣٠)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٨٥٨)، وسيرد معنى: ولا تحسسوا، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٢)، وهو عند أحمد أيضاً (٧٧٢٧). والنَّجش: هو أن يمدح السلعة لينفقها ويروّجها، أو يزيد في ثمنها وهو لا يريد شراءها ليقع غيره فيها. النهاية (نجش). وسلف قطعة منه ١٤/ ٣٨٩.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٦ عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن حجر: إسناده ضعيف. اهـ. والقُتار: هو ريح القِدر والشِّواء ونحوهما. النهاية (قتر).

(٤) الوسيط ٤/ ١٥٤.

(٥) في المسألة الأولى من الآية السابقة.

(٦) الحجة لأبي علي ٦/ ٢٠٩، وقال: قوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ يريد بل نعمتاه، وليس هذه النعم بنعمتين اثنتين، إنما يراد نعم الدنيا ونعم الآخرة.

على الجميع. وقرأ ابن سيرين ونصرُ بن عاصم وأبو العالية والجَحدريُّ ويعقوب: «بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ» بالتاء على الجمع[(١)]. وقرأ الحسن: «إِخْوَانِكُم»[(٢)]. الباقون: «أَخَوَيْكُمْ» بالياء على التثنية.

الثالثة: في هذه الآية والتي قبلها دليلٌ على أن البغيَ لا يزيل اسم الإيمان؛ لأن الله تعالى سماهم إخوةً مؤمنين مع كونهم باغين. قال الحارث الأعور: سُئِل عليُّ بن أبي طالب ﷺ ـ وهو القدوة ـ عن قتال أهل البغي من أهل الجمل وصِفِّين: أمشركون هم؟قال: لا، من الشِّرك فرُّوا. فقيل له[(٣)]: أمنافقون؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً. قيل له: فما حالهم؟ قال: إخوانُنا بَغَوْا علينا[(٤)].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ **فيه أربعُ مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ قيل: عند الله. وقيل: «خَيْرًا مِنْهُمْ» أي: معتقَدًا وأسلمَ باطناً[(٥)]. والسُّخرِية: الاستهزاء. سَخِرت منه أسْخَر سَخَرًا؛ بالتحريك، ومَسْخَرًا وسُخْرًا؛ بالضم. وحكى أبو زيد: سَخِرت به[(٦)]، وهو أردأ اللغتين. وقال الأخفش: سَخِرْتُ منه وسَخِرت به،

---

(١) قراءة يعقوب - وهو من العشرة - في النشر ٢/ ٣٧٦، وذكرها عن أبي العالية ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٤٦٤.

(٢) المحتسب ٢/ ٢٧٨، وهي قراءة شاذة.

(٣) لفظة: له، ليست في (م).

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢١٣، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٥/ ٢٥٦، والبيهقي ٨/ ١٧٣ عن أبي البَخْتري.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.

(٦) بعدها في (ظ): وضحكت به وهزئت به.

وضَحِكت منه وضَحكت به، وهَزِئت منه وهزِئت به، كلٌّ ذلك يقال[١]. والاسم السُّخْرِية والسُّخْريّ والسِّخريّ[٢]؛ وقُرِئ بهما قوله تعالى: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] وقد تقدَّم[٣]. وفلان سُخْرَةٌ: يُتَسَخَّر في العمل. يقال: خادمٌ سُخْرة، ورجل سُخْرةٌ أيضًا: يُسخر منه. وسُخَرة ـ بفتح الخاء ـ يَسْخَر من الناس.

الثانية: واختلف في سبب نزولها، فقال ابن عباس: نزلت في ثابت بنِ قيس بن شماس كان في أذنه وَقْر، فإذا سبقوه إلى مجلس النبيِّ ﷺ، أوسعوا له إذا أتى حتى يجلس إلى جنبه ليسمع ما يقول، فأقبل ذات يوم وقد فاتته من صلاة الفجر ركعةٌ مع النبيِّ ﷺ، فلمَّا انصرف النبيُّ ﷺ أخذ أصحابه مجالسَهم منه؛ فَرَبَض كلُّ رجل منهم بمجلسه[٤]، وعَضُّوا فيه[٥]، فلا يكاد يوسِّع أحد لأحد حتى يَظَلَّ الرجل لا يجد مجلسًا فيظل قائمًا. فلمَّا انصرف ثابت من الصلاة، تخطَّى رقاب الناس ويقول: تفسَّحوا تفسَّحوا، ففسحوا له حتى انتهى إلى النبيِّ ﷺ وبينه وبينه رجلٌ فقال له: تفسَّح. فقال له الرجل: قد وجدتَ مجلساً فاجلس. فجلس ثابت من خلفه مُغْضَبًا، ثم قال: مَن هذا؟ قال: فلان، فقال ثابت: ابن فلانة! يعيِّره بها، يعني أُمًّا له في الجاهلية، فاستحيا الرجل، فنزلت[٦].

وقال الضحَّاك: نزلت في وفد بني تميم الذي تقدم ذكرهم في أوّل السورة[٧] استهزؤوا بفقراء الصحابة، مثل عمَّار وخبَّاب وابن فُهيرة وبلال وصُهيب وسلمان

---

(١) لفظة: ذلك، من (ظ) والصحاح (سخر)، وما سيرد منه.

(٢) في (ظ) و(م): والاسم السخرية، والسخري.

(٣) ص٣٧ من هذا الجزء.

(٤) أي: لصق به وأقام ملازماً له. ينظر اللسان (ربض).

(٥) أي: لزم كل منهم مجلسه.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢١٤، وأورده الواحدي في أسباب النزول ص٤١٥ مختصراً دون نسبة. قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشافي تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(٧) في المسألة الأولى من كل من الآيتين الأولى والثانية.

وسالم مَوْلى أبي حُذيفة وغيرِهم؛ لِمَا رأَوا من رَثاثة حالهم؛ فنزلت في الذين آمنوا منهم[١]. وقال مجاهد: هو سُخرية الغنيِّ من الفقير[٢]. وقال ابن زيد: لا يسخر مَن ستر الله عليه ذنوبه ممن كشفه الله، فلعلَّ إظهارَ ذنوبه في الدنيا خيرٌ له في الآخرة[٣]. وقيل: نزلت في عكرمةَ بن أبي جهل حين قدِم المدينة مسلماً، وكان المسلمون إذا رأَوه قالوا: ابن فرعون هذه الأمة. فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فنزلت[٤].

وبالجملة؛ فينبغي ألا يَجترئ أحد على الاستهزاء بمن يقتحمه بعينه إذا رآه رَثَّ الحال، أو ذا عاهة في بدنه، أو غير لَبِق في محادثته، فلعله أخلصُ ضميراً وأنقى[٥] قلباً ممن هو على ضدِّ صفته؛ فيظلِمَ نفسه بتحقير من وقَّره الله، والاستهزاءِ بمن عظَّمه الله. ولقد بلغ بالسَّلف إفراط توقِّيهم وتصوُّنهم من ذلك أن قال عمرو بن شُرَحْبِيل: لو رأيتُ رجلاً يُرضع عنزاً، فضحكتُ منه، لخشيتُ أن أصنع مثل الذي صنع[٦].

وعن عبد الله بن مسعود: البلاء مُوَكَّل بالقول؛ لو سخرتُ من كلب، لخشيتُ أن أُحوَّل كلباً[٧].

و«قوم» في اللغة للمذكَّرين خاصة. قال زهير:

وما أدري وسوف إخالُ أدري ... أقومٌ آلُ حِصنٍ أم نساءُ[٨]

وسُمُّوا قومًا لأنهم يقومون مع داعيهم في الشدائد، وقيل: إنه جمع قائم، ثم

---

(١) يعني من بني تميم، والكلام في تفسير البغوي ٤/ ٢١٤.
(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٦ - ٦٠٧ بنحوه.
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٦٥ بنحوه.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٤٩.
(٥) في الكشاف ٣/ ٥٦٥ - ٥٦٦ والكلام منه: أتقى.
(٦) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أره عنه، وفي ابن أبي شيبة [٨/ ٥٧٧] عن أبي موسى من قوله نحوه.
(٧) أخرجه ابن أبي شيبة ٨/ ٥٧٨.
(٨) ديوان زهير ص١٣٦، وسلف ٢/ ١٠٩.

استُعمِل في كلِّ جماعة وإن لم يكونوا قائمين. وقد يدخل في القوم النساء مجازًا، وقد مضى في «البقرة» بيانه(١).

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أفرد النساء بالذكر؛ لأن السُّخرية منهنَّ أكثرُ. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح: ١] فشمل الجميع.

قال المفسرون: نزلت في امرأتين من أزواج النبيِّ ﷺ سَخِرتا من أمِّ سلمةَ، وذلك أنها ربطت خَصْرَيْها بسَبِيبَة ـ وهو ثوبٌ أبيضُ، ومثلُها السِّبُّ(٢) ـ وسدلت طرفيها خلفها، فكانت تجرُّها، فقالت عائشة لحفصةَ رضي الله عنهما: انظري [إلى] ما تجرُّ خلفها؛ كأنه لسان كلب، فهذه كان سخريتهما(٣).

وقال أنس وابن زيد: نزلت في نساء النبيِّ ﷺ، عَيَّرن أمَّ سلمةَ بالقِصَر(٤). وقيل: نزلت في عائشةَ، أشارت بيدها إلى أم سَلمة، يا نبيَّ الله، إنها لقصيرة(٥).

وقال عكرمة عن ابن عباس: إن صفيةَ بنتَ حُيَيِّ بن أخْطب أتت رسولَ الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن النساء يُعَيِّرْنَني، ويقلن(٦): يا يهوديةُ بنتَ يهوديَّين! فقال رسول الله ﷺ: «هَلَّا قلت: إن أبي هارون، وإن عمي موسى، وإن زوجي محمد»(٧). فأنزل الله هذه الآية.

---

(١) ٢/١٠٨ - ١٠٩.

(٢) وقع في هامش (ق): السِّبّ: الخمار والعمامة، وقد تقدم.

(٣) أسباب النزول للواحدي ص٤١٦، وما بين حاصرتين منه.

(٤) أورده عن أنس الواحدي في أسباب النزول ص٤١٦، والبغوي في تفسيره ٤/٢١٤، والزمخشري في الكشاف ٣/٥٦٦.

(٥) ينظر تفسير أبي الليث ٣/٢٦٤، وزاد المسير ٧/٤٦٦.

(٦) بعدها في (م): لي.

(٧) أسباب النزول ص٤١٦، والكشاف ٣/٥٦٦، قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: ذكره الثعلبي عن عكرمة عن ابن عباس بغير إسناد. اهـ. وأخرجه الترمذي (٣٨٩٢) عن صفية بنت حيي بنحوه، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث صفية إلا من حديث هاشم الكوفي، وليس إسناده بذاك القوي.

الرابعة: في صحيح الترمذي عن عائشةَ قالت: حَكَيت للنبيِّ ﷺ رجلاً، فقال: «ما يسرُّني أني حَكَيت رجلاً وأنَّ لي كذا وكذا». قالت فقلت: يا رسول الله، إنَّ صفية امرأة؛ وقالت بيدها هكذا، يعني أنها قصيرة. فقال: «لقد مزجتِ بكلمةٍ[١] لو مُزِج بها البحر لمُزِج»[٢].

وفي البخاريّ[٣] عن عبد الله بن زَمْعة قال: نهى النبيُّ ﷺ أن يضحك الرجل ممَّا يخرج من الأنفس. وقال: «لِمَ يضربُ أحدكم امرأته ضَرْبَ الفَحْل، ثم لعله يعانقها».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظرُ إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤]. وهذا حديث عظيمٌ يترتب عليه ألَّا يقطع بمغيب[٥] أحد لِمَا يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة، فلعلَّ مَن يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وَصْفًا مذموماً لا تصحُّ معه تلك الأعمال، ولعلَّ مَن رأينا عليه تفريطاً أو معصيةً يعلم الله من قلبه وصفًا محمودًا يغفر له بسببه. فالأعمالُ أماراتٌ ظنيةٌ، لا أدلةٌ قطعية. ويترتَّبُ عليها عدمُ الغُلُوِّ في تعظيم مَن رأينا عليه أفعالاً صالحة، وعدمُ الاحتقار لمسلم رأينا عليه أفعالاً سيئة. بل تُحتقر وتُذمُّ تلك الحالةُ السيئة، لا تلك الذاتُ المسيئة. فتدبَّر هذا، فإنه نظرٌ دقيق، وبالله التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ **فيه ثلاث مسائل**:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ اللَّمْزُ: العَيْب، وقد مضى في

---

(١) في (ظ): لقد قلت كلمة.

(٢) سنن الترمذي (٢٥٠٢) وهو عند أحمد (٢٥٥٦٠)، وأبي داود (٤٨٧٥)، وقوله: وقالت بيدها، أي: أشارت بها. وقوله: لقد مزجت بكلمة، أي: مزجت أعمالك بكلمة. تحفة الأحوذي ٧/ ٢٠٩.

(٣) برقم (٦٠٤٢).

(٤) صحيح مسلم (٢٥٦٤): (٣٤)، وهو عند أحمد (٧٨٢٧).

(٥) في (خ) و(م): بعيب، وفي (ظ) و(ق): بمعيب، والمثبت من (خ) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٩ والكلام منه.

«براءة»[١] عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [آية:٥٨]. وقال الطبري: اللَّمْزُ باليد والعين واللِّسان والإشارة. والهَمْزُ لا يكون إلا باللِّسان.

وهذه الآية مثلُ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] أي: لا يقتل بعضكم بعضًا؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فكأنه بقتل أخيه قاتلٌ نفسَه. وكقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور:٦١] يعني يسلِّم بعضكم على بعض[٢]. والمعنى: لا يَعِبْ بعضكم بعضًا.

وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جُبير: لا يطعُن بعضكم على بعض[٣]. وقال الضحاك: لا يَلْعَن بعضكم بعضًا[٤]. وقُرِئ: «ولا تَلْمُزُوا» بالضم[٥].

وفي قوله: «أَنْفسَكُم» تنبيهٌ على أن العاقل لا يعيب نفسه، فلا ينبغي أن يعيب غيرَه لأنه كنفسه؛ قال ﷺ: «المؤمنون كجسد[٦] واحد، إن اشتكى عضو منه، تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»[٧].

وقال بكر بن عبد الله المُزَني: إذا أردت أن تنظر العيوب جَمَّةً فتأمل عَيَّابًا؛ فإنه إنما يَعيب الناس بفضل ما فيه من العيب. وقال ﷺ: «يُبصِر أحدكم القَذاة في عين أخيه ويدع الجِذْع في عينه»[٨]. وقيل: مِن سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن

---

(١) ١٠/ ٢٤٣.

(٢) أحكام القرآن للكيا الطبري ٤/ ٣٨٣.

(٣) أخرجه عن ابن عباس ومجاهد وقتادة الطبري ٢١/ ٣٦٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٢.

(٥) قرأ بها يعقوب - وهو من العشرة - كما في النشر ٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠.

(٦) في (ظ) و(ف) و(ق): كرجل.

(٧) أخرجه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير، وسلف ١٠/ ٣٣٣.

(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٩٢)، وابن حبان (٥٧٦١) من حديث أبي هريرة ﷺ، والقَذاة: ما يقع في العين والماء والشراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك. وهذا الحديث ضربه النبي ﷺ مثلاً لمن يرى الصغير من عيوب الناس ويعيِّرهم به، وفيه من العيوب ما نسبته إليه كنسبة الجِذْع إلى القَذاة. النهاية (جذع).

عيوب غيره، قال الشاعر:

المرءُ إن كان عاقلاً ورِعًا أشغله عن عيوبه وَرَعُهْ
كما السقيمُ المريضُ يَشغله عن وجع الناس كلِّهم وَجَعُهْ[(١)]

وقال آخر:

لا تكشفنَّ مساوي الناس ما ستروا فيهتكَ اللهُ سترًا عن[(٢)] مساويكا
واذكر محاسنَ ما فيهم إذا ذُكروا ولا تَعِب أحداً منهم بما فيكا[(٣)]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ النَّبَزُ ـ بالتحريك ـ اللَّقب، والجمع الأنباز. والنَّبْزُ ـ بالتسكين ـ المصدر، تقول: نَبَزَه يَنْبِزُهُ نَبْزًا، أي: لَقبَّه. وفلان يُنَبِّز بالصبيان، أي: يلقِّبهم، شُدِّد للكثرة. ويقال: النَّبَزُ والنَّزَب لَقَبُ السوء. وتنابزوا بالألقاب، أي: لَقَّب بعضُهم بعضاً[(٤)].

وفي الترمذيِّ عن أبي جَبيرة بن الضحَّاك قال: كان الرجل منا يكون له الاسمين[(٥)] والثلاثة، فيُدعَى ببعضها، فعسى أن يَكره، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾. قال: هذا حديث حسن. وأبو جَبيرة هذا هو أخو ثابت بنِ الضحاك بن

---

(١) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٦٢ ضمن أربعة أبيات، ونسبهما لبشر بن الحارث، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول: وكل من كان مسلماً ورعاً. وفيه أيضاً: عيوبهم، بدل: عيوبه.

(٢) في (ظ): من.

(٣) أوردهما ابن عبد البر في بهجة المجالس ٣/ ٢٥٦ ونسبهما لمحمود الوراق. وأوردهما دون نسبة ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ١٨، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٣٥، والماوردي في أدب الدنيا والدين ص٢٤٢، ووقع في بهجة المجالس وعيون الأخبار وأدب الدنيا والدين: لا تلتمس من، بدل: لا تكشفن. وفي العقد الفريد: لا تهتكن، بدل: لا تكشفن.

(٤) الصحاح (نبز) دون قوله: ويقال: النبز والنزب لقب السوء، وقد ذكره الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) كذا في النسخ، وفي نسخة المباركفوري ٩/ ١٥٣: الاسمان.

خليفة الأنصاري. وأبو زيد سعيد بنُ الربيع صاحبُ الهَرَوي ثقة[١].

وفي مصنَّف أبي داود عنه قال: فينا نزلت هذه الآية، في بني سلمةَ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ قال: قَدِمَ رسول الله ﷺ وليس منا رجلٌ إلا وله اسمان أو ثلاثة، فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا فلان، فيقولون: مَهْ يا رسول الله، إنه يغضب من هذا الاسم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾[٢]. فهذا قول.

وقولٌ ثانٍ: قال الحسن ومجاهد: كان الرجل يُعَيَّر بعد إسلامه بكفره: يا يهوديُّ، يا نصرانيُّ، فنزلت[٣]. ورُويَ عن قَتادةَ وأبي العالية وعكرمة.

وقال قتادة: هو قول الرجل للرجل: يا فاسقُ، يا منافق. وقاله مجاهد[٤] والحسن أيضاً.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بئس أن يُسَمَّى الرجلُ كافرًا أو زانياً بعد إسلامه وتوبته. قاله ابن زيد[٥]. وقيل: المعنى أن مَن لَقَّب أخاه أو سخِر منه، فهو فاسق. وفي الصحيح: «من قال لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدُهما إن كان كما قال، وإلا رجعت عليه»[٦]. فمن فعل ما نهى الله عنه من السُّخرية والهَمْز والنَّبز، فذلك فُسوق وذلك لا يجوز.

وقد رُويَ أن أبا ذرٍّ ﷺ كان عند النبيِّ ﷺ، فنازعه رجل، فقال له أبو ذَرٍّ: يا ابن اليهودية! فقال النبيُّ ﷺ: «ما ترى ها هنا من[٧] أحمرَ وأسودَ، ما أنت بأفضلَ منه».

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٦٨)، ووقع في مطبوعه: هذا حديث حسن صحيح، بزيادة: صحيح، ولم يذكر هذه الزيادة المزي في التحفة ٩/ ١٣٨. وأبو جَبيرة صحابي ذكره ابن حجر في الإصابة ١١/ ٥٩ في القسم الأول، وقال: قيل: ليس له صحبة.

(٢) سنن أبي داود (٤٩٦٢)، وهو عند أحمد (٨٢٨٨)، وسنن ابن ماجه (٣٧٤١).

(٣) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٣٧١ بنحوه.

(٤) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ٢١/ ٣٧٠ بنحوه.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٣، وزاد المسير ٧/ ٤٦٨.

(٦) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠)، وأحمد (٥٠٣٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٧) لفظة: من، ليست في (م).

يعني بالتقوى، ونزلت: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾[١].

وقال ابن عباس: التنابز بالألقاب: أن يكون الرجل قد عمل السيئات ثم تاب، فنهى الله أن يُعَيَّر بما سلف[٢]. يدلُّ عليه ما رُويَ أن النبيَّ ﷺ قال: «مَن عَيَّر مؤمنًا بذنب تاب منه، كان حقًّا على الله أن يَبْتَلِيَهُ به ويَفْضَحَه فيه في الدنيا والآخرة»[٣].

الثالثة: وقع من ذلك مستثنًى مَن غلب عليه الاستعمال، كالأعرج والأحدب، ولم يكن له فيه كسب، يَجِد في نفسه منه عليه، فجوَّزته الأمة، واتفق على قوله أهل المِلَّة[٤]. قال ابن العربيِّ[٥]: وقد ورد ـ لَعَمْرُ الله ـ من ذلك في كتبهم ما لا أرضاه [كقولهم] في صالح: جَزَرة؛ لأنه صَحَّف «خرزة»[٦] فلُقِّب بها[٧]. وكذلك قولُهم في محمد بن سليمان الحضرمي: مُطَيَّن؛ لأنه وقع في طين، ونحو ذلك ممَّا غلب على المتأخرين، ولا أُراه سائغًا في الدِّين. وقد كان موسى بن عليٍّ بن رَباح المصريُّ

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١، وأخرجه أحمد (٢١٤٠٧) عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى». وأورد الغزالي في الإحياء ٣/ ١٧٥ أن أبا ذر قال لرجل: يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «يا أبا ذر ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل». قال العراقي في المغني عن حمل الأسفار في الأسفار: أخرجه ابن أبي الدنيا في العفو وذم الغضب بإسناد صحيح.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٧١.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٥٠٥) عن معاذ بن جبل مرفوعاً بلفظ: من عيَّر أخاه بذنب، لم يمت حتى يعمله. قال أحمد بن منيع (هو شيخ الترمذي): من ذنب قد تاب منه. قال الترمذي: هذا حديث غريب وليس إسناده بمتصل، وخالد بن معدان لم يدرك معاذ بن جبل ﷺ. اهـ. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٢٧٥: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ والمتهم به محمد بن الحسن. قال أحمد بن حنبل: ما أراه يساوي شيئاً، وقال يحيى: كان كذاباً، وقال النسائي: متروك الحديث، وقال الدارقطني: لا شيء.

(٤) في (ظ) و(ف) و(ق): اللغة، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١١ والكلام منه.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١١ - ١٧١٢ وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٦) في أحكام القرآن: زجره، بدل: خرزة، وهو تحريف.

(٧) تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٢ - ٣٢٣.

يقول: لا أجعل أحدًا صغَّر اسم أبي [في حِلٍّ][(١)]، وكان الغالبُ على اسمه التصغير بضم العين. والذي يضبط هذا كلَّه: أنَّ كلَّ ما يكرهه الإنسان إذا نُودي به، فلا يجوز لأجل الأذِيَّة. والله أعلم.

قلت: وعلى هذا المعنى ترجم البخاريُّ رحمه الله في كتاب الأدب من الجامع الصحيح في «باب ما يجوز من ذكر الناس نحو قولهم: الطويل والقصير لا يُراد به شَيْن الرجل» قال: وقال النبيُّ ﷺ: «ما يقول ذو اليَدَيْن»[(٢)].

قال أبو عبد الله بن خُوَيْزِمَنْدَاد: تضمنت الآية المنعَ من تلقيب الإنسان بما يكره، ويجوزُ تلقيبه بما يحب، ألا ترى أن النبيَّ ﷺ لَقَّب عمرَ بالفاروق، وأبا بكر بالصدِّيق، وعثمانَ بذي النُّورين، وخُزيمةَ بذي الشهادتين، وأبا هريرةَ بذي الشِّمالين وبذي اليدين[(٣)]، في أشباه ذلك.

الزَّمخشريُّ[(٤)]: رُوي عن النبيِّ ﷺ: «من حق المؤمن على المؤمن أن يُسَمِّيَه بأحبِّ أسمائه إليه»[(٥)]. ولهذا كانت التَّكْنِيَةُ من السُّنة والأدب الحسن، قال عمر ﷺ:

---

(١) أخرج قوله الترمذي إثر حديث (٧٧٣) وقال: وأهل العراق يقولون: موسى بن عُلَيٍّ بن رباح ـ بالتصغير كما في تحفة الأحوذي ٣/ ٤٨٤ ـ وأهل مصر يقولون: موسى بن عَلي.

(٢) علقه البخاري قبل حديث (٦٠٥١) وجاء فيه قوله: وما لا يراد به شين الرجل، بعد قوله: ما يقول ذو اليدين. ووصله أحمد (٧٢٠١)، والبخاري (٤٨٢)، ومسلم (٥٧٣): (٩٧) من حديث أبي هريرة ﷺ. وذو اليدين صحابي اسمه: خِرباق، وقيل: عمير، والأول هو الصواب كما في نزهة الألباب في الألقاب لابن حجر ١/ ٣١٣. وذكره أيضاً في الإصابة ٣/ ٢٢٢ قال: يقال هو الخِرباق، وفرق بينهما ابن حبان.

(٣) كذا في النسخ، ولعل هذا في الكلام سقطاً، وذكر ابن حجر في نزهة الألباب ١/ ٢٩٦ أن ذا الشِّمالين هو عمير بن عبد عمرو، صحابي استشهد ببدر، وهو غير ذي اليدين.

(٤) في الكشاف ٣/ ٥٦٦.

(٥) قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٧: لم أجده هكذا، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين [٨٧٧٢] عن عثمان بن طلحة رفعه: «ثلاث مصفين لك ودَّ أخيك... وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف. وروى أبو يعلى والطبراني (٣٤٩٩) عن حنظلة بن جذيم قال: كان رسول الله ﷺ يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه.

أشيعوا الكُنَى فإنها منبّهة[١]. ولقد لُقِّب أبو بكر بالعتيق والصدِّيق، وعمرُ بالفاروق، وحمزةُ بأسد الله، وخالدُ بسيف الله. وَقلَّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام مَن ليس له لَقَب. ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلِّها ـ من العرب والعجم ـ تجري في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير.

وقال الماورديُّ[٢]: فأمّا مستحَبُّ الألقاب ومستحسَنُها فلا يُكره. وقد وَصَف رسول الله ﷺ عددًا من أصحابه بأوصاف صارت لهم من أجلِّ الألقاب.

قلت: فأمّا ما يكون ظاهرُها الكراهةَ، إذا أُريد بها الصفةُ لا العيبُ؛ فذلك كثير. وقد سُئِل عبد الله بنُ المبارك عن الرجل يقول: حُميدٌ الطويل، وسليمان الأعمش، وحُميدٌ الأعرج، ومروان الأصفر[٣]، فقال: إذا أردت صفته ولم تُرِد عيبه، فلا بأس به[٤]. وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن سَرْجِس قال: رأيت الأصلع ـ يعني عمر ـ يقبّل الحجر. في رواية: الأُصَيْلِع[٥].

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ أي عن هذه الألقاب الذي يتأذى بها السامعون. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنفسهم بارتكاب هذه المناهي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾

فيه عشر مسائل:

---

(١) في (ظ): فإنها سنة.

(٢) في النكت والعيون ٥/٣٣٣.

(٣) في (ف) و(م): الأصغر. وهو خطأ. ومروان الأصفر: هو أبو خَلَف البصري، من رجال التهذيب.

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٦٧٩٧)، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١٢٧٣).

(٥) صحيح مسلم (١٢٧٠): (٢٥٠)، وهو عند أحمد (٢٢٩).

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ قيل: إنها نزلت في رجلين من أصحاب النبيِّ ﷺ اغتابا رفيقهما. وذلك أن النبيَّ ﷺ كان إذا سافر ضمَّ الرجلَ المحتاج إلى الرجلين المُوسِرَيْن فيخدمُهما. فضمَّ سلمان إلى رجلين، فتقدَّم سلمان إلى المنزل، فغلبته عيناه فنام ولم يهيئ لهما شيئاً، فجاءا فلم يجدا طعاماً وإدامًا، فقالا له: انطلق فاطلب لنا من النبيِّ ﷺ طعامًا وإدامًا، فذهب فقال له النبيُّ ﷺ: «اذهب إلى أسامةَ بنِ زيد فقل له: إن كان عندك فضلٌ من طعام فليعطك» وكان أسامةُ خازنَ النبيِّ ﷺ، فذهب إليه، فقال أسامة: ما عندي شيء، فرجع إليهما فأخبرهما، فقالا: قد كان عنده ولكنه بخل. ثم بعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة، فلم يجد عندهم شيئًا، فقالا: لو بعثنا سلمانَ إلى بئر سُمَيحة[1]، لغار ماؤها. ثم انطلقا يتجسَّسان؛ هل عند أسامةَ شيءٌ، فرآهما النبيُّ ﷺ فقال: «ما لي أرى خضرة اللحم في أفواهكما» فقالا: يا نبيَّ الله، والله ما أكلنا في يومنا هذا لحمًا ولا غيره. فقال: «ولكنكما ظَلتما تأكلان لحم سلمانَ وأسامة». فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾[2] ذكره الثعلبيّ. أي: لا تظنوا بأهل الخير سوءًا إن كنتم تعلمون من ظاهر أمرهم الخير.

الثانية: ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ قال: «إياكم والظنَّ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تَناجشوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا» لفظ البخاري[3]. قال علماؤنا: فالظنُّ هنا وفي الآية هو التُّهمة. ومحلُّ التحذيرِ والنهي إنما هو تُهْمَةٌ لا سبب لها

---

(١) هي بئر بالمدينة غزيرة. القاموس (سمح).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٥، وأورده الزمخشري في الكشاف ٣/ ٥٦٩ مختصراً عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن حجر في الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف ص١٥٨: هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو، وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى نحوه.

(٣) برقم (٦٠٦٦)، وهو عند مسلم (٢٥٦٣): (٢٨) وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

يوجبها، كمن يُتَّهم بالفاحشة أو بشرب الخمر مثلاً ولم يظهر عليه ما يقتضي ذلك. ودليلُ كون الظنِّ هنا بمعنى التُّهمة قولُه بعد هذا[١]: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾. وذلك أنه قد يقع له خاطرُ التهمة ابتداءً، فيريد أن يتجسَّس خبر ذلك ويبحثَ عنه، ويتبصَّر ويتسمَّع ليحقِّق[٢] ما وقع له من تلك التُّهمة. فنهى النبيُّ ﷺ عن ذلك.

وإن شئت قلت: والذي يُميِّز الظنون التي يجب اجتنابُها عمَّا سواها: أنَّ كلَّ ما لم تُعرَف له أَمارةٌ صحيحة وسببٌ ظاهر كان حراماً واجبَ الاجتناب. وذلك إذا كان المظنونُ به ممن شُوهد منه السترُ والصلاح، وأُونِسَت منه الأمانة في الظاهر، فظنُّ الفساد به والخيانةِ محرَّمٌ؛ بخلاف مَن اشتهره الناس[٣] بتعاطي الرِّيَب، والمجاهرة بالخبائث.

وعن النبيِّ ﷺ: «إن الله حَرَّم من المسلم دَمَه وعِرْضَه، وأن يَظُنَّ به ظنَّ السُّوء»[٤]. وعن الحسن: كنا في زمنِ الظنُّ بالناس فيه حرام، وأنتَ اليوم في زمن اعمل واسكُتْ وظُنَّ في الناس ما شئت.

الثالثة: للظنِّ حالتان: حالةٌ تُعرف وتَقْوَى بوجه من وجوه الأدلة، فيجوز الحكم بها، وأكثرُ أحكام الشريعة مبنيةٌ على غلبة الظن، كالقياس وخبر الواحد، وغير ذلك من قِيَم المتلَفات وأروشِ الجنايات.

---

(١) في (م): قوله تعالى، بدل: قوله بعد هذا.

(٢) في (ظ): لتحقق، وفي (م): لتحقيق، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق لما في المفهم ٦/ ٥٣٤ والكلام منه.

(٣) في الكشاف ٣/ ٥٦٧ (والكلام منه): اشتهر بين الناس.

(٤) قال ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٧: أخرجه ابن ماجه (٣٩٣٢) من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين، ولفظه: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ... «والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك: ماله ودمه وأن يظن به إلا خيراً». وروى ابن أبي شيبة عن ابن عباس أن النبي ﷺ نظر إلى الكعبة، فقال: ما أعظمك وأعظم حرمتك، والمسلم أعظم حرمة منك، حرم الله دمه وماله وعرضه، وأن يظن به ظن السوء» اهـ. وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه» وسلف في المسألة الأولى من الآية العاشرة.

والحالة الثانية: أن يقع في النفس شيءٌ من غير دلالة، فلا يكون ذلك أولى من ضده، فهذا هو الشكّ، فلا يجوز الحكم به، وهو المنهيُّ عنه على ما قررناه آنفاً.

وقد أنكرت جماعة من المبتدِعة تعبُّدَ اللهِ بالظنّ، وجوازَ العمل به؛ تحكُّماً في الدِّين ودعوى في المعقول(١). وليس في ذلك أصلٌ يُعوَّل عليه، فإن الباريَ تعالى لم يذمَّ جميعه، وإنما ورد(٢) الذمُّ في بعضه. وربما تعلقوا بحديث أبي هريرة: «إياكم والظنَّ» وهذا لا حجة فيه؛ لأن الظنَّ في الشريعة قسمان: محمودٌ، ومذموم، فالمحمود منه ما سَلِم معه دينُ الظانِّ والمظنونِ به عند بلوغه. والمذمومُ ضدُّه؛ بدلالة قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢]، وقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]، وقوله: ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ [الفتح:١٢] وقال النبيُّ ﷺ: «إذا كان أحدكم مادحًا أخاه [لا محالة] فليقل: أحسب كذا، ولا أُزكّي على الله أحدًا»(٣). وقال: «إذا ظننت فلا تُحقِّق، وإذا حسدتَ فلا تَبْغ، وإذا تطيّرت فامض» خرَّجه أبو داود(٤).

وأكثرُ العلماء على أن الظنَّ القبيح بمن ظاهرُه الخير لا يجوز، وأنه لا حَرَج في الظن القبيح بمن ظاهره القبح، قاله المهدويّ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟﴾ وقرأ أبو رجاء والحسن باختلاف وغيرهما:

---

(١) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٢ والكلام منه: تحكم في الدين ودعوى في العقول.

(٢) في (م): أورد.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٤٢٢)، والبخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠) عن أبي بكرة ﷺ، والكلام في أحكام القرآن لابن العربي، وما بين حاصرتين منه.

(٤) لم نقف عليه عند أبي داود، وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (١٩٦٢)، والطبراني في الكبير (٣٢٢٧)، وأبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٥٢) و(٢٣٧) من حديث حارثة بن النعمان ﷺ. ووقع فيها: وإذا حسدت فاستغفر، بدل: وإذا حسدت فلا تبغ. وفي الإسناد إسماعيل بن قيس الأنصاري، قال البخاري والدارقطني: منكر الحديث، وقال النسائي: ضعيف، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه منكر. ميزان الاعتدال ١/ ٢٤٥.

«وَلَا تَحَسَّسُوا» بالحاء[1]. واختلِف هل هما بمعنى واحد أو بمعنيين؟ فقال الأخفش: ليس تبعد إحداهما من الأخرى؛ لأن التجسُّس: البحثُ عما يكتم عنك. والتحسُّس ـ بالحاء ـ: طلبُ الأخبار والبحثُ عنها[2]. وقيل: إن التجسُّس ـ بالجيم ـ: هو البحث؛ ومنه قيل: رجلٌ جاسوس: إذا كان يبحث عن الأمور. وبالحاء: هو ما أدركه الإنسان ببعض حواسِّه. وقولٌ ثانٍ في الفرق: أنه بالحاء يطلبه[3] لنفسه، وبالجيم أن يكون رسولاً لغيره. قاله ثعلب. والأوّل أعرف[4]. جَسَستُ الأخبار وتجسَّستها، أي: تفحَّصت عنها، ومنه الجاسوس[5].

ومعنى الآية: خذوا ما ظهر، ولا تتَّبعوا عوراتِ المسلمين، أي: لا يبحث أحدكم عن عيب أخيه حتى يطَّلع عليه بعد أن ستره الله.

وفي كتاب أبي داود[6] عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس؛ أفسدتهم، أو كِدْتَ أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء: كلمةٌ سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله تعالى بها.

وعن المِقدام بن مَعْدي كَرِب عن أبي أُمامة، عن النبيِّ ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الرِّيبة في الناس أفسدهم»[7].

وعن زيد بن وَهْب قال: أُتيَ ابنُ مسعود فقيل: هذا فلانٌ تقطر لحيته خمراً. فقال

(١) قراءة الحسن في القراءات الشاذة ص١٤٣، وقراءة أبي رجاء في المحرر الوجيز ٥/ ١٥١، وزاد المسير ٧/ ٤٧١.

(٢) مجمع البيان ٢٦/ ٩٥.

(٣) في (ق) و(م): تطلَّبه.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤، وينظر المفهم ٦/ ٥٣٥.

(٥) الصحاح (جسس).

(٦) برقم (٤٨٨٨).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٨٨٩) عن المقدام بن معد يكرب وأبي أمامة كلاهما عن النبي ﷺ. وأخرجه أحمد (١٣٨١٥) عن المقداد بن الأسود وأبي أمامة عن النبي ﷺ.

عبد الله: إنا قد نُهينا عن التجسُّس، ولكن إن يظهر لنا نأخذ به[١].

وعن أبي بَرْزة الأسلميِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تَتَّبِعوا عوراتِهم، فإنه[٢] مَن اتَّبع عوراتِهم يتَّبع الله عورته، ومن يَتَّبع الله عورته يفضحه في بيته»[٣].

وقال عبد الرحمن بن عوف: حَرَست ليلةً مع عمرَ بنِ الخطاب ﷺ بالمدينة إذ تبيَّن لنا سراج في بيت، بابُه مُجافٍ على قوم، لهم أصوات مرتفعة ولَغَط، فقال عمر: هذا بيت ربيعةَ بنِ أميةَ بنِ خلف، وهم الآن شَرْب[٤]، فما ترى؟ قلت: أرى أنَّا قد أتينا ما نهى الله عنه، قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّسُوا» وقد تجسَّسنا، فانصرف عمر وتركهم[٥].

وقال أبو قِلابة: حُدِّث عمرُ بن الخطاب أن أبا مِحْجَن الثَّقَفيَّ يشرب الخمر مع أصحاب له في بيته، فانطلق عمر حتى دخل عليه، فإذا ليس عنده إلا رجلٌ، فقال أبو مِحْجن: إن هذا لا يحلُّ لك! قد نهاك الله عن التجسُّس، فخرج عمر وتركه[٦].

وقال زيد بن أسلم: خرج عمر وعبد الرحمن يَعُسَّان[٧]، إذ تبيَّنت لهما نارٌ، فاستأذنا، ففُتح الباب، فإذا رجلٌ وامرأةٌ تغني، وعلى يد الرجل قَدَح، فقال عمر: وأنت بهذا يا فلان؟ فقال: وأنت بهذا يا أمير المؤمنين! قال عمر: فَمَن هذه منك؟ قال: امرأتي، قال: فما في هذا القَدَح؟ قال: ماءٌ زلال؛ فقال للمرأة: وما الذي تغنين؟ فقالت:

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٩٠).

(٢) في (م): فإن.

(٣) أخرجه أحمد (١٩٧٧٦)، وأبو داود (٤٨٨٠).

(٤) الشَّرْب، بفتح الشين: القوم يشربون. القاموس (شرب).

(٥) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٣)، والطبراني في مسند الشاميين (١٨٠٦)، والحاكم ٤/ ٣٧٧، والبيهقي ٨/ ٣٣٣.

(٦) أخرجه عبد الرزاق (١٨٩٤٤).

(٧) أي: يطوفان بالليل. ينظر اللسان (عسس).

تطاول هذا الليل واسْودَّ جانِبُهْ وأرّقني أن لا خليلَ ألَاعِبُهْ
فوالله لولا اللهُ أني أراقبُهْ لزُعْزِعَ من هذا السرير جوانبهْ
ولكنّ عقلي والحياء يَكُفُّني وأُكْرِمِ بَعْلي أن تُنال مَرَاكِبُهْ[1]

ثم قال الرجل: ما بهذا أُمِرنا يا أمير المؤمنين! قال الله تعالى: «وَلَا تَجَسَّسُوا». قال: صَدقت[2].

قلت: لا يُفهم من هذا الخبر أن المرأة كانت غيرَ زوجة الرجل؛ لأن عمر لا يُقِرُّ على الزنى، وإنما غنَّت بتلك الأبيات تذكاراً لزوجها، وأنها قالتها في مَغِيبه عنها. والله أعلم.

وقال عمرو بن دينار: كان رجل من أهل المدينة له أختٌ فاشتكت، فكان يعودها، فماتت فدفنها. فكان هو الذي نزل في قبرها، فسقط من كُمِّه كيسٌ فيه دنانير، فاستعان ببعض أهله، فنبشوا قبرها، فأخذ الكيس ثم قال: لَأَكشفنَّ حتى أنظرَ ما آل حال أختي إليه، فكشف عنها، فإذا القبرُ مشتعلٌ ناراً، فجاء إلى أمه فقال: أخبريني ما كان عملُ أختي؟ فقالت: قد ماتت أختك، فما سؤالُك عن عملها! فلم يَزَل بها حتى قالت له: كانت من عملها أنها كانت تؤخِّر الصلاة عن مواقيتها، وكانت إذا نام الجيران قامت إلى بيوتهم، فألقمت أذنها أبوابهم، فتَجَسَّسُ عليهم وتُخرج أسرارهم، فقال: بهذا هَلَكتْ[3]!

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ نهى عزَّ وجلَّ عن الغِيبة، وهي أن تذكر الرجلَ بما فيه، فإن ذكرته بما ليس فيه، فهو البهتان. ثبت معناه في صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغِيبة»؟ قالوا: الله ورسوله

---

(١) سلفت هذه الأبيات ٤/ ٣٠ باختلاف يسير عما هنا وفي سياق غير هذا.

(٢) أورده الطبرسي في مجمع البيان ٢٦/ ٩٢ - ٩٣ ولم ينسبه ولم نقف عليه في مصادر التخريج.

(٣) لم نقف عليه، وفي متنه نظر.

أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره». قال[١]: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بَهَتَّه»[٢].

يقال: اغتابه اغتياباً: إذا وقع فيه، والاسم الغِيبة[٣]، وهي ذكرُ العَيْب بظَهْر الغَيْب. قال الحسن: الغِيبة ثلاثةُ أوجه كلُّها في كتاب الله تعالى: الغِيبة، والإفك، والبهتان. فأمَّا الغِيبة: فهو أن تقول في أخيك ما هو فيه. وأمَّا الإفك: فأن تقول فيه ما بلغك عنه. وأمَّا البهتان: فأن تقول فيه ما ليس فيه[٤].

وعن شعبة قال: قال لي معاوية ـ يعني ابنَ قُرَّة ـ: لو مَرَّ بك رجل أقطع، فقلت: هذا أقطع؛ كان غِيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق، فقال: صدق[٥].

وروى أبو هريرة أن الأسلميَّ ماعزًا جاء إلى النبيِّ ﷺ، فشهد على نفسه بالزِّنى، فرجمه رسول الله ﷺ، فسمع نبيُّ الله ﷺ رجلين من أصحابه يقول أحدهما للآخر: انظر إلى هذا الذي ستر الله عليه، فلم تدعه نفسه حتى رُجِم رَجْمَ الكلب؛ فسكت عنهما. ثم سار ساعة حتى مرَّ بجِيفةِ حمارٍ شائلٍ برجله، فقال: «أين فلان وفلان»؟ فقالا: نحن ذا يا رسول الله، قال: «انزلا فَكُلا من جِيفة هذا الحمار» فقالا: يا نبيَّ الله، ومَن يأكل من هذا! قال: «فما نلتما من عِرْض أخيكما أشدُّ من الأكل منه، والذي نفسي بيده إنه الآن لفي أنهار الجنة ينغمس فيها»[٦].

---

(١) في (م): قيل.

(٢) صحيح مسلم (٢٥٨٩)، وسلف ٧/ ١٢٢.

(٣) الصحاح (غيب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٣٤ - ٣٣٥.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٧٩، وأبو إسحاق هو الهمداني.

(٦) أخرجه أبو داود (٤٤٢٨)، وابن حبان (٤٣٩٩) مطولاً، وفيه عبد الرحمن بن الصامت، قال البخاري ـ كما في تهذيب التهذيب ـ: لا يعرف إلا بهذا الحديث. وقال الذهبي في الميزان ٢/ ٥٦٩ - ٥٧٠: له حديث واحد في شهادة الأسلمي على نفسه بالزنا، تفرد عنه أبو الزبير، وعنه ابن جريج، فلا يُعرف مَن هذا. اهـ.

السادسة: قوله تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ مَثَّل الله الغِيبة بأكل الميتة؛ لأن الميت لا يعلم بأكل لحمه، كما أن الحيَّ لا يعلم بِغيبة مَن اغتابه. وقال ابن عباس: إنما ضرب الله هذا المثل للغِيبة؛ لأن أكل لحم الميت حرام مستقذَر، وكذا الغيبةُ حرامٌ في الدِّين، وقبيحٌ في النفوس. وقال قتادة: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً، كذلك يجب أن يمتنع من غِيبته حيًّا. واستُعمِل أكلُ اللَّحم مكان الغِيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية. قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفَرتُ لحومَهمْ ... وإن هَدَمُوا مَجْدي بَنَيْتُ لهم مَجْداً[(١)]

وقال ﷺ: «ما صام مَن ظلَّ يأكل لحوم الناس»[(٢)]. فشبَّه الوقيعة في الناس بأكل لحومهم. فمن تنقَّص مسلماً أو ثَلَمَ عِرْضَه، فهو كالآكل لحمَه حيًّا، ومَن اغتابه، فهو كالآكل لحمَه ميتاً.

وفي كتاب أبي داود عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «لمَّا عُرج بي؛ مررت بقوم لهم أظفارٌ من نحاس يَخْمِشُون وجوههم وصدورهم، فقلت: مَن هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»[(٣)].

وعن المستورد أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أكل بِرَجُلٍ مسلم أُكْلة، فإن الله يطعمه مِثلَها من جهنم، ومَن كُسي ثوباً بِرَجُلٍ مسلم، فإن الله يكسوه مثلَه من جهنم، ومَن قام[(٤)] بِرَجُلٍ مَقام سُمْعة ورياء، فإن الله يقوم به مَقام سُمْعة ورياء يوم القيامة»[(٥)]. وقد تقدَّم قوله ﷺ: «يا معشر مَن آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥، وأورده أيضاً ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧٣٩، وابن عبد ربه في العقد الفريد ٢/ ٣٦٨، وابن الأثير في المثل السائر ٢/ ١٧٤ ونسبوه للمُقَنَّع الكِنْدي.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة ٣/ ٤ عن أنس بن مالك ﷺ، وفيه يزيد بن أبان؛ وهو ضعيف. والربيع بن صَبيح؛ وهو صدوق سيِّئ الحفظ. كما ذكر الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٣) سنن أبي داود (٤٨٧٨)، وهو عند أحمد (١٣٣٤٠).

(٤) المثبت من (ق)، وهو الموافق للمصادر، وفي غيرها: أقام.

(٥) سنن أبي داود (٤٨٨١)، وهو عند أحمد (١٨٠١١).

المسلمين»[١]. وقولُه للرجلين: «ما لي أرى خُضرة اللحم في أفواهكما»[٢].

وقال أبو قِلابة الرَّقَّاشي: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحداً مذ عرفت ما في الغيبة[٣]. وكان ميمون بن سِياه لا يغتاب أحداً، ولا يَدَع أحداً يغتاب أحداً عنده، ينهاه؛ فإن انتهى؛ وإلا قام[٤].

وذكر الثعلبيُّ من حديث أبي هريرة قال: قام رجل من عند النبيِّ ﷺ، فرأوا في قيامه عجزاً فقالوا: يا رسول الله، ما أعجز فلاناً! فقال: «أكلتم لحم أخيكم واغتبتموه»[٥].

وعن سفيان الثوري قال: أدنى الغِيبة أن تقول: إن فلاناً جَعْدٌ قَطَطٌ[٦]، إلا أنه يكره ذلك. وقال عمر بن الخطاب ﷺ: إياكم وذِكْرَ الناس، فإنه داء، وعليكم بذكر الله، فإنه شفاء. وسمع عليُّ بن الحسين رضي الله عنهما رجلاً يغتاب آخر، فقال: إياك والغِيبةَ، فإنها إدام كلاب الناس[٧]. وقيل لعمرو بن عبيد: لقد وقع فيك فلان حتى رحمناك، قال: إياه فارحموا. وقال رجل للحسن: بلغني أنك تغتابني! فقال: لم يبلغ قَدْرُك عندي أن أُحكِّمكَ في حسناتي.

السابعة: ذهب قوم إلى أن الغيبة لا تكون إلا في الدِّين، ولا تكون في الخِلْقة

---

(١) تقدم في المسألة الرابعة.

(٢) تقدم في المسألة الأولى.

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٣٣٦ بنحوه عن أبي عاصم، وهو الضحَّاك بن مَخْلد؛ روى له الجماعة.

(٤) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٧، وميمون بن سِيَاه البصري كنيته أبو بحر، من رجال البخاري والنسائي.

(٥) أخرجه أبو يعلى الموصلي (٦١٥١)، والطبري ٢١/ ٣٧٩، والطبراني في الأوسط (٤٦١) وفيه محمد ابن أبي حميد، ويقال له: حماد، وهو ضعيف كما في الميزان ٣/ ٥٣١، والتقريب.

(٦) القطط: القصير الجعد من الشَّعر.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٩٧)، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ٣٩٩.

والحَسَب. وقالوا: ذلك فعل الله به. وذهب آخرون إلى عكس هذا فقالوا: لا تكون الغِيبة إلا في الخَلْق والخُلُق والحسَب، والغِيبة في الخَلْق أشدُّ؛ لأن مَن عَيَّب صنعة فإنما عيَّب صانعها.

وهذا كلُّه مردود، أما الأوّل فيردُّه حديث عائشة حين قالت في صفيةَ: إنها امرأة قصيرةٌ، فقال لها النبيُّ ﷺ: «لقد قلت كلمة لو مُزِج بها البحر لمزجته». خرجه أبو داود. وقال فيه الترمذيُّ: حديث حسن صحيح[(١)]؛ وما كان في معناه حسب ما تقدم. وإجماع العلماء قديماً على أن ذلك غِيبةٌ إذا أُريد به العيب.

وأمَّا الثاني فمردودٌ أيضاً عند جميع العلماء؛ لأن العلماء مِن أوَّل الدهر من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين بعدهم لم تكن الغيبة عندهم في شيء أعظمَ من الغيبة في الدِّين؛ لأن عيب الدين أعظمُ العيب، فكلُّ مؤمن يَكره أن يُذكر في دينه أشدَّ ممَّا يكره في بدنه. وكفى ردًّا لمن قال هذا القولَ قولُه عليه الصلاة والسلام: «إذا قلت في أخيك ما يكره، فقد اغتبته...»[(٢)] الحديث. فمن زعم أن ذلك ليس بغيبة، فقد ردَّ ما قال النبيُّ ﷺ نصًّا. وكفى بعموم قول النبيِّ ﷺ: «دماؤكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام»[(٣)] وذلك عامٌّ للدِّين والدنيا. وقولِ النبيِّ ﷺ: «مَن كانت عنده لأخيه مَظْلِمَة في عِرضه أو ماله، فليتحلَّله منه»[(٤)]. فعمَّ كلَّ عِرْض؛ فمن خصَّ من ذلك شيئاً دون شيء فقد عارض ما قال النبيُّ ﷺ.

الثامنة: لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن على مَن اغتاب أحداً التوبةَ[(٥)] إلى الله عزَّ وجلَّ. وهل يَستحلُّ المغتابَ؟ اختلف فيه:

---

(١) سنن أبي داود (٤٨٧٥)، وسنن الترمذي (٢٥٠٢) و(٢٥٠٣)، وسلف في المسألة الرابعة في تفسير الآية قبلها.

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) هو قطعة من حديث عمرو بن الأحوص أخرجه الترمذي (٢١٥٩) وقال: حديث حسن صحيح.

(٤) سيأتي في المسألة الآتية مطولاً.

(٥) في (م): وأنه من اغتاب أحداً عليه أن يتوب.

فقالت فرقة: ليس عليه استحلالُه، وإنما هي خطيئةٌ بينه وبين ربه. واحتجَّت بأنه لم يأخذ من ماله ولا أصاب من بدنه ما ينقصه، فليس ذلك بمظْلِمة يستحلُّها منه، وإنما المظلِمةُ ما يكون منه البدل والعِوض في المال والبدن.

وقالت فرقة: هي مَظْلِمة، وكفارتُها الاستغفارُ لصاحبها الذي اغتابه. واحتجَّت بحديث يُروى عن الحسن قال: كفارةُ الغيبة أن تستغفر لمن اغتبته[١].

وقالت فرقة: هي مَظْلِمةٌ، وعليه الاستحلالُ منها. واحتجَّت بقول النبيِّ ﷺ: «مَن كانت لأخيه عنده مَظْلِمة في عِرض أو مال، فليتحلَّله منه من قبل أن يأتيَ يوم ليس هناك دينارٌ ولا درهم، يؤخذ من حسناته، فإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذ من سيئات صاحبه، فزيد على سيئاته». خرَّجه البخاريُّ من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَتْ له مَظْلِمةٌ لأخيه من عِرْضه أو شيءٍ، فليتحلَّلْه منه اليومَ قبلَ ألَّا يكون[٢] دينارٌ ولا درهم، إن كان له عملٌ صالح أُخِذَ منه بِقَدْر مَظْلِمَتِه، وإن لم يكن له حسناتٌ، أُخِذَ من سيئات صاحبه، فحُمِلَ عليه»[٣].

وقد تقدّم هذا المعنى في سورة آل عمران[٤] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران: ١٦٩]. وقد رُوي من حديث عائشة أن امرأة دخلت عليها، فلما قامت، قالت امرأة: ما أطولَ ذيلَها! فقالت لها عائشة: لقد اغتبتيها فاستحلِّيها[٥]. فدلَّت الآثار عن النبيِّ ﷺ أنها مَظْلِمة يجب على المغتاب استحلالُها.

---

(١) لم نقف عليه وقد أخرجه الحارث في مسنده (١٠٨٠ - بغية الباحث)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٧/٣٠٣ من حديث أنس ﷺ. قال المناوي في فيض القدير ٥/٧: قال الغزالي: وهذا الحديث يحتج به للحسن في قوله: يكفيك من الغيبة الاستغفار دون الاستحلال.

(٢) بعدها في (م): له.

(٣) صحيح البخاري (٢٤٤٩)، وسلف ٢/٧٦.

(٤) ٥/٤١٣ - ٤١٤.

(٥) أخرجه أبو الشيخ في التوبيخ والتنبيه (١٩٣)، والبيهقي في الشعب (٦٧٦٨) بنحوه.

وأمَّا قول مَن قال: إنما الغيبة في المال والبدن، فقد أجمعت العلماء على أن على القاذف للمقذوف مَظْلِمةً؛ يأخذه بالحدِّ حتى يقيمه عليه، وذلك ليس في البدن ولا في المال، ففي ذلك دليلٌ على أن الظلم في العِرض والبدن والمال، وقد قال الله تعالى في القاذف: ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُوْلَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَن بَهَتَ مؤمنًا بما ليس فيه، حبسه الله في طِينة الخَبال»(١). وذلك كلُّه في غير المال والبدن.

وأمَّا مَن قال: إنها مَظْلِمة، وكفارةُ المَظْلِمة أن يستغفر لصاحبها، فقد ناقض؛ إذ سمَّاها مظلمة، ثم قال: كفارتها أن يستغفر لصاحبها؛ لأن قوله: مَظْلِمة، تُثبِت ظُلامة المظلوم، فإذا ثبتت الظُّلامة لم يُزلها عن الظالم إلا إحلالُ المظلوم له. وأمَّا قولُ الحسن فليس بحجَّة، وقد قال النبيُّ ﷺ: «مَن كانت له عند أخيه مَظْلِمةٌ في عِرْضٍ أو مالٍ، فليتحلَّلْها منه».

وقد ذهب بعضهم إلى ترك التحليل لمن سأله، ورأى أنه لا يُحلُّ له ما حرَّم الله عليه، منهم سعيدُ بن المسيّب قال: لا أحلِّلُ مَن ظلمني. وقيل لابن سيرين: يا أبا بكر، هذا رجل سألك أن تحلِّله من مَظْلِمةٍ هي لك عنده، فقال: إني لم أحرِّمها عليه فأُحلَّها، إن الله حرّم الغِيبة عليه، وما كنت لأُحلَّ ما حرّم الله عليه أبدًا(٢).

وخبرُ النبيِّ ﷺ يدلُّ على التحليل، وهو الحجة والمبيِّن. والتحليلُ يدلُّ على الرحمة، وهو من وجهِ العفو، وقد قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

التاسعة: ليس من هذا الباب غِيبةُ الفاسق المعلِن به المجاهِر، فإن في الخبر:

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٤٣٥)، وأبو نعيم في الحلية ١٠/ ٢١٩، والبيهقي في الشعب (٦٧٣٦)، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٢٠٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مطولاً وبنحوه. والخَبال: هو عُصارة أهل النار. النهاية (خبل).

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢١٥.

«مَن ألقى جِلْباب الحياء، فلا غِيبة له»(١). وقال ﷺ: «اذكروا الفاجر بما فيه كي يحذره الناس»(٢). فالغيبة إذًا في المرء الذي يستر نفسه .

ورُوِيَ عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حُرْمة: صاحبُ الهوى، والفاسقُ المعلِن، والإمام الجائر(٣). وقال الحسن لمَّا مات الحجَّاج: اللهم أنت أَمتَّه فاقطع عنا سنته ـ وفي رواية: شَيْنه ـ فإنه أتانا أُخَيْفِشَ أُعَيْمِش، يمدُّ بيد قصيرة البَنان، واللهِ ما عَرِق فيها غبارٌ في سبيل الله، يُرَجِّل جُمَّته، ويَخْطِر في مِشْيته، ويَصْعَد المِنبر فَيَهْذِر حتى تفوته الصلاة، لا من الله يَتَّقي، ولا من الناس يستحي، فوقه الله، وتحته مئةُ ألف أو يزيدون، لا يقول له قائل: الصلاةَ أيها الرجل. ثم يقول الحسن: هيهات! حالَ دون ذلك السيفُ والسَّوْط(٤) .

وروى الربيعُ بن صَبيح عن الحسن قال: ليس لأهل البدع غِيبة(٥).

وكذلك قولُك للقاضي تستعينُ به على أخذ حقِّك ممن ظلمك، فتقول: فلانٌ ظلمني، أو: غصبني(٦)، أو: خانني، أو: ضربني، أو: قذفني، أو: أساء إليَّ، ليس بغيبة. وعلماء الأمة على ذلك مجمِعة. وقال النبيُّ ﷺ في ذلك: «لصاحب الحقِّ

---

(١) أخرجه البيهقي ١٠/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٨/ ٤٣٨ من حديث أنس ﷺ. قال ابن حجر في الكافي الشاف ص ١٥٧ : إسناده ضعيف . وأخرجه ابن عدي في الكامل ١/ ٣٧٧ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ١٧١ من طريق الربيع بن بدر ، عن أبان، عن أنس ﷺ. قال ابن حجر: وإسناده أضعف من الأول .

(٢) أخرجه العقيلي في الضعفاء ١/ ٢٠٢ ، وابن عدي في الكامل ٢/ ٥٩٥ ، والبيهقي ١٠/ ٢١٠ ، والخطيب البغدادي في تاريخه ٣/ ٢٨٣ من طريق الجارود بن يزيد، عن بهز بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده . قال العقيلي : ليس له من حديث بهز أصل ، ولا من حديث غيره ولا يتابع عليه . وقال البيهقي : وقد سرقه عنه ـ أي عن الجارود بن يزيد ـ جماعة من الضعفاء ، فرووه عن بهز بن حكيم، ولم يصح فيه شيء .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت (٢٣٥) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٦٩) .

(٤) الكشاف ٣/ ٥٦٦ ، والأخيفش هو تصغير أخفش، وهو من الخَفَش، محركة: صغر العين، وضعف البصر خِلْقة، أو فساد في الجفون بلا وجع. والأُعَيْمش هو تصغير أعمش، وهو من العمش، محركة: ضعف البصر مع سيلان الدمع في أكثر الأوقات. القاموس (خفش) و(عمش).

(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٢٨٠) ، والبيهقي في الشعب (٩٦٧٥) .

(٦) في (ف) و(م) : غضبني ، وفي (ق) : عطبني ، والمثبت من (ظ) .

مقال»(١). وقال: «مَطْلُ الغنيِّ ظلم»(٢). وقال: «لَيُّ الواجد يُحِلُّ عِرْضَه وعقُوبته»(٣).

ومن ذلك الاستفتاء؛ كقول هند للنبيِّ ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فآخذُ من غير علمه؟ فقال النبيُّ ﷺ: «نعم فخذي»(٤). فذكرته بالشُّحِّ والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة؛ لأنه لم يغيِّر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفُتْيا لها. وكذلك إذا كان في ذكره بالسوء فائدة؛ كقوله ﷺ: «أمَّا معاويةُ فصعلوكٌ لا مال له، وأمَّا أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه»(٥). فهذا جائز، وكان مقصودُه ألَّا تغترَّ فاطمة بنتُ قيس بهما. قاله جميعه المحاسبيُّ رحمه الله.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿مَيۡتٗا﴾ وقُرِئ «ميِّتًا»(٦) وهو نصبٌ على الحال من اللَّحم. ويجوز أن يُنصب على الأخ.

ولمَّا قرَّرهم عزَّ وجلَّ بأن أحداً منهم لا يحبُّ أكل جيفة أخيه، عَقَّب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾(٧).وفيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكلَ الميتة، فكذلك فاكرهوا الغِيبة، رُوي معناه عن مجاهد.

الثاني: فكرهتم أن يغتابكم الناس، فاكرهوا غِيبة الناس(٨).

---

(١) هو قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٩٣٩٠)، والبخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١): (١٢٠).

(٢) أخرجه أحمد (٨٩٣٨)، والبخاري (٢٢٨٧)، ومسلم (١٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٧/ ٢٠١.

(٣) سلف ٣/ ٢٥٦، وهو من حديث الشَّرِيد بن سويد ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٥٣٦٤)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها، وسلف ٣/ ٢٤٩.

(٥) هو قطعة من حديث فاطمة بنت قيس رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٧٣٢٧)، ومسلم (١٤٨٠): (٣٦). وسلف الشطر الثاني منه ٦/ ٢٨٨.

(٦) قرأ من السبعة بالتشديد نافع. السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ١٠٦.

(٧) الكشاف ٣/ ٥٦٨.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٣٥.

وقال الفراء: أي: فقد كرهتموه فلا تفعلوه[١]. وقيل: لفظه خبر، ومعناه أمر، أي: اكرهوه.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ عطف عليه. وقيل: عطف على قوله: «اجْتَنِبُوا. وَلَا تَجَسَّسُوا». ﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ يعني آدمَ وحواء. ونزلت الآية في أبي هند، ذكره أبو داود في «المراسيل»: حدثنا عمرو بن عثمان وكثير بن عبيد قالا: حدَّثنا بقيَّة بنُ الوليد [حدثني الزُّبيدي] قال: حدثني الزُّهري قال: أمر رسول الله ﷺ بني بَياضَة أن يزوِّجوا أبا هندٍ امرأةً منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نزوِّج بناتِنا موالينا؟! فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾ الآية. قال الزُّهري: نزلت في أبي هندٍ خاصَّة[٢].

وقيل: إنها نزلت في ثابت بن قيس بن شَمَّاس، وقولِه في الرجل الذي لم يتفسَّح له: ابن فلانة، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن الذاكر فلانة؟» قال ثابت: أنا يا رسول الله، فقال النبيُّ ﷺ: «انظر في وجوه القوم» فنظر، فقال: «ما رأيت؟» قال: رأيت أبيضَ وأسود وأحمر، فقال: «فإنك لا تَفْضُلهم إلا بالتقوى». فنزلت في ثابت هذه الآية[٣]. ونزلت

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٣.

(٢) المراسيل (٢٣٠) وما بين حاصرتين منه. وسيرد في آخر المسألة السابعة من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما، وسلف في الآية (١١) في المسألة الثانية قصة ثابت بن قيس مع هذا الرجل مطولة، لكن دون قول النبي ﷺ.

في الرجل الذي لم يتفسّح له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ﴾ [المجادلة: ١١] الآية(١).

قال ابن عباس: لمّا كان يوم فتح مكة، أمر النبيُّ ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة فأذّن، فقال عتّاب بن أَسِيد بنِ أبي العِيص: الحمد لله الذي قبض أبي حتى لا يرى هذا اليوم. قال الحارث بن هشام: ما وجد محمدٌ غير هذا الغراب الأسود مؤذِّنًا. وقال سهيل بن عمرو: إن يرد الله شيئاً يغيِّره. وقال أبو سفيان: إني لا أقول شيئاً، أخاف أن يُخبِرَ به ربُّ السماء، فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ وأخبره بما قالوا، فدعاهم وسألهم عمّا قالوا: فأقرُّوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية. زجرهم عن التفاخر بالأنساب، والتكاثر بالأموال، والازدراء بالفقراء، فإن المدار على التقوى(٢). أي: الجميعُ من آدم وحوّاء، إنما الفضل بالتقوى.

وفي الترمذي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ خطب بمكة فقال: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة(٣) الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها. فالناس رجلان: رجلٌ بَرٌّ تَقيٌّ كريمٌ على الله، وفاجرٌ شقيٌّ هيِّن على الله. والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾». خرَّجه من حديث عبد الله بن جعفر والدِ عليِّ بن المديني وهو ضعيف، ضعَّفه يحيى بن معين وغيره(٤).

وقد خرَّج الطبري في كتاب «آداب النفوس»: وحدَّثني يعقوب بن إبراهيم قال:

---

(١) سيرد في تفسير الآية المذكورة في المسألة الأولى.

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول ص ٤١٧، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢١٧ ونسباه لمقاتل.

(٣) في (ظ): غيبة، وفي (ق) و(م): عيبة، وهو خطأ. و«عُبِّيَّة» بضم العين المهملة وكسرها، وكسر الموحدة وفتح التحتية المشددتين، يعني الكبر. النهاية (عبب).

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧٠) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث عبد الله بن دينار، عن ابن عمر إلا من هذا الوجه. اهـ. وله شاهد من حديث أبي هريرة أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥)، و(٣٩٥٦).

حدَّثنا إسماعيل قال: حدَّثنا سعيدٌ الجُرَيري، عن أبي نضرة قال: حدَّثني أو حدَّثنا مَن شهد خُطَب رسول الله ﷺ بمنًى في وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال: «أيها الناس، أَلا إنَّ ربكم واحد، وإن أباكم واحد، أَلَا لا فضل لعربيٍّ على عجميٍّ، ولا لعجميٍّ[١] على عربي، ولا لأسودَ على أحمرَ، ولا لأحمر على أسود؛ إلا بالتقوى، ألا هل بلَّغت؟ قالوا: نعم. قال: ليبلِّغ الشاهدُ الغائب»[٢].

وفيه عن أبي مالك[٣] الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أحسابكم[٤]، ولا إلى أجسامكم، ولا إلى أموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم، فمن كان له قلبٌ صالح، تحنَّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم وأحبُّكم إليه أتقاكم»[٥].

ولعليٍّ ﷺ في هذا المعنى وهو مشهورٌ من شعره:

النـاس في[٦] جهة التمثيل أكْفاءُ ... أبـوهـمُ آدمُ والأمُّ حـواءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكلةٌ ... وأعظُمٌ خُلقتْ فيهم وأعضاءُ
فإن يكن لهُم من أصلهمْ حسبٌ ... يفاخرون به فالطينُ والماءُ
ما الفضلُ إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهُدَى لمن استَهْدى أدِلَّاءُ
وقَدْرُ كلِّ امرئ ما كان يحسنُه ... وللرجال على الأفعال سيماءُ

(١) في (م): ولا عجمي.

(٢) وأخرجه أحمد (٢٣٤٨٩)، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ١٠٠ من طريق سعيد الجريري به.

(٣) في (م): عن مالك، وهو خطأ.

(٤) بعدها في (م): ولا إلى أنسابكم.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٤٥٦)، وفي مسند الشاميين (١٦٧٨) عن أبي مالك الأشعري، وفي إسناده محمد بن إسماعيل بن عباس عن أبيه. قال أبو حاتم - كما في تهذيب التهذيب -: لم يسمع من أبيه شيئاً، حملوه على أن يحدث فحدث. وقال ابن حجر في التقريب: عابوا عليه أنه حدث عن أبيه بغير سماع. اهـ وفي صحيح مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» وسلف في المسألة الرابعة من تفسير الآية (١١).

(٦) في (م): من.

وضدُّ كلِّ امرئ ما كان يجهله والجاهلون لأهل العلم أعداءُ(١)

الثانية: بيَّن الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الخلق من الذكر والأنثى، وكذلك في أوّل سورة النساء(٢). ولو شاء لخلقه دونهما؛ كخلقه لآدمَ، أو دون ذَكَر؛ كخلقه لعيسى عليه السلام، أو دون أنثى؛ كخلقه حواءَ من إحدى الجهتين. وهذا الجائز في القدرة لم يَرِد به الوجود. وقد جاء أن آدم خلق الله منه حوَّاء من ضلع انتزعها من أضلاعه، فلعله هذا القسم. قاله ابن العربي(٣).

الثالثة: خلق الله الخلق بين الذكر والأنثى أنساباً وأصهارًا وقبائلَ وشعوبًا، وخلق لهم منها التعارف، وجعل لهم بها التواصل؛ للحكمة التي قدَّرها وهو أعلمُ بها، فصار كلُّ أحد يحوز نسبه، فإذا نفاه رجل عنه استوجب الحدَّ بقذفه [له]، مثل أن ينفيه عن رهطه وحسبه(٤)، بقوله للعربي: يا أعجمي، وللعجمي: يا عربي؛ ونحو ذلك مما يقع به النفي حقيقة، انتهى.

الرابعة: ذهب قوم من الأوائل إلى أنَّ الجنين إنما يكون من ماء الرجل وحده، ويتربَّى في رحم الأم، ويستمدُّ من الدم الذي يكون فيه. واحتجوا بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ . فَجَعَلْنَهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠-٢١]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٨]. وقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾ [القيامة: ٣٧]. فدلَّ على أن الخَلْق من ماء واحد.

والصحيح أن الخَلْق إنما يكون من ماء الرجل والمرأة لهذه الآية، فإنها

---

(١) وقع في ديوان علي ص٥، البيت الأول والثالث والرابع، وبيت آخر ملفق من الشطر الأول من الخامس والشطر الثاني من السادس. وكذا ذكرها الخطيب البغدادي في تاريخه ٤/ ٣٩١ قال: أنشدها أبو عبد الرحمن مؤذن المأمون. والجرجاني في أسرار البلاغة ص٢٢٩ ونسبها لمحمد بن الربيع الموصلي.

(٢) ٦/٦.

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٣ وما بعده منه.

(٤) وقع في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٣: وجنسه.

نصٌّ لايحتمل التأويل. وقولِه تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ . يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق:٦-٧]. والمراد منه أصلابُ الرجال وترائبُ النساء، على ما يأتي بيانه.

وأمَّا ما احتجُّوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسُّلالةِ والنطفةِ، ولم يُضِفها إلى أحد الأبوين دون الآخر. فدلَّ على أن الماء والسُّلالة لهما، والنطفةَ منهما بدلالة ما ذكرنا. وبأن المرأة تُمْني كما يُمْني الرجل، وعن ذلك يكون الشَّبَه، حسب ما تقدَّم بيانه في آخر «الشورى»[1]. وقد قال في قصة نوح: ﴿فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٍ قَدۡ قُدِرَ﴾ [القمر:١٢]، وإنما أراد ماءَ السماء وماء الأرض؛ لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا يُنكَر أن يكون ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة:٨] وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات:٢٠] ويريد ماءين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾ الشعوب رؤوس القبائل، مثل ربيعة ومُضَر، والأوْس والخَزْرَج، واحدُها شَعْب بفتح الشين، سُمُّوا به لتشعُّبهم واجتماعهم كشُعَب أغصان الشجرة. والشَّعْب من الأضداد[2]، يقال: شعبته إذا جمعته، ومنه المِشْعَب ـ بكسر الميم ـ وهو الإِشْفَى[3]؛ لأنه يُجمع به ويشعب. قال:

فَكَابٍ على حُرِّ الجبين ومُتَّقٍ ... بمَدْرِيَةٍ كأنه ذَلْقُ مِشْعَبِ[4]

وشَعَبتُه: إذا فرّقته، ومنه سُمِّيت المنيَّة شَعُوب[5]، لأنها مفرِّقة. فأما الشِّعب ـ بالكسر ـ فهو الطريق في الجبل؛ والجمع الشِّعاب.

---

(١) عند تفسير الآية (٤٨) منها.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢١٧.

(٣) الإشفى: السِّراد، وهو ما يُخرز به. القاموس (شفى).

(٤) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص ٥٢، وقوله: الكابي أي: الساقط على وجهه. والمدرية: القرن. وذلق كل شيء: حدُّه. والمعنى أن من الثيران ما قد صرع، ومنها ما يتقي بقرن حديد كحدِّ الإشفى. شرح الديوان.

(٥) في (م): شعوباً، وهو خطأ. وشَعُوبُ: علم على المَنِيَّة، غير مصروف. ينظر القاموس (شعب).

قال الجوهري: الشِّعب: ما تشعَّب من قبائل العرب والعجم، والجمع الشعوب. والشُّعُوبية: فرقةٌ لا تفضِّل العرب على العجم. وأمَّا الذي في الحديث: أن رجلاً من الشُّعوب أسلم[١]؛ فإنه يعني من العجم. والشَّعْب: القبيلة العظيمة، وهو أبو القبائل الذي ينسبون إليه، أي: يجمعهم ويضمهم[٢].

قال ابن عباس: الشُّعوب: الجمهور، مثل مضر، والقبائل: الأفخاذ[٣]، وقال مجاهد: الشُّعوب البعيدُ من النسب، والقبائل دون ذلك[٤]. وعنه أيضاً: أن الشعوب النسب الأقرب. وقاله قتادة[٥]. ذكر الأوّل عنه المهدويُّ، والثاني الماوردي[٦]. قال الشاعر:

رأيت سعوداً من شُعوب كثيرة ... فلم أر سعداً مثلَ سعدِ بنِ مالك[٧]

وقال آخر:

قبائلُ من شُعوب ليس فيهمْ ... كريمٌ قد يُعَدُّ ولا نجيبُ[٨]

وقيل: إن الشُّعوب عَرَبُ اليمن من قحطان، والقبائل من ربيعة ومضر وسائر عدنان. وقيل: إن الشُّعوب بطونُ العجم؛ والقبائل بطونُ العرب[٩]. وقال ابن عباس

---

(١) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٢٢)، والبيهقي ٩/ ١٩٩ من حديث مسروق، وتمام الحديث: فكانت تؤخذ منه الجزية، فأتى عمرَ ﷺ فأخبره، فكتب أن لا يؤخذ منه الجزية.

(٢) الصحاح (شعب).

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٦، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٩٨ لعبد بن حميد وابن مردويه. وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٤ بلفظ: الشعوب الجُمَّاع... والجُمَّاع: القبائل العظام كما فسرها أحد الرواة. وأخرج البخاري (٣٤٨٩) عن ابن عباس بلفظ: الشعوب القبائل العظام، والقبائل البطون.

(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦٠٨.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٣٨٥.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦ القول الأول عن مجاهد وقتادة لا الثاني.

(٧) البيت لطَرَفَة بن العبد وهو في ديوانه ص ٧٢، وفيه: فلم تر عيني، بدل: فلم أر سعداً.

(٨) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٣٦.

(٩) المصدر السابق.

في رواية: إن الشُّعوب الموالي، والقبائل العرب[١]. قال القُشَيْري: وعلى هذا؛ فالشُّعوب مَن لا يُعرف لهم أصل [ولا] نسبٌ؛ كالهند والحبش[٢] والترك، والقبائل من العرب. الماوردي: ويحتمل أن الشُّعوب هم المضافون إلى النواحي والشِّعاب، والقبائل هم المشتركون في الأنساب. قال الشاعر:

وتفرَّقوا شُعَبًا فكلٌّ جزيرةٍ ... فيها أميرُ المؤمنين ومِنبرُ[٣]

وحكى أبو عبيد عن ابن الكلبي عن أبيه: الشَّعب أكبر من القبيلة، ثم الفصيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ[٤]. وقيل: الشَّعب، ثم القبِيلة، ثم العِمارة، ثم البطن، ثم الفَخِذ، ثم الفصِيلة[٥]، ثم العَشيرة، وقد نَظمها بعض الأدباء فقال:

إقصد الشَّعب فهو أكثر حَيٍّ ... عددًا في الحِواء[٦] ثم القبِيله

ثم تتلوها العِمارةُ ثم الـ ... ـبطن والفخذُ بعدها والفصيله

ثم مِن بعدها العشيرةُ لكن ... هي في جنب ما ذكرنا قليله

وقال آخر:

قبِيلةٌ قبلها شَعْبٌ وبعدهما ... عِمارةٌ ثم بَطْنٌ تِلْوُهُ فَخِذُ

وليس يُؤوي الفتى إلا فصيلتُه ... ولا سَدادَ لِسَهْمٍ مالَه قُذَذُ[٧]

(١) الوسيط ٤/ ١٥٨ .

(٢) في (ظ) : والخيل ، وفي (ف) و(م) : والجبل ، وفي الوسيط للواحدي ٤/ ١٥٨ - والكلام فيه دون نسبة - : الجيل ، والمثبت من (ق)، وما بين حاصرتين من الوسيط.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٣٦ .

(٤) الصحاح (شعب) .

(٥) الكشاف ٣/ ٥٦٩ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٣ .

(٦) الحِواء : جماعة بيوت الناس إذا تدانت ، والعرب تقول لمجتمع بيوت الحي: محتوى ومَحوى وحِواء. ينظر اللسان (حوا) .

(٧) أورد هذه الأبيات الخمسة الآلوسي في روح المعاني ٢٦/ ١٦٢ ، والقُذَذ جمع قُذَّة: وهو ريش السهم. القاموس (قذذ) .

السادسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وقد تقدّم في سورة الزخرف[(١)] عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

وفي هذه الآية ما يدلُّك على أن التقوى هي المُراعى عند الله تعالى وعند رسوله دون الحسب والنسب.

وقُرِئ: «أنَّ» بالفتح. كأنه قيل: لِمَ لا[(٢)] يُتفاخر بالأنساب؟ قيل: لأن أكرمكم عند الله أتقاكم لا أنسبكم[(٣)].

وفي الترمذي عن سَمُرَة، عن النبيِّ ﷺ قال: «الحَسَبُ المال، والكرم التقوى». قال: هذا حديث حسن غريب صحيح[(٤)]. وذلك يرجع إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾، وقد جاء منصوصًا عنه عليه الصلاة والسلام: «مَن أحبَّ أن يكون أكرمَ الناس، فليتق الله»[(٥)]. والتقوى: معناه مراعاةُ حدود الله تعالى أمرًا ونهيًا، والاتصافُ بما أمرك أن تتصف به، والتنزهُ عما نهاك عنه. وقد مضى هذا في غير موضع.

وفي الخبر من رواية أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: إني جعلت نَسَبًا وجعلتم نَسَبًا، فجعلتُ أكرمكم أتقاكم، وأبيتم إلا أن تقولوا: فلان ابن فلان، وأنا اليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم، أين المتقون، أين المتقون»[(٦)].

وروى الطبريُّ من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أوليائي المتقون يوم القيامة، وإن كان نسبٌ أقربَ من نسب. [لا] يأتي الناس بالأعمال؛ وتأتون

---

(١) ص٥٣ من هذا الجزء.

(٢) لفظة: لا، من (ف) و(ق).

(٣) الكشاف ٣/ ٥٦٩.

(٤) سنن الترمذي (٣٢٧١)، وسلف ٣/ ٣٦٠.

(٥) قطعة من حديث طويل لابن عباس رضي الله عنهما أخرجه العُقيلي في الضعفاء ٤/ ٣٤٠، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٢١٨. قال العقيلي: ليس لهذا الحديث طريق يثبت.

(٦) أخرجه الحاكم ٢/ ٤٦٤، والبيهقي في الشعب (٥١٣٩).

بالدنيا تحملونها على رقابكم تقولون: يا محمد، فأقول هكذا وهكذا». وأعْرَض في كُلِّ عِطْفَيْه[(١)].

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله ﷺ جِهارًا غيرَ سِرٍّ يقول: «إن آل أبي ليسوا لي بأولياء، إنما وَلِيِّي اللهُ وصالحُ المؤمنين»[(٢)].

وعن أبي هريرة أن النبيَّ ﷺ سُئل: مَن أكرم الناس؟ فقال: «يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بن إبراهيم». قالوا: ليس عن هذا نسألُك، قال: «فأكرمهم عند الله أتقاهم» فقالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: «عن معادن العرب؟ خيارُهم في الجاهلية خيارُهم في الإسلام إذا فَقُهُوا»[(٣)]. وأنشدوا في ذلك:

ما يصنع العبد بعِزِّ الغنى ... والعِزُّ كلُّ العِزِّ للمُتَّقي
مَن عرف الله فلم تغنه ... معرفةُ الله فذاك الشَّقي[(٤)]

السابعة: ذكر الطبري حدَّثني عمر بن محمد قال: حدَّثنا عبيد بن إسحاق العطار قال: حدَّثنا مندل بن عليٍّ، عن ثور بن يزيد، عن سالم بن أبي الجعد قال: تزوَّج رجل من الأنصار امرأة، فطُعِن عليها في حَسَبِها، فقال الرجل: إني لم أتزوَّجها لِحَسَبها، إنما تزوَّجتها لدينها وخُلُقها، فقال النبيُّ ﷺ: «ما يضرُّك ألا تكون من آل حاجب بن زُرارة». ثم قال النبيُّ ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى جاء بالإسلام، فرفع به الخسيسة، وأتمَّ به الناقصة، وأذهب به اللَّوم، فلا لوم على مسلم، إنما اللَّوم لَوْمُ

---

(١) لم نقف عليه عند الطبري، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٨٩٧)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) وما بين حاصرتين منهما. ووقع في (ظ) و(ف): كلى (كذا)، ولعلها: كِلا (بالألف الممدودة) كما وقع في الأدب المفرد: في كلا عطفيه. والعِطف: الجانب، وعِطفا كل شيء: جانباه. القاموس (عطف).

(٢) صحيح مسلم (٢١٥)، وهو عند البخاري (٥٩٩٠)، وسلف ٢/ ٨١.

(٣) أخرجه أحمد (٩٥٦٨)، والبخاري (٣٣٥٣)، ومسلم (٢٣٧٨).

(٤) لم نقف عليهما.

الجاهلية».(١) وقال النبيُّ ﷺ: «إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقي»(٢) ولذلك كان أكرمَ البشر على الله تعالى.

قال ابن العربي: وهذا الذي لحظ مالك في الكفاءة في النكاح. روى عبد الله عن مالك: يتزوَّج المَوْلى العربية، واحتجَّ بهذه الآية. وقال أبو حنيفة والشافعي: يُراعى الحَسَب والمال. وفي الصحيح عن عائشةَ أن أبا حذيفةَ بنَ عتبةَ بنِ ربيعة ـ وكان ممن شهد بدراً مع النبيِّ ﷺ ـ تبنَّى سالماً، وأنكحه هنداً بنتَ أخيه الوليدِ بن عتبة بن ربيعة، وهو مولًى لامرأة من الأنصار(٣). وضُباعة بنت الزبير كانت تحت المقداد بن الأسود(٤).

قلت: وأختُ عبد الرحمن بن عوف كانت تحت بلال، وزينبُ بنتُ جحش كانت تحت زيد بن حارثة(٥). فدلَّ على جواز نكاح الموالي العربية، وإنما تُراعى الكفاءة في الدِّين. والدليلُ عليه أيضًا ما روى سهل بن سعد في صحيح البخاري أن النبيَّ ﷺ مَرَّ عليه رجل فقال: «ما تقولون في هذا؟» فقالوا: حَريٌّ إن خطب أن يُنْكَح، وإن شَفَع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْمَع. قال: ثم سكت، فمرَّ رجل من فقراء المسلمين فقال: «ما تقولون في هذا؟» قالوا: حَريٌّ إن خطب ألَّا يُنْكَح، وإن شَفَع ألَّا يُشَفَّع، وإن قال ألَّا يُسْمع. فقال رسول الله ﷺ: «هذا خَيرٌ من مِلءِ الأرض مثلَ هذا»(٦).

وقال ﷺ: «تُنكح المرأة لمالها وجمالها ودينها ـ وفي رواية: ولحسبها ـ فعليك بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك»(٧).

وقد خطب سلمانُ إلى أبي بكر ابنته فأجابه، وخطب إلى عمر ابنته فالتَوى عليه،

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٤٣٨٥)، ومسلم (١١١٠) عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح البخاري (٤٠٠٠).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٣ - ١٧١٤.

(٥) سلف هذا الكلام ١٧/ ١٥٢.

(٦) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، والحديث في صحيح البخاري (٥٠٩١).

(٧) أخرجه البخاري (٥٠٩٠)، ومسلم (١٤٦٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف ٥/ ٤٥.

ثم سأله أن يَنكحها فلم يفعل سلمان. وخطب بلال بنتَ البكير فأبى إخوتها، فقال بلال: يا رسول الله، ماذا لقيت من بني البكير! خطبت إليهم أختهم فمنعوني وآذَوني، فغضب رسول الله ﷺ من أجل بلال، فبلغهم الخبر، فأَتَوا أختهم فقالوا: ماذا لقينا من سببك؟ فقالت أختهم: أمري بيد رسول الله ﷺ؛ فزوَّجوها [بلالاً][1].

وقال النبي ﷺ في أبي هند حين حجمه: «أنكحوا أبا هند وأنكحوا إليه». وهو مولى بني بياضة[2].

وروى الدَّارَقُطنيُّ[3] من حديث الزُّهْريِّ عن عُرْوَةَ عن عائشةَ أن أبا هند مولى بني بياضة كان حجَّاماً، فحجم النبيَّ ﷺ، فقال النبيُّ ﷺ: «مَن سرَّه أن ينظر إلى مَن صوَّر الله الإيمان في قلبه، فلينظر إلى أبي هند». وقال رسول الله ﷺ: «أنكحوه وأنكحوا إليه».

قال القشيري أبو نصر: وقد يعتبر النسب في الكفاءة في النكاح، وهو الاتصال بشجرة النبوّة، أو بالعلماء الذين هم ورثة الأنبياء، أو بالمرموقين في الزُّهد والصلاح. والتقيُّ المؤمن أفضلُ من الفاجر النسيب، فإن كانا تَقِيَّيْن؛ فحينئذ يُقدَّم النسيب منهما، كما يُقدَّم الشيخ على الشاب[4] في الصلاة إذا استويا في التقوى.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

نزلت في أعراب من بني أسد بنِ خُزيمة؛ قَدِموا على رسول الله ﷺ في سنة جَدْبة، وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا مؤمنين في السرّ، وأفسدوا طرق المدينة

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٤، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: فزوجها، بدل: فزوجوها، ولم نقف على هذا الخبر في مصادر التخريج.

(٢) المصدر السابق، وأخرجه أبو داود (٢١٠٢)، وابن حبان (٤٠٦٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وسلف نحوه عن الزُّهري مرسلاً. في المسألة الأولى.

(٣) في سننه (٣٧٩٣).

(٤) في (م): كما يقدم الشاب على الشيخ!

بالعَذِرات، وأغلَوا أسعارها، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ: أتيناك بالأثقال والعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، فأعطنا من الصدقة، وجعلوا يمنُّون عليه، فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية(١).

وقال ابن عباس: نزلت في أعراب أرادوا أن يَتَسَمَّوْا باسم الهجرة قبل أن يهاجروا، فأعلم الله أن لهم أسماءَ الأعراب، لا أسماءَ المهاجرين(٢).

وقال السدِّي: نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح: [وهم] أعراب مُزَيْنَة وجُهَيْنة، وأسْلَمَ وغِفارَ، والدِّيل وأشجع؛ قالوا: آمنَّا؛ ليأمنوا على أنفسهم وأموالهم، فلما استُنفروا إلى الحديبية(٣)، تخلَّفوا،

فنزلت. وبالجملة؛ فالآية خاصة لبعض الأعراب؛ لأن منهم مَن يؤمن بالله واليوم الآخر كما وصف الله تعالى(٤).

ومعنى «وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا» أي: استسلمنا خوف القتل والسَّبْي، وهذه صفة المنافقين؛ لأنهم أسلموا في ظاهر إيمانهم ولم تؤمن قلوبهم، وحقيقةُ الإيمان التصديق بالقلب. وأمَّا الإسلام فقَبول ما أتى به النبيُّ ﷺ في الظاهر، وذلك يَحْقِن الدّم.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني إن تُخلِصوا الإيمان ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ أي: لا ينقصكم ﴿مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. لاته يليته ويلوته: نقصه.

وقرأ أبو عمرو: «لا يألِتكم» بالهمزة(٥)، مِن أَلَت يَأْلِت أَلْتًا(٦)، وهو اختيار أبي

---

(١) أسباب النزول للواحدي ص ٤١٩.

(٢) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٣٧، وأخرجه الطبري ٢١/ ٣٩٠ بنحوه.

(٣) في النسخ: المدينة، والمثبت من تفسير البغوي ٤/ ٢١٨ والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٧/ ٤٧٦.

(٤) يشير المصنف إلى قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَـٰتٍ﴾ [الآية: ٩٩].

(٥) السبعة ص٦٠٦، والتيسير ص٢٠٢.

(٦) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٨٤، والوسيط ٤/ ١٦٠.

حاتم؛ اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١]. قال الشاعر:

أبلِغْ بني ثُعَلٍ عني مُغَلْغَلَةً جَهْدَ الرِّسَالة لا أَلْتًا ولا كَذِبا[١]

واختار الأولى أبو عبيد. قال رؤبة:

وليلةٍ ذاتِ نَدًى سَرَيْتُ ولم يَلِتْني عن سُرَاها لَيْتُ[٢]

أي: لم يمنعني عن سُراها مانع، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَلَ وأفْعَل بمعنًى. ويقال أيضًا: ما ألاته من عمله شيئًا، أي: ما نقصه، مثل ألَتَه. قاله الفرّاء: وأنشد:

ويأكلنَ ما أغنَى الوَليُّ فلم يَلِتْ كأنَّ بحافات النِّهاء المَزَارعا[٣]

قوله: فلم يَلِتْ، أي: لم يَنقص منه شيئًا. وأَغْنَى: بمعنى أنبت؛ يقال: ما أَغْنَت الأرض شَيئًا، أي: ما أنبتت. والوليُّ: المطر بعد الوَسْميّ[٤]، سُمِّي وليًّا لأنه يلي الوَسْميّ.

ولم يقل: لا يَلِتاكم[٥]؛ لأن طاعة الله تعالى طاعةُ الرسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾ أي: صدَّقوا

---

(١) البيت لحاتم الطائي وهو في ديوانه ص ٧٤، وفيه: لا محكاً ولا بُطُلا، بدل: لا ألتاً ولا كذبا. وأورده برواية المصنف الفراء في معاني القرآن ٣/ ٩٢، والأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٢٠. والمُغَلْغَلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. القاموس (غلل).

(٢) لم نقف عليه في ديوانه، وسلف ١٣/ ٦.

(٣) أورده ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٢٠٩ ونسبه لعدي، وفيه: يلث، بدل: يلت. وقوله: النِّهاء هو جمع نِهي ـ بالكسر والفتح ـ، أي: الغدير. القاموس (نهى).

(٤) الوسميُّ: هو مطر الربيع الأول، سمي بذلك لأنه يسم الأرض بالنبات. ينظر اللسان (وسم).

(٥) في (م): ولا يألتاكم.

ولم يشكُّوا، وحقَّقوا ذلك بالجهاد والأعمال الصالحة. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم، لا مَن أسلم خوفَ القتل ورجاءَ الكسب. فلمَّا نزلت حلف الأعراب أنهم مؤمنون في السرِّ والعلانية وكذبوا، فنزلت: ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ الذي أنتم عليه. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[١].

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ إشارة إلى قولهم: جئناك بالأثقال والعيال. و«أن» في موضع نصب على تقدير: لأن أسلموا. ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ أي: بإسلامكم. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ «أن» في[٢] موضع نصب، تقديره: بأن. وقيل: لأن. وفي مصحف عبد الله: «إِذْ هَدَاكُمْ»[٣]. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أنكم مؤمنون. وقرأ عاصم: «إنْ هداكم»[٤] بالكسر، وفيه بُعد؛ لقوله: «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». ولا يقال: يَمُنُّ عليكم أن يهديكم إن صدقتم. والقراءة الظاهرة «أَنْ هَدَاكُمْ». وهذا لا يدلُّ على أنهم كانوا مؤمنين، لأن تقدير الكلام: إن آمنتم فذلك مِنَّة الله عليكم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير وابن مُحَيْصِن[٥] بالياء على الخبر، ردًّا على قوله: «قَالَتِ الْأَعْرَابُ». الباقون بالتاء على الخطاب.

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٦٧، وبنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢١٩، وزاد المسير ٧/ ٤٧٧.

(٢) لفظة: في، من (ف) و (ق).

(٣) القراءات الشاذة ص ١٤٤.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها الزمخشري ٣/ ٥٧٢ دون نسبة، وقراءة عاصم كقراءة الجماعة: أن هداكم.

(٥) بعدها في (ف) و(ق) و(م): وأبو عمرو، وهو خطأ، وينظر السبعة ص ٦٠٦، والتيسير ص ٢٠٢.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة ق

وهي خمسٌ وأربعون آية

مكيةٌ كلُّها في قول الحسن وعطاء وعكرمة وجابر. قال ابن عباس وقتادة: إلا آية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [الآية: ٣٨][١].

وفي صحيح مسلم عن أمِّ هشام بنت حارثةَ بن النعمان قالت: لقد كان تَنُّورنا وتَنُّور رسول الله ﷺ واحداً، سنتين أو سنةً وبعضَ سنة، وما أخذتُ ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ إلَّا عن لسان رسول الله ﷺ؛ يقرؤها كلَّ يومِ جمعةٍ على المنبر، إذا خطب الناس[٢].

وعن عمر بن الخطاب ﷺ، سألَ أبا واقدٍ الليثيّ: ما كان يقرأُ به رسول الله ﷺ في الأضحى والفطر؟ فقال: كان يقرأُ فيهما بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ و﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١][٣].

وعن جابر بن سَمُرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾، وكان[٤] صلاتُه بعدُ تخفيفاً[٥].

---

(١) النكت والعيون ٥/٣٣٩ .

(٢) صحيح مسلم (٨٧٣): (٥٢)، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٧٤٥٦).

(٣) أخرجه مسلم (٨٩١): (١٤).

(٤) في (ق) و(م): وكانت.

(٥) أخرجه أحمد (٢٠٨٥٤) (٢١٠٠٣)، ومسلم (٤٥٨).

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾

قوله تعالى: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ قرأ العامَّةُ: «قاف» بالجزم. وقرأ الحسن وابنُ أبي إسحاق ونصر بن عاصم: «قافِ» بكسر الفاء[١]؛ لأنَّ الكسرَ أخو الجزم، فلمَّا سَكَنَ آخِرُهُ، حرَّكوه بحركة الخفض. وقرأ عيسى الثقفيُّ بفتح الفاء[٢] حرَّكه إلى أخفِّ الحركات. وقرأ هارونُ ومحمد بن السَّمَيْفَع: «قافُ» بالضم[٣]؛ لأنَّه في غالب الأمر حركةُ البناء، نحو: منذُ وقطُّ وقبلُ وبعدُ.

واختلف في معنى «ق» ما هو؟ فقال يزيد[٤] وعكرمةُ والضَّحَّاك: هو جبل محيطٌ بالأرض من زُمرُّدةٍ خضراءَ، اخضرَّتِ السماءُ منه، وعليه طَرَفا السماءِ، والسماءُ عليه مَقْبِيَّةٌ، وما أصابَ الناسُ من زُمرُّدٍ، كان مما تساقطَ من ذلك الجبل[٥]. ورواه أبو الجوزاء عن عبد الله بن عباس.

قال الفرَّاء: كان يجب على هذا أن يظهرَ الإعرابُ في «ق»؛ لأنَّه اسمٌ وليس بهجاء. قال: ولعلَّ القافَ وحدها ذُكرتْ من اسمه؛ كقول القائل[٦]:

قُـلـتُ لـهـا قِـفـي فـقـالـتْ قـافْ

أي: أنا واقفة[٧]. وهذا وجهٌ حسنٌ. وقد تقدَّم أوّل «البقرة»[٨].

---

(١) قراءة الحسن وابن أبي إسحاق في المحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٢) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨١ .

(٣) ينظر البحر المحيط ٨/ ١٢٠ .

(٤) في (ف) و(ق) و(م): ابن زيد. والمثبت من (ظ)، وهو الموافق للمحرر الوجيز.

(٥) ينظر قولهم في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ .

(٦) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط وقد سلف ١/ ٢٣٩ .

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٥ .

(٨) ١/ ٢٣٩ .

وقال وهب: أشرفَ ذو القرنين على جبلِ قاف، فرأى تحتَهُ جبالاً صغاراً، فقال له: ما أنت؟ قال: أنا قاف؛ قال: فما هذه الجبالُ حولك؟ قال: هي عروقي، وما من مدينةٍ إلا وفيها عِرقٌ من عروقي، فإذا أراد اللهُ أنْ يزلزل مدينةً، أمرني فحرَّكتُ عِرقي ذلك، فتزلزلتْ تلك الأرض؛ فقال له: يا قاف، أخبرني بشيءٍ من عظمةِ الله؛ قال: إنَّ شأن ربِّنا لعظيمٌ، وإنَّ ورائي أرضاً مسيرة خمس مئة عام في خمس مئة عام، من جبالِ ثلجٍ يحطم بعضُها بعضاً، لولا هي لاحترقتُ من حرِّ جهنَّم. قال: زدني، قال: إنَّ جبريلَ عليه السلام واقفٌ بين يدي الله تُرْعَدُ فرائصُه، يخلقُ الله من كلِّ رِعدةٍ مئةَ ألف ملك، فأولئك الملائكة وقوفٌ بين يدي الله تعالى، منكِّسو رؤوسهم، فإذا أذِنَ الله لهم في الكلام قالوا: لا إله إلَّا الله؛ وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبأ: ٣٨] يعني قول: لا إله إلا الله[١].

وقال الزجَّاج[٢]: قوله: «ق» أي: قُضِيَ الأمر، كما قيل في «حم» أي: حُمَّ الأمرُ. وقال ابن عباس: «ق» اسمٌ من أسماء الله تعالى أقسم به[٣]. وعنه أيضاً: أنَّه اسمٌ من أسماء القرآن. وهو قول قتادة[٤]. وقال القُرظيُّ: افتتاحُ أسماء الله تعالى قديرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاضٍ وقابض[٥]. وقال الشَّعبيُّ: فاتحةُ السورة[٦]. وقال أبو بكر

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٩٤ : كأن هذه من خرافات بني إسرائيل التي أخذها عنهم بعض الناس، لِمَا رأى من جواز الرواية عنهم فيما لا يصدق ولا يكذب. وعندي أنّ هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق زنادقتهم، يلبّسون على الناس أمر دينهم... وإنما أباح الشارع الرواية عنهم... فيما قد يجوزه العقل، فأما ما تحيله العقول ويحكم عليه بالبطلان، ويغلب على الظن كذبه، فليس من هذا القبيل. والله أعلم.

(٢) في معاني القرآن ٥/ ٤١ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٠ .

(٤) ذكره عن ابن عباس ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وأخرجه عن قتادة الطبريُّ ٢١/ ٤٠٠ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٥٦ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥ ، وفيه: اسم السورة.

الورّاق: معناه: قِفْ عند أمرنا ونهينا ولا تَعْدُهما[١]. وقال محمد بن عاصم الأنطاكيُّ: هو قُرْبُ الله من عباده، بيانه ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾. وقال ابنُ عطاء: أَقسم اللهُ بقوّة قلب حبيبه محمدٍ ﷺ، حيثُ حَمَلَ الخطابَ، ولم يُؤثِّر ذلك فيه؛ لعلوِّ حاله[٢].

﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ أي: الرفيع القدر. وقيل: الكريم؛ قاله الحسن. وقيل: الكثير؛ مأخوذٌ من كثرة القَدْرِ والمنزلة، لا من كثرة العدد، من قولهم: كثير فلان[٣] في النفوس؛ ومنه قول العرب في المثل السائر: لها[٤] في كلِّ شجرٍ نار، واسْتمجدَ المَرْخُ والعَفار[٥]. أي: استكثر هذان النوعان من النَّار، فزادا على سائر الشجر؛ قاله ابن بحر[٦].

وجواب القسم قيل هو: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ على إرادة اللام؛ أي: لقد علمنا. وقيل: هو ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [ق:٣٧] وهو اختيارُ الترمذيِّ محمد بن عليٍّ قال: «ق» قَسَمٌ باسمٍ هو أعظمُ الأسماء التي خَرجتْ إلى العباد: وهو القدرة، وأقْسم أيضاً بالقرآن المجيد، ثم اقتصَّ ما خَرجَ من القدرة من خَلْقِ السماوات والأرضين وأرزاق العباد، وخَلْقِ الآدميين، وصفةِ يوم القيامة والجنة والنار، ثم قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧] فوقع القسمُ على هذه الكلمة، كأنَّه قال: «ق» أي: بالقدرة والقرآن المجيد، أقسمتُ أنَّ فيما اقتصصتُ في هذه

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥ .

(٢) ذكر أبو حيان في البحر ٨/ ١٢٠ أن المفسرين اختلفوا في مدلول «ق» على أحد عشر قولاً متعارضة، لا دليل على صحة شيء منها.

(٣) في النكت والعيون ـ والكلام منه ـ : فلان كثير.

(٤) لفظة: لها. ليست في (م).

(٥) المَرْخ والعَفار شجرتان من أسرع الشجر خروج نار، والاستمجاد: الاستكثار من المجد، وهو كثرة الشرف؛ وهذا المثل يضرب في تفضيل القوم على بعض إذا كانوا كلهم ذوي خير، ولبعضهم مزية وتَقدُّمٌ ليس للآخرين. المستقصى في أمثال العرب ٢/ ١٨٣-١٨٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠ .

السورة ﴿لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾.

وقال ابن كيسان: جوابه ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾. وقال أهل الكوفة: جواب هذا القسم ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ﴾[١]. وقال الأخفش[٢]: جوابه محذوف، كأنَّه قال: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ لَتُبعثُنَّ، يدلُّ عليه: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ «أنْ» في موضع نصبٍ على تقدير: لأن جاءهم منذرٌ منهم، يعني محمداً ﷺ. والضميرُ للكفَّار، وقيل: للمؤمنين والكفار جميعاً[٣]. ثم ميَّز بينهم بقوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ولم يقل: فقالوا، بل قبَّح حالَهم وفِعلَهم[٤] وَوَصَفَهُمْ بالكفر، كما تقول: جاءني فلانٌ فأسمعني المكروهَ، وقال لي الفاسق: أنت كذا وكذا.

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ العجيب: الأمر الذي يُتعجَّبُ منه، وكذلك العُجابُ؛ بالضمِّ، والعُجَّابُ ـ بالتشديد ـ أكثر منه، وكذلك الأُعجوبة[٥]. وقال قتادة: عجَّبهم أن دُعوا إلى إله واحد. وقيل: من إنذارهم بالبعث والنشور[٦]. والذي نصَّ عليه القرآن أولى.

قوله تعالى: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ نُبعث؛ ففيه إضمار. ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الرَّجع: الرَّدُّ، أي: هو ردٌّ بعيد، أي: محال. يقال: رَجَعْته أرْجِعه رَجْعًا، ورَجَع هو يَرجِع رُجوعاً، وفيه إضمارٌ آخر، أي: وقالوا أنُبْعَثُ إذا متنا. وذِكْرُ البعثِ وإنْ لم يَجْرِ هاهنا، فقد جرى في مواضع، والقرآنُ كالسورة الواحدة. وأيضاً ذِكْرُ البعثِ منطوٍ تحت قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنَّه إنَّما يُنذر بالعقاب والحساب في الآخرة.

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥.

(٢) في معاني القرآن له ٢/ ٦٩٦ بنحوه. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٥.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٦.

(٤) قوله: وفعلهم. من (م).

(٥) الصحاح (عجب).

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٤٠.

قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما تأكلُ من أجسادهم، فلا يَضِلُّ عنَّا شيءٌ حتى تتعذَّر علينا الإعادة. وفي التنزيل: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ . قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

وفي الصحيح: «كلُّ ابنِ آدم يأكلُه التراب، إلا عَجْبَ الذَّنَبِ، منه خُلِقَ وفيه يُرَكَّبُ» وقد تقدَّم[١].

وثبت أنَّ الأنبياء والأولياء والشهداء لا تأكلُ الأرضُ أجسادهم؛ حرَّم الله على الأرض أن تأكلَ أجسادهم. وقد بيَّنَّا هذا في كتاب «التذكرة»، وتقدَّم أيضاً في هذا الكتاب[٢].

وقال السُّدِّي: النقص هنا الموت، يقول: قد علمنا منهم من يموتُ ومن يبقى[٣]؛ لأنَّ من مات دُفِنَ، فكأنَّ الأرض تَنقُصُ من الناس.

وعن ابن عباس: هو من يدخل في الإسلام من المشركين[٤].

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ أي: بعدَّتهم وأسمائهم، فهو فعيلٌ بمعنى فاعل. وقيل: اللوح المحفوظ[٥]، أي: محفوظٌ من الشياطين، أو محفوظٌ فيه كلُّ شيء. وقيل: الكتاب عبارةٌ عن العلم والإحصاء؛ كما تقول: كتبتُ عليك هذا، أي: حفظتُهُ. وهذا تَرْكُ الظاهر من غير ضرورة. وقيل: أي: وعندنا كتابٌ حفيظٌ لأعمال بني آدم، لنحاسبهم عليها.

قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: القرآن في قول الجميع؛ حكاه

---

(١) صحيح مسلم (٢٩٥٥): (١٤٢)، وسلف معناه ١٧/ ٤٩٠ .

(٢) التذكرة ١/ ١٦٣-١٦٤ ، وسلف ٥/ ٤٠٩ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٠ .

(٤) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٥٧ نقلاً عن الثعلبي. ثم قال: وهذا قولٌ أجنبي من المعنى الذي قبل وبعد.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٦٣ .

الماورديُّ[١]. وقال الثعلبيُّ: بالحقِّ: القرآن. وقيل: الإسلام. وقيل: محمدٌ ﷺ.

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مختلط. يقولون مرَّةً: ساحر، ومرَّةً: شاعر، ومرَّةً: كاهن؛ قاله الضَّحَّاك وابنُ زيد. وقال قتادة: مختلِف. الحسن: مُلتبِس؛ والمعنى متقارب. وقال أبو هريرة: فاسد[٢]، ومنه: مَرِجَتْ أماناتُ الناس، أي: فسدت؛ ومَرِجَ الدينُ والأمرُ: اختلط. قال أبو دؤاد:

مَرِجَ الدِّينُ فأعْدَدْتُ له ... مُشْرِفَ الحارِكِ محبوكَ الكَتَدْ[٣]

وقال ابن عباس: المَرِيج: الأمر المنكر[٤]. وقال عنه عمران بن أبي عطاء: «مريج»: مختلط[٥]. وأنشد:

فجالتْ فالتمستْ به حَشاها ... فَخَرَّ كأنه خُوطٌ مَرِيجُ[٦]

الخُوطُ: الغصن.

وقال عنه العوفيُّ: في أمرِ ضلالة[٧]، وهو قولهم: ساحرٌ شاعرٌ مجنونٌ كاهن.

وقيل: متغيِّر.

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٤١.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤١ دون ذكر ابن زيد، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٠٨. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠.

(٣) الصحاح (مرج)، والبيت أيضاً في إصلاح المنطق ص٩٠، وأمالي القالي ٢/ ٣١٠. قال البكري في سمط اللآلي ٢/ ٩٥٧: الكتد: موصل العنق في الظهر، ومحبوك: مُدمج. اهـ. والحارِك: أعلى الكاهل، وقيل: الحارك منبت أدنى العُرف إلى الظهر الذي يأخذ به الفارس إذا ركب.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٠٦، واستدل عليه ابنُ عباس بالبيت الآتي.

(٥) أخرج الطبري من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما مريج: مختلف. وكذا ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٢٠ دون إسناد.

(٦) البيت لعمرو بن الداخل الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ١٠٣. وفيه: فراغت، بدل: فجالت. قال شارحه: راغت، أي: البقرة، وخرَّ السهم: سقط كأنه خوطٌ، أي غصن. مريج، أي: سهل.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٠ دون ذكر العوفي.

وأصل المَرَج: الاضطراب والقلق. يقال: مَرِجَ أمرُ الناس، ومَرِج الدِّين[١]، وَمرِجَ الخاتم في إصبعي، إذا قَلِقَ من الهزال.

وفي الحديث: «كيف بك يا عبدَ الله إذا كنتَ في قومٍ قد مَرِجَتْ عهودُهم وأماناتُهم، واختلفوا، فكانوا هكذا وهكذا». وشبَّك بين أصابعه. أخرجه أبو داود[٢]، وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[٣].

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبار وتفكُّر، وأنَّ القادرَ على إيجادها قادرٌ على الإعادة. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ فرفعناها بلا عَمَد ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالنجوم ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ جمع فَرْج: وهو الشَّق؛ ومنه قول امرئ القيس:

تَسُدُّ به فَرجَها من دُبُرْ[٤]

وقال الكسائي: ليس فيها تفاوت ولا اختلاف ولا فتوق[٥]. ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ تقدَّم في «الرعد» بيانه[٦]. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي: من كل نوع من النبات ﴿بَهِيجٍ﴾ أي: حَسَنٍ يسرُّ الناظرين. وقد تقدَّم في «الحج» بيانه[٧].

---

(١) في (م): ومرج أمر الدين، والمثبت موافق لغريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٧ والكلام منه.

(٢) في سننه (٤٣٤٢)، (٤٣٤٣)، وسلف ١٣/ ٥٨ .

(٣) ٢/ ٥٥١ .

(٤) ديوان امرئ القيس ص١٦٤ ، وصدره: لها ذنب مثل ذيل العروس.

(٥) مجمع البيان ٢٦/ ١٠٣ .

(٦) ١٢/ ٨ .

(٧) ١٤/ ٣٢٥ .

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ أي: جعلنا ذلك تبصرةً لِنَدُلَّ به على كمال قدرتنا. وقال أبو حاتم: نصب على المصدر؛ يعني: جعلنا ذلك تبصيراً وتنبيهاً على قدرتنا ﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ معطوف عليه.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾: راجعٍ إلى الله تعالى، مفكِّرٍ في قدرته[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من السحاب ﴿مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ أي: كثير البركة. ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ﴾ التقدير: وحبَّ النبت الحصيد، وهو كلُّ ما يُحصد. هذا قول البصريين[(٢)]. وقال الكوفيون: هو من باب إضافة الشيء إلى نفسه، كما يقال: مسجد الجامعِ، وربيعُ الأوّلِ، وحقُّ اليقينِ، وحبل الوريد، ونحوها؛ قاله الفرّاء[(٣)]. والأصل: الحبُّ الحصيد، فحُذفتِ الألف واللام، وأضيف المنعوت إلى النعت.

وقال الضحاك: حبُّ الحصيد: البُرُّ والشَّعيرُ. وقيل: كلُّ حبٍّ يُحْصد ويُدَّخر ويُقتات[(٤)].

﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ﴾ نصب[(٥)] ردًّا[(٦)] على قوله: «وَحَبَّ الحَصِيدِ» و«بَاسِقَاتٍ» حال. والباسقات: الطِّوال؛ قاله مجاهد وعكرمة وقتادة. وقال عبد الله[(٧)] بن شدَّاد: بُسُوقها: استقامتها في الطول[(٨)].

وقال سعيد بن جبير: مستويات[(٩)]. وقال الحسنُ وعكرمة أيضاً والفرَّاء: مواقير

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣ .

(٢) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢١ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣ .

(٣) في معاني القرآن ٣/ ٧٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٤٢ دون نسبة.

(٥) في النسخ: نصب على الحال، ولعل قوله: «على الحال» سبق قلم. والصواب حذفه.

(٦) في (ف): معطوف.

(٧) في (م): قاله مجاهد وعكرمة وقال قتادة وعبد الله . . وهو خطأ، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لتفسير البغوي ٤/ ٢٢١ ، وغيره.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٤١٢ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢١ .

حوامل؛ يقال للشاة: بَسَقَتْ، إذا ولدت[١]، قال الشاعر:

فلما تَركنا الدار ظَلَّتْ[٢] مُنيفةً بِقُرَّانَ فيه الباسقاتُ المَواقِرُ[٣]

والأوّل في اللغة أكثر وأشهر؛ بَسَقَ النخلُ بسُوقاً: إذا طال. قال[٤]:

لنا خمرٌ وليستْ خمرَ كَرْمٍ ولكنْ من نِتاجِ الباسقاتِ

كرامٌ في السماءِ ذَهَبْنَ طُولاً وفاتَ ثمارُها أيدي الجُناةِ

ويقال: بسق فلانٌ على أصحابه، أي: عَلَاهم، وأبسقتِ الناقةُ: إذا وقع في ضَرْعها اللِّبَأ[٥] قبل النِّتاج، فهي مُبْسِق، ونُوقٌ مباسيق.

وقال قطبةُ بنُ مالك: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقرأ: «بَاصِقَاتٍ» بالصاد؛ ذكره الثعلبيّ[٦].

قلت: الذي في صحيح مسلم عن قطبةَ بن مالك قال: صلَّيتُ وصلَّى بنا رسولُ الله ﷺ فقرأ: ﴿قٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ حتى قرأ: ﴿وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ قال: فجعلتُ أردِّدها، ولا أدري ما قال[٧]. إلَّا أنَّه يجوز[٨] إبدالُ الصاد من السين لأجل القاف[٩].

---

(١) في النسخ الخطية: إذا بسقت ولدت، والمثبت من (م). وقول عكرمة في النكت والعيون ٥/ ٣٤٣ بنحوه، وأخرجه عنه الحربي في غريب الحديث ٣/ ١١٢٣ بلفظ: بسوقها كبسوق الشاة عند الولادة. وأخرجه بنحوه عبد بن حميد وابن المنذر ضمن قصة كما في الدر المنثور ٦/ ١٠٢ .

(٢) في (ق): طلَّت.

(٣) البيت للراعي النُّميري، وهو في ديوانه ص١١١ ، فلما تركْنَ الدار قلت منيفة، بقُرَّان منها... وقوله: منيفة، أي: تامة الطول والحُسن، وقُرَّان: قرية باليمامة.

(٤) هو أبو نواس، والبيتان في ديوانه ص١١٨ ، وسلفا ٨/ ١٦٩ .

(٥) في (ظ) و(م): اللبن، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للصحاح (بسق) والكلام منه. واللِّبَأ؛ كعِنَب: أول اللبن في النِّتاج.

(٦) وأخرجه الطبراني في الأوسط (٤٧٩٧)، والصغير (٦٩٠). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٥٦ : فيه عبد الله بن محمد بن صبيح، ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات. اهـ.

وقطبة بن مالك هو الثعلبي، ويقال الذبياني. قال البخاري وابن أبي حاتم: له صحبة. الإصابة ٨/ ١٦٥ .

(٧) صحيح مسلم (٤٥٧)، وأخرجه أحمد (١٨٩٠٣).

(٨) يعني في اللغة، لا في التلاوة، ووقع في (م): لا يجوز!

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٢-٢٨٣ والكشاف ٤/ ٥ .

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلْعُ: هو أوَّلُ ما يخرجُ من ثمر النخل؛ يقال: طَلَع الطَّلْعُ طُلُوعاً، وأَطلعتِ النخلةُ، وطَلعها: كُفُرَّاها[١] قبل أنْ ينشقَّ.

﴿نَّضِيدٌ﴾ أي: متراكبٌ قد نُضِّد بعضُه على بعض. وفي البخاريّ: «النَّضِيدُ»: الكُفُرَّى مادام في أكمامه، ومعناه: منضودٌ بعضُه على بعض؛ فإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد[٢].

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: رزقناهم رزقاً، أو على معنى: أنبتناها رزقاً؛ لأنَّ الإنبات في معنى الرزق، أو على أنَّه مفعولٌ له، أي: أنبتناها لنرزقهم[٣]، والرزقُ: ما كان مهيَّأً للانتفاع به. وقد تقدَّم القول فيه[٤].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ أي: من القبور، أي: كما أحيا الله هذه الأرض الميتةَ؛ فكذلك يخرجكم أحياءً بعد موتكم، فالكاف في محل رفع على الابتداء[٥]. وقد مضى هذا المعنى في غير موضع[٦]. وقال: «مَيْتًا»؛ لأنَّ المقصودُ المكانُ، ولو قال: ميتة، لجاز.

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كما كذَّب هؤلاء، فكذلك كذَّب أولئك فحلَّ بهم العقاب؛ ذكَّرهم نبأَ من كان قبلَهم من المكذِّبين وخوَّفهم ما أخذهم.

---

(١) الكُفُرَّى: هو وعاء طلع النخل. الصحاح (كفر).

(٢) صحيح البخاري قبل الحديث (٤٨٤٨).

(٣) في (م): لرزقهم. والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق للكشاف ٤/ ٥ ، والكلام منه.

(٤) ١/ ٢٧٢ .

(٥) الكشاف ٤/ ٥ .

(٦) ١/ ٣٧٤ .

وقد ذكرنا قصصهم في غير موضع عند ذكرهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ من هذه الأمم المكذبة. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحقَّ عليهم وعيدي وعقابي.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي: أفعيينا به فنعيا بالبعث. وهذا توبيخٌ لمنكري البعث، وجوابُ قولهم: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾. يقال: عَيِيتُ بالأمر، إذا لم تعرف وجهه[١].

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: في حَيْرةٍ من البعث، منهم مصدِّقٌ ومنهم مكذِّب[٢]؛ يقال: لَبس عليه الأمرُ يَلْبِسه لَبْساً.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: الناس، وقيل: آدم[٣]. ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ما يختلج في سرِّه وقلبه وضميره، وفي هذا زجرٌ عن المعاصي التي يُستخفى بها. ومن قال: إنَّ المراد بالإنسان آدم؛ فالذي وسوستْ به نفسُهُ هو الأكلُ من الشجرة، ثم هو عامٌّ لولده. والوسوسةُ: حديثُ النفس بمنزلة الكلام الخفيّ. قال الأعشى:

تَسمع للحَلي وَسواساً إذا انصرفتْ ... كما استعان بريح عِشْرِقٌ زَجِلُ

وقد مضى في «الأعراف»[٤].

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو حبل العاتق وهو ممتدٌّ من ناحية حَلْقِهِ إلى

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٣.

(٢) هذا معنى قول قتادة الذي أخرجه عنه الطبري ٢١/ ٤٢١.

(٣) ينظر المحرر الوجيز ٥/ ١٥٩.

(٤) ٩/ ١٧٥. والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥. وسلف شرحه ثمة.

عاتقه، وهما وريدان عن يمينٍ وشمال. روي معناه عن ابن عباس[١] وغيره، وهو المعروف في اللغة. والحبل: هو الوريد، فأُضيف إلى نفسه؛ لاختلاف اللفظين[٢].

وقال الحسن: الوريد: الوتين وهو عِرقٌ معلَّقٌ بالقلب[٣]. وهذا تمثيل للقرب؛ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده الذي هو منه، وليس على وجه قرب المسافة.

وقيل: أي: ونحن أَملك به من حبل وريده مع استيلائه عليه. وقيل: أي: ونحن أعلمُ بما توسوس به نفسه[٤] من حبل وريده الذي هو من نفسه؛ لأنَّه عِرقٌ يخالط القلب، فَعِلْمُ الربِّ أقربُ إليه من علم القلب، روي معناه عن مقاتل قال: الوريد عِرْقٌ يخالطُ القلب. وهذا القربُ قرب العلم والقدرة، وأبعاضُ الإنسان يَحجبُ البعضُ البعضَ، ولا يحجبُ علمَ الله شيء[٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: نحن أقربُ إليه من حبل وريده حين يتلقَّى المتلقيان، وهما الملكان الموكَّلان به[٦]، أي: نحن أعلم بأحواله؛ فلا نحتاج إلى مَلَكٍ يخبر، ولكنهما وَكِّلا به إلزاماً للحُجَّة، وتوكيداً للأمر عليه.

وقال الحسن ومجاهد وقتادة: «المُتَلَقِّيَانِ»: ملَكان يتلقيان عملك؛ أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك. قال الحسن: حتى إذا متَّ طُوِيت صحيفةُ عملك، وقيل لك يوم القيامة: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤] عَدَلَ واللهِ عليك من جعلك حسيبَ نفسك[٧].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٢) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٢١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٤٦.

(٤) بعدها في (ظ): وأقرب إليه، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٤٦- ٣٤٧، والكلام منه.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٦) زاد المسير ٨/ ٩.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

وقال مجاهد: وكَّل الله بالإنسان ـ مع علمه بأحوالِهِ ـ مَلَكين بالليل، ومَلَكين بالنهار يحفظانِ عمله، ويكتبان أثره إلزاماً للحجة؛ أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾[١].

وقال سفيان: بلغني أنَّ كاتبَ الحسنات أمينٌ[٢] على كاتب السيئات، فإذا أذنب العبد[٣] قال: لا تعجل لعلَّه يستغفر الله.

وروي معناه من حديث أبي أمامة؛ قال: قال النبيُّ ﷺ: «كاتبُ الحسنات على يمين الرجل، وكاتبُ السيئات على يسار الرجل[٤]، وكاتبُ الحسنات أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا عَمِلَ حسنةً؛ كتبها صاحبُ اليمين عشراً، وإذا عَمِلَ سيئةً، قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال: دَعْهُ سبعَ ساعاتٍ لعله يَسبِّح أو يستغفر»[٥].

وروي من حديث عليٍّ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ مقعدَ مَلَكَيك على ثَنِيَّتك، لسانُك قلمهما، ورِيقُك مِدَادُهما، وأنت تجري فيما لا يعنيك، فلا تستحي من الله ولا منهما»[٦].

وقال الضحاك: مجلسهما تحت الشعر[٧] على الحنك. ورواه عوف عن الحسن

(١) أخرجه الطبري بنحوه مختصراً ٢١/ ٤٢٥ .

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٤٢٦ ـ والقول مخرجٌ فيه ـ: أمير.

(٣) قوله: العبد، من (ف) و(م).

(٤) في (م): على يساره.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧٩٧١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨ : وفيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب. اهـ. ورواه الطبراني في المعجم الكبير أيضاً (٧٧٦٥) بنحوه وضعفه العراقي في تخريج أحاديث الإحياء ٤/ ١٤٨-١٤٩ .

(٦) قال الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩ الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطأة بن الأشعث العدوي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «مقعد ملكيك» فذكره. اهـ. وأرطاة بن أشعث؛ قال الذهبي في ميزان الاعتدال ١/ ١٧٠ : هالك.

(٧) في (م): الثغر.

قال: وكان الحسن يُعجبه أن ينظف عَنْفَقته[١].

وإنما قال: «قَعِيدٌ» ولم يقل: قعيدان، وهما اثنان؛ لأنَّ المراد عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد، فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه. قاله سيبويه[٢]؛ ومنه قول الشاعر:

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عِندكَ راضٍ والرّأيُ مختلفُ[٣]

وقال الفرزدق:

إنِّي ضَمِنتُ لمن أتاني ما جنى وأَبَى فكان وكنتُ غيرَ غدورِ[٤]

ولم يقل: راضيان ولا غدورين.

ومذهب المبرِّد: أنَّ الذي في التلاوة أوَّلٌ، أُخِّرَ اتِّساعاً، وحذف الثاني لدلالة الأوَّل عليه. ومذهب الأخفش والفرَّاء: أنَّ الذي في التلاوة يؤدِّي عن الاثنين والجمع، ولا حذف في الكلام[٥].

و«قَعِيدٌ» بمعنى قاعد، كالسميع والعليم والقدير والشهيد. وقيل: «قَعِيدٌ» بمعنى مُقَاعد، مثل أكيل ونديم بمعنى مُؤَاكل ومُنَادم[٦].

وقال الجوهريُّ: وفَعيلٌ وفَعولٌ؛ ممَّا يستوي فيه الواحد والاثنان والجمع؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦] وقوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤][٧]. وقال الشاعر في الجمع، أنشده الثعلبي:

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٢) ينظر الكتاب ١/ ٧٥-٧٦، وإعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٢٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٣.

(٣) البيت لقيس بن الخطيم كما نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٧٥. وسلف ١٠/ ١٨٨.

(٤) الكتاب ١/ ٧٦، ولم نقف عليه في ديوان الفرزدق.

(٥) معاني القرآن للأخفش ٢/ ٦٩٦، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٧٧، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤.

(٦) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤١٨.

(٧) الصحاح (قعد).

أَلِـكْـنـي إلـيـهـا وخـيـرُ الـرَّسـو لِ أعـلَـمُـهُـمْ بـنـواحـي الـخـبـرْ[١]

والمراد بالقعيد هاهنا: الملازمُ الثابت، لا ضدُّ القائم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: ما يتكلَّم بشيءٍ إلَّا كُتب عليه؛ مأخوذٌ من لفظ الطعام، وهو إخراجُه من الفم.

وفي الرقيب ثلاثةُ أوجه: أحدها: أنَّه المتَّبعُ[٣] للأمور. الثاني: أنَّه الحافظ؛ قاله السُّدِّي. الثالث: أنَّه الشاهد؛ قاله الضَّحَّاك.

وفي العتيد وجهان: أحدهما: أنَّه الحاضرُ الذي لا يغيب. الثاني: أنَّه الحافظُ المُعَدُّ إمَّا للحفظ وإمَّا للشهادة[٤].

قال الجوهري[٥]: العتيدُ الشيء الحاضر المُهَيَّأ؛ وقد عَتَّدَه تعتيداً، وأعْتَدَه إعْتَاداً، أي: أعدَّه ليوم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [يوسف: ٣١]، وفرسٌ عَتَدٌ وَعَتِدٌ؛ بفتح التاء وكسرها: المُعَدُّ للجري.

قلت: وكلُّه يرجع إلى معنى الحضور، ومنه قول الشاعر:

لئِن كُـنـتَ منِّي في الـعِـيـان مُـغَـيَّـبـاً فـذِكْـرُكَ عـنـدي فـي الـفـؤادِ عَـتـيـدُ[٦]

قال أبو الجوزاء ومجاهد: يُكتبُ على الإنسان كلُّ شيءٍ حتى الأنينُ في مرضه[٧]. وقال عكرمة: لا يُكتب عليه[٨] إلَّا ما يُؤجر به أو يُؤزر عليه[٩]. وقيل:

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ١/ ١٤٦، وقوله: أَلِكْني إليها، أي: كُنْ رسولي إليها. وسلف ١٦/ ١٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

(٣) في (ف): المنيع، وفي النكت والعيون ـ والكلام منه ـ: المتتبع.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧.

(٥) في الصحاح (عتد).

(٦) لم نقف عليه.

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠.

(٨) لفظة: عليه. ليست في (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٢.

يُكتب عليه كلُّ ما يتكلَّم به، فإذا كان آخر النهار مُحيَ عنه ما كان مباحاً، نحو: انطلِق، اقعد، كُلْ، مما لا يتعلَّق به أجرٌ ولا وِزر[١]، والله أعلم.

وروي عن أبي هريرة وأنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ما من حافظَين يرفعان إلى الله ما حفظا، فيرى اللهُ في أوَّل الصحيفة خيراً، وفي آخرها خيراً، إلَّا قال الله تعالى لملائكته: اشهدوا أنِّي قد غفرتُ لعبدي ما بين طَرَفي الصحيفة»[٢].

وقال عليٌّ ﷺ: إنَّ لله ملائكةً معهم صحفٌ بيض، فأَمْلُوا في أوَّلها وفي آخرها خيراً، يُغفر لكم ما بين ذلك[٣].

وأخرج أبو نعيم الحافظ قال: حدَّثنا أبو طاهر محمد بن الفضل بن محمد بن إسحاق بن خزيمة، قال: حدّثنا جَدِّي محمد بن إسحاق، قال: حدَّثنا محمد بن موسى الحَرَشيُّ، قال: حدَّثنا سهيل بن عبد الله، قال: سمعتُ الأعمشَ يحدِّث عن زيد بن وهب عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الحافظَين إذا نزلا على العبد أو الأمَة، معهما كتابٌ مختوم، فيكتبان ما يلفظ به العبدُ أو الأمة، فإذا أرادا أنْ ينهضا، قال أحدُهما للآخر: فُكَّ الكتاب المختومَ الذي معك، فيفكُّه له، فإذا فيه ما كتب سواء، فذلك قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾» غريبٌ من حديث الأعمش عن زيد، لم يروه عنه إلَّا سهيل[٤].

وروي من حديث أنس أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «إنَّ الله وكَّل بعبده مَلَكين يكتبان عمله، فإذا مات قالا: ربنا قد مات فلانٌ، فأْذَنْ لنا أنْ نصعد إلى السماء، فيقولُ الله تعالى: إنَّ سماواتي مملوءةٌ من ملائكتي يسبِّحونني، فيقولان: ربنا نقيمُ في الأرض،

---

(١) ذكر نحو هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٠ عن الحسن وقتادة.

(٢) أخرجه عن أنس الترمذي (٩٨١). وفي إسناده تمام بن نجيح، وهو ضعيف. وقال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٤٥ : هذا حديثٌ لا يصح، قال ابن حبان: تمام يروي أشياء موضوعة عن الثقات، كأنه المتعمد لها.

(٣) ذكر نحوه الإمام السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٦ . وعزاه للطبري.

(٤) حلية الأولياء ٤/ ١٧٣، ٥/ ٥٧ .

فيقولُ الله تعالى: إنَّ أرضي مملوءةٌ من خلقي يسبِّحونني، فيقولان: يارِبِّ، فأين نكون؟ فيقولُ الله تعالى: قوما[١] على قبر عبدي، فكبِّراني وهلِّلاني وسبِّحاني[٢]، واكتبا ذلك لعبدي إلى يوم القيامة»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: غمرتُه وشدَّتُه؛ فالإنسانُ مادام حيًّا تُكتَبُ عليه أقواله وأفعاله، ليُحاسَبَ عليها، ثم يجيئُهُ الموت، وهو ما يراه عند المعاينة من ظهور الحقِّ فيما كان الله تعالى وعدَه وأوعده. وقيل: الحقُّ هو الموت، سُمِّي حقًّا؛ إمَّا لاستحقاقه، وإمَّا لانتقاله إلى دار الحقّ، فعلى هذا يكون في الكلام تقديمٌ وتأخير، وتقديره: وجاءت سكرةُ الحقِّ بالموت[٤]، وكذلك في قراءة أبي بكر وابن مسعود رضي الله عنهما[٥]؛ لأنَّ السَّكرة هي الحقّ، فأُضيفتْ إلى نفسها لاختلاف اللفظين.

وقيل: يجوز أنْ يكون الحقُّ على هذه القراءة هو الله تعالى؛ أي: جاءت سكرةُ أمر الله تعالى بالموت. وقيل: الحقُّ هو الموتُ، والمعنى وجاءت سكرةُ الموت بالموت[٦]؛ ذكره المهدويُّ.

وقد زعم من طعن على القرآن فقال: أُخالفُ المصحفَ كما خالفه[٧] أبو بكر

(١) في (م): كونا.

(٢) في (ف) و(ق): واذكراني، وفي (ظ): وسبحاني واذكراني.

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٥٠٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٩٩٣١). وفي إسناده عثمان بن مطر. قال ابن الجوزي في الموضوعات ٤/ ٩٧ : وهذا لا يصح، وقد اتفقوا على تضعيف عثمان بن مطر، وقال ابن حبان: يروي الموضوعات عن الإثبات، لا يحلُّ الاحتجاج به.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٧-٣٤٨ .

(٥) القراءات الشاذة ص١٤٤ ، والمحتسب ٢/ ٢٨٣ عن أبي بكر ﷺ، وهي عن ابن مسعود في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٤٨ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٥ .

(٧) في (م): خالف.

الصدِّيقُ، فقرأ: وجاءت سكرة الحقِّ بالموت. فاحتجَّ عليه بأنَّ أبا بكر رُويت عنه روايتان: إحداهما موافقةٌ للمصحف، فعليها العمل، والأخرى مرفوضةٌ، تجري مَجرى النسيان منه إنْ كان قالها، أو الغلط من بعض من نَقَل الحديث.

قال أبو بكر الأنباريّ: حدَّثنا إسماعيل بن إسحاق القاضي، حدَّثنا علي بن عبد الله، حدَّثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن مسروق قال: لما احتُضِرَ أبو بكرٍ أرسلَ إلى عائشةَ، فلما دخلتْ عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

إذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاقَ بها الصَّدْرُ[(١)]

فقال لها أبو بكر: هلَّا قُلتِ كما قال الله: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وذكر الحديث[(٢)]. والسَّكْرة واحدة السَّكَرات.

وفي الصحيح عن عائشة أنَّ رسول الله ﷺ كانت بين يديه رَكوةٌ - أو عُلْبةٌ - فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء، فيمسحُ بهما وجهه ويقول: «لا إله إلَّا الله، إنَّ للموت سكرات». ثم نصب يده فجعل يقول: «في الرفيق الأعلى» حتى قُبض ومالتْ يده. خرَّجه البخاري[(٣)].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ العبدَ الصالح لَيُعالجُ الموتَ وسكراته، وإنَّ مفاصله لَيُسلِّمُ بعضُها على بعض، تقول: السَّلامُ عليك، تفارقني وأفارقُك إلى يوم القيامة»[(٤)].

---

(١) هو عجز بيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص٥٠، وفيه: النفس. بدل: يوماً. وصدره: أماويَّ ما يغني الثراء عن الفتى

والحشرجة: هي الغرغرة عند الموت وتردد النفَس. الصحاح (حشرج).

(٢) وأخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٣/ ١٩٥، وأحمد في الزهد ص١٣٦ من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله البهي مولى الزبير عن عائشة رضي الله عنها.

(٣) في صحيحه (٤٤٤٩)، وسلف ٧/ ٤٠٨.

(٤) لم نقف عليه.

وقال عيسى ابن مريم: يا معشر الحواريين، ادعوا الله أن يهوِّن عليكم هذه السَّكْرة. يعني: سَكَرات الموت.

وروي: إنَّ الموتَ أشدُّ مَن ضربٍ بالسيوف، ونشرٍ بالمناشير، وقرضٍ بالمقاريض[١].

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: يقال لمن جاءته سكرةُ الموت: ذلك ما كنتَ تفرُّ منه، وتميلُ عنه. يقال: حادَ عن الشيء يَحيدُ حُيُوداً وحَيْدَة وحَيْدُودَةً: مال عنه وعَدَل، وأصلُه: حَيَدَودة بتحريك الياء فسكنت؛ لأنَّه ليس في الكلام فَعْلُولٌ غير صَعْفُوق[٢]. وتقولُ في الإخبار عن نفسك: حِدْتُ عن الشيء أَحِيد حَيْداً ومَحِيداً: إذا ملتَ عنه[٣]؛ قال طَرَفة:

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فَهِبتَهُ وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ[٤]

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ هي النفخةُ الآخرة للبعث ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾: الذي وعده الله للكفار أنْ يعذِّبهم فيه. وقد مضى الكلام في النفخ في الصور مستوفًى. والحمد لله[٥].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ اختُلِف في السائق والشهيد؛ فقال ابن عباس: السائقُ من الملائكة، والشهيدُ من نفسه. وقال الضَّحَّاك: السائقُ من

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ٤١٦ من قول شداد بن أوس.

(٢) الصحاح (حيد)، والصَّعفُوق اللئيم.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.

(٤) سلف ١٣/ ٣١٢.

(٥) ٨/ ٤٣٠-٤٣١.

الملائكة، والشهيدُ[١] من أنفسهم؛ الأيدي والأرجل[٢]؛ رواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣].

وقال أبو هريرة: السائقُ: الملَك، والشهيدُ: العمل[٤].

وقال الحسن وقتادة: المعنى: سائقٌ يسوقها، وشاهدٌ يشهدُ عليها بعملها[٥].

وقال ابنُ مسلم: السائقُ قرينها من الشياطين؛ سُمِّي سائقاً؛ لأنَّه يتبعُها وإنْ لم يحثَّها[٦].

وقال مجاهد: السائقُ والشهيدُ ملَكان[٧].

وعن عثمان بن عفان ﷺ أنَّه قال وهو على المنبر: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾؛ سائقٌ: مَلَكٌ يسوقُها إلى أمر الله، وشهيدٌ: ملكٌ[٨]يشهدُ عليها بعملها[٩].

قلت: هذا أصحُّ؛ فإنَّ في حديث جابر بن عبد الله قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ابنَ آدم لفي غفلة ممَّا[١٠] خلقَه الله عزَّ وجلَّ له، إنَّ الله لا إله غيرُه إذا أراد خَلْقَهُ قال للملَك: اكتبْ رزقَه وأثرَه وأجلَه، واكتب[١١] شقيًّا أو سعيداً، ثم يرتفعُ ذلك المَلَك، ويَبعثُ الله ملكا آخر فيحفظه حتى يُدْرِك، ثم يبعث الله ملكين يكتبان

(١) من قوله: من نفسه. إلى هذا الموضع ساقط من (م).

(٢) أخرج القولين الطبريُّ ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦١ .

(٥) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٤٣٠-٤٣١ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ١٣ دون نسبة.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٠ .

(٨) لفظة: ملك. ليست في (م).

(٩) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٢٩ .

(١٠) في (م): عما.

(١١) في (م): واكتبه.

حسناتِه وسيئاتِه، فإذا جاءه الموتُ ارتفعَ ذلك الملَكان، ثم جاءَه[١] ملك الموت عليه السلام فيقبِضُ روحَه، فإذا أُدْخِل حفرتَه ردَّ الروح في جسده، ثم يرتفعُ ملك الموت، ثم جاءه ملَكا القبر فامتحناه، ثم يرتفعان، فإذا قامت الساعة انحطَّ عليه ملَك الحسنات وملَك السيئات، فأنشطا كتاباً معقوداً في عنقه، ثم حضرا معه، واحد سائقٌ، والآخر شهيد، ثم قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾. قال رسول الله ﷺ: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩] قال: «حالاً بعد حال»، ثم قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ قُدَّامكم أمراً عظيماً، فاستعينوا بالله العظيم».

خرَّجه أبو نعيم الحافظ من حديث [أبي] جعفر محمد[٢] بن علي، عن جابر. وقال فيه هذا حديثٌ غريبٌ من حديث [أبي] جعفر، وحديثُ جابرٍ تفرَّد به عنه جابر الْجُعفيُّ وعنه المفضَّل[٣].

ثم في الآية قولان: أحدُهما: أنَّها عامةٌ في المسلم والكافر؛ وهو قول الجمهور. الثاني: أنَّها خاصةٌ في الكافر؛ قاله الضحاك[٤].

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ قال ابنُ زيد: المراد به النبيُّ ﷺ؛ أي: لقد كنتَ يا محمدُ في غفلةٍ من الرسالة في قريش في جاهليتهم[٥].

وقال ابن عباس والضحاك: إنَّ المرادَ به المشركون، أي: كانوا في غفلةٍ من عواقب أمورهم[٦]. وقال أكثر المفسرين: إنَّ المرادَ به البرُّ والفاجر. وهو

---

(١) في (م): جاء.

(٢) في النسخ: من حديث جعفر بن محمد بن علي. وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٩٠، وأخرجه أيضاً أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ٣٦١ والدر المنثور ٦/ ١٠٦. قال ابن كثير: هذا حديث منكر، وإسناده فيه ضعفاء، ولكن معناه صحيح.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٣٤، وضعَّفه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٢.

(٦) أخرجه عن ابن عباس الطبريُّ ٢١/ ٤٣٤.

اختيار الطبري[١].

وقيل: أي لقد كنتَ أيُّها الإنسان في غفلةٍ عن أنَّ كلَّ نفسٍ معها سائقٌ وشهيد؛ لأنَّ هذا لا يُعرف إلا بالنصوص الإلهية[٢].

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: عَمَاك؛ وفيه أربعة أوجه: أحدها: إذا كان في بطن أمه فوُلد؛ قاله السدِّيّ. الثاني: إذا كان في القبر فنُشر. وهذا معنى قول ابن عباس. الثالث: وقت العَرْض في القيامة؛ قاله مجاهد. الرابع: أنه نزول الوحي وتحمُّل الرسالة. وهذا معنى قول ابن زيد[٣].

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ قيل: يراد به بصرُ القلب، كما يقال: هو بصيرٌ بالفقه؛ فبصرُ القلب وبصيرته تبصرتُه شواهدَ الأفكار ونتائج الاعتبار، كما تُبصر العين ما قابلها من الأشخاص والأجسام. وقيل: المراد به بصرُ العين وهو الظاهر[٤]، أي: بصر عينك اليوم حديد، أي: قويٌّ نافذٌ يرى ما كان محجوباً عنك.

قال مجاهد: ﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ يعني: نظرك إلى لسان ميزانك حين توزن سيئاتك وحسناتك[٥]. وقاله الضَّحَّاك.

وقيل: يعاينُ ما يصيرُ إليه من ثواب وعقاب. وهو معنى قول ابن عباس[٦]. وقيل: يعني أنَّ الكافر يُحشر وبصره حديد، ثم يزرقُّ ويَعْمَى. وقُرِئ: «لَقَدْ كُنْتِ»، «عَنْكِ»، «فَبَصَرُكِ»؛ بالكسر على خطاب النفس[٧].

---

(١) في تفسيره ٢١/ ٤٣٣ . واختاره أيضاً ابن عطية في المحرر ٥/ ١٦٢ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٤٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣ ، وزاد المسير ٨/ ١٤ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ .

(٧) القراءات الشاذة ص١٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ يعني: المَلَك الموكَّل به في قول الحسن وقتادة والضَّحَّاك[١]. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: هذا ما عندي من كتابة[٢] عمله مُعَدٌّ محفوظ. وقال مجاهد: يقول: هذا الذي وكَّلتني به من بني آدم قد أَحضرتُه، وأَحضرتُ ديوان عمله[٣]. وقيل: المعنى: هذا ما عندي من العذاب حاضر.

وعن مجاهد أيضاً: قرينه الذي قُيِّض له من الشياطين[٤]. وقال ابنُ زيد في رواية ابن وهب عنه: إنَّه قرينُه من الإنس[٥].

فيقول الله تعالى لقرينه: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ قال الخليلُ والأخفش: هذا كلامُ العرب الصحيح[٦]؛ أنْ تُخاطب الواحد بلفظ الاثنين فتقول: ويلك ارحَلاها وازجُراها، وخُذاه وأطلقاه؛ للواحد.

قال الفرَّاء[٧]: تقول للواحد: قُوما عنَّا، وأصلُ ذلك أنَّ أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان، فجرى كلامُ الرجل على صاحبيه، ومنه قولُهم للواحد في الشعر: خليليَّ[٨]، ثم يقول: يا صاح. قال امرؤ القيس:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠ دون ذكر الضحاك.
(٢) في (ظ): كتاب.
(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣.
(٤) تفسير مجاهد ٢/ ٦١١.
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٠.
(٦) في (م): الفصيح.
(٧) في معاني القرآن ٣/ ٧٨.
(٨) الكلام بنحوه في تفسير البغوي ٤/ ٢٢٣-٢٢٤.

خَلِيلَيَّ مُرَّا بي على أُمِّ جُنْدَبِ نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ(١)

وقال أيضاً:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكْرى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ بِسَقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ(٢)

وقال آخر:

فإنْ تَزْجُراني يا ابنَ عَفَّانَ أنْزَجِرْ وإنْ تَدَعانِي(٣) أحْمِ عِرْضًا مُمنَّعَا(٤)

وقيل: جاء كذلك؛ لأنَّ القرين يقع للجماعة والاثنين. وقال المازنيُّ: قوله: «أَلْقِيَا» يدلُّ على أَلْقِ أَلْقِ(٥).

وقال المبرد: هي تثنيةٌ على التوكيد، المعنى: أَلْقِ أَلْقِ، فناب «أَلْقِيَا» مناب التكرار(٦).

ويجوز أن يكون «أَلْقِيَا» تثنيةً على خطاب الحقيقة من قول الله تعالى يخاطبُ به الملَكين. وقيل: هو مخاطبةٌ للسائق والحافظ(٧).

وقيل: إنَّ الأصل: أَلْقِيَنْ؛ بالنون الخفيفة؛ تُقلب في الوقف ألفاً؛ فَحُمِل الوصلُ على الوقف(٨). وقرأ الحسنُ: «أَلْقِيَنْ» بالنون الخفيفة(٩)، نحو قوله: ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢] وقوله: ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾ [العلق: ١٥].

﴿كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: معاند؛ قاله مجاهد وعكرمة(١٠). وقال بعضهم: العنيدُ:

---

(١) ديوان امرئ القيس ص٤١ . واللبانات. جمع لُبانة، وهي الحاجة.

(٢) ديوان امرئ القيس ص٨ ، وسلف ١٠/ ٣٦٤ .

(٣) في النسخ الخطية: تدعواني، والمثبت من المصادر.

(٤) البيت في معاني القرآن للفراء ٣/ ٧٨ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٣٧ .

(٥) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٢٨ ، وينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٤ .

(٦) ينظر الكشاف ٤/ ٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٣ ، والقول الأخير اختاره الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٤٥ .

(٨) الكشاف للزمخشري ٤/ ٨ .

(٩) المحتسب ٢/ ٢٨٤ .

(١٠) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

المعرض عن الحق. يقال: عَنَد يَعنِد ـ بالكسر ـ عُنُوداً، أي: خالف وردَّ الحقَّ وهو يعرفه، فهو عَنِيد وعانِد، وجمع العَنِيد عُنُد[١]، مثل: رغِيف ورُغُف.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يعني: الزكاة المفروضة، وكلَّ حقٍّ واجب[٢].

﴿مُعْتَدٍ﴾ في منطقه وسيرته وأمره، ظالم، ﴿مُّرِيبٍ﴾: شاكٌّ في التوحيد؛ قاله الحسن وقتادة[٣]. يقال: أراب الرجلُ فهو مُرِيب: إذا جاء بالريبة[٤]؛ وهو المشرك[٥]. يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة. وأراد بقوله: «مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ» أنَّه كان يمنعُ بني أخيه من الإسلام[٦].

﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ تأكيدٌ للأمر الأول.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ يعني: الشيطان الذي قُيِّضَ لهذا الكافر العنيد؛ تبرَّأ منه وكذَّبه.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ وكان طاغياً باختياره، وإنما دعوتُهُ فاستجابَ لي. وقرينُه هنا هو شيطانُه بغير اختلاف. حكاه المهدويُّ.

وحكى الثعلبيُّ: قال ابنُ عباس ومقاتل: قرينُه المَلَك؛ وذلك أنَّ الوليدَ بن المغيرة يقول للملَك الذي كان يكتب سيئاته: ربِّ إنَّه أعجلني، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما أعجلتُه. وقال سعيد بن جبير: يقول الكافر: ربِّ إنَّه زاد عليَّ في الكتابة، فيقول الملَك: ربَّنا ما أطغيتُه، أي: ما زدتُ عليه في الكتابة؛ فحينئذٍ يقولُ

(١) الصحاح (عند).

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٣) أخرجه عن قتادة الطبري ٢١/ ٤٣٩ .

(٤) الصحاح (ريب).

(٥) في (ظ): وهذا للمشرك، وفي (ق): وهذا المشرك.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ ، ونسبه للضحاك.

الله تعالى: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ يعني: الكافرين وقرناءهم من الشياطين[١]. قال القشيريّ: وهذا يدلُّ على أنَّ القرينَ الشيطان.

﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ أي: أرسلتُ الرسل. وقيل: هذا خطابٌ لكلِّ من اختصم. وقيل: هو للاثنين، وجاء بلفظ الجمع.

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ قيل: هو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقيل: هو قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. وقال الفرَّاء[٢]. ما يكذَّب عندي، أي: ما يُزَاد في القول ولا يُنْقَص؛ لعلمي بالغيب.

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي: ما أنا بمعذِّبٍ من لم يُجرم؛ قاله ابنُ عباس[٣]. وقد مضى القولُ في معناه في «الحج» وغيرها[٤].

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾ قرأ نافع وأبو بكر: «يَوْمَ يَقُولُ» بالياء اعتباراً بقوله: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾. الباقون بالنون على الخطاب من الله تعالى[٥]، وهي نون التعظيم[٦]. وقرأ الحسن: «يَوْمَ أَقُولُ». وعن ابن مسعود

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٧٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٢ .

(٤) ١٤/ ٣٢٩ ، وعند تفسير الآية ٤٦ من سورة فصلت.

(٥) السبعة ص٦٠٧ ، والتيسير ص٢٠٢ .

(٦) في (م): العظمة.

وغيره: «يَوْمَ يُقَالُ»[١]. وانتصب «يَوْم» على معنى: ما يبدَّل القولُ لديَّ يومَ. وقيل: بفعلٍ مقدَّرٍ معناه: وأنذرهم يومَ نَقُولُ لِجهنَّمَ هل امتلأْتِ[٢]، لِما سبقَ من وعده إيَّاها أنَّه يملؤها. وهذا الاستفهام على سبيل التصديق لخبره، والتحقيق لوعده[٣]، والتقريع لأعدائه، والتنبيه لجميع عباده.

«وتَقُولُ» جهنم: «هَلْ مِنْ مَزِيدٍ» أي: ما بقي فيَّ موضعٌ للزيادة؛ كقوله عليه الصلاة والسلام: «هل تَرَكَ لنا عَقِيلٌ من رَبْعٍ أو منزل»[٤] أي: ما ترك؛ فمعنى الكلام: الجحد. ويحتمل أن يكون استفهاماً بمعنى الاستزادة[٥]؛ أي: هل من مزيد فأُزاد[٦]؟ وإنَّما صَلَح هذا للوجهين[٧]؛ لأنَّ في الاستفهام ضرباً من الجَحد.

وقيل: ليس ثَمَّ قولٌ، وإنَّما هو على طريق المثل، أي: إنَّها فيما يَظهرُ من حالها، بمنزلة الناطقة بذلك؛ كما قال الشاعر:

امتلأَ الحوضُ وقال قَطْني مَهْلاً رويداً قد ملأتَ بطني[٨]

وهذا تفسيرُ مجاهد وغيره؛ أي: هل فيَّ من مسلك، قد امتلأت[٩]. وقيل: يُنطِقُ الله النار حتى تقول هذا؛ كما تنطق الجوارح. وهذا أصحُّ على ما بيَّنَّاه في سورة الفرقان[١٠].

---

(١) قراءة ابن مسعود في المحتسب ٢/ ٢٨٤، وزاد نسبتها فيه للأعمش والحسن.

(٢) ينظر معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٥٨) من حديث أسامة بن زيد ﷺ، وعقيل هو ابن أبي طالب.

(٥) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٢٤، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٥.

(٦) في (م) فأزداد.

(٧) في (ظ) هذين الوجهين.

(٨) البيت في الصحاح (قطط)، وسلف ٢/ ٢٥٥.

(٩) تفسير مجاهد ٢/ ٦١٢.

(١٠) ١٥/ ٣٧٨.

وفي صحيح البخاري ومسلم والترمذي[(١)] عن أنس بن مالك، عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ ربُّ العزة فيها قَدَمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ[(٢)]، بعزَّتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فَضلٌ، حتى يُنشئَ الله لها خَلقاً، فيُسكِنَهُم فَضْلَ الجنة» لفظ مسلم.

وفي رواية أخرى من حديث أبي هريرة: «وأمَّا النَّار فلا تمتلئ حتى يضعَ الله عليها رِجْله تقول[(٣)]: قَطْ قَطْ. فهنالَك تمتلئ. ويُزوى[(٤)] بعضُها إلى بعض، فلا يظلمُ الله من خلقه أحداً، وأما الجنة فإنَّ الله ينشئُ لها خلقاً»[(٥)].

قال علماؤنا رحمهم الله: أما معنى القدم هنا[(٦)]: قومٌ يقدِّمهم الله إلى النار، قد سبق في علمه أنَّهم من أهل النار. وكذلك الرِّجل؛ وهو العددُ الكثير من الناس وغيرهم؛ يقال: رأيتُ رِجْلاً من النَّاس، ورِجْلاً من جَراد[(٧)]، قال الشاعر:

فمرَّ بنا رِجْلٌ من النَّاس وانْزَوَى ... إليهم من الحيِّ اليمانينَ أرْجُلُ

قبائلُ من لَخْمٍ وعُكْلٍ وحِمْيَرٍ ... على ابْنَيْ نِزارٍ بالعَدَاوة أحْفَلُ[(٨)]

ويبَيِّنُ هذا المعنى ما روي عن ابن مسعود أنَّه قال: ما في النار بيتٌ، ولا

(١) صحيح البخاري (٧٣٨٤)، وصحيح مسلم (٢٨٤٨): (٣٨)، وسنن الترمذي (٣٢٧٢)، وهو عند أحمد (١٣٤٥٧)، وسلف عند تفسير الآيتين (٤٩ - ٥٠) من سورة الشورى.

(٢) قط بمعنى حسب، فهي مبنيةٌ على السكون، وقد تكسر، وتلحقها نون الوقاية إذا أضيفت، وتقال: بالدال، ويصحُّ فيها ما يصحُّ في الطاء. المفهم ٧/ ١٩٦.

(٣) في (م) و(ظ): يقول لها، والمثبت من (ف) و(ق) وهو الموافق للمصادر.

(٤) في (م) و(ظ) وينزوي.

(٥) أخرجه أحمد (٨١٦٤)، والبخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٤٦): (٣٦). وفي البخاري ومسلم تكرار لفظة: قط. ثلاث مرات.

(٦) بعدها في (م) لفظة: فهم.

(٧) ينظر مشكل الحديث لابن فورك ص١٢٦، ١٣٠.

(٨) ذكر البيت الأول منهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦.

سلسلةٌ، ولا مِقمَع، ولا تابوت، إلا وعليه اسمُ صاحبه، فكلٌّ واحدٍ من الخزنة ينتظرُ صاحبَه الذي قد عرفَ اسمه وصفته، فإذا استوفى كلُّ واحدٍ منهم ما أُمر[1] به وما ينتظره، ولم يبقَ منهم أحد، قال الخَزَنةُ: قَطْ قَطْ، حسبُنا حسبُنا، أي: اكتفينا اكتفينا، وحينئذٍ تنزوي جهنمُ على من فيها وتنطبق، إذ لم يبق أحدٌ ينتظر. فعبَّر عن ذلك الجمع المنتظر بالرِّجل والقَدَم؛ ويشهدُ لهذا التأويل قولُه في نفس الحديث[2]: «ولا يزالُ في الجنَّة فضلٌ حتى ينشئَ اللهُ لها خلقاً، فيسكنَهم فضل الجنة».

وقد زدنا هذا المعنى بياناً ومهَّدناه في كتاب الأسماء والصفات من الكتاب الأسنى، والحمدُ لله.

وقال النضرُ بن شُمَيل في معنى قوله عليه الصلاة والسلام: «حتى يَضَع الجبَّار فيها قَدمَهُ» أي: مَن سَبَقَ في علمه أنَّه من أهل النار.

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ أي: قُرِّبت منهم. وقيل: هذا قبل الدخول في الدنيا؛ أي: قُرِّبت من قلوبهم، حين قيل لهم: اجتنبوا المعاصي. وقيل: بعد الدخول؛ قُرِّبتْ لهم مواضعُهم فيها فلا تبعد. «غَيْرَ بَعِيدٍ» أي: منهم، وهذا تأكيد.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: ويُقال لهم: هذا الجزاء الذي وُعِدتم في الدنيا على ألسنة الرسل.

وقراءة العامة: «تُوعَدُونَ»، بالتاء على الخطاب. وقرأ ابنُ كثير بالياء على الخبر[3]؛ لأنَّه أتى بعد ذكر المتقين.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أوَّاب، أي: رَجَّاع إلى الله عن المعاصي، يذنب[4] ثم يرجع، ويذنب ثم يرجع، هكذا قاله الضَّحَّاكُ وغيره. وقال ابنُ عباس وعطاء:

---

(١) في (ظ): فإذا استوفى ما أمر، وفي (ف) و(ق): فإذا استوفى منهم ما أمر. والمثبت من (م)، وهو الموافق للمفهم ٧/ ١٩٥-١٩٦ . والكلام منه.

(٢) يعني حديثَ أنس ﷺ السالف قريباً.

(٣) التيسير ص٢٠٢ .

(٤) قوله: يذنب. ليس في (م).

الأوَّابُ المسبِّح؛ من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾[١] [سبأ: ١٠]. وقال الحَكَم بن عُتيبة: هو الذاكرُ لله تعالى في الخلوة. وقال الشعبيُّ ومجاهد: هو الذي يذكر ذنوبَه في الخلوة، فيستغفر الله منها[٢]. وهو قول ابن مسعود. وقال عُبيد بن عُمير: هو الذي لا يجلس مجلساً حتى يستغفر الله تعالى فيه[٣]. وعنه قال: كنا نحدَّث أنَّ الأوَّاب الحفيظ الذي إذا قام من مجلسه قال: سبحان الله وبحمده، اللهم إني أستغفرك مما أصبتُ في مجلسي هذا[٤].

وفي الحديث: «من قال إذا قام من مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، غفر الله له ما كان في ذلك المجلس»[٥]. وهكذا كان النبيُّ ﷺ يقول.

وقال بعض العلماء: أنا أُحبُّ أن أقول: أستغفرك وأسألك التوبة، ولا أحبُّ أنْ أقول: وأتوبُ إليك، إلا على حقيقته.

قلت: هذا استحسان، واتِّباعُ الحديث أولى.

وقال أبو بكر الورَّاق: هو المتوكِّل على الله في السرَّاء والضرَّاء. وقال القاسم: هو الذي لا يَشتغلُ إلَّا بالله عزَّ وجلَّ.

﴿حَفِيظٌ﴾ قال ابن عباس: هو الذي حفظ ذنوبه حتى رجع[٦] عنها. وقال قتادة: حفيظٌ لِمَا استودَعه الله من حقِّه ونعمته وأُتَمنه عليه[٧].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/١٦٦ ، وقول ابن عباس أخرجه الطبري ٢١/ ٤٥٠ .
(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/ ٤٥٠-٤٥١.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٣ .
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦ .
(٥) أخرجه أحمد (١٠٤١٥)، والترمذي (٣٤٣٣)، والنسائي في الكبرى (١٠١٥٧) من حديث أبي هريرة. وسيرد ص٥٤٢ من هذا الجزء.
(٦) في (م): يرجع.
(٧) تفسير الطبري ٢١/ ٤٥٢ .

وعن ابن عباس أيضاً: هو الحافظُ لأمر الله(١).

مجاهد: هو الحافظ لِحقِّ الله تعالى بالاعتراف، ولنعمه بالشكر.

قال الضَّحَّاك: هو الحافظُ لوصيَّة الله تعالى بالقبول.

وروى مكحولٌ عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من حافظ على أربعِ ركعاتٍ من أوَّل النهار، كان أوَّاباً حفيظاً» ذكره الماوردي(٢).

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ «مَنْ» في محل خفضٍ على البدل من قوله: «لِكُلِّ أوَّابٍ»، أو في موضع الصفة لـ «أوّابٍ». ويجوزُ الرفع على الاستئناف، والخبر «ادْخُلُوها» على تقدير حذف جواب الشرط، والتقدير فيقال لهم: «ادْخُلُوهَا»(٣). والخشية بالغيب أن تخافه ولم تره. وقال الضحاك والسُّدِّي: يعني في الخلوة حين لا يراه أحد. وقال الحسن: إذا أرخى السترَ وأغلق الباب(٤).

﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾: مقبلٍ على الطاعة. وقيل: مخلص. وقال أبو بكر الورَّاق: علامةُ المنيب أنْ يكون عارفاً لحرمته، موالياً له، متواضعاً لجلاله، تاركاً لهوى نفسه.

قلت: ويحتمل أنْ يكون القلبُ المنيبُ القلبَ السليم؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩] على ما تقدَّم؛ والله أعلم.

﴿ٱدْخُلُوهَا﴾ أي: يقال لأهل هذه الصفات: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ أي: بسلامةٍ من العذاب. وقيل: بسلامٍ من الله وملائكته عليهم. وقيل: بسلامةٍ من زوال النِّعم(٥).

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٣-٣٥٤، ومكحول لم يسمع من أبي هريرة كما ذكر ابن حجر في تهذيب التهذيب ٤/ ١٤٩ عن البزار.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٥/ ٢٣٠-٢٣١، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٥.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٥.

وقال: «ادْخُلُوهَا» وفي أوَّل الكلام: «مَنْ خَشِيَ»؛ لأنَّ «مَنْ» تكون بمعنى الجمع.

قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ يعني: ما تشتهي[1] أنفسهم وتلذُّ أعينهم. ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ من النعم ممَّا لم يخطر على بالهم. وقال أنس وجابر: المزيدُ: النظر إلى وجه الله تعالى بلا كيف[2].

وقد ورد ذلك في أخبار مرفوعةٍ إلى النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «الزيادةُ النظر إلى وجه الله الكريم»[3].

وذكر ابن المبارك ويحيى بن سلام قالا: أخبرنا المسعوديُّ، عن المنهال بن عمرو، عن أبي عبيدة بن عبد الله بن عتبة عن ابن مسعود قال: تسارعوا إلى الجمعة، فإنَّ الله تبارك وتعالى يَبرزُ لأهل الجنَّة كلَّ يوم جمعة، في كثيبٍ من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب. قال ابنُ المبارك: على قدر تسارعهم إلى الجمعة في الدنيا. وقال يحيى بن سلام: كمسارعتهم[4] إلى الجمعة[5] في الدنيا، وزاد: «فيحدثُ الله لهم من الكرامة شيئاً لم يكونوا رأوه قبل ذلك»[6].

قال يحيى: وسمعت غيرَ المسعودي يزيد فيه: وهو[7] قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

---

(١) في (م) و(ف) و(ق): تشتهيه. والمثبت من (ظ) والنكت والعيون ٥/ ٣٥٤. والكلام منه.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٦.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ ابن عدي في الكامل ٣/ ١١٧٣، وفيه سَلْم بن سالم البلخي، وهو ضعيف، ونوح ابن أبي مريم، وهو كذاب. ويغني عنه حديث صهيب ﷺ عند مسلم (١٨١): «إذا دخل أهل الجنة الجنة...» وفي آخره: «فيكشف الحجاب. فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» وسلف الحديثان ١٠/ ٤٨٢-٤٨٣.

(٤) في (م) و(ق): لمسارعتهم. ولم تجود في (ف).

(٥) في النسخ عدا (ق): الجمع.

(٦) هو عند ابن المبارك في الزهد (٤٣٦ ـ زوائد نعيم). وأخرجه أيضاً الطبراني في المعجم الكبير (٩١٦٩) وأبو نعيم في صفة الجنة (٣٩٦) من قول عبد الله بن عتبة. قال ابن فورك في مشكل الحديث: تفرد به المنهال بن عمرو وهو ضعيف. اهـ. قلنا والمسعودي اختلط بأخرة. الميزان ٢/ ٥٧٤.

(٧) لفظة: وهو. ليست في (ف) و(م).

قلت: قوله: «في كَثِيب» يريدُ أهلَ الجنَّة، أي: وهُم على كثيب؛ كما في مرسل الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أهلَ الجنة ينظرون إلى ربِّهم في كلِّ يوم جمعة، على كَثِيبٍ من كافور» الحديث. وقد ذكرناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

وقيل: إنَّ المزيدَ ما يزوَّجون به من الحور العين؛ رواه أبو سعيد الخدريّ مرفوعاً[(٢)].

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ أي: كم أهلكنا يا محمد قبل قومك من أمَّةٍ هم أشدُّ منهم بطشاً وقوّة. ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: ساروا فيها طلباً للمهرب[(٣)]. وقيل: أثَّروا في البلاد؛ قاله ابنُ عباس. وقال مجاهد: ضربوا وطافوا[(٤)]. وقال النضر ابن شميل: دَوَّروا.

وقال قتادة: طَوَّفوا[(٥)]. وقال المؤرِّج: تباعدوا؛ ومنه قول امرئ القيس[(٦)]:

وقد نَقَّبْتُ في الآفاق حَتَّى … رَضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

ثم قيل: طافوا في أقاصي البلاد طلباً للتجارات، وهل وجدوا من الموت محيصاً؟ وقيل: طوَّفوا في البلاد يلتمسون مَحيصاً من الموت. قال الحارث بن حِلِّزة:

(١) ص٤٩٧-٤٩٨.

(٢) وأخرجه أحمد (١١٧١٥) مطولاً.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) أخرج قولي ابن عباس ومجاهد الطبريُّ ٢١/ ٤٦٠.

(٥) ينظر النكت والعيون ٥/ ٣٥٥.

(٦) ديوانه ص٩٩، وسلف ٥/ ٥٧.

نَـقَّـبـوا فـي الـبـلاد مـن حَـذَرِ الـمـو ت وجـالـوا فـي الأرض كُـلَّ مـجـالِ[١]

وقرأ الحسنُ وأبو العالية: «فَنَقَبُوا» بفتح القاف وتخفيفها[٢]. والنَّقْب: هو الخرقُ والدخول في الشيء. وقيل: النقْبُ الطريقُ في الجبل، وكذلك المَنْقَبُ والمَنْقَبة؛ عن ابن السكِّيت. ونَقَبَ الجدارَ نَقْباً، واسم تلك النَّقْبة نَقْبٌ أيضاً[٣]، وجمع النَّقْب النُّقُوب، أي: خرقوا البلاد وساروا في نُقوبها. وقيل: أَثَّروا فيها كتأثير الحديد فيما ينقُب.

وقرأ السُّلَميُّ ويحيى بن يَعْمَر: «فَنَقِّبُوا» بكسر القاف والتشديد على الأمر[٤]؛ للتهديد[٥] والوعيد، أي: طَوِّفوا البلادَ وسيروا فيها فانظروا هَل مِن الموت مَحِيصٌ أو مهرب؟[٦] ذكره الثعلبي.

وحكى القشيريُّ: «فَنَقِبُوا» بكسر القاف مع التخفيف[٧]، أي: أَكثَروا السيرَ فيها، حتى نَقِبت دوابُّهم.

الجوهريّ: ونَقِب البعيرُ بالكسر: إذا رَقَّتْ أخفافُه، وأنقبَ الرجلُ، إذا نَقِبَ بعيرُه، ونَقِبَ الخُفُّ الملبوسُ، أي: تخرَّق[٨].

والمَحِيصُ مصدرُ حاص عنه يَحِيص حَيْصاً، وحُيوصًا، ومَحِيصاً، ومَحاصاً، وحَيَصاناً، أي: عَدلَ وحَادَ. يقال: ما عنه مَحِيص، أي: مَحِيدٌ ومَهْرَبٌ. والانحياصُ

---

(١) ذكره الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٧.

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص١٤٤ لابن عباس وعبيد عن أبي عمرو.

(٣) الصحاح (نقب).

(٤) ذكرها ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٥ عن يحيى بن يعمر.

(٥) في (ظ) و(م): بالتهديد.

(٦) في (ظ) و(م): ومهرب.

(٧) وذكرها الزمخشري في الكشاف ٤/ ١١.

(٨) الصحاح (نقب).

مثله؛ يقال للأولياء: حاصوا عن العدوّ، وللأعداء انهزموا[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي: فيما ذكرناه في هذه السورة تذكرةٌ وموعظةٌ ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: عقلٌ يتدبَّر به؛ فكنَى بالقلب عن العقل؛ لأنَّه موضِعه؛ قال معناه مجاهدٌ وغيره. وقيل: لمن كان له حياةٌ ونفسٌ مميِّزةٌ، فعبَّر عن النفس الحيَّة بالقلب؛ لأنَّه وطَنُها ومعدِنُ حياتها؛ كما قال امرؤ القيس[٢]:

أغَرَّكِ مِنِّي أنَّ حُبَّكِ قاتلي ... وأنَّكِ مهما تأمُري القلبَ يفعلِ

وفي التنزيل: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

وقال يحيى بن معاذ: القلبُ قلبان؛ قلبٌ محتشٍ بأشغال الدنيا، حتى إذا حضر أمرٌ من الأمور الآخرة، لم يَدْرِ ما يصنع، وقلبٌ قد احتشى بأهوال الآخرة، حتى إذا حضر أمرٌ من أمور الدنيا، لم يَدْرِ ما يصنع، لذهاب قلبه في الآخرة.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ أي: استمعَ القرآن. تقول العرب: ألقِ إليَّ سمعك، أي: استمع[٣]. وقد مضى في «طه» كيفية الاستماع وثمرته[٤].

﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهد القلب؛ قال الزَّجَّاج[٥]: أي: قلبه حاضرٌ فيما يسمع. وقال سفيان: أي: لا يكون حاضراً وقلبه غائب[٦].

ثم قيل: الآية لأهل الكتاب؛ قاله مجاهد وقتادة. وقال الحسن: إنَّها في اليهود والنصارى خاصة. وقال محمد بن كعب وأبو صالح: إنَّها في أهل القرآن خاصَّة[٧].

---

(١) الصحاح (حيص).

(٢) في ديوانه ص١٣، والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٤٩.

(٤) ١٤/ ٢٦.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٤٩.

(٦) تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٤ بنحوه.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦ دون ذكر مجاهد.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ تقدَّم في «الأعراف»[١] وغيرها. واللُّغوبُ: التعبُ والإعياء، تقول منه: لَغَب يَلْغُب بالضم لُغوباً، ولَغِب بالكسر يَلْغَب لُغوباً، لغةٌ ضعيفةٌ فيه. وألغبته أنا، أي: أنصبته[٢].

قال قتادة والكلبي: هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أنَّ الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، أوّلها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت؛ فجعلوه راحةً، فأكذبهم الله تعالى في ذلك[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ خطابٌ للنبيِّ ﷺ؛ أمرَه بالصبر على ما يقوله المشركون، أي: هَوِّنْ أمرَهم عليك. ونزلت قبل الأمر بالقتال؛ فهي منسوخة. وقيل: هو ثابتٌ للنبيِّ ﷺ وأمته. وقيل: معناه: فاصبر على ما يقوله اليهود من قولهم: إنَّ الله استراح يوم السبت[٤].

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ قيل: إنه أراد به الصلواتِ الخمس. قال أبو صالح: قبل طلوع الشمس: صلاةُ الصبح، وقبل الغروب: صلاة العصر. ورواه جرير بن عبد الله مرفوعاً[٥]؛ قال: كنا جلوساً عند النبيِّ ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلةَ البدر، فقال: «أمَا إنكم سترون ربَّكم كما ترون هذا

(١) ٩/ ٢٣٧-٢٣٨.

(٢) الصحاح (لغب).

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٥٦.

(٤) ينظر الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٠-٢١، والكشاف ٤/ ١٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٦٨.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

القمر، لا تُضامُّون في رؤيته، فإن استطعتم ألَّا تُغلَبوا على صلاةٍ قبل طلوع الشمس وقبل غروبها» يعني: العصر والفجر، ثم قرأ جرير: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. متفق عليه، واللفظ لمسلم(١).

وقال ابن عباس: ﴿قَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ يعني: صلاة العشاءين(٢).

وقيل: المراد تسبيحُه بالقول تنزيهاً قبل طلوع الشمس وقبل الغروب؛ قاله عطاء الخُراسانيُّ وأبو الأحوص(٣).

وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ قال: ركعتي الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ الركعتين قبل المغرب(٤).

وقال ثُمامة بن عبد الله بنِ أنس(٥): كان ذوو الألباب من أصحاب محمدٍ ﷺ يُصلُّون الركعتين قبل المغرب.

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال: كنا بالمدينة، فإذا أذَّن المؤذن لصلاة المغرب، ابتدروا السَّواريَ فركعوا ركعتين، حتى إنَّ الرجل الغريبَ ليدخلُ المسجدَ فيحسب أنَّ الصلاةَ قد صُلِّيت مِن كثرة من يصلِّيهما(٦).

وقال قتادة: ما أدركتُ أحداً يُصلِّي الركعتينِ قبل المغرب(٧) إلَّا أنسًا وأبا بَرْزَة الأسلمي.

---

(١) صحيح البخاري (٥٥٤)، وصحيح مسلم (٦٣٣). وسلف ٤/ ١٨٠ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٨ .

(٣) ذكره عن أبي الأحوص الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٥٧ .

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ .

(٥) ابن مالك الأنصاري، روى عن جده أنس بن مالك والبراء بن عازب رضي الله عنهما، وكان من العلماء الصادقين، ولي قضاء البصرة، وكان يقول: صحبت جدي ثلاثين سنة. السير ٥/ ٢٠٤ . والأثر أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٣٩٨٢).

(٦) صحيح مسلم (٨٣٧)، والقطعة الأولى منه عند أحمد (١٣٩٨٣)، والبخاري (٥٠٣) (٦٢٥).

(٧) قوله: قبل المغرب ليس في (م)، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز ٥/ ١٦٩ ، والكلام منه.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ فيه أربعة أقوال: الأول: هو تسبيح الله تعالى في الليل، قاله أبو الأحوص. الثاني: أنها صلاة الليل كلِّه، قاله مجاهد. الثالث: أنها ركعتا الفجر، قاله ابن عباس. الرابع: أنها صلاة العشاء الآخِرة، قاله ابن زيد[١].

قال ابن العربي: مَن قال: إنه التسبيح في الليل، فيعضده الصحيح: «مَنْ تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله[٢]». وأما مَن قال: إنها الصلاة بالليل، فإنَّ الصلاةَ تسمَّى تسبيحاً لِمَا فيها من تسبيح الله، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وأما مَن قال: إنها صلاةُ الفجر والعشاء، فلأنَّهما من صلاة الليل، والعشاءُ أوضحه.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر وعليٌّ وأبو هريرة والحسن بن عليٍّ والحسن البصريُّ والنَّخَعيُّ والشعبيُّ والأوزاعيُّ والزُّهريُّ: أدبار السجود الركعتان بعد المغرب، وأدبار النجوم الركعتان قبل الفجر، ورواه العوفيُّ عن ابن عباس[٣]، وقد رفعه ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «ركعتان بعد المغرب أدبارُ السجود» ذكره الثعلبي. ولفظ الماوردي: وروي عن ابن عباس قال: بِتُّ ليلةً عند النبيِّ ﷺ، فصلَّى ركعتين قبل الفجر، ثم خرج إلى الصلاة فقال: «يا ابن عباس، ركعتان قبل الفجر أدبار النجوم، وركعتان بعد المغرب أدبار السجود»[٤].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٢) بعدها في (ف) و(م): العلي العظيم. وتمام الحديث كما في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٥: كفر عنه وغفر له. وبنحوه أخرجه أحمد (٢٢٦٧٣)، والبخاري (١١٥٤) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ. وسيرد ص٥٤٣ من هذا الجزء.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٢٧، وينظر تفسير الطبري ٢١/ ٤٦٩-٤٧٢، ٦٠٨-٦١٠، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٢-٢٣٣، والنكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧، وأخرجه الترمذي (٣٢٧٥)، وسيرد ص٥٤٦ من هذا الجزء.

وقال أنس: قال النبيُّ ﷺ: «مَن صلَّى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلَّم، كتبت صلاتُه في عِلِّيين»(١). قال أنس: فقرأ في الركعة الأولى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال مقاتل: ووقتها ما لم يَغب الشفقُ الأحمر(٢).

وعن ابن عباس أيضاً: هو الوتر(٣). وقال ابن زيد: هو النوافل بعد الصلوات(٤)، ركعتان بعد كلِّ صلاةٍ مكتوبة، قال النَّحاس: والظاهرُ يدلُّ على هذا، إلَّا أنَّ الأَولى اتِّباع الأكثر، وهو صحيحٌ عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ(٥).

وقال أبو الأحوص: هو التسبيحُ في أدبار السجود. قال ابن العربي: وهو الأقوى في النظر. وفي صحيح الحديث: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول في دُبُر الصلاة المكتوبة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيءٍ قدير، اللهمَّ لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطيَ لما منعتَ، ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ»(٦).

وقيل: إنه منسوخٌ بالفرائض، فلا يجبُ على أحدٍ إلَّا خمسُ صلوات، نَقَلَ ذلك الجماعة(٧).

الخامسة: قرأ نافعٌ وابن كثير وحمزة: «وَإِدْبَارَ السُّجُودِ» بكسر الهمزة على المصدر، مِن: أدبر الشيءُ إدباراً: إذا وَلَّى. الباقون بفتحها، جمع دُبُر(٨). وهي قراءة

(١) أخرجه الدارقطني في غرائب مالك وقال: هذا موضوع، قاله الحافظ ابن حجر في الكافي الشاف ص١٥٩، وقال في اللسان ٢/ ٢٤٨: خبر باطل.

(٢) قوله: الأحمر، من (م).

(٣) الكشاف ٤/ ١٢.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٥٧.

(٥) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٣-٢٤.

(٦) أحكام القرآن ٤/ ١٧١٦، والحديث أخرجه أحمد (١٨١٣٩)، والبخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣) عن المغيرة بن شعبة ﷺ.

(٧) الناسخ والمنسوخ ٣/ ٢٤.

(٨) السبعة ص٦٠٧، والتيسير ص٢٠٢.

عليٍّ وابنِ عباس، ومثالُها: طُنُب وأطناب، أو دُبْر، كَقُفْل وأقفال. وقد استعملوه ظرفاً، نحو: جئتك في دبر الصلاة، وفي أدبار الصلاة.

ولا خلاف في آخر «والطُّورِ»: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ [الآية:٤٩] أنه بالكسر مصدر[١]، وهو ذهاب ضوئها إذا طلع الفجر الثاني، وهو البياض المنشقُّ من سواد الليل.

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًاۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ مفعول الاستماع محذوف؛ أي: استمع النداء أو الصوت أو الصيحة، وهي صيحةُ القيامة، وهي النفخة الثانية، والمنادي جبريل. وقيل: إسرافيل.

الزمخشري[٢]: وقيل: إسرافيلُ ينفخ، وجبريلُ ينادي، فينادي بالحشر ويقول: هَلُمُّوا إلى الحساب، فالنداء على هذا في المحشر. وقيل: واستمع نداءَ الكفار بالويل والثُّبور من مكان قريب، أي: يسمعُ الجميع فلا يَبْعُدُ أحدٌ عن ذلك النداء. قال عكرمة: ينادي منادي الرحمن، فكأنَّما ينادي في آذانهم. وقيل: المكانُ القريب: صخرةُ بيت المقدس. ويقال: إنَّها وسطُ الأرض، وأقرب الأرض من السماء باثني عشر ميلاً. وقال كعب: بثمانية عشر ميلاً، وذكر الأوَّلَ القشيريُّ والزمخشري[٢]، والثانيَ الماوردي[٣]. فيقف جبريل أو إسرافيل على الصخرة، فينادي بالحشر: أيتها العظامُ البالية، والأوصالُ المتقطِّعة، ويا عظاماً نخرة، ويا أكفاناً فانية، ويا قلوباً خاوية، ويا أبداناً فاسدة، ويا عيوناً سائلة، قوموا لعرض ربِّ العالمين. قال قتادة:

---

(١) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٣ .

(٢) في الكشاف ٤/ ١٢ .

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٥ .

هو إسرافيل صاحب الصُّور.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: صيحةَ البعث. ومعنى «الخُرُوج» الاجتماعُ إلى الحساب. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ أي: يوم الخروج من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾: نميتُ الأحياءَ ونحيي الموتى؛ أثبت هنا الحقيقة.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ إلى المنادي صاحب الصُّور؛ إلى بيت المقدس ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هيِّن سهل. وقرأ الكوفيون: «تَشَقَّقُ» بتخفيف الشين على حذف التاء الأولى. الباقون بإدغام التاء في الشين. وأثبت ابن محيصن وابن كثير ويعقوب ياء «المنادي» في الحالين على الأصل، وأثبتها نافعٌ وأبو عمرو في الوصل لا غير، وحذفَ الباقون في الحالين[(١)].

قلت: وقد زادت السنَّة هذه الآية بياناً، فروى الترمذيُّ[(٢)] عن معاوية بن حَيْدة، عن النبيِّ ﷺ في حديث ذَكره، قال: وأشار بيده إلى الشام فقال: «هاهنا إلى هاهنا تحشرون ركباناً ومشاةً، وتُجرُّون على وجوهكم يوم القيامة؛ على أفواهكم الفِدَام، تُوفُون سبعين أمة، أنتم خيرُهم وأكرمهم على الله، وإنَّ أوَّلَ ما يُعْرِب عن أحدكم فَخِذُه»[(٣)] في رواية أخرى[(٤)]: «فَخِذُه وكفُّه».

وخرَّج عليُّ بن معبد عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ في حديثٍ ذَكَره: ثم يقول ـ يعني الله تعالى ـ لإسرافيل: «انفخْ نفخةَ البعث، فينفخُ، فتخرجُ الأرواحُ كأمثال

---

(١) السبعة ص٦٠٧، والتيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦. ووافق الكوفيين في تخفيف الشين من قوله: «تشقق» أبو عمرو البصري من السبعة.

(٢) في (ق): المهدوي.

(٣) أخرجه الترمذي مفرقاً (٢٤٢٤)، (٣٠٠١)، (٣١٤٣). وأخرجه بلفظ المصنف النسائي في الكبرى (١١٣٦٧)، وأخرجه أحمد (٢٠٠١١) بنحوه. والفدام: ما يشد على فم الإبريق والكوز من خرقة لتصفية الشراب الذي فيه، أي أنهم يمنعون الكلام بأفواههم حتى تتكلم جوارحهم. النهاية (فدم). وسلف عند تفسير الآية (٦٥) من سورة يس.

(٤) أخرجها أحمد (٢٠٠٤٣).

النحل، قد ملأت ما بين السماء والأرض، فيقول الله عزَّ وجلَّ: وعزَّتي وجلالي لَيَرجعنَّ كلُّ رُوحٍ إلى جسده، فتدخل الأرواح في الأرض إلى الأجساد، ثم تدخلُ في الخياشيم، فتمشي في الأجساد مشيَ السُّمِّ في اللَّديغ، ثم تنشقُّ الأرضُ عنكم، وأنا أوَّلُ مَن تنشقُّ عنه الأرض، فتخرجون منها شباباً كلُّكم أبناء ثلاثٍ وثلاثين، واللسانُ يومئذٍ بالسُّريانيَّة» وذَكَر الحديث[1]، وقد ذكرنا جميع هذا وغيرَه في «التذكرة»[2] مستوفى، والحمدُ لله.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي: من تكذيبك وشتمك ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: بمسلَّط تُجْبرهم على الإسلام؛ فتكون الآية منسوخةً بالأمر بالقتال[3].

والجبَّار من الجبريَّة والتسلُّط، إذ لا يقال جبَّارٌ بمعنى مُجبِر، كما لا يقال: خرَّاج بمعنى مُخرِج؛ حكاه القشيري.

النحاس[4]: وقيل: معنى جبَّار: لست تُجبِرهم، وهو خطأ؛ لأنه لا يكون فَعَّال مِن أفعل. وحكى الثعلبيّ: وقال ثعلب: قد جاءت أحرف: فَعَّال بمعنى مُفعِل، وهي شاذَّة، جبَّار بمعنى مُجبِر، ودرَّاك بمعنى مُدرِك، وسَرَّاع بمعنى مُسرِع، وبَكَّاء بمعنى مُبكٍ، وعدَّاء بمعنى مُعدٍ. وقد قُرئ: «وما أهديكم إلا سبيلَ الرَّشَّاد»[5] [غافر:٢٩] بتشديد الشين بمعنى المرشد، وهو موسى.

وقيل: هو الله عزَّ وجلَّ[6].

---

(١) لم نقف على رواية علي بن معبد، وأخرجه الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٦ المعجم الكبير ٢٥/٢٦٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٣٨٨) عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة. وأخرجه البيهقي في البعث والنشور (٦٦٩) عن محمد بن كعب القرظي، عن رجل من الأنصار، عن أبي هريرة ﷺ. قال ابن كثير في تفسير سورة الأنعام الآية (٧٣): هذا حديث مشهور، وهو غريب جداً.

(٢) ص٢٠٢، ٢٠٧ فما بعد.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٢، وزاد المسير ٨/ ٢٦.

(٤) في إعراب القرآن ٤/ ٢٣٤.

(٥) هي قراءة معاذ بن جبل ﷺ كما في القراءات الشاذة ص١٣٢.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٥٨: يعني بربّ، قاله الضحاك؛ لأن الجبار هو الله تعالى سلطانه.

وكذلك قرئ: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَّاكِينَ» [الكهف: ٧٩] يعني: ممسكين. وقال أبو حامد الخارْزَنجيّ: تقول العرب: سيف سَقَّاط بمعنى مُسقِط.

وقيل: «بِجَبَّارٍ»: بمسيطر كما في الغاشية: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الآية: ٢٢].

وقال الفرَّاء[١]: سمعتُ من العرب مَن يقول: جَبَره على الأمر، أي: قهره، فالجبَّار من هذه اللغة بمعنى القهر صحيح. وقيل: الجبَّار من قولهم: جبرته على الأمر، أي: أجبرته. وهي لغة كنانية، وهما لغتان.

الجوهري[٢]: وأجبرته على الأمر: أكرهته عليه، وأجبرته ـ أيضاً ـ نسبته إلى الجبر، كما تقول: أكفرتُه، إذا نسبتَه إلى الكفر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ قال ابن عباس: قالوا: يا رسول الله، لو خوَّفتنا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي: ما أعددتُه لمن عصاني من العذاب[٣]؛ فالوعيد العذاب، والوعد الثواب، قال الشاعر[٤]:

وإنِّـيَ إن[٥] أوْعَـدْتُـهُ أو وَعَـدْتُـهُ لَـمُـخْـلِـفُ إيعـادي ومُـنـجـزُ مـوعـدي

وكان قتادةُ يقول: اللَّهمَّ اجعلْنا ممن يخافُ وعيدَكَ ويرجو موعدَكَ[٦].

وأثبت الياءَ في «وَعِيدِي» يعقوبُ في الحالين، وأثبتها ورشٌ في الوصلِ دون الوقف، وحذفَ الباقون في الحالين[٧]. والله أعلم.

تَّم تفسيرُ سورة «ق» والحمدُ لله.

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٨١.
(٢) في الصحاح (جبر).
(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٧٨.
(٤) هو عامر بن الطفيل، والبيت في ديوانه ص٥٨.
(٥) المثبت من (ق)، وهو الموافق للديوان وفي غير (ق): وإن. وسلف ٥/ ٤٧٨.
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٥٩.
(٧) التيسير ص٢٠٢، والنشر ٢/ ٣٧٦.

سورة الذاريات

مكِّيةٌ في قول الجميع[1]، وهي سِتُّون آية[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ قال أبو بكر الأنباري: حدَّثنا عبد الله بن ناجية، حدَّثنا يعقوب بن إبراهيم، حدَّثنا مكّيّ بن إبراهيم، حدَّثنا الجُعَيد بن عبد الرحمن، عن يزيد بن خُصَيفة، عن السائب بن يزيد: أنَّ رجلاً قال لعمر ﷺ: إني مررت برجل يسأل عن تفسير مُشْكِلِ القرآن، فقال عمر: اللهم أَمكِنِّي منه. فدخل الرجل على عمر يوماً وهو لابسٌ ثياباً وعِمامة، وعمرُ يقرأ القرآن، فلما فرغ، قام إليه الرجل فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقام عمر، فحسر عن ذراعيه وجعل يَجلده، ثم قال: ألبسوه ثيابه واحمِلوه على قَتَب، وابلغوا به حَيَّه، ثم ليقم خطيباً فليقل: إن صَبِيغاً طَلَبَ العلم فأخطأه. فلم يزل وضيعاً في قومه بعد أن كان سيِّداً فيهم[3].

وعن عامر بن واثلة: أنَّ ابن الكوَّاءِ سأل عليّاً ﷺ فقال: يا أمير المؤمنين، ما «الذَّارِيَاتِ ذَرْواً»، فقال له: ويلَك! سَلْ تَفَقُّهاً، ولا تسأل تَعَنُّتاً؛ «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً»: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً»: السَّحاب، «فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً»: السُّفُن، «فَالْمُقَسِّمَاتِ أمراً»: الملائكة[4].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ١٧١، وزاد المسير ٨/ ٢٧.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٣، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨، والكشاف ٤/ ١٣.

(٣) ذكره ابن حجر في الإصابة ٥/ ١٦٩. وقد سلف من وجه آخر ٥/ ٢٣ - ٢٤.

(٤) سلف ١/ ٦١ بنحوه.

وروى الحارث عن عليٍّ ﷺ: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» قال: الرياح، «فَالْحَامِلَاتِ وِقْراً» قال: السحاب تَحمِل الماء كما تحمل ذواتُ الأربع الوِقْر، «فَالْجارِيَاتِ يُسْراً» قال: السفن، وقوله[١]: «فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً» قال: الملائكة تأتي بأمرٍ مختلف؛ جبريلُ بالغلظة، وميكائيلُ صاحب الرحمة، ومَلَكُ الموت يأتي بالموت. وقاله[٢] الفراء.

وقيل: تأتي بأمر مختلف من الخِصب والجَدْب والمطر والموت والحوادث.

ويقال: ذَرَتِ الرِّيحُ الترابَ تَذْرُوه ذَرْواً، وتَذْرِيه ذَرْياً[٣].

ثم قيل: «وَالذَّارِيَاتِ» وما بعده أقسام، وإذا أَقسمَ الربُّ بشيءٍ أثبتَ له شرفاً. وقيل: المعنى: وربِّ الذارياتِ[٤]، والجواب: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ أي: الذي توعدونه من الخير والشرِّ والثوابِ والعقاب ﴿لَصَادِقٌ﴾: لا كَذِبَ فيه؛ ومعنى «لَصَادِقٌ»: لَصِدْق، وقع الاسمُ موقعَ المصدر. ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ يعني: الجزاءُ نازلٌ بكم. ثم ابتدأ قَسَماً آخرَ فقال: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ. إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ».

وقيل: إنّ الذارياتِ النساءُ الوَلودات؛ لأن في ترائبهنَّ[٥] ذَرْوَ الخَلْق؛ لأنهنَّ يَذرين الأولاد، فصِرنَ ذاريات، وأَقسمَ بهنَّ لِمَا في ترائبهنَّ مِن خِيرَةِ عبادِه الصالحين. وخصَّ النساءَ بذلك دون الرجال وإنْ كان كلٌّ واحدٍ منهما ذارياً؛ لأمرين: أحدهما: لأنهن أوعيةٌ دون الرجال، فلاجتماع الذَّرْوَيْن فيهنَّ خُصِّصنَ بالذِّكر. الثاني: أنَّ الذَّرْوَ فيهنَّ أطولُ زماناً[٦]، وهنَّ بالمباشرة أقربُ عهداً.

---

(١) في (ز): وقراءة، بدل: وقوله، وفي (م): موقرة. والمثبت من باقي النسخ.

(٢) في (ز) و(م): وقال. وكلام الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٢ دون نسبة.

(٣) في (ف) و(ق): وأذرته تذريه ذرياً، وفي (ظ): وأذرته تذريه وذرياً، وفي (ز): وأذرته ذرياً، والمثبت من (م). وقد قال الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥١ : ذرت الريح وأذرت، بمعنى واحد وبنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٤٧٩ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٥ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٨ ، وزاد المسير ٨/ ٢٧ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥١ ، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٥ .

(٥) في (ظ) و(م): ذرايتهن، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦٠ ، والكلام منه.

(٦) في (ز) و(ف): لطول زمان، وفي (ظ) و(ق): أطول زمان. والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون ٥/ ٣٦١ .

﴿فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾: السحاب. وقيل: الحاملات من النساء إذا ثَقُلْنَ بالحَمل. والوِقْر، بكسر الواو: ثقل الحِمل على ظهر أو في بطن[١]، يقال: جاء يحمل وِقْرَه، وقد أَوْقَرَ بعيرَه. وأكثرُ ما يستعمل الوِقْرُ في حِمْل البغلِ والحمار، والوَسْقُ في حِمْل البعير. وهذه امرأةٌ مُوقَرة ـ بفتح القاف ـ إذا حملت حَمْلاً ثقيلاً. وأوقرت النخلة: كَثُرَ حَمْلُها؛ يقال: نخلةٌ موقِرة ومُوقِر ومُوقَرة، وحُكي: مُوقَر، وهو على غير القياس، لأن الفعل [ليس] للنخلة. وإنما قيل: مُوقِر ـ بكسر القاف ـ على [قياس] قولِك: امرأةٌ حامل، لأن حمل الشجر مشَبَّهٌ بحمل النساء؛ فأما مُوقَر ـ بالفتح ـ فشاذّ، وقد روي في قول لبيدٍ يصف نخيلاً:

عُـصَـبٌ كَـوارِعُ فـي خـلـيـجِ مُـحَـلِّـمٍ حَـمَـلَـتْ فـمـنـهـا مُـوقَـرٌ مَـكْـمُـومُ

والجمع: مَوَاقِر. فأما الوَقْر ـ بالفتح ـ فهو ثقل الأذن، وقد وَقِرَت أُذُنُه تَوْقَر وَقْراً، أي: صَمَّت، وقياسُ مصدرِه التحريك، إلَّا أنه جاء بالتسكين[٢]. وقد تقدَّم في «الأنعام» القولُ فيه[٣].

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: السفن تجري بالرياح يُسراً إلى حيث سُيِّرت. وقيل: السحاب؛ وفي جريها يُسْراً على هذا القول وجهان: أحدهما: إلى حيث يسيِّرها اللهُ تعالى من البلاد والبقاع. الثاني: هو سهولة تسييرها؛ وذلك معروفٌ عند العرب، كما قال الأعشى:

كـأنَّ مِـشْـيَـتَـهـا مِـنْ بـيـتِ جـارتـهـا مَشْيُ السَّحَابةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ[٤]

---

(١) المصدر السابق.

(٢) الصحاح (وقر) وما بين حاصرتين منه، والبيت في شرح ديوان لبيد ص١٢٠، والرواية فيه: نخل كوارع... قال شارحه: شبه الظعائن بالنخل. كوارع: أراد اللواتي في الماء. محلِّم: نهر بالبحرين، وخليجه ما اختلج منه. مكموم: مغطى بالكمامة من برد أو داء..

(٣) ٨/ ٣٤٥.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦١. وسلف البيت ١٦/١٦.

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ قيل: المراد بالسماء هاهنا السُّحُب[١] التي تُظِلُّ الأرض. وقيل: السماء المرفوعة[٢]. ابنُ عمر: هي السماء السابعة؛ ذكره المهدويُّ والثعلبيُّ والماورديُّ وغيرهم[٣].

وفي «الْحُبُكِ» أقوالٌ سبعة:

الأول: قال ابن عباس وقتادة ومجاهدٌ والربيع: ذات الخَلْقِ الحَسَنِ المستوي. وقاله عكرمة[٤]؛ قال: ألم ترَ إلى النَّسَّاج إذا نسج الثوب فأجاد نَسْجَه؛ يقال منه: حَبَك الثوبَ يَحبِكُه ـ بالكسر ـ حَبْكاً، أي: أجاد نَسْجَه. قال ابن الأعرابي: كلُّ شيءٍ أحكمتَه وأحسنتَ عملَه فقد احتبكتَه[٥].

الثاني: ذات الزينة؛ قاله الحسن وسعيد بنُ جبير.

وعن الحسن أيضاً: ذات النجوم. وهو الثالث.

الرابع: قال الضحاك: ذات الطرائق؛ يقال لِمَا تراه في الماء والرمل إذا أصابته الريح: حُبُك[٦]. ونحوُه قول الفراء[٧]؛ قال: الحُبُك: تَكَسُّر كلِّ شيءٍ، كالرمل إذا مرَّت به الريحُ الساكنة، والماءُ القائم إذا مرت به الريح، ودرع الحديد لها حُبُك،

---

(١) في النسخ الخطية: السحاب، والمثبت من (م)، والقول في النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ . والسحاب والسحب والسحائب: جمع سحابة. الصحاح (سحب).

(٢) قال الماوردي في النكت والعيون: وهو المشهور.

(٣) قول ابن عمر أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ - ١٩٠ .

(٤) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الربيع ـ الطبري ٢١/ ٤٨٦ - ٤٨٩ .

(٥) الصحاح (حبك).

(٦) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول الحسن الأول ـ الطبري ٢١/ ٤٨٧ ، ٤٨٩ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٢ .

والشعرة الجَعْدة تكسُّرها حُبُك. وفي حديث الدجَّال: «إنَّ شعره حُبُك حُبُك»[١]. قال زهير:

مُكَلَّلٌ بأصول النَّجمِ تَنسِجُهُ ريحٌ خَريقٌ لضاحي مائه حُبُكُ[٢]

ولكنها تَبْعُد من العباد فلا يرونها.

الخامس: ذات الشِّدَّة، قاله ابن زيد، وقرأ: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢][٣]. والمحبوك: الشديد الخَلْق من الفرس وغيره[٤]، قال امرؤ القيس:

قد غدا يَحْمِلُني في أنْفِهِ لاحِقُ الإِطْلَيْنِ مَحبُوكٌ مُمَرّ[٥]

وقال آخر[٦]:

مَرِجَ الدِّينُ فأعددتُ لهُ مُشْرِفَ الحارِك مَحبُوكَ الكَتَدْ

وفي الحديث: أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تحتبك تحت الدِّرْع في الصلاة؛ أي: تَشُدُّ الإزار وتُحْكِمه[٧].

السادس: ذات الصَّفَاقة؛ قاله خُصَيف[٨]، ومنه: ثوبٌ صَفِيق ووجه صَفِيق: بَيِّنُ الصَّفاقة[٩].

---

(١) الصحاح (حبك). والخبر قطعة من حديث عقبة بن عامر ﷺ أخرجه أحمد (١٦٢٦٠) عنه بلفظ: «إن راس الدجال من ورائه حُبُك حُبُك . . .».

(٢) شرح ديوان زهير ص ١٧٦ . قال شارحه: قال الأصمعي: النجم: النبت الذي يقال له: الثِّيل. وقال غيره: الماء مكلَّل بالنجم، وهو كل شيء من النبات ليس له ساق ينبت حول الماء كالإكليل. ويقال: نَجَمَ البقل: إذا طلع. ريح خريق، يقال: هبت الشمال خريقاً: إذا هبت هبوباً شديداً. لضاحي مائه: ما ضحا للشمس من الماء، ضحي يضحى ضحئ، وضَحَى يضحى: برز للشمس.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٨٩ .

(٤) الصحاح (حبك).

(٥) ديوانه ص١٤٦ . وهو في وصف الغيث. قال شارحه: يحملني في أنفه: أي في أول هذه المطرة. لاحق الإطلين: يعني فرساً ضامر الكشحين. والمحبوك: المدمج الخلق، الشديد. والممر نحوه في المعنى.

(٦) هو أبو دؤاد، وسلف ص٤٣٠ من هذا الجزء.

(٧) الصحاح (حبك). والحديث أخرجه البيهقي ٢/ ٢٣٥ .

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٦٢ .

(٩) الصحاح (صفق) وقوله: ثوب صَفِيق، أي: كثير الغزل. ووجه صَفيق، أي: وقح. القاموس (صفق).

السابع: أنَّ المراد بالطُّرُق المَجرَّةُ التي في السماء؛ سمِّيت بذلك لأنها كأثر المَجرّ[١].

و«الْحُبُكُ» جمع حِبَاك، قال الراجز:

كأنَّما جَلَّلها الحُوَّاكُ طِنْفِسةً في وَشْيها حِبَاكُ[٢]

والحِبَاك والحَبِيكة: الطريقة في الرَّمل ونحوه. وجمع الحِبَاك: حُبُك، وجمع الحَبِيكة: حَبَائك[٣]، والحَبَكة مثل العَبَكة، وهي الحبَّة من السَّويق، عن الجوهري[٤].

وروي عن الحسن في قوله: «ذَاتِ الحُبُكِ»: «الحُبْك» و«الحِبْك» و«الحِبِك» و«الحِبُك»، و«الحُبُك» كالجماعة[٥]. وروي عن عِكرمة وأبي مِجْلَز: «الحُبَك»[٦].

و«الحُبُك» واحدتها حَبيكة؛ و«الحُبْك» مخفَّفٌ منه. و«الحَبَك» واحدتها حَبَكة[٧]. ومن قرأ: «الحُبَك» فالواحدة حُبْكَة، كبُرْقة وبُرَق، أو حُبُكة كظُلُمة وظُلَم. ومن قرأ «الحِبِك» فهو كإبِل وإطِل. و«الحِبْك» مخفف منه. ومن قرأ: «الحِبُك» فهو شاذّ؛ ليس في كلام العرب فِعُلٌ، وهو محمولٌ على تداخل اللغات، كأنه كسر الحاء ليكسر

---

(١) ينظر الصحاح واللسان (جرر). والمَجَرّ: هو الخشبة المعترضة بين الحائطين توضع عليه أطراف العوارض.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٤٨٦، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢. والطنفسة: البساط، والنُّمروقة فوق الرحل. المعجم الوسيط (طنفس).

(٣) وحُبُك أيضاً كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٢، وتفسير الطبري ٢١/ ٤٨٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٢. وسيذكره المصنف.

(٤) في الصحاح (حبك).

(٥) ضبطنا بالشكل القراءات الشاذة عن الحسن في هذا الحرف كما ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢، حيث قيَّدها بالحروف، وذكر أن كسر الحاء وضم الباء فيها لغة غير متوجهة، وأنه ليس في كلام العرب هذا البناء.

(٦) المحتسب ٢/ ٢٨٦ دون ذكر أبي مجلز.

(٧) نسب ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٢ قراءة «الحَبَك» بفتح الحاء والباء لابن عباس رضي الله عنهما، ونسبها ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٢٨ لابن مسعود وعكرمة.

الباء، ثم تصوَّر «الحُبُك» فضمَّ الباء. قال جميعَه المهدوي[١].

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ هذا جوابُ القسم الذي هو «والسَّماءِ»، أي: إنكم يا أهل مكة «فِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ» في محمد والقرآن، فمِن مصدِّق ومكذِّب[٢]. وقيل: نزلت في المقتسِمين[٣]. وقيل: اختلافهم قولُهم: ساحر، بل شاعر، بل افتراه، بل هو مجنون، بل هو كاهن، بل هو أساطير الأوَّلين[٤]. وقيل: اختلافهم أنَّ منهم مَن نَفَى الحشر، ومنهم مَن شكَّ فيه. وقيل: المراد عَبَدة الأوثان والأصنام؛ يُقِرُّون بأن الله خالقُهم ويعبدون غيره[٥].

قوله تعالى: ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ أي: يُصرف عن الإيمان بمحمد والقرآنِ مَن صُرِف؛ عن الحسن وغيره[٦]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن الإيمان مَن أراده بقولهم: هو سحر وكهانة وأساطير الأوَّلين[٧]. وقيل: المعنى: يُصرَف عن ذلك الاختلافِ مَن عصمه الله[٨].

أَفَكه يَأْفِكه أفْكاً، أي: قَلَبه وصرفه عن الشيء؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾[٩] [الأحقاف: ٢٢].

وقال مجاهد: معنى «يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ»: يُؤفَن عنه من أُفِن، والأَفْن: فساد العقل[١٠].

---

(١) وهو بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٨٦ - ٢٨٧ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن قتادة.

(٣) سيرد في تفسير الآية بعدها، وينظر ما سلف في تفسير الآية (٩٠) من سورة الحجر ١٢/ ٢٥٥-٢٥٦ .

(٤) أخرج هذا القول بنحوه الطبري ٢١/ ٤٩٠ عن ابن زيد.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ .

(٦) أخرجه عن الحسن الطبري ٢١/ ٤٩١ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٦ بنحوه.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٣ بمعناه، وقال: وهذا وجه حسن لا يُخلُّ به، إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين.

(٩) الصحاح (أفك).

(١٠) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٤٩١ بنحوه.

الزمخشري[١]: وقرئ: «يُؤْفَنُ عَنْهُ مَنْ أُفِنَ» أي: يُحْرَمه من حُرم؛ مِن: أَفَنَ الضَّرْعَ، إذا أنهكه حَلْباً. وقال قُطْرُب: يُخدَع عنه من خُدِع. وقال اليزيدي: يُدفَع عنه من دُفِع[٢]. والمعنى واحد، وكلُّه راجعٌ إلى معنى الصرف.

قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ في التفسير: لُعِن الكذَّابون[٣]. وقال ابن عباس: أي: قُتِلَ المرتابون؛ يعني الكهنة[٤]. وقال الحسن: هم الذين يقولون: لسنا نبعث. ومعنى «قُتِلَ» أي: هؤلاء ممن يجب أن يُدعى عليهم بالقتل على أيدي المؤمنين.

وقال الفرَّاء: معنى «قُتِلَ»: لُعِن؛ قال: و«الخَرَّاصُوانَ»: الكذابون الذين يتخرَّصون بما لا يعلمون[٥]؛ فيقولون: إنَّ محمداً مجنون كذَّاب ساحر شاعر؛ وهذا دعاءٌ عليهم؛ لأن مَن لعنه الله فهو بمنزلة المقتول الهالك.

قال ابن الأنباري: علَّمَنا الدعاءَ عليهم، أي قولوا: «قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ». وهو جمع خارص، والخَرْص الكذب، والخَرَّاص الكذَّاب، وقد خَرَص يَخْرُص ـ بالضم ـ خَرْصاً، أي: كَذَب؛ يقال: خَرَص واختَرص، وخَلَقَ واختلَق، وبَشَك وابتَشك، وسَرَج واستَرَج، ومان، بمعنى كذب؛ حكاه النحَّاس.

والخَرْص ـ أيضاً ـ حَزْر ما على النخل من الرُّطَب تمراً. وقد خَرَصتُ النخلَ، والاسم: الخِرْص، بالكسر؛ يقال: كم خِرْصُ نخلك[٦] والخَرَّاص الذي يخرُصها؛ فهو مشترك.

وأصل الخَرص القطع، على ما تقدَّم بيانُه في «الأنعام»[٧]. ومنه الخَرِيص

(١) في الكشاف ٤/ ١٥.
(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٣.
(٣) نسبه في النكت والعيون ٥/ ٣٦٣ للحسن.
(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٢ بلفظ: لعن المرتابون.
(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٣، وزاد المسير ٨/ ٣٠. بنحوه.
(٦) المثبت من (ق) وهو الموافق لما في الصحاح (خرص)، والكلام منه، وفي غيرها: خَرَص.
(٧) ٩/ ٧.

للخليج؛ لأنه ينقطع إليه الماء، والخُرْصُ: حبَّة القُرْط إذا كانت منفردة؛ لانقطاعها عن أخواتها، والخُرصْ: العود؛ لانقطاعه عن نظائره بطيب رائحته. والخَرِص: الذي به جوع وبَرْد؛ لأنه ينقطع به، يقال: خَرِص الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو خَرِص أي: جائع مقرور، ولا يقال للجوع بلا برد: خَرِص، ويقال للبرد بلا جوع: خَصَر[١]. والخُرص ـ بالضمِّ والكسر ـ الحَلْقة من الذهب أو الفضة، والجمع الخُرصان. ويدخل في الخَرْص قولُ المنجِّمين وكلِّ مَن يدَّعي الحَدْس والتخمين.

وقال ابن عباس: هم المقتسمون الذين اقتسموا عِقَابَ[٢] مكة، واقتسموا القولَ في نبيِّ اللهِ ﷺ؛ ليصرفوا الناسَ عن الإيمان به.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الغمرة: ما سَتَرَ الشيءَ وغطَّاه. ومنه نهر غَمْر، أي: يَغْمُر مَن دخله، ومنه غَمَرات الموت. «سَاهُونَ» أي: لاهون غافلون عن أمر الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ أي: متى يومُ الحساب؛ يقولون ذلك استهزاءً وشكّاً في القيامة[٣]. ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ نصب «يَوْمَ» على تقدير الجزاء، أي: هذا الجزاءُ «يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ» أي: يُحرَقون، وهو مِن قولهم: فتنت الذهب، أي: أحرقته لتختبره؛ وأصل الفتنة الاختبار. وقيل: إنه مبنيٌّ؛ بني لإضافته إلى غير متمكِّن، وموضعه نصبٌ على التقدير المتقدِّم، أو رفعٌ على البدل من «يَوْمُ الدِّينِ»[٤]. وقال الزجَّاج[٥]: تقول: يعجبني يومُ أنت قائم ويومُ أنت تقوم، وإن شئت فتحت، وهو في موضع رفع، فإنما انتصب هذا وهو في المعنى رفع.

---

(١) الصحاح (خرص).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م): أعقاب، والمثبت من (ف) و(ق)، وهو بنحوه في تفسير أبي الليث ٣/ ٢٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٤، وتفسير البغوي ٤/ ٢٢٩.

(٤) قرأ بالرفع ابن أبي عبلة كما في الكشاف ٤/ ١٥.

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٥٢. وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٣٧ - ٢٣٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٣.

وقال ابن عباس: «يُفْتَنُونَ»: يُعذَّبون[١]. ومنه قول الشاعر:

كلَّ امرِئٍ من عباد اللهِ مُضطَهدٍ ببطنِ مكةَ مقهورٍ ومفتونِ[٢]

قوله تعالى: ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا عذابكم؛ قاله ابن زيد. مجاهد: حريقكم. ابن عباس: أي: تكذيبكم[٣]. يعني جزاءكم. الفرَّاء[٤]: أي: عذابكم ﴿ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ﴾ في الدنيا. وقال: «هَذَا»، ولم يقل: هذه؛ لأن الفتنة هنا بمعنى العذاب.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ لمَّا ذكر مآلَ الكفار؛ ذكَرَ مآلَ المؤمنين، أي: هم في بساتينَ؛ فيها عيونٌ جارية على نهاية ما يُتنزَّه به. ﴿ءَاخِذِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ﴾ أي: ما أعطاهم من الثواب وأنواعِ الكرامات؛ قاله الضحَّاك[٥]. وقال ابن عباس وسعيد بن جبير: «آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ» أي: عاملين بالفرائض[٦]. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل دخولهم الجنةَ في الدنيا ﴿مُحۡسِنِينَ﴾ بالفرائض. وقال ابن عباس: المعنى: كانوا قبل أن تُفْرَضَ[٧] عليهم الفرائض محسنين في أعمالهم[٨].

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٤٩٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٤. وهو في قصيدة لعبد الله بن الحارث بن قيس بن عدي يذكر مهاجري الحبشة، كما في السيرة النبوية ١/ ٣٣٠ - ٣٣١، وقبله:

يا راكباً بلِّغَنْ عني مغلغلةً مَن كان يرجو بلاغ الله والدينِ

والمغلغلة: الرسالة المحمولة من بلد إلى بلد. الصحاح (غلل).

(٣) أخرج هذه الآثار الطبري ٢١/ ٤٩٩ - ٥٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٨٣.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٥ بنحوه.

(٦) قول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

(٧) في (م): يفرض.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠١.

قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ معنى «يَهْجَعُونَ»: ينامون؛ والهُجُوع: النوم ليلاً، والتَّهْجاع: النومة الخفيفة؛ قال أبو قيس بن الأَسْلَت:

قد حصَّت البيضةُ رأسي فما أَطْعَمُ نوماً غيرَ تَهْجاعِ[1]

وقال عمرو بنُ مَعْدي كَرِب يتشوَّق أختَه وكان أسرها الصِّمَّةُ أبو دُرَيد بنُ الصِّمَّة:

أَمِنْ رَيحانةَ الدَّاعي السَّميعُ يُؤَرِّقني وأصحابي هُجوعُ[2]

يقال: هَجَعَ يَهْجَع هُجوعاً، وهَبَغَ يَهْبَغ هُبوغاً، بالغين المعجمة: إذا نام؛ قاله الجوهري[3].

واختُلف في «ما»، فقيل: صلة زائدة، قاله إبراهيم النَّخَعيُّ، والتقدير: كانوا قليلاً من الليل يهجعون، أي: ينامون قليلاً من الليل ويصلُّون أكثرَه. قال عطاء: وهذا لمَّا أُمروا بقيام الليل. وكان أبو ذرٍّ يَحتجِز، ثم يأخذ العصا فيعتمد عليها، حتى نزلت الرُّخصة: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الآية[4].

وقيل: ليس «ما» صلة، بل الوقفُ عند قوله: «قَلِيلاً»، ثم تبتدئ «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ». فـ «ما» للنفي، وهو نفيُ النوم عنهم البَتَّة[5]. قال الحسن: كانوا لا ينامون

---

(١) الصحاح (هجع). وسلف البيت ١١/ ٣٧٤.

(٢) وهناك رواية ثانية تقول: إن ريحانة امرأته المطلقة، كما في الأغاني ١٥/ ٢٢٥ - ٢٢٦، والخزانة ٨/ ١٨١ - ١٨٢. والبيت ـ أيضاً ـ في الأصمعيات ص١٧٢، والكامل ١/ ٢٦١.

(٣) في الصحاح (هبغ).

(٤) أخرج الأثرين ابن أبي شيبة ٢/ ٢٣٨.

(٥) وضعَّف هذا القول الشوكاني في فتح القدير ٥/ ٨٤، ورده ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٩٠ والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٦ وقال: لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، تقول: زيداً لم أضرب، ولا تقول: زيداً ما ضربت.

من الليل إلَّا أقلَّه، وربما نَشِطوا فجدُّوا إلى السَّحَر[١].

روي عن يعقوب الحضرميِّ أنه قال: اختلفوا في تفسير هذه الآية، فقال بعضهم: «كَانُوا قَلِيلاً» معناه: كان عددهم يسيراً، ثم ابتدأ فقال: «مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ»[٢]. قال ابن الأنباري[٣]: وهذا فاسد؛ لأن الآية إنما تدلُّ على قلَّة نومهم لا على قلَّة عددهم، وبعدُ فلو ابتدأنا «مِنَ اللَّيل ما يهجعون» على معنى: من الليل يهجعون، لم يكن في هذا مدحٌ لهم؛ لأن الناس كلَّهم يهجعون من الليل، إلَّا أن تكون «ما» جَحْداً.

قلت: وعلى ما تأوَّله بعضُ الناس ـ وهو قول الضحَّاك[٤] ـ من أنَّ عددهم كان يسيراً، يكون الكلام متصلاً بما قبلُ مِن قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ أي: كان المحسنون قليلاً، ثم استأنف فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾[٥]. وعلى التأويل الأوَّلِ والثاني يكون «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ» خطاباً مستأنفاً بعد تمام ما تقدَّمه، ويكون الوقف على «مَا يَهْجَعُونَ»، وكذلك إن جعلتَ «قَلِيلاً» خبرَ كان، وترفع «ما» بمعنى قليل[٦]؛ كأنه قال: كانوا قليلاً من الليل هجوعُهم. فـ «ما» يجوز أن تكون نافية، ويجوز أن تكون مع الفعل مصدراً، ويجوز أن تكون رفعاً على البدل من اسم كان، التقدير: كان هجوعهم قليلاً من الليل[٧]. وانتصابُ قوله: «قَلِيلاً» ـ إن قدَّرت «ما» زائدةً مؤكِّدة ـ بـ «يَهْجَعُونَ»، على تقدير: كانوا وقتاً قليلاً أو هجوعاً قليلاً يهجعون، وإن لم تقدِّر «ما» زائدة، كان قولُه: «قَلِيلاً» خبرَ كان، ولم يجز نصبُه بـ «يَهْجَعُونَ»؛ لأنه إذا قدِّر نصبه

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٤ - ٥٠٥ .

(٢) بعدها في(م): على معنى من الليل يهجعون.

(٣) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٩٠٦ ، وما قبله منه.

(٤) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٠٧ .

(٥) بعدها في النسخ الخطية: وهو قول الضحاك.

(٦) في (م): بقليل، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الإيضاح لابن الأنباري ٢/ ٩٠٥ .

(٧) وهو بدل اشتمال كما في الدر المصون ١٠/ ٤٥ .

بـ «يَهْجَعُونَ» مع تقدير «ما» مصدراً، قدَّمتَ الصِّلَةَ على الموصول[١].

وقال أنسٌ وقتادة في تأويل الآية: أي: كانوا يصلُّون بين العشاءين: المغرب والعشاء[٢]. أبو العالية: كانوا لا ينامون بين العشاءين[٣]. وقاله ابن وَهْب. وقال مجاهد[٤]: نزلت في الأنصار؛ كانوا يصلُّون العشاءين في مسجد النبيِّ ﷺ، ثم يمضون إلى قُباء. وقال محمد بن عليِّ بن الحسين: كانوا لا ينامون حتى يصلُّوا العَتَمة[٥]. قال الحسن: كأنه عَدَّ هجوعَهم قليلاً في جنب يقظتهم للصلاة. وقال ابن عباس ومُطرِّف: قَلَّ ليلةٌ لا تأتي عليهم إلَّا يصلُّون لله فيها، إمَّا مِن أوَّلها، وإما من وسطها[٦].

الثانية: رُوِيَ عن بعض المتهجِّدين أنه أتاه آتٍ في منامه، فأنشده:

وكيف تنامُ الليلَ عينٌ قريرةٌ ولم تَدرِ في أيِّ المجالِس تنزِلُ

ورويَ عن رجل من الأزد أنه قال: كنت لا أنام الليل، فنمت في آخر الليل، فإذا أنا بشابَّين أحسن ما رأيت، ومعهما حُلَل، فوقفا على كلِّ مصلٍّ، وكسواه حُلَّة، ثم انتهيا إلى النِّيام فلم يكسوهم، فقلت لهما: اكسواني من حُللكما هذه، فقالا لي: إنها ليست حُلَّةَ لباس، إنما هي رضوانُ الله يَحُلُّ على كل مصلٍّ.

ويُروى عن أبي خَلَّادٍ أنه قال: حدَّثني صاحبٌ لي قال: بينما أنا نائمٌ ذات ليلة إذ مُثِّلت لي القيامة، فنظرت إلى أقوام من إخواني قد أضاءت وجوهُهم، وأشرقت

---

(١) الكلام بنحوه في البيان ٢/ ٣٨٩، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٦ - ٦٨٧.

(٢) أخرجه أبو داود (١٣٢١) و(١٣٢٢) من طريق قتادة عن أنس ﷺ.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٣.

(٤) كلمة: مجاهد، ليست في النسخ الخطية.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٠٢.

(٦) ذكر قولهما الواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٥، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٠. وأخرج الطبري ٢١/ ٥٠٢ قول مطرف.

ألوانهم، وعليهم الحُلَلُ من دون الخلائق، فقلت: ما بال هؤلاء مكتسون والناسُ عُراة، ووجوهُهم مشرِقةٌ ووجوه الناس مغبرَّة! فقال لي قائل: الذين رأيتهم مكتسون[١] فهم المصلُّون بين الأذان والإقامة، والذين وجوهُهم مشرقة فأصحابُ السهر والتهجُّد، قال: ورأيت أقواماً على نجائب، فقلت: ما بال هؤلاء ركباناً والناسُ مشاة حفاة؟ فقال لي: هؤلاء الذين قاموا على أقدامهم تقرُّباً إلى الله تعالى، فأعطاهم الله بذلك خيرَ الثواب؛ قال: فصحت في منامي: واهاً للعابدين، ما أشرفَ مقامَهم! ثم استيقظت من منامي وأنا خائف.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾: مدحٌ ثان؛ أي: يستغفرون من ذنوبهم، قاله الحسن[٢]. والسَّحَر وقتٌ يُرجى فيه إجابةُ الدعاء. وقد مضى في «آل عمران» القولُ فيه[٣].

وقال ابن عمر ومجاهد: أي: يصلُّون وقت السَّحَر؛ فسمَّوا الصلاةَ استغفاراً. وقال الحسن في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ مَدُّوا الصلاةَ من أوَّل الليلِ إلى السَّحَر، ثم استغفروا في السحر[٤].

ابن وهب: هي في الأنصار؛ يعني أنهم كانوا يغدون من قُباء، فيصلُّون في مسجد النبيِّ ﷺ. ابن وَهْب، عن ابن لَهِيعة، عن يزيد بن أبي حبيب قال: كانوا يَنْضَحون لناسٍ من الأنصار بالدِّلاء على الثمار، ثم يهجعون قليلاً، ثم يصلُّون آخرَ الليل.

الضحَّاك: صلاة الفجر.

وقال الأحنف بن قيس: عَرَضْتُ عملي على أعمال أهل الجنة؛ فإذا قومٌ قد

---

(١) كذا في النسخ.
(٢) النكت والعيون ٥/٣٦٦ بنحوه.
(٣) ٥/ ٥٩ .
(٤) أخرج أقوالهم الطبري ٢١/٥٠٥ ، ٥١٠ .

باينونا بَوْناً بعيداً لا نبلغ أعمالهم؛ «كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون». وعرضتُ عملي على أعمال أهل النار، فإذا قومٌ لا خير فيهم، يكذِّبون بكتاب الله، وبرسوله، وبالبعث بعد الموت، فوجدنا خيرَنا منزلةً قوماً خلطوا عملاً صالحاً وآخَرَ سيِّئاً.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ مدحٌ ثالث. قال محمد بن سِيرين وقتادة: الحقُّ هنا الزكاةُ المفروضة. وقيل: إنه حقٌّ سوى الزكاة؛ يَصِل به رَحِماً، أو يَقري به ضيفاً، أو يَحْمل به كَلّاً، أو يُغني به محروماً. وقاله ابن عباس[(١)]؛ لأن السورة مكِّية، وفُرضت الزكاة بالمدينة[(٢)].

ابن العربي[(٣)]: والأقوى في هذه الآيةِ أنها الزكاة؛ لقوله تعالى في سورة «سأل سائل»: ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٥] والحقُّ المعلوم هو الزكاة التي بيَّن الشرعُ قَدْرَها وجنسها ووقتها، فأمَّا غيرُها لمن يقول به، فليس بمعلوم؛ لأنه غيرُ مقدَّرٍ ولا مجنَّس ولا موقَّت.

الخامسة: قوله تعالى: «لِلسَّائِلِ وَالمَحْرُوم»؛ السائل الذي يسأل الناس لفاقته؛ قاله ابن عباس وسعيد بن المسيَّب وغيرهما. والمَحرُومِ الذي حُرم المال. واختُلف في تعيينه؛ فقال ابن عباس وسعيد بن المسيّب وغيرهما: المحروم المُحارَف الذي ليس له في الإسلام سهم[(٤)]. وقالت عائشة رضي الله عنها: المحروم المُحارَف الذي لا يتيسَّر له مكسبُه[(٥)]؛ يقال: رجل مُحارَف ـ بفتح الراء ـ أي: محدود محروم، وهو خلافُ قولك: مُبارَك. وقد حورف كسبُ فلان: إذا شُدِّد عليه في معاشه؛ كأنه مِيلَ برزقه عنه[(٦)]. وقال قتادة والزُّهري: المحروم المتعفِّف الذي لا يسأل الناس شيئاً،

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .
(٢) المحرر الوجيز ٥/ ١٧٥ .
(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٧١٨ .
(٤) أخرج قولهم الطبري ٢١/ ٥١١ - ٥١٤ .
(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ .
(٦) الصحاح (حرف).

ولا يُعلم بحاجته. وقال الحسن ومحمد ابن الحنفية: المحروم الذي يجيء بعد الغنيمة وليس له فيها سهم[١].

روي أنَّ النبيَّ ﷺ بعث سَرِيَّة، فأصابوا وغَنِموا، فجاء قومٌ بعد ما فرغوا، فنزلت هذه الآية: «وَفِي أَمْوَالِهِمْ»[٢].

وقال عِكرمة: المحروم الذي لا يبقى له مال[٣]. وقال زيد بن أسلم: هو الذي أُصيب ثمرُه أو زرعه أو نسل ماشيته. وقال القُرَظيّ: المحروم الذي أصابته الجائحة، ثم قرأ: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[٤] [الواقعة: ٦٧] نظيرُه في قصة أصحاب الجنةِ حيث قالوا: «بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ» [القلم: ٢٧].

وقال أبو قِلابة: كان رجلٌ من أهل اليمامة له مال، فجاء سيلٌ فذهب بماله، فقال رجل من الصحابة: هذا المحروم، فاقسموا له[٥].

وقيل: إنه الذي يطلب الدنيا وتُدبِر عنه. وهو يُروَى عن ابن عباسٍ أيضاً. وقال عبد الرحمن بن حُمَيد: المحروم المملوك. وقيل: إنه الكلب؛ روي أنَّ عمر بنَ عبد العزيز كان في طريق مكة، فجاء كلب، فانتزع عمر رحمه الله كَتِفَ شاةٍ، فرمى بها إليه وقال: يقولون إنه المحروم. وقيل: إنه من وجبت نفقته بالفقر من ذوي الأنساب؛ لأنه قد حُرِم كسبَ نفسه حتى وجبت نفقتُه في مال غيره[٦].

وروى ابن وَهْب عن مالك: أنه الذي يُحرَم الرزق[٧]، وهذا قولٌ حسن؛ لأنه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ دون ذكر الزهري. وأخرج قوله وقول قتادة الطبريُّ ٢١/ ٥١٤ - ٥١٥ .

(٢) أخرجه أبو عبيد في الأموال (١٧٥٦)، والطبري ٢١/ ٥١٥ - ٥١٦ عن الحسن بن محمد ابن الحنفية، وهو مرسل.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ بنحوه. وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٧ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٣ بنحوه.

(٦) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٦ - ٣٦٧ .

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٧١٨ .

يَعمُّ جميع الأقوال.

وقال الشعبي: لي اليوم سبعون سنةً منذ احتلمت أسأل عن المحروم، فما أنا اليومَ بأعلمَ مني فيه يومئذ. رواه شعبة عن عاصم الأحول، عن الشعبي(١).

وأصله في اللغة: الممنوع؛ من الحرمان وهو المنع. قال علقمة(٢):

ومُطْعَمُ الغُنْم يومَ الغُنْم مُطْعَمُهُ أَنَّى توجَّه والمحرومُ محرومُ

وعن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «ويلٌ للأغنياء من الفقراء يوم القيامة؛ يقولون: ربَّنا ظلمونا حقوقَنا التي فرضتَ لنا عليهم، فيقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي لأُقرِّبنَّكم ولأُبْعِدنَّهم». ثم تلا رسولُ الله ﷺ: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ ذكره الثعلبي(٣).

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ﴾ لمَّا ذَكَر أمر الفريقين، بيَّن أنَّ في الأرض علاماتٍ تدلُّ على قدرته على البعث والنشور، فمنها: عَوْدُ النبات بعد أن صار هشيماً، ومنها: أنه قدَّر الأقوات فيها قِواماً للحيوانات، ومنها: سيرُهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثارَ الهلاك النازلِ بالأمم المكذِّبة. والموقنون: هم العارفون المحقِّقون وحدانيَّةَ ربِّهم، وصِدْقَ نبوَّةِ نبيِّهم؛ خصَّهم بالذِّكْر لأنهم المنتفعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها.

قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ قيل: التقدير: وفي الأرض وفي أنفسكم آياتٌ للموقنين. وقال قتادة: المعنى: مَن سار في الأرض رأى آياتٍ وعِبَراً، ومَن

---

(١) بنحوه في زاد المسير ٨/ ٣٣، وأخرج الطبري ٢١/ ٥١٨ من طريق ابن علية، عن ابن عون، عن الشعبي قال: أعياني أن أعلم ما المحروم.

(٢) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٦٦، وسلف ١٠/ ٥.

(٣) وأخرجه الطبراني في الصغير (٦٩٣)، والأوسط (٤٨١٠). قال الهيثمي في المجمع ٣/ ٦٢: فيه الحارث بن النعمان، وهو ضعيف.

تفكَّر في نفسه علم أنه خُلق ليعبُدَ الله. ابنُ الزبير ومجاهد: المراد سبيلُ الخلاء والبول[١]. وقال السائب بن شريك: يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين؛ ولو شرب لبناً مَحْضاً لخرج منه الماءُ ومنه الغائط؛ فتلك الآيةُ في النفس. وقال ابن زيد: المعنى: أنه خلقكم من تراب، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]. السدي: «وفي أَنْفُسِكُم» أي: في حياتكم وموتكم، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم. الحسن: في الكِبَر بعد الشباب، والضَّعف بعد القوَّة، والشيبِ بعد السواد[٢]. وقيل: المعنى: وفي خلق أنفسِكم من نطفة، وعلقة، ومضغة، ولحم، وعظم، إلى نفخ الروح، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصُّوَر، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة[٣]. وحسبُك بالقلوب وما رُكز[٤] فيها من العقول، وخُصَّت به من أنواع المعاني والفنون، وبالألسن والنُّطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأتِّيها لما خُلِقت له، وما سُوِّيَ في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثنِّي، فإنه إذا جَسَا[٥] شيءٌ منها جاء العَجْز، وإذا استرخى أناخ الذُّلّ، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ يعني: بصرَ القلب ليَعرفوا كمالَ قدرته.

وقيل: إنه نُجحُ العاجز، وحرمان الحازم[٦].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧، وقول ابن الزبير أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩.

(٢) ذكر هذه الأقوال ـ عدا قول السائب ـ الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وقول ابن زيد أخرجه الطبري ٢١/ ٥١٩ - ٥٢٠.

(٣) ذكره بنحوه مختصراً البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣١، والواحدي في الوسيط ٤/ ١٧٦ ونسباه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في النسخ الخطية: ذكر، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في الكشاف ٤/ ١٦ - ١٧، والكلام منه.

(٥) أي: صَلُبَ. القاموس (جسو).

(٦) هذا أحد الأقوال في تفسير قوله: وفي أنفسكم أفلا تبصرون، كما ذكر الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٧.

قلت: كلُّ ما ذُكر مرادٌ في الاعتبار. وقد قدَّمنا في آية التوحيد من سورة البقرة أنَّ ما في بدن الإنسان ـ الذي هو العالَم الصغير ـ شيءٌ إلّا وله نظيرٌ في العالَم الكبير، وذكرنا هناك من الاعتبار ما يكفي ويُغني لمن تدبَّر(١).

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال سعيد بن جبير والضحَّاك: الرِّزق هنا ما ينزل من السماء من مطر وثلج يَنْبت به الزرعُ ويحيا به الخلق(٢). قال سعيد بن جبير: كلُّ عين قائمةٍ فإنها من الثلج. وعن الحسن أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه: فيه واللهِ رزقُكم، ولكنكم تُحرَمونه بخطاياكم(٣).

وقال أهل المعاني: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ معناه: وفي المطر رزقكم؛ سُمِّي المطرُ سماءً؛ لأنه من السماء ينزل. قال الشاعر(٤):

إذا سقطَ السماءُ بأرض قومٍ ... رعيناهُ وإنْ كانوا غِضابا

وقال ابن كَيْسان: يعني: وعلى ربِّ السماءِ رزقُكم؛ نظيرُه: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]. وقال سفيان الثوريّ: «وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» أي: عند الله في السماء رزقكم. وقيل: المعنى: وفي السماء تقديرُ رزقكم، وما فيه لكم مكتوبٌ في أُمِّ الكتاب(٥).

وعن سفيان ـ أيضاً ـ قال: قرأ واصل الأحدب(٦): ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ فقال: ألَا أرى رزقي في السماء وأنا أطلبه في الأرض! فدخل خَرِبة، فمكث ثلاثاً لا يصيب

(١) ٢/ ٥٠٤ - ٥٠٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٦٧. وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١ مختصراً.

(٣) الكشاف ٤/ ١٧. وأخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٢٠ - ٥٢١.

(٤) هو معاوية بن مالك (معوِّد الحكماء)، وسلف البيت ١/ ٣٢٧.

(٥) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨.

(٦) هو واصل بن حَيَّان الأحدب الأسدي الكوفي. مات سنة ١٢٠ أو ١٢٩. تهذيب التهذيب ٤/ ٣٠١.

شيئاً، فإذا هو في الثالثة بدَوْخَلةِ رُطَب[١]، وكان له أخٌ أحسنُ نيَّةً منه، فدخل معه، فصارتا دوخلتين، فلم يزل ذلك دأبَهما حتى فرَّق اللهُ بالموت بينهما[٢].

وقرأ ابن محيصن ومجاهد: «وفي السَّماءِ رازِقُكُمْ» بالألف[٣]، وكذلك في آخرها: «إِنَّ اللهَ هو الرَّازِقُ».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ قال مجاهد: يعني من خير وشر. وقال غيره: من خير خاصة. وقيل: الشر خاصة. وقيل: الجنة؛ عن سفيان بن عيينة[٤]. الضحَّاك: «وَمَا تُوعَدُونَ» من الجنة والنار[٥]. وقال ابن سيرين: «وَمَا تُوعَدُونَ» من أمر الساعة. وقاله الربيع[٦].

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ أكَّد ما أخبرهم به من البعث وما خلق في السماء من الرزق، وأقسم عليه: إنَّه لَحقٌّ، ثم أكَّده بقوله: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾. وخصَّ النُّطقَ من بين سائر الحواسّ؛ لأن ما سواه من الحواسِّ يدخله الشبيه[٧]، كالذي يُرى في المرآة، واستحالةِ الذوق عند غلبة الصفراء ونحوها، والدَّويِّ والطنين في الأذن، والنطقُ سالمٌ من ذلك، ولا يُعترض بالصَّدَى؛ لأنه لا يكون إلَّا بعد حصول الكلام من الناطق غيرَ مَشُوبٍ بما يشكل به.

وقال بعض الحكماء: كما أنَّ كلَّ إنسان ينطِق بنفسه ولا يُمْكنه أن ينطق بلسان غيره، فكذلك كلُّ إنسان يأكل رزقه، ولا يمكنه أن يأكل رزق غيره[٨].

---

(١) الدَّوْخَلة؛ بتشديد اللام وتخفيفها: ما ينسج من الخُوص ويجعل فيه الرُّطَب، الصحاح (دخل).

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢١ .

(٣) في القراءات الشاذة ص١٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ عن ابن محيصن.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣ عن سفيان الثوري. وأخرج قول مجاهد ٢١/ ٥٢٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٢ .

(٦) ذكره عنه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٦٨ ، وقول ابن سيرين ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ .

(٧) في (ز) و(ف) و(م): التشبيه، والمثبت من (ظ).

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣١ .

وقال الحسن: بلغني أنَّ نبيَّ الله ﷺ قال: «قاتل الله أقواماً أقسم لهم ربُّهم بنفسه ثم لم يصدِّقوه»[١] قال الله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾.

وقال الأصمعي: أقبلتُ ذاتَ مرَّةٍ من مسجد البصرة، إذ طلع أعرابيٌّ جِلْفٌ جافٍ على قَعُود[٢] له، متقلِّداً سيفَه، وبيده قوسُه، فدنا وسلَّم، وقال: ممَّن الرجل؟ قلت: من بني أَصْمَع، قال: أنت الأصمعي؟ قلت: نعم. قال: ومن أين أقبلت؟ قلت: من موضع يُتلَى فيه كلامُ الرحمن؛ قال: وللرحمن كلامٌ يتلوه الآدميون؟ قلت: نعم؛ قال: فاتْلُ عليَّ منه شيئاً؛ فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً» إلى قوله: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ» فقال: يا أصمعيُّ حسبُك!! ثم قام إلى ناقته فنحرها وقطعها بجلدها، وقال: أعنِّي على توزيعها؛ ففرَّقناها على مَن أقبل وأدبر، ثم عمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وجعلهما تحت الرَّحل، وولَّى نحو البادية وهو يقول: «وَفي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ»، فمقتُّ نفسي ولُمتُها. ثم حججتُ مع الرشيد، فبينما أنا أطوف، إذا أنا بصوت رقيق، فالتفت، فإذا أنا بالأعرابيِّ ناحلٌ مصفَرّ، فسلَّم عليَّ وأخذ بيدي، وقال: أتلُ عليَّ كلامَ الرحمن، وأجلسني وراء المقام، فقرأت: «وَالذَّارِيَاتِ»، حتى وصلت إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ فقال الأعرابي: لقد وجدنا ما وعدنا ربُّنا حقّاً، وقال: هل غيرُ هذا؟ قلت: نعم؛ يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ فصاح الأعرابيُّ وقال: يا سبحان الله! مَن الذي أغضب الجليلَ حتى حلف! ألم يصدِّقوه في قوله حتى ألجؤوه إلى اليمين؟ فقالها ثلاثاً وخرجتْ بها نَفْسُه[٣].

وقال يزيد بن مَرْثَد[٤]: إنَّ رجلاً جاع بمكان ليس فيه شيء، فقال: اللهم رزقَك

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٣.

(٢) القَعُود؛ بالفتح: البعير من الإبل، وهو البَكر حين يُركب، أي: يمكّن ظهره من الركوب. وأقلُّه سنتان إلى أن يثني، فإذا أثنى سمّي جملاً. الصحاح (قعد).

(٣) أخرجه البيهقي في الشعب (١٣٣٧).

(٤) أبو عثمان الهمداني، الشامي الصنعاني، من صنعاء دمشق. تابعي، ذكره ابن حبان في الثقات. وكان كثير البكاء. تهذيب الكمال ٣٢/ ٢٣٩.

الذي وعدتني فأتني به؛ فشبع ورَوِي من غير طعامٍ ولا شراب.

وعن أبي سعيد الخدريِّ قال: قال النبيُّ ﷺ: «لو أنَّ أحدكم فرَّ من رزقه، لتَبعه كما يَتْبعه الموت» أسنده الثعلبي رحمه الله[١].

وفي سنن ابنِ ماجه عن حَبَّة وسَوَاء ابنَي خالد قالا: دخلنا على النبيِّ ﷺ وهو يعالج شيئاً، فأعنَّاه عليه، فقال: «لا تيأسا من الرزق ما تهزَّزت رؤوسكما؛ فإنَّ الإنسان تلده أُمُّه أحمرَ ليس عليه قِشر، ثم يرزقه الله»[٢].

وروي أنَّ قوماً من الأعراب زرعوا زرعاً فأصابته جائحة، فحزنوا لأجله، فخرجت عليهم أعرابيَّةٌ فقالت: ما لي أراكم قد نكستم رؤوسَكم، وضاقت صدورُكم، هو ربُّنا والعالم بنا، رِزْقُنا عليه، يأتينا به من حيث شاء! ثم أنشأت تقول:

لو كان في صخرةٍ في البحر راسيةٍ صَمّا مُلَمْلَمةٍ مُلْسٍ[٣] نواحيها
رِزقٌ لنفسٍ بَرَاها الله لانفلقتْ حتى تؤدِّي إليها كُلَّ ما فيها
أو كان بين طباق السبعِ مسلكُها لَسهَّلَ الله في المرقَى مَراقيها
حتى تنالَ الذي في اللوح خُطَّ لها إنْ لم تَنلْه وإلَّا سوف يأتيها[٤]

قلت: وفي هذا المعنى قِصَّةُ الأشعريين حين أرسلوا رسولَهم إلى النبيِّ ﷺ،

---

(١) وأسنده ابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٤٥ من طريق فضيل بن مرزوق، عن عطية، عن أبي سعيد ﷺ. وقال: لفضيل أحاديث حسان، وأرجو أن لا بأس به.

(٢) سنن ابن ماجه (٤١٦٥)، وهو عند أحمد (١٥٨٥٥). قوله: تهززت رؤوسكما، أي: تحركت؛ كناية عن الحياة. قوله: أحمر، أي: كاللحم الذي لا قشر عليه، ويحتمل أن المراد بالقشر الثوب. وفي الزوائد: إسناده صحيح، وسلَّام بن شرحبيل ذكره ابن حبان في الثقات، ولم أر من تكلم فيه، وباقي رجال الإسناد ثقات. شرح سنن ابن ماجه للسندي ٢/ ٥٤١ .

(٣) في (م): ملساً. وقوله: ململمة، أي: مستديرة صلبة. الصحاح (لمم).

(٤) قال ابن حبان في روضة العقلاء ص١٥٤ : أنشدني عبد العزيز بن سليمان الأبرش، فذكر الأبيات. وقال ابن عبد البر في بهجة المجالس ١/ ١٣٨ : ومما يروى لعلي بن أبي طالب ﷺ، وفيه نظر، فذكر الأبيات.

فسمع قولَه تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ فرجع ولم يكلم النبيَّ ﷺ، وقال: ليس الأشعريون بأهونَ على الله من الدوابّ؛ وقد ذكرناه في سورة هود[١].

وقال لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ [لقمان:١٦]. وقد مضى في «لقمان»[٢].

وقد استوفينا هذا الباب في كتاب «قَمْع الحرص بالزهد والقناعة» والحمد لله.

وهذا هو التوكُّل الحقيقيُّ الذي لا يشوبه شيء، وهو فراغ القلب مع الربّ؛ رَزَقنا اللهُ إياه، ولا أحالنا على أحد سواه، بمَنّه وكرمه.

قوله تعالى: ﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ قراءة العامة: «مِثْلَ» بالنصب، أي: كمثل ما أنَّكم، فهو منصوبٌ على تقدير حذف الكاف، أي: كمثل نطقكم، و«ما» زائدة؛ قاله بعض الكوفيِّين[٣]. وقال الزجَّاج والفرَّاء: يجوز أن ينتصب على التوكيد، أي: لَحَقٌّ حقًّا مِثْلَ نطقكم[٤]؛ فكأنه نعتٌ لمصدر محذوف. وقول سيبويه: إنه مبني؛ بُني حين أُضيف إلى غير متمكِّن[٥]، و«ما» زائدة للتوكيد. المازني: «مِثْلَ» مع «ما» بمنزلة شيء واحد، فبني على الفتح لذلك[٦]. واختاره أبو عبيد وأبو حاتم؛ قال: ولأن مِن العرب مَن يجعل مِثْلاً منصوباً أبداً؛ فيقول: قال لي رجلٌ مثلَك، ومررت برجل مثلَك، نصب.

وقرأ أبو بكر وحمزة والكِسائيُّ والأعمش: «مِثْلُ» بالرفع على أنه صفةٌ لحقّ[٧]؛

---

(١) ١١/ ٧٣ - ٧٤.

(٢) ١٦/ ٤٧٦ وما بعدها.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٨ بنحوه. قال السمين الحلبي في الدر المصون ١٠/ ٤٩ : وفي هذا نظر، أيُّ حاجة إلى دخول الكاف ومثل تفيد فائدتها؟

(٤) المثبت من (ز)، وفي غيرها: نطقك، والكلام في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٤ ، وللفراء ٣/ ٨٥ .

(٥) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤١ .

(٦) ذكر قوله أبو علي في الحجة ٦/ ٢١٨ ، ومكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٧ .

(٧) السبعة ص٦٠٩ ، والتيسير ص٢٠٣ . وهي عن الأعمش في معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٦ .

لأنه نكرةٌ وإن أُضيف إلى معرفة، إذ لا يختصُّ بالإضافة؛ لكثرة الأشياءِ التي يقع بعدها التماثل بين المتماثلين. و«مِثْل» مضافٌ إلى «أَنَّكُمْ»، و«ما» زائدة، ولا تكون مع ما بعدها بمنزلة المصدر؛ إذ لا فعل معها تكون معه مصدراً[1]. ويجوز أن تكون بدلاً من «لَحَقٌّ».

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ ذَكَرَ قصةَ إبراهيم عليه السلام ليبيِّنَ بها أنه أهلك المكذِّبَ بآياته كما فعل بقوم لوط.

«هَلْ أَتَاكَ» أي: ألم يأتك. وقيل: «هَلْ» بمعنى قد[2]؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الإنسان:١]. وقد مضى الكلامُ في ضيف إبراهيم في «هود» و«الحجر»[3].

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي: عند الله[4]؛ دليلُه قوله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦]. قال ابن عباس: يريد جبريل وميكائيل وإسرافيل[5]؛ زاد عثمان بنُ مُحصِن[6]: ورفائيل، عليهم الصلاة والسلام[7]. وقال محمد بن كعب: كان جبريل

---

(١) الكلام بنحوه في الحجة ٦/ ٢١٦.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٧ عن ابن عباس ومقاتل.

(٣) ١١/ ١٥٧ فما بعد، ١٢/ ٢٢١ فما بعد.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧، والنكت والعيون ٥/ ٣٦٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧، وزاد المسير ٨/ ٣٥.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٧.

(٦) في (م): حصين، وهو خطأ. وعثمان بن محصن روى عن ابن عباس، مرسل. روى عنه نوح بن قيس الحداني. الجرح والتعديل ٦/ ١٦٧.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩، وأخرجه ابن أبي حاتم ٦/ ٢٠٥٤ (١١٠١٢).

ومعه تسعة[١]. وقال عطاء وجماعة: كانوا ثلاثة: جبريل، وميكائيل، ومعهما مَلَكٌ آخر[٢]. قال ابن عباس: سمَّاهم مكرَمين لأنهم غيرُ مَدْعُوِّين[٣]. وقال مجاهد: سمَّاهم مكرمين لخدمة إبراهيمَ إياهم بنفسه[٤].

قال عبد الوهَّاب: قال لي علي بن عياض[٥]: عندي هريسة، ما رأيك فيها؟ قلت: ما أحسنَ رأيي فيها! قال: امضِ بنا؛ فدخلتُ الدار، فنادى الغلام، فإذا هو غائب، فما راعني إلَّا به ومعه القُمْقُمة والطَّسْت، وعلى عاتقه المِنْديل، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، لو علمتُ يا أبا الحسن أنَّ الأمر هكذا. قال: هَوِّن عليك؛ فإنك عندنا مُكرم، والمُكرم إنما يُخدم بالنفس؛ انظر إلى قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا﴾ تقدَّم في «الحجر»[٦]. ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ﴾ أي: عليكم سلام. ويجوز بمعنى: أمري سلام، أو: ردِّي لكم سلام[٧].

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصماً: «سِلْمٌ» بكسر السين[٨].

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: أنتم قومٌ منكرون، أي: غرباء لا نعرفكم[٩]. وقيل: لأنه رآهم على غير صورة البشر، وعلى غير صورة الملائكة الذين كان يعرفهم، فنكِرَهم،

---

(١) مجمع البيان ٢٧/ ١٥ .

(٢) ذكره في الكشاف ٤/ ١٧ دون نسبة.

(٣) في (ظ) و(م): مذعورين، وهو خطأ، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٦٩ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٥ بنحوه.

(٥) في (ز): قال لي عياض. وعلي بن عياض ذكره ابن عساكر في تاريخه ٥/ ١٦ فيمن روى عن أحمد بن عطاء الروذباري الصوفي، فقال: القاضي أبو الحسن علي بن عياض بن أحمد بن أيوب بن أبي عقيل الصوري.

(٦) ١٢/ ٢٢٢ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٣ بنحوه.

(٨) السبعة ص٣٣٧ ، والتيسير ص١٢٥ .

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢ .

فقال: «قَوْمٌ مُنْكَرُونَ»[١]. وقيل: أنكرهم لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان. وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في ذلك الزمانِ وفي تلك الأرض[٢]. وقيل: خافهم؛ يقال: أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأَنْكَرَتْني وما كان الذي نَكِرَتْ ... مِن الحوادث إلَّا الشَّيبَ والصَّلَعا[٣]

قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ﴾ قال الزجَّاج[٤]: أي: عَدَلَ إلى أهله. وقد مضى في «والصافَّات»[٥]. ويقال: أراغ وارتاغ بمعنى طلب، وماذا تُرِيغ، أي: تريد وتطلب، وراغ[٦] إلى كذا، أي: مال إليه سِرًّا وحاد. فعلى هذا يكون راغ وأراغ لغتين بمعنى[٧].

﴿فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ﴾ أي: جاء ضيفَه بعجل قد شواه لهم، كما في «هود»: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجۡلٍ حَنِيذٖ﴾ [الآية:٦٩]. ويقال: إنَّ إبراهيم انطلق إلى منزله كالمستخفي من ضيفه، لئلَّا يظهروا على ما يريد أن يتَّخذَ لهم من الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ يعني العجل. ﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ قال قتادة: كان عامَّةُ مالِ إبراهيم البقر. واختاره لهم سميناً زيادةً في إكرامهم[٨]. وقيل: العِجل في بعض اللغات الشاة؛ ذكره القشيري. وفي الصحاح: العِجل ولد البقرة، والعِجَّوْل مثلُه، والجمع العَجاجيل، والأنثى عِجْلة، عن أبي الجرَّاح، وبقرة مُعْجِل: ذات عِجْل، وعِجْل قبيلةٌ من ربيعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ أي: أحسَّ منهم في نفسه خوفاً. وقيل: أضمر

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٢.
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والبيت في ديوان الأعشى ص١٥١، وفيه كلام؛ سلف ١١/ ١٦٣.
(٤) في معاني القرآن ٥/ ٥٤، ونقله المصنف عنه بواسطة النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.
(٥) ١٨/ ٥٣.
(٦) في النسخ: وأراغ، والمثبت من الصحاح وغيره.
(٧) لم نقف عليه في كتب اللغة.
(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٦.

لمَّا لم يَتحرَّموا بطعامه[١]. ومن أخلاق الناس أنَّ مَن تَحرَّم بطعام إنسانٍ أَمِنَه.

وقال عمرو بن دينار: قالت الملائكة: لا نأكل إلَّا بالثمن. قال: كلوا وأدُّوا ثمنه. قالوا: وما ثمنُه؟ قال: تسمُّون اللهَ إذا أكلتم، وتحمدونه إذا فرغتم. فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: لهذا اتخذك الله خليلاً. وقد تقدَّم هذا في «هود»[٢].

ولمَّا رأوا ما بإبراهيم من الخوف ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وأعلموه أنهم ملائكةُ الله ورسلُه. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بولد يولد له مِن سارة زوجتِه. وقيل: لمَّا أخبروه أنهم ملائكةٌ لم يصدِّقهم، فدَعَوا الله، فأحيا العجلَ الذي قرَّبه إليهم. وروى عون بن أبي شدَّاد: أنَّ جبريل مسح العجل بجناحه، فقام يدرج حتى لَحِقَ بأمه، وأُمُّ العجل في الدار[٣]. ومعنى «عَلِيمٍ» أي: يكون بعد بلوغه مِن أولي العلم بالله وبدينه.

والجمهور على أنَّ المبشَّر به هو إسحاق. وقال مجاهدٌ وحده: هو إسماعيل، وليس بشيء؛ فإنَّ الله تعالى: يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ [الصافات:١١٢]. وهذا نصٌّ[٤].

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: في صيحة وضجَّة؛ عن ابن عباس وغيره. ومنه أُخذ صريرُ الباب، وهو صوته[٥]. وقال عكرمة وقتادة: إنها الرَّنَّة والتأوُّه[٦]. ولم يكن هذا الإقبالُ من مكان إلى مكان؛ قال الفرَّاء[٧]: وإنما هو

---

(١) الكشاف ٤/ ١٨، وقوله: يتحرموا بطعامه، أي: يحرم عليهم بسببه ما يريدون به من سوء.

(٢) ١١/ ١٦٦. وينظر النكت والعيون ٥/ ٣٧٠، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٧ - ١٧٨.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، والكشاف ٤/ ١٨، والمحرر الوجيز ٥/ ١٧٨. وقول مجاهد أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٧ ورجح خلافه.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ بنحوه، وأخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عنه وعن غيره.

(٦) ذكر قول عكرمة الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٨، وقول قتادة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧١، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٨ - ٥٢٩ عن قتادة.

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٨٧.

كقولك: أقبل يشتِمني، أي: أخذ في شتمي. وقيل: أقبلت في صَرَّة، أي: في جماعة من النساء تسمع كلامَ الملائكة[(١)].

قال الجوهري: الصَّرَّة: الضَّجَّة والصيحة، والصَّرَّة: الجماعة، والصَّرَّة: الشِّدَّة مِن كرب وغيره، قال امرؤ القيس:

فألحقه بالهاديات ودونَهُ جَواحِرُها في صَرَّة لم تَزَيَّلِ

يحتمل هذا البيتُ الوجوهَ الثلاثة. وصَرَّةُ القيظ: شِدَّة حَرِّه[(٢)].

فلما سمعت سارة البِشارة، صَكَّت وجهها، أي: ضربت يدها على وجهها على عادة النِّسوان عند التعجُّب؛ قاله سفيان الثوريُّ وغيره[(٣)]. وقال ابن عباس: صَكَّت وجهها: لطمته[(٤)]. وأصل الصَّك: الضرب؛ صكَّه، أي ضربه؛ قال الراجز:

يا كَرَواناً صُكَّ فاكبأنّا[(٥)]

قال الأموي: كَبَن الظَّبي: إذا لطأ بالأرض، واكبَأنَّ: انقبض[(٦)].

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتلد عجوزٌ عقيم؟![(٧)].

---

(١) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٤.

(٢) الصحاح (صرر). وبيت امرئ القيس في ديوانه ص٢٢، وروايته: فألحقنا.. قال شارحه: قوله: فألحقنا بالهاديات، أي: ألحقنا الفرس بالمتقدمات من البقر. والجواحر: ما تخلف منها. والصرة: الجماعة. ومعنى: لم تزيل: لم تفرق، أي: جمع الفرس بين أواخرها وأوائلها، فلم يفت منها شيء.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٠ عن الثوري وغيره.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٢٩.

(٥) الصحاح (صكك)، وينظر (كبن). والرجز لمدرك بن حصن، وهو في إصلاح المنطق ص٩٦، والمعاني الكبير ١/ ٢٩٤، واللسان (كبن)، والخزانة ٣/ ١٨٧ (دار صادر). والكَرَوان: طائر، قيل: هو الحُبَارَى: الصحاح (كرى). والمقصود به هنا عامل الزكاة هجي به، كأنه قال: يا رجلاً كرواناً، أي: يا مثل الكروان بضعفه. الخزانة.

(٦) الصحاح (كبن).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٧١ عن مجاهد والسدي.

الزَّجَّاج[١]: أي: وقالت: أنا عجوز عقيم فكيف ألد؟! كما قالت: «يا وَيْلَتا أأَلد وأَنا عجوزٌ» [هود: ٧٢].

﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ أي: كما قلنا لكِ وأخبرناك ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ فلا تَشُكِّي فيه، وكان بين البشارة والولادة سَنَة، وكانت سارة لم تلد قبل ذلك، فولدت وهي بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيمُ يومئذ ابن مئةِ سنة، وقد مضى هذا[٢]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ حكيم فيما يفعله، عليمٌ بمصالح خَلْقه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لمَّا تيقَّن إبراهيم عليه السلام أنهم ملائكة بإحياء العجل والبشارة، قال لهم: «فَمَا خَطْبُكُمْ» أي: ما شأنكم وقِصَّتكم «أيُّها المرسَلون» ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يريد قومَ لوط. ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ أي: لنرجُمَهم بها.

﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي: مُعَلَّمة. قيل: كانت مخطَّطةً بسواد وبياض. وقيل: بسواد وحُمرة. وقيل: «مُسَوَّمَةً» أي: معروفة بأنها حجارة العذاب. وقيل: على كل حجر اسمُ من يَهلِك به. وقيل: عليها أمثالُ الخواتيم. وقد مضى هذا كلُّه في «هود»[٣]. فجَعلت الحجارة تتبع مسافريهم وشُذَّاذهم[٤]، فلم يُفلت منهم مُخبِر. ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي: عند الله، وقد أعدَّها لرجم مَن قضى برجمه. ثم قيل: كانت مطبوخة طبخَ الآجُرّ، قاله

---

(١) في معاني القرآن ٥/ ٥٥.
(٢) ١١/ ١٦٨ - ١٦٩.
(٣) ١١/ ١٨٧ -١٨٩.
(٤) المثبت من (م)، وفي غيرها: شدادهم. وفي القاموس: الشُّذَّاذ: الذين لم يكونوا في حيِّهم ومنازلهم.

ابن زيد؛ وهو معنى قولِه تعالى: ﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢] على ما تقدَّم بيانُه في «هود»(١). وقيل: هي الحجارة التي نراها، وأصلها طين، وإنما تصير حجارة بإحراق الشمس إياها على مرِّ الدهور. وإنما قال: «مِنْ طِينٍ» ليعلم أنها ليست حجارةَ الماء التي هي البَرَد؛ حكاه القشيري(٢).

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لمَّا أردنا إهلاكَ قوم لوط، أخرجنا مَن كان في قومه من المؤمنين؛ لئلا يَهلِكَ المؤمنون، وذلك قولُه تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]. ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ يعني لوطاً وبنتيه، وفيه إضمار؛ أي: فما وجدنا فيها غيرَ أهلِ بيت. وقد يقال: بيت شريف، يراد به الأهل. وقوله: «فِيهَا» كناية عن القرية، ولم يتقدَّم لها ذِكْر؛ لأن المعنى مفهوم(٣). وأيضاً فقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يدلُّ على القرية؛ لأن القوم إنما يسكنون قرية. وقيل: الضمير فيها للجماعة(٤)، والمؤمنون والمسلمون هاهنا سواء، فجنَّس اللفظ لئلا يتكرر، كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وقيل: الإيمان تصديق القلب، والإسلام الانقياد بالظاهر، فكلُّ مؤمنٍ مسلمٌ وليس كلُّ مسلم مؤمناً. فسمَّاهم في الآية الأولى مؤمنين؛ لأنه ما من مؤمن إلَّا وهو مسلم(٥). وقد مضى الكلام في هذا المعنى في «البقرة» وغيرها(٦). وقولُه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ [الحجرات: ١٤] يدل على الفرق بين الإيمان والإسلام، وهو مقتضى حديثِ جبريل عليه السلام في صحيح مسلم(٧) وغيره. وقد بيَّناه في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: عبرةً وعلامةً لأهل ذلك الزمانِ ومَن بعدهم؛

---

(١) ١١/١٦٨-١٦٩ .

(٢) وحكاه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/١٧٨ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥ ، والكشاف ٤/ ١٩ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٤٥ .

(٥) الوسيط للواحدي ٤/١٧٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٣ .

(٦) ٢/ ٣٩٦ ، ٤٠٧ - ٤٠٨ و٥/ ٦٨ .

(٧) برقم (٨) و(٩). وسلف ٥/ ٦٨ .

نظيرُه: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]. ثم قيل: الآية المتروكة نفس القرية الخَرِبة[١]. وقيل: الحجارة المنضودة التي رُجِموا بها هي الآية. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ لأنهم المنتفعون.

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ أي: وتركنا أيضاً في قصة موسى آية. وقال الفراء: هو معطوف على قوله: «وفي الأَرْض آياتٌ» «وفي مُوسَى»[٢]. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجّة بيّنة، وهي العصا. وقيل: أي: بالمعجزات؛ من العصا وغيرها.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ أي: فرعون؛ أعرض عن الإيمان «بِرُكْنِهِ» أي: بجموعه وأجناده؛ قاله ابن زيد. وهو معنى قولِ مجاهد[٣]. ومنه قولُه: «أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ» [هود: ٨٠] يعني المَنَعة والعشيرة. وقال ابن عباس وقتادة: بقوته[٤]. ومنه قول عنترة:

فما أَوْهَى مِراسُ الحربِ رُكْني ... ولكنْ ما تقادَمَ مِن زماني[٥]

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٧ بنحوه.

(٢) لم نقف على كلام الفراء، وذكر الوجهين الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٦، والزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩.

(٣) أخرجه وقولَ ابن زيد الطبري ٢١/ ٥٣٤ - ٥٣٥.

(٤) في (ظ): لقومه (كذا) والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢ عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأخرجه عنه الطبري ٢١/ ٥٣٤ على الشك فقال: بقوته أو بقومه. أبو جعفر يشك. أي: الطبري. وأما قتادة فقد أخرج عنه ٢١/ ٥٣٥ قوله: بقومه، وكذا أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٤٤، وذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠.

(٥) ونسبه أيضاً لعنترة المبرِّد في الكامل ١/ ٢٨٥، وليس هو في المطبوع من ديوانه. والكلام في النكت والعيون ٥/ ٣٧٢.

وقيل: بنفسه. وقال الأخفش(١): بجانبه؛ كقوله تعالى: ﴿أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٣] وقاله المؤرِّج.

الجوهري(٢): ورُكْن الشيء جانبه الأقوى، وهو يأوي إلى ركن شديد، أي: عِزٍّ ومَنَعة. القشيري: والركن جانب البدن. وهذا عبارةٌ عن المبالغة في الإعراض عن الشيء.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «أو» بمعنى الواو، لأنهم قالوهما جميعاً(٣). قاله المؤرِّج والفرَّاء، وأنشد بيت جرير(٤):

أثَعْلَبَةَ الفوارسَ أو رِياحاً عَدَلْتَ بهم طُهَيَّةَ والخِشَابا

وقد توضع «أو» بمعنى الواو؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤]. والواوُ بمعنى «أو»، كقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [النساء: ٣] وقد تقدَّم جميع هذا(٥).

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ﴾ لكفرهم وتولِّيهم عن الإيمان. ﴿فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: طرحناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ يعني فرعون، لأنه أتى ما يلام عليه.

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وتركنا في عاد آيةً لمن تأمَّل. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وهي التي لا تُلْقح سحاباً ولا شجراً، ولا رحمةَ فيها ولا بركة ولا منفعة؛

---

(١) المصدر السابق.

(٢) في الصحاح (ركن).

(٣) مجاز القرآن ٢/ ٢٢٧. وقد ضعفه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ٢٤٦، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٠.

(٤) أنشده أبو عبيدة في مجاز القرآن. وسلف ١٧/ ٣١٣.

(٥) ١/ ٣٢٥، ٦/ ٣٣ - ٣٥.

ومنه: امرأة عقيم لا تحمل ولا تلد. ثم قيل: هي الجَنُوب؛ روى ابن أبي ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن، عن النبيِّ ﷺ قال[١]: «الريح العقِيم الجَنُوب». وقال مقاتل: هي الدَّبُور[٢]، كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «نُصِرت بالصَّبَا، وأُهلِكت عادٌ بالدَّبُور»[٣]. وقال ابن عباس: هي النَّكْباء[٤]. وقال عُبيد بن عُمير: مسكنها الأرض الرابعة، وما فتح على عاد منها إلا كقَدْر مَنْخِر الثور. وروى ابن أبي نَجيح عن مجاهد أنها الصَّبا[٥]؛ فالله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ أي: كالشيء الهشيم؛ يقال للنبت إذا يبس وتفتَّت: رميم وهشيم. قال ابن عباس: كالشيء الهالك البالي؛ وقاله مجاهد[٦]. ومنه قول الشاعر[٧]:

تركْتَني حين كَفَّ الدَّهرُ مِن بصري ... وإذ بَقِيتُ كعَظْم الرِّمَّة البالي

وقال قتادة: إنه الذي دِيس من يابس النبات. وقال أبو العالية والسُّدِّيّ: كالتراب المدقوق. قُطْرب: الرَّمِيم: الرَّماد[٨]. وقال يمان: ما رَمَته الماشية من الكلأ بمِرَمَّتها. ويقال للشَّفَة: المِرَمَّة والمِقَمَّة، بالكسر، والمَرَمَّة ـ بالفتح ـ لغةٌ فيه. وأصل الكلمة مِن: رَمَّ العظمُ: إذا بَلي؛ تقول منه: رَمَّ العظم يَرِمُّ ـ بالكسر ـ رِمَّة، فهو رمِيم،

---

(١) كذا في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٣٨، وأبو الشيخ في العظمة (٨٥١) بهذا السند عن سعيد بن المسيب من كلامه.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣. والدَّبُور: الريح التي تقابل الصَّبا. النهاية (دبر).

(٣) صحيح البخاري (١٠٣٥)، وصحيح مسلم (٩٠٠). وسلف ٢/ ٤٩٩.

(٤) ذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ١٩، وابن عطية في المحرر ٥/ ١٨٠ عن علي ﷺ، وكذا أخرجه الفريابي وابن المنذر كما في الدر المنثور ٦/ ١١٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣.

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢١/ ٥٤٠. وقول مجاهد في النكت والعيون.

(٧) هو جرير، والبيت في شرح ديوانه ٢/ ٥٨٤ باختلاف يسير، وهو براوية المصنف في النكت والعيون.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ دون ذكر أبي العالية، وقوله في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٣.

قال الشاعر:

ورأى عـواقـبَ خُـلْـفِ ذاك مَـذَمَّـةً تَـبـقَـى عـلـيـه والـعِـظـامُ رَمِـيـمُ[١]

والرِّمَّة ـ بالكسر ـ العظام البالية، والجمع: رِمَم ورِمَام[٢]. ونظيرُ هذه الآية: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥] حسَب ما تقدَّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ أي: وفيهم أيضاً عِبْرةٌ وآية حين قيل لهم: عيشوا متمتِّعين بالدنيا ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى وقت الهلاك، وهو ثلاثة أيام كما في هود: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٦٥]. وقيل: معنى «تَمَتَّعُوا» أي: أسلِموا وتمتَّعوا إلى وقت فراغ آجالِكم. ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: خالَفوا أمر الله، فعقروا الناقة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي: الموت. وقيل: هي كلُّ عذاب مُهلِك[٤]. قال الحسين[٥] بن واقد: كلُّ صاعقة في القرآن فهو العذاب.

وقرأ عمر بن الخطاب وحميد وابن مُحَيْصِن ومجاهدٌ والكسائي: «الصَّعْقة»[٦]؛ يقال: صَعِق الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِي عليه. وصَعَقتهم السماء: إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضاً صيحة العذاب[٧]. وقد مضى في «البقرة»[٨] وغيرها.

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (رمم).

(٣) ص٢١٤-٢١٥ من هذا الجزء.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٧٩، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤، والقول الأول نسباه لابن عباس.

(٥) في النسخ الخطية: الحسن.

(٦) أخرجها عن عمر الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨، والطبري في تفسيره ٢١/ ٥٤٢، وهي عن الكسائي في السبعة ص٦٠٩، والتيسير ٢٠٣.

(٧) الصحاح (صعق).

(٨) ١/ ٣٣٠ - ٣٣٢.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها نهاراً[١].

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ قيل: معناه: من نهوض[٢]. وقيل: ما أطاقوا أن يستقِلُّوا بعذاب الله وأن يتحمَّلوه ويقوموا به ويدفعوه عن أنفسهم؛ تقول: لا أقوم لهذا الأمر، أي: لا أطيقه[٣]. وقال ابن عباس: أي: ذهبت أجسامهم وبقيت أرواحهم في العذاب. ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: ممتنعين من العذاب حين أُهلكوا، أي: ما كان لهم ناصر.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ قرأ حمزة والكسائيُّ وأبو عمرو: «وَقَومِ نُوحٍ» بالخفض، أي: وفي قوم نوحٍ آيةٌ أيضاً. الباقون بالنصب[٤] على معنى: وأهلكنا قوم نوح، أو يكون معطوفاً على الهاء والميم في «أَخذَتْهُمْ»، أو الهاء في«أَخَذناهُ»، أي: فأخذتْهم الصاعقة وأخذتْ قومَ نوح، أو: «نَبَذناهُمْ في اليمِّ» ونبذنا قومَ نوح[٥]، أو يكون بمعنى: اذكر[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ لمَّا بيَّن هذه الآيات قال: وفي السماء آياتٌ وعِبَرٌ تدلُّ على أنَّ الصانع قادر على الكمال، فعَطَفَ أمر السماء على قصة قوم نوحٍ

(١) الكشاف ٤/ ١٩.

(٢) أخرج هذا القول الطبري ٢١/ ٥٤٣ عن قتادة.

(٣) ذكره بمعناه الفراء في معاني القرآن ٣/ ٨٨.

(٤) السبعة ص٦٠٩، والتيسير ص٢٠٣.

(٥) وهو الوجه الذي استحسنه الزجاج في معاني القرآن ٥/ ٥٧ وقال: لأن المعنى: فأغرقناه وجنودَه وأغرقنا قوم نوح من قبل.

(٦) كره الفراء في معانيه ٣/ ٨٨-٨٩ هذا التقدير، وكره أيضاً النصب على معنى: وأهلكنا قوم نوح، والعطفَ على الهاء والميم في «أخَذَتْهم». وذكر هذه الأوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٨٩.

لأنهما آيتان. ومعنى «بِأَيْدٍ» أي: بقوة وقدرة. عن ابن عباس وغيره[١].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ قال ابن عباس: لقادرون. وقيل: أي: وإنَّا لذو سَعة، بخلقها وخلقِ غيرها؛ لا يضيق علينا شيءٌ نريده. وقيل: أي: وإنا لموسِعون الرزقَ على خَلْقنا. عن ابن عباس أيضاً. الحسن: وإنا لمطيقون. وعنه أيضاً: وإنا لموسعون الرزقَ بالمطر. وقال الضحَّاك: أغنيناكم؛ دليلُه: ﴿عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾[٢] [البقرة:٢٣٦]. وقال القُتَبي: ذو سَعةٍ على خلقنا[٣]. والمعنى متقارب. وقيل: جعلنا بينها وبين الأرض سعة[٤]. الجوهري: وأوسعَ الرجلُ، أي: صار ذا سَعة وغِنىً، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: أغنياء قادرون[٥]. فشمل جميع الأقوال.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا﴾ أي: بسطناها كالفِراش على وجه الماء ومددناها. ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ أي: فنعم الماهدون نحن لهم. والمعنى في الجمع التعظيمُ؛ مَهَدْت الفِراشَ مَهْداً: بَسَطْته ووطَّأته، وتمهيد الأمور: تسويتُها وإصلاحها[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ أي: صنفين ونوعين مختلفين. قال ابن زيد: أي ذكراً وأنثى[٧]، وحلواً وحامضاً، ونحو ذلك. مجاهد[٨]: يعني الذَّكَرَ والأنثى، والسماءَ والأرض، والشمس والقمر، والليل والنهار، والنور والظلام، والسهل والجبل، والجِنَّ والإنس، والخير والشرَّ، والبُكْرة والعَشيَّ، وكالأشياء المختلفة الألوان من الطُّعوم والأراييح والأصوات. أي: جعلنا هذا هكذا[٩] دَلالةً

---

(١) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢١/ ٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٢) هذه الأقوال في النكت والعيون ٥/ ٣٧٣ - ٣٧٤ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٤ .

(٣) تفسير غريب القرآن ص٤٢٢ ، وفي زاد المسير ٨/ ٤١ نقلاً عنه: أي لقادرون.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٧ .

(٥) الصحاح (وسع).

(٦) الصحاح (مهد).

(٧) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٤٨ ، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٨٩ .

(٨) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٤٧ بنحوه.

(٩) في (م): كهذا.

على قدرتنا، ومَن قَدَرَ على هذا فليقدر على الإعادة.

وقيل: «ومِنْ كلِّ شَيءٍ خَلَقْنا زوجَينِ» لتعلموا أنَّ خالق الأزواج فرد، فلا يقدَّر في صفته حركةٌ ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ هو عزَّ وجلَّ وِتر[1] «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ وَلَا تَجْعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥ ﴾

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ لما تقدَّم ما جرى مِن تكذيب أممهم لأنبيائهم وإهلاكهم؛ لذلك قال الله تعالى لنبيه ﷺ: قل لهم يا محمد، أي: قل لقومك: «ففِرُّوا إلى الله إنِّي لكُمْ منه نذيرٌ مُبينٌ﴾ أي: فِرُّوا من معاصيه إلى طاعته. وقال ابن عباس: فِرُّوا إلى الله بالتوبة من ذنوبكم. وعنه: فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعته[2]. وقال محمد بن عبد الله بنِ عمرو بن عثمان بن عفان[3]: «ففِرُّوا إلى الله» اخرجوا إلى مكة. وقال الحسين[4] بن الفضل: احترزوا من كل شيءٍ دون الله؛ فمَن فرَّ إلى غيره لم يمتنع منه. وقال أبو بكر الورَّاق: فِرُّوا من طاعة الشيطان إلى طاعة الرحمن. وقال الجُنَيد: الشيطان داعٍ إلى الباطل؛ ففروا إلى الله يمنعكم منه. وقال ذو النون المصري: ففِرُّوا من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الشكر. وقال عمرو بن

---

(١) قوله: هو عز وجل وتر، قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه عنه أحمد (٧٦٢٣)، (٨١٤٦)، والبخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧). وفي الباب عن علي ﷺ، أخرجه أحمد (٨٧٧)، وأبو داود (١٤١٦)، والترمذي (٤٥٣)، والنسائي ٣/ ٢٨٨ - ٢٢٩، وابن ماجه (١١٦٩).

(٢) ذكر قوله الثاني البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤.

(٣) هو أبو عبد الله العثماني المدني، الملقب بالديباج لحسنه، كان جواداً سخياً، ذا مروءة وسؤدد وحشمة. توفي سنة ١٤٥ هـ. السير ٦/ ٢٢٤.

(٤) في (ز): الحسن.

عثمان: فِرُّوا من أنفسكم إلى ربكم. وقال أيضاً: فِرُّوا إلى ما سبق لكم من الله، ولا تعتمدوا على حركاتكم. وقال سهل بن عبد الله: فِرُّوا مما سوى الله إلى الله[١].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: أُنذركم عقابَه على الكفر والمعصية.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ أَمَرَ محمداً ﷺ أن يقولَ هذا للناس وهو النذير. وقيل: هو خطابٌ من الله للخلق. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي: من محمد وسيوفه ﴿نَذِيرٌ﴾ أي: أُنذركم بأسَه وسيفه إن أشركتم بي؛ قاله ابن عباس.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ هذا تسليةٌ للنبيِّ ﷺ، أي: كما كذَّبك قومك وقالوا: ساحر أو مجنون، كذَّب مَن قبلهم وقالوا مِثْلَ قولهم.

والكاف من «كَذَٰلِكَ» يجوز أن تكون نصباً على تقدير: أُنذركم إنذاراً كإنذار مَن تقدَّمني مِن الرسل الذين أَنذروا قومهم، أو رفعاً على تقدير: الأمرُ كذلك، أي: كالأول. والأوَّل تخويفٌ لمن عصاه من الموحِّدين، والثاني لمن أشرك به من الملحِدين[٢]. والتمام على قوله: «كَذَٰلِكَ»[٣]، عن يعقوب وغيره.

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِۦ﴾ أي: أوصى أوَّلُهم آخرَهم بالتكذيب. وتواطؤوا عليه! والألف للتوبيخ والتعجب. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: لم يوصِ بعضُهم بعضاً، بل جمَعهم الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ في الكفر.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرِض عنهم واصفح عنهم ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ عند الله؛ لأنك أدَّيت ما عليك من تبليغ الرسالة. ثم نسخ هذا بقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقيل: نسخ بآية السيف. والأوَّل قول الضحَّاك؛ لأنه قد أمر بالإقبال عليهم بالموعظة[٤].

---

(١) ذكر قوله البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٤ .

(٢) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٠ .

(٣) المكتفى في الوقف والابتداء ص٥٣٨ .

(٤) الكلام بنحوه في الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ص٤١٩ ، والناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٨ ، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢ .

وقال مجاهد: «فَتَوَلَّ عَنْهُمْ»: فأعرض عنهم[١]. «فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ» أي: ليس يلومك ربُّك على تقصيرٍ كان منك[٢]. «وَذَكِّرْ» أي: بالعِظة؛ فإنَّ العِظة «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». قتادة: «وَذَكِّرْ» بالقرآن[٣] «فَإِنَّ الذِّكْرَى» به «تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ». وقيل: ذكِّرهم بالعقوبة وأيامِ الله[٤]. وخصَّ المؤمنين؛ لأنهم المنتفعون بها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قيل: إنَّ هذا خاصٌّ فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص، والمعنى: وما خلقتُ أهل السعادة من الجنِّ والإنس إلَّا ليوحِّدون. قال القشيريّ: والآية دخلها التخصيصُ على القطع؛ لأن المجانين والصبيان ما أُمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومن خُلق لجهنم لا يكون ممَّن خُلق للعبادة، فالآية محمولةٌ على المؤمنين منهم؛ وهو كقوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤] وإنما قال فريق منهم. ذكره الضحاك والكلبي والفرّاء والقتبي[٥].

وفي قراءة عبدِ الله: «وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ مِنَ المُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»[٦].

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥١.

(٢) الناسخ والمنسوخ للنحاس ٣/ ٢٩.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، والأول ذكره عن مجاهد.

(٤) معاني القرآن للزجاج بنحوه ٥/ ٥٨.

(٥) ذكر قولهم الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨١، وقول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٨٩، وقول القتبي في تأويل مشكل القرآن له ص١١٧ - ١١٨.

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥.

وقال عليٌّ ﷺ: أي: وما خلقت الجنَّ والإنس إلَّا لآمُرَهم بالعبادة. واعتمد الزجَّاج على هذا القول[١]، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ﴾ [التوبة: ٣١].

فإن قيل: كيف كفروا وقد خلقهم للإقرار بربوبيَّته والتذلُّلِ لأمره ومشيئته؟ قيل: قد تذلَّلوا لقضائه عليهم؛ لأن قضاءه جارٍ عليهم لا يقدرون على الامتناع منه، وإنما خالفه[٢] مَن كفر في العمل بما أمره به، فأما التذلُّلُ لقضائه فإنه غير ممتنع منه.

وقيل: «إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» أي: إلَّا لِيُقرُّوا لي بالعبادة طوعاً أو كَرهاً؛ رواه عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[٣]. فالكره ما يُرَى فيهم من أثر الصَّنعة. مجاهد: إلَّا ليعرفوني. الثعلبي: وهذا قولٌ حسن؛ لأنه لو لم يخلقهم لَمَا عُرف وجودُه وتوحيده. ودليلُ هذا التأويلِ قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[٤] [الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩]، وما أشبه هذا من الآيات. وعن مجاهد أيضاً: إلَّا لآمُرهم وأنهاهم. زيد بن أسلم: هو ما جُبِلوا عليه من الشِّقوة والسعادة[٥]؛ فخَلَقَ السعداءَ من الجنِّ والإنس للعبادة، وخلق الأشقياءَ منهم للمعصية. وعن الكلبيِّ أيضاً: إلَّا ليوحِّدون، فأمَّا المؤمن فيوحِّدُه في الشِّدَّة والرَّخاء، وأما الكافر فيوحِّده في الشدَّة والبلاء دون النعمة والرَّخاء؛ يدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[٦] [لقمان: ٣٢] الآية. وقال عِكْرمة: إلَّا ليعبدون ويطيعون، فأُثيبُ العابد وأعاقب الجاحد. وقيل: المعنى: إلَّا لأستعبدهم. والمعنى متقارب؛ تقول: عبدٌ بيِّن العُبُودة

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٥٨، وقول علي ﷺ في تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ١٨٢.

(٢) في (م): خالفهم، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في تفسير الطبري ٢١/ ٥٥٥.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٤.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٤، وقول زيد بن أسلم أخرجه الطبري ٢١/ ٥٥٣ - ٥٥٤.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٥ دون نسبة.

والعبوديَّة، وأصل العبودية الخضوعُ والذُّلّ. والتعبيد التذليل؛ يقال: طريق معبَّد[١]. قال[٢]:

وظِيفاً وَظِيفاً فوقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ

والتعبيد الاستعباد، وهو أن يتَّخذَه عبداً، وكذلك الاعتباد. والعبادة: الطاعة، والتَّعبُّد التَّنسك[٣]. فمعنى «لِيَعْبُدُون»: لِيَذِلُّوا ويخضعوا ويعبدوا.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ «مِنْ» صِلة، أي: رِزقاً، بل أنا الرزَّاق والمعطي. وقال ابن عباس وأبو الجوزاء: أي: ما أريد أن يرزقوا أنفسهم ولا أن يطعموها[٤]. وقيل: المعنى: ما أريد أن يرزقوا عبادي ولا أن يطعموهم[٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ وقرأ ابن مُحيصِن وغيرُه: «الرَّازِقُ»[٦]. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ أي: الشديد القويّ.

وقرأ الأعمش ويحيى بنُ وثَّاب والنَّخعي: «المَتِينِ» بالجرِّ على النعت لـ «القوَّةِ»[٧].

الباقون بالرفع على النعت لـ «الرزَّاق»، أو «ذُو» مِن قوله: «ذُو القُوَّةِ» أو يكون خبرَ ابتداءٍ محذوف؛ أو نعتاً لاسم «إنّ» على الموضع، أو خبراً بعد خبر[٨]. قال

---

(١) الصحاح (عبد).

(٢) هو طرفة، والبيت في ديوانه ص٢٢ ، وسلف ١/ ٣٤١ .

(٣) الصحاح (عبد).

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ٢١/ ٥٥٥ عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ لأبي الجوزاء.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ .

(٦) القراءات الشاذة ص١٤٥ .

(٧) ذكرها عن الأعمش ويحيى بن وثاب ابن جني في المحتسب ٢/ ٢٨٩ ، وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٤٥ عن يحيى بن وثاب.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٢ .

الفرَّاء[١]: كان حقه: المتينة؛ فذكَّره لأنه ذهب بها إلى الشيء المبرَم المحكَم الفَتْلِ؛ يقال: حبل متين. وأنشد الفرَّاء:

لِـكُـلِّ دهـرٍ قـد لَـبِـسْـتُ أَثْـوُبـا حتى اكْـتَـسَى الرَّأْسُ قِـنَـاعاً أَشْـيَبَا
مِـن ريـطـةٍ والـيُـمْـنَـةَ الـمُـعَـصَّـبـا[٢]

فذكَّر المعصَّب؛ لأن اليمنة صنفٌ من الثياب؛ ومن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ﴾ [البقرة: ٢٧٥] أي: وَعْظٌ، ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٦٧] أي: الصياحُ والصوت.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا من أهل مكة[٣] ﴿ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ أي: نصيباً من العذاب مثلَ نصيبِ الكفار من الأمم السالفة. وقال ابن الأعرابي: يقال: يومٌ ذَنُوب، أي: طويل الشرِّ لا ينقضي. وأصل الذَّنُوب في اللغة الدَّلْوُ العظيمة[٤]، وكانوا يستقون الماء، فيقسمون ذلك على الأنصباء؛ فقيل للذَّنُوب نصيبٌ مِن هذا[٥]، قال الراجز:

لَـنَـا ذَنُـوبٌ ولَـكُـمْ ذَنُـوبُ فـإنْ أَبَـيْـتُـمْ فـلـنـا الـقَـلِـيـبُ[٦]

وقال علقمة:

---

(١) في معاني القرآن ٣/ ٩٠ .

(٢) البيت الأول والثالث في معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٦ .
والأبيات ضمن أرجوزة نسبت لمعروف بن عبد الرحمن، كما ذكر محقق ديوان حميد بن ثور ص٦١ . الريطة: المُلاءة من قطعة واحدة. واليُمْنَة، بضم الياء وفتحها: بُرد يمني. والمعصَّب: ضرب من البرود يصبغ غزله ثم ينسج. شرح الديوان.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٦ .

(٤) تهذيب اللغة ١٤/ ٤٤٠ ، ٤٣٩ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص٤٢٣ ، والكشاف ٤/ ٢١ .

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩٠ ، وتفسير الطبري ٢١/ ٥٥٧ ، والكشاف ٤/ ٢١ ، واللسان (ذنب) دون نسبة.

وفي كلِّ يومٍ قد خَبَطْتَ بنعمةٍ فحُقَّ لِشَأْسٍ مِن نَداك ذَنُوبُ[١]

وقال آخر[٢]:

لَعَمْرُكَ والمنايا طارِقاتٌ لكلِّ بَني أبٍ منها ذَنُوبُ

الجوهري: والذَّنُوب: الفرس الطويل الذَّنب، والذَّنُوب: النصيب، والذَّنُوب: لحم أسفل المَتْن، والذَّنُوب: الدَّلو الملأى ماءً. وقال ابن السِّكِّيت: فيها ماءٌ قريب من المَلْء، يؤنَّث ويذكَّر، ولا يقال لها وهي فارغة: ذَنُوب، والجمع في أدنى العدد أَذْنِبة، والكثير ذَنائِب، مثل: قَلُوص وقَلَائص[٣].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلوا نزول العذاب بهم؛ لأنهم قالوا: يا محمد «فأْتنا بما تَعِدُنا إنْ كُنتَ مِن الصَّادقين» [الأعراف: ٧٠]. فنزل بهم يومَ بدرٍ ما حقَّق الله تعالى به وعدَه، وعجَّل به انتقامه[٤]، ثم لهم في الآخرة العذابُ الدائم، والخزيُ القائم الذي لا انقطاع له ولا نفاد، ولا غاية ولا آباد.

تم تفسير سورة الذاريات، والحمدُ لله

(١) ديوان علقمة الفحل ص٤٨ . وشأس أخوه.

(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي والبيت في ديوان الهذليين ١/ ٩٢ .

(٣) الصحاح (ذنب).

(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٧٥ .

سورة «والطور»

مكية كلُّها في قول الجميع، وهي تسعٌ[1] وأربعون آية

روى الأئمة عن جُبير بن مُطْعِم قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقرأ بالطُّور في المغرب. متفق عليه[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ① وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ② فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ③ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ④ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ⑤ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ⑥ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ⑦ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ⑧﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ﴾ الطُّور اسمُ الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى[3]، أقسم الله به تشريفاً له وتكريماً وتذكيراً لِمَا فيه من الآيات، وهو أحدُ جبال الجنة.

وروى إسماعيل بن إسحاق قال: حدّثنا إسماعيل بن أبي أويس، قال: حدَّثنا كثير بنُ عبد الله بنِ عمرو بن عوف، عن أبيه، عن جدِّه أنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أربعةُ أجْبُلٍ من جبال الجنة، وأربعةُ أنهار من أنهار الجنة، وأربعة مَلَاحم من مَلَاحم الجنة» قيل: فما الأَجْبُل؟ قال: «جَبَلُ أُحُد يحبُّنا ونحبُّه، والطُّورُ جبلٌ من جبال الجنة، ولُبْنان جبلٌ من جبال الجنة، والجوديّ جبلٌ من جبال الجنة»[4]

---

(١) في النسخ الخطية: ثمان، وذكر هذا القول الزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ بصيغة التضعيف، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في التفاسير.

(٢) صحيح البخاري (٧٦٥)، وصحيح مسلم (٤٦٣)، وهو عند أحمد (١٦٧٣٥).

(٣) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٦، والكشاف ٤/ ٢٢.

(٤) أخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة ١/ ٨٠ - ٨١، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٠٨٠، والطبراني في الكبير ١٧/ ١٨ (١٩) من طريق كثير بن عبد الله، به. ولم يذكر ابن عدي والطبراني جبل الجودي، ووقع بدله عند ابن شبة: وَرْقَان، وإسناده ضعيف جداً. كثير بن عبد الله ضعفه ابن معين وأحمد =

وذكر الحديث، وقد استوفيناه في كتاب «التذكرة»[(١)].

قال مجاهد: الطُّور هو بالسريانية: الجبلُ[(٢)]، والمراد به طور سِيناء. وقاله السُّدِّي[(٣)]. وقال مقاتل بن حيَّان: هما طوران؛ يقال لأحدهما: طُورُ سِيناء، والآخر طورُ زيتا[(٤)]؛ لأنَّهما يُنبِتان التين والزيتون[(٥)]. وقيل: هو جبل بمَدْيَن، واسمه: زَبير.[(٦)] قال الجوهريُّ: والزَّبير: الجبل الذي كلَّم الله عليه موسى عليه السلام[(٧)].

قلت: ومدينُ بالأرض المقدَّسة، وهي قرية شعيبٍ عليه السلام.

وقيل: إن الطُّور كلُّ جبل أنبت، وما لا يُنبِت فليس بطور. قاله ابن عباس[(٨)]. وقد مضى في «البقرة» مستوفى[(٩)].

قوله تعالى: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ أي: مكتوب، يعني القرآنَ يقرؤه المؤمنون من المصاحف، ويقرؤه الملائكة من اللَّوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾.

= وأبو حاتم والنسائي، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن حبان: له عن أبيه عن جدّه نسخة موضوعة، وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. اهـ. وأبوه عبد الله بن عمرو مجهول، فقد تفرد بالرواية عنه ابنه كثير. ميزان الاعتدال ٢/ ٤٦٧ و٣/ ٤٠٦-٤٠٧.

(١) ص ٤٤٥ - ٤٤٦.

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٣، وأورده الطبري ٢١/ ٥٦١، وحكى ابن عطية عن الطبري إيراده قول مجاهد، ثم تعقبه بقوله: وهذا ضعيف لأن ما حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يسمى بالطور، وهو طور سيناء.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧.

(٤) طور زيتا: هو جبل بقرب رأس عين قنطرة الخابور، على رأسه شجر زيتون، يسقيه المطر، ولذلك سمي طور زيتا. معجم البلدان ٤/ ٤٧ - ٤٨.

(٥) قول مقاتل في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٥ مختصر بلفظ: هما طوران.

(٦) مراح لبيد ٢/ ٣٢٧، وفي النكت والعيون عن مقاتل: يسمى هذا الطور زبير.

(٧) لم نقف عليه من كلامه، وذكره ابن الأثير في النهاية (زبر) دون نسبة. وأورده الزَّبيدي أيضاً في تاج العروس دون نسبة وقال: أجمع المفسرون على أن جبل المناجاة هو الطور.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٣٧٦.

(٩) ٢/ ١٦٤.

فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [الواقعة: ٧٨]. وقيل: يعني سائرَ الكتب المنزَّلة على الأنبياء.

وكان كلُّ كتاب في رَقٍّ ينشره أهله لقراءته. وقال الكلبي: هو ما كتب الله لموسى بيده من التوراة وموسى يسمع صَرِيرَ القلم(١). وقال الفراء: هو صحائف الأعمال، فمِن آخذٍ كتابَه بيمينه، ومِن آخذٍ كتابَه بشماله(٢)، نظيره: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣]، وقولُه: ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ﴾ [التكوير: ١٠]. وقيل: إنه الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته في السماء، يقرؤون فيه ما كان وما يكون(٣). وقيل: المراد ما كتب الله في قلوب الأولياء من المؤمنين، بيانُه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قلت: وفي هذا القول تَجوُّز؛ لأنه عبَّر بالقلوب عن الرَّق. قال المبرِّد: الرَّقُّ: ما رُقِّق من الجِلد ليُكتب فيه، والمنشور: المبسوط. وكذا قال الجوهري في الصحاح(٤)، قال: والرَّق ـ بالفتح ـ: ما يُكتب فيه وهو جلدٌ رقيق، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾. والرَّق أيضًا: العظيم من السَّلاحِف. قال أبو عبيد(٥): وجمعه رُقُوق. والمعنى المراد ما قاله الفراء، والله أعلم. وكلُّ صحيفة فهي رَقٌّ لرِقّة حواشيها، ومنه قول المتلمّس:

فـكـأنَّـمـا هـي مـن تَـقَـادُمِ عَـهْـدِهـا رَقٌّ أُتِـيـح كـتـابُـهـا مَـسـطـورُ(٦)

وأمَّا الرِّق: ـ بالكسر ـ فهو المِلْك(٧)، يقال: عبدٌ مرقوق. وحكى الماورديُّ(٨)

(١) أورده البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٦ .
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ٩١ ، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٤) مادة (رقق) .
(٥) في (د) و(م) : أبو عبيدة .
(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .
(٧) الصحاح (رقق) .
(٨) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧ .

عن ابن عباس: أن الرَّق ـ بالفتح ـ ما بين المشرق والمغرب.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ قال عليٌّ وابن عباس وغيرهما: هو بيت في السماء حِيَال الكعبة، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ ملَك، ثم يخرجون منه، فلا يعودون إليه[1]. قال عليٌّ ﷺ: هو بيت في السماء السادسة[2]. وقيل: في السماء الرابعة[3]. روى أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعة قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتيَ بي إلى السماء الرابعة، فرُفِع لنا البيتُ المعمور، فإذا هو حِيالُ الكعبة، لو خَرَّ خَرَّ عليها، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه» ذكره الماورديُّ[4].

وحكى القشيريُّ عن ابن عباس: إنه في السماء الدنيا. وقال أبو بكر الأنباري: سأل ابن الكَوَّاء عليًّا ﷺ قال: فما البيت المعمور؟ قال: بيتٌ فوق سبع سماوات تحت العرش يقال له: الضُّراح[5]. وكذا في «الصحاح»: والضُّراح ـ بالضم ـ بيت في السماء، وهو البيت المعمور عن ابن عباس[6]. وعُمْرانه: كثرةُ غاشيته من الملائكة. وقال المهدويُّ عنه: حِذاء العرش.

والذي في صحيح مسلم، عن مالك بن صعصعة عن النبيِّ ﷺ في حديث الإسراء: «ثم رُفع لي[7] البيتُ المعمور، فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢، والنكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وأخرجه عنهما الطبري ٢١/ ٥٦٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣.

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٢ وروى البخاري (٣٢٠٧) و(٣٨٨٧) ومسلم (١٦٤) من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة أنه في السماء السابعة.

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٣٧٧، وفيه: السماء السابعة: بدل: السماء الرابعة، وهي رواية عن أنس كما ذكر الحافظ في الفتح ٦/ ٣٠٩، وقال: أكثر الروايات أنه في السماء السابعة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٧ وعزاه لابن الأنباري في المصاحف.

(٦) الصحاح (ضرح)، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٩٩٧) عن ابن عباس بلفظ: إن في السماء بيتاً يقال له: الضراح، وهو فوق البيت العتيق من حياله ...

(٧) في (د) و(م): إليّ.

المعمور، يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»[١] وذكر الحديث.

وفي حديث ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «أُتيت بالبُرَاق» الحديث، وفيه: «ثم عُرِج بنا إلى السماء[٢] السابعة، فاستفتح جبريل عليه السلام، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمدٌ ﷺ. قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإبراهيمَ عليه السلام مسنداً ظهرَه إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كلَّ يوم سبعون ألفَ مَلَك لا يعودون إليه»[٣].

وعن ابن عباس أيضاً قال: لله في السماوات والأرضين خمسةَ عشرَ بيتاً، سبعةٌ في السماوات، وسبعة في الأرضين، والكعبة، وكلُّها مقابلة للكعبة.

وقال الحسن: البيت المعمور هو الكعبة؛ البيت الحرام؛ الذي هو معمور من الناس، يعمره الله كلَّ سنة بستِّ مئة ألف، فإن عجز الناس عن ذلك أتمَّه الله بالملائكة، وهو أوّل بيت وضعه الله للعبادة في الأرض[٤].

وقال الربيع بن أنس: إنَّ البيت المعمور كان في الأرض موضعَ الكعبة في زمان آدم عليه السلام، فلمَّا كان زمانُ نوح عليه السلام أمرهم أن يحجُّوا، فأَبَوا عليه وعصَوه، فلمَّا طغى الماء، رُفِع، فجُعل بحِذائه في السماء الدنيا، فيَعمرُه كلَّ يوم سبعونَ ألفَ ملَك، ثم لا يرجعون إليه حتى يُنفخ في الصور، قال: فبوَّأ الله جلَّ وعزَّ لإبراهيمَ مكانَ البيت حيث كان، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ

(١) صحيح مسلم (١٦٤) : (٢٦٤)، وعلقه البخاري (٣٢٠٧) وهو عند أحمد (١٧٨٣٦). وينظر كلام الحافظ ابن حجر ٧/ ٢١٥ على رواية قتادة. وقوله: آخر ما عليهم؛ قال النووي في شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٥: روي برفع الراء ونصبها، فالنصب على الظرف، والرفع على تقدير: ذلك آخر ما عليهم من دخوله، والرفع أوجه.

(٢) لفظة: السماء، ليست في (د) و(م).

(٣) أخرجه أحمد (١٢٥٠٥)، ومسلم (١٦٢) : (٢٥٩) واللفظ له.

(٤) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٧٨ عنه بلفظ: البيت المعمور هو البيت الحرام.

أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾[١] [الحج: ٢٦].

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماء؛ سمَّاها سقفاً؛ لأنها للأرض كالسقف للبيت، بيانه: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]. وقال ابن عباس: هو العرش، وهو سقف الجنة. ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ قال مجاهد: المُوقَد[٢]. وقد جاء في الخبر: «إن البحر يُسجَر يوم القيامة فيكون ناراً»[٣]. وقال قتادة: المملوء[٤]. وأنشد النَّحويون للنَّمِر بن تَوْلَب:

إذا شاء طالعَ مَسْجُورةً تَرَى حولَها النَّبْعَ والسَّاسَمَا[٥]

يريد وَعْلًا يطالع عيناً مسجورة مملوءة.

فيجوز أن يكون المملوءُ ناراً، فيكون كالقول المتقدِّم. وكذا قال الضحاك وشِمْر ابن عطية ومحمد بن كعب والأخفش[٦]: إنه[٧] المَوْقِد المحميُّ بمنزلة التَّنُّور المسجور. ومنه قيل: لِلْمسْعَر: مِسْجَر، ودليل هذا التأويل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦] أي: أُوقِدت، سَجرتُ التَّنُّور أسجُره سَجْراً، أي: أحميتُه[٨].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٧٨ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٢٤ ، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨ .

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ ، وأورد الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧ ، والزمخشري في الكشاف ٤/ ٢٢ - ٢٣ ـ واللفظ له ـ وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨ : «إن الله تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها ناراً تسجر بها نار جهنم».

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨ .

(٥) أورده أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٠ ، والطبري ٢١/ ٥٧٠ ، والبغدادي في الخزانة ١١/ ٩٥ . قوله: النبع : هو شجر للقِسِيِّ وللسهام. والسَّاسَم : شجر يعمل منه القِسيّ. القاموس (نبع) و(سسم) . وسلف عند تفسير الآية (٧٢) من سورة غافر.

(٦) أورد قول الضحاك ومحمد بن كعب البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧ ، وقول شمر الطبري ٢١/ ٥٦٨ ، وقول الأخفش الطبرسي في مجمع البيان ٢٧/ ٢٧ .

(٧) في (م) : بأنه .

(٨) الصحاح (سجر) .

وقال سعيد بن المسيِّب: قال عليٌّ ﷺ لرجل من اليهود: أين جهنم؟ قال: البحر. قال ما أراكَ إلا صادقاً. وتلا: ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾، ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِرَتْ﴾ [التكوير:٦] مخفَّفة[1]. وقال عبد الله بن عمرو: لا يُتوضأ بماء البحر لأنه طبق جهنم[2]. وقال كعب: يُسجَر البحر غداً فيُزاد في نار جهنم[3]. فهذا قول.

وقال ابن عباس: المسجور الذي ذهب ماؤه. وقاله أبو العالية[4]. وروى عطية وذو الرُّمَّة الشاعر عن ابن عباس قال: خرجت أَمَة لتسقيَ فقالت: إن الحوض مسجورٌ، أي: فارغ[5]، قال ابن أبي داود: ليس لذي الرُّمَّة حديثٌ إلا هذا. وقيل: المسجور، أي: المفجور، دليله: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار:٣]، أي: تَنْشِفُها الأرض فلا يبقى فيها ماء.

وقول ثالث قاله عليٌّ ﷺ وعكرمة، قال أبو مَكين: سألت عكرمة عن البحر المسجور فقال: هو بحر دون العرش. وقال عليٌّ: تحت العرش؛ فيه ماء غليظ يقال[6] له: بحر الحيوان يُمطر العباد منه بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً، فينبتون في قبورهم[7]. وقال الربيع بن أنس: المسجور: المختلط العذب بالمِلْح[8].

قلت: وإليه يرجع معنى «فُجِّرَتْ» في أحد التأويلين، أي: فُجِّرَ عذبُها في

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٦٨، وقرأ من السبعة: سُجِرت، بالتخفيف: ابن كثير وأبو عمرو. ينظر السبعة ص٦٧٣، والتيسير ص ٢٢٠.

(٢) سلف قول ابن عمرو في البحر: هو نار ١٥/ ٤٤٢ وهو عند الترمذي (٦٩).

(٣) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٩٣٢)، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٧٥ بنحوه.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبري ٢١/ ٥٦٩. وأورد قول أبي العالية البغوي في تفسيره ٤/ ٢٣٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٨.

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١١٨ عن ذي الرمة عن ابن عباس، وعزاه للشيرازي في الألقاب.

(٦) في (م): ويقال.

(٧) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٧ بنحوه، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٠ عن علي بلفظ: (والبحر المسجور) قال: بحر في السماء تحت العرش. وأبو مكين: هو نوح بن ربيعة البصري، روى له أبو داود والنسائي وابن ماجه. تهذيب الكمال.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٧، وزاد المسير ٨/ ٤٨.

مالحها، والله أعلم. وسيأتي[١]. وروى عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس قال: المسجور: المحبوس[٢].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ هذا جواب القسم، أي: واقع بالمشركين. قال جُبَير بن مُطْعِم: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أُسارى بدر، فوافيتُه يقرأ في صلاة المغرب: «وَالطُّورِ» إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ فكأنما صُدع قلبي، فأسلمت خوفاً من نزول العذاب، وما كنت أظنُّ أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب[٣].

وقال هشام بن حسان: انطلقت أنا ومالكُ بن دينار إلى الحسن وعنده رجل يقرأ: «وَالطُّورِ» حتى بلغ: «إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ، مَالَهُ مِنْ دَافِعٍ»، فبكى الحسن وبكى أصحابه، فجعل مالك يضطرب حتى غُشِي عليه.

ولمَّا وُلِّي بكَّارٌ القضاء، جاء إليه رجلان يختصمان، فتوجهتْ على أحدهما اليمين، فرغب إلى الصُّلح بينهما، وأنه يُعطي خصمه من عنده عوضاً من يمينه، فأبى إلا اليمين، فأحلفه بأوّل «وَالطُّورِ» إلى أن قال[٤] له: قل: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ إن كنتُ كاذباً، فقالها، فخرج، فكُسِر من حينه.[٥]

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ العامل في «يوم» قولُه: «وَاقِعٌ»، أي: يقع

---

(١) عند تفسير الآية (٦) من سورة التكوير، والآية (٣) من سورة الانفطار.
(٢) أخرجه الطبري ٢١/٥٦٩ .
(٣) تفسير البغوي ٤/٢٣٧ والنكت والعيون ٥/٣٧٩ ، والكشاف ٤/٢٣ . وسلف في أول السورة مختصراً.
(٤) في (م) : قاله .
(٥) لم نقف على الخبرين ، وبكَّار: هو ابن قتيبة، أبو بكرة، قاضي القضاة بمصر. توفي سنة (٢٧٠هـ) سير أعلام النبلاء ١٢/٥٩٩ .

العذاب بهم يوم القيامة، وهو اليوم الذي تمور فيه السماء[١]. قال أهل اللغة: مار الشيءُ يَمورُ مَوْرًا، أي: تحرَّك وجاء وذهب؛ كما تَتَكفَّأُ النخلةُ العَيْدانة، أي: الطويلة، والتموُّر مثله. وقال الضحاك: يموج بعضها في بعض. مجاهد: تدور دوراً[٢]. أبو عبيدة[٣] والأخفش: تَكفَّأ، وأنشد للأعشى[٤]:

كأنَّ مِشْيَتَها من بيت جارتها   مَوْرُ السَّحابة لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ

وقيل: تجري جرياً، ومنه قول جرير:

وما زالتِ القَتْلَى تَمُورُ دماؤها   بِدِجلَةَ حتَّى ماءُ دِجلةَ أَشْكَلُ[٥]

وقال ابن عباس: تمور السماء يومئذ بما فيها وتضطرب[٦]. وقيل: يدور أهلها فيها ويموج بعضهم في بعض.

والمَوْر أيضاً: الطريق. ومنه قول طَرَفة:

... فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدِ[٧]

والمَوْرُ: المَوْج. وناقةٌ مَوَّارة اليد، أي: سريعة. والبعير يمور عَضُداه: إذا تردَّدا في عَرْض جنبه، قال الشاعر:

على ظَهْرِ مَوَّارِ المِلَاطِ حِصَانِ

---

(١) ينظر مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠.

(٢) أخرج قول الضحاك ومجاهد الطبري ٢١/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٣) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣١.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): الأعشى، والمثبت من (د) و(م)، وهو الموافق لما في الصحاح (مور) والكلام منه، والبيت في ديوان الأعشى ص١٠٥، وفيه: مرُّ، بدل: مور.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٣٧٩، والبيت في ديوان جرير ص ٣٦٧، والأشْكَل: ما فيه حمرة وبياض مختلط. القاموس (شكل).

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٢ بلفظ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ قال: يقول: تحريكاً.

(٧) ديوان طرفة ص ٢٢، والبيت بتمامه: تباري عِتاقاً ناجيات وأتبعت وظيفاً وظيفاً فوق مَوْرٍ معبَّد. وسلف ١/ ٣٤١.

المِلاط: الجَنْب. وقولهم: لا أدري أغارَ أم مَارَ[١]، أي: أتى غَوراً، أم دار فرجع إلى نجد. والمُور ـ بالضم ـ الغبار بالريح[٢].

وقيل: إن السماء هاهنا الفَلَك، ومورُه اضطرابُ نُظُمه، واختلافُ سيره. قاله ابن بحر[٣].

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ قال مقاتل: تسير عن أماكنها حتى تستويَ بالأرض. وقيل: تسير كسير السحاب اليوم في الدنيا، بيانه: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وقد مضى هذا المعنى في «الكهف»[٤].

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ «وَيْلٌ»: كلمة تقال للهالك، وإنما دخلت الفاء لأن في الكلام معنى المجازاة[٥]. ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في تردُّد في الباطل، وهو خوضُهم في أمر محمد بالتكذيب. وقيل: في خوض في أسباب الدنيا يلعبون، لا يذكرون حساباً ولا جزاءً. وقد مضى في «براءة»[٦].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ «يَوْمَ» بدل من يومئذ[٧]. و«يُدَعُّونَ»: معناه يُدفعون إلى جهنم بشدَّة وعنف، يقال: دَعَعْتُه أدُعُّه دعًّا، أي: دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[٨] [الماعون: ٢]. وفي التفسير: إن خزنة جهنم يَغلُّون أيديَهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيَهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعًا

(١) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٩٣ .

(٢) الصحاح (مور) و(ملط) .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٠ .

(٤) ١٣/ ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٥) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ .

(٦) ١٠/ ٢٩٦ .

(٧) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٩٠ .

(٨) الصحاح (دعع) .

على وجوههم، وزَخًّا[١] في أعناقهم حتى يرِدوا النار[٢]. وقرأ أبو رجاء العُطاردي وابن السَّمَيْفَع: «يَوْمَ يُدعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا» بالتخفيف من الدعاء[٣]، فإذا دنَوْا من النار، قالت لهم الخزنة: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ في الدنيا[٤].

قوله تعالى: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ استفهام معناه التوبيخ والتقريع، أي: يقال لهم: أَفَسِحْرٌ هَذَا الذي تَرَونَ الآن بأعينكم ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾؟ وقيل: «أَمْ» بمعنى بل، أي: بل كنتم لا تبصرون في الدنيا ولا تعقلون.

قوله تعالى: ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: تقول لهم الخزنة: ذوقوا حرَّها بالدخول فيها. ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سواءٌ كان لكم فيها صبرٌ، أو لم يكن. فـ «سواء» [مبتدأ] خبرُه محذوف، أي: سواء عليكم الجزعُ والصبر[٥]، فلا ينفعكم شيء، كما أخبر عنهم أنهم يقولون: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا﴾ [إبراهيم: ٢١]. ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ﴾ لمَّا ذكر حال الكفار؛ ذكر حال المؤمنين أيضًا. ﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: ذوي فاكهةٍ كثيرة، يقال: رجلٌ فاكِهٌ، أي: ذو

---

(١) في النسخ الخطية: وزجًّا، والمثبت من (م)، ويقال: زخَّه في قفاه، أي: دفعه.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، والكشاف ٤/ ٢٣، ونسب هذا الكلام لمقاتل الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٤٩.

(٣) ذكرها عن أبي رجاء العطاردي ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٨٧، وذكرها الزمخشري ٤/ ٢٣ عن زيد بن علي. قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٠: وتكون «دعًّا» حال، أي: ينادون إليها مدعوعين.

(٤) الوسيط ٤/ ١٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٣٨، وزاد المسير ٨/ ٤٩.

(٥) ما بين حاصرتين للإيضاح، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٥٥. ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٢.

فاكهة، كما يقال: لابِنٌ وتامِرٌ، أي: ذو لبن وتمر[١]، قال:

وغَـرَرْتَـنِـي وزعـمـتَ أنـ ـكَ لابِـنٌ بـالـصَّـيْـفِ تَـامِـرْ[٢]

أي: ذو لبن وتمر.

وقرأ الحسن وغيره: «فَكِهينَ» بغير ألف[٣]، ومعناه: معجبين ناعمين في قول ابن عباس وغيره، يقال: فَكِه الرجلُ ـ بالكسر ـ فهو فَكِهٌ: إذا كان طيِّب النفس مزَّاحًا. والفَكِه أيضًا: الأشِر البطِر[٤]. وقد مضى في «الدخان»[٥] القولُ في هذا. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ﴾ أي: أعطاهم ﴿رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي: يقال لهم ذلك. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ الهنيء ما لا تنغيص فيه ولا نَكَد ولا كَدَر. قال الزجاج[٦]: أي: لِيَهْنِكم[٧] ما صِرتُم إليه هَنِيئًا. وقيل: أي: مُتِّعتم بنعيم الجنة إمتاعًا هنيئًا. وقيل: أي: كلوا واشربوا هُنِّئتُم هَنِيئاً. فهو صفة في موضع المصدر. وقيل: هنيئاً، أي: حلالاً. وقيل: لا أذًى فيه ولا غائلة. وقيل: هَنِيئًا، أي: لا تموتون، فإن ما لا يبقى ـ أو لا يبقى الإنسانُ معه ـ منغَّصٌ غيرُ هنيء.

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ سُرُر جمع سرير، وفي الكلام حذف تقديره: متَّكِئين على نمارقَ على[٨] سُرُر. ﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ قال ابن بحر[٩]: أي: موصولة بعضُها إلى بعض حتى تصير صفًّا. وفي الأخبار أنها تصفُّ في السماء بطول كذا وكذا، فإذا

---

(١) بنحوه في النكت والعيون ٥/ ٣٨٠.

(٢) البيت لحطيئة، وهو في ديوانه ص ١٦٨، وفيه: أغررتني، بدل: وغررتني.

(٣) وهي قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع، وهو من العشرة. النشر ٢/ ٣٥٤

(٤) الصحاح (فكه).

(٥) ص١١٨ من هذا الجزء.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٣.

(٧) في (م): ليهنئكم.

(٨) لفظة: على، ليست في (م)، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٧٨، وزاد المسير ٨/ ٥٠.

(٩) في (د) و(م): ابن الأعرابي، وقول ابن بحر في النكت والعيون ٥/ ٣٨١.

أراد العبد أن يجلس عليها تواضعت له، فإذا جلس عليها عادت إلى حالها[١]. قال ابن عباس: هي سُرُر من ذهب، مكلَّلةٌ بالزَّبَرْجد والدُّر والياقوت[٢]، والسريرُ ما بين مكة وأيْلة[٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ. قال يونس بن حبيب: تقول العرب: زوجته امرأة وتزوَّجت امرأةً، وليس من كلام العرب: تزوَّجت بامرأة. قال: وقول الله عز وجل: ﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرنَّاهم بهنَّ[٤]، مِن قول الله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢] أي: وقرناءهم. وقال الفرّاء: تزوَّجت بامرأة، لغةٌ في أَزْدِ شنوءة[٥]. وقد مضى القول في معنى الحور العين[٦].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم﴾ قرأ العامة: «وَاتَّبَعَتْهُمْ» بوصل الألف وتشديد التاء وفتح العين وإسكان التاء. وقرأ أبو عمرو: «وَأَتْبَعْنَاهُمْ» بقطع الألف وإسكان التاء والعين ونون، اعتباراً بقوله: «أَلْحَقْنَا بِهِمْ»؛ ليكون الكلام على نسق واحد.

---

(١) سيرد في تفسير سورة الواقعة الآية (١٦) من قول الكلبي.

(٢) تفسير البغوي ٤/٤٧٩، وزاد المسير ٩/٩٨، وتفسير الرازي ٣١/١٥٦.

(٣) لم نقف عليه. وأيلة: جبل بين مكة والمدينة قرب يَنْبُع. وأيلة أيضاً بلد بين ينبع ومصر. القاموس (أيل).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري ١١/١٥٢، ونسب هذا القول لابن السكيت.

(٥) المصدر السابق.

(٦) ص١٣٧ من هذا الجزء وما بعدها.

فأمَّا قوله: «ذُرِّيَّتُهُمْ» الأولى، فقرأها بالجمع ابنُ عامر وأبو عمرو ويعقوبُ ورواها عن نافع، إلا أن أبا عمرو كسر التاء على المفعول، وضمَّ باقيهم. وقرأ الباقون: «ذُرِّيَّتُهُمْ» على التوحيد وضمِّ التاء، وهو المشهور عن نافع.

فأمَّا الثانية، فقرأها نافع وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب بكسر التاء على الجمع. الباقون: «ذُرِّيَّتَهُمْ» على التوحيد وفتح التاء[١].

واختُلِف في معناه، فقيل عن ابن عباس أربعُ روايات: الأولى أنه قال: إن الله ليرفع ذرِّيَّة المؤمن معه في درجته في الجنة[٢] وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقرَّ بهم عينه، وتلا هذه الآية[٣]. ورواه مرفوعًا النحاس في «الناسخ والمنسوخ» له عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله عز وجل ليرفع ذرية المؤمن معه في درجته في الجنة[٤] وإن كان لم يبلغها بعمله؛ لتقرَّ بهم عينه» ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ﴾ الآية[٥]. قال أبو جعفر[٦]: فصار الحديث مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ. وكذا يجب أن يكون؛ لأن ابن عباس لا يقول هذا إلا عن رسول الله ﷺ؛ لأنه إخبار عن الله عز وجل بما يفعله، وبمعنى أنه أنزلها جل ثناؤه. الزمخشري[٧]: فيجمع الله لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم، وبمزاوجة الحور العين،

---

(١) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣، والنشر ٢/ ٢٧٣، ٣٧٧، ولم نقف على رواية الجمع عن نافع في اللفظة الأولى.

(٢) في النسخ الخطية: إن الله ليرفع ذريّة المؤمن إليه، والمثبت من (م) وهو الموافق للمصادر الآتية.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٧٩، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٥، والنحاس في الناسخ والمنسوخ (٨٤٨).

(٤) قوله: في الجنة، من (ف) و(م).

(٥) الناسخ والمنسوخ (٨٤٩)، وأخرجه أيضاً الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٣/ ١٠٦ (١٠٧٥) كلاهما من طريق سفيان الثوري عن سماعة...، وهو منقطع، كما ذكر البخاري في التاريخ الكبير ٤/ ٢١٤.

(٦) في الناسخ والمنسوخ ٣/ ٣٨.

(٧) في الكشاف ٤/ ٢٤.

وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماعِ أولادهم ونسلهم بهم.

وعن ابن عباس أيضًا أنه قال: إن الله ليُلحِق بالمؤمن ذريَّته الصِّغار الذين لم يبلغوا الإيمان[1]. قاله المهدوي. والذريةُ تقع على الصغار والكبار، فإن جُعِلت الذرية ها هنا للصغار، كان قولُه تعالى: «بِإِيمَانٍ» في موضع الحال من المفعولين، وكان التقدير: بإيمانٍ من الآباء. وإن جُعِلت الذرية للكبار، كان قوله: بإيمانٍ، حالاً من الفاعلين[2].

القول الثالث عن ابن عباس: أن المراد بالذين آمنوا المهاجرون والأنصار، والذريةِ التابعون.

وفي رواية عنه: إن كان الآباء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفعَ درجةً؛ رفع الله الآباء إلى الأبناء، فالآباء داخلون في اسم الذريَّة، كقوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١].

وعن ابن عباس أيضًا يرفعه إلى النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، سأل أحدهم عن أبويه وعن زوجته وولده، فيقال لهم: إنهم لم يُدرِكوا ما أدركت، فيقول: يا ربِّ، إني عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به»[3].

وقالت خديجة رضي الله عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عن ولدين لي ماتا في الجاهلية، فقال لي: «هما في النار»، فلمَّا رأى الكراهية في وجهي قال: «لو رأيتِ مكانَهما لأبغضتِهما». قالت: يا رسول الله، فولدِي منك؟ قال: «في الجنة»، ثم قال: «إن المؤمنين وأولادَهم في الجنة، والمشركين وأولادَهم في النار»، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ

---

(١) ينظر تفسير البغوي ٤/ ٢٣٩، وأخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٠ - ٥٨١ بنحوه.

(٢) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢٢٤٨)، قال الهيثمي في المجمع ٧/ ١١٤: فيه محمد بن عبد الرحمن ابن غزوان وهو ضعيف.

ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ﴾ الآية[١].

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نقصنا الأبناء من ثواب أعمالهم لِقصَر أعمارهم، وما نقصنا الآباء من ثواب أعمالهم شيئاً بإلحاق الذُّرِّيَّات بهم. والهاء والميم راجعان إلى قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا».

وقال ابن زيد: المعنى: واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ ألحقنا بالذُّرِّيَّة أبناءَهم الصغارَ الذين لم يبلغوا العمل[٢]، فالهاء والميم على هذا القول للذُّرِّيَّة.

وقرأ ابن كثير: «وَمَا أَلِتْنَاهُمْ» بكسر اللام. وفتح الباقون[٣]. وعن أبي هريرة: «آلَتْنَاهُمْ» بالمدّ[٤]، قال ابن الأعرابي: أَلَتَه يألِته أَلْتًا، وآلَتَه يُؤْلِته إِيلَاتًا، وَلَاتَه يَلِيته لَيْتًا، كلُّها إذا نَقَصه. وفي الصحاح: ولَاتَه عن وجهه يَلُوته ويَليته، أي: حبسه عن وجهه وصرفه، وكذلك ألاته عن وجهه، فَعَل وأَفعل بمعنى، ويقال أيضاً: ما أَلَاته من عمله شيئًا، أي: ما نَقَصه، مثل أَلَتَه[٥]. وقد مضى في «الحجرات»[٦].

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ قيل: يرجع إلى أهل النار[٧]. قال ابن عباس: ارتهن

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند (١١٣١)، وابن أبي عاصم في السنة (٢١٣) من حديث علي ﷺ، وفيه محمد بن عثمان، قال الذهبي في الميزان ٣/ ٦٤٢: لا يُدرى من هو، فتشت عنه في أماكن، وله خبر منكر. اهـ. ثم ساق هذا الحديث من طريقه. وقال ابن الجوزي في جامع المسانيد - كما في كنز العمال ٢/ ٥١٢: في إسناده محمد بن عثمان لا يقبل حديثه، ولا يصح في تعذيب الأطفال حديث.

(٢) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨١ بنحوه.

(٣) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٢٠٣.

(٤) في (ظ): ابن هرمز، ولقبه الأعرج، وقراءته في القراءات الشاذة ص ١٤٦، والمحتسب ٢/ ٢٩٠ ولم نقف على من نسبها لأبي هريرة، ولعله محرّف عن ابن هرمز، وقد نسب ابن الجوزي القراءة في زاد المسير ٨/ ٥١ لابن السميفع.

(٥) الصحاح (ليت).

(٦) ص ٤٢١ - ٤٢٢ من هذا الجزء.

(٧) ينظر زاد المسير ٨/ ٥١.

أهل جهنم بأعمالهم، وصار أهل الجنة إلى نعيمهم، ولهذا قال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ [المدثر: ٣٨-٣٩]. وقيل: هو عامٌّ لكلِّ إنسان مُرْتَهَن بعمله، فلا يُنقَص أحد من ثواب عمله، فأمَّا الزيادةُ على ثواب العمل فهي تفضُّلٌ من الله. ويحتمل أن يكون هذا في الذُّرِّيَّة الذين لم يؤمنوا، فلا يلحقون آباءهم المؤمنين، بل يكونون مُرْتَهنين بكفرهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ أي: أكثرنا لهم من ذلك زيادةً من الله، أمدَّهم بها غيرَ الذي كان لهم.

قوله تعالى: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتناولها بعضهم من بعض وهو المؤمن وزوجاتُه وخدمُه في الجنة. والكأس: إناءُ الخمر، وكلُّ إناء مملوء[1] من شراب وغيره، فإذا فرغ لم يسمَّ كأسًا. وشاهدُ التنازع والكأس في اللغة قولُ الأخطل:

وشارِبٍ مُرْبِحٍ بالكأس نادَمَني ... لا بالحَصُور ولا فيها بسَوَّارِ
نازَعْتُه طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وقدْ ... صاحَ الدَّجاجُ وحانَتْ وَقْعَةُ السَّاري[2]

وقال امرؤ القيس:

فلمَّا تَنَازَعْنَا الحديثَ وأَسْمَحَتْ ... هَصَرْتُ بغصنٍ ذي شَمَاريخَ مَيَّالِ[3]

وقد مضى هذا في «والصافات»[4].

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: في الكأس، أي: لا يجري بينهم لغوٌ ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولا ما فيه

---

(١) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ ـ والكلام منه ـ: والكأس إناء مملوء.

(٢) ديوان الأخطل ص١١٦، قال الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على طبقات فحول الشعراء ٢/ ٥٠١: مُرْبح: من قولهم: أربحه بمتاعه أو سلعته: أعطاه ربحاً. أراد الأخطل أنه لا يبالي أنه يغالي بثمنها فيصيب الخمار منها ربحاً وافراً، يمدحه بحب اللهو وبالكرم. الحصور: البخيل الممسك المنوع. والسَّوَّار: الذي تَسُور الخمر في رأسه سريعاً.

(٣) ديوان امرئ القيس ص ٣٢، قال شارح الديوان: قوله: فلما تنازعنا الحديث: أي حدثتني وحدثتها. ومعنى أسمحت: انقادت وسهلت. وقوله: هصرت: يعني جذبت ومددت.

(٤) ١٨/ ٣٠.

إثم. والتأثيم تفعيلٌ من الإثم، أي: تلك الكأس لا تجعلهم آثمين[١] لأنه مباح لهم. وقيل: «لَا لغوٌ فِيهَا» أي: في الجنة[٢]. قال ابن عطاء: أيُّ لغوٍ يكون في مجلس محلُّه جنةُ عدن، وسقاتُهم الملائكة، وشربُهم على ذكر الله، وريحانُهم وتحيتُهم من عند الله، والقومُ أضياف الله[٣]. «وَلَا تَأْثِيمٌ» أي: ولا كذب. قاله ابن عباس[٤]. الضحاك: يعني لا يكذب بعضهم بعضًا[٥].

وقرأ ابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو: «لَا لَغْوَ فيهَا وَلَا تَأْثِيمَ» بفتح آخره. الباقون بالرفع والتنوين[٦]. وقد مضى هذا في «البقرة»[٧] عند قوله تعالى: ﴿وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ﴾ [الآية: ٢٥٤] والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: بالفواكه والتُّحَف والطعام والشراب، ودليله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٧١]، ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الصافات: ٤٥]. ثم قيل: هم الأطفال من أولادهم الذين سبقوهم، فأقرَّ الله تعالى بهم أعينَهم. وقيل: إنهم مَن أخدمَهم الله تعالى إيَّاهم من أولاد غيرهم[٨]. وقيل: هم غلمانٌ خُلِقوا في الجنة. قال الكلبي: لا يكبرون أبدًا ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في الحسن والبياض ﴿لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ في الصَّدَف، والمكنون: المَصُون. وقوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ [الواقعة: ١٧] قيل: هم أولاد المشركين وهم خَدَمُ أهل الجنة، وليس في الجنة نَصَب ولا حاجة إلى خدمة، ولكنه أخبر بأنهم على نهاية النعيم.

---

(١) الوسيط ٤/ ١٨٨، وزاد المسير ٨/ ٥٢.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) نسبه الثعالبي في تفسيره ٤/ ٢١٧ للثعلبي.

(٤) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٨٨.

(٥) أورده الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٢ بنحوه.

(٦) السبعة ص ٦١٢، والتيسير ص ٨٢.

(٧) ٤/ ٢٦١ - ٢٦٢.

(٨) نسب الماوردي القولين في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ لابن بحر.

وعن عائشةَ رضي الله عنها: أن نبيَّ الله ﷺ قال: «إن أدنى أهلِ الجنة منزلةً مَن ينادي الخادِمُ من خدمه، فيجيبه ألفٌ؛ كلُّهم: لبَّيك لبَّيك»[١].

وعن عبد الله بن عمر قال: قال النبيُّ ﷺ: «ما من أحد من أهل الجنة إلا يسعى عليه ألفُ غلام، كلُّ غلام على عمل ليس عليه صاحبه»[٢].

وعن الحسن أنهم قالوا: يا رسول الله، إذا كان الخادم كاللؤلؤ، فكيف يكون المخدوم؟ فقال: «ما بينهما كما بين القمر ليلةَ البدر وبين أصغر الكواكب»[٣].

قال الكسائي: كننتُ الشيء: سترته وصُنته من الشمس، وأكننته في نفسي: أسررته. وقال أبو زيد: كننته وأكننته بمعنًى في الكِنِّ وفي النفس جميعًا، تقول: كننت العلم وأكننته، فهو مكنون ومُكَنّ. وكننت الجارية وأكننتها، فهي مكنونة ومُكَنَّة[٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ قال ابن عباس: إذا بُعِثوا من قبورهم سأل بعضهم بعضًا[٥]. وقيل: في الجنة يَتَسَاءَلُونَ، أي: يتذاكرون ما كانوا فيه في الدنيا من التعب والخوف من العاقبة[٦]، ويحمدون الله تعالى على زوال الخوف

---

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس ١/ ٢١٧، وأخرجه الثعلبي بنحوه كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٠، وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٥٨٠) كلاهما عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه الثعلبي كما في تخريج أحاديث الكشاف ص ١٦٠.

(٤) الصحاح (كنن)، وقوله: الكِنّ، أي: السُّترة.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٠ بنحوه قال الألوسي في روح المعاني ٢٧/ ٣٥: ولا أُراه يصح عنه لبعده جداً.

(٦) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٠، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٢ – ٥٣ ونسبوه لابن عباس رضي الله عنهما.

عنهم. وقيل: يقول بعضهم لبعض: بِمَ صِرت في هذه المنزلة الرفيعة[١]؟

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ أي: قال كلٌّ مسؤول منهم لسائله: «إنَّا كُنَّا قَبْلُ» أي: في الدنيا خائفينَ وَجِلين من عذاب الله. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ بالجنة والمغفرة. وقيل: بالتوفيق والهداية[٢]. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ قال الحسن: السَّمُوم: اسم من أسماء النار، وطبقةٌ من طِباق جهنم[٣]. وقيل: هو النار كما تقول: جهنم. وقيل: عذاب نار السَّمُوم[٤]. والسَّمُوم: الريحُ الحارَّةُ تؤنَّث، يقال منه: سُمَّ يومُنَا فهو مسموم، والجمع سَمَائم. قال أبو عبيدة: السَّمُوم بالنهار، وقد تكون باللَّيل، والحَرورُ باللَّيل، وقد تكون بالنهار[٥]، وقد تستعمل السَّمُوم في لَفْح البرد، وهو في لَفْح الحَرِّ والشمسِ أكثر، قال الراجز:

اليومُ يومٌ باردٌ سَمُومُهْ   مَنْ جَزِعَ اليومَ فلا أَلُومُهْ[٦]

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُ﴾ أي: في الدنيا بأن يَمُنَّ علينا بالمغفرة عن تقصيرنا. وقيل: «نَدْعُوهُ» أي: نعبده[٧]. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقرأ نافع والكسائي: «أَنَّه» بفتح الهمزة، أي: لأنه. الباقون بالكسر على الابتداء[٨]. و«البَرُّ»

(١) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٤ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ .

(٣) أورده الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٨ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣ عن الحسن بلفظ: السَّموم اسم من أسماء جهنم .

(٤) في (د) و(م): نار عذاب السموم ، وسقط هذا الموضع من (ف) ، والمثبت من (ز) و(ظ) .

(٥) الصحاح (سمم) .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٣٨٣ ، وأورد الرجز أيضاً الأزهري في تهذيب اللغة ١٢/ ٣٢٠ ، والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٠٥ .

(٧) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٠ .

(٨) السبعة ص ٦١٣ ، والتيسير ص ٢٠٣ .

اللَّطيف. قاله ابن عباس[١]. وعنه أيضًا: إنه الصادق فيما وعد. وقاله ابن جريج[٢].

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَـٰمُهُم بِهَـٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ﴾ أي: فذكِّر يا محمد قومَك بالقرآن. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ يعني برسالة ربِّك[٣] ﴿بِكَاهِنٍ﴾ تبتدع القول وتخبر بما في غدٍ من غير وَحْي[٤] ﴿وَلَا مَجْنُونٍ﴾ وهذا ردٌّ لقولهم في النبيِّ ﷺ؛ فعقبة بن أبي مُعَيْط قال: إنه مجنون، وشيبة بن ربيعة[٥] قال: إنه ساحر، وغيرهما قال: كاهن؛ فأكذبهم اللهُ تعالى وردَّ عليهم. ثم قيل: إنَّ معنى «فما أنت بنعمة ربِّك» القَسَم، أي: وبنعمةِ اللهِ ما أنت بكاهن ولا مجنون. وقيل: ليس قَسَمًا، وإنما هو كما تقول: ما أنت بحمد الله بجاهل، أي: قد برَّأك الله من ذلك[٦].

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أي: بل يقولون: محمد شاعر. قال سيبويه: خوطب العبادُ بما جرى في كلامهم[٧]. قال أبو جعفر النحّاس: وهذا كلامٌ حسن، إلَّا أنه غير مبيَّن ولا مشروح؛ ويريد سيبويه أنَّ «أَمْ» في كلام العرب لخروج من

---

(١) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩١.

(٢) أورد قول ابن عباس ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٣، وقول ابن جريج الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٣.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩.

(٥) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٤: عتبة بن ربيعة.

(٦) ينظر تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٤٢٥.

(٧) ينظر الكتاب ٣/ ١٧٢ - ١٧٣.

حديث إلى حديث؛ كما قال الشاعر:

أَتَــهْــجُــرُ غَــانِــيَــةً أَمْ تُــلِــمّ

فتمَّ الكلام، ثم خرج إلى شيء آخر فقال:

أَمِ الــحَــبْــلُ واهٍ بِــهــا مُــنْــجَــذِمْ[١]

فما جاء في كتاب الله تعالى مِن هذا، فمعناه التقريرُ والتوبيخ، والخروجُ من حديث إلى حديث، والنحويُّون يمثّلونها بـ: بل.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ قال قتادة: قال قوم من الكفار: تربَّصوا بمحمد الموتَ يكفيكموه كما كفى[٢] شاعرَ بني فلان. قال الضَّحاك: هؤلاء بنو عبد الدار؛ نسبوه إلى أنه شاعر[٣]؛ أي: يَهلِك عن قريب كما هلك مَنْ قبلُ من الشعراء، وأنَّ أباه مات شابًّا، فربَّما يموت كما مات أبوه[٤]. وقال الأخفش: نتربَّص به إلى رَيْبِ المَنُون، فحذف حرف الجرّ، كما تقول: قصدت زيدًا، وقصدت إلى زيد[٥]. والمَنُون: الموت في قول ابن عباس[٦]. قال أبو الغول الطُّهوي:

هُمُ مَنعوا حِمَى الوَقَبَى بضَربٍ يؤلِّف بينَ أشتاتِ المَنُونِ[٧]

أي: المنايا؛ يقول: إنَّ الضرب يجمع بين قومٍ متفرِّقي الأمكنة؛ لو أتتهم مناياهم في أماكنهم لأتتهم متفرِّقة، فاجتمعوا في موضع واحد، فأتتهم المنايا مجتمعة.

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص ٨٥. قوله: تُلِمّ، يقال: ألَمَّ بالقوم: زارهم زيارة قصيرة قاله شارحه.

(٢) في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٣، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٤: كفاكم.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٤.

(٤) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٥، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٠.

(٥) معاني القرآن ٢/ ٦٩٧ للأخفش بنحوه.

(٦) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ - ٥٩٣.

(٧) كتاب الحيوان ٣/ ١٠٧، والشعر والشعراء ١/ ٤٢٩، والأمالي ١/ ٢٦٠، والخزانة ٦/ ٤٣٤. قال البغدادي: الوقبى، بفتح الواو والقاف: موضع بقرب البصرة.

وقال السُّدِّي: عن أبي مالك، عن ابن عباس[(١)]: «رَيْبَ» في القرآن شكٌّ، إلا مَكانًا واحداً في الطور «رَيْبَ المَنون» يعني: حوادث الأمور؛ وقال الشاعر[(٢)]:

تَـربَّـصْ بـهـا رَيـبَ الـمَـنـون لـعـلـهـا ... تُـطَـلَّـقُ يـومًـا أو يـمـوتُ حَـلِـيـلُـهـا

وقال مجاهد: «رَيْبَ المَنُونِ»: حوادث الدهر[(٣)]، والمَنُون هو الدهر؛ قال أبو ذُؤَيْب[(٤)]:

أَمِـنَ الـمـنُـونِ وَرَيْـبِـه تـتـوجَّـعُ ... والـدَّهـرُ لـيس بـمُـعْـتِـبٍ مَـنْ يَـجْـزَعُ

وقال الأعشى[(٥)]:

أَأَنْ رأَتْ رجـلًا أَعـشَـى أَضـرَّ بـه ... رَيـبُ الـمَـنُـون ودهـرٌ مُـتْـبِـلٌ خَـبِـلُ

قال الأصمعي: المَنُون: الليل والنهار؛ وسمِّيا بذلك لأنهما ينقصان الأعمار ويقطعان الآجال. وعنه. أنه قيل للدهر: منون؛ لأنه يذهب بمُنَّة الحيوان، أي: قوَّته، وكذلك المَنِيَّة. أبو عبيدة: قيل للدهر: منون؛ لأنه مُضْعِف، من قولهم: حبل مَنِين، أي ضعيف، والمنين: الغبار الضعيف. قال الفرَّاء: والمنون مؤنثة، وتكون واحدًا وجمعًا. الأصمعي: المَنُون واحد لا جماعة له. الأخفش: هو جماعة لا واحد له[(٦)]، والمنون يذكَّر ويؤنَّث؛ فمَن ذكَّره جعله الدهرَ أو الموت، ومَن أنَّثه فعلى الحمل على المعنى، كأنه أراد المنية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: تربَّصوا، أي: انتظروا .﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: من المنتظرين بكم العذاب، فعُذِّبوا يومَ بدرٍ بالسيف[(٧)].

---

(١) أخرجه عنه ابن الأنباري في الوقف والابتداء كما في الدر المنثور ٦/ ١٢٠ .

(٢) في النسخ: وقال ابن عباس، وهو خطأ، والشاعر هو فرّاص بن عتبة الأزدي، وسلف البيت ٤/ ٢٩ .

(٣) أخرجه الطبري ٢١/ ٥٩٢ .

(٤) ديوان الهذليين ١/ ١ ، وسلف ص١٦٤ من هذا الجزء.

(٥) ديوانه ص ١٠٥ ، وسلف ٥/ ١٧٤ .

(٦) قولا الأصمعي والأخفش في المحرر الوجيز ٥/ ١٩١ ، وقول الفراء في الصحاح (منن) .

(٧) الوسيط للواحدي ٤/ ١٨٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤١ .

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم ﴿بِهَٰذَآ﴾ أي: بالكذب عليك. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: أم طَغَوا بغير عقول. وقيل: «أَمْ» بمعنى: بل، أي: بل كفروا طغيانًا وإن ظهر لهم الحقّ.

وقيل لعمرو بن العاص: ما بالُ قومِك لم يؤمنوا وقد وصفهم اللهُ بالعقل؟ فقال: تلك عقولٌ كادها الله، أي: لم يصحبها بالتوفيق[١].

وقيل: «أَحلامُهُمْ» أي: أذهانهم؛ لأن العقل لا يُعطَى للكافر، ولو كان له عقلٌ لآمن. وإنما يعطى الكافرُ الذِّهنَ، فصار عليه حُجَّة. والذِّهن يَقْبل العلمَ جملةً، والعقل يميِّز العلم ويقدِّر المقادير لحدود الأمر والنهي.

وروي عن النبيِّ ﷺ أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، ما أعقلَ فلانًا النَّصرانيّ! فقال: «مَهْ إنَّ الكافر لا عقل له، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]؟». وفي حديث ابنِ عمر: فزجره النبيُّ ﷺ، ثم قال: «مَهْ فإنَّ العاقل مَن يعمل بطاعة الله» ذكره الترمذيُّ الحكيم أبو عبد الله بإسناده[٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: افتعله وافتراه، يعني القرآن. والتقوُّل: تكلُّف القول، وإنما يُستعمل في الكذب في غالب الأمر. ويقال: قوَّلتني ما لم أقل! وأَقْولتني ما لم أقل، أي: ادَّعيتَه عليّ. وتقَوَّل عليه، أي: كذب عليه. واقتال عليه: تحكَّم، قال:

ومَـنـزِلـةٌ فـي دار صـدقٍ وغِـبْـطـةٍ … وما اقْتَال مِن حُكم عليَّ طبيبُ[٣]

فـ«أم» الأولى للإنكار، والثانيةُ للإيجاب، أي: ليس كما يقولون. ﴿بَل لَّا

---

(١) زاد المسير ٨/ ٥٤ - ٥٥، وفيه: لم يصحبها التوفيق.

(٢) لم نقف عليه. وأخرجه الحارث في مسنده (٨٣٦ بغية الباحث). قال ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ٢١٤ - ٢١٥: حديث موضوع.

(٣) الصحاح (قول)، والبيت لكعب بن سعد الغَنَوي، وهو في طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٢٢، والحيوان ٣/ ٥٧.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ جَحداً واستكبارًا.

﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ أي: بقرآن يُشْبهه من تلقاء أنفسهم ﴿إِن كَانُوا۟ صَـٰدِقِينَ﴾ في أنَّ محمداً افتراه.

وقرأ الجحدري: «فليأْتُوا بحديثِ مثله» بالإضافة. والهاءُ في «مثله» للنبيِّ ﷺ، وأُضيف الحديثُ الذي يراد به القرآنُ إليه؛ لأنه المبعوث به. والهاء على قراءة الجماعة للقرآن[١].

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ﴾ «أَمْ» صلةٌ زائدة، والتقدير: أَخُلقوا من غير شيء. قال ابن عباس: من غير ربٍّ خلقهم وقدَّرهم. وقيل: من غير أمٍّ ولا أب[٢]؛ فهم كالجماد لا يعقلون ولا تقوم لِله عليهم حُجَّة؛ ليسوا كذلك! أليس قد خُلِقوا من نطفة وعلقة ومضغة؟ قاله ابن عطاء. وقال ابن كيسان: أم خُلِقوا عبثًا وتُركوا سُدًى «مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»[٣] أي: لغير شيء، فـ«من» بمعنى اللام[٤]. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ﴾ أي: أيقولون إنهم خَلَقوا أنفسهم فهم لا يأتمرون لأمر الله، وهم لا يقولون[٥] ذلك، وإذا أقرُّوا أنَّ ثَمَّ خالقًا غيرَهم، فما الذي يمنعهم من الإقرار له بالعبادة دون الأصنام،

---

(١) الكلام بنحوه في المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٢.

(٢) تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦ بنحوه، وقول ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وينظر الكشاف ٤/ ٢٩.

(٣) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٨٩، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٤١.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢١/ ٥٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٥.

(٥) في (ظ): يقرون.

ومن الإقرار بأنه قادرٌ على البعث.

﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم لم يخلقوا شيئاً ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ بالحقّ.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أم عندهم ذلك فيستغنوا عن الله ويُعرِضوا عن أمره. وقال ابن عباس: خزائن ربِّك: المطر والرزق[1]. وقيل: مفاتيح الرحمة[2]. وقال عكرمة: النبوَّة. أي: أفبأيديهم مفاتيحُ ربِّك بالرسالة يضعونها حيث شاؤوا. وضَرَبَ المثلَ بالخزائن؛ لأن الخزانة بيت يُهيَّأ لجمع أنواعٍ مختلفةٍ من الذخائر؛ ومقدوراتُ الربِّ كالخزائن التي فيها من كل الأجناس، فلا نهاية لها.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ قال ابن عباس[3]: المسلَّطون الجبَّارون. وعنه أيضًا: المبطلون. وقاله[4] الضحاك. وعن ابن عباس أيضًا: أم هم المتولُّون. عطاء: أم هم أربابٌ قاهرون[5]. قال عطاء[6]: يقال: تسيطرتَ عليّ، أي: اتخذتني خَوَلًا لك. وقاله أبو عبيدة[7].

وفي الصحاح: المسيطر والمصيطر: المسلَّط على الشيء ليُشرِف عليه ويتعهَّدَ أحوالَه ويكتب عمله، وأصله من السَّطر؛ لأن الكتاب يُسطَّر، والذي يفعله مُسطِّر ومُسَيْطِر. يقال: سيطرتَ علينا[8].

ابن بحر: «أم هم المسيطِرون» أي: أهم الحفظة؛ مأخوذ من تسطير الكتاب

(١) زاد المسير ٨/ ٥٦.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥. وقول عكرمة الآتي في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وزاد المسير ٨/ ٥٦.

(٣) أخرج قوله الطبري ٢١/ ٥٩٧.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ف): قاله؛ دون واو.

(٥) قول عطاء في تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وقول ابن عباس في النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٦) كذا في النسخ، ولعل قوله: (قال عطاء) مقحم، فقول عطاء هو السالف، ولم يُذكر الكلام بعده عنه.

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣. والخَوَل: اسم يقع على العبد والأمة. (مختار الصحاح).

(٨) الصحاح (سطر).

الذي يَحفظ ما كُتب فيه؛ فصار المسيطر هنا حافظًا ما كتبه الله في اللوح المحفوظ(١).

وفيه ثلاث لغات: الصاد، وبها قرأت العامة، والسين، وهي قراءة ابن مُحيصِن، وحُميد، ومجاهد، وقُنْبُل، وهشام، وأبي حَيْوة(٢)، وبإشمام الصاد الزاي، وهي قراءة حمزة كما تقدَّم في «الصِّراط»(٣).

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ أي: أيدَّعون أنَّ لهم مُرتقًى إلى السماء ومصعدًا وسببًا ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: عليه الأخبارَ ويَصِلون به إلى علم الغيب، كما يصل إليه محمدٌ ﷺ بطريق الوحي .﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجَّة بيِّنة أنَّ هذا الذي هم عليه حقّ.

والسُّلَّم واحد السلالم التي يُرتقى عليها. وربما سُمِّي الغَرْزُ بذلك؛ قال أبو الرُّبَيْس الثعلبيُّ(٤) يصف ناقته:

مُطَارةُ قَلْبٍ إنْ ثَنَى الرِّجْلَ ربُّها ... بسُلَّمِ غَرْزٍ في مُناخٍ تُعاجِلُهْ(٥)

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥ .

(٢) وقرأ بالسين ـ أيضاً ـ حفص بخلاف عنه . السبعة ص ٣٦٣ ، والتيسير ص ٢٠٤ .

(٣) ١/ ٢٢٨ .

(٤) هو شاعر إسلامي ، وقد اضطربت المصادر في اسمه ونسبه ، فقيل : عَبّاد بن طهفة ، وقيل : عبادة ، وقيل : هباد بن عباس ، وقيل : عباد بن طَهمة . وقيل في نسبه : الثعلبي ، وقيل : التغلبي ، قال الزبيدي في التاج (ربس) : هو من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان ، هكذا قاله الصاغاني. وفي اللسان: وأبو الربيس التغلبي من شعراء تغلب . وهو تصحيف، والصواب مع الصاغاني . اهـ . وينظر الصحاح (سلم)، والإكمال لابن ماكولا ٤/ ١٢٣ - ١٢٤ ، واللسان (ربس) و(سلم) و(لوي)، والقاموس (ربس)، والخزانة ٦/ ٨٩ - ٩٠ ، والتاج (ربس) .

(٥) الصحاح (سلم)، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٢٥٦ ، واللسان (سلم). قال المرزوقي: والمراد أنها ذكية الفؤاد، شهمة النفس، فكأن بها لنشاطها وذكائها جنوناً أطار قلبها، وأزال مُسكتها. قوله: تعاجِلْهُ، أصله: تعاجِلُهُ، اللام ساكنة للجزم، لكنه نقل إليها حركة الهاء، وهو ضمير يرجع إلى: ربُّها . والغرز: الرِّكاب، عاجلته فنهضت به قبل تمكنه من ركوبها، واستقراره على ظهرها.

وقال زهير(١):

وَمَن هابَ أسبابَ المنِيَّة يَلْقَها ... ولو رام أسبابَ السَّماءِ بِسُلَّمِ

وقال آخر:

تَجنَّيتِ لي ذنبًا وما إنْ جَنَيْتُه ... لِتتَّخذي عذْرًا إلى الهَجر سُلَّما(٢)

وقال ابن مُقبِل في الجمع:

لا تُحْرِزُ المرءَ أَحْجاءُ البلاد ولا ... تُبْنَى له في السَّماوات السَّلاليمُ(٣)

الأحجاء: النواحي، مثل الأرجاء، واحدها حَجًا ورَجًا، مقصور. ويُروى: أعْناءُ البلاد، والأعْناء ـ أيضاً ـ الجوانب والنواحي، واحدها: عِنْو، بالكسر. وقال ابن الأعرابي: واحدها: عَنًا، مقصور. وجاءنا أعناءٌ من الناس، واحدهم: عِنْو، بالكسر، وهم قومٌ من قبائل شتَّى(٤).

﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ﴾ أي: عليه؛ كقوله تعالى: ﴿فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها؛ قاله الأخفش. وقال أبو عبيدة(٥): يستمعون به. وقال الزجّاج(٦): أي: ألهم كجبريل الذي يأتي النبيَّ ﷺ بالوحي!

قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ سَفَّه أحلامهم توبيخًا لهم وتقريعًا، أي: أتضيفون إلى الله البناتِ مع أَنَفَتكم منهن، ومَن كان عقلُه هكذا فلا يُستبعد منه إنكارُ البعث.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ أي: على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: فهم من

---

(١) ديوانه ص ٣٠، وسلف ١١/ ٨٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٣٨٥.

(٣) ديوان ابن مقبل ص ٢٧٣ برواية: لا تمنع المرء...، وهو برواية المصنف في الصحاح (حجا).

(٤) الصحاح (حجا)، (عنا).

(٥) في مجاز القرآن ٢/ ٢٣٣.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ٦٧.

المغرم الذي تطلبهم به مُثْقَلون، مُجْهَدون لما كلَّفتهم به.

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: يكتبون للناس ما أرادوه من علم الغيوب. وقيل: أي: أم عندهم علمُ ما غاب عن الناس حتى علموا أنَّ ما أخبرهم به الرسول ﷺ من أمر القيامة والجنة والنار والبعث باطل. وقال قتادة: لمَّا قالوا: نتربَّص به رَيْبَ المَنُون، قال الله تعالى: «أَمْ عندهُمُ الغَيْبُ» حتى عَلِموا متى يموت محمد، أو إلى ما يؤول إليه أمرُه. وقال ابن عباس: أم عندهم اللوحُ المحفوظ، فهم يكتبون ما فيه ويخبرون الناس بما فيه. وقال القُتَبي: يكتبون: يحكمون، والكتاب: الحكم؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] أي: حكم، وقولُه عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده لَأَحْكُمنَّ بينكم بكتاب الله» أي: بحكم الله(١).

قوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: مكرًا بك في دار النَّدْوة. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: الممكور بهم، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣] وذلك أنهم قُتلوا ببدر(٢). ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يخلق ويرزق ويمنع. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ نزَّه نفسَه أنْ يكونَ له شريك.

قال الخليل: كلُّ ما في سورة الطور مِن ذِكْر «أَمْ» فكلمة استفهام وليس بعطف(٣).

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ قال ذلك جوابًا لقولهم: «فأَسْقِط

---

(١) ذكر هذه الأقوال البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٢، والحديث أخرجه أحمد (١٧٠٣٨)، والبخاري (٢٣١٤ - ٢٣١٥)، ومسلم (١٦٩٧ - ١٦٩٨)، عن أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهما، وهو قطعة منه، وسلف ٦/ ١٤٥.

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ١٩٠، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٦.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٢.

علينا كِسَفًا مِن السَّماء» [الشعراء: ١٨٧] وقولِهم: «أَوْ تُسقِطَ السَّماءَ كما زعمْت علينا كِسَفًا» [الإسراء: ٩٢] فأَعْلَمَ أنه لو فعل ذلك لقالوا: «سحابٌ مَركوم» أي: بعضه فوق بعض، سقط علينا وليس سماء؛ وهذا فِعْلُ المعاند أو فعل مَن استولى عليه التقليد، وكان في المشركين القسمان[١].

والكِسْف جمع كِسْفة، وهي القطعة من الشيء؛ يقال: أعطني كِسْفة من ثوبك، ويقال في جمعها أيضًا: كِسَف. ويقال: الكِسْف والكِسْفة واحد. وقال الأخفش: مَن قرأ: «كِسْفاً» جعله واحدًا، ومَن قرأ: «كِسَفاً» جعله جمعاً[٢]. وقد تقدَّم القولُ في هذا في «سبحان» وغيرِها، والحمدُ لله[٣].

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بآية السيف[٤]. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يَصْعَقُونَ﴾ بفتح الياء قراءةُ العامّة، وقرأ ابن عامر وعاصمٌ بضمِّها[٥]. قال الفرَّاء[٦]: هما لغتان: صَعِق وصُعِق، مثل: سَعِد وسُعِد.

قال قتادة: يوم يموتون[٧]. وقيل: هو يومُ بدر. وقيل: يوم النفخة الأولى. وقيل: يوم القيامة يأتيهم فيه من العذاب ما يُزيل عقولهم. وقيل: «يُصْعَقُون» بضم الياء، مِن: أصعقه الله.

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير غريب القرآن ص ٤٢٦، وتفسير الطبري ٢١/ ٦٠١، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٢، والكشاف ٤/ ٢٩.

(٢) الصحاح (كسف). وقد اتفق العشرة في هذا الموضع على إسكان السين.

(٣) ١٣/ ١٧٥.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ١٩٣. قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٩: ذكر المفسرون أن هذه الآية منسوخة بآية السيف، ولا يصح، لأن معنى الآية الوعيد.

(٥) السبعة ص ٦١٣، والتيسير ص ٢٠٤.

(٦) في معاني القرآن ٣/ ٩٤.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٣٨٦، والأقوال الآتية فيه وفي الكشاف ٤/ ٢٦، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤، وزاد المسير ٨/ ٥٩.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: ما كادوا به النبيَّ ﷺ في الدنيا. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ من الله. و«يَوْمَ» منصوبٌ على البدل مِن «يومَهُم الَّذي فيه يُصْعَقون»[(١)].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: كفروا ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ قيل: قبل موتهم. ابن زيد: مصائب الدنيا من الأوجاع والأسقام والبلايا، وذهابِ الأموال والأولاد. مجاهد: هو الجوع والجَهْد سبعَ سنين. ابن عباس: هو القتل. وعنه: عذاب القبر. وقاله البَرَاء بنُ عازِب وعليٌّ ﷺ. فـ «دُونَ» بمعنى: غير. وقيل: عذابًا أخفَّ من عذاب الآخرة[(٢)]. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ العذاب نازلٌ بهم. وقيل: «ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمون» ما يصيرون إليه.

قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

فيه مسألتان:

الأولى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ قيل: لقضاء ربِّك فيما حمَّلك مِن رسالته. وقيل: لبلائه فيما ابتلاك به مِن قومك[(٣)]؛ ثم نُسخ بآية السيف[(٤)].

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأًى ومنظرٍ منَّا؛ نرى ونسمع ما

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣ .

(٢) هذه الأقوال في تفسير الطبري ٢١/ ٦٠٣ - ٦٠٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٣٨٦ ، والوسيط للواحدي ٤/ ١٩١ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ ، والكشاف ٤/ ٢٦ ، وتفسير الرازي ٢٨/ ٢٧٣ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ .

(٤) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٦٠ : وذكر المفسرون أن معنى الصبر نسخ بآية السيف ، ولا يصح؛ لأنه لا تضاد .

تقول وتفعل. وقيل: بحيث نراك ونحفظك ونحوطك ونَحرُسك ونرعاك. والمعنى واحد. ومنه قولُه تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه:٣٩] أي: بحفظي وحراستي[١]، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ . وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ اختُلف في تأويل قولِه: «حِينَ تَقُومُ»؛ فقال عوف بن مالك[٣] وابن مسعود وعطاء وسعيد بن جبير وسفيان الثوري[٤]: يسبِّح الله حين يقوم من مجلسه؛ فيقول: سبحان الله وبحمده، أو: سبحانك اللهم وبحمدك؛ فإن كان المجلس خيرًا ازددت ثناءً حسنًا، وإن كان غيرَ ذلك كان كفارةً له؛ ودليل هذا التأويلِ ما خرَّجه الترمذيُّ[٥] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن جلس في مجلس فكَثُر فيه لَغَطُه، فقال قبل أن يقوم في مجلسه: سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلَّا غُفِر له ما كان في مجلسه ذلك» قال: حديث حسن غريب صحيح. وفيه[٦] عن ابن عمر قال: كنَّا نَعُدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مئةَ مرَّةٍ من قبل أن يقوم: «ربِّ اغفر لي وتب عليّ، إنك أنت التوَّاب الغفور» قال حديث حسن صحيح غريب.

(١) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ ، وينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٨٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ ، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ٦٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٢٦٣ .

(٢) ١٤/ ٥٨ - ٥٩ .

(٣) في (د) و(م) : عون بن مالك، وهو خطأ، والأثر أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٥ - ٦٠٦ عن عوف بن مالك أبي الأحوص .

(٤) بعدها في النسخ عدا (ف) : وأبو الأحوص ، وهو عوف بن مالك السالف . وقول ابن مسعود في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٩١ ، وقول عطاء وسعيد بن جبير في تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .

(٥) في سننه (٣٤٣٣) ، وهو عند أحمد (١٠٤١٥)، وسلف ص٤٥٤ من هذا الجزء.

(٦) برقم (٣٤٣٤) ، وهو عند أحمد (٤٧٢٦) .

وقال محمد بن كعب والضحَّاك والربيع[١]: المعنى: حين تقوم إلى الصلاة. قال الضحَّاك يقول: الله أكبر كبيرًا، والحمد لله كثيرًا، وسبحان الله بكرةً وأصيلًا[٢].

قال الكيا الطبري[٣]: وهذا فيه بُعد؛ فإنَّ قوله: «حينَ تقوم» لا يدلُّ على التسبيح بعد التكبير، فإنَّ التكبير هو الذي يكون بعد القيام، والتسبيح يكون وراءَ ذلك، فدلَّ أنَّ المراد به: حين تقوم من كل مكان، كما قال ابن مسعود ﷺ.

وقال أبو الجوزاء وحسَّان بن عطية: المعنى: حين تقوم من منامك. قال حسان: ليكون مفتتحًا لعمله بذكر الله[٤].

وقال الكلبي: واذكر الله باللسان حين تقوم من فراشك إلى أن تدخل الصلاة[٥]. وهي صلاة الفجر. وفي هذا رواياتٌ مختلفات صِحَاح؛ منها حديث عُبادةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «مَن تَعارَّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد[٦] لله وسبحان الله [ولا إله إلا الله] والله أكبر، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا، استجيب له، فإنْ توضَّأ وصلَّى، قُبلت صلاته» خرَّجه البخاري[٧]. تعارَّ الرجل من الليل: إذا هبَّ من نومه مع صوت؛ ومنه: عَارَّ الظَّلِيمُ يَعارُّ عِرَارًا، وهو صوته؛ وبعضهم يقول: عَرَّ الظَّلِيمُ يَعِرُّ عِرَارًا، كما قالوا: زَمَر النَّعامُ يَزْمِرُ زِمَارًا[٨].

وعن ابن عباس: أنَّ رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل:

(١) ذكر قول الضحاك والربيع البغوي في تفسيره ٤/ ٢٤٣ .
(٢) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٢٤٩ .
(٣) في أحكام القرآن ٤/ ٣٩١ .
(٤) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧ عن حسان بن عطية.
(٥) تفسير البغوي ٤/ ٢٤٣ .
(٦) المثبت من (ز) و(ظ)، وفي غيرهما: والحمد.
(٧) في صحيحه (١١٥٤) وما بين حاصرتين منه. وسلف ص٤٦٢ من هذا الجزء.
(٨) الصحاح (عرر) .

«اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومَن فيهنّ، ولك الحمد، أنت قَيُّوم السماوات والأرض ومن فيهنّ، ولك الحمد، أنت ربُّ السماوات والأرض ومن فيهنّ، أنت الحقّ، ووعدك الحقّ، وقولك الحقّ، ولقاؤك الحقّ، والجنة حقّ، والنار حقّ، والساعة حقّ، والنبيُّون حقّ، ومحمدٌ حقّ. اللهم لك أسلمت، وعليك توكلت، وبك آمنت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدَّمت وأخَّرت، وأسررت وأعلنت، أنت المقدِّم، وأنت المؤخِّر، لا إله إلا أنت، ولا إله غيرك». متفق عليه[١].

وعن ابن عباس أيضًا: أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا استيقظ من الليل، مسح النومَ عن وجهه؛ ثم قرأ العشرَ الآياتِ الأواخر من سورة آل عمران[٢].

وقال زيد بن أسلم: المعنى: حين تقوم من نوم القائلة لصلاة الظهر[٣]. قال ابن العربي[٤]: أمَّا نوم القائلة فليس فيه أثر، وهو ملحَق بنوم الليل.

وقال الضحَّاك: إنه التسبيح في الصلاة إذا قام إليها[٥]. الماوردي[٦]: وفي هذا التسبيح قولان: أحدهما: وهو قوله: سبحان ربي العظيم؛ في الركوع، وسبحان ربي الأعلى؛ في السجود. الثاني: أنه التوجُّه في الصلاة، يقول: سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جَدُّك، ولا إله غيرك.

قال ابن العربي[٧]: مَن قال: إنه التسبيح للصلاة، فهذا أفضله، والآثار في ذلك

---

(١) صحيح البخاري (١١٢٠)، وصحيح مسلم (٧٦٩)، وسلف تخريجه ١٠/ ٤٩٢.

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٧٢)، والبخاري (١٨٣)، ومسلم (٧٦٣): (١٨٢) بنحوه مطولاً.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

(٥) أخرجه الطبري ٢١/ ٦٠٦ بنحوه.

(٦) في النكت والعيون ٥/ ٣٨٧.

(٧) في أحكام القرآن ٤/ ١٧٢١.

كثيرة، أعظمُها ما ثبت عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ عن النبيِّ ﷺ: أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: «وجَّهت وجهيَ» الحديث. وقد ذكرناه وغيرَه في آخر سورة الأنعام[١].

وفي البخاريِّ[٢] عن أبي بكر الصدِّيق ﷺ أنه قال: قلت: يا رسول الله، عَلِّمني دعاءً أدعو به في صلاتي؛ فقال: «قل: اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوبَ إلا أنت، فاغفر لي مغفرَةً مِن عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ تقدَّم في «ق» مستوفًى عند قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية: ٤٠][٣].

وأما «إِدبارَ النُّجوم» فقال عليٌّ وابن عباس وجابرٌ وأنس: يعني ركعتي الفجر. فحمل بعضُ العلماء الآيةَ على هذا القول على الندب، وجَعَلَها منسوخةً بالصلوات الخمس.

وعن الضحَّاك وابنِ زيد: أنَّ قوله: «وإِدبارَ النُّجوم» يريد به صلاة الصبح، وهو اختيار الطبريّ[٤].

وعن ابن عباس: أنه التسبيح في أدبار[٥] الصلوات.

وبكسر الهمزة في «إِدبارَ النُّجوم» قرأ السبعةُ، على المصدر حسَب ما بيَّنَّاه في «ق». وقرأ سالم بن أبي الجعد ومحمد بن السَّمَيْفَع: «وَأدبارَ» بالفتح[٦]، ومثلُه روي عن يعقوب[٧] وسلام وأيوب؛ وهو جمع دُبْر ودُبُر. ودُبْر الأمر ودُبُره: آخره.

---

(١) ٩/ ١٤٠ ، والحديث أخرجه أحمد (٧٢٩) ، ومسلم (٧٧١) .

(٢) برقم (٨٣٤) ، وهو عند أحمد (٨) ، ومسلم (٢٧٠٥) .

(٣) ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٤) في تفسيره ٢١/ ٦٠٩ ، وفيه الآثار السالفة عدا قول جابر وأنس رضي الله عنهما .

(٥) في (م) : آخر ، والأثر ذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٣٨٨ .

(٦) المحتسب ٢/ ٢٩٢، والمحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ عن سالم.

(٧) ذكرها عنه ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ١٩٤ ، والمشهور عنه كالعامة .

وروى الترمذيُّ[١] من حديث محمد بن فضيل، عن رِشْدِين بن كُرَيب، عن أبيه، عن ابن عباس، عن النبيِّ ﷺ قال: «إدبارُ النجوم الركعتان قبل الفجر، وإدبار السجود الركعتان بعد المغرب». قال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعًا إلّا من هذا الوجه، من حديث محمد بنِ فُضيل، عن رِشْدِين بن كُريب. وسألت محمد بن إسماعيل، عن محمد بن فُضيل، ورِشْدين بن كُريب: أيُّهما أوثق؟ فقال: ما أقرَبَهما، ومحمدٌ عندي أرجح. قال: وسألت عبد الله بنَ عبد الرحمن[٢] عن هذا، فقال: ما أقربَهما؛ ورِشْدِين بن كُريب أرجحهما عندي. قال الترمذي: والقول عندي ما قال أبو محمد، ورِشْدين بن كُريب أرجح من محمد وأقدم، وقد أدرك رِشْدِينُ ابنَ عباس ورآه.

وفي صحيح مسلم[٣] عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم يكن النبيُّ ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ معاهدةً منه على ركعتين قبل الصبح. وعنها[٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها».

تم تفسير سورة والطور، والحمد لله.

تم الجزء التاسع عشر من تفسير القرطبي
ويليه الجزء العشرون، ويبدأ بتفسير سورة النجم

---

(١) في سننه (٣٢٧٥)، وسلف بنحوه ص٤٦٢ من هذا الجزء.

(٢) هو أبو محمد الدارمي.

(٣) برقم (٧٢٤): (٩٤)، وهو عند أحمد (٢٤١٦٧)، والبخاري (١١٦٩).

(٤) برقم (٧٢٥)، وهو عند أحمد (٢٤٢٤١) و(٢٦٢٨٦).

فهرس الجزء التاسع عشر